



مكتبة سر من قرأ

أجنحة

التنيد

جبل

تشبه تزيه جيان

ترجمة: د. أحمد ظريف

رواية

أدب هيني حديث



المحرقة

أجنحة جبل التنين

تشيه تزيه جيان

لزنسي تشرين 23

لزنسي غزة والشهداء

انضم ل مكتبة .. اصحاح الكود

telegram @soramnqraa



عنوان الكتاب: أجنحة جبل التنين 群山之巔

المؤلفة: تشيه تزيه جيان 迟子建

ترجمة: د. أحمد ظريف

تحرير: محمد خيرى

مراجعة لغوية: محمود شرف

إخراج داخلي: رشا عبدالله



المحررة

174 شارع التحرير - ميدان التحرير - القاهرة

رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

www.baytelhekma.com

ت، ف: - 002 02 28432157



رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: 2022 / 21436

الترقيم الدولي: 5-928-313-977-978

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لمركز المحروسة وبيت الحكمة

2022

This Arabic edition published in 2022

By Bayt Alhekma Cultural Group & Mahrousa center for publishing,  
information and press services

群山之巔

Copyright© Chi Zijian

All rights reserved

مكتبة  
t.me/soramnqraa

أجنحة جبل التنين  
تشيه تزيه جيان  
ترجمة  
د. أحمد ظريف

الطبعة الأولى 2022



الحروقة

مكتبة  
t.me/soramnqraa

22 11 23



مركز المكتبة والنشر  
بمركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، القاهرة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

تشيه تزيه جيان، 1964 - .....

أجنحة جبل التنين/ تشيه تزيه جيان؛ ترجمة/ أحمد ظريف. - ط1  
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022

469 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 5-928-313-977-978

1 - القصص الصيني

أ- ظريف، أحمد (مترجم)

ب- العنوان

895.3

رقم الإيداع 2022/21436

## مسرد الشخصيات

نظراً لكثرة الشخصيات، وربما تشابه الأسماء بالنسبة للقارئ العربي في هذا العمل؛ نضع مُلحقاً بأسماء وصفات الشخصيات (فقط المتشابهة بمعظم الأحداث)؛ كي يستعين بها القارئ عند الحاجة.

1. شين يونغ كو، ولقبه "شين كاي ليو": والد جزّار قرية "لونغ تشان".
2. شين تشي زا: جزّار القرية.
3. وانغ شيو مان: زوجته.
4. شين شين لاي: ابنهم بالتبني.
5. أن يو شوين: مُحارب مُتقاعد.
6. مينغ تشينغ تشيه "المُطرّزة": زوجة "أن يو شوين".
7. أن بينغ: مُنفذ أحكام الإعدام وابن "أن يو شوين".
8. تشوان لينغ يان: زوجة "أن بينغ".

مكتبة

t.me/soramnqraa

9. أن شوي أر: صانعة شواهد القبور وابنة "أن بينغ".
10. أن تاي: شقيق "أن بينغ".
11. أن دا ينغ: جندي في لواء الثعالب البرية وابن "أن تاي".
12. تانغ هان تشينغ: عمدة قرية "لونغ تشان".
13. تشين ماي تشين: زوجة "تانغ هان تشينغ".
14. تانغ ماي: طبيبة القرية، وابنة "تانغ هان تشينغ".
15. تشين جين جو: مسؤول حكومي بمحافظة "تشينغشان" والأخ الأكبر لـ "تشين ماي تشين".
16. شو جين لينغ: زوجة "تشين جين جو".
17. تشين تشينغ باي: نائب مدير الأمن، وابن "تشين جين جو".
18. دان سيه: بائعة فطائر.
19. دان أر دونغ: كاتب وروائي، وزوج "دان سيه".
20. دان شيا: ابن "دان سيه".
21. لي سو تشين: خبيرة تجميل الموتى.
22. تشين يوان: صديقة طبيبة القرية "تانغ ماي".
23. لاو واي: بائع الدوفو.
24. المرأة المدخنة: مراقبة نظافة.
25. وانغ تشينغ شان: زوج "المرأة المدخنة".
26. ليو شياو هونغ: صاحبة "نزل الشمس الحمراء".
27. جيه شي باو: طبّاخ "نزل الشمس الحمراء".
28. جيه شياو باو: ابن "جيه شي باو".

29. لين دا هوا: خادمة "نزل الشمس الحمراء"، وابنة "المرأة المدخنة".
30. جين سو تشوو: صاحبة "معصرة الزيتون" بالقرية الثالثة.
31. لي لاي تشينغ: مُصارع كِباش من القرية الثالثة.
32. دا شو: ضابط من فرقة تنفيذ الأحكام.
33. شياو جيانغ: ضابط من فرقة تنفيذ الأحكام.
34. القائد وانغ: قائد "لواء الثعالب البرية" بجيش قرية "لونغ تشان".
35. ليو أي دي: مُعلّمة بمدرسة مركز "هوا لينغ".





# 1

## سَخِينُ قَطْعِ رُؤُوسِ الْخَيْلِ

عندما تلمح بهائم قرية لونغ تشان الجزائر "شين تشي زا" ترتعد فرائصها؛ فهي تعلم أن رؤيته بمثابة غروب لشمس يومها الأخير، رغم أن ما يحمله على خاصرته ليس سَكِينَ الذُّبْحِ، وإمَّا غليونه المُفَضَّل.

وحين تسطع الشمس، سواء صيفًا أم شتاءً، لا يستخدم "شين تشي زا" ثِقَابًا لإشعال الغليون؛ ففي أحد جيبَيْه يضع مرآةً مُحَدَّبَةً بحجم قبضة اليد، وفي الآخر حزمةً من لحاء شجر البتولا. وحين يرغب في التدخين يُخْرِجُ أَوَّلًا المرآةَ المُحَدَّبَةَ ويوجِّهها ناحية الشمس ليجمع أشعتها حتى تتكوَّن بؤرة احتراق، بعدها يُخْرِجُ قطعة رقيقة كالورقة من لحاء البتولا ويمدُّها ناحية المرآة حتى تشتعل، ثم يشعل بها غليونه. بالطبع لم يكن اقتباسُ النَّارِ بشكلٍ طبيعيٍّ كهذا أمرًا سهلًا؛ ففي أيام الصيف المُشمِسة كانت المرآة تُسْرِقُ النَّارَ له في لحظات، أمَّا في الشتاء حين تهبُّ الرياح الشمالية وتَخِفُّ حِدَّةُ الشمس، تأتي النار

ببطء. لكن "شين تشي زا" لم يكن يخشى البُطء، كان يقول بأن الغليون المشتعل بنيران الشمس يحمل عطرًا غير اعتيادي؛ لذا يستحقَّ عناء الانتظار. أمّا تلك المرأة التي يحملها فكانت كالخادم الأجير الذي يُلبّي نداءه متى أمره.

لم يكن الغليون والمرأة المُحدّبة هما فقط الأشياء المُفضّلة لدى "شين تشي زا"، بل كان هناك أيضًا مختلف الأشكال والألوان من سكاكين الجِزارة: إنها مصدر رزقه، فكيف له ألا يحبها؟ لكنَّ حُبّه هذا كان هو سبب كُره البهائم له، فقد عمل جزّارًا بقرية "لونغ تشان" لبضعة عشر عامًا؛ فأصبحت رائحة الدم على جسده أشبه بنهر موتٍ متدفّق خَفِيٍّ بالنسبة للبهائم التي تحمل حاسّة شمّ قوية، والرائحة مألوفة بالنسبة لها؛ لذا حين يذهب للنهر ترى الأبقار والخيول والخراف التي تأكل العُشب على ضِفْتِه تلوذ بالفرار رُعبًا بمجرد رؤيته، مهما كان العُشب وافرًا حولها ولذيذًا. وعندما يمشي في الطرقات والأزقة، تزحف الخنازير وترتعش خوفًا، بل إن منها من يبول على نفسه، أمّا كلاب الجيران فكانت حين تراه تنكمش رؤوسها وتنسحب بجوار أصحابها بحثًا عن الحماية، أو تلعق حذاه تذللًا وكأنها تبحث لنفسها عن حِصانةٍ أبدية من الموت. فلو كان "شين تشي زا" يرتدي أحذية جلدية، لَمَا احتاج لتلميعها.

ولا يأكل "شين تشي زا" الطيور الداجنة؛ فهو يرى أنها صغيرة بلا حولٍ ولا قوّة، ومن القسوة دَبْحُها أو تناولها؛ ولهذا السبب لم يكن الدجاج أو البط أو الإوزُ بقرية "لونغ تشان" يُعيّره أيّ اهتمام. كان الدجاج حين يراه، يظلُّ يتمشّي كعادته، والبط يجرؤ على السير بجواره وهو يهزُّ أكتافه، أمّا الإوزُ الأبيض الضخم الشبيه بالأميرات فحين يتناول طعامه ويكتشف أن طرف بنطال "شين تشي زا" عالِقٌ به بعضُ بقايا قطع اللحم، كان يمدُّ عنقه الطويل بلا خجل ليأكلها.

يملك "شين تشي زا" أدوات جِزَاة متكاملة، فهناك سكين لذب الخنازير، وسكين لذب الأبقار، وسكين لذب الخراف، وأخريات لتَشْفِيَةِ العظام، وحلق الصوف، وتقطيع الأبقار... وغيرهم، ما بين كبير وصغير، من مختلف الأشكال، لكنها تشترك جميعاً في كونها حادّة للغاية. أمّا هو فكان عاشقاً لها، ويسنّها بنفسه فوق حَجَر رمادي مستطيل يشبه محبرة عملاقة ويقبع في الزاوية الشمالية الغربية من المجرز. وحين يسنُّ السكاكين يضع المقعد الصغير ذا الأرجل المربّعة فوق حجر السنّ ويمتطيه، مادّاً رجليه عبره، كمن يروّض حصاناً.

كل تلك السكاكين المصنوعة يدويّاً خرّجت من تحت يد الحدّاد "وانغ". ولا يزال حيّاً يرزق حتى يومنا هذا، إلا أن ورشة الحدادة خاصّته أُغلقت منذ زمن بعيد، واختفت معها الجمعية التعاونية التي كانت في فترة نظام التموين، ودكّان الغلال، ودكّان المنجّد، وصانع القدور والأواني. كل تلك الحوانيت كانت من علامات قرية "لونغ تشان" قبل ثلاثين عاماً.

"تحتاج سكاكين الجزار هي الأخرى للأكل والشرب والنوم أيضاً"، تلك من الأقوال المأثورة لـ "شين تشي زا". فما الذي تأكله السكاكين؟ كان يرى أن طعامها المفضّل هو دهن البهائم؛ وكلّما استخدمها تصير أكثر جِدّةً، وتصدأ جوعاً عندما يتركها لفترة دون استخدام. وحين تنام السكاكين تحتاج للغطاء، مثلها مثل البشر، ويجب أن يكون غطاؤها خفيفاً عازلاً للرطوبة ويدخل لها الهواء، وإلا عجزت عن التنفّس؛ لذا كان يمسحها وينظّفها جيّداً بعد استخدامها، ثم يرضّها واحدةً تلو الأخرى فوق ألواح من خشب الصنوبر عند النافذة الجنوبية بالمجرز، ويغطّيها بقماش كتّان أبيض منقوع في الزيت يسمح لضوء القمر أن يتخلّله من خلال النافذة الجنوبية، فضوء القمر في رأيه هو أفضل قماشٍ لمسح السكاكين.

كان هناك سَكَّيْنان لم يقربهما "شين تشي زا" في السنوات الأخيرة، الأولى هي سَكَّيْن ذبح الخنازير ذات السَّبعة إنشآت، والأخرى سكين قطع رأس الحصان. كانت الخنازير التي يذبحها في البداية يبلغ وزنها مائة وثمانين جين<sup>(1)</sup>؛ فتعتبر سكين السَّبعة إنشآت أكثر من كافية، أما الآن فالأعلاف المُشْتَرَاه أصبحت تحتوي على كل أنواع الإضافات، وصار الخنزير يسمن حتى يبلغ وزنه مائتي جين على الأقل، فلم يَعُد من الممكن استخدام سَكَّيْن السَّبعة إنشآت لذبحها. وتكَبَّد "شين تشي زا" مبلغًا كبيرًا كي يصنع سَكَّيْن التُّسعة إنشآت، فاشترى صندوقًا كاملًا من خمر الدُّرة الرفيعة للحدَّاد "وانغ" كي يُقنَعَه بالعودة إلى ورشة الحدادة المهجورة ويشعل ناره ثانية، ورغم أنَّ قوى الحدَّاد "وانغ" ضَعُفَت مع تقلُّبات الأيام، وصار ينهج كالثور عندما ينفخ الكير، وذراعه المُمسِكة بالمطرقة لتهوي بها على حديد السكين المشتعل تهتز بلا هوادة، مثل شجرة وسط ريح عاتية. ما زالَ من حُسْن الحِظِّ يَمْتَلِك مهارته، ويمكنه تبريد السُّكَّيْن وتسخينه في الوقت المناسب؛ فخرج شكل السُّكَّيْن ممتازًا، وسُمكُه ملائمًا، ولامع مثل الثَّلج، واستدارة طرفه مُذهلة، ونصله حادًا بشكل لا مثيل له، لقد أضاف هذا السكين فصلًا جديدًا في أسطوره كحدَّاد. وما إن وصلت سكين ذبح الخنازير ذات التُّسعة إنشآت إلى يد "شين تشي زا" حتى أضاف لها مقبضًا مصنوعًا من خشب البلوط، وطلب من "المطرزة" أن تحفر له نقوشًا عليه.

حُفِرَت نقوش مقابض السكاكين الخشبية كي تمنع السُّكَّيْن من الانزلاق، وكلها خَرَجَت من تحت يد المَطْرزة؛ ولم تكن سَكَّيْن ذبح الخنازير ذات التسعة إنشآت استثناءً بالطبع. من أجل ذلك أهدى لها اثنين جين من لحم البقر المُجفَّف، ومعه كيس من الشاي. ورغم أنَّ لحم البقر المُجفَّف الذي يصنعه "شين تشي زا" طيِّب المذاق، كان

(1) وحدة وزن صينية تساوي نصف كيلوجرام - المترجم.

مشهور بصعوبة المضغ. لكن لا يستخفّ بكون المطرزة طاعنةً في السنّ؛ فأسنانها لا تزال كالمحارب الشجاع وقادرة على هذا التحدي. ولم يذهب سُدَى ما أكلته من لحمٍ مُجفّف وشاي، فنقّشت لسكّين ذبح الخنازير تلك نَسْرَيْن يفردان جناحيهما، ورَسَم ريش الأجنحة القوية نقوشًا دقيقةً غائرة على مقبض السكين، نقوش جميلة ومتينة. وبعد أن اكتملت صناعة السكين ذات التسعة إنشآت، لم يُعد هناك دَوْر لسكين السبعة إنشآت، لكنها ظلّت موضوعةً على المنضدة بجوار أخواتها من سكاكين الجزارة الأخرى.

أمّا السكين الأخرى العاطلة فكانت سكين "تشانما"<sup>(1)</sup>، لكنها لم تكن موجودة في المَجَزَر، بل مُعلّقةً على حائط بغرفة الاستقبال في منزل "شين تشي زا". وقال عنها الحدّاد إنها سكّينٌ حَرَبِيٌّ كان يستخدمه الفرسان والمُشاة، وهي سلاح جيّد لقتل البشر، لكنها ليست مناسبة لقتل الخيول؛ لذلك عندما طلب منه "شين تشي زا" أن يصنع له سكين "تشانما" رفض، قائلاً بأن هذا النوع من السكاكين مصيره سيئٌ، لكنه في النهاية عجز عن تجنّب إلحاحه، أو بالأحرى: عجز عن رفض هداياه من الخمر، التي توالى واحدهً تلو الأخرى؛ فصنّع له تلك السكين. كان شكلها مثل السيف، عرّضها شبرٌ، وطولها مترٌ تقريبًا، أمّا مقبضها المصنوع من خشب "المرّان" فنقوشه أشبه بمعجزات السماء: منها كالبرق وأخرى مُلوّنة. ومن أجل تجربة حدّة نصلها ذهب كُُلٌّ من "شين تشي زا" والحدّاد "وانغ" بالسكّين إلى الغابة، وضربا بها شجرة صفصاف أحمر ربيعيّ، وما إن هبّطت السكين على الشجرة حتى انكسرت وتمددت على أرض الغابة وتساقطت أوراقها كأضواء الغسق. صقل "شين تشي زا" تلك السكّين حتى صارت لامعةً كالثلج، وعلّقها على حائط غرفة الاستقبال، ومن يومها امتلك الحائط ضوءاً

(1) هي في الأساس سيف حربي قوي، كان يستخدمه الجنود قديمًا لقطع رأس الفارس مع رأس الحصان - المترجم

قمرٍ لم يَخْفُتْ أبداً. وفسَّر "شين تشي زا" هَوَسَه بتلك السُّكَّين قائلاً أنَّ كل سكاكين الجزارة التي لديه كلها مُلَطَّخة بالدماء، وهو يرغب في امتلاك سكين طاهرة نقية، وإلا فلن يهنأ له نومٌ.

تلك السكين التي لم تتلوَّث بالدماء من قبل لم تَقْتُلْ في بدايتها سوى الصفصاف الأحمر أو العشب الأخضر، وسالت على نصلها أنهارٌ من روائح النباتات العطرة، فصارت مثل زجاجة عطر مُعلَّقة في منزله. ولكن زوجته منَعَتَه من أخذها معه إلى الجبل منذ أن قال والده أنه رأى أفعى بيضاء هناك، مُتعلِّلةً بأن الأفاعي البيضاء هي جنِّيَّاتٌ صالحات، فلو جرحها سترسل الآلهة عقابها، وتعرِّض الأسرة للمصائب.

لم يكن "شين تشي زاي" يُحِبُّ أباه؛ ففي قرية "لونغ تشان" كان الناس يرون والده رجلاً مُتَشَبِّهاً بالحياة، يهاب الموت، وكثير الأكاذيب؛ لذا لم يكن يتمتَّع بالاحترام. لكن "شين تشي زا" كان يشفق على زوجته؛ فقد عانت كثيراً من أجل والدتها ومن أجله هو وأبيه، فلم تَرَ معه إلا الشقاء؛ لذلك كان ينصاع لها دائماً ولا يعاندها، والنتيجة أن سكين "تشانما" علَّقت عالياً في مكانها الحالي. وفي الليالي المُقْمِرة، حين ينهض ليلاً ويمرُّ بغرفة الاستقبال، ينظر إليها كثيراً، وحين يسري فوقها ضوء القمر تبدو كأنها تشتعل، وقد جرَّب من قبل توجيه غليونه نحوها، مُحاولاً إشعاله، لكن ضوء القمر أعلى السكين كان كفتاة راقصة لا تلعب بالنيران، ولا تُعيِّره أدنى اهتمام.

وهكذا لم تجرح سكين "تشانما" المدفونة تحت ثلوج نهر الزَّمن تلك الأفعى البيضاء التي حكى عنها "شين كاي ليو"، لكنها في فصل ذَوَّبان الجليد تَسَبَّبت في كارثة كبيرة.

هذا الأمر إذ قصصناه وَجَبَ البدء منذ خروج "شين شين لاي" من السجن، وهو الإبن المُتَبَنَى لـ "شين تشي زا"، ولو تحدَّثنا عن "شين شين لاي" فلا بُدَّ من الحديث عن التاريخ المُعقَّد لأسرة "شين".

"شين كاي ليو" والد "شين تشي زا"، اسمه في البطاقة وسجَّلات الإقامة هو "شين يونغ كو". وُلِدَ في عشرينات القرن الماضي، وأصوله ترجع إلى "شياوشان" بمقاطعة "تشيجيانغ"، ويبلغ من العمر تسعين عامًا حاليًا، إلا أن قَدَمَيْهِ لا زالتا تتمتَّعان بالصحة والنشاط، ففي الصيف يذهب لقطف الأعشاب الطيبة، وفي الشتاء يصنع الفحم، ويمكنه تناوُل رغيفان من "المانتو"<sup>(1)</sup> في الوجبة الواحدة، وهو الأكبر سِنًا في قرية "لونغ تشان". أمَّا عن تاريخه، فهناك روايتان، واحدة يرويها هو، والأخرى مختلفة متداوِّلة بين الناس. لقد شارك في شبابه مع الجيش الاتحادي لمقاومة اليابان "بدونغباي"، وهذا أمرٌ من المُفترَض أن يدعو للفخر، لكنه صار نقطة سوداء مُلازمة له طيلة حياته؛ فالشائع إنه هرب من الخدمة العسكرية، لكنه دائمًا يدافع عن نفسه، قائلًا إنه مُحارَبٌ ومظلوم. رغم ذلك يثق الجميع بما يُقال؛ لسبب بسيط، أنه في فترة تحرير "دونغباي" تزوَّج من امرأة يابانية، ولهذا السبب نبَّذَه الجميع، بمن فيهم ابنه "شين تشي زا". ولم يَعد أحد يناديه باسمه "شين يونغ كو"، بل صاروا ينادونه "شين كاي ليو"، وكلمة "كاي ليو" هي لهجة محلِّيَّة معناها: "الهارب".

لم يكن "شين تشي زا" يذكر الكثير عن أمِّه؛ فقد اختفت حين كان في السادسة. الانطباع الأعمق عنها أنها ذات وجه شديد البياض، ورقبة طويلة، وشعرٌ ذي كعكة عالية، وكانت في الصيف تحب الإمساك بشمسيَّة مطبوعة عليها زهور الأقحوان، وحين يتساقط الثلج

(1) المانتو هو نوع من الخبز الصيني يطهى على البخار- المترجم



في الشتاء كانت تحب التَّكْوُرُ بجانب الموقد، وترسم شيئاً ما على صفحاتٍ اعترها الاصفرار وهي تُدَنِّدِنِ بلحنٍ حزينٍ خافت.

الأم يابانية والأب جنديٌّ هارب، وهذا جعل "شين تشي زا" أضحوكةً من صِغَرِهِ، وجعل كراهية أبويِّه تنمو في قلبه. وعندما بلغ الشبابُ وبدأ البحث عن زوجةٍ كان شرطه الوحيد للخاطبة أن تكون الزوجة عاقراً؛ فلم يكن يرغب أن يستمرَّ ذلك الدَّمُ الملوَّثُ في التَّوَارُثِ.

بحثت الخاطبةُ حتى تكسَّرت قدمها، لكنها لم تجد أيَّ امرأةٍ لا ترغب في الإنجاب، لكن قصة "شين تشي زا" انتقلت من فم الخاطبة إلى كل القرى المحيطة؛ فأثنى عليه الجميعُ أنَّه رجلٌ بحق.

وعندما بلغ السادسة والعشرين، جاءت إلى بابه فتاةٌ في وقت الغروب تحمل بين يديها صرةً كبيرة.

تلك الفتاة كانت نحيفةً وطويلة، وتضفرُ شعرها ضفيرتين، ذات وجه طويل وحواجب خفيفة، وجفنين متناقلين وفتحتي أنف كبيرتين، وشفاه غليظة قرمزية، ويملاً الترابُ وجهها، وعيناها فقط كانتا نظيفتين، وتفوح من جسدها رائحة ملحٍ نفاذة. وما إن رأت "شين تشي زا" حتى قالت إن اسمها "وانغ شيو مان"، وأنها من قرية "تشانغ لين"، وتبلغ من العمر 32 عامًا، لم تتزوَّج بسبب فقر أسرتها، وقُبِح ملامحها، بالإضافة لكونها بلا عمل. وقد سمعت أنه يبحث عن فتاة لا تنجب، فذهبت من وراء ظهر أبويِّها وأجرت عمليةً ربطٍ للرحم في الوحدة الصحية، وما إن استعادت عافيتها ورأت في الروزنامة أن اليوم يومٌ جيِّدٌ والشمس ساطعة، حتى جاءته ساعيةً. فهَمَّ "شين تشي زا" سِرَّ تلك الرائحة المألحة التي تفوح منها، لقد جاءت سيراً على الأقدام؛ فكان مصدر الرائحة هو العَرَقُ الذي غمر قميصها؛ فالمسافة من قرية "تشانغ لين" حتى قرية "لونغ تشان" تستغرق نهاراً كاملاً سيراً على الأقدام.

لم تنتظر "وانغ شيو مان" منه مُوافقةً، بل وضعت الصرة من على عاتقها، وأمسكت ببعض الحطب وأشعلت النار. كان بالفناء شجرتا دردار، والوقت خريفًا؛ فتكومت الأوراق المتساقطة أكوامًا. لم تستخدم "وانغ شيو مان" لحاء الدردار لاشعال النيران، بل استخدمت الأوراق المتساقطة الذهبية، حيث قالت إن هذا يوفر اللحاء، وفي نفس الوقت ينظف الفناء. وما إن اشتعلت النيران في الموقد حتى سألت "شين تشي زا" ماذا يحب أن يأكل؟ لكنه لم ينطق، بل استدار ناحية المخزن وعاد بصحنَي دقيق، وقال: "الخبز المقلي بالبصل أو المكرونة، كلاهما جيّدان، فاطهي ما استطعتِ منهما". فارتدت "وانغ شيو مان" مريكةً المطبخ، وبدأت في عجن الدقيق، ثم وضعت لوح فرد العجين فوق سرير "الكانغ"<sup>(1)</sup> بالغرفة الداخلية، وأخذت عصا فرد المكرونة، واتخذت وضع التأهب للعمل، وبدأت في فرد المكرونة بتمرّس. وبينما هي تصنع المكرونة كانت ضفيرتها تراقصان فوق كتفيها بشكل يبعث على البهجة. كانت حلة المكرونة بالجساء تلك لذيذةً وشهيّةً للغاية؛ فقد أضافت لها خلاصة دهن الخنزير والملفوف الصيني، وهكذا جلسا القرفصاء أمام الموقد يلتهمانها بنهم. وبعد الانتهاء من تناول الطعام وغسل الأواني، كانت السماء قد أظلمت تمامًا. فقامت "وانغ شيو مان" وهي تتجشأ، وملأت طبقًا من الماء النظيف، ثم غسلت وجهها وأخرجت من صرة ملابسها ثوب نوم أحمر بلون الخوخ وارتدته، ثم سألت "شين تشي زا" بهرح، هل تقبل بمثل هذه العروس؟ عندها اندفعت دموع حارة إلى قلب "شين تشي زا"، ولم يجد الوقت لكي يومئ برأسه موافقًا، بل احتضن "وانغ شيو مان"، ورقد معها على سرير "الكانغ" الدافئ.

# مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) نوع من الأسرة يُصنع من الطين وتحتة موقد تُشعل فيه النار للتدفئة - المترجم.

عندما نهضا في صباح اليوم التالي، قالت له بعد أن اغتسلت وصفقت شعرها: "لقد حرّكت سِجِّينَكَ في جسدي ليلة أمس، من الآن فصاعداً - وحتى آخر عُمرِي - أنا ملكُ لك، متى سنذهب لبيتِي لكي نخبر والديّ، ولكي نأتي ببطاقة تسجيل الأسرة كي نُسجّل زواجنا ونعيش معاً في النور؟". وعلى الفور استجاب لها "شين تشي زا" الذي تذوّق حلاوة وجود امرأةٍ في حياته. فقالت له "الكُلُّ يتحدّث بأن أباك جُنديٌّ هارب، وأنتك تحتقره، لكن مهما كان؛ فهو طاعِنٌ في السَّن، ونحن صغارٌ، يجب أن أذهب إليه وأناديه "أبي"."

ورغم أن حديثها لم يُشعره بالسعادة، إلّا أنه اقتادها إلى الفناء الخلفيِّ، حيث أبيه.

عندما أخذها "شين تشي زا" ودخل بها إلى فناء أبيه، كان "شين كاي ليو" جالساً أمام الموقد يصنع حساء الدُّرة، فرفع رأسه ليرى ابنه قادماً ومعه امرأة، فأدرك قلبه إلى حدٍّ كبير ما يعنيه ذلك؛ ففي السنوات الأخيرة كان الطعام والأشياء الأخرى التي يُحضرها له "شين تشي زا" - فقط من أجل القيام بواجب رعايته - إمّا يَضَعُها أمام الباب، أو يلقِيها من خلف الباب إلى الفناء. حينها كان الكلب الذي يربّيه "شين كاي ليو" ما إن يسمع حركةً ما حتى يتقمّص دَوْرَ مُدبِّر المنزل، ويهرع إلى داخل الغرفة ليخبر سيِّده، مُنبِّهاً إيَّاه كي يذهب ويأخذ تلك الأشياء.

وما إن رأى "شين تشي زا" والده حتى قال - دون مُقدِّماتٍ، وبدون حتى أن يقول "أبي" - : "هذه الفتاة تُدعى "وانغ شيو مان"، وهي من قرية "تشانغ لين"، لقد أجرت عمليةً رَبطٍ رَجمٍ من أجلي، وواجبٌ عليّ أن أتزوَّجها، وجئتُ لأعلِّمَكَ بالأمر".

تطلَّعت "وانغ شيو مان" إلى حَمِيها ذي الجسد الناحل، والشَّعر الذي تَخَلَّله الكثيرُ من الشَّيب، والنظرات الباردة الخاوية، ونادته "أبي".

عندها حَكَ "شين كاي ليو" أنفه ولم يَرُدَّ عليها، فقط ذلك الكلب الأسود الرَّاقِد أمام نيران الموقد هو الذي هَبَّ واقِفًا وهزَّ ذيله لها وهو يُصدِر صوتًا خافِتًا. أمَّا "شين كاي ليو" فقد أطرق برأسه وانهمك في تقليب حساء الدُّرة بقوة، ثم أطلق تنهيدة، بعدها خبط قعر الحلَّة بالملعقة، ورفع رأسه ليتفحَّص "وانغ شيو مان"، وعندما رأى تلك الفتاة أشبهَ بعود حطبٍ جافٍّ، يبدو عليها علامات الكِبَر في السنِّ، وملامحها غير متناسقة، شعر قلبه بالاضطراب والحُزن من أجل ابنه، وبالتفكير في أنها لا تنجب أيضًا ارتعشت يده التي تحمل الملعقة. أمَّا "وانغ شيو مان" فلم تمْتَعِض من بروده نحوها، بل تقدَّمت بسرعة لتمسك الملعقة التي انزلقت من يدِ حميها المرتعشة، وحملتها هي لتبدو كسيِّدةٍ تريد أن تصبح ربَّةً مَنْزِل.

هنا أدرك "شين كاي ليو" أنه لا مجال لرفض زوجة الابن تلك؛ فاضطرَّ إلى تقبُّل الأمر على مضض، وأخرج - بوجهٍ عابسٍ - من الدُّرج ثلاثمائة يوان و"تذاكر صرف"<sup>(1)</sup> عشرين ياردة من القماش وناولها لـ "وانغ شيو مان" كي تُفصِّل لنفسها ثوبًا وتشتري ساعةً يد. تلك النقود قد ادَّخَرها من عمله في حرق الفحم في "ياوتشانغ".

نظرت "وانغ شيو مان" إلى وجه "شين تشي زا" المتجهِّم، فأدركت أنها لو أخذت تلك النقود لتحوَّل التَّجهُّم إلى لغمٍ ينفجر في وجهها؛ لذلك سارعت بالقول إنها قد فصلت ملابس الزفاف بالفعل، ولديها الشمس والقمر يعملان كعمل ساعتين وليس ساعةً واحدة؛ لذا فهي لا تحتاج لساعة يد، وصممت على رفض النقود وتذاكر القماش.

أثبتت الأحداث أن رفضها لتلك الأشياء كان قرارًا سليمًا، فما إن أخذها "شين تشي زا" وخرج بها من عند أبيه حتى قال لها: "احذري أن أقطع يدك لو أخذتِ نقوده وتذاكره".

(1) في فترة من الفترات كانت بعض السَّلَع تُصرف للمواطنين بأدونات صرف "تذاكر" - المترجم.

فابتلعت "وانغ شيو مان" لسانها فزَعًا، ووضعت يديها داخل أكمامها.

هنا أضاف "شين تشي زا" أن الشمس والقمر يمكن أن يعمل عمل الساعة، والبهاائم والطيور كذلك؛ فالذيك يصيح في الفجر، والحمار ينهق في الظهر، والأبقار والخراف تخور وتثغو في المساء للعودة إلى الحظائر، ستعرف أي وقت من اليوم الآن بالاستماع لسكنااتهم وحركاتهم.

سارعت "وانغ شيو مان" بهز رأسها مؤمنة على كلامه، قائلة: "إن الشمس والقمر هما ساعة السماء، والحيوانات هي ساعة الأرض، سأذكر هذا".

لم تدرك "وانغ شيو مان" أن "شين تشي زا" نفسه منضبط مثل الساعة إلا بعد أن عاشت أيامها معه؛ فهو ينهض من الفراش في الساعة السادسة صباحًا، ولا يغسل وجهه بعد الاستيقاظ، بل يجلس أولًا جوار النافذة ليدخن غليونه. ذلك التبغ الأصفر كان يزرعه بنفسه، ويخلطه ببودرة شقائق النعمان؛ فيصير عطر الرائحة، وفي صباح الشتاء، تكون السماء لا تزال مظلمة في الساعة السادسة؛ لذا كانت تستنشق تلك الرائحة الفريدة دون أن ترى مصدرها، كانت تعجز عن رؤية وجهه بوضوح؛ فاعتقدت أكثر من مرة أن تلك الرائحة غير الطبيعية تأتي من السماء. وكان "شين تشي زا" يتناول طعام الغداء في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ما إن تأتي تلك الساعة حتى تُصدر معدته أصواتًا مثل الساعة المضبوطة، وبعد يوم عمل كامل كان يحب أن ينقع قدميه في ماء ساخن عند تمام الساعة التاسعة مساءً؛ لذلك كانت "وانغ شيو مان" على علم تام بالأوقات الثلاثة المضبوطة: لتدخينه الغليون، وتناوله لطعام الغداء، ونقعه لقدميه كل يوم.

بعد الزواج ظلَّ "شين تشي زا" يعمل جزَّارًا، ويزرع التَّبَغَ الأصفر لبيعه، أما "وانغ شيو مان" فالتحقت بفريق الإنتاج لتكسب بعضًا من قسائم السَّلْع<sup>(1)</sup>. ونظرًا لمرض أبويها، وأخواتها السَّتَّة الأصغر منها؛ كانت ترسل كلَّ النقود التي تأخذها كمكافأة في نهاية العام إلى أُسرتها. بل إن تلك النقود لم تكن كافية، ولكن "شين تشي زا" كان يزيد عليها من ماله. وكلُّما يتَوَقَّر لديها بعض المال تعود إلى بيت أبويها مُحمَّلةً بالأكياس واللفائف، تحمل الجيوب على كتفيها، ولحمَّ الخنزير والسُّكَّر أو الخضار المجفَّف في يدها، ولكنها عند العودة تُصيِّح مثل المسافر الذي تعرَّض للسَّطو من قُطَاع الطُّرُق، فتراها خاليةً الوفاض، مُتعبَةً الوجه. كانت تمنح أبويها المال، والجهد أيضًا، ففي كل مرَّة تعود لمنزلهما كانت تعمل بجِدِّ كالثور في الساقية.

لم يتدَمَّر "شين تشي زا" إطلاقًا من اهتمام "وانغ شيو مان" ببيت أبويها؛ فهو مدرك أن مساندته لها سيزيد من حُبِّها له، لكنه كان نادرًا ما يصحبها إلى قرية "تشانغ لين"، بالطبع كانت هناك بضع مرَّات، لكنها لم تُكُن مرَّاتٍ سعيدةً؛ ففي كل مرة يراه حمواه كانا كأنهما رأيًا جلدًا؛ فيعتري البرود ملامحهما، وتمتزج فيها مشاعر الكراهية والخوف، لقد أضمرَّا في قلوبهما عمليَّة التعقيم التي أجرتها ابنتهما من أجله، وكانا دائمًا ما يهاجمانه بحديث مُبطن حول هذا الأمر.

في أول سنَّتي زواجٍ لم تصرِّح "وانغ شيو مان" بالكلمات، لكنَّ عينيها باحتًا بحديثٍ طويلٍ حول الأطفال، فكلُّما صادقت طفلًا في الطرقات احتضنته، وكانت النساء حين يَلدن يربطن شريطًا أحمر فوق باب المنزل، وحين تمرُّ على تلك المنازل تتسمَّر خطواتها، هذه الشرائط الحمراء كانت بلا شكَّ هي شرارات الحياة التي تجعلها تسرح بخيالها، وأخيرًا - وفي أحد الأيام - اقترحت على زوجها "هل يمكن أن

(1) نظام اشتراكي يُوزَع على المشاركين بالعمل قسائم لتبديلها بالسَّلْع الأساسية الاستهلاكية - المترجم.

نتبئى طفلًا؟"، وإلا فلن يكون هناك مَنْ يُكْرِم ذكراهما عند حيلهما عن الدنيا ذات يوم. ففكر "شين تشي زا" في كلام زوجته حتى منتصف الليل، ثم أيقظها قائلاً إن وجود طفل بالمنزل أمرٌ جيّد على كل حال؛ فلو شعر بدغدغةٍ في ظهره لوجدَ مَنْ يحكُّه له "لنتبئى واحدًا، لكن بشرط: ألا نتبئى طفلًا قريبًا؛ تجنّبًا لأن يعرف الحقيقة حين يكبر فيعود لوالديه الحقيقيين ويذهب مجهودنا هباءً". كان كلامه أشبه بحلمٍ بالنسبة لـ "وانغ شيو مان"، فنَهَضت وأشعلت شمعةً أضاءت بها وجهه وقالت: "هل أنتَ مَنْ قال هذا الكلامَ حالًا؟"، فردَّ عليها: "وهل تعتقدين أن عفريتًا هو من يتحدث؟"، فأطفت "وانغ شيو مان" الشمعة، وخلعت ملابسها حتى آخر قطعة، واندست تحت غطاء "شين تشي زا" لتمنحه أجمل ردٍّ جميلٍ يمكن لامرأة أن تعطيه لرجُل.

وهكذا جاء إلى منزلهما "شين شين لاي".

من أين أتى بالتحديد؟ حتى "شين تشي زا" نفسه لا يعلم. ففي تلك السنوات داومت "وانغ شيو مان" على الارتحال بعيدًا بحثًا عن طفلٍ جيّد للتبئى. وفي النهاية عادت وتراب السفر يُغطيها حاملَةً بين يديها صبيًا صغيرًا أشبه بقطّة صغيرة ضعيفة. لم يتعدّ وزنه سبعة جين عندما اكتمل شهره الأوّل. وأخبرت "شين تشي زا" أن هذا الشيء الصغير ابنٌ لمثقف<sup>(1)</sup> من شنغهاي، أنجبته من رجلٍ محليٍّ، وتخلّت عنه حين عادت للمدينة. أمّا بالنسبة لـ "مَنْ يكون والده؟"، فهي لا تعرف. فقط أخبرته أن والدًا هذا الطفل لن يعترفًا به إلى الأبد، ولن تحدث أي مشاكل حول نَسبه، حينها فقط ارتاح قلب "شين تشي زا".

(1) في فترة الثورة الثقافية الكبرى أُجبر الكثير من المثقّفين على الخروج من المدن إلى القرى والاشتغال بأعمال مختلفة - المترجم.

كانا يُعَامِلان "شين شين لاي" كما لو كان من صُلْبِهِمَا، فكان حُبُّهُمَا له مُنْقَطِعَ النَّظِيرِ، واختَصَّاه مِمَّا يَمْلِكَان بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ والملبَسِ. وكانت "وانغ شيو مان" تدلله كثيراً، فلا يغادر حَضَنَهَا، لدرجة أن صار عمره سنتين ولم يتعلَّم المشي. لذلك كان ضعيفَ الجسد، وكثيرَ المرض منذ طفولته؛ فتوجَّب عليه الذهاب للوحدة الصحية لأخذ الحقن عدَّة مرَّات سنويًّا، وكان أنحفَّ من أقرانه بكثير، لدرجة أن "وانغ شيو مان" جعلته يترك الدراسة ثلاث مرَّات من قبل بسبب تنمُّر أقرانه الدائم له، والنتيجة أن الأطفال الآخرين أنهوا الدراسة الابتدائية في ست سنوات، بينما أنهاها هو في تسع"

علم "شين شين لاي" أنه ليس من صُلْبِ والدَيْهِ من شتائم زميلٍ له أثناء الشُّجَار. ومن وقتها صار متوحِّدًا غريبَ الأطوار. وحين طلب منه "شين تشي زا" أن يحكَّ له ظَهْرَهُ، حكَّه بقوةٍ حتى سالت منه الدماء، واصطكَّت أسنانه من شدَّة الألم، ولم يجرؤ أن يطلب منه هذا الأمرَ المُمتِعَ ثانيةً، وعندما أرسلته "وانغ شيو مان" لجلب بعض صوص فول الصُّويا، اشتراه وسكَّبه في البئر، واختلط بمائه، حتى صار كُلُّ مَنْ يشرب منه يسبُّ أسرة "شين" أنَّهُم رَبَّوْا ذلك اللَّقِيط. وحين رآه مُربيَّاه بهذا الشكل، لم يُكلِّفاه بأيِّ أمرٍ بعدها. أمَّا هو فعندما حصل على الابتدائية وهو في سنِّ السادسة عشرة ألقى بالكتب والأقلام في المقابر، قائلاً بأن العفاريث وحدها هي مَنْ قد ترغب في الدراسة؛ وهكذا ودَّع المدرسة إلى الأبد.

تحوَّل "شين شين لاي" إلى أكثر الأفراد خَوَاءً في قرية "لونغ تشان"، فلم يكن يفعل شيئًا سوى اللعب وتناول الطعام، حتى قال "شين تشي زا" بيأس لـ "وانغ شيو مان": "انظري إلى ما صار عليه! إنه حتى لن يكسر إناءً في جنازتنا<sup>(1)</sup> عند رحيلنا عن هذا العالم"، حينها

(1) عادة صينية قديمة، يكسر فيها الابن الأكبر إناءً فخَّارياً في جنازة الأب أو الأم- المترجم.



شعرت "وانغ شيو مان" بِالْمِ تعجز عن التعبير عنه بالكلام، فلم يَسَعها سوى دَرْفِ الدُّموع، قائلة إنها مَدِينَةٌ له في حياة سابقة؛ فهذا هو التفسير الوحيد الذي يجعل من كبار السَّنِّ عبيدًا للصغار. لقد كان "شين شين لاي" لا يفعل شيئًا طوال اليوم، إلا أنه دائم الغضب، فكان يتذمَّر من "شين تشي زا" لِعَمَلِهِ جَزَازًا؛ ممَّا جعل المنزل يحمل عبْقًا سيئًا، كذلك كان ينتقد طعام "وانغ شيو مان" أنه مالِحٌ حتى كاد أن يلحق الأذى بحنجرته ويصير أَبْگَمَ، وكان يتذمَّر أنه لم يتغذَّ جيّدًا في صِغَرِهِ ممَّا تسبب في قصر قامته، لكنه في الحقيقة تجاوز 170 سم؛ ممَّا يجعله متوسِّطَ الطول بين الرجال. كما كان يتذمَّر من قُبْح ملامحه؛ فهو ذو وجه مستدير كبير، وعينين صغيرتين كأنهما لم تَنَمُوا، وفمٍ قبيح مثل فم الخنزير، وأنف معوجٍ مثل إطار باب لم تَمَسَّهُ يدُ الإصلاح منذ سنوات طويلة، وكان حين يبدأ في التذمُّر بهذا الشكل، يردُّ عليه "شين تشي زا" بلا حَرَجٍ، قائلاً: "لا تَلْمِني على شكلك القبيح، بل ابحث عن والدَيْكَ وحاسِبْهُمَا؛ فهما مَن بَدَّرَا بذور نبتة السُّوء هذه".

لم يكن "شين شين لاي" غير راغب في البحث عن والديه الحقيقيَّين، ولكنهما بالنسبة له كانا أشبه بقوس قزح الذي يفصله عنه عالمٌ كامل، لا أثر لهما. لم تخبره "وانغ شيو مان" سوى أن أمَّهُ في شنغهاي، ولا تعلم شيئًا غير ذلك. كان موضوع تَبْنِي "وانغ شيو مان" له من وجهة نظره يعادل أَخَذَ طفلٍ مولود في مهدٍ ذَهَبِيٍّ وإلقاءه في مهدٍ مصنوع من العشب الجاف، لقد وَقَرَ في قلبه أن أباه الحقيقي كان بالتأكيد شخصًا ناجحًا، إن لم يَكُنْ موظفًا كبيرًا فهو تاجر. أمَّا أمُّه الحقيقية فهي بالتأكيد أرستقراطية، مثل السيدات الأرستقراطيات بشنغهاي. أمَّا هو، ذلك الأمير الصغير الذي تخَلَّى عنه، وكان من المفترض أن يعيش حياة رَغَدَةً ينعم فيها بأطيب الملابس والمأكُل؛ لذا كان يصيح عندما يغضب بأنه سيذهب لشنغهاي بحثًا عن أهله،

ويستجوب "وانغ شيو مان" حول مكان وجود أمّه الحقيقية، وحين تعجز عن إخباره يُفرغ غضبه على أدوات الطعام، فيلقي بالأطباق، ويحطّم أواني الطهي، ويكسر عيدان الأكل، ليصير كشيطانٍ في المطبخ. وقد أحزن هذا قلبَ "شين تشي زا" ونصح "وانغ شيو مان" أن تُخبره بكل ما تعرفه حتى يعود هذا الحقير من حيث أتى، إلّا أن "وانغ شيو مان" قالت إنها حقًا لا تعرف مَنْ هما أبواه.

كان "شين شين لاي" يحتقر قرية "لونغ تشان"، فكان دائمَ القولِ إنها أصغر من فتحة مؤخّرة الدجاجة، ولا يجب أن تبقى على ظهر الكرة الأرضية. وفي سنِّ التاسعة عشرة غادَرَ القرية بحثًا عن الرزق خارجها، قائلًا إنه ذاهبٌ للاشتغال بعمل كبير، إلّا أن أهل القرية لم يَرَوْا أيَّ إنجازات له بعد التغيُّرات التي طرأت عليه عندما يعود إلى القرية في كل مرة؛ فملا بسه ظلّت كما هي رخيصة، وساعته الذهبية مُقلّدة، أمّا حقيبته فمصنوعة من الجلد الصناعي، وكلامه كما هو، سطحيٌّ، فلم تحدّث أي تغيُّرات جوهرية، سواء من الداخل أو الخارج. لكن ملامحه طرأ عليها تغيُّراتٌ كبيرة، فصبغ شعره باللون الأصفر، وخلع أسنانه الصفراء وزرع مكانها أسنانًا صناعية بيضاء كالثلج، كما أجرى عمليّة تجميلٍ لأنفه المعوّج. ورغم كل هذا، لم ترتقِ مكانته في عيون الآخرين. وعندما أتمَّ عامه الحادي والعشرين، حُكِم عليه بالسجن ثلاث سنوات لاتجاره بالمخدرات، مع آخرين، وبعد خروجه من السجن استقرَّ لفترة وعمل في مصنع عيدان الطعام بقرية "لونغ تشان"، وعاش حياة مُنظمة مُستقرّة، إلّا أن الأيام الجيدة لا تستمرُّ طويلًا، فبعد عام ونصف بدأ بالشكوى في أن تنظيم عيدان الطعام قد أصاب عينيه بالزغلّة؛ فاستقال وترك العمل، وغادر القرية لأكثر من عام، ودخل السجن ثانية، تلك المرة كانت بسبب التدخين في الجبل؛ ممّا تسبّب في حريقٍ بالغابات، وهكذا تناول طعام السجن لثلاث سنوات أخرى.

كان دخوله إلى السجن وخروجه منه في فصل الربيع، لقد حُبِس طوال الشتاء، وخرج وسط نسَمات الربيع والأوراق الخضراء تملأ الأغصان. وعندما عاد إلى قرية "لونغ تشان" أخبر والده بالتبني أنه دخل السجن مرّتين ظلماً، وأن العالم الخارجي قاسٍ، مُعرباً عن رغبتَه في البقاء في قرية "لونغ تشان". وهكذا اعتقد "شين تشي زا" أن الابن الضال قد عاد أخيراً؛ فأخرج "نار الشمس" وأشعل له سيجارةً قائلاً: "أيُّها الصغير، إن قرارك هذا لَسليم، هل هناك مرء لا يختار مكاناً ليعيش فيه إلى الأبد؟ تعلّم مني ذبح الخنازير".

في تلك السنوات راجت كثيراً ماركات "صديقة البيئة"، وبما أن حياة سُكَّان قرية "لونغ تشان" تحسَّنت كثيراً؛ فحتى جزيرة "شين تشي زا" الصغيرة علَّقت لافتة "جزارة صديقة للبيئة"؛ وذلك لكونه يستخدم الطُّرُق التقليدية في الذبح، وهكذا راجت تجارته. أمَّا "شين شين لاي" فكان قد قاربَ على الثلاثين، ولم يُحقِّق أي شيء في حياته، وليس أمامه أي سُبُلٍ في العيش؛ لذا اضطرَّ للموافقة وصار يذبح الحيوانات معه. وبعد يوم عمل شاقُّ كان الأب وابنه يجلسان حول المائدة ليشرَبَا قليلاً من الخمر تحت أشعَّة الشمس الغاربة، فكانت الخمر ما إن تلامس معدة "شين شين لاي" حتى يبدأ في الثرثرة حول كيف أنه سُجِنَ مرّتين ظلماً. فقال إن زراعة المخدَّر غير قانونية، لكن النبات الذي كان يزرعه كان يبيعه للفنادق والمطاعم، حيث كانوا يستخدمونه كتوابل للطعام ولسلق اللحم، كلهم يستخدمونه سرّاً؛ فبأيّ منطق لا يعاقبون مَنْ يستخدمه وفي نفس الوقت يسجنونه هو؟ وقد زرع "شين تشي زا" في شبابه ذلك المخدَّر أيضاً، فكان يُدخِّنه في غليونه، وكذلك يصنع منه دواءً يستخدمه إذا أصيب بالكحة أو بالإسهال. أمَّا الآن فقد أصدرت الحكومة أوامرها بمنع زراعته؛ فاكتفى بزرع بضعة شُجيراتٍ منه سرّاً في حديقة منزله، وعلى أيّ حال فإن أزهاره تسقط سريعاً؛ ولن يلاحظ أحدٌ وجودها وسط الأزهار الزاهية الأخرى. وما إن ينضج

النبات حتى يأخذ بذوره ويطحنها ويخلطها داخل غليونه؛ لذلك كان مُتعاظفًا مع "شين شين لاي". أمّا بالنسبة لدخوله السجن للمرة الثانية، فوفقًا لكلامه فإنه لم يُدخَن وسط الغابات، وتلك الحرائق لم يكن هو السبب فيها. وعندما سأله "شين تشي زا" لماذا اعترف إددًا؟ ردَّ عليه بوجهٍ متجهَّم أن المحقِّقين ضربوه حتى الموت أثناء الاستجواب، ولم يسمحوا له بالنوم، وكانوا يعطونه وجبةً واحدة في اليوم، لدرجة أن بطنه التصقت بظهره من شدَّة الجوع، مَنْ يمكنه تحمُّل كل هذا؟ "لقد كنتُ أرغب في النوم حتى الشَّبَع، وتناول ثلاث وجبات يوميًا، وألاً أتعرَّض للضرب؛ لذلك اعترفتُ، فعلى أية حال ما أتناوله خارج السجن ليس أفضل من طعام السجن".

لم يصدق "شين تشي زا" كلامَ "شين شين لاي"، بالضبط كما لم يُصدِّق في الماضي كلامَ والده بأنه ليس جنديًا هاربًا.

وبعد أقلَّ من شهرين من عمله مع أبيه بالتبني أصاب "شين شين لاي" المللُ، وبدأ في الحديث ثانية عن مغادرة قرية "لونغ تشان"، وعندما حمل حقيبة السفر على ظهره كانت "وانغ شيو مان" تجلس في الفناء تحت شجرة الدردار البيضاء تغسل معدة خنزير، فقال لها "شين شين لاي" إنه يرغب تلك المرة في الذهاب إلى شنغهاي، وسألها عن اسم أبويه؛ لكي ينشر إعلانَ بحثٍ في إحدى الجرائد فور وصوله. إلا أن "وانغ شيو مان" لم ترفع حتى رأسها، واستمرت فيما تفعله؛ فاستشاط هو غضبًا، واستلَّ سكينَ "تشانما" مُهددًا إيَّها: "هل سَئِمْتِ من الحياة؟".

هنا رَفَعَت "وانغ شيو مان" رأسها وقالت بلهجةٍ كاظِمِ الغضب إن تلك السكين لم تذبح حيوانًا من قبل، بل قطعت أشجار الصفصاف الأحمر والأعشاب الخضراء فقط؛ لذا لو كُتِبَت نهايتها على يد تلك

السكين وأصبحت مثلها مثل الزهور والأعشاب فستكون تلك ميتةً جميلة، وأضافت: "لكنَّكَ - للأسف - مُجرَّد فاشل، لا تملك تلك الشَّجاعة".  
أثارت كلماتها حفيظته؛ فأطلق صيحةً هادِرةً وطوَّح السكين باتجاهها.

ورغم عدم استخدام السكين لسنوات عديدة إلا أنها ظلَّت حادَّةً للغاية؛ لذا لم يُسمَع إلا صوت فرقعة، بعدها فارقت رأس "وانغ شيو مان" جسدها، والمثير للشفقة أن رأسها في اللحظة التي سقطت فيها على الأرض كانت تحاول جاهدةً أن تقع تجاه "شين شين لاي"، كما لو كانت تريد أن تلقي عليه النظرة الأخيرة.

بعد أن ارتكب فِعَلته وقف تحت شمس الظهرية الحارقة مُجاهدًا كي يوقف رعشة جسده، فألقى بسكين "تشانما" ودخل البيت وأحضر غطاء وسادة أزرق مطبوع عليه زهور ووضع على رأس أمه بالتَّبَنِّي، وغسل وجهه بالماء البارد، وأبدل ملابسه الملطَّخة بالدماء، وأخذ الألفي يوان - أو أكثر - الموضوعة في الدُّرَج، ودخَّن سيجارة، وخرج من باب المنزل، حيث توجَّه إلى ورشة صناعة الشَّواهد الحجرية، ليغتصب تلك القزمة التي طالما تمنَّأها، والمدعوَّة "أن شويه أر"، وبعدها فقط لاذ بالفرار.

وكان اغتصابه لـ "أن شويه أر" بمثابة تحطيم لأسطورة قرية "لونغ تشان".

## 2

### صانعة شواهد القبور

"أن شويه أر" هي الابنة الوحيدة للسيد "أن بينغ" مُنقذ أحكام الإعدام، أمّا "أن بينغ" فهو الابن الأكبر للبطل "أن يو شوين".

توفي "أن يو شوين" منذ سبع سنوات، لكنه ظلّ يتمتّع بالاحترام الواجب للأبطال، بالضبط كما كان في حياته. وفي مقبرة "تشانغشينغ" للشهداء مدفونٌ الكثير من الأبطال الذين ظهروا في مختلف العصور، مثل شهداء السكك الحديدية الذين استشهدوا أثناء شقّ الأنفاق في أعماق الجبال، ومراقبو الغابات الذين قدّموا حياتهم أثناء عملهم في الاستكشافات، والشباب المثقفون الذين ماتوا من أجل إنقاذ الأطفال من الغرق في الماء، وموظفو الغابات الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل إخماد حرائق الغابات، ورجال الشرطة الذين استشهدوا أثناء مطاردة المجرمين، وغيرهم، بإجمالي بضعة وثلاثين شخصًا. لكن من بين كل تلك المقابر كانت مقبرة "أن يو شوين" الواقعة قُرب المدخل هي

الأكثر فخامة. ذلك الموقع حُجِرَ له أثناء حياته. أي أنه قد حَجَرَ المكان الأكثر أهميَّةً في المقبرة وهو لا يزال على قيد الحياة.

وعندما حلَّ عيد "تشينغ مينغ" كانت بقايا الثلوج لا تزال مُتناثرةً على الأرض، والرياح لا تزال قوية، لكن المقبرة التي حَلَّت طوال الشتاء بدأت في العودة للضخْب. فمراسم حلف اليمين للانضمام إلى الحزب أو فِرَقِ الطلائع التي نظَّمتها بعض الجهات والهيئات اختارت المكان هنا دون اتفاق مسبق. وهكذا تحوَّلت مقبرة الشهداء إلى ساحة احتفالات مفتوحة، وكان الجالس بلا صوت في المكان الرئيسي بالمنصَّة هو مقبرة "أن يو شوين". ومن أجل هذا كان "أن بينغ" يكره زيارة مقبرة أبيه في عيد "تشينغ مينغ"، فهو مثل أمه، لا يحتمل رؤية والده وقد تحوَّل إلى مجرد أداة، سواء كان ذلك في حياته أم بعد موته.

بالإضافة إلى ذلك لم يحب "أن بينغ" شاهد قبر أبيه، كان ارتفاع الشَّاهد مترًا ونصف المتر، وعرضه ثمانون سنتيمترًا، ومصنوعًا من حَجَر اليَشْم الأبيض؛ فغدى مثل حائط صَدَّ الثلوج، وقد مؤَّلت الحكومة تكاليف صنعه، ونحت رَسْم والده على وجهه، بقَدَمَيْنِ مستقيمتين، ورأسٍ مرفوعٍ، وصدر مشدود، ويدين معقودتَيْنِ خلف الظهر، وشففتين مضمومتين، وعينين تُحدِّقان في مكان بعيد؛ فكان منظره مهيبًا يليق بالأبطال. أمَّا في الحقيقة فكان مبتورَ القَدَم واليد، خفيفَ شَعْر الرأس، نحيلَ الوجه، ضيق العينين، شفتاه متدلَّيتان، ويشبه كثيرًا راعي غَنَم أضناه العمل. أمَّا ظهر الشاهد فمنقوشٌ عليه نصوص متلاصقة تُسجَّل بالتفصيل كل إنجازاته المشرفة، ولم تكن هناك كلمة واحدة عن زوجته أو أبنائه، وهكذا حُدِّقت كل عائلته بشكل جماعي.

في الحقيقة كان لدى "أن يو شوين" شاهد قبرٍ آخر صنعه له حفيدته "أن شويه أر". وقد حصلت على الحجر من مَحَجَرٍ يبعد عن

قرية "لونغ تشان" مسافة أكثر من 5 "لي" (1)، كان حَجَرًا أخضر اللون، مُرَبَّعًا، ارتفاعه نصف متر. ولهذا الحجر قصة غريبة، ففي العام الذي توفِّي فيه "أن يو شوين"، كان ابنه الثاني "أن تاي" عائداً بالسيارة إلى قرية "لونغ تشان" لرؤية والديه، وأثناء مروره بجبلٍ صخريٍّ بدأت أمطارٌ غزيرة في الهطول، ووسط ضوء البرق وهزيم الرِّعد خرج فجأة من قلب الجبل الصخري ضوءٌ أبيض ساطعٌ، وتَدَحْرَجَ حجرٌ منه ليقطع الطريق أمام السيارة؛ فداس "أن تاي" الفرامل على عجلٍ، وانتظر حتى خَفَّتْ جِدَّةُ الأمطار، ثم نزل من سيارته ليستطلع الأمر، فرأى ذلك الحجر الأخضر وكأنه تَمَّ قطعه بسكِّين؛ فكان مظهره صلبًا، ومن الخارج أملس ولا مِعًا مثل سطح المرآة، ويظهر فيه العشرات من الخطوط البيضاء المتعرجة الشبيهة بألاف الجداول الصغيرة التي تجري سويًا، كان حَجَرًا رائع الجمال، واعتبره "أن تاي" زهرةً أهداها له البرق، فحملة بسعادة إلى البيت.

وما إن رأى "أن يو شوين" - بعد إصابته بضمور المُخْيخ في أواخر أيامه - ذلك الحَجَر حتى صاح والفرح يملؤه "ولدي"، ثم طلب من زوجته العجوز أن تشعل النار على الفور لكي تُعَدَّ الطعام لابنه الذي لم يَرَهُ منذ سنوات طويلة.

وهكذا شمَّرتِ الزوجة عن ساعديها وقالت له: "حسنًا، سأذهب لجمع البيض من أجل ولدنا".

في تلك اللحظة جاءت "أن شويه آر"، وما إن وقع بصرها على الحجر حتى قالت إنه شاهدٌ قَبْر. وما إن خرجت الكلمات من فمها حتى تحوَّل جَوُّ الفرح في بيت "أن" إلى كآبة؛ فلم يكن يعلم أحد من أجل مَن جاء هذا الحجر؛ لذلك نقلوه على الفور إلى ورشة صناعة الشواهد الحجرية.

(1) وحدة قياس مسافات صينية تساوي 500 متر - المترجم.



في ذلك الصيف، صار أفراد أسرة "أن" بالغوا الحذر في كل جوانب حياتهم، وشعر كل فردٍ منهم بالخوف من أن يُنقش اسمه على الحجر إذا ما غفل ولو قليلاً. فأَي شخصٍ سَتَنْقُش "أن شويه أر" اسمه على ذلك الحجر سيَصْغُب عليه الحفاظُ على حياته، وهذا أمرٌ مَمَّت تجربته وإثباته مرَّاتٍ عديدة؛ وبسبب هذا كان كُلُّ من "شين تشي زا" و"أن شويه أر" من مرهوبِي الجانب في قرية "لونغ تشان". كان "شين تشي زا" مرهوبَ الجانب من الحيوانات، أمَّا "أن شويه أر" فكان يخشاها البشر. وما إن يروها حتى ترتسم على وجوههم ملامح التَوُدُّد. وفي ليلة السنة الجديدة حين يذهب الجميع لزيارة الأسلاف لا ينسون الذهاب إلى ورشة صناعة الشواهد الحجرية كي يطلبوا العُمَرَ الطويل، حاملين معهم هدايا العام الجديد، من دجاج وبط وسمك ولحم وسُكَّر وشاي وفواكه، وغيرها، وكانت "أن شويه أر" تردُّ هداياهم بتمائيل لآلهة السعادة، وآلهة الثروة، وشموعٍ من كلِّ لون. لم تنقش "أن شويه أر" اسمًا على ذلك الحجر، بل نَقَشَتْ رسمًا لشخصٍ، وما إن رآه أفراد أسرة "أن" حتى تساءلوا "أليس هذا "أن يو شوين"؟". لقد نَقَشَتْ في مكان قَدَمِ جَدِّها المقطوعة غزالًا صغيرًا جميلًا ذا قرون، وفي مكان ذراعه المقطوع رَسَمَتْ سِرْبًا من الطيور التي تطير من وسط الأشجار، وبهذا غَطَّت بشكل جميل على كل نقائص جَدِّها.

وبالفعل توفِّي "أن يو شوين" في خريف ذلك العام، لكن الهيئات الحكومية رفضت استخدام هذا الشاهد؛ فقد كان بسيطًا من وجهة نظرهم، ويفتقر إلى الدقَّة، وصغير الحجم، لا يتَّسع لكتابة أي نصوص عليه. وفي النهاية استقرَّ الشاهد في فناء ورشة صناعة الشواهد الحجرية، ليتحوَّل إلى استراحة لإطعام الطيور. فعند هطول الثلوج الغزيرة في الشتاء، لا تجد طيور الجبل ما تأكله؛ لذلك تطير بالقرب من مساكن البشر لتتنازع الطعام مع الإوز. وما إن تأتي "أن شويه أر"

حتى تصعد إلى السطح باستخدام سُلَّم، وتثر الحبوب لتطعمهم. وبما أن شاهد القبر الأخضر الخاص بجَدِّها لم يَعد ذا فائدة؛ استخدمته كأداةٍ لإطعام الطيور.

وبعد أن قتل "شين شين لاي" أمَّه بالتَّبْنِي، وتَسَلَّل إلى ورشة صناعة الشواهد الحجرية، وقبل أن يغتصب "أن شويه أر"، تبوَّل فوق شاهد القبر الأخضر، ذلك المشهد رأته بأُمِّ عينها العَمَّة "دان سيه" صاحبة دُكَّان الفطائر المَقْلِيَّة.

وقبل الحادثة رآه راعي الخَيْلٍ عند دخوله للمدينة، وعند مروره على مقبرة الشهداء تعمَّد التَّبوُّل على الشاهد قبر "أن يو شوين" المصنوع من اليَشْم الأبيض.

استشاط "أن بينغ" غضبًا حتى احمرَّت عيناه، وغلى الدَّم في عروقه، حتى إن العروق الدقيقة المختفية تحت جلده صارت كالأفاعي التي استفاقت من سُباتها لتُطَلَّ برؤوسها من كافة أنحاء جسده، وتتراقص بأجسادها؛ رغبةً في ابتلاع شيء ما، أمَّا أنفه فتحوَّل إلى حصن مليء بالمتفجِّرات تتصاعد منه رائحة بارود قوية، فكانت هيئته كمَن يستعدُّ للدخول في معركة موتٍ. كان وجهه من قَبْلُ مثل الخريطة الهادئة التي لا يُعكَّر صفحتها أيُّ شيء، وعندما هبَّت عاصفة الحادثة تحطَّمت الجبال والأنهار على وجهه؛ وصار من بعدها كثير التَّعْرُجات.

أمَّا أكثر ما أعجزه عن التَّحْمَل فكانت الأقاويل المتناثرة.

كان "أن بينغ" هو مُنفَّذ أحكام الإعدام بمحكمة الشعب بمحافظة "تشانغتشينغ"، وخلال أكثر من ثلاثين عامًا أعدمَ أكثر من أربعين محكومًا بالإعدام في ساحات إعدام مختلفة. لكن الناس كانوا يتجَبَّبون مصافحته بسبب عمله، وفي كل مرة يرجع فيها لقرية "لونغ تشان" ويذهب للسوق الجنوبي لشراء الطعام، كان أصحاب الدكاكين عند

استلام النقود إمّا يطلبون منه أن يضعها على فَرَشَة بضائعهم، أو يضعها على صحن الميزان، وعند إرجاع الباقي له كانوا يدسّونه مباشرةً في جيبه. وعندما يذهب للمطعم لتناول الطعام، كانت عيدان الطعام التي يستخدمها تختلف في اللّون عن عيدان الطعام المُخصّصة للآخرين؛ فقد خصّص صاحبُ المطعم عيدان طعام له وحده، كأنّ يده - والأشياء التي تلمسها كلها - تحمل أرواحًا مظلومة، وستحلّ المصائب على رأس مَنْ يلامسها. ومع الوقت عرف "أن بينغ" أنّ الناس يعتبرون يده من المحرّمات؛ لذلك كفّ عن المبادرة بمصافحة الآخرين، وصار في كلّ مرّة يعود فيها للقريّة يُجهّز مختلف الفئات من العُمّلات الورقية، فلا يحتاج إلى باقٍ عند شراء الأشياء؛ وبهذا يرفع الحرج عن نفسه وعن الآخرين، كذلك صار يحمل معه دائماً عيدان طعامٍ قابلة للطيّ من الصُّلب غير القابل للصدأ؛ وبهذا لا يستخدم تلك الموجودة بالمطعم، وحين يصادف أطفال الجيران، ورغم حُبّه الشديد لهم إلا أنه لا يجروء على احتضانهم، ولم يَعد يشارك في الأفراح؛ كيلا يشعر العروسان أن شبح الموت قد أطلّ عليهما عند رؤيته، وبالطّبع لم يكن أحدٌ يرسل له الدعوة من الأساس.

تزوّج "أن بينغ" في الثانية والعشرين، وكانت زوجته مُدرّسة موسيقى من محافظة "تشانغشينغ"، ضئيلة الجسد، رقيقة، اسمها "تشوان لينغ يان"، وكان الجميع يقولون إن زواجهما هو جمع "مأمون" وسيستمرّان معاً حتى يشيب شعْرهما. وعندما كانا في مرحلة الحب قبل الزواج خشي "أن بينغ" أن يُفزع حبيبته؛ فأخفى عنها عمله كمُنفّذ أحكام إعدام؛ فادّعى أنه يعمل في القسم السياسي بالمحكمة. ولكن بعد عام من الزّواج انكشفت طبيعة عمله. في ذلك العام ذهب "أن بينغ" مرّتين في رحلة عمل، وعند عودته كان يشعر بالإحباط، وتوقّف عن الذهاب للعمل، وعندما سألته زوجته لماذا لا يذهب إلى عمله أخبرها أنه بعد رحلة العمل من حقّه التّمثّع بإجازة للراحة. وأثناء

الإجازة كان ينفق ببذخ، ويشتري اللحم والخمر ويشرب وحده؛ ممّا أثار شكّ زوجته. وبما أن محافظة "تشانغتشينغ" مدينة ليست كبيرة، عدد سُكَّانها لا يتجاوز خمسين أو ستين ألف نسمة؛ لذا فإن معرفة تفاصيل شخصٍ ما ليست بالأمر العسير. وهكذا أضمرّت "تشوان لينغ يان" في قلبها هذا الأمر، وتحسّست أخباره، وفي النهاية علّمت أن زوجها في الحقيقة هو مُنفذ أحكام إعدام، وفي كل مرة كان يذهب فيها في رحلة عمل كان ينفذ مهمّة إعدام رمياً بالرصاص.

تتبع محافظة "تشانغتشينغ" منطقة "سونغشان"، وهذه المنطقة تتبعها أربع محافظات وثمانى مناطق. وعندما تُصدر محكمة الشعب المتوسطة بمنطقة "سونغشان" أمراً بالإعدام، فإنها تختار المُنفذين من كلّ المحاكم الابتدائية، وتحوّلهم إلى مختلف ساحات تنفيذ الأحكام ليُنفّذوا مهامّ الإعدام بالرصاص في مكان مختلف عن محلّ عمَلهم. وفي كل مرّة كان "أن بينغ" يُنفذ فيها حُكْم إعدام كان يحصل على إجازة عشرة أيّام ومكافأة مالية.

كانت "تشوان لينغ يان" حاملاً وتعاني من اضطرابات الحمل، وعندما علّمت أن الشخص الذي يشاركها سريرها ومخدّتها هو مُنفذ أحكام إعدام ازدادت تلك الاضطرابات، وصارت تتقيأ في اليوم عدّة مرّات، وتزهد أحياناً الطّعام والشّراب، حتى صارت جلدًا على عظم، وذهبت إلى غير رجعة تلك الأوقات الجميلة التي كانت تتوسّد فيها ذراع زوجها ليلاً لتغرق في نوم لذيذ. فصارت حين يربّت عليها "أن بينغ" برقّة تتنفّض فزعاً، مُتجنّبةً إيّاه، وعندما يناولها كوباً من الماء كانت تتناوله وتمسح من عليه آثار بصماته قبل أن تشرب منه، وتورّمت قدمها بسبب الحمل؛ فكان "أن بينغ" حين يساعدها على ارتداء الحذاء ترتجف قدمها لا إرادياً كما لو كان يضع لها أغلال، وأخيراً تطوّر الأمر حتى لم تعد تجرؤ على تناول الطعم الذي يُعده.

شَعَرَ "أن بينغ" بالحيرة، وفكّر في كل الحِيل والاحتمالات، وحينما تَنَاقَشَ مع زوجته في الأمر، لم يتوقَّع أن تُبَادِرَهُ بالقول: "لقد أَعَدَمْتُ بَشَرًا من قبل، حتى لو اسْتَقَلَّتْ من عَمَلِكِ فسأظلُّ أخاف من يدك، يداك ليستا نظيفتين".

هنا بلغ الحزن من "أن بينغ" مَبْلَغَهُ؛ فقد كان يرى أن الجريمة قذرة، وهو ينظّف القذارة ليجعل العالم مكانًا أكثر نظافة، وتلك اليدان نظيفتان تمامًا.

وفي يوم تساقطت فيه الثلوج أنجبت "تشوان لينغ يان" طفلةً، فأعطاها "أن بينغ" اسم "أن شويه أر"<sup>(1)</sup>، وما إن انتهت فترة الرضاعة حتى كانت الزوجة قد توصلت إلى اتفاق طلاقٍ مع "أن بينغ". لكنها لم تكن راغبةً في الاحتفاظ بالطفلة؛ فقد كانت ضعيفةً الجسد، وفي حجم علبة أقلام، رغم بلوغها أكثر من عام، بالإضافة إلى بكائها المتواصل طوال اليوم كما لو أن بها عفريتًا؛ ممّا ينشر الكآبة في محيطه؛ لذا فإن وجود تلك الطفلة بجوارها سيجلب لها سوء الطالع، وهكذا بَقِيَتْ "أن شويه أر" مع أبيها، وكان يرى أن إيجاد زوجة ثانية هو أمرٌ عسير نظرًا لكونه مُنْفَذَ أحكامٍ إعدام؛ لذلك فإن وجود ابنةٍ ترافقه سَيُعْتَبَرُ سَنَدًا له كي يجد مَنْ يخدمه ويرعاه حين يكبر أو يصيبه المرض أو تحلُّ عليه كارثة.

في ذلك الوقت لم تكن هناك حضانات تحتفظ بالأطفال طيلة اليوم، ولم يكن شائعًا استخدام المرَبِّيات، وكان "أن بينغ" يغيب عن المنزل لمدة طويلة عند الذهاب في مَهْمَةٌ إعدام، بالإضافة إلى كونه رَجُلًا لا يستطيع العناية بطفلة؛ لذلك أرسل "أن شويه أر" إلى قرية "لونغ تشان" لثربّيها أمّه. وفي الأوقات التي يتواجد فيها في "تشانغتشينغ" كان يركب درّاجته ويذهب إلى قرية "لونغ تشان" ليرى ابنته.

(1) شويه أر في الصينية تعني الثلج- المترجم.

كانت قامة "أن شويه أر" غير طبيعِيَّة، وسريعًا ما اكتشف الجميع هذا الأمر. فتلك الطفلة كانت كما لو أن جسدها بلا عظام ولا أوتار، فقد وصلت لسنِّ السنَّتين وظلَّت عاجزةً عن الوقوف، وشربت الكثير من لبن الغنم ولكن بلا نتيجة، والأطفال في سنِّها بطول دلو الماء، أمَّا هي فكانت أطولَ بقليل من كيس التبغ، وفي سنِّ الثالثة كانت تقف بصعوبةٍ وهي مستندة إلى الحائط، وطالت قامتها قليلًا، لكنها ظلَّت أقصر من عودَيْن من أعواد الطعام، وفي سنِّ الرابعة بدأت تسير بصعوبة، لكنَّ قامتها ظلَّت لا تظاهي ارتفاعَ مقعدٍ قصير. وفي سنِّ السادسة أو السابعة كانت جدَّتُها تُطعمها أربع وجبات في اليوم كي تطول قامتها ولو قليلًا؛ عندها فقط صارت في طول الموقد.

وبالإضافة إلى قصرِها غير الطبيعي، لم تتكلَّم "أن شويه أر" إلَّا في سنِّ الثالثة. لم تكن تحب النوم ليلاً؛ لذا كانت تُهمهم في الظلام بكلمات لا يفهمها أحد. وفي النهار لا تشعر بالنعاس، بل تحب الإمساك بالعصا المستخدمة لتقليب النار لتضرب بها الأوعية التي تُصدِر صوتًا. فلم تَسَلَم من ضرباتها أواني الماء وأوعية الطهي وزجاجات صلصة الصويا الموجودة بالمطبخ، ولا أباريق الشاي وعلب السكر الموضوعة أعلى الدولاب بالصَّالة، ولا أدوات الزراعة المعلَّقة على الحائط الجبلي في الفناء، ولا حتى أواني تخزين الخضار المملَّح وبراميل الأرز الموجودة بالمخزن. أمَّا الأوعية التي لا تُصدِر أصواتًا فكانت ميَّنةً في نظرها. وفي بعض الأحيان لا تكون الأوعية ميَّنةً، بل تموت تحت ضرباتها، مثل الأكواب الزجاجية وأصيص الزهور والأطباق، حيث إن بعضها لا يتحمَّل وطء الضربات فتتحطَّم عظامها وينسحق جسُّها؛ ولهذا اضطرَّ جدُّها وجدَّتُها إلى الانتباه للأشياء القابلة للكسر، مثل نظَّارة كبار السنِّ التي تستخدمها الجدَّة في أعمال التطريز وتحملها معها دائماً، كما قام "أن يو شوين" بتغليف نياشينه، وأغلق عليها في صندوق لا يفارقه مفتاحه كظله.

كانت "أن شويه أر" تحبُّ مشاهدة جَدَّتْهَا المُطرَّزة وهي تقصُّ ملابس الأفراح للآخرين، عندها تصير هادئة تمامًا، وتفتح عينيها السوداوين لتحَدِّق في القماش الأحمر والقرمزي بنظراتٍ حَالِمَةٍ كما لو كان هناك خيالات ما تدور في عقلها، ويحمرُّ وجهها ليصبح زاهياً مثل ذلك القماش. أمَّا عند تساقط المطر والثلوج، فكان الجميع يهرعون للدخل للاختباء، أمَّا هي فتهرع للخارج وتُخرج لسانها لتستقبل به الأمطار والثلوج، قائلة إن الأشياء القادمة من السماء لذيذة الطعم. وهي في العادة قليلة الطعام بشكلٍ مُثيرٍ للشُّفَقَة، ولا تحب تناول اللحم، ولكن عند حلول ليلة رأس السنة الصينية أو عيد "تشينغ مينغ" أو "عيد الفوانيس" فإن حُبَّهَا لِلْحَم ليس هو الأمر الغريب الوحيد، بل شهيتُّها الكبيرة هي أكثر ما يثير العجب، ففي ليلة رأس السنة يمكنها أن تأكل وحدها وليمة كاملة من "الجياوتزيه"<sup>(1)</sup>، وفي عيد "تشينغ مينغ" يمكنها ابتلاع نصف سَلَّةٍ من البيض المسلوق، أمَّا في منتصف الشهر الأول من العام الجديد فيمكنها تناول ثلاثة أطباق كبيرة من الزلابية الحلوة بالسَّمْسَم؛ لذا قال الجميع بأن هناك روحًا تتلبَّسها في تلك الأعياد، وهي تأكل بالنيابة عنهم.

قال الجميع في قرية "لونغ تشان" إن "أن شويه أر" من الجن، والجنُّ لا يكبرون.

أمَّا في مسألة إرسالها للمدرسة أم لا، اختلفت آراء "أن بينغ" وأبويه؛ فالجَدَّة والجَدُّ كانا يخشيان أن تتعرَّض للتَّنْمُر في المدرسة لكونها أقصر حتى من مكتب الدراسة، فلو عَجَزَت عن اللحاق بزملائها في الدراسة فسيؤثِّر ذلك على عقلها، وبالطَّبَع لن يأمل أحدٌ وقتها أن تنمو قامتها. لكن "أن بينغ" كان يرى أنه رغم كون ابنته قزماً إلا أنها يجب أن

(1) مُعْجَنَات صينية مَحْشُوءَةٌ باللُّحْم - المترجم.

تتمتع بالثقافة، ولن يخشى من التقلبات في مستقبلها ما دامت روحها ليست خاوية؛ لذا صمّم على إرسال "أن شويه أر" إلى المدرسة.

لكن مَنْ كان يصدّق أنها بعد أن دخلت المدرسة أصبحت الطالبة الوحيدة التي اجتازت صفّين متتالين، إذ قفّرت من الصف الأول إلى الصف الثالث، ثم إلى الصف الخامس مباشرة. كانت قدرتها على الاستيعاب مذهلة، وذاكرتها تتفوّق على الجميع. كانت الكتب الدراسية بالنسبة للطّلبة الآخرين أقسى من الطوب في المضغ، أمّا بالنسبة لها كانت مثل كعك الجبن الحلو، لذيذ ورائع، وفي سنّ الثانية عشرة انتهت من الدراسة الابتدائية، وعندما بلغت الرابعة عشر حصلت على الإعدادية، ولم تكن هناك مدارس ثانوية في قرية "لونغ تشان"؛ فاستعدّ "أن بينغ" لنقلها إلى محافظة "تشانغتشينغ" لتدرس هناك، لكنها قالت إنها لن تتمكّن من الذهاب للجامعة بعد المرحلة الثانوية؛ فقامتها قصيرة، ولن تمرّ بالكشف الطبي؛ لذلك لا فائدة من الدراسة الثانوية، بالإضافة إلى أنها لا تحبُّ إلا قرية "لونغ تشان"، ولا ترغب في الذهاب لمكان آخر.

وعندما حصلت "أن شويه" على الإعدادية كان طولها 92 سم، ومن وقتها توقّفت عن النمو وثبّتت عند هذا الطول.

أمّا مهارتها في نقش الشواهد الحجرية فلم تتعلّمها على يد معلّم، بل كانت هبةً طبيعيّةً من السماء. ففي عامها الخامس عشر، شخّصت "مستشفى الشعب" بمنطقة "سونغشان" إصابة "لاو يانغ" صاحب محل الأحذية بالقرية بسرطان الرئة في المرحلة المتأخّرة، وقال الطبيب إنه لم يبقَ له أكثر من ثلاثة أشهر. وهكذا عاد "لاو يانغ" إلى القرية مثل ورقة الشجر الجافّة، وظلّ مكتئبًا في انتظار الموت، وخشي أهله ألا يتحمّل كثيرًا، وألا يصل حتى لثلاثة أشهر؛ لذا سارعوا بصنع تابوتٍ له، وتفصيل الكفن، واختيار المقبرة، بل وحتى تعاويذ جلب



الأرواح التي تُستخدم عند خروج الجنازة جهزوها أيضًا. وكانت أمنية "لاو يانغ" الوحيدة هي أن تقوم "أن شويه أر" بنَحْتِ شاهدِ قَبْرِه، قائلاً إنها ملاكٌ هبَطَ إلى عالم البشر، فلو نُصِبَ على قبره شاهدٌ من صُنْعِها فستجنَّبَ روحُه العذابَ، وستطير إلى عنان السماء.

وهكذا توَكَّأ "لاو يانغ" على عصاه، وعندما ظهر على باب منزل أُسْرَةِ "أن" بوجهٍ أصفر شاحب، كانت الجَدَّةُ المُطْرَزَةُ مشغولةً بصُنْعِ ملابس الفرحة لعروسين جُدُد، فدعته للدخول، وجلبت له كرسيًا ذا ذراعين ومسند، وقَدَّمت له الشاي الساخن. وعندما أخبرها "لاو يانغ" بأمنيته قالت الجَدَّةُ إن "أن شويه أر" تجيد الخَطَّ، وخَطُّها جيد، لكن ليس لديها القدرة على نَحْتِ تلك الرموز على شاهدِ القبر، وحتى لو كان لديها تلك الموهبة، فأنتى لها بالقوة للنَحْتِ وهي ضئيلة الجسد؟ وبينما هما يتحدَّثان كانت "أن شويه أر" تجلس على حافة النافذة تتأمَّل السُحُب في السماء، وما إن صمتت جدتها حتى أدارت رأسها ناحية "لاو يانغ" وقالت له: "جَهِّزِ الحَجَرَ والازميل؛ سأذهب لمنزلك لأصنع لك الشَّاهد"، فتسمَّرت الجَدَّةُ، ثم قالت: " ما دمتِ لا تملكين القدرة فلا تتحدَّثي بما لا طاقة لك به، ولا تُضِيعي وقته". لكن "أن شويه أر" لم تُعْرِها اهتمامًا، بل عادت ببصرها لتراقب السُحُب المتراقصة في السماء. وفي اللحظة التي التفتت فيها دَبَّت الحيوية في تلك السَّحابة الداكنة التي كانت تتخَّذ شكل حصانٍ مريضٍ يفرد ساقيه الأماميتين، كانت تأمل أن يقف بالكامل ليصبح حصانًا راکضًا، إلا أن السحابة تبدَّدت في النهاية؛ فأطلَّقت تنهيدةً ثم أدارت رأسها ناحية "لاو يانغ" وسألته إن كان من مواليد برج الحصان، فهزَّ رأسه أن نعم، فقالت له: "لن تموت هذا العام، فهل لا زِلتَ ترغب في نَحْتِ ذلك الشاهد؟"، فقال "لاو يانغ": "مستحيل، لقد قال أمهرُ الأطبَّاء إن السرطان انتشر، ولن أعيش سوى ثلاثة أشهر على أقصى تقدير، فلننَحِّثُه".

بعد أن وافقت "أن شويه أر" أرسل "لاو يانغ" على الفور ابنه للمدينة واشترى شاهدًا حجريًا، وطقم مُعدّاتِ نَقْشِ الرموز، ومختلف الأنواع من الأزاميل الحادّة والمُسَطَّحة. وهكذا بدأت "أن شويه أر" في صنّع أول شاهدٍ حجريٍّ في منزل أسرة "يانغ". لم تكن تستخدم مسطرة للقياس، إلّا أن المسافة بين كل رمز والثاني كانت مضبوطةً تمامًا، وكانت تتعامل مع الإزميل بمهارةٍ كَتَعَامُلُهَا مع عيدان الطعام التي استخدمتها لسنوات عديدة، ولم يَدِرِ أَحَدٌ منذ متى أخفى جسدها الضئيل هذا كلّ هذه القوة، فالإزميل في يدها كان أشبه بالقلم، خفيف ورشيق، وكانت تضع على رأسها قماشَ شاشٍ أبيض كالثلج كيلا يؤذي الغبارُ المتطاير مثل الفراشات جرّاءَ نَقْشِ الرُّمُوزِ عينيها، وحين تجثو أمام الشاهد الحجري لنَقْشِ الرموز كانت تشبه الطائر الليلي الذي يهبط ليغنّي ويستريح على ظهر سفينة.

انتهت من صنع الشاهد خلال أسبوع فقط، وكانت الرموز المنقوشة عليه مُفَعَمَةٌ بالقوة والفخامة، وتبدو كأنها تطير، لا تشبه بأي حال من الأحوال خطّ فتاة صغيرة، وكان "لاو يانغ" راضيًا عنه تمام الرضا. أمّا ما أسعده أكثر فهو أن العمر الذي نقشته "أن شويه أر" على الشاهد كان أكبر من عمره المتوقّع بسنتين.

وبالفعل عاش "لاو يانغ" لسنتين أخريّين. ورأى حفيده كما كان يتمنّى، وغادر عالمنا راضي القلب، حاملاً سعادة كونه جدًّا. ومن وقتها انتشرت الأقاويل حول معجزات "أن شويه أر" في صنّع الشواهد الحجرية. وصار أهل قرية "لونغ تشان" يدعونها "المبروكة أن". وصار كلّ مَنْ تجاوز السبعين في القرية لا ينسى أثناء تحضير الكفن والتابوت ومستلزمات الجنّازة أن يختار شاهدَ القبر، ويوصي أبناءه وأحفاده أن يطلبوا من "أن شويه أر" نَحْتَه له بمجرد أن يغادر العالم.

كانت الجَدَّة المُطرَّزة تتمتَّع بشهرة فائقة في مجال حياكة ملابس الزفاف، ولكن بسبب شهرة "أن شويه أر" المتزايدة يومًا بعد يوم في نحت شواهد القبور صار كلُّ مَنْ عنده جنازة في القرى المجاورة يأتيها بشاهدٍ حَجْرِيٍّ لتنقشه؛ فتحوَّل فناءُ منزل أسرة "أن" إلى حديقة من شواهد القبور، تنتصب فيها الشواهد الحجرية جنبًا إلى جنب؛ لذلك عزف العرسان الجُدُد عن القدوم للمكان بسبب جوِّ سوء الطالع السائد فيه. وهكذا تركت "أن شويه أر" منزل جَدَّتِها، وقامت بتعديل منزلٍ صغيرٍ مهجورٍ مبنيٍّ من الطين وألواح الخشب يُطلُّ على نهر "جيلوا" عند المدخل الشمالي للقرية، وحوَّلته لورشة لصناعة الشواهد الحجرية.

ورغم بلوغ "أن شويه أر"، إلا أن أُسرتها كانت تنظر لها كطفلة، ربما بسبب قِصَر قامتها. لم يكن لديهم مانع أن تعمل، لكن كان لديهم تحفُّظات على عملها في نقش شواهد القبور، قائلين إن مُلازمة فتاة لشواهد القبور طوال اليوم يعادل المكوث أمام بوابة الجحيم؛ مما يجعل الحياة مليئة بالكآبة والإحباط، لكن "أن شويه أر" قالت إن نحتها للشواهد كي تُعيَل نفسها هو أمرٌ جميل ليس به أي محظورات. وقد أشفق "أن بينغ" على ابنته، وفكَّر أن يجلب لها مُساعدًا، لكنها رفضت قائلةً إن باستطاعتها معالجة الأمر وحدها. أمَّا الجَدَّة فطلبت من الحفيدة أن تقضي نهارها في الورشة، وتعود لتقضي الليل في المنزل، وإن لم تفعل فستذهب هي لتبقى معها وترافقها. وهنا ضحكت "أن شويه أر" وقالت: "لا تقلقي أيتها المُطرَّزة، "أن شويه أر" لديها رُفقة بالفعل".

كانت "أن شويه أر" بالغة الأدب مع الكبار في عائلتها، وتنادي كلاً منهم باللقب الواجب عليها استخدامه. أمَّا الجَدَّة فتناديها "المُطرَّزة" كما يفعل الجميع، فكانت الجَدَّة دائماً ما تقول إن حفيدتها تُقلِّل من شأنها حين تناديها بهذا اللقب. وعندما قالت "أن شويه أر" إن

لديها رُقفة بالفعل، جفَلت المُطرزة، وبَادَرَت بالسؤال على عجل عَمَن يأتي ليرافقها، فقالت "أن شويه أر": الليل به قمر ونجوم، ولديهم أَرْجُلٌ طويلة، يمكن أن يقفزوا عبر نافذتها ليستلقوا على الوسادة بجوارها ويصحبوها في نومها، أمَّا لو صادَقَت ليلةً بلا قمر ولا نجوم، فعلى الأقل سيكون هناك بعض الرياح، "وعندما تهبُّ يَصَدَح صوت النوافذ فتحدِّث معي". فقالت المُطرزة: "ماذا لو لم يكن هناك رياح؟"، فقالت "أن شويه أر": "قلبي مليء بريح كثيرة، يمكن أن أبصقها فأحدِّث نفسي". وهنا لم تجد المُطرزة ما تقوله.

وبعد افتتاح الورشة زاد إيمان الناس بأن "أن شويه أر" قادمة من عالمٍ آخر؛ فالمدخل الشمالي للقريّة يندر فيه وجود البشر، بالإضافة لكونه مجاوراً لنهر "جيلوا": لذا فالرياح هناك قويّة، والأمطار والثلوج غزيرة. وهناك تكثُر أشجار البلوط، تلك الأشجار هي ضيف دائم على غابات الشجيرات القصيرة، وهي سوداء، قاسية اللحاء، ممتلئة بالتعرُّجات والخطوط، ورغم أنها لا ترتفع كثيراً إلا أن فروعها كثيفة؛ وتعد مَظَلَّة جيّدة تقي من الحر. وعندما تمرُّ الرياح عبر الغابات تُصدِر أصواتاً حادّة؛ ولا يجرؤ الأطفال محدودو الشجاعة على الاقتراب من المدخل الشمالي ليلاً. لكن "أن شويه أر" سكنت هناك، ولم يؤثّر عليها ذلك الجوّ الغريب، بل ظلَّت عيناها لامعتين، وصارت بشرتها نَضِرَّة أكثر من ذي قبل.

ومع انتشار سُمعَتها كمبروكة صارت ورشتها مشهورة، وجاءها تُجَّار الأحجار من محافظة "تشانغتشينغ". فبدأت "أن شويه أر" في شراء شواهد حَجْرِيَّة مختلفة الألوان باستخدام النقود التي تكسبها؛ ليختار زبائنهما من بينها، كما اشترت أيضاً ماكينه نَقْشٍ على الحجر؛ ممَّا وُقِّر عليها الكثير من الجهد، ومن وقتها كَبُرَت تجارتها.

أما نبوءاتها بشأن موعد وفاة الأشخاص فكانت تأتي فجأةً بلا ميعاد.

وذات يوم في العام الذي افتتحت فيه ورشتها كانت تنجز شاهد قبرٍ في الفناء، وحين رأت الشمس ساطعةً حملت لحافها المصنوع من الحرير الأخضر ونشرته على شجرة بلوط، وفي المساء حين همت بجمعه اكتشفت أن اللحاف الذي تلقى قبلاً من أشعة الشمس يحمل بالإضافة إلى رائحة الشمس الجميلة بعض التجاعيد، ووسط تلك التجاعيد تشكّل رمزان، هما: "جين تشوان"، كأن الشمس جعلت من اللحاف الحرير لوحًا لكتابة الرموز.

وكان هناك بالفعل في قرية "لونغ تشان" رجل يدعى "جين تشوان"، وهو مدير المكتب الحكومي بالقرية، وينشغل طوال اليوم في أعمال الاستقبال، ومصاحبة الضيوف للأكل والشرب، كان شاباً له بطن بارز، ووجهٌ ذهني لامع. وقد علمت "أن شويه أر" أن طريق حياته وصل لنهايته، فسألت عن سنة ميلاده، وعندما سمع "جين تشوان" أنها سألت عن سنة ميلاده أصابه الرعب حتى وقف شعراً جسده، وعلى الفور تقدّم بطلب إجازة مرضية، وأغلق عليه باب، وعزف عن الخروج؛ أملاً في تجنب المصير المحتوم. إلا أنه بعد ثلاثة أيام أصابته نوبة قلبية مفاجئة أودت بحياته، وفي اللحظات التي كان يُنازع فيها أنفاسه الأخيرة كانت "أن شويه أر" قد انتهت من نقش شاهد قبره، وأحاطته بشريطٍ مُذهّب؛ نظراً لأنه كان دائماً يرتدي سلسلة ذهبية حول رقبته.

أزاحت نهاية "لاو يانغ" و"جين تشوان" الستار عن موهبة "أن شويه أر" في التنبؤ بميعاد الموت.

في الماضي كانت الكهرباء في قرية "لونغ تشان" مثلها مثل الأشباح، تأتي أثناء الليل وتذهب مع الفجر؛ فأعمدة الكهرباء المازة عبر الجبال

كلُّها خشبية مُؤقَّتة، ومع الوقت تأكَّلت بفعل الرياح والأمطار ومالت إلى اليمين واليسار كأنها أشخاص هاربون من مجاعة، فلا يحتاج الأمر سوى لرياحٍ قويَّة حتى تقضي عليها تمامًا وتُسقِطها وتقطع الكهرباء. وفي ذلك العام استقبلت القرية أخيراً كهرباءً مُستمرةً 24 ساعة؛ فقد تمَّ استبدال الأعمدة الخشبية المائلة، وحلَّت محلَّها أعمدةٌ خرسانية عالية. وصادف الوقت الذي حلَّ فيه الدور على قرية "لونخ تشان" لاستبدال الأعمدة بها منتصفَ الصيف؛ لذا كان سُكَّان القرية يخبُّون الذهاب لسقيفة عُمال الكهرباء بعد تناول العشاء لسمعوا حديثهم حول الأحداث الطريفة التي تحدث خارج القرية.

وذات يوم غائم تكاثرت فيه السُّحب السوداء في السماء وانخفض فيه ضغط الهواء، عادت "أن شويه أر" من محلِّ الخردوات بعد أن ابتاعت بعض الشموع، ومرَّت في طريقها بسقيفة العُمال، فسَمِعَت أحدهم يلقي بنكتةٍ بذيئة وهو في قَمَّة المرح، فأضحك الجَمع حتى أمسكوا ببطونهم. هذا العامل كان ذا وجه أسمر يميل للحمرة، وجبهة عريضة، وعَظْم حاجبٍ مُرتفع، وشامة سوداء بحجم حبة الحمص فوق أنفه، وذقن مزدوج. وعندما مرَّت "أن شويه أر" بالسقيفة، سمعت هزيم الرعد، فرفعت رأسها للسماء ورأت وسط طبقة السحاب التي شقَّها البرقُ خيالَ رَجُل، هيئته بالضبط مثل ذلك العامل الذي يُلقي نِكاتٍ بذيئة؛ فأطلقت تنهيدة، وعادت للوراء بضع خطوات، ونصَّحت هذا العامل أن يتوخَّى الحذر أثناء العمل. ولأنه لا يزال مُنتشياً بالحديث عن أمور الفِراش؛ أطلق صافرةً من فمه وقال لها بلهجة ذات مغزى: "أي عمل تقصدين يا أختاه؟"، وهنا ضحك الجمع أكثر وأكثر. لكن سُكَّان القرية ممَّن كانوا موجودين وقتها نبَّهوه إلى أنه يمكنه تجاهل كلام أي شخص، لكن "المبروكة أن" شخصٌ مُقدَّس، "من الأفضل أن تأخذ حذرَكَ". فأشاح بيده غير مُصدِّق، قائلاً: "أخبار الآلهة والجن والعفاريت والمسوخ كلها تُرَّهات، أنا لا أصدِّق فيها"،

وما إن انتهى من كلماته حتى هطل المطر بغزارة، وتفرَّق الجمع على الفور، فعاد مَنْ عاد إلى السقيفة، وعاد مَنْ عاد إلى بيته. أمَّا "أن شويه أر" فلم تجلب معها مظلة؛ لذا عادت إلى الورشة تحت الأمطار وقد ابتلت تمامًا، لكن من حُسن الحظ أنها احتضنت الشموع في صدرها فلم تبتل، فأوقدت شمعةً، وفكَّرت في وجه ذلك العامل الشاب، فاغرورقت عينها بالدموع.

وفي اليوم التالي كان الجو صافيًا بعد المطر، وقُرب الظُّهر، جاءت أخبار مصرع ذلك العامل. لقد انفلت حزام الأمان خاصته فجأة بينما كان يعمل على ارتفاع عالٍ، فسقط على الأرض مثل الصقر الذي أصابه سهم. وكانت قُبْلته الأخيرة مع الأرض هي قُبْلَة الموت.

وقتها تذكَّر سُكَّان قرية "لونغ تشان" الذين شاهدوه عندما كان يُلقي نِكَاته البذيئة رغم كلمات "أن شويه أر"، فزاد إيمانهم بكونها مبروكة، وهرعوا تِبَاعًا إلى الورشة حاملين معهم الهدايا لها، من حلويات ولحوم، والبعض أهداها أسماكًا اصطادها لتَوْه من نهر "جيلوا"، والبعض قطف من حديقته الشَّمَام - الذي لم ينضج تمامًا - وأهداه لها، وزاد تقديسهم لدرجة أن منهم مَنْ قال إن جسدها ليس من لحم وعظام، "ألم تَرَوْا جلدها الشَّفَاف؟"، ومنهم مَنْ قال إنها تمشي بِخِفَّةٍ بلا صوت "لأن جسدها حقًا في السماء، أمَّا ما نراه يسبح على الأرض فهو ظِلُّها". فصار هناك مَنْ يأتيها لتقرأ له الطالع، ومَنْ بهم داء لا شفاء منه جاؤوها بحثًا عن دواء سحري، بل حتى مَنْ لهم عداواتٌ مع أشخاص آخرين طلبوا منها أن تقضي على منافسيهم خلسةً.

لكن "أن شويه أر" قالت إنها تصنع الشواهد الحجرية فقط، وصرَّفتهم جميعًا.

وكان من بينهم شخصٌ واحد من الصعب صرْفُه، كانت "تشوان لينغ يان".

جاءت "تشوان لينغ يان" ذات يوم بحثًا عن "أن شويه أر"، وهي التي لم تسأل عنها من قبل أبدًا.

لم تكن والدتها قد بلغت الخمسين من العمر، إلا أن مَنْ يراها سيعتقد أنها قد جاوَزَت السُّتَيْن؛ فقد ابيضُّ نصف شَعْرِها، ونحَلَّت ملامحها وصارت أشبه بكتابٍ ورقِيٍّ رقيق الصفحات خرج لتَوَّه من تحت التراب، لو قَلَبتْ صفحاته برفق فستقع أوراقه. كانت قد تزوَّجَت من موظَّف ضرائب أرمل تعرَّفَت عليه عن طريق شخصٍ آخر بعد أن تركت "أن بينغ" في تلك السَّنَة. هذا الرجل كان لديه ابنٌ في الحادية عشرة، صعب المعاشرة تمامًا، فكان يعيب على طعامها سوء طعمه، ويعيب عليها أن اللعاب يتطاير من فمها عند الحديث، ويعيب غسلها بأنه غير نظيف، ويعيب ترتيبها للمنزل ببطء، كان يتصيَّد العيوب لها في كل الأمور. وعندما تمارس الحُبَّ مع زوجها ليلاً كان ذلك الصبيُّ يقبع أمام باب الغرفة ويصدر أصواتًا غريبة. ولم يكن مُحبًّا للدراسة، ويرتدي ملابس عجيبة، ويصبغ شَعْرَه أصفر، ودائم العِراك مع الآخرين، وعندما ازدهر الإنترنت صار دائم التَّواجُد في مقاهي الإنترنت. يمكن القول إنه كان بلطجيًّا صغيرًا. وقد أتعب هذا الصبيُّ قلب وجسد "تشوان لينغ يان"، وزاد الطين بِلَّة تعرُّض الزوج لمشكلة كبيرة، فقد فُصل من عمله لاختلاسه بعضًا من أموال الضرائب. واضطرًّا للاقتراض من هذا وذاك، وفتَحَا دُكَّان أدوية صغير يساعدهما على المعيشة. وعندما سمع الزوج أن هناك شخصية أسطورية ظهرت في قرية "لونغ تشان"، وأن تلك الشخصية أنجبتها "تشوان لينغ يان"، اعتقد على الفور أن "أن شويه أر" بإمكانها علاج كافة الأمراض، فأجبر زوجته على الذهاب لابنتها، راغبًا في أن تأتي إلى دُكَّان الصغير لتجلس فيه حتى تزدهر تجارته.



لم تنطق "أن شويه أر" بكلمة بعد سَماعها توَسَّلات أمها. وقد توفَّقت عن طَرْق الأواني منذ جاءت إلى المدخل الشمالي، ولكنها في تلك اللحظة التَّقَطت عصا تقلاب النار المعقوفة، وضربت بكلِّ قوَّتِها أغطية أواني الطهي ودِلاء المياہ والصحون الفخارية وإبريق الشاي الموجودة بالمطبخ كما لو كانوا قد ارتكبوا جريمةً نكراء. فسألتها "تشوان لينغ يان" عمًا تفعله، لكنها لم تُردِّ عليها، بل التفتت وضربت ساقِ أمها، فمال جسدها من الضربة وكادت أن تسقط على رأسها. فاستندت "تشوان لينغ يان" على الحائط، ونظرت إلى "أن شويه أر" غير مستوعبة ما حدث، لقد شعرت ببرودة تتغلغل إلى عظامها كمن يضع قطعةً تُلج في فمه أثناء فصل الشتاء حيث البرد القارس. هنا وضعت "أن شويه أر" العصا، وقالت لأمها وهي تجرُّ على أسنانها: "لقد تأكدت أن كل الأشياء الموجودة بالمطبخ لا تزال على قيد الحياة، أمّا أنتِ... فميّتة".

خربشت "تشوان لينغ يان" الحائط بأصابعها قليلاً، ثم وضعت حقيبة السفر القماشية على ظهرها وغادرت الورشة، كان كل ما تركته لـ "أن شويه أر" هو خطّان عميقان على الحائط من أثر أظافرها، أمّا ما أخذته منها فكان بقايا الطين الأصفر تحت الأظافر.

في تلك الليلة صدح لأول مرّة صوتٌ بكاءٍ في فناء "أن شويه أر".

بعد أن دنس "شين شين لاي" جسدَ "أن شويه أر"، رأى سُكَّان قرية "لونغ تشان" أن علاقتها بالسماء قد انقطعت. فبدأوا في البحث عن علامات هبوطها إلى عالم الفنانين، لم تُعد بشرتها شفافةً، وصارت تُصدر أصواتًا عند السير، وأصبحت تحبُّ أكل اللحم، بالإضافة إلى أنها لم تُعد تحبُّ النظر للسماء مثل الماضي. وصارت لديهم مقولة أخرى حول تاريخها، حيث قالوا إن أباهما هو مُنفذ أحكام إعدام، وكل مَنْ أعدمهم على مدار سنوات طويلة بالتأكيد ارتكبوا جرائم فظيعة، كما

أن أشباح الموتى موجودة في عالمنا بالفعل؛ لذا حين قام "شين شين لاي" باغتصاب "أن شويه أر" لم يكن هو الجاني الحقيقي، بل كانت الأرواح المظلومة التي تقمّصت جسده، لقد استخدمت الأرواح جسده لتنتقم من مُنفذ أحكام الإعدام الذي أعدم أجسادهم. تلك المقولة آلّمت "أن بينغ" كثيراً.

مكتبة

t.me/soramnqraa



### 3

## جَنَاحُ الْجَبَلِ

كان هروب "شين شين لاي" إلى الجبال أشبهَ بطائرٍ هبط في قلب الغابة، من الصعب إيجاده.

متوسّط ارتفاع سلسلة جبال "سونغ" يبلغ 600 متر، وتشبه شريطًا ملوّنًا متراقصًا، وفي فصليّ الصيف والربيع تهبُّ عليها الرياح الدافئة فتكتسي باللون الأخضر، وفي الخريف يُبرز الصقيع ألوانها الخلابة المتنوّعة، أمّا في الشتاء فترتدي ثوبًا أبيض بفعل موجات الثلوج المتتالية، وهي مُتّصلة لمسافة تزيد عن مائة "لي" وفي مسارها نحو الشمال تتباينُ صعودًا وهبوطًا، حتى تصل إلى محافظة "تشينغشان"، وهناك تبدو كأنها ملّت التقدّم بنفس الوتيرة؛ لذا تُبدي بعض التفاوت، فتجد عُقدةً تظهر فجأة في هذا الشريط الملوّن، وتسير سلسلة الجبال باتجاه شرقيّ غربيّ. هذا التّغيّر الرومانسي في الاتجاه جَلَبَ لتلك المنطقة مظهرًا مُختلّفًا. حيث تنتصب قممُ الجبال وتزدهر

فوقها الغابات وتقطعها الجداول الصغيرة. ويختلف ذلك تمامًا عندما تتجه من الجنوب نحو الشمال، حيث الجبال المتماثلة على شكل خبز "المانتو"، والتي تتخذ هيئة سلسله ليس بها الكثير من الصعود والهبوط، بالإضافة إلى قمم جبال نصف صلعاء كمن شاخ وهو لا يزال شابًا، كما أن مجاري المياه بين الجبال غير مزدهرة.

وفي العادة تُبنى القرى بين أسفل الجبال بالمناطق المستوية، وتواجه الأنهار والشواطئ؛ فهذا الشكل تصبغ الرياح خلفها والمياه سهل تنطاولها، بالإضافة لكونها مناسبة للخروج والسفر والرعي والزراعة، لكن قرية "لونغ تشان" تختلف عن تلك العادة، حيث بُنيت مُستندةً إلى الجبل.

هذا الجبل يسير من الشرق إلى الغرب، يتصاعد ارتفاعه تدريجيًا، وتكثر به المنحنيات، وهيئته أشبه بالتنين الطائر؛ لذلك أُطلق عليه اسم "جبل التنين". وعلى قمته تقف شجرة صنوبر باسقة عالية، تلك الشجرة هي الأم الخضراء وسط الغابة، لا تسقط أوراقها في الشتاء، ولا تخشى الرياح الباردة، أما إبر الصنوبر الموجودة على أغصانها فهي خضراء زاهية أيضًا. وعلى قمة الجبل هناك صخرتان دائريتان متماثلتان، لونهما أبيض يميل للخضار، حجم الواحدة عشر أقدام مكعبة، وتلمع تحت أشعة الشمس، حتى إن الناس قالوا إنهما عينا التنين.

وتختلف أنواع الأشجار التي تنمو على الجناحين الشمالي والجنوبي لـ "جبل التنين"، ففوق المنحدر الجبلي للجناح الشمالي المطل على نهر "جيلوا" تنمو بالأساس أشجار البلوط والصنوبر والبتولا البيضاء، أما الجناح الجنوبي فتنمو فيه أشجار الصنوبر متساقطة الأوراق وأشجار الحور. وتتوزع قرية "لونغ تشان" بين الجناحين يمينًا ويسارًا، وتنقسم لأربعة أجزاء، فالجناح الجنوبي يتكوّن من الزاوية الجنوبية الغربية،

والضلع الجنوبي الشرقي، أمّا الجناح الشمالي فيتكوّن من المنحدر الغربي والمدخل الشمالي. ويتوزّع السُكَّانُ بشكلٍ غير مُتناسِقٍ بين هذين الجناحين، حيث يكثرون في الجناح الجنوبي ويقلُّ عددهم في الجناح الشمالي. كما تختلف أيضًا مظاهر الحياة في الجناحين، فالجناح الجنوبي مضيء ومزدهر، مُعظم سُكَّانه من ذوي الحظوة والجاه، بينما الجناح الشمالي خاؤٍ وكئيب، ومعظم سُكَّانه من الطبقات الدنيا، أمّا المنحدر الغربي الذي يُعدُّ أعلى نقطة في القرية فيقع في منتصف الجبل، وهو ليس شديد الانحدار بل يسهل السير عليه.

والطريق الرئيسي في قرية "لونخ تشان" يُدعى طريق "لونخ جي"<sup>(1)</sup>، وهو طريقٌ ذو اتّجاهين ملاصقٌ للجبل، ويرتفع تدريجيًا حتى يصل إلى المنحدر الغربي. وهناك طريقان صغيران متعرّجان مُغطيان بالعُشب، يصلان من المنحدر الغربي إلى قمة الجبل، يستخدمها الناس سيرًا على الأقدام، وهناك بضعة عشر طريق بين صغير وكبير يصلان بين الجناحين الشرقي والغربي مرورًا بطريق "لونخ جي".

وكل الطرق هنا هي طُرُق مليئة بالصخور الصغيرة.

وبعد التطور الذي حدث بالقرية، قامت الحكومة المحلية بإعادة رصف طريق "لونخ جي" بالأسمت، وأنشأت كُشكًا مُائيًا الأضلاع فوق قَمّة الجبل، لكن تلك التغييرات تسبّبت في اختلال السلام المجتمعي؛ ففي ذلك العام مات شخصان من القرية نتيجة لسعات القراد السّام الذي يعيش بالغابة، وكانت تلك الحوادث لم تحدث من قبل في تاريخ قرية "لونخ تشان، جعلت الجميع يشعرون بالصدمة والخوف، كما حدّثت كارثتان بنهر "جيلوا"، الأولى كانت انسداد النهر بجبال الثلج في فصل الربيع، والثانية كانت الفيضان في منتصف الصيف؛ ممّا تسبّب في غرق المنطقتين اللتين يمرُّ بهما، مُسببًا خسائر

(1) لونخ جي: تعني: العمود الفقري للثّنين- المترجم.

جسيمة، ورغم أن المنطقة الأقل انخفاضاً في القرية - وهي المدخل الشمالي - لم تدخلها المياه، لكن الفيضان صار على مرمى البصر منها، وقال عالمٌ بالـ "فنج شوي"<sup>(1)</sup>: "إنشاء طريق أسمنتي في "جبل التنين" كان أشبه بوضع لاصقةٍ طبيّةٍ على العمود الفقري للثنّين؛ فالطريق لم يعد قادراً على التَّنْفُس، وصار "جبل التنين" جبلاً مريضاً. وما زاد الطين بلّةً هو بناء ذلك الكشك المُثَمَّن أعلى الجبل، أليس هذا بمثابة مظلةٍ وُضِعَت فوق رأس التنين؟ التنين يحب المطر، فكيف يعيش إن حُجِبَت عنه مياه السماء؟". وما إن سمع عُمدة القرية هذا التفسير حتى سارع بإعادة كل شيء لأصله، وأرسل أحد أقاربه ليُشعل النار في الكشك أعلى الجبل، وقالوا إن صاعقةً من السماء ضربت أشجار الصنوبر فأشعلت حريقاً دمّره، فَمَن يقدر على التحقيق مع السماء في قضية كارثة طبيعية؟ أمّا عن الطريق الأسمنتي فلم يكن بالأمر الصعب أيضاً، فقد سافر العُمدة مرّتين إلى محافظة "تشانغتشينغ" وعاد بالموافقة الكتابية على مشروع مدّ مياه الشرب في القرية، وبدأ المشروع على الفور، فتمّ حفر الطريق الرئيسي بالقرية من أجل دفن المواسير، وفي الحقيقة كان البَشَرُ والحيوانات بالقرية لا يُحِبُّون الطريق الأسمنتي؛ فقد كان من السهل أن تقع على رأسك أو تنزلق عليه عند هطول المطر.

وبعد إزالة الكشك المُثَمَّن والطريق الأسمنتي لم تَسْتَعِد القريةُ هدوءها فحسب، بل ازدهرت أكثر من الماضي، فقال الناس إن التنين يحبُّ الماء، ومدّ مواسير مياه داخل جسده يُعادل ضَخَّ دماء جديدة طازجة إليه، وهذا أسعده كثيراً، فكان ردُّه للجميل أمراً حتمياً للعامّة. لكن حادثة قتلٍ بشِعةٍ هزّت منطقة "سونغشان" وجعلت قرية "لونغ تشان" تتحوّل إلى مكانٍ غارقٍ في الكآبة وسوء الطالع.

(1) فنُّ التَّنَاغُم مع الفضاء المحيط وتدفُّقات الطاقة من خلال البيئة - المترجم.

كان عمدة القرية "تانغ هان تشينغ" يرى أن قيام "شين شين لاي" باغتصاب "أن شويه أر" هو أمرٌ أبشع بكثير من قتله لأمه بالتَّبئِي؛ فـ "أن شويه أر" هي عنوانٌ لقرية "لونغ تشان"، أو يمكن القول إنها مصباح القرية. فكان يفكر أنه سيدعوها في المستقبل عند بناء معبد فوق "جبل إيشين" لتصير كاهنةً بالمعبد وتشارك في المناسك من أجل جذب عددٍ أكبر من المُصلِّين لحرق البخور.

كانت محافظة "تشينغشان" في الأصل هي مصلحة الغابات، وكانت قرية "لونغ تشان" غابة تايعة لها. وفي بداية تأسيس الدولة ازدهر العمل في الغابات بمنطقة "سونغشان"، فتجمّع فيها الأبطال من كل حذب وصوب، وكان "تانغ تيبه جانغ" والد "تانغ هان تشينغ" واحدًا من عُمال الغابات الأوائل. كان في البداية يقود آلة تهذيب الجذوع؛ وذلك نظرًا لأنه كان يفهم بعض التقنيات، بعدها صار يقود عربة نقل الخامات، وقتها لم يكن مسموحًا للعُمال المتزوّجين بجلب عائلاتهم معهم، بل كانوا يُمنَحون إجازة نصف شهر فقط سنويًا ليعودوا لأسرهم، أمّا لو اشتاقت الزوجات لأزواجهن فكنّ يأتين في أوقات توقّف الزراعة، وقتها لم يكن خطُّ سبيل حديد الغابات يصل إلا إلى "سونغشان"، ولم تكن هناك عربات من "سونغشان" إلى "تشينغشان"؛ لذا لم يكن أمام الزوجات من سبيل سوى ركوب عربات نقل الخامات أو عربات نقل البضائع ليصلن لوجهتهنّ، وأحيانًا كانت بعض العقبات تظهر في الطريق؛ فيستغرق ثمانية أيام أو عشرة أيام. استقلّت سيارة "تانغ تيبه جانغ" الكثير من النسوة اللاتي جئن لزيارة أزواجهن، هؤلاء النسوة عادةً ما كُنّ يركبن مع المساعد في المقعد المجاور للسائق، فكنّ يعطين السائق ومساعدته بعضًا من الأطعمة الشهية التي أحضرنها؛ وذلك نظير توفير أجرة السفر، وفي المساء حين يَبْتَن في استراحات الطريق كُنّ يبادرن بغسل ملابسهما، ويلقين



النُّكَّات، ويتسامرون جميعًا طوال الطريق كما لو كانوا جميعًا أسرةً واحدة.

إلا أنه ذات مرّة ركبت سيّدة سيّارة نقل الخامات الخاصة بـ "تانغ تيبه جانغ"، وكانت ترتدي ملابس بسيطة، وما إن ركبت السيارة حتى بدأت في مسح دموعها وعلاماتُ الحزن تملأ وجهها. لقد تبين أن زوجها حين كان يقطع الأشجار، سقطت شجرةٌ غليظةُ الجذع من أشجار الصنوبر مُتساقطِ الأوراق، وفي لحظة سقوطها وبسبب التَّغْيُرِ المفاجئ في اتجاه الرياح لم تسقط في اتجاه الجبل كالعادة، بل مالت إلى الجانب لتسحق الزوج، وقد جاءت الزوجة لتلحق الجنازة. تلك المرأة الباكية كانت متوسّطة القامة، ذات خصرٍ نحيل مثل أشجار الحور، ووجه بيضاوي، وحواجب متناسقة، وعيون مسحوبة للأعلى، وشفَتين على شكل هلال، فكان مظهرها مثل زهرة الكَمْثرى التي بلّتها قطرات المطر، تثير الشهوة في القلوب. فشعر "تانغ تيبه جانغ" كأنه رأى شجرة صفصاف خضراء قادمة من الربيع بعد أن مرّ برياح الشتاء القارسة، فودّ بشدّة أن يضمّها بين ذراعيه. وحين تتبّع أخبارها عرف أن تلك السيدة أكبر منه بثلاث سنوات، ولم تُنجب بعد، فسعى وراءها كثيرًا، غير مُلتفتٍ لمعارضة أهله، حتى تزوّجها في النهاية، واستقرّ بأسرته في موقع غابة "لونغ تشان"، وأنجب "تانغ هان تشينغ". ولكن لم يكن أحدٌ يتخيّل أن يموت "تانغ تيبه جانغ" في حادث سيارة عندما كان ابنه في السابعة من عمره، أمّا الأم فقد شعرت أنها سيئة الطالع بعد فقد زوجها الثاني؛ فأقسّمت على عدم الزواج مرة أخرى، وهكذا ظلّت بلا رجلٍ في حياتها، ووهبت نفسها لتربية ابنها. وكان "تانغ هان تشينغ" بارًا بأمه، فمنذ صغره وهو يغسل أقدامها، ويدلك ظهرها، ويشعل لها النار تحت السرير ليدفئه، ووفقًا للقانون السائد؛ عندما بلغ سنّ الثامنة عشرة أخذ

مكان والده الذي توفي أثناء العمل، وصار يقطع الأشجار في الغابات ويعطي لوالدته كل قرش يكسبه.

عند تجاوزه العشرين من عمره صار شاباً وسيماً، طوله 180 سم، ونحيفاً إلى حد ما، عريض المنكبين، ذا عظم حاجبٍ مُرتفعٍ؛ ممّا جعل عينيه الواقعة أسفل حاجبين كثيفين تتمتعان بسحرٍ غير طبيعي، به بعضٌ من العمق، وبعضٌ من الحزن، وكذلك بعضٌ من الرقّة، تلك العينان كانتا السلاح السحري الذي يخترق روح أي امرأة. وقد جاء الكثيرون لمنزل أسرة "تانغ" أملاً في طلب الزواج منه، لكنه في النهاية اختار الزواج بالمدعوّة "تشين ماي تشين"، ليس المهم أنها كانت أكبر منه بأربع سنوات، بل أنها كانت مشهورةً بقبحها الشديد؛ ممّا حطّم قلوب الكثير من الفتيات.

كانت "تشين ماي تشين" تعمل وقتها مُحاسبَةً بالجمعية التعاونية، ولديها أخوان، وقد فقدت والديها منذ طفولتها؛ فربّأها أخوها الكبير هي وأخاها الأصغر. أحبّت "تانغ هان تشينغ"، وأصرّت على عدم الزواج من غيره، لذلك طلبت من أخيها الأكبر المساعدة، ففي رأيها كان أخوها رئيسَ منطقة الغابة، و"تانغ هان تشينغ" عامل قَطع أشجار؛ لذا وجب عليه إطاعة أوامر أخيها. وقد أدرك "تشين جين جو" أنه لو طلب من "تانغ هان تشينغ" أن يتزوَّج أخته سيرفض؛ فهما بالفعل لا يليقان ببعضهما، فإذا كان جمعهما سوياً بالشكل الطبيعي هو أمرٌ مستحيل، فلم يبقَ إلا استخدام الحيلة وإيقاع "تانغ هان تشينغ" في الفخ؛ لذا، وفي أحد أيام الشتاء، طلب "تشين جين جو" من زوجته أن تُعدَّ بعضاً من الأطباق الشهية بالمنزل، ودعا "تانغ هان تشينغ" لشرب الخمر، وأسقاها حتى أسكره تماماً، ثم سنده إلى غرفة أخته، وبدون أي خجلٍ قامت "تشين ماي تشين" بخلع ملابسه بأكملها، وخلعت هي الأخرى ملابسها حتى لم يبقَ على جسدها سوى ملابس داخلية علوية، وسروال قصير، واندسًا معاً تحت غطاء

واحد. في الوقت نفسه كانت أم "تانغ هان تشينغ" قد أصابها القلق لغياب ابنها كل هذا الوقت لشرب الخمر في منزل أسرة "تشين"، لقد أصبح القمر في نصف السماء وهو لم يعد بعد، فعلمت أن هناك أمراً ما قد حدث، فذهبت على عجلٍ بحثاً عنه، وما إن دخلت فناء منزل أسرة "تشين" حتى سمعت صوت بُكاء فتاةٍ صادراً من الداخل. وقد أدرك "تشين جين جو" منذ البداية أن الأم ستأتي بحثاً عن ابنها؛ فأوصى أخته أن تشرع في البكاء بمجرد سماع صوت الباب، بينما سيتصنع هو وزوجته السُّكْر، ولن ينهضا، وما إن دفعت الأم الباب ودخلت حتى ركضت تشين ماي تشين منكوشة الشعر نحوها وهي تبكي وتقض عليها كيف أن "تانغ هان تشينغ" قد أفرط في الشرب، ثم اقتحم غرفتها واغتصبها بالقوة. فانتزعت الأم الشمعدان من على الطاولة بعنف، واندفعت إلى داخل الغرفة، فرأت ابنها نائماً فوق السرير وملابسه لا تزال على الأرض، فأدركت أنه وقع في الفخ، فأطلقت تنهيدة واستدارت إلى المطبخ وأتت بوعاء ماءٍ باردٍ سكبته على رأس ابنها، الذي استفاق من نومه ليرى أمامه تشين ماي تشين عارية الذراعين والصدر، فشعر بخزيٍ شديد، واعتقد أنه قد ارتكب ما لا يجب فعله.

وهكذا اضطرَّ "تانغ هان تشينغ" إلى الزواج من "تشين ماي تشين"، وفي ليلة العرس، وبمجرد أن دخلا إلى غرفة نومهما حتى أطفأ كل الشموع؛ فلم يكن راغباً في رؤيتها؛ فوجهها الملطخ بالأصباغ الزاهية الثقيلة كان أشبع من وجهها بلا زينة. لقد وضعت على وجهها طبقةً ثقيلة من الكريم أشبه ببطانة التدفئة لتخفي مسامه الكبيرة، فصارت حين تضحك يتشقق ما حول فمها، وتنبت له أجنحة سرعان ما تسقط. كما أنها رسمت خطين أسودين عميقين فوق رموشها لتعطي لمن يراها انطباع الجفن المزدوج، فكانا أشبه بالنمل المتجمع قبل الأمطار العاصفة، أما شفتاها الغليظتان فغطتهما بأصباغ حمراء قانية

كما لو كانت التَهَمَت لَتَوَّها لحم طفلٍ مَيَّت. لكن ما لم يكن يتوقعه "تانغ هان تشينغ" أن "تشين ماي تشين" ذات الملامح القبيحة تملك جسداً ناعماً رقيقاً، كما أنها كانت عذراء، وهو عالم بتلك الأمور؛ فقد أقام علاقةً من قبل مع سيِّدةٍ متزوِّجة كانت تُعَدُّ لهم الطعام عندما كان يعمل في مكان قَطَعَ الأشجار. وفي تلك الليلة لم يغمض له جفن، ونهض في صباح اليوم التالي وذهب إلى غرفة أمه بحثاً عن بعض السَّكينة، وقال لها بغيظٍ مكتومٍ إن تلك الوليمة التي دعته إليها أسرة تشين كانت مَكيدة؛ فهو لم يغتصب "تشين ماي تشين". لو عَلِمَ هذا مُبَكِّراً لَمَّا تزوَّجها، لكن الأم كانت تعلم أن ابنها في الحقيقة مظلومٌ، لكنها تَرَكَته يتزوَّجها رغم ذلك؛ لأنها كانت تخشى أن ينشروا في كل مكان أن ابنها نام مع ابنتهم ولم يتحمَّل مسؤولية فِعَلته، والسبب الثاني أنها رأت في "تشين ماي تشين" زوجةً سالحة، رغم كونها مُتسلِّطةً قليلاً. أمَّا السبب الثالث فأنها سمعت أن ابنها على علاقة آثمة مع امرأة في العمل، ففكَّرت أنه قد ارتكب إثمًا في البداية؛ لذا فزواجه من امرأة قبيحة لا يُعَدُّ ظُلماً، وقد أدركت من شكوى ابنها أن "تشين ماي تشين" فتاة طاهرة؛ وذلك زاد قلبها فَرَحًا، فقالت له: "إن الخمر مُطبعةٌ طالما ظلَّت داخل زجاجتها، لكنها ما إن تدخل المعدة حتى تصير كالشيطان، تذكُرُ كلامَ أمِّك: لا تُسْرِف في شُرْب الخمر فيما بعدُ مهما كان الشخص الذي يشرب معك؛ فالعقل لا يُلدِّغ في حياته من نفس الجُحر مرَّتَيْن". تلك الكلمات حفرها "تانغ هان تشينغ" في عقله، ومن وقتها صار لا يتناول إلاَّ رشقاتٍ قليلة من الخمر، كاليعسوب الذي يلامس بسيقانه سطحَ الماء. حتى لو كان يستقبل ضيوفاً.

والآن حين يحكي أهل قرية "لونغ تشان" حكاية "تانغ هان تشينغ" يشعرون جميعاً أن زواجه من "تشين ماي تشين" كان يستحقُّ، فبدون

مساعدة أخيها الأكبر أني له أن يرتقي من عاملِ قَطْعِ أشجار إلى مكانته الحالية؟

كان "تشين جين جو" مُدَلِّلاً في مسيرته المهنية؛ فقد بدأ عمله كرئيس لساحة قطع غابات، ثم ترقى ليصبح نائبَ رئيس مصلحة الغابات في "تشينغشان"، وفي العام الذي تأسست فيه مُحافَظَةٌ استطاع أن يهزم جميع المنافسين ويقتنص منصبَ أوَّلِ مُحافِظٍ، وبعدها ترقى من مُحافِظٍ إلى نائب السكرتير العام، ووزير التنظيم بلجنة منطقة "سونغشان"، كان طريقه الوظيفي سَلِسًا. ورغم القول بأنه سيصل للمعاش بعد سنتين، لكن بفضل مكانته وسُلطاته على مدار ثلاثين عامًا لم يَعد أيُّ من أقاربه مُوَاطِنًا عاديًّا، بل صاروا جميعًا من ذوي المكانة.

فالأخ الأصغر له - واسمه "تشين ين جو" - هو نائب محافظ "تشينغشان"، وأخو زوجته الأصغر يشغل منصب نائب رئيس مصلحة المالية بمنطقة "سونغشان" وأخت زوجته الصغرى تشغل منصب رئيس لجنة تنظيم الأسرة، وكلهم كوادِر على مستوى المحافظة. أمَّا ابنه فيشغل منصب نائب مدير أمن منطقة "سونغشان"، وابنته تعمل في مصلحة الحفاظ على البيئة بمدينة "لين". والوحيد من أقاربه الذي يشغل منصبًا صغيرًا هو "تانغ هان تشينغ"، فقد كان على درجة كادر بالقُرى، ليس لعدم وجود فرصة للترقي، ولكن لأنه لم يرغب في مغادرة قرية "لونغ تشان"؛ لذا كانت زوجته "تشين ماي تشين" دائمًا ما تقول إن زوجها كالضفدع في قاع البئر، فهو لم يُعطَل نفسه فحسب، بل جرَّها معه أيضًا، وربطها في مكانٍ بحجم كَفِّ اليد. وعندما كان "تشين جين جو" يشغل منصب نائب رئيس مصلحة الغابات في "تشينغشان"، ترقى "تانغ هان تشينغ" وزوجته وصارا كادريين، وعندما وصل لمنصب المحافظ ترقى "تانغ هان تشينغ" لمنصب نائب العمدة، وعندما تولى منصبَ وزير التنظيم

بلجنة منطقة "سونغشان"، صار "تانغ هان تشينغ" عُمدة القرية. وكان في نيّة "تشين جين جو" أن يستمرّ في ترقية زوج أخته ليشغل وظيفة ما على درجة أعلى في محافظة "تشينغشان"، لكن "تانغ هان تشينغ" تمسك بقرية "لونغ تشان"، رافضاً الذهاب إلى أي مكان آخر، وهكذا أسقط في يد "تشين ماي تشين"، وتخلّت عن رغبة الترقّي في السُّلم الوظيفي، وتولّت منصب رئيس مركز إدارة السوق الجنوبي، لتهيمن على التجارة الفردية في قرية "لونغ تشان".

أنجب "تانغ هان تشينغ" وزوجته "تشين ماي تشين" طفلين: ابنة اسمها "تانغ ماي"، وابتناً اسمه "تانغ تشيه". "تانغ ماي" في السابعة والعشرين، وليس لديها حبيبٌ بعد، أمّا "تانغ تشيه" يدرس في كندا، ورغم أنه في الثالثة والعشرين من عمره إلا أنه أستبدل أربع حبيبات، من بينهم حبيبتان أجنبيتان. لم يكن "تانغ تشيه" يُشبه أباه البتّة، كما لو كانا بلا صلة قرابة؛ فقد كان يشبه والدته: قصير القامة، خفيف شعر الحواجب، كبير الأنف، صغير العينين، غليظ الشفتين، ورغم جمال أذنيه إلا أن من سوء الحظ أن الأذنين تبتان في جانب الوجه؛ لذا فإن النقطة الأجمَل في ملامحه لم يكن بإمكانها إضافة أي جمال لوجهه. أمّا "تانغ ماي" فتشبه والدها، وطولها 168 سم، وذات رقبة طويلة وخصرٌ نحيل وصدر ممتلئ، فكانت رشيقةً ومثيرة، أمّا عيناها الواقعتان تحت حاجبيها الشبيهين بأوراق الصفصاف فكانتا مثل عيني جدّتها، عيناها مسحوبتان للأعلى، بإمكانهما الكلام، كانت امرأة ذات جسدٍ بالغ الأنوثة وعينين ساحرتين تخلب العقول والقلوب، ولديها أيضاً بشرة بيضاء بمثابة خلفية ملامحها، وتمتلك أنفٌ منتصب كقائد لفخر وجهها، ولديها ذقنٌ ينتهي بخطّ بيضاويّ جميل بمثابة خير ختام لجمالها، لقد امتلكت وحدها حُسنَ كلِّ النساء.

بعد أن اجتازت "تانغ ماي" الثانوية العامة التحقت بكلية الطب بمدينة "لين"، وفي بداية التحاقها بالكلية كانت عيناها أشبه بالسُّحب

فوق جدول الماء، رطبتين وساحرتين تخليبان العقول، ولكن بعد دراستها صارت تلك العينان الجميلتان أشبه بزهرتين غطأهما الصقيع، وصارتا باهتتين بلا روح، حتى إن "تشين ماي تشين" قالت بأنها ما كان يجب عليها أن تسمح لابنتها بدراسة الطب، وخاصة تخصص العقاقير الطبية؛ فتعاملها مع الأدوية في المعمل طوال اليوم تسبب في تأثر عيني ابنتها.

وبعد أن تخرّجت "تانغ ماي" في الكلية كان بإمكانها البقاء بالمدينة اعتماداً على نفوذ خالها "تشين جين جو"، إلا أنها أصرت على العودة لمسقط رأسها. وكان يمكن تقبل عودتها إلى "تشينغشان"، فعلى أي حال تُعتبر محافظة، لكنها أرادت أن تعمل في الوحدة الصحية بقرية "لونغ تشان" على وجه التحديد، ذلك الإصرار على البقاء في قلب الجبل أغضب "تشين ماي تشين" لدرجة أن أصابها المرض، وندبت حظها العاثر الذي جمعها بأب أبله وابنته الحمقاء. فالناس الآن يبحثون عن كل أنواع الوساطة ولا يبخلون بالجهد والمال كي يهربوا نحو المدن الكبرى، بينما أسرّتهم لديها السطوة، لكن لا الكبير ولا الصغيرة يستغلونها، فهل قرية "لونغ تشان" هي القصر السماوي بالنسبة لهما؟ وفكّرت أن السبيل الوحيد الذي سيدفع "تانغ ماي" للمغادرة هو الزواج، فلو وقّعت في حبّ شخص ستذهب معه إلى أي مكان، بالضبط كما تفعل هي بالبقاء مع "تانغ هان تشينغ" مهما كانت الظروف؛ لذلك ما إن عادت "تانغ ماي"، حتى طلبت أمها من الأقارب والأصدقاء أن يبحثوا لها عن عريس خارج قرية "لونغ تشان". وكل الشباب العُزّاب ذوي الظروف الممتازة الذين أتوا إلى قرية "لونغ تشان" لرؤية "تانغ ماي" خفقت قلوبهم من طلّتها، إلا أن جميعهم كانوا في نظرها ماديّين، فكانت تقول دائماً إنه لا يوجد توافقٌ بينها وبين المتقدم. ونتيجة لرفضها لكل هؤلاء الشباب الوسيمين لم تقلق "تشين ماي تشين" فحسب؛ بل حتى "تانغ هان تشينغ" شعر بالقلق

أيضاً، فقال إنه قد سئمَ من هذا المكان ويرغب في أن ينتقل إلى المدينة مع أسرته، حينها كانت "تانغ ماي" تقول ببرود: "أذهبوا حيثما شئتم، أمّا أنا فسأبقى هنا طيلة حياتي".

وبعد سنةٍ أدركا لماذا كانت "تانغ ماي" مُصرَّةً على البقاء في قرية "لونغ تشان". لقد كانوا يقيمون في الناحية الجنوبية الشرقية، وعندما عادت "تانغ ماي" بعد تخرُّجها أقامت معهما لنصف شهر فقط، ثم انتقلت لمنزلٍ آخر، مُتعلِّلةً بأنها صارت بِالِغَةِ، وتحتاج إلى مساحةٍ خاصةٍ بها، وقد أعجبها منزلٌ صغيرٌ مهجور عند المنحدر الغربي، كان في الأصل مَسْكناً لِعَمَّالِ الغابات، جدرانُه من الطين، وسقفُه من الأعشاب الجافة، كما أن تعرُّضَه لعوامل التعرية لبضعة عشر عاماً جعله مائلاً كمُصابٍ بالروماتيزم، وصار مكاناً لتجمُّع القطط والكلاب الضالَّة، كان ببساطةٍ كما وصفته "تشين ماي تشين": "حتى الشَّحاذون لا يسكنون في مكانٍ مثله"، لكن "تانغ ماي" قالت إنه يعجبها؛ ففيه يمكنها سماع صوت مياه نهر "جيلوا"، وعندما عجزت "تشين ماي تشين" عن منع ابنتها من تنفيذ ما برأسها، لم يُعد أمامها سوى هدم ذلك المنزل وبناء كوخٍ صغيرٍ مكانه باستخدام أشجار الصنوبر، كان جميلاً ورشيقياً، أشبه بكنيسة قريةٍ صغيرة، وأضاف للمنحدر الغربي لمسةً جماليَّةً. أمّا "تانغ هان تشينغ" فقد قدح زناد فِكْرِهِ من أجل سلامة ابنته، وقال بأن الجناح الشمالي هو من الأماكن غير الآمنة بالقرية؛ لذا يجب وضع مخفر الشرطة هناك من أجل إرهاب المجرمين المندسِّين، وهكذا رصَّدت حكومة القرية ميزانيَّةً لبناء مبنى صغيرٍ من طابقين بجوار الكوخ الخشبي، ونقَّلت فيه مخفر شرطة الزاوية الجنوبية الشرقية. وبالطبع كان هناك وردِيَّاتٌ على مدار اليوم في المخفر، وكان هذا بمثابة تعيين حرَّاس دائمين لـ "تانغ ماي"، وبعد بناء الكوخ جاءت "تشين ماي تشين" خُصِيصاً بشجرِيَّيْ برقوقٍ وتَفَّاحٍ تتحمَّلان البرد من مركز الزراعة بـ "سونغشان"، وزرعتهما أمام الكوخ؛



فصار الفناء يتغطى بأزهار وردية، ويفوح عبْقها في كل مكان بحلول موسم تفتُّح الزهور، وفي الأيام العاصفة كانت براعم الزهور تتطاير في كل مكان، ولو رآها ضعيف البصر لقال إن الفراشات جاءت مُبكرًا هذا العام.

انتهى بناء الكوخ في خريف نفس العام، وانتقلت إليه "تانغ ماي" عند تساقط الثلوج. وفي ربيع العام التالي سافرت لمكان بعيدٍ وعادت ومعها ضيف. هذا الضيف أصبح كروحٍ شريفةٍ حطت على رأسي "تشين ماي تشين" و"تانغ هان تشينغ"، وسببت لهما صداغًا مستمرًا.

كان هذا الضيف فتاةً تُدعى "تشين يوان"، زميلتها في الجامعة، ويُقال إنها أصيبت بمرضٍ غامضٍ قبل التخرُّج، جعلها تفقد الإحساس في جسدها كله، بجانب الرعشة، وكثرة الدموع، والهلاوس السمعية، وفقدان الذاكرة، كما انخفض مُعدّل ذكائها بشكلٍ حاد؛ فتوقفت عن الدراسة ولم تحصل على شهادة التخرُّج. وكان بيتها في قرية، وقد ماتت أمها مُبكرًا، وتزوَّج أبها ثانيةً، وأنجب لها أخًا وأختًا أصغر؛ لذلك أصاب توقُّفها عن الدراسة كلُّ أفراد أسرتها من كبيرٍ وصغيرٍ بالقلق والاكئاب؛ فلم يكن لديهم المال لعلاجها، فظلُّوا يراقبونها وحالتها تسوء يومًا بعد يومٍ وتقترب من الشَّلَل التام. أما "تانغ ماي" فقالت إنها لن تقبل برؤية صديقتها العزيزة تتألّم؛ فقررت أن تراعيها طوال حياتها.

وما إن أخبرت "تانغ ماي" أسرة "تشين" بقرارها، حتى لقبوها بالمنقذة، وسارعوا بإلقاء هذا الحمل عليها خوفًا من أن تراجع في قرارها، حتى إن زوجة الأب اللئيمة ذهبت خصيصًا إلى مدينة "لين" بعد أن رحلت "تانغ ماي" ومعها "تشين يوان"، وبحثت عن صحفيٍّ بالجريدة المسائية ونشرت ذلك العملَ الخيريَّ الذي قامت به "تانغ ماي"، فكان التقرير الصحفي الذي نُشر في صفحة كاملة بمثابة

معاهدة مُعلنة بالنسبة لأسرة "تشين"، تنازلوا بموجبها للأبد عن "تشين يوان" لصالح "تانغ ماي"، أمًا بالنسبة لـ "تانغ هان تشينغ" وزوجته فكان كصخرة ضخمة هبّطت من السماء لتكبس على أنفاسهما حتى صارا عاجزين عن التنفس.

وبين ليلة وضحاها صارت الابنة نموذجًا أخلاقيًا، أمًا "تشين ماي تشين" فقالت إن "تانغ ماي" قد رفضها حِمَارًا في رأسها فأصابها بالخبل.

صارت "تانغ ماي" تذهب كل يوم إلى عملها بالوحدة الصحية بالزاوية الجنوبية الغربية وهي تمسك بيدها يد "تشين يوان"، كانا من نفس العمر، لكن "تشين يوان" - التي زاد وزنها تدريجيًا - صارت أشبه بالأمهات؛ لذا لو قارنًا من ناحية الجسد فسنجد أن "تشين يوان" كأنها أكبر من "تانغ ماي" بجيل كامل، لكن لو نظرنا للملامح، فإن "تانغ ماي" هي التي تبدو من جيل أكبر من "تشين يوان"؛ فـ "تشين يوان" تملك ذكاء طفل في الخامسة أو السادسة، ذات وجه بريء، بينما تجد بين حاجبَي "تانغ ماي" سُحُبَ قلقٍ لا تنقشع.

ليس بالوحدة الصحية الصغيرة إلا ستة أشخاص، من ضمنهم رئيس الوحدة "جان تشيه شينغ"، كما تحتوي على مُعدّات طبية فقيرة لا يمكنها سوى عمل السونار وإجراء التحاليل العادية للدم والبول، أمّا الأمراض التي يعالجها الأطباء هنا فهي الأمراض البسيطة، مثل: الصداع، والحُمى، أو الجروح الطفيفة، حتى العمليات الصغيرة مثل عملية الزائدة الدودية تحتاج إلى تحويل إلى مستشفى الشعب بمحافظة "تشيونغشان". في الحقيقة كان "تانغ هان تشينغ" يملك القدرة على تحسين وضع الوحدة الصحية ورفّح قدراتها، لكنه حافظَ على وضعها الحالي لأسباب خاصة؛ فقد كان يأمل أن تشعر "تانغ ماي" بالانزعاج من تلك الوحدة الصحية المتخلفة، وتقرّر الرحيل عنها في

النهاية، لكن "تانغ ماي" كانت كالتائر الذي يُعْنَى حتى وهو يطاء فروعاً جافّة؛ فلم تفكّر ولو للحظة في التخلّي عنها.

كانت "تانغ ماي" هي مَنْ قامت بالتشخيص الطبي المبدئي بعد قيام "شين شين لاي" باغتصاب "أن شويه أر"؛ لذا لو فكّر "تانغ هان تشينغ" في استعادة سُمعة "أن شويه أر"، لتوجّب عليه التحدّث مع شخصيتين محوريّتين، الأولى: هي "تانغ ماي"، التي شاركت في التشخيص، والثانية: هي شاهدة العيان، العمّة "دان سيه".

والجميع بالقرية يعلم أن أكثر اثنين تُعاملهما "تانغ ماي" جيّداً هما "تشين يوان" و"أن شويه أر"؛ فهُنَّ يَسْكُنُ في الجناح الشمالي لجبل التنين، وكانت تحرّكاتهنّ كثيرة. وعندما كانت "تانغ ماي" تذهب للمدينة لشراء بعض الأشياء كانت لا تنسى إحضار بعض الهدايا لـ "أن شويه أر"، مثل الملابس الملوّنة بألوان قوس قزح، والبنطال الكاروهات أبيض في أسود بحمّالات، وحذاء المطر الأحمر، والتّنورة الخضراء، ومشبك الشّعر المرصّع بالكريستال، والطّرحة الزرقاء بلون البحر، كل تلك الملابس التي كانت تجعل "أن شويه أر" لامعةً وفاتنة كانت من إهداء "تانغ ماي"، وكانت "أن شويه أر" تردُّ لها الهدايا بأشياء صنّعتها بنفسها في أوقات فراغها من صنّع الشواهد الحجرية، مثل علبة حلوى مصنوعة من لحاء شجر البتولا، أو كوب لغسل الأسنان مصنوع من خشب الحور الأبيض، أو أساور من العشب الأخضر، وبالطبع كانت كل تلك الهدايا من قطعّين؛ فلم تكن تنسى تشين يوان قط.

عندما دخل "تانغ هان تشينغ" فناء ابنته، كانت "تانغ ماي" تجلس هي و"تشين يوان" أسفل شجرة الفاكهة تستقبلان أشعة الشمس المائلة لتجفّفاً شعريّهما المغسول للتوّ. كانت هذه هي المرة

الأولى التي يرى فيها "تانغ هان تشينغ" ابنته من بعد حادثة "أن شويه أر".

لقد نحفت "تانغ ماي"، واصفراً وجهها، وصار حاجباها مقتضبَيْن، كان "تانغ هان تشينغ" يعلم أنها حزينة من أجل ما حدث لـ "أن شويه أر"، فسحب كُرسياً وجلس، فضربت الفاكهة الخضراء فوق أغصان شجرة البرقوق المتدلية جبهته، كما لو كانت تلك الفاكهة عصا قرع طبولٍ اعتبرت جبهته طبلةً فأسرعت بقرعها وإخراج الأصوات منها. وبعد أن صبَّ "تانغ هان تشينغ" وإيلاً من السُّباب على رأس "شين شين لاي" أطلق تنهيدة طويلة ثم سأل: "هل اغتصب ذلك الحيوان "المبروكة أن" فعلاً؟".

عضت "تانغ ماي" شفتها السفلى وقالت "نعم"، ثم طوّحت رأسها فتطايرت قطرات الماء بين خصلات شعرها وكأنها عدداً لا نهائياً من نقاط نهاية الجُملة، ثم طارت لتستقرّ على جبهة "تانغ هان تشينغ"، وعندما رأت "تشين يوان" ذلك طوّحت هي الأخرى برأسها، وضحكت بسعادة حين رأت قطرات الماء المتطايرة.

"بالنسبة لذلك الفحص الطبي، لقد ذهبت خصيصاً إلى مديرية الأمن بالمحافظة بحثاً عن طريقة لسحبه، ولا تسألني لماذا، كل ما عليك فعله هو لو سألك أحدهم فقولي إنك فحصتها مرّة ثانية ووجدت أن "المبروكة أن" لم تتدنّس".

فقال "تانغ ماي": "لم أقم بهذا الفحص الطبي وحدي"، ثم أضافت: ""شين شين لاي" هو حيوان، لماذا ندفع عنه تلك الجريمة؟". "لقد ارتكب جريمة قتل، وهذا كافٍ لإعدامه، فما الداعي لإقحام سُمعة فتاة بريئة رقيقة معه؟".

"لقد أصدرت مديريّة الأمن أمراً بالقبض عليه، ورصدت مكافأة لمن يرشد عنه، وبمجرد أن يسقط في قبضة العدالة فسيُعترف بأنه

اغْتَصَب "المبروكة أن"، بالإضافة إلى أن الطبيب الشرعي كان موجودًا أثناء الفحص، واستخلص سائلًا منويًا من داخل جسدها، وأثبت الفحص أنه يعود لـ "شين شين لاي"، فحتى لو فرضنا أنك استطعت مَحْوَ هذا التقرير الطبي، فلن تتمكن من إغلاق فم العمّة "دان سيه"، فقد رآته وهو يغتصب "أن شويه أر".

وما إن انتهت "تانغ ماي" من كلامها حتى دخلت الكوخ لتصبّ الشاي لأبيها، لكنها عندما خرجت لتقدّمه له كان قد رحل. لم تكن هناك رياح، لكن شجرة البرقوق الموجودة بجوار الكرسي الذي كان يجلس عليه أبوها كانت تهتز، يبدو أنه صبّ عليها غضبه قبل أن يرحل، أمّا "تشين يوان" فكانت تشير لتلك الشجرة وهي تقول لـ "تانغ ماي" بلهجة باكية: "لقد تعرّضت المسكينة للضرب".

عندما خرج "تانغ هان تشينغ" من عند "تانغ ماي"، لم يذهب إلى المدخل الشمالي بحثًا عن العمّة "دان سيه"؛ ففي هذا التوقيت ستكون في السوق الجنوبي تبيع فطائر الصاج. وفي السوق، يكثر الناس وتكثر الألسن؛ لذا فضل أن يتحدث معها في بيتها ليلاً. لم يكن واثقًا من سقوط "شين شين لاي" في يد العدالة؛ لأن عدد سكان منطقة "سونغشان" حوال سبعمائة أو ثمانمائة ألف نسمة، لكن مساحتها تعادل مساحة فرنسا، وتتخلّلها سلاسل جبال ومناطق غير مأهولة بالسكان؛ لذا يسهل الاختباء فيها. بالإضافة إلى أن فصول السنة تساعده أيضًا؛ ففي كل مكان بالجبل هناك ما يصلح للأكل، وموارد مياه وفيرة، ونحن في موسم مكافحة الحرائق؛ لذلك يُمنع الناس العاديون من دخول الجبل، وهذا يمنحه فضاءً واسعًا للهروب. أضف إلى كل هذا أن "شين شين لاي" منذ صغره اعتاد دخول الجبل مع "شين كاي ليو"، ولديه قدرة عالية على العيش في البريّة؛ ولهذه الأسباب رأى "تانغ هان تشينغ" أن الوصول إلى "شين شين لاي" هو أمرٌ شبه مستحيل.

كان "تانغ هان تشينغ" هو الزعيم الأكبر في قرية "لونغ تشان"، ومن أجل الحفاظ على كرسِيَّ عُمدة القرية لفترة طويلة عملَ بشكلٍ رمزيٍّ كسكرتير للجنة القرية لمدة عام واحد بعد انتهاء فترته الأولى كعمدة للقرية، بعدها عاد لمنصبه الأصلي، قائلاً إنه بهذا الشكل يمكنه البقاء في المنصب لفترتين متتاليتين أخريَيْن، وبعد أن ترك منصب سكرتير القرية أرسلت المحافظة شاباً جامعياً ليخلفه، لكن "تانغ هان تشينغ" شعر بأنه عَقَبَةٌ في طريقه؛ فطرده، وجمع هو بين المنصبين ليجمع في قبضته كل السُّلطات. وخلال تلك السنوات كان يعود مكتتباً بعد كل مرة يذهب فيها إلى رحلة عمل للمناطق الساحلية المتقدِّمة؛ فالتقدُّم الاقتصادي في تلك المناطق كان ثمنه التضحية بالموارد والبيئة، ورغم أن المباني هناك شاهقة، إلا أن الهواء والماء مُلوَّثان، أمَّا هو فقد نشأ في الجبل، ويحبُّ الطبيعة؛ لذا عندما يعود من محافظة "تشينغشان" والتعب يملؤه، تجري الدماء في عروقه ثانيةً بمجرد رؤية الجبال والأنهار الصافية وبمجرد تنفُّسه الهواء الطازج، تزول على الفور من جسده كل آثار السفر، وبسبب هذا كان خلال تلك السنوات يتعلَّل بشتَّى الحُجَج لكي يرفض كل الصناعات التي تؤثِّر على البيئة؛ ففي رأيه كانت التنمية القائمة على إفساد البيئة أشبهَ بشخصٍ قطع أقدامه واستخدمها كحَطَبٍ كي يتَّقِي بها البرد القارس؛ ممَّا تَسبَّب له في إعاقة دائمة.

كان "جبل التنين" في الصيف مثل زجاجة عِطْرِ عملاقة وَقَعَت على جانبها؛ فكل أنواع أشجار الصنوبر، والدردار الأبيض وكل ألوان الزهور البرية - كلها بلا استثناء - تَنفُثُ عطورها، وعطور النباتات مثلها مثل شخصيات البشر، غير متشابهة، فمنها الثقيل ومنها الخفيف، منها المُسَكِر ومنها اللُّزج، وكان "تانغ هان تشينغ" يرى "أن شويه أر" مثل العشب السحري الذي ينفث العطر في الفصول الأربعة، وهناك علاقة وثيقة بين وجودها وبين الجو الجميل بقرية "لونغ تشان"، بل يمكن

القول إنها تساعده بشكل خَفِيٍّ في حُكْم القرية؛ فهي تُنَبِّه الناس أن البشر نهايتهم الموت، فيمتنعون عن ارتكاب الجرائم، ويُبَجِّلون الآلهة والأرواح.

أخيراً غابت الشمس، وبدأ الظلام يَحِلُّ بالتدريج، فتناوَل "تانغ هان تشينغ" طعامه، ثم سار تجاه المدخل الشمالي. كان يحب ذلك الوقت حيث الرؤية مشوَّشة؛ فهذا سيعفيه من الكلام الكثير بلا جدوى. فطوال سنوات شغله لمنصب العُمدة كان أكثر ما أنهكه هو لسانه وليس قلبه. فالناس حين يرونه ينادونه بـ "العُمدة"، أمّا هو فكان يتوجَّب عليه ردُّ النداء بشكل دقيق، فكلُّ أسرة تختلف ظروفها عن الأخرى؛ لذا كانت تحيته تختلف من شخصٍ لآخر، وإلّا كان سيُنظَر إليه بوصفه مُتعالياً وبعيداً عن العامّة.

يقع المدخل الشمالي في سفح "جبل التنين"، ويقطنه أكثر من عشرين أسرة. في منازل من الطوب الأحمر وسقفها من الصاج، وهناك أكواخ خشبية ذات أسقف حمراء، وغرف صغيرة من الطين المسقوف بالأعشاب الجافّة. وفي أكثر أجزاء المدخل الشمالي انخفاً يقع مَجَزَر "شين تشي زا"، أمّا أكثر الأجزاء ارتفاعاً فهو ورشة الحدّاد "وانغ" المهجورة. بعد أن انتقل إلى الزاوية الجنوبية الغربية بالجناح الجنوبي، لكنه دائماً ما يعود للمدخل الشمالي، وكان هناك تابوت مصنوع من خشب الصفصاف في ذلك الفناء الذي يَعْرِضُ عليه ترّكّه، فقد طلب من النَجَّار أن يصنعه له عندما بلغ السبعين من عمره. وكل سنتين أو ثلاث يبهت لون التابوت الأحمر، فيُعِيد دهانه من جديد.

أمّا العَمّة "دان سيه" فتسكن في منتصف المدخل الشمالي، بجوار ورشة "أن شويه أر". ولديها في منزلها حِمَارٌ وطاحون حَجْرِيَّة؛ لأنها تملك دكاناً لبيع فطير الصاج، تلك الطاحون بيضاء اللون، والحمار أسود؛ لذلك عندما كان الحمار يدور في الفناء حول حجر الطاحون

ليحرّكه كان أشبهَ بعلامة الين واليانغ<sup>(1)</sup>، يتباينُ فيها اللونان الأبيض والأسود.

أمّا زوج العمّة "دان سيه" فهو "دان أر دونغ"، وهو الرّابعُ في أسرة "دان"؛ لذلك يدعوه الناس "دان سيه"<sup>(2)</sup>، وكان قبل طلاقه من العمّة "دان سيه" يعمل ككاتبٍ بحكومة قرية "لونغ تشان"، كان نحيفًا للغاية، ووجهه أبيض شاحبًا، ويرتدي نظارة ويحبُّ تركَ شعره طويلًا لينسدل حتى عنقه، ويتحدّث بكياسةٍ ولا يجيد الاختلاط بالناس، لم يكن شخصًا سيئًا، لكن خلقه كان أضيّق من إبرة الخياط، فمشكلة أصغر من حبة السمسم كفيلة بقلب وجهه. وكان لديه هواية الكتابة، فكان دائمًا يرسل مقالاتٍ للجرائد. وحين كان ابنه في العاشرة من العمر ابتسم له الحظُّ، فنشر ثلاث قصص قصيرة بشكل متتالٍ بجريدة على مستوى المقاطعة، وذاع صيته، وصار دائمَ السّفَر للمشاركة في فاعليات المؤلّفين. وبعد أن صار مشهورًا وامتلأت محفظته بالنقود التي تدفعها له الجرائد صار بين ليلةٍ وضحاها مرفوعَ الهامة، ونفّضَ عن نفسه الدُّل، فكان قبل ذلك يمشي في الطريق خافضَ الرأس، أمّا الآن فصار يسير مرفوع الرأس، وكان عندما يذهب للسوق الجنوبي لشراء اللحم يختار فُتات اللحم الأرخص، أمّا الآن فصار لا يشتري سوى لحم الأضلاع الأعلى، وأصبح يتدّمّر من قرية "لونغ تشان" بأنها صغيرة، ويتوجّب عليه مغادرتها نحو العالم الخارجي، وبدأ يحقر زوجته التي عاشت معه على السّرّاء والضّرّاء، فكان يتنمّر عليها بسبب شكلها، ويتصيد الأخطاء في أفعالها، فهذا الطعام مالِحٌ، وذلك البنطال كَوته بشكلٍ مائل، ومُلْمَع الأحذية لم تفرده بشكل متناسِقٍ، وأغطية الفراش لم

---

(1) رمز يتكون من دائرة بداخلها لونين أبيض وأسود ترمز لكيفية عمل الأشياء في العلم الصيني القديم. الدائرة الخارجية تمثل "كل شيء"، بينما الشكلان الأبيض والأسود داخل الدائرة يمثلان التداخل بين طاقتان متضادتان - المترجم

(2) سيه تعني أربعة - المترجم.



تطوَّها جيِّدًا، والزهور في الأصيلص أهَمَلت تربيتها فصارت بلا روح، كل تلك الحجج كانت كفيِّلة بإثارة غضبه، وفي النهاية طَلَّق زوجته وتخلَّى عنها وانتقل للعمل باتحاد الآداب والفنون بمنطقة "سونغشان".

أمَّا العمَّة "دان سيه" المسكينة فلم تخرج بأي شيء من مُعاشرتِها له، كل ما كسبته هو ابنٌ لم يبلغ بعد، يدعى "دان شيا"، واسمُ التصق بها لأنها كانت زوجة له.

بعد الطَّلاق باعت العمَّة "دان سيه" البيت الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية، وانتقلت إلى المدخل الشمالي وافتتحت محلَّ فطائر الصاج، وأقسَمَت على أن تربي ابنها خيرَ تربية، فكانت صارمَةً للغاية في تربيته، ولم تسمح له بفعل أي شيء سوى الدراسة، لكن "دان شيا" كان يرسب في امتحان الثانوية العامة كل سنة، وتكرر ذلك أربع مرَّات؛ فأصيب بانهيارٍ عصبِيٍّ، وصار أبله. لم تتخيَّل العمَّة "دان سيه" انها بعد أن صلبت ابنها فوق صليب الكُتُب لم تستطع جعله يُحلِّق عاليًّا، بل على العكس تسبَّبت في مأساته، وهذا جعلها تشعر بالذنب، فأعادته ثانية إلى قرية "لونغ تشان"، وألقت بكل الأدوات الدراسية التي استخدمها من قبل في دورة المياه، لتجعله يودِّع نهائيًّا الكتب والمعرفة، وبدأت في تعليمه صنعةً. وأحبَّ "دان شيا" العمل، فكان يعمل دون أن يرمش له جفن، وحين تطلب منه أمرًا يفعله بتركيز حتى النهاية لو لم تصحَّ فيه بالتوقُّف، وقد تعاطفَ "تانغ هان تشينغ" مع تلك الأمِّ وابنها، فكان يعطيه أيَّ عملٍ مناسب له ليزيد قليلًا من دَخل العمَّة "دان سيه" كي تعيش حياةً كريمة ولو قليلًا.

وعندما دخل "تانغ هان تشينغ" إلى منزل العمَّة "دان سيه"، كان "دان شيا" يقطع الحطب في الفناء مستعينًا بالضوء الخافت القادم عبر النافذة، أمَّا العمَّة فكانت داخل الغرفة تنقع الحبوب، وعندما رأت "تانغ هان تشينغ" أصابتها الدهشة، فهو لم يأت قطَّ مُفردَه إلى منزلها

من قبل؛ لذا ارتبكت وسارعت بجذب مقعد صغير، ثم تذكّرت أنه عمدة القرية، يجب أن يجلس على مقعد مُلائم؛ لذا أَلقت بالمقعد الصغير من يدها وذهبت لتجلب كرسيًا. وكان الكرسيُّ مُغطى بالكثير من التراب، ومن شدّة الارتباك مسحت الكرسي بأكمام ملابسها. وبعد أن جلس "تانغ هان تشينغ" أرادت العمّة أن تصنع له بعض الشاي، ولكنها حين تناوَلت علبة الشاي من أعلى الصوان، عجزت عن تذكّر أين وضعت الإبريق، فتصبّبت عرقًا من فرط الارتباك، فسارع "تانغ هان تشينغ" بالقول إنه لا داعي لأي شيء، فهو سيرحل سريعًا. وعندما أفصح عن سبب مجيئه، لم يتوقّع أن ترفض العمّة "دان سيه" قائلةً إن كل ما رأته حقيقة، وقد أدلت بشهادتها بالفعل في مركز الشرطة، ولا يمكنها التراجع عنها. فحاول "تانغ هان تشينغ" إغراءها بالقول إن التجارة تزدهر يومًا بعد يوم في السوق الجنوبي، وعامل نظافة واحد غير كافٍ؛ لذا فهو يفكّر في تعيين عاملٍ آخر، بل يفكّر في استقدام "دان سيه" حيث يمكنها أن تكسب ألفًا وثمانمائة يوان كلّ شهر؛ ممّا سيكفي مصاريف معيشتها. عندها لمعت عيناها، وبدا عليها الرغبة في الحصول على تلك الوظيفة من أجل ابنها، لكنها تردّدت قليلًا، ثم قالت بتصميمٍ إنها لا يمكنها الإدلاء بشهادة زور. وبالطبع لم يكن بإمكان "تانغ هان تشينغ" إجبارها على شيء؛ لذا غادر مُنكّس الرأس، مُفعمًا بالإحباط، وحينما كان يغادر فناء منزل العمّة "دان سيه"، كان "دان شيا" لا يزال منكفئًا على تقطيع الحطب.

لم يكن تصميم العمّة "دان سيه" على أقوالها نابغًا من نزاهتها، وإنما لأنها كانت تُضمِر في قلبها تخطيطًا آخر.



## 4

### زَوجَانِ مِنَ الْأَيْدِي

كانت هناك امرأة لا تهاب يَدَيَّ "أن بينغ"، بل كانت يداها مثل يديه بالضبط، يخشاهما الناس، إنها "لي سو تشين" خبيرة التجميل بدار جنائز محافظة "تشينغشان"، والتي كانت على علاقة حُبِّ شبه مُعلنة مع "أن بينغ".

كان لدى "لي سو تشين" زَوْجٌ، يعمل في شبابه بمخزن الغلال بمحافظة "تشينغشان"، وكان ضخمَ الجُثَّة، طويل القامة. لكن هذا الشخص القوي مثل الثور أصيب بمرض ضمورٍ تدريجيٍّ في العضلات نادرٍ، بعد زواجه بقليل. وقد بدأ الضمور من أطرافه الأربعة، وتطوَّر حتى وصل إلى عضلات الصدر والوجه، فصار كمن نخره السُّوس حتى بدا أجوف، ولم يتبقَّ منه إلا هيكل عَظْمِيٍّ، وفي النهاية أصبح مشلولاً طريح الفراش، وظلَّ في مرضه عشرين عامًا، ورغم أنهما لم يُرزقا بأطفال وكان بإمكان "لي سو تشين" الطَّلَاق والابتعاد عنه، لكنها لم

تركه، بل ثابرت على إعطائه الدواء كل يوم، وتدليكه. وقد كان بقاؤه على قيد الحياة حتى اليوم هو معجزة بالنسبة للأطباء.

وقتها لم تكن "لي سو تشين" تعمل، وبعد مرض زوجها خشي أخوه الوحيد أن يشقى به؛ لذا لم يعد يجرؤ على الذهاب لمنزلهما، وعندما يصادف "لي سو تشين" في الطريق كان حتى لا يناديها "زوجة أخي"، بل يكتفي بغمغمة غير مفهومة بمثابة تحية لها، وهذا أصابها بغصة في قلبها. أما أخوها هي فقد أصابه الهلع أيضاً؛ لذا ابتعد عنها قدر ما استطاع. لقد صار مرض زوجها أشبه بحريق ضخم، أمّا الأقارب فكانوا كورقة هشة، التهمتها النيران في ثوان لتصبح رماداً تذروه الرياح. لكن "لي سو تشين" كانت امرأة قوية؛ لذا فكرت بأنه على أي حال توفي كبار السن من الأسترين، فلا يوجد من يحتاج للرعاية؛ ولا يوجد ضرر ضخم من عدم اعتراف الأقارب الآخرين بهما واعتبارهما كالغرباء، لقد عملت "لي سو تشين" كعاملة مؤقتة بالحضانة، لتحمل بمُرتبها البسيط مسؤولية أسترها الثقيلة. بعدها تأسست داراً للجنازات بمحافظة "تشينغشان"، وطُلب خبير تجميل بمُرتب ألفين وثمانمائة يوان، وهذا أثار حماسها، فتقدمت للوظيفة، وحصلت عليها نظراً لعدم وجود منافسين. كان عملها باختصار يتلخص في تزيين المتوفين؛ لتجعلهم يرحلون بشكل جيد، وفي كل مرة كانت يداها تلامسان وجوه الموتى الباردة كان إشفاقها على زوجها يتصاعد، فرغم ضموه حتى صار كأوراق الشجر الجافة إلا أنه لا يزال دافئاً، تلك الحرارة الموجودة بالجسد قادرة على أن تجعل الشخص يهيم بها.

أمّا ارتباط "أن بينغ" و"لي سو تشين" فقد بدأ بمصافحة، عندما توفي والد أحد زملائه في العمل، وذهب هو إلى دار الجنازات لحضور جنازته، وهناك رأى "لي سو تشين"، وسمع أنها خبيرة التجميل، فكان كمن قابل توأم روحه، وبادر بمد يده إليها. كانت يداهما قد اعتادت على تجاهل الناس لهما؛ لذلك ما إن التقتا حتى صارتا كأن

كلًا منهما قابَلت توأم روحها؛ فعَزَّ على كلٍّ منهما أن يترك يدَ الآخر. تلك المصافحة الطويلة جعلت "أن بينغ" يسترجع مذاقها بلا توقُّف. كانت يد "لي سو تشين" مرَّنة للغاية، دافئة وليئة، وناعمة كالقطن، وتختلف كثيرًا عن أيادي خبراء التجميل في مُخيلته. وفيما بعدُ، حينما توطَّدت علاقتهما، عَلِمَ أنها تولى اهتمامًا خاصًّا للعناية بيديها، ففي العادة كان خبراء التجميل حين يمارسون عملهم يرتدون قفَّازات بلاستيكية، أمَّا هي فلا؛ فهي ترى أن في هذا عدم احترامٍ للموتى. وكانت لا ترغب في أن تتيَّس يداها بسبب التعب في العمل فتؤلم وجوههم؛ لذا كانت تهتمُّ بيديها بشكلٍ مُبالغٍ فيه. وتغسلهما بعناية كلَّ يوم قبيل النوم، بعدها تضع عليهما كَرِيمًا مُرطَّبًا مصنوعًا من زُلال البيض وعسل النحل وعصير الورد؛ فكانت يداها أشبه بالشِّفاه الممتلئة، تترك على وجوه الموتى القُبلة الأخيرة من عالمِ البَشَر، قُبلة دافئة ونظيفة.

واعدها "أن بينغ" للمرة الأولى لتناول الطعام في مطعم صغير يقدم لحم الضأن، كان هذا في الشهر الثاني عشر من السنة الصينية، حيث درجة الحرارة أقلُّ من ثلاثين تحت الصفر، وقتها كان قد عاد لتوَّه من مهمَّة إعدام خارج البلدة؛ لذا كان قلبه باردًا لدرجةٍ لم يُعد يتحمَّلها. وما إن جَلَسَا حتى قالت له "لي سو تشين" وهي تغمز بعينها: "نحن الاثنان لنا وجهٌ طويل وعينان صغيرتان"، فقال "أن بينغ": "النساء ذوات الأوجهِ الطويلة والأعين الصغيرة لهُنَّ سحرٌ خاص؛ فضحكت "لي سو تشين" ضحكةً من قلبها، وقالت: "الرِّجالُ ذوو الأوجهِ الطويلة والأعين الصَّغيرة يُقدِّرون النساء". وهكذا كان الحوار كشريطٍ أحمر غير مرئيٍّ ربطهما بشدَّةٍ سويًا. وبعد تناول الطعام وشرب الخمر، وعندما سارا سويًا خارجَين من المطعم الصغير، هبَّت رياح الشمال عليهما، وبدون وعيٍ أو اتفاق تشابكت أيديهما سويًا تحت ظلِّمة الليل، ورغم أنهما يرتديان قفَّازات قطنية، إلا أن

الحرارة المنبعثة من أيديهما كانت أشبه بالأسنة اللهب التي تخرق طبقات القطن لتصل مباشرةً إلى باطن الكف لتجعل كُلاً منهما يشعر بالحرارة، لم يتفوّه "أن بينغ" بكلمة، بل قادها مباشرةً إلى مسكنه. في تلك الليلة كانا كرقاقتين من الثلج سقطتا داخل الغرفة، ففي اللحظة التي تعانقًا فيها أذاب كُلاً منهما برودة الآخر، كانت "لي سو تشين" من الخارج تبدو كالجساء كثيف الماء، بلا طعمٍ مُميّز، لكن بعد خلّعها لملابسها بدت ممتلئة، مُفعمّة بالشباب، خاصّةً نهديها اللذين بدوا أشبه بجبلين شائنين، ممتلئين بالحيوية. ولقد دَفَن "أن بينغ" وجهه في حِضنها، وسالت دموعه بغزارةٍ، فأضافت دموعه ماءً ينباع حلواً لهاذين الجبلين.

وهكذا تقبّلتَه "لي سو تشين"، فقد كان مرض زوجها بالنسبة لها أشبه بانهيارٍ دفنها تحت أنقاضه، أمّا قوة "أن بينغ" ورِقته فكانتا هما ما أخرجها من تحت الأنقاض لتُبَعث مرّةً أخرى للحياة. ومن أجل تسهيل اللقاء؛ أعلن كُلاً منهما الآخر كأخٍ وأختٍ له، فصار "أن بينغ" دائِم التردّد على منزلها لمساعدتها، وصار يعطيها مباشرةً الهدايا التي تُوزّعها عليه هيئةً عمله في الأعياد. أمّا زوج لي سو تشين فرغم شلّله في السرير وخواء جسده، لكنّ فكره كان لا يزال يَقِظًا. ورغم أن "أن بينغ" لم يفعل قطُّ أيّ حركة تودّدٍ مع "لي سو تشين" في منزلها، وكانت هي لا تقضي الليلَ عنده في كلِّ مرّةٍ تذهب فيها لمسكنه لتُطهّر جسدها بقطرات الندى والمطر، إلّا أن هذا الرجل أحسَّ بعلاقتهما غير الطبيعية. وكان انتقامه منهما هو أنه في كلِّ مرة يأتي فيها "أن بينغ" إلى المنزل كان يرمي الغطاء من فوقه ليكشف عن جسده العاري، وينادي بصوتٍ عالٍ على "لي سو تشين" كي تُدلكه. والعجيب أن جسده أوشك أن يصير رمادًا، إلّا أن صوته ظلّ عاليًا. وكان "أن بينغ" حين يرى أنامل "لي سو تشين" الدقيقة وهي تمرُّ فوق ذلك الجسد الأشبه

بالهيكل العظمي يشعر كأنه يرى بعينه مشهدَ نهاية العالم؛ فكان الأمل يتملّك قلبه وجسده.

وخلال سنوات طويلة، كلّما صادفَ "أن بينغ" أمرًا مُحزِنًا، كان كل ما يحتاجه هو اتّصالٌ بـ "لي سو تشين"، وبدون حاجة لشكوى، مجرد سماع صوتها يجعله مثل الراهب الذي سمع الصوت المقدّس، لتنتشع الغيوم فورًا عن حياته وتسطع شمسها. وكانت "لي سو تشين" تنتظره في منزله عندما يعود من تنفيذ أحكام الإعدام خارج البلدة، وتجهّز له الطعام والخمر الذي يحبُّه لتغسل عنه -برِقَّتْها- إرهابَ السفر. لم يَعدُ أيُّ منهما قادرًا على الابتعاد عن يد الآخر.

أمّا أكثر الأوقات راحةً بالنسبة لهما، فهي حين يستلقيان بجوار بعضهما بعد انحسار موجة اللدّة ليحكي كلّ منهما للآخر قصّةً يديه. ففي نظر الآخرين، القمص التي حدّثت تحت تلك الأيدي بالتأكيد حكاياتٍ مُرعبةٍ ودمويّةٍ، لكن الأمر ليس بالضرورة كذلك، ففي بعض الأحيان تحدث القصص المؤثّرة في ساحة الإعدام وفي دار الجنائز.

هناك سبع ساحات إعدام في منطقة "سونغشان"، كلها في مناطق جبلية خالية من البشر، ومن بينها هناك ساحتان كبيرتان هما: ساحة "جين فينغ" رقم ٢، وساحة "إي لينغ" الجنوبية، فكان "أن بينغ" يذهب إليهما أغلب الأحيان. كان مُنفذو أحكام الإعدام حين يذهبون في مهمّةٍ عادةً يرتدون ملابس مدنيّة ونظّارات شمسية وكمامات، ويعتمرون قُبَعات طويلة الحواف؛ وبهذا يعجز المحكومون بالإعدام وذووهم ممّن يأتون لتسلّم الجثّة عن التّعرّف على الملامح الحقيقية مُنفذَي الأحكام. وعند إعدام محكومٍ رميًا بالرصاص، كان يقف خلفه في العادة اثنان من مُنفذَي الأحكام، حتى إذا طاشت رصاصة الأول ألحقه الثاني برصاصةٍ على الفور. وكان "أن بينغ" ماهرًا في ضرب النار، ومُتَرَنِّبًا نَفْسِيًّا، وقد ساعد زملاؤه برصاصاته التكميلية أكثر من مرّة.



بالطبع لم يكن في أسلحتهم نصف الأوتوماتيكية سوى رصاصتين،  
 رصاصتان تعنيان أن مُنفذ الأحكام غير مسموح له سوى بخطأ واحد.  
 ويذكر "أن بينغ" أنه في إحدى السنوات في ساحة إعدام "جين فينغ"  
 رقم ٢، كان هناك شابٌ في التاسعة عشرة من العمر قتل زوجَ أمِّه  
 بسكين مطبخ في ثورة غضب، بعد أن تعدَّى الزوج بالضرب على أمِّه  
 عندما كان مخمورًا. لم يكن هذا الشاب يشبه المحكومين الآخرين  
 الذين ترتعد فرائصهم ويتصبَّبون عرقًا قبل تنفيذ الحُكم، بل وقف  
 منتصبَ الصدر وعلى وجهه ابتسامة وهو يُمازح مُنفذ الأحكام،  
 قائلاً لهم أن يعدموه بشكلٍ جيّد؛ فهو ذاهب إلى السماء لجلب سِرِّ  
 الشباب الأبدي، وسيرسله لهم عبر عالم الأحلام. كما طلب أن يموت  
 واقفًا، قائلاً إنه لم يركع لأحد من قبل، وطلب أيضًا مواجهة فوّهة  
 البندقية قائلاً بأن مَنْ يُعدمون من الخلف هم المجرمون، وفي العادة،  
 كان مُنفذو الأحكام يُلبُّون الأمنيات الأخيرة للمحكومين؛ لذا وقف هذا  
 الشاب وظهره لحفرة الرمال، ووجهه مُنفذ حُكم الإعدام. ويبدو أن  
 وجهه المبتسم قد أصاب الرصاص بالقشعريرة، وطاشت رصاصًا مُنفذ  
 الأحكام الواقف بجوار "أن بينغ"، فمازحه الشابٌ قائلاً إن لا لوم عليه،  
 ربما حلم الرصاص بالتحليق في السُحُب، ثم التفت إلى "أن بينغ" وقال:  
 "عمّاه، لو استطعت أن تعدمني بشكل جيّد ونظيف دون أن تفسد  
 ملامحي، سأبعث على هيئة طائر لأغني لك طوال الطريق"، فأوماً "أن  
 بينغ" برأسه موافقًا، وطلب منه أن يفتح فمه قليلاً، وفي اللحظة التي  
 فتح فيها الشاب فمه ضغط "أن بينغ" على الزناد، فمرقت الرصاصة  
 من بين أسنانه بسلاسة كالرياح التي تمرُّ عبر مضيقٍ جبليٍّ، حتى  
 إنها لم تجرح واحدة من أسنانه، لتخترق رقبتَه من الخلف دون أن  
 تترك خلفها سوى فتحة مستديرة، وتُنتهي حياته بطلقة واحدة. وظلَّ  
 وجه الفتى نظيفًا ليس به حتى أثر دماء، حتى أن مَنْ عاينوا الجثَّة  
 قالوا إنها معجزة. أمّا الأكثر عجبًا فهو أنه في اللحظة التي خفض

فيها "أن بينغ" بندقيته، طار عصفور أصفر من بين أشجار الغابة فجأة، وحام على ارتفاع منخفضٍ حول رأسه وهو يُصدِر صوتًا أشبه بصوت التصفيق، وعندما ركب "أن بينغ" السيارة الجيب، رافقه ذلك العصفور طوال الطريق حتى دخل إلى المدينة، وفتح باب السيارة وأخرج جسده منها، عندها ودَّعه العصفور بتغريداته الأخيرة، ثم طار عائداً إلى الغابة.

ومرّة أخرى في ساحة "إي لينغ" الجنوبية، كان الوقت خريفًا، وكان "أن بينغ" سيُنقذ حُكم الإعدام في فتاة أحبّت رجلاً متزوِّجًا، هذا الرجل كان غير قادر على الطلاق، وفي لحظة تهوُّرٍ دَسَّت السُّمّ لزوجه حبيبها وقتلتها. كانت في الحادية والعشرين، ذات عينين كبيرتين صافيتين، وبشرة بيضاء، وشعر طويل متطاير. في ذلك اليوم كان الهواء شديدًا، وارتدّت هي ثوبًا أحمر ناريًا، ووَضَعَت تبرُّجًا خفيفًا، فبدّت أشبه بعروس. وقبل تنفيذ الحُكم طلبت طلبين: ألا يضربوها في رأسها حتى لا يفسدوا ملامحها، وأن يفكُّوا وثاقها؛ فهي ترغب في الرحيل دون أي قيود، وإلا فسيصعب عليها السير في العالم الآخر. كان الطلب الأول ليس بعسيرٍ، لكن الطلب الثاني يصعب الموافقة عليه؛ فعند تنفيذ الحُكم لا يُستثنى أي محكوم من التقييد بحبلٍ يُقيّد رقبته ويديه خلف ظهره؛ لذا رفض مُنقذو الأحكام الطلب الثاني لتلك المرأة، وصوّب "أن بينغ" ومعه مُنقذ أحكامٍ آخر فوهة بندقيتيهما إلى قلبها، وعندما همّ بالضغط على الزناد، حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد خرج ذئبٌ عجوز من الغابة وركض باتجاه تلك الفتاة؛ ففزع كلُّ الموجودين، واعتقدوا أنه سيقوم بدور مُنقذ الحُكم، وسيأكلها. لكنه توقّف خلف ظهرها، وعَضَّ بأسنانه الحادّة الحبل الذي يُقيّد يديها ورجليها، فقطعه، ولم ينتظر لكي يُصوّبوا بنادقهم نحوه فلاذ بالفرار. أمّا الفتاة التي فكَّ وثاقها فبدّت مثل النبتة الصغيرة التي رُوِيَت بالماء، ففردّت حصرها. وانتظر ضابطُ التنفيذ حتى استقام ظهرها تمامًا، ثم

لَوْحٍ بِرَايَةِ إِصْدَارِ الْأَمْرِ فِضْغَطٍ "أَنْ بَيْنِخَ" عَلَى الزِّنَادِ لِتَطْيِيرِ الرِّصَاصَةِ بِدَقَّةٍ نَحْوِ قَلْبِهَا. وَبَعْدَهَا سَمِعَ أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ كَانَتْ تَعِيشُ فِي قَرْيَةِ جَبَلِيَّةٍ لَا يَقْتَنُهَا سِوَى بَضْعِ عَشْرَةِ أَسْرَةٍ. وَفِي مَسَاءٍ رِبِيعِيٍّ بِإِحْدَى السَّنَوَاتِ، ظَهَرَ أَمَامَ بَابِ مَنْزِلِهَا ذَنْبٌ صَغِيرٌ ضَعِيفٌ، فَقَالَ أَبُوهَا إِنَّ ذَلِكَ الذَّنْبَ فَقَدَ أُمَّهُ، وَلَمْ يَتَعَلَّمِ الصَّيْدَ بَعْدُ؛ لِذَا فَقَدْ بَلَغَ الْجَوْعُ مِنْهُ مَبْلَغَهُ حَتَّى اضْطُرَّ لِلسَّيْرِ نَحْوَ الْبَشْرِ لِتَسْوُلِ الطَّعَامِ، فَأَخَذَ الذَّنْبَ إِلَى الْدَاخِلِ، وَأَطْعَمْتَهُ الْفَتَاةَ بِكُلِّ حَبٍّ، وَبَعْدَ عِدَّةِ شَهُورٍ حِينَ صَارَ قَوِيًّا أَطْلَقَاهُ مَرَّةً أُخْرَى لِيَعُودَ إِلَى الْغَابَةِ. وَقَالَ النَّاسُ إِنَّ الذَّنْبَ الَّذِي حَرَّرَ الْفَتَاةَ مِنْ قَيْودِهَا هُوَ نَفْسُهُ الذَّنْبَ الَّذِي أَنْقَذَتْهُ مِنْذَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ.

تِلْكَ الْقِصَصُ مِنْ سَاحَاتِ الْإِعْدَامِ أَسَالَتْ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْ "لِي سُو تَشِينِ"، حَتَّى قَالَتْ إِنَّ لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رُوحًا، وَقَالَتْ إِنَّ يَدَيَّ "أَنْ بَيْنِخَ"، رَغْمَ أَنَّهُمَا تَعْدِمَانِ النَّاسِ، إِلَّا أَنَّهُمَا تَجْعَلُهُمْ يَرْحَلُونَ رَاضِينَ، إِنَّ يَدَيْهِ تَفْعَلَانِ الْخَيْرِ. ثُمَّ قَبَّلَتْ يَدَيْهِ قَائِلَةً إِنَّهُمَا بِالنِّسْبَةِ لَهَا بِمِثَابَةِ قُقَّازَاتِ، وَوَأَقِيَاتِ أُذُنِ، وَأَحْذِيَّةِ مُبْطَنَةِ الْبَفْرُو، بِإِخْتِصَارِ، هُمَا مَا يَحْمِيهَا مِنَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ.

أَمَّا الْقِصَصُ الَّتِي حَكَّيْتُهَا "لِي سُو تَشِينِ" وَالَّتِي حَدَّثْتُ فِي دَارِ الْجَنَائِزِ فَقَدْ أَثَّرَتْ فِي "أَنْ بَيْنِخَ" أَيْضًا أَشَدَّ التَّأثيرِ. فَقَبَّلَ هُوَ الْآخِرُ يَدَيْهَا قَائِلًا إِنَّهُمَا الشُّمُوعُ الَّتِي تَضِيءُ لَيْلَةَ الْمُظْلِمِ، وَهُمَا النَّارُ الَّتِي أَرْسَلَتْهَا الْآلِهَةُ وَسَطَ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ، وَهُمَا سِرَاجُ اللَّيْلِ الَّذِي يَتَطَايَرُ فِي حَيَاتِهِ، بِإِخْتِصَارِ، كَانَتْ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالضَّوئِ وَالِدْفَاءِ.

كَانَتْ "لِي سُو تَشِينِ" مُضْطْرِبَةً الْقَلْبَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى الَّتِي عَمَلَتْ فِيهَا خَيْرَةً تَجْمِيلٍ، كَانَتْ بِالضَّبْطِ كَالْمَرَّةِ الْأُولَى الَّتِي نَقَذَ فِيهَا "أَنْ بَيْنِخَ" حُكْمًا بِالْإِعْدَامِ، فَفِي أَوَّلِ مَرَّةٍ عَادَ فِيهَا "أَنْ بَيْنِخَ" مِنْ سَاحَةِ الْإِعْدَامِ كَانَتْ أَشْبَهَ بِمَنْ ارْتَكَبَ خَطِيئَةً، مُضْطْرِبَ الدَّهْنِ، زَاهِدًا فِي الطَّعَامِ، تَزُورُهُ الْكُوَابِيْسُ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَدَائِمًا تَطْفُو أَمَامَ عَيْنَيْهِ صُورَةُ الْمَحْكُومِ

بالإعدام وهو يسقط تجاه حفرة الرمال بعد أن أصابته الرصاصة، وفي أنفه تَحُومُ دَوْمًا رائحةٌ دَمٍ لا تنزاح. أمَّا "لي سو تشين" ففي المرة الأولى التي وضعت التَّبْرُجُ لأحد الموتى راوَدَتْها نفس الأحاسيس. كان شخصًا مات في حادث سيارة، وعندما أخرجوه من ثلاجة المشرحة كان الدَّمُ واللحم على وجهه يحجبا الرؤية؛ فاستخدمت عصا تنظيف الأذن القطنية بعد أن غمستها في الكحول، واستغرقت أربع ساعات لتُنظِّف ببطءٍ آثار الدماء عن جروحه، ثم مسحَت الجُثَّةَ بالماء الدافئ، وألبسته الكفن، ليُدْفَن وهو بهيئة جديدة نظيفة. أمَّا هي فبعد أن عادت للبيت، ظلَّت لثلاثة أيام كاملة لا ينزل شيء إلى جوفها باستثناء شربات من الماء، كما أصابها الأرقُّ ليالي متتالية، فكانت ما إن تُطَبِّق جفنيها حتى ترى أمامها هيئة المتوفى. وهكذا تَمَاسَكَت لتَعْبُر العَقَبَةَ الأولى، وفي المرة الثانية كانت ستُجَمِّلُ رجُلًا في الثمانين، وما إن رأت الابتسامة الخفيفة على ملامحه حتى استعادت هدوء قلبها، فالموت في الحقيقة يمكن أن يكون بتلك السكينة. لقد كانت مثل "أن بينغ"، لم ينقشع خوفها من تلك الوظيفة تمامًا إلا بعد المرور عدَّة مرَّاتٍ بأمور مُتعلِّقة بالموت تهزُّ كيان الإنسان.

وفي السنة الثالثة من عملها، وفي وقت ذوبان الثلوج، قامت "لي سو تشين" بتجميل سيدة شابة ماتت بسبب سرطان في عنق الرحم. وكان زوج المتوفاة أستاذ فنون جميلة يحب زوجته حبًّا شديدًا. كانت التواييت التي تتراصُّ أمام صالة الجناز في العادة حمراء اللون، أمَّا هو فقد جهز لزوجته تابوتًا مُزخرفًا بالورود، رسم داخله وخارجه الورود التي تحبها: الزَّنْبِقُ الأحمر، والفوانيا البيضاء، والأزاليا الوردية، والورود الصفراء، وغيرها من أنواع الورود الزاهية من كل الألوان، حتى إن المُعزِّين التَّفَوُّوا حول التابوت قائلين إن تلك المرأة سترقد في حديقة زهور لتنتقل إلى العالم الآخر، لتكون فيه -على الأقلِّ إلهة الورود. وعندما همَّت "لي سو تشين" بتجميل المتوفاة، أعطاهَا مُدرِّس

الفنون الجميلة تعليماته بأن زوجته لا تحبُّ التَّبْرُجَ الثقيل، فعليها أن تضع لها تَبْرُجًا خفيفًا. فأومأت "لي سو تشين" برأسها، وبدأت في تجميل تلك المرأة، وفي نفس الوقت تحدّثت همسًا مع ذلك الجسد المُسجّي فوق سرير الموت. فقالت لها: "يا لكِ من محظوظة يا أختاه، لقد رَحَلتِ، وأهداكِ رَجُلِكِ كلَّ تلك الزهور، أَلَسْتِ بهذا سترحلين والربيع معك؟ أمّا أنا فحياتي بائسة، زوجي راقدٌ مشلولٌ في الفراش، وخشيتُ أن يتملكه السأم وهو وحده في المنزل، فجلبتُ له طائرًا وزهورًا، أمّا الطائر فيغني فرحًا، لكن ذلك الحوض من الزهور، فكله أوراق طويلة جافة ولا تتفتح، فلو تفتّحت زهور شُرفتي لتصير زاهية جميلة مثل تلك التي أهداها لكِ رَجُلِكِ فسيكون هذا رائعًا".

كانت "لي سو تشين" تتحدّث بمشاعر فيّاضة وقد ابتلت عينها. لكنها غالبت دموعها واستمرت في تجميل المرأة. كانت المتوقّاة قد أنهكتها المرض حتى غار خدّاهما، فوضّعت لها "لي سو تشين" طبقة رقيقة من بودرة الوجه، ومسحت بعضًا من الأحمر في الأماكن الغائرة، وعلى الفور نبض وجهها بالحيوية وصار مثل أضواء الغسق في وادٍ جبليٍّ أحاطه بعض الجمال، ثم وضّعت ظلالَ عينٍ زرقاء فاتحة فوق جفنيها؛ ممّا جعل رموشها النابتة فوق عينيها المغلقتين أشبه بصفٍّ من الصّفاصاف الأخضر الذي نبت فوق ضفة بحيرة، في منظرٍ مُفعمٍ بالرّقة، وأخيرًا وضّعت القليل من أحمر الشفاه فوق شفثيها لتبدو كأنها رشفت بعضًا من النّبيذ انساب على فمها ليغمره بلمعةٍ تخبب اللّب، لكنها لم تمسّ حاجبيها بقلم التحديد؛ فقد كانا جميلين بشكلٍ طبيعي، مُقوّسَيْنِ وأسودين، فأبى خطٌّ يوضّع عليهما سيكون زائدًا بلا نفع. وبعد أن انتهت "لي سو تشين" من تجميلها تنهّدت قائلة: "الحياة بالفعل ليست عادلة، أنتِ وُلِدتِ بهذا الجمال، وعِشْتِ أَيّامًا جميلة، لكن السماء أمرتك بالرحيل، أمّا أنا فوُلِدْتُ عاديةً، وتجرّعتُ كلَّ هذا المرار، لكن جسدي لا يعاني من أيّ مرض، سيكون من

الأفضل كثيراً لو رَحَلْتُ أنا بدلاً منك، لكنَّ السماء للأسف لا تريدني، فلو ذَهَبَتْ أَنْتِ فستكونين إلهة الزُّهور، فماذا يمكن أن أكون أنا لو ذَهَبْتُ؟ كَنَاسَةٌ شَوَارِع؟ لا يوجد تُرابٌ في السماء". وعندما وَصَلَتْ "لي سو تشين" بكلامها إلى تلك النقطة، جلجلت في فضاء المشرحة فجأةً ضحكاتُ امرأةٍ، فاعتقدت أن أحدهم قد جاء، وتلفتت يمينًا ويسارًا فلم تَرَ أي شخص، وعندما خَفَضَتْ رأسها ثانية لتتنظر إلى الجسد الراقد أمامها اكتشفت ابتسامةً خفيفةً نَبَّتْ على زاوية فمها، فصاحت "لي سو تشين": "آه يا أختي الجميلة"، وسال الدمع الحارُّ من عينيها.

أمَّا الأمر الأغرَب فقد حدث بعد جنازة تلك المرأة، بدأت الأزهار في شُرْفَةِ "لي سو تشين" في الإزدهار تَبَاعًا، وقتها لم تكن رياحُ الرَّبِيعِ قوِيَّةً بعدُ، إلا أن الأزهار في الأحواض تناقَست في التَّفْتِيحِ، وصار جو الشرفة صاخِبًا بها، وقد أحبَّها زوجُ "لي سو تشين" حُبًّا جَمًّا، وقال إن إلهة الزهور جاءت إلى المنزل.

وكانت هناك زهرة أخرى أكثر جمالاً من الزهور الحقيقية، إنها تلك الزهرة التي تفتحت في خاتم.

ففي السنة التي توطنت فيها علاقة "لي سو تشين" مع "أن بينغ" نُوفِيَتْ جارتها العجوز "تشانغ". وكانت دار الجنائز تُقدِّم خدماتها للعجائز المتوفين في منازلهم. وقد بلغت العجوز "تشانغ" من العمر 81 عامًا، وهذا يُعتَبَر مأمًا سعيدًا<sup>(1)</sup>؛ لذا يأتيه في العادة بعض الآباء حاملين معهم أبناءهم المرضى ليتلمسوا التابوت، قائلين إن هذا يمكنه أن يُذهِب المرضَ ويطيل العمر. أمَّا الأُسْرُ صاحبة الجِنَازَةِ فيتعاطفون مع مثل هؤلاء الأطفال، فيسمحون لهم بتَحَسُّس التابوت والزحف فوقه كيفما شاءوا، إلا أن أبناء العجوز "تشانغ" لم يسمحوا بذلك،

(1) لَفْظُ "الماتم السعيد" يُطْلَقُ فِي الصِّينِ عَلَى مَنْ يَمُوتُ وَقَدْ تَجَاوَزَ الثَّمَانِينَ بِوَجْهِ عَامٍّ- المترجم.

بل أصروا على تلقّي المال لكي يسمحوا لهم، المرة الواحدة بخمسين يوان؛ ممّا أثار حزن آباء الأطفال. وقتها كانت "لي سو تشين" في الغرفة تضع الزينة للعجوز "تشانغ"، فسَمِعَت الجدل الدائر بالخارج بسبب تلمّس التابوت، فسارت نحو سقيفة الأرواح<sup>(1)</sup> ونصحت أبناء العجوز "تشانغ" قائلةً إن الأطفال المرضى لو تحسّسوا تابوتها فهم بهذا سيُدفنون قبرها، ولن تعاني من البرد حين تنام فيه، "فلو تلقّيتُم الأموال فغالبًا لن تكون العجوز "تشانغ" سعيدةً بذلك"، فاستشاط الأبناء غضبًا وصاحوا بها "مَن أنتِ حتى تتدخّلي في أمور أُسرّتنا؟"، فخرست "لي سو تشين" تمامًا ولم تجد كلامًا تردُّ به.

لم يكن أبناء العجوز "تشانغ" فقراء، لكنهم كانوا بخلاء للغاية في تعاملهم مع أمهم. لقد مات زوجها مُبكرًا، فعاشت مع ابنها الأكبر، أمّا الابنان الآخران فكان عليهما مصاريف رعايتها. وذات مرّة أرادت العجوز تناول السمك، فردّت عليها زوجة ابنها الأكبر بلهجة عجيبة: "مصاريف الرعاية التي يرسلها ابنك تكفي فقط لتتناولي الخضروات؛ لذا فأنا مضطّرةٌ أن أعاملكِ كراهبة<sup>(2)</sup> فلو أردتِ تناول اللحم فاطلبي منهما أن يُرسلا المزيد من المال". وفي الصيف تفتح كلُّ الأسر نوافذ منازلها، إضافةً إلى أن صوت زوجة ابن العجوز "تشانغ" عالٍ جدًا؛ لذا فقد سمِعَ المارةُ هذا الكلام، وانتشر بعدها بين الجميع، وتحسّروا على العجوز "تشانغ" وحياتها المريرة، فقد شَقِيَت كثيرًا لكي تربي ثلاثة أبناء، والنتيجة أن كلهم جاحدون.

كان الشيء الوحيد ذو القيمة على جسد العجوز "تشانغ" هو خاتم ذهبي بينصر يدها اليمنى، يَزن 12 جرامًا، هذا الخاتم هدية من العجوز "لي" صاحب محلّ الخضروات، والذي يصغرها بخمس سنوات

(1) سَقِيفَةٌ مُؤَقَّتَةٌ تُصَنَعُ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْخَشَبِ، وَتُسْتخدَمُ فِي الْجَنَائِزِ - المترجم.

(2) الرَّاهِبَاتُ لَا يَأْكُلْنَ اللَّحْمَ - المترجم.

وَفَقَدَ شريكته في السنوات الأخيرة، وأعجب بالعجوز "تشانغ" التي كانت تشتري دائماً الخضروات من محلّه. وقد تفاهم الاثنان سوياً وتبادلاً المشاعر، ورغباً في قضاء أيامهما معاً، وبالطبع كان أبناء العجوز "تشانغ" سعداء بذلك؛ فبهذا صار بإمكانهم أن يرسلوا أمهم الفقيرة إلى بيت "لي" ليتولّى أبناؤه وبناته مسؤولية رعايتها، إلا أن أبناء وبنات العجوز "لي" عارضوا الأمر باستماتة، ولم يسمحوا لأبيهم بالزواج من العجوز "تشانغ"؛ فقد كانت بالنسبة لهم حملاً ثقيلاً ألقاه عليهم أبناؤها، ولا يمكن أن يقبلوه. وهكذا أسقط في يد العجوزين؛ فعزفاً عن فكرة الزواج ثانية. لكن تعلّق كلُّ منهما بالآخر لم ينقطع، فعندما كانت العجوز "تشانغ" قادرةً على الحركة بسهولة كانت تخرج كلَّ أسبوع بحجّة شراء الخضروات، وتذهب إلى المحل لرؤيته، ولكن في آخر سنتين من عمرها عندما أُصيبت بالشّلل نتيجة جلطة في المخ أصبح العجوز "لي" مضطراً للذهاب هو لرؤيتها. وفي كل مرة لم يكن يأتيها بيدٍ فارغة، بل كان يجلب معه بعض الخضروات الطازجة؛ لهذا كان أهل العجوز "تشانغ" يُرحّبون بقدمه. لم يكن قادراً على الزواج منها، لكنه اشترى لها خاتماً ذهبياً وألبسها إياه بنفسه ليُعبر عن حبه الصادق لها. مكتبة سر من قرأ

ولم يكن أحدٌ يتوقّع أن هذا الخاتم سيتحوّل إلى متاعب بعد موتها، فكلُّ من زوجات أبنائها الثلاثة ادّعت بأن الخاتم من حقّها، فزوجة الابن الأكبر قالت إن العجوز تسكن في منزلها، وهي من بذلت الجهد الأكبر في خدمتها، أمّا زوجتا الابن الثاني والابن الثالث فقد وضعتا أيديهما في وسطهما مؤكّدتين على أنهما هما من دفّعا مصاريفها، وفي وقتنا هذا من يدفع هو من يُقال عليه إنه يبذل الجهد الأكبر. وأثناء جدالهنّ حول أحقيّة كلِّ واحدة في الخاتم، خرج أحدهم بحلٍّ وسَط، فاقترح الذهاب للصائغ لقسمة الخاتم لثلاثة أجزاء متساوية، فمَن أرادت أن تصنع قرطاً فلتصنّع قرطاً، ومَن أرادت أن تصنع خاتماً



فلتصنع خاتمًا، أمّا مَنْ استصغرت نصيبها فيمكن أن تضيف بعض النقود وتصنع ما هو أكبر. وقد وافقت زوجات الأبناء الثلاثة حين أدركن أنه من المستحيل أن تستحوذ واحدة وحدها على الخاتم، إلّا أن انتزاع الخاتم من إصبع العجوز "تشانغ" كان أصعب من الصعود للسماء؛ فالخاتم ليس به فتحة لتوسيعه؛ لذا فهو غير قابل للفتح، وقد زاد وزن العجوز "تشانغ" كثيرًا بعد أن رقدت في الفراش؛ وصار الخاتم مثل قطعة لحم من جسدها وانغرس في بنصرها تمامًا، وصار من المستحيل نزعها حتى بالصابون، وهكذا أسقط في يد زوجات الأبناء الثلاثة، فلم يكن يملكن الجراءة لقطع إصبع حماتهنّ، لذلك صار هذا الخاتم هو أكثر ما يحزنهنّ في تلك الجنازة.

أمّا أكثر ما يدعو للعجب فقد حدث قبل وضع جثمان العجوز "تشانغ" في التابوت، فقد جاء العجوز "لي" لتأبينها، راغبًا في إلقاء النظرة الأخيرة عليها. في البداية رفضت زوجات الأبناء الثلاثة، لكن العجوز "لي" وضع أمام اسم كل واحدة منهنّ في دفتر الهدايا الموضوع أمام سقيفة الأرواح ثلاثمائة يوان، وهكذا هزّزن رؤوسهنّ موافقات. كانت "لي سو تشين" قد انتهت لتوّها من تصفيف شعر العجوز "تشانغ" وتزيينها عندما دخل العجوز "لي". ووقف أمام جثمان "تشانغ" كالطفل الخجول، وأمسك بيدها اليمنى في تردّد وهو ينظر لها نظرات تملؤها المشاعر وقال: "لقد رحلت، فمن سيأكل الخضروات التي أبيعها؟"، وكان الابن الأكبر واقفًا في الجوار يحثّه قائلاً: "يكفيك نظرة فحسب، إنه وقت إدخالها للتابوت". لكنّ العجوز "لي" كان يعزّز عليه فراقها، فقبض على يدها بشدّة، وفي اللحظة التي ترك فيها يدها، وقع الخاتم القابض في إصبعها إلى راحة يده، وعندما سمعت زوجات الأبناء الثلاثة أن العجوز "لي" حصل على ذلك الخاتم الذي أغواهنّ بمجرد مصافحته ليد العجوز "تشانغ" علّموا أن روح العجوز في المكان، فانتابهنّ الفزع حتى كادت أرواحهن تفارق أجسادهن،

وركعن أمام سقيفة الأرواح وسجدن مرّاتٍ متتالية سريعة، مُتضرّعات  
لِحَمَاتِهِنَّ أَلَّا تُصَبَّ عليهن عقابها.

بالطبع كانت هناك أيضًا الكثير من الأمور التي تبعث على  
الغضب والتي حدثت في ساحة الإعدام أو في دار الجنائز، فلو تحدّثنا  
عن ساحة الإعدام، فمن بين المجرمين الذين أعدمهم "أن بينغ" كان  
هناك شابٌ سمين في العشرين تقريبًا من العمر، كان مُتكبرًا حتى  
لحظة موته. كان يعمل طبّاخًا للُحوم في أحد الفنادق، وأعجب بإحدى  
الفتيات، لكن قلب تلك الفتاة كان مُعلّقًا بشخص آخر؛ لذلك رفضته؛  
فقام بقتل حبيبها وتقطيع أوصاله ثم أطعمه للكلاب. وعندما سرد  
للمحكمة كيف أطعم الجُثة للكلاب تقيًا كُلّ القضاة الموجودين وقتها.  
وفي اليوم المُحدّد لإعدامه قاده مُنفذُ حُكم الإعدام حتى الحفرة  
الرملية الموجودة بالساحة، وضغط عليه ليركع على ركبته، لكنه لم  
يَمْتثل، بل عضّ لسانه وبصق الدم في وجه مُنفذ الإعدام. فلم يتحمّل  
"أن بينغ" وركله بقدمه فسقط بجانب الحفرة، وما إن عاد إلى طابور  
مُنفذي حكم الإعدام حتى أطلق مُنفذُ أحكامٍ غاضبٌ رصاصةً اخترقت  
حنجرة ذلك الرّجل قبل حتى أن ترتفع راية أمر الإعدام.

وذات مرة أخرى كان تنفيذ الإعدام في مُجرمٍ باغتصاب وقتل، ذلك  
الرجل تجاوزَ الأربعين، ضخم الجُثة، مُنحني الظّهر، غليظ الخصر، ذو  
لحية كثيفة مجدولة، كان يهيم بين القُرى، واغتصب الكثير من النساء  
وهو مُلثّم الوجه؛ ممّا أثار الرُّعب وجعل النساء لا يجرؤون على  
الخروج ليلاً. وكانت المرة السادسة التي يرتكب فيها جرائمه في حقل  
قمح قبل العشاء في منتصف الخريف، وقد قاومت ضحيّة الاغتصاب  
بقوّة، ونزعت عن وجهه اللثام؛ فخشي أن ينفضح أمره؛ وخنقها حتى  
الموت، ووسط ربكته أسقط محفظته، ومن خلالها وجَدَت الشُّرطة  
خيطًا هامًا لحلّ تلك القضية. هذا المجرم بعد أن شرب الخمر للمرة  
الأخيرة في حياته ليلة تنفيذ الحُكم طلب منهم أن تنفّذ فيه حُكم

الإعدام امرأة، قائلاً إنه وُلِدَ من أجل النساء ويرغب أن يموت على أيديهن. وفي اليوم التالي عندما رأى مُنْقِذِي الحُكْم من الرجال سَبَّ هيئات القانون بأنهم مجموعة من الخصيان. وعندما وضعوه أمام الحفرة الرملية سَخِرَ منهم بوجهٍ ضاحِكٍ، قائلاً إن بإمكانهم ضرب أي جزء من جسده عدا خاصةً بِنطاله، فلو تلف عُضْوُهُ ولم يستطع معايشة النساء في العالم الآخر فسيتحوَّل لعفريتٍ يورِّقُ مَنْ أطلق عليه النار، عندها لم يتحمَّل "أن بينغ" أكثر من ذلك، وما إن رفع الضابط الأمرُ رايةً أمر التنفيذ، لم يتردّد، بل أطلق الرصاص فوراً على خاصةً بِنطاله، وعندما تلوَّى ذلك الرجل على الأرض وهو يسبُّ "أن بينغ" عاجلَه مُنْقِذُ أحكامٍ آخر برصاصة أصابت رأسه لينهي بذلك كلماته القذرة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي احتاج فيها "أن بينغ" لرصاصة تكميليَّة من زميله. وبعد الحادثة ظلَّ يؤتَّب نفسه لفترةٍ بسبب ما فعله، لكن ما إن يتذكَّر أن هذا الشخص لم يندم على جرائمه عند الموت حتى يسامح نفسه على تلك الطَّلَقَة.

ورغم أنَّ "أن بينغ" قد سمع من قبل عن تنفيذ الإعدام بطريقة إنسانية، إلا أنها بعد أن صارت واقِعًا، خاصَّةً بعد ارتكاب جريمتي القتل والاعتصاب التي ارتكبهما "شين شين لاي"، فصَعُبَ عليه تقبُّلها، فهذا يعني أنه لو سقط "شين شين لاي" بيد العدالة، وحُكِمَ عليه بالإعدام، فوفقًا للأوامر القانونية التي صدرت لتوُّها، سيُقتاد إلى سيارة تنفيذ الأحكام، ويرقد فيها بهدوء، ثم يرحل عن طريق الحقنة السَّامة بلا أي خسائر، ولن يشعر بأي ألم، بينما يرغب "أن بينغ" بشدَّة أن يطلق عليه الرصاص بيديه في ساحة الإعدام.

من وجهة نظر "أن بينغ" ساحات الإعدام هي أمرٌ لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة للمجرمين أصحاب الجرائم البَشِعة. فالإعدام الذي يفتقد لقوَّة الصدمة والرعب رغم أنه ينتصر في الجانب الإنساني، إلا أنه يفتُرُّ كثيرًا في جانب معالجة الجرائم. بالطبع فإن إعطاء موت هادئ

نظيف لأولئك الذين ندموا على جرائمهم هو بمثابة مواساة إنسانية، لكن "شين شين لاي" في نظره لم يكن جديرًا بالموت بتلك الطريقة.

تناقش "أن بينغ" مع زملائه من مُنفّذي الأحكام من قبل، لو كان الرّبُّ أعطى للإنسان رأسين، كيف كان سيصير هذا العالم؟ وفي النهاية اتفقوا على رأيٍ واحد، أنه لو كان بمقدور كل شخص أن يستغني عن رأس، فمهما كان عدد الكنائس والمعابد في العالم فإنها لن تستطيع منع تفشي جرائم القتل. لذلك جعل الرّبُّ للإنسان حياةً واحدة، بالإضافة إلى أن نصّ القانون على أن مَنْ قَتَلَ عمدًا جزاؤه الإعدام هو طريقة فعّالة للحفاظ على النظام بين البشر.

وعندما تلقت محكمة الشعب بمحافظة "تشينغشان" أمرَ سحبِ البنادق من محكمة الشعب المتوسطة بمنطقة "سونغشان"، أرسلت "أن بينغ" بصفته رئيس فرقة تنفيذ الأحكام ومعه اثنان من مُنفّذي الأحكام لتسليم خمس بنادق نصف أوتوماتيكية خاصةً بفريق تنفيذ الأحكام إلى محكمة الشعب المتوسطة بمنطقة "سونغشان". لم تكن تلك المرة الأولى التي ينقل فيها "أن بينغ" البنادق، لكن تلك هي المرة الوحيدة التي آلمته، فبعد تنفيذ الأمر أحسّ كأن سكينًا مُمزّق قلبه، وصبّ غضبه على كرسي المكتب، فكسر إحدى أرجله، ثم خرج بعدها من المحكمة واتّجه إلى مطعم لحم الضأن الذي واعد فيه "لي سو تشين" للمرة الأولى، وهناك شرب الخمر وتناول اللحم، وكلّما شرب كلّما خاف من نفسه، ففي العادة كان يثمل بعد شرب نصف جين لكن في ذلك اليوم نزل معدته جينان من الخمر القوي، ولم يتغيّر لون وجهه أو نبضات قلبه، كان يرغب في الثمالة؛ لذا طلب جين آخر من خمر الدرة الرفيعة القوية، وكان صاحب المطعم يعرفه، فاعتقد أنه قد عاد لتوه من تنفيذ حكم إعدام ويشعر بالضيق؛ فنبّهه بصوت خافت أن التأثير اللاحق لخمر الدرة الرفيعة قويٌّ للغاية، "إياك أن تُكثّر منها؛ فلا يمكن أن تعود للمنزل دون وجود أحدٍ يركاك". فضرب

"أن بينغ" المنضدة بيده وصاح: "مَن قال إنه لا أحد يرعاني عندما أعود للمنزل؟"، ففزع صاحب المطعم وسارع بمُناوَلتِه خمر الدُّرة الرقيقة، ثم تسلَّل إلى المطبخ وأرسل مُساعِدَه ليخرج ويخبر "أن بينغ" أن صاحب المطعم يخبره أن سيادة الضابط هو زبون قديم للمطعم؛ لذلك فخمر اليوم مَجَانِيَّةً، إلَّا أن "أن بينغ" ضرب المنضدة براحته ثانية وصاح: "أنا لستُ شَحَادًا، كيف لضابطٍ مثلي أن يعجز عن دفع ثمن الخمر؟".

وهكذا شرب "أن بينغ" زجاجة الخمر تلك، ودفع الحساب وغادر المطعم. كان ضوء الشمس المغيب جيِّدًا، لكنه شعر ببرودةٍ في عموده الفقري. لم يَعد للمنزل، بل ذهب إلى دار الجنائز، فلم يَرَ توايبت مرصوفةً أمامه، كذلك لم يكن هناك أيُّ عرباتٍ أَحِصَنَةٍ؛ فعلم أن لا أحد قابِلَ مَلَكِ الموت في تلك المدينة اليوم، إذن فمن المفترض أن "لي سو تشين" بالمنزل، فعرج على محلِّ الفاكهة واشترى كيسًا منها حمله في يده وسار في اتجاه منزلها.

كان بيت "لي سو تشين" يَبْعُدُ عشر أو ثماني دقائق من دار الجنائز. وتلك المنطقة كلها منازل منخفضة الارتفاع، يقطنها هؤلاء المتعَبون من الرقد خلف لُقَمَةِ العيش، مثل بائعي الخضروات، والحَمَّالين، والإسكافيِّين، وصانعي الزهور الورقية، وخيَّاطي الأكفان، ومُنظِّفي شَفَاطَاتِ الدخان، والنَّقَّاشين، وصُنَّاعِ الأثاث، والحجَّامين، وبائعي البذور والمبيدات الزراعية، والحلَّاقين، وغيرهم. وقد استخدموا حوائط منازلهم الخارجية كلوحاتٍ إعلانيَّة، فكانت الكتابات والأرقام فوقها مثل الفَرَّاشَاتِ الملوَّنة التي تملأ الجدران وتتراقص عليها. كانت الكتابات تشرح صنعتهن، أمَّا الأرقام فهي هواتف الاتصال. وعلى حائط منزل "لي سو تشين" الرمادي كان مكتوبًا "خبيرة تجميل". كانت هي خبيرة التجميل الوحيدة في تلك المدينة الصغيرة، وكان الجميع يعرفون ما تفعله بالضبط، في البداية كانت تلك الكتابة

باللون الأزرق؛ لأن "لي سو تشين" قالت إن أقارب المتوفين يأملون في أن يصعد المتوفون إلى السماء؛ لذا يجب استخدام كتاباتٍ بنفس لون السماء. فلو استخدمت اللون الأسود، فسيعتقدون أن المتوفى سيذهب إلى الجحيم، أمّا لو استخدمنا الأحمر، فسيعتقدون أن المتوفى سيصلى نارًا بعد وفاته، إذن فكلاهما غير مناسب، وبعد أن توطنت علاقة "لي سو تشين" مع "أن بينغ" أخبرها أن اللون الأخضر أفضل من اللون الأزرق، فاللون الأخضر لون حيويٍّ مُريحٍ للعين، ففكرت "لي سو تشين" في أن كلامه صحيح؛ لذلك استقدمت عاملَ طلاءٍ ليزيل الكتابة الزرقاء ويضع مكانها كتابةً خضراء. وبما أن محافظة "تشينغشان" تمرُّ بشتاء لنصف العام؛ لذا صارت تلك الكتابات الخضراء هي الأوراق الخضراء التي لا تذبُّل في تلك المدينة حينما تهبُّ رياح الشمال الباردة، فهي جذابةٌ للأعين، حتى إن العصافير تحبُّ الطيران في اتجاهها.

أصيبت "لي سو تشين" بدهشةٍ بالغةٍ بسبب مجيء "أن بينغ"، كانت وقتها في الغرفة الخارجية تصنع عصير الكرفس لزوجها؛ فقد صار يعاني من صعوبةٍ في الأكل في السنوات الأخيرة؛ لذا تحتمَّ عصرُ الفواكه والخضروات ليشربها. وقد وضع "أن بينغ" الفاكهة وذهب ليكنس الفناء، كان في كل مرة يذهب فيها لمنزلها يساعدها في بعض الأعمال. وعندما اشتمَّت "لي سو تشين" رائحة الخمر التي تفوح من جسده عَلِمَتْ أن روحه متعبةٌ فانتهت أوَّلًا من مساعدة زوجها على تناول عصير الكرفس، ثم سارعت بصنع كوبٍ من عصير الليمون وناولته لـ "أن بينغ" كي يُزيل أثر الخمر، ولامته بصوتٍ خفيض: "مهما كنتَ حزينًا لا يمكنك شرب كل هذه الخمر".

ففرد "أن بينغ" جسده، ووضع الملقشة من يده ولم ينبس بكلمة، بل تناول الكوب وأفرغه في جوفه دفعة واحدة.

فتنهَّدت "لي سو تشين" وقالت له إنها أيضًا ليست بخير اليوم؛ فقد تلقى ديوان الأحوال المدنيَّة إعلانَ إصلاح دور الجنائز الصادر من الجهات العليا، وبداية من الأول من أغسطس من العام القادم سيتمُّ حَرَقُ جميع المتوفين، وستقوم محافظة "تشينغشان" ببناء محرقةٍ للجُثث في الجبل الغربي الصغير، وستُنقل دار الجنائز إلى هناك. والجبل الغربي الصغير يَبُعد عن المدينة ستة أو سبعة لي؛ لذا فإن رعاية بيتها لن يكون بتلك السهولة فيما بعد، فسألها "أن بينغ" هل حَرَقُ الجُثث قاصِرٌ على سُكَّان المدن والمحافظات فقط؟ فهزَّت "لي سو تشين" رأسها نافيةً، وقالت إن كل القرى التابعة للمحافظة ستُطبَّق القرار الجديد، مَنْ سيموت هناك فيما بعد ستقوم عربات الجنائز الخاصة بالمحافظة بنقله إلى محرقة الجُثث، وبعد حرقه سيُعاد إلى موطنه.

فانحنى "أن بينغ" والتقط المقشَّة، وقال: "ومن سيتحمَّل تكاليف عربات الجنائز في الذهاب والعودة؟".

فردَّت: "من الطبيعي أن أقارب المتوفى هم مَنْ سيفعلون".

فسألها: "قرية تشانغ لين" بعيدة عن المحافظة، فهل لو مات أحدٌ هناك فسيُنقل أيضًا إلى هنا؟".

فأومأت "لي سو تشين" برأسها أن نعم، وتنهَّدت ونظرت إلى الشمس الغاربة وسألت "أن بينغ" والانكسار يملأ صوتها: "في رأيك، هل النار القادرة على تحويل الناس إلى رماد، حمراء مثل تلك الغيوم النارية؟".

فردَّ "أن بينغ": "هل تقولين بأن السماء من الأصل بها محرقة؟".

فقالت مُوبَّخةً: "انتبه لكلامك..."، ثم استطرَدت: "مَنْ بالسماء خالدون لا يشيخون، أُنَّى لها أن يكون فيها محرقة؟".

فضحك "أن بينغ"، وكانت "لي سو تشين" تحبُّ ضحكته؛ فهي ضحكة ذُكوريَّة مُجَلِّلة. وعلى الأرجح سمع زوجها الضحكات فتعالى صوته من داخل الغرفة ينادي "سو تشين"، قائلاً إن الوقت قد حان لتُدلِّك له جسده، لقد كانت "لي سو تشين" منذ لحظات كالجمرة الملتهبة الحمراء، مملوءة بالفرح، وفجأة صُبَّ عليها ماءً بارداً، وعلى الفور تجهم وجهها. فقال لها "أن بينغ": "اذهبي وافعلي ما عليكِ، سأعود للبيت بمجرد الانتهاء من كنس الفناء"، فابتلت عيناها وقالت بصوت خفيض: "ماذا لو سرقْتُ بعضاً من الوقت لأذهب لك مساءً؟"، فهزَّ "أن بينغ" رأسه رافضاً وأخفض صوته قائلاً "لا داعي. سأغادر البلدة لثلاثة أيام، عندما أعود يمكن لنا أن نلتقي" فاعتقدت أنه كالعادة ذاهبٌ في مهمَّة إعدام، فمدَّت يدها وضمت يده برقة. وكان "أن بينغ" ممسكاً بالملقشة؛ لذا ضمت يد الملقشة مع يده.





## 5

# الحِصَانُ الأَبْيَضُ وَضَوْءُ القَمَرِ

قَارَبَتِ المُطْرَزَّةُ عَلَى الثَّمَانِينَ مِنَ العَمْرِ، لَكِنهَا ظَلَّتْ كَمَا كَانَتْ فِي شَبَابِهَا، تَحِبُّ رُكُوبَ الخَيْلِ وَالسَّفَرَ بِهَا. فَكَانَتْ بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ حِيَاكَةِ مَلَابِسِ العَرَسِ تَخْتَارُ يَوْمًا ذَا طَقْسٍ جَيِّدٍ لَتَمْتَطِي حِصَانَهَا وَتُوصِّلَ المَلَابِسَ.

كَانَ الضَّوْءُ السَّاطِعُ شَرْطًا أُسَاسِيًّا فِي الطَّقْسِ الجَيِّدِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهَا، فَالْأَيَّامُ الَّتِي بَلَغَ ضَوْءُهَا جَيِّدٌ كَانَتْ صَفْحَاتٍ بِيضَاءٍ فِي فِصُولِ حَيَاتِهَا.

وَكَانَتْ لَا تَحِبُّ الخُرُوجَ مِنَ المَنْزَلِ فِي الأَيَّامِ المَعْتَمَةِ؛ وَذَلِكَ لِإِشْفَاقِهَا أَيْضًا عَلَى حِصَانِهَا. فَمِثْلُ تِلْكَ الأَيَّامِ فِي الغَالِبِ هِيَ أَيَّامُ هَطُولِ المَطَرِ وَالثَّلْجِ، وَامْتِطَاءِ الخَيْلِ فِي الأَجْوَاءِ الصَّعْبَةِ هُوَ بَلَاشُكَ تَعْذِيبٌ لَهَا.

كَانَتْ الأَحْصَنَةُ الأَرْبَعَةُ الَّتِي امْتَطَتِهَا المُطْرَزَّةُ مِنْ قَبْلِ كُلِّهَا مِنْ أَحْصَنَةِ "إِيلُوينتشيون". هَذَا النُّوعُ مِنَ الخَيْوَالِ مُسْتَقِيمُ الرَّأْسِ، كَبِيرُ

العين، مفروود الظهر والخصر، وأطرافه الأربعة قصيرة وقويّة، وحوافره صلبة؛ لذا، حتى لو لم تُرْكَب له حدواتٌ فيمكنه السير بخطى ثابتة. بالإضافة إلى أن هذا النوع من الخيول شديد التَّحْمُل، ويمكنه تحمُّل الجوع والعطش واختراق الجبال دون أن تَضْعُف أقدامه. كذلك تمتاز بعمرها الطويل، فكان أهالي "إيلوينتسوين" إذا ما حصلوا على واحدٍ منها فكأنهم حصلوا على عامِلٍ لفترةٍ طويلة، أو شريكٍ يتشاطر معهم أحوال الحياة.

الحصان الأول للمُطَرِّزة كان أحمر اللون، أسود الذيل والمعرّفة. هذا الحصان صاحبها عشرين عامًا حتى صار عاجزًا عن الحركة من الشيخوخة، عندها فقط بحثت عن الحصان الثاني. وعندما جاء إلى منزلها كانت قد صارت أمًّا لطفلين؛ لذا صار هذا الحصان الأسود الذي يركض مثل الإعصار مَطيّةً لها ولولديها أيضًا، ومهارة "أن بينغ" و"أن تاي" في ركوب الخيل عائدةً للتدريب على ظهر ذلك الحصان؛ لذلك عندما مات بالطّاعون في سنِّ الثانية عشرة بَكَيًا عليه بحرقة أكثر منها. أمّا الحصان الثالث الخاص بالمُطَرِّزة فكان حصانًا كستنائيّ اللون ذا معرّفة ذهبية، وكان هذا هو الحصان الوحيد الذي أحبّه "أن يو شوين"، وقد عاش معهم ذلك الحصان ثمانية عشر ربيعًا وخريفًا.

أمّا الحصان الذي تمتطيه المُطَرِّزة حاليًا فهو حصانٌ أبيض ذو معرّفة وذيل فضيّن، وحين يركض يُشبه خطأً من البرق يشقُّ الأرض. والمُطَرِّزة تحبّه بشدّة لأن الإنسان حين يصل لسِنِّ الشيخوخة تبدأ البرودة في السريان بجسده، ويتسلّل ظلام العالم إلى أعماق قلبه؛ فكانت تأمل أن هذا الحصان الأبيض الشبيه بضوء القمر يمكن أن يقوم بدور المكنسة التي تكنس ذلك الظلام.

كانت على ثقةٍ أن هذا سيكون الحصان الأخير الذي تمتطيه في حياتها.

وكان زواج المُطرِّزة و"أن يو شوين" هو أسطورة البطل والجميلة.

يقع مسقط رأس "أن يو شوين" في "جينتشوو"، وكانت عائلته فقيرة، فكان أبوه راعي خَيْلٍ، وأمّه خادمةً في بيوت الأثرياء، أمّا أختاه الجميلتان الأكبر منه فكانتا تعملان في مشغل الملابس القطنية. وعندما احتلّ الجيش الياباني "جينتشوو"، تعرّضت أخته الكبرى للاغتصاب من ثلاثة يابانيين في المشغل، وبعدها بيومين انتحرت بشنق نفسها في عارضة السقف باستخدام الحبل الذي يربط به أبوها الخيل، وقبل موتها استخدمت مشطاً خشبياً بللته بالماء لتصفّف ضفيريها الطويلتين لتصيرا لامعتين، وربطتهما بالشريط الأحمر الذي يعزّ عليها أن تستخدمه إلا عند قضاء رأس السنة الجديدة. أمّا أمّه فبعد أن فقدت ابنتها الكبرى بكّت حتى كادت روحها تفارق جسدها، وأمّا أبوه فقرّر من تلقاء نفسه أن يُزوِّج الابنة الثانية إلى تاجر ملح كان في السابق قاطع طريق، قائلاً إن "دونغباي" قد سقطت بالكامل، وذلك الرجل الذي كان قاطع طريق من قبل يمتلك القوّة والشجاعة فلن يسمح للعار أن يلحق بامرأته.

لكن من كان يتخيّل أن يتعرّض مخزنا ملح خاصّين بذلك التاجر للقصف من قبل الجيش الياباني، فصارا رماداً. إلّا أن تاجر الملح لم يلمّ الجيش الياباني، بل على العكس، قال إن العروس نذير شؤم، أضاعت تجارتها؛ فأجبرها على العمل كعاهرة لتكسب له النقود التي خسرها. لكنّ الأخت الثانية لـ "أن يو شوين" لم تتحمّل ذلك الهوان؛ فابتلعت الأفيون وماتت. وهكذا جُنّت الأم التي انتحر لها على التوالي ابنتان مثل الزهور، فصارت تأكل الرّماد في الفرن على أنه غلال، وتأكل الأوراق القديمة باعتبارها أوراق خضروات، وتذهب لحظيرة الخيول لتتحدّث معها حتى منتصف الليل. وذات يوم سارت حتى خارج المدينة، فسقطت في نهر وماتت غرقاً، وفي ذلك العام، كان "أن يو شوين" في السابعة عشرة من العمر، ويعمل حمّالاً في السوق. أمّا الأب

فقد تعرّض لصدماتٍ مُتتاليةٍ، فتلّفت أعصابُه، وذات يوم قال لـ "أن يو شوين": "لقد جاء اليابانيون فلم يَعد في حياتنا أيّام سلام، وأبوك طَعَنَ في السَّنِّ ولم يَعد قادراً على حمل البندقية والقتال، أمّا أنتَ فلو أردتَ أن تعيش أيّاماً هانئة، فلتقاتل هؤلاء العفاريت<sup>(1)</sup>، وإن كانت الرصاصات بلا أعين، فبوذا له عيون، أبوك سيترهبن، سيأكل النباتات ويقرأ كُتُبَ البوذية ليدعو لك ألا يصيبك مكروهٌ، وفي المستقبل لو اشتقتَ لأبيك، فاقراً تعويذة بوذا، سيسمعها قلب أبيك حتى لو كان على بُعد آلاف الأميال، ولو انتصرت ذات يوم، فلا تبحث عن أبيك، لقد خطأ أبوك نحو بوابة البوذية وصار كُلاً منكما في طريق مختلف، إن الحياة قاسية، وأبوك سيرحل ولن يترك حياة الرهبان ويعود لحياة البشر ثانية، فلا فائدة من البحث عنه".

وهكذا أطاع "أن يو شوين" كلام أبيه وذهب لقتال اليابانيين.

أمّا أبوه فقد ذهب في خريف ذلك العام إلى المعبد الكبير في مدينة "هاي"، وصار راهباً.

في البداية شارك "أن يو شوين" في جيش الدفاع الذاتي الشعبي بمنطقة "دونغباي"، وكان مؤسسُه "دينغ تيه ماي" قد قاد الهجوم على معاقل العدو في مدينة "فينغ" ومدينة "تشوانغ خيه"، فذاع صيته وهيبته. وقد وصل عدد الجيش في قِمة ازدهاره إلى أكثر من عشرة آلاف رجل، كانوا يحاربون اليابانيين في مناطق جنوب مقاطعة "لياونينغ"، فكانوا الشوكة في أعين الجيش الياباني والقوآت العميلة الموالية له. وكان "أن يو شوين" في صغره يهوى اللّعب بالنّبلة؛ لذلك بعد انضمامه للجيش كان يشعر بالبندقية في يده كأنها كلبٌ وفيّ ليس بينه وبينها أي شعور بالغرابة. وتلك البندقية كانت تطيعه طاعة عمياء، فلم تَطِش منه أيُّ رصاصة خرّجت من مخزنها. وكانت

(1) العفاريت لفظ يُطلق على اليابانيين من قبل الصينيين بغرض التحقير - المترجم.

الحوادث التي تعرّضت لها أسرته هي الأمل الدائم في قلبه؛ لذا كان قتل اليابانيين وغنيمه أسلحتهم بمثابة عيدٍ بالنسبة له، ولكن نتيجةً لحصار الجيش الياباني وقوّاته العميلة المستمر؛ سقط جيش الدفاع الذاتي الشعبي بمنطقة "دونغباي" في وضعٍ بالغ الصعوبة وخارت قواه، وفي النهاية خان أحدُ العمّلاء "دينغ تيبه ماي" في فترة مرضه نتيجةً لجرحٍ أصابه، وتعرّض للاغتيال في "شينيانغ". وهكذا فقد الجيش قائده وتكبّد خسائر في جنوده، فتحوّل إلى فريقٍ صغيرة لحرب العصابات، واستمرّ في جولات الصراع مع العدو. وأصيب "أن يو شوين" في إحدى المعارك الخاطفة، ففضى فترة العناية في إحدى قرى "لياونينغ"، وبعد شفاء جرحه انضمّ للجيش المتّحد لمقاومة اليابان في "دونغباي". وبعد الانتصار في حرب المقاومة انضمّ مع الفرق المتّحدة لمقاومة اليابان إلى جيش "دونغباي" الميداني، وشارك في المعارك الأخيرة ضد حزب "الكومينتانغ". وخسر في معركة "جينتشوو" ساقه ونصف ذراعه، لقد كانت تلك المعركة عنيفةً وقاسية، حتى إنه لم يبقَ على قيد الحياة من كتيبة "أن يو شوين" سوى ثلاثة جنود، وكلهم أصيبوا بإعاقات.

وهكذا تحرّرت "جينتشوو" بعد طرد اليابانيين ومن بعدها "الكومينتانغ"، وأخيراً عادت حياةُ العامّة إلى الهدوء. وعاد "أن يو شوين" إلى "جينتشوو" بعد أن تلقى العلاج في المستشفى الميداني، وبعد تأسيس الصين الجديدة، ربّّب له عملاً في قسم الخدمات اللوجستية بالجيش. وقد اشتاق لأبيه، وتحركت لديه فكرة البحث عنه، لكن حركته لم تكن سهلة؛ فأرسل شخصاً للذهاب إلى معبد مدينة "هاي" بحثاً عنه، وعندما عاد أخبره أن الرهبان المقيمين في المعبد ليس من بينهم كاهنٌ من "جينتشوو" باستثناء الرهبان الرّحالة، وقد سألهم عمّا إذا كان هناك من بين الرهبان الرّحالة أيُّ واحدٍ لقبّه "أن"، فقالوا إن كلّ من يترهبّن لا يستخدم سوى اسمه الديني، وهنا أدرك "أن

يو شوين" أنه هو وأبوه الذي انسلخ من اسمه الدُنيويّ قد صارًا بالفعل من عالمين مختلفين.

كان عمل "أن يو تشوين" في "جينتشوو" مُريحًا، ومعيشتها مضمونة، إلا أنه قد تجاوزَ الثلاثين ولم تَلح له أي فرصة للزواج. وقد عرّفه التنظيمُ بمرّضةٍ تعمل في مستشفى الجيش، وفي اللقاء الأول رآها بكت حتى احمرّت أنفها، وما إن جلّست حتى نظّرت إلى ساقه المبتورة بنظرات شاخصة، وارتعشت كمن يقف على حافة هاوية عميقة، وعندما أدرك أنها غير راضية عنه تركها تذهب على عَجَل، وقال للتنظيم إن تلك الممرّضة سطحية الفكر لا توافق هواه، فليتركوها على حريتها لتبحث عن شخصٍ سليم. وبعد ذلك الموقف عرّفه أحدُ أصدقاء الحرب القدامى بفتاةٍ أخرى، تلك الفتاة كانت موافقةً، لكنه لم يتحمّل رائجتها؛ فقد كانت تعمل في مصنع المخلل، وأكبر منه بسنة. لم تكن نحيلةً ذات ملامح صفراء فحسب، بل إن بوجهها شامةً كبيرة، وحين تتحدّث يتطاير منها اللعاب في كل اتجاه، وتنبعث من فمها رائحة كريهة. لقد شعر أن عملها في مصنع المخلّل لسنوات طويلة قد جعلها هي نفسها أشبه بعودٍ من الخضار المخلل؛ لذلك بحث "أن يو شوين" عن عُذرٍ ما ليرفضها.

وفي النهاية رضخ للقدر في موضوع الزواج، وفكّر أنه لا ضير من الانتظار، فنصّبك سيأتيك في النهاية. كمثل الليل الذي لا يحبّه الناس، لكنّ القمر لا يأتي إلا في أحضانه.

وبالفعل أثمر انتظاره عن قمر جميل.

في مطلع عقد الخمسينات شارك "أن يو شوين" في فرقة الإعلان عن مآثر الأبطال التي نظّمتها المنطقة العسكرية للقيام بجولاتٍ استعراضية. وخلال مُدّة شهرين تجوّلت الفرقة في كل المدن المُهمّة في مقاطعة "دونغباي". وفي كل محطة يصلون إليها تُرتّب لهم الحكومة

المحلّيّة عرضًا فنيًّا. وعندما وصلوا إلى المحطّة الأخيرة بمدينة "لين" كانت الأرض قد اكتست بصقيعٍ أبيض. وكان "أن يو شوين" قد أصابه التّعَبُ والمَلَلُ من سَرِدِهِ لصِعَابِ حربِ مقاوِمَةِ اليابان وحرب التحرير طوال الطريق؛ لذا عندما وصل إلى الفصل الأخير في الرحلة كان قلبه قد صار باردًا مثل الطَّقْس، حتى إنه صرَّح أخيرًا بالكلام المحبوس في صدره حيث قال إنه يتوجَّب عليه شُكر والده الذي ترهَّبَنَ فقد كان له الفضل في بقائه حيًّا في ساحة المعارك. عندما قال له من قبل إن الرصاص بلا أعين، لكن بوذا له أعين، ثم قرأ "أن يو شوين" تعويذة بوذيّة، وسالت الدُموع من عينيه ليُنهي بصوتٍ خَفِيضٍ خطابه الاستعراضى الجَهوُورِيّ الذي قدَّمه طوال الرحلة. وقد هزَّت كلماته النابغة من قلبه مشاعِرَ إحدى الفتيات، وهي "مينغ تشينغ تشيه" التي كانت جالِسَةً وسط الحضور.

كانت "مينغ تشينغ تشيه" أصغرَ من "أن يو شوين" بعشر سنوات، وهي فتاةٌ مُفعمّة بالحِمام من "إيلوينتشوين"، وقد ظهرت في موقع المؤتمر الجماهيري بدعوةٍ من مدينة "لين" لكي تشارك في عرضٍ فنيٍّ من أجل فرقة الإعلان. لقد كان رقصها المنفرد الخاص بقومية "إيلوينتشوين" مشهورًا للغاية في منطقة "سونغشان"، ومنطقة "سونغشان" تابعَةٌ لمدينة "لين".

كانت "مينغ تشينغ تشيه" متوسّطة الجسد، ليست بالبدينة ولا بالثخيفة. ذات وجهٍ مُستديرٍ مثل تفاحة، وحاجبين خفيفين مُبعثرَي الشَّعر، وعينين ليستا كبيرتَيّن لكنهما لامعتان، ورغم أنفها الأفتس إلا أن شفيتها ممتلئتان كأنهما قُرصُ شَمسٍ أحمرٍ يحمل بين جنباته سُحْبًا داكنةً جميلة، ولم تكن تضع أيّ مساحيق تجميل على خديها إلاّ أنهما كانا أحمرَيّن. وكانت ترتدي ملابس قوميّةً زاهية، وتنتعل حذاءً خفيفًا من جلد الغزال، وأثناء رقصها مُنفردة على المسرح بهرح كانت



كسحابةٍ سَقَطَتْ على الأرض. ولم يكن "أن يو شوين" يتخيَّل حتى في أحلامه أن تَحُطَّ تلك السحابة على رأسه.

"إنك مقطوع من شجرة، سأتزوّجك، هل توافق أن تذهب معي إلى قرية "جويواوين"؟". كانت تلك هي الجملة الأولى التي قالتها "مينغ تشينغ تشيه" بعد أن انتهت من العَرَض ونزَّلت من على المسرح وسارت حتى وَقَفَتْ أمام "أن يو شوين".

وقتها نظر "أن يو شوين" إلى الفتاة الجميلة موفورة الصُّحة، وصاح "أميتابها"<sup>(1)</sup> ثم سأل متعجِّلاً: "أين تقع قرية "جويواوين"؟".  
"مصلحة غابات تشانغتشيونغ".

فسألها ثانية: "وأين تقع "مصلحة غابات تشانغتشيونغ"؟"، فقالت: "في منطقة "سونغشان"."

فَفَعَرَ "أن يو شوين" فاه، فهو يعرف منطقة "سونغشان"، إنها تقع في أعلى الصِّين، منطقة باردة للغاية. لكنه لا يخشى البرد، فقد جاءت شُعلةٌ من النيران إلى حياته.

وهكذا تَقَدَّمَ "أن يو شوين" بطلبٍ للتنظيم لتَقْلِ وظيفته، وبدأ رحلته مع "مينغ تشينغ تشيه" إلى الشمال حتى وضعا أقدامهما في "مصلحة غابات تشانغتشيونغ". ونظرًا لبطولاته الحربية السابقة وللإعاقة في جسده، قامت الحكومة المحلية بترتيب عَمَلٍ له كَمُفَوِّضٍ سياسيٍّ للقوَّات المسلحة، حيث يمكنه أن يجلس بلا عمل في المنزل. وبما أن الزوجة تتبع زوجها؛ لذا انتقلت "مينغ تشينغ تشيه" من قرية "جويواوين" إلى فرقة العُمال الفنيَّة بـ "مصلحة غابات تشانغتشيونغ". لكنهما لم يعيشا في "تشانغتشيونغ" سوى أربع سنوات؛ فقد مَلَّت

(1) كلمة في الديانة البوذية تشير إلى بودا ومعناها الحرفي هو الضوء السرمدي وتستخدم هنا للتعبير عن الدهشة والمفاجأة- المترجم

"مينغ تشينغ تشيه" من المكان عندما كان "أن بينغ" في الثانية من عمره، واشتكت من أن الحياة في "تشانغتشينغ" مُملّة للغاية، أمّا الزوج فصار مثل الدُمية الخشبية التي تتناقلها الأيدي، ففي كلِّ مرّة تحلُّ فيها مراسم بدء الدراسة بالمدرسة الابتدائية والاعدادية أو عند انعقاد مؤتمرات مُمثلي العُمال والموظفين كان "أن يو شوين" يذهب ليحكي مآثر الكفاح، بمضمون لا يتغيّر يُحكي لآلاف المرّات. أمّا الأمر من ذلك فهو أنه لم يكن لا يَمَلُّ من الذهاب للدعاية فحسب، بل كان يَسَعْدُ بذلك جدًّا، وهذا ما لم تتحمّله "مينغ تشينغ تشيه". لقد كانت تحبُّ ركوب الخيل، وجلبت حصانها المُفضّل خصيصًا من قرية "جويواوين" عندما تزوّجًا، وبنت له اسطبلًا. لكنها حينما كانت تمطي الحصان لتجوب به شوارع "تشانغتشينغ" كان الناس ينظرون إليها كأنها مخلوق عجيب؛ ممّا أصابها بالضيق، كما أن رئيس "أن يو شوين" في مصلحة الغابات قال له: "لا تدعُ زوجتك تتجول بالحصان في الشوارع، إنك بطل وهذا يهزُّ صورتك". قالها كما لو أن النساء اللاتي يركبن الخيل عاهرات، وهكذا صار الحصان بلا عمل، ففقد الكثير من هيئته، أما صاحبه فبعد أن أنجبت "أن بينغ" ازداد وزنها بسرعة، ففقدت هي الأخرى رونقها، وانغمست في الخمر فذبلت ملامحها ولم تعد قادرةً على الصعود إلى خشبة المسرح، ولم يعد أمامها سوى العمل كمسؤولة عن المُعدّات في الفرقة الفنية. فشعرت أنها لو استمرت في "تشانغتشينغ" فستصاب بالجنون؛ لذا طلبت الطلاق من "أن يو شوين". لكنه لم يوافق، فقالت له: "لو كنتَ ترغب حقًا في الاستمرار معي فلتعد معي إلى قرية "جويواوين". هذا الطلب كان صعبًا على "أن يو شوين"؛ فقرية "جويواوين" تبعد أكثر من مائة لي عن "تشانغتشينغ"، ورغم أن عمله كمفوضٍ سياسيٍّ يمنحه وقت فراغ كبير، إلّا أن هناك بعض الأعمال الروتينية التي يجب التعامل معها سنويًا، وسيصعب عليه الذهاب والعودة، لكنه في نفس الوقت لم يكن

يرغب في خسارة زوجته؛ لذا تحدّث مع التنظيم، الذي تحدّث بدوره مع "مينغ تشينغ تشيه"، ووصل الجميع إلى حلّ وَسَط، وهو السّكن في قرية "لونغ تشان" التي تبعد عشرين "لي" فقط عن "تشانغتشينغ"؛ لذا يسهل التّحرّك منها وإليها.

وفي العام الثاني من وصول "مينغ تشينغ تشيه" إلى قرية "لونغ تشان" أنجبت "أن تاي". عندها تخلّت عن العمل من أجل رعاية زوجها وابنتيها. فكانت ترى أن هيئات العمل مهما كانت جيّدة تظل عبارة عن قفص سجن، ما إن تدخله حتى تفقد حريتك، وكانت بمجرد أن تُفْرِط في شرب الخمر حتى تثرثر كثيراً عن كيف أنها كانت بلهاء في شبابها لتشارك في الفرق الفنية لكي ترقص لأشخاص لا يفقهون شيئاً عن الرقص، قائلةً بأن رقصها يجب أن ترقصه لثريه للقمر، أو للأنهار، والأزهار، أو لثريه للخيل التي تحبها، والرّجل الذي تحبه. كان الجميع في قرية "لونغ تشان" يعلمون أن الرقص هو السبب الذي جمّعها مع "أن يو شوين" فكانوا يداعبونها قائلين: "هل "أن يو شوين" هو الرجل الذي تُحبّين؟"، فكانت "مُصمّص" شفيتها وتقول: "في البداية كان، أمّا الآن فلم يعد"، فينفجر الناس ضاحكين.

عندما وُلِد "أن تاي"، مُنِح "أن يو شوين" وسام الفاتح من أغسطس من الدرجة الثالثة، وكان هذا أمراً لا مثيل له في كامل منطقة "سونغشان". وبداية من هذا العام خصّصوا المكان الأكثر تميّزاً بمدخل مقبرة الشهداء في "تشانغتشينغ" المبنية حديثاً له، رغم أنه وقتها كان لا يزال في منتصف العمر.

لكن الفجوة بين الزوجين بدأت من تلك المقبرة. فقد قالت "مينغ تشينغ تشيه" إنه لا ينبغي عليه دخول مقبرة الشهداء؛ لأن المدفونين هناك هم الضحايا الحقيقيون، بينما يعيش هو حياة لا يحمل فيها همّ مأكلي أو ملبّس، أمّا "أن يو شوين" فقال بأنه فقد ساقه وذراعه

في الحرب، لقد قدّم بالفعل التضحيات في وقت مُبكر؛ لذا فإن من المنطقي أن يُرتَّب له التنظيمُ مدفنًا في تلك المقبرة، فسَخِرَت منه قائلة: إذن ينبغي أن يُدخَلَ المقبرة ذراعَه وساقَه التي فقدَهما وليس هو، فاستشاط "أن يو شوين" غضبًا، وقال: "هل تَوَدِّين أن أُطير إلى العالم الآخر لكي أَسْتَرِدَّ ساقِي وذراعي لأدْفِنهما في مقبرة الشهداء؟"، فردَّت عليه دون كياسةٍ أنها تقصد بالضبط هذا المعنى. عندها هدر صوته صائحًا: "أَلَسْتَ بهذا تتمنِّين موتي؟"، فردَّت عليه بكياسة: "إنك بطل، هل يخشى الأبطالُ الموت؟".

في الحقيقة كانت خيبة أمل "مينغ تشينغ تشيه" تجاه "أن يو شوين" نابغةً من أن موافقته على الدفن في مقبرة الشهداء يعني تخليه عن الدفن معها في نفس المكان بعد مائة عام؛ فهي لا تملك الحقَّ في الدفن هناك. وبالنسبة لها كان العيشُ مع رَجُلٍ لا يرغب في أن يُدفن معها لا يختلف عن احتضان جَرَّةٍ من الخمر الفاسد التي لم يُعد لها طعام.

لكن "مينغ تشينغ تشيه" وجَدَت مُتعة الحياة في مكانٍ آخر، لقد تعلَّمت فنُّ التطريز حينما كانت في قرية "جويواوين"؛ لذا بدأت في حياكة الملابس واستقبال الزبائن. كانت تمسك بإبرة التطريز لترسم التنين وتُطرِّز العنقاء فوق أثواب الحرير الناعم اللَّمَّاع، وكانت صور مثل زهور اللوتس وبطِّ الماندرين، وزهور الفاوانيا والفراشات، وزهور الأزاليا والبرقوق الأحمر، والعشب الأخضر واليعاسيب، والقمر المضيء مع السُّحب، والجداول والأسماء الحمراء كلها رسومات مُتمكِّنة منها وتحظى بحُبِّ من العرسان الجُدُد. وكانت لا تُكرِّر الأشياء التي تُطرِّزها، فلو تحدَّثنا عن الفراشات، لن نجد واحدة مثل الأخرى، أمَّا نفس النوع من الزهور فكانت حين تُطرِّزها تُغيِّر في أوضاعها وألوانها؛ لذا تصير غيرَ مُتماثلة. وكانت لا تُحدِّد أجرًا ثابتًا، بل تعمل بالملكافأة، فالأسر الغنيَّة كانت تعطيها الكثير، وكانت هي تقبل بذلك،

أما العرسان الفقراء، فكانوا لا يعطونها فلسًا واحدًا، وكانت تقوم بالعمل بنفس راضية. وبالطبع كان هناك من يقايضون ببعض السلع، فكانت تسعد بذلك أيضًا، وعندما كانت "أن شوي أر" طفلةً كان أكثر ما تحبُّه هو هؤلاء القادمون لحياكة ملابس العرس ومعهم هدايا متنوعة وغنيّة، من سجائر وخمور وسُكَّر وشاي ولحم مُجفَّف وكعك وملابس وأحذية وقُبَّعات ومصاييح يدوية وماكينات حلاقة وقِرَب مياه ساخنة، بل وحتى البسكويت الخاص بالخيل... كلها كانت تدخل إلى منزل أسرة "أن" من باب المكافأة.

ومنذ أن بدأت في حياكة ملابس العرس حتى صار الناس يدعونها المَطْرَزَة.

لكن "أن يو شوين" لم يكن يناديها بالمَطْرَزَة، فقد كان يرى أن هذا الاسم أشبه بالأسماء المستعارة للفتيات في بيوت الدَّعارة؛ لذا ظلَّ يناديها "تشيخ تشيه".

كان "أن يو شوين" يناديها "تشيخ تشيه" ثلاث مرَّات كل يوم: مرة في الصباح، ومرة في الظُّهر، ومرة عند الغروب، ولا يناديها لأمرٍ سوى لأن الوقت قد حان، فكان ينادي من باب الفراغ فحسب، أمَّا هي فكانت لا تُعيره أي اهتمام، فقد كانت تشعر أنه في الحقيقة ينادي الشمس، وهي لا تستطيع أن تنوب عن الشمس في الرَّدِّ عليه. وأحيانًا عندما تغادر المنزل، كان "أن يو شوين" يذهب إلى اسطبل الخيول وينادي "تشيخ تشيه"؛ لذلك كان هناك على الأقل اثنان من الخيول التي تركبها المَطْرَزَة يعتقدان أن اسمهما هو "تشيخ تشيه".

وبالإضافة إلى حياكة ملابس العرس كانت المَطْرَزَة تحبُّ أيضًا ركوب الخيل والصيد في الشتاء، أمَّا في الصيف فتذهب لصيد الأسماك من النهر. وكانت أكثر شخصٍ مُهِدِرٍ للرِّصاص حين تذهب للصيد، ليس بسبب افتقارها لمهارة استخدام البنادق، ولكن لأنها كانت

بمجرد دخول الجبل والإمساك بالخمير لتقدّمها لآلهة الجبل تشرب نصف إبريق منها، فتغطّي الخمر القوية على بصرها وقواها وتصير كالشمس الغاربة التي تلامس الجبل الغربي، تنزلق للأسفل مع الوقت. وتصير رؤيتها مُشوَّشة ويدها مرتعشتين، وتعتقد أنها صوّبت بدقّة على وَعَلٍ أو دجاجة بريّة، لكن الرصاصة تنطلق وتسقط دون أي إصابة، بل إنها ذات مرّة اعتقدت أن جذع الشجرة المقطوع خنزيرٌ بريٌّ، فأطلقت عليه وإبلاً من الرصاص، وعندما رآته لا يزال منتصباً صرخت فيه: "لقد جاء دورك لتتناسخ لحياة أخرى، لا تكابر..."، فصارت بذلك أضحوكةً. لكنها حين تصطاد الأسماك بالشوكة تكون مُتزيّنة تماماً؛ فهي لا تشرب الخمر وقتها؛ لذا يتناغم قلبها مع يدها، فتقف في الخليج النهري تُحدّق في الأسماك، ثم تضرب بكل قوتها بشوكة الصيد المزدوجة، وعلى الفور تطفو بين الموجات الخفيفة دماء الأسماك القانية، وتخرج في الشوكة من الماء سمكةً، وكانت المطرزة تُحبُّ صيد الأسماك الكبيرة، فالأسماك الصغيرة كثيرة الأشواك ومُتعبّة في الأكل، وكانت لا تستخدم الشبكة لصيد الأسماك؛ فهي تستمتع بالسعادة التي يجلبها الوقوف في الماء، كذلك كانت ترغب في إعطاء الأسماك ميتةً سريعةً. فاستخدام الشبكة يجعلها تراقص كثيراً؛ ممّا يجعل موتها يسبقه فترة "معافرة"، أمّا الشوكة فكانت تقتلها مباشرة.

بعدها صادرت الحكومة بنادق الصيد من قومية "إيلوينتشيونين"؛ فلم يعد بإمكان المطرزة الذهاب للصيد في الجبال، كذلك صارت متكاسلةً عن استخدام شوكة الصيد؛ ولأن الأسماك في الماء مثلها مثل الحيوانات في الجبل، قلّت أعدادها عامّاً بعد عام، لتصبح كالنجوم في طرف السماء المظلمة، من الصّعب اكتشاف نقاطٍ لمعانها، وهكذا تحوّلت أدوات صيد الأسماك - دون أن تشعر- إلى قِطْع ديكور.

أمّا "أن يو شوين" فلم يعد يظهر في المؤتمرات الجماهيرية في سنواته الأخيرة؛ وذلك بسبب إصابته بالزهايمر. وقتها عاد كالطفل،

فجأة صار لطيفًا للغاية، وكلّما عادت المطرزة إلى البيت يمسك بالملابس التي تخلعها ويشمّها بأنفه، فلو اشتمّ رائحة الزهور والأعشاب واللحم تنفرج أساريره، ولو اشتمّ رائحة المراحيض وروائح السوق الكريهة يضمّ شفثيه امتعاضًا. وكان دائم الهدوء في الصباح، حيث يحتضن عصاه ويجلس على كرسيه أمام النافذة لينظر إلى السماء في شروء، لكن ما إن يمُرَّ وقت الغداء حتى يصير كمن صدر له أمرٌ بالتحرُّك، فيبدأ في الحركة بلا توقُّف. وكان يتوكأ على عصاه ليذهب إلى المطبخ ويعبث بأعواد الثُّقَاب تارة، قائلًا بأن الجوع قد تمّلكه ويحتاج لإشعال النيران لطبخ الطعام، وتارةً أخرى يذهب بحثًا عن مظلّته قائلًا إنّها ستُمطر، وولداه في الحقل يعملان وقد نسيًا أخذها، لذا يتوجّب عليه أن يذهب لاستقبالهما. وكانت المطرزة تخشى عليه من العبث بالنيران؛ فخبأت الثُّقَاب. أمّا المظلة فجهّزتها له، سواء كان الجو صيفًا أم شتاءً؛ وذلك تجنّبًا لهلّعه عندما لم يجدها. أمّا بعد العشاء فكانت عيناه تلمعان بشكل غير عادي، في ذلك الوقت كان يحزم غطاء السرير بالحبال، ويحمله على كتفه ويدور في دوائر في الفناء، وعندما تسأله المطرزة ما الذي يفعله، كان أحيانًا يقول بأنه هاربٌ من المجاعة، وأحيانًا أخرى يقول إنه ذاهب لاستقبال أقاربه، وأحيانًا يقول بأنه ذاهبٌ لقتال اليابانيين، وهكذا بعد أن يدور لساعتين أو ثلاثٍ يرجع إلى الغرفة ليضع متاعه ويتأمّل نفسه في المرآة لمدة ربع ساعة قبل أن يصيح "أميتابها" وعندها فقط يخلد إلى النوم، أمّا أهالي قرية "لونخ تشان" فكانوا يتندّرون بأن هذا البطل الحربي لم يسقط أمام فوهات المدافع، لكنه سقط أمام فوهات المرض، فيا له من مصير.

لم يكن "أن بينغ" يتحمّل رؤية والده المصاب بالزهايمر بسبب ضمور المخيخ؛ لذلك كان دائمًا حين يأتي لزيارته يصل ظهرًا ويغادر بعد الغداء، أمّا لو قضى الليل فكان إمّا يذهب إلى ورشة "أن شويه

أر"، أو يظلُّ في الحانة حتى منتصف الليل ولا يعود إلى المنزل إلا بعد نوم والده، فكان يقف أمام سريرهِ ويتأمل ملامحه وهو غارق في النوم، وتسيل دموعه في صَمْتٍ. وعندما توفِّي "أن يو شوين"، وأثناء الجنازة، لم يَبِكِ "أن بينغ"، رغم أنه الابن الأكبر؛ ممَّا جعل الناس ينتقدوه من وراء ظهره، فقط المُطرَّزة كانت تعلم أن ابنها يملك دموعًا جافَّة.

وبعد أن ارتكب "شين شين لاي" جريمته وهرب، توقَّفت المُطرَّزة حتى عن حياكة ملابس العُرس، رغم أن فصل الصيف هو موسم الزواج، وعدد القادمين لحياكة ملابس العُرس ليس بقليل. إلا أن المُطرَّزة كانت تقريبًا لا تبقى في المنزل، بل تمتطي حصانها لتلجَّ في الجبل، ومعها سَكِّينُ الصِّيد، وإناء الطهي المُعلَّق وأدوات إشعال النَّار والطعام، فكانت لا تعود في بعض الأحيان إلا مرَّةً واحدة كل ثلاثة أو أربعة أيام، وقتها كان يبدو واضحًا من الإرهاق غير المسبوق البادي عليها وعلى حصانها الأبيض أنهما سارا طُرُقًا كثيرة ولكن بدون أي نتيجة. وكانت عند عودتها للقريَّة لا تفعل سوى أمرين: الذهاب للسوق الجنوبي لشراء سَلَّةٍ من الأطعمة من أجل "أن شويه أر" وتضعها أمام باب ورشتها، والذهاب إلى جِزارة "شين تشي زا" لتفُتِّش بعناية أرجاء المكان، حتى جرار الأرز الموجودة بالمخزن.

وذات يومٍ عادت المُطرَّزة من الجبل مُمتطيَّةً حصانها ومعها شيان، الأول: شيءٌ حيٌّ، وهو سنجاب صغير ذو فِراءٍ ذهبي بخطوط سوداء، والثاني: شيءٌ ميِّت، وهو "فانلة" بيضاء مُهترئةً اصفرَّ لونها. فوَصَّعت السنجاب في قفصٍ وأهدته لـ "أن شويه أر" ليحلب لها هذا السَّنْجَابُ الصغير المرِحُ والحيوية وبعض السعادة. وكانت المُطرَّزة لا تتحمَّل رؤية هيئة "أن شويه أر" المُدمِّرة من بعد الحادثة؛ لذا وضعت قفص السنجاب على باب ورشتها ورحَّلت مباشرةً لتذهب على الفور إلى جِزارة "شين تشي زا" لتلُوح له بالفانلة البيضاء المهترئة



في يدها وتساءله: "هل كان ذلك الشيطان من منزلك يرتديها؟"، فرمق "تشين تشي زا" الفانلة بنظرة سريعة، ثم هز رأسه نافيًا وقال: "ذلك الهالك يشمئز من اللون الأبيض، ليس الفانلات فحسب، بل إن هذا الكلب لا يرتدي حتى الجوارب البيضاء"، فتنهّدت المطرزة وأدرّكت أن تلك الفانلة التي عثرت عليها في الجبل ليست لـ "شين شين لاي". وأدرّكت أن تفتيش الجزيرة مرّةً أخرى لن يُسفر عن شيء؛ لذا غادرت بخطوات ثقيلة.

وما إن خرّجت من فناء "شين تشي زا" حتى صادقت "شين كاي ليو" الذي كان يستعدُّ لصعود الجبل لقطع الأعشاب الطبية وعلى ظهره سلّة جمّع الأعشاب، فحدّق في الفانلة الموجودة بيدها ولمعت عيناه كالجائع الذي رأى فطيرًا خارجًا لتوّه من الفرن، واحمرّت وجنتاه من فرط الحماسة، وقال: "هل عثرت عليها عند قمة لاوتشاي؟ لقد رميتها هناك في الربيع عندما كنت أقطع الأعشاب هناك، هل أخذتها لتمسحي بها عرق حسانك الأبيض؟"، فألقت المطرزة الفانلة من يدها باشمئزاز، وقالت بغضب: "بل سأستخدمها فراشًا لبيت الكلب"، فمسح "شين كاي ليو" أنفه، وغادر بوجه مكفهر.

كانت المطرزة تكره "شين كاي ليو"؛ فذلك الجندي الهارب كان دائم العداء لـ "أن يو شوين"، بل ويسعد كثيرًا بهذا العداء، فقبل أن يتقاعد "أن يو شوين" كان يذهب للعمل كل عشرة أيام أو نصف شهر في الجيش، فكان "شين كاي ليو" دائمًا ما يضع عوائق في طريق السيارة الجيب الآتية من "تشينغشان" لاستقبال "أن يو شوين"، فيضع بعرض الطريق جذع شجرة، أو يدفع بضعة أحجار من فوق الجبل على الطريق. أمّا السنوات التي فقد فيها "أن يو شوين" قدراته العقلية فكانت فرصةً لشماتته حيث كان يدعو من وراء ظهره "أن الأبله". وفي مساء اليوم الذي لفظ فيه "أن يو شوين" أنفاسه الأخيرة، ذهب "شين كاي ليو" إلى السوق الجنوبي واشترى زجاجتيّ خمر وجين

من لحم الخنزير، وأكل وشرب حتى الثمالة، وأخرج الفانوس الأحمر الذي لا يخرج إلا عند الاحتفال بالعام الجديد وعلّقه، وعندما عَلِمَ "شين تشي زا" اعتراه الغضبُ وأمسك بسكّين ذبح الخنازير، وأنزل الفانوس المعلق فوق باب والده، وتعامل معه كما يتعامل مع بطيخةٍ، فقطعه إربًا.

لم تكن المطرزة في مزاجٍ يسمح لها بالعودة للمنزل؛ لذا ذهبت مباشرة إلى السوق الجنوبي، وظلت جالسةً في حانة هناك طوال اليوم. وكان العديد من أبناء قومية "الإيلوينتشوين" قد توفّوا في السنوات الأخيرة واحدًا تلو الآخر بسبب الإفراط في الخمر، حتى إن المطرزة قالت إن حُبَّ الخمر قد يتسبّب في فناء قوميتهم؛ لذا بدأت بنفسها وقاطعت الخمر. لقد ذهبت إلى الحانة فقط لشرب الشاي، وقرب الغروب جاء مَنْ يخبرها أن "أن بينغ" عاد للمنزل، وكان وجهه مُسودًّا، ويحمل معه كيسين، وقد نحل جسده حتى صار شبحًا، وبعد دخوله للمنزل بوقتٍ قصيرٍ خرج مرةً ثانية مُمتطيًا الحصان الأبيض ومعه الأشياء التي جلبها، فذهب أولًا إلى منزل "شين تشي زا"، وخرج منه حاملاً سكّين ذبح الخنزير، ثم غادر القرية تمامًا. وما إن سمعت المطرزة هذا الكلام حتى فزعت وألقت كوب الشاي من يدها وعادت مُسرعةً للمنزل. فوجدت اسطبل الخيل خاويًا، والحصان الأبيض غير موجود بالفعل، فتحسّست بيدها العلف الموجود بوعاء طعام الحصان فوجدته رطبًا؛ ممّا يُثبت أن الحصان كان يتناول الطعام. فنادت بصوت متحشرج: "ولدي..."، ثم غادرت الاسطبل بخطواتٍ مُترنحة، كانت الشمس الغاربة لا تزال تُلقي بضوئها، إلا أن المطرزة شعرت أن الدنيا اسودّت أمامها.

# مكتبة

t.me/soramnqraa



## 6

# صَوْتُ النُّمُوِّ

مَن الذي اكتشف أن قامة "أن شويه أر" بدأت في النُّمُو؟ بلا شكُّ كانت هي نفسها.

كانت طاولة الموقد الكبير الموجودة في ورشة صناعة الشُّواهد الحجرية قد صُنِعَت قِيَّاسًا إلى قامتها؛ لذا كانت أقصرَ من طاولات المواقد العادية بحوالي 30 سم، وليس من الممكن أن تُصنَعَ أقصرَ من ذلك، وإلَّا فإن سعة بيت الحطب ستصبح غير كافية لاحتراقه بشكل جيد؛ وعندها ستمتلئ الحجرة بالدخان، ورغم ذلك كانت "أن شويه أر" حين تقف أمام طاولة الموقد تحتاج إلى وضع قدميها على منصَّة من الأسمنت بارتفاع قَالْبَيْنٍ من الطوب مبنيةً بجوار الطاولة، وإلَّا ستجد صعوبةً حتى في وضع إبريق الشاي فوق فتحة نار الموقد.

وكانت طاولة الموقد مُصمَّمةً خُصِيصًا لها، أمَّا الموقد الصغير فكان مثله مثل الموجود في البيوت الأخرى، بارتفاع دلو ماءٍ وموضوعٌ في

الجهة المقابلة لطاولة الموقد؛ لذا كانت تستطيع التعامل معه بسهولة نظرًا لقامتها القصيرة، وكان الاختلاف الوحيد هو أن النساء الأخريات حين يقفن أمام الموقد يضطرن لحني خصورهن، أمّا هي فكانت تقف منتصبّة القامة وترى بوضوح لون الطعام الموجود بالقدر أعلى الموقد ودرجة نُضجه؛ لذا كانت تطبخ الأرز بدون أن يلتصق بقاع القدر، والطعام الذي تصنعه لا يحترق أبدًا.

وفجأة اكتشفت "أن شويه أر" عندما وطأت بقدمها الدرجات الموجودة أمام الموقد أنه صار أقصر ممّا كان عليه، فيما سبق كان يصل إلى صدرها، أمّا الآن فقد انخفض إلى خصرها، كأنّ شخصًا ما قد قصّ منه عقله في الهواء؛ فصارت تحتاج إلى الانحناء قليلًا حين تقف أمامه، لم تُصدّق أن قامتها قد استطالت؛ لذا قارنت طولها مع النافذة، فوجدت أن النافذة التي كانت تصل عند كتفها صارت الآن بمحاذاة صدرها، كما لو أن النافذة شاخت وانكشمت. هنا أصيبت "أن شويه أر" بدهشة عارمة، وتسارعت دقات قلبها، ثم قارنت طولها بصوان الملابس والمقعد، فاكتشفت أن الصوان لم يعد مرتفعًا وبعيدًا، أما المقعد فلم تعد بحاجة لثني قدميها وهي جالسة عليه. عندها اندفعت نحو الفناء لتقارن طولها مع شجرة البلوط، تلك الشجرة تستطيع هي الأخرى، لكن كان من الواضح أن قامة "أن شويه أر" قد استطالت أسرع من الشجرة؛ فالفروع التي كانت لا تلمسها في الماضي صار بإمكانها الإمساك بها بإحكام. لكن "أن شويه أر" ظلت غير مُصدّقة، فهرعت نحو الشواهد الحجرية الراقدة بجوار الحائط لتقارن قامتها بها، فاكتشفت أن هناك اختلافات في الطول قد حدثت بينها وبين الشواهد الحجرية من مختلف الأحجام، لقد طالت قامتها بالفعل.

عرّفت "أن شويه أر" أنها قد كبرت ليس فقط من المقارنة مع الأشياء المادية، ولكن عن طريق المرأة أيضًا، فقد اكتشفت أن وجهها

تَضَخَّم، والمسافة بين عظام الأنف والوجنتين قد كَبُرَتْ، كما استطال حاجباها وَحَطَّ شَفَتَيْهَا، فكانت من قبل تحتاج لِقَطْعِ التُّفَّاحَةِ التي في حجم قبضة اليد كي تستطيع أن تضعها في فمها الصغير الأشبه بِحَبَّةِ الْكَرْزِ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ صَارَ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَقْضِمَهَا بِأَكْمَلِهَا. وصارت كُلُّ سِرَاوِيلِهَا صَغِيرَةً عَلَيْهَا، فلم يَبْقَ وَاحِدٌ مِنْهَا إِلَّا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُ قَصِيرَةً حين ترتديه. أَمَّا باقى الملابس فقد صارت أَضْيَقَ حين تضعها على جسدها، وصارت الأزرار عند صدرها مشدودةً كأعصاب جُنْدِيٍّ على حَظِّ النَّارِ، وهنا قَبَضَتْ "أن شويه أر" على قلبها المتقافز وقالت لطير السنونو التي تطير خارج النافذة والشواهد الحجرية الصامتة: "لقد طالت قامتي"، وقالت للنمل أسفل الأشجار والنجوم في الليل: "لقد طالت قامتي"، وقالت للفجوة العميقة من أثر رأسها في الوسادة: "لقد طالت قامتي".

أغلقت "أن شويه أر" بابها على نفسها لما يُقَارِبُ الشَّهْرَ، فقد أوصتها المُطْرِزَةُ بالأُتْرَاجِ من باب البيت؛ فالأشياء مهما بلغ سوءها مثلها مثل الرياح، يتداوُلُهَا النَّاسُ لِفْتَرَةٍ ثم ترحل بعيدًا. وقد عملت "أن شويه أر" بنصيحتها وخلعت سلك الهاتف الموجود بالورشة، فعلى أيِّ حال هَوَتْ تِجَارَتُهَا إِلَى الْحُضِيضِ ولم يَعُدْ أَحَدٌ يَأْتِي للسؤال عنها من بعد الحادثة. أَمَّا المُطْرِزَةُ فَكَانَتْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُحْضِرُ فِيهَا أَشْيَاءَ لَهَا تضعها على الباب وتُبْهِّهَا مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ ترحل.

كانت المُطْرِزَةُ تَمْتَطِي دَائِمًا حِصَانَهَا فِي الْجَبَلِ، وَقَدْ رَأَتْ الْكَثِيرَ مِنَ الزُّهُورِ الْبَرِيَةِ الَّتِي وَطِئَتْهَا حِصَانُهَا بِسِنَابِكِهِ، تِلْكَ الزُّهُورُ انْكَسَرَ حَصرُهَا وَتَفَسَّخَتْ أَغْصَانُهَا، وَصَارَتْ تَرْتَعْشُ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ، لَكِنْ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، بَلْ وَمِنْ الْمُمْكِنِ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا أَنْ تَرْفَعَ تِلْكَ الزُّهُورَ الْعَنِيدَةَ الْمَتَمَسِّكَةَ بِالْحَيَاةِ رُؤُوسَهَا ثَانِيَةً وَسَطَ النَّسَمَاتِ وَالْأَمْطَارِ الرَّقِيقَةِ، وَهَكَذَا كَانَتْ الْمُطْرِزَةُ وَاثِقَةً أَنَّ "أن شويه أر" مثلها مثل تلك الأزهار.

وبالإضافة إلى المُطرزة كان "شين تشي زا" هو أيضًا دائمًا ما يجلب الطعام إلى "أن شويه أر". فكان لا يلقي التحية، بل يلفُ المأكولات في كيس الطعام، ويُلقيها من خارج الباب إلى الفناء. لحم الخنزير المسلوق، وقدم الخنزير المطهوء بصوص الصويا، ومُخُ الخنزير المقلي، وفطيرة البصل المقلية أو الفطائر المحشوة باللحم، كان يصنعها كلها بنفسه، وذات مرّة سَقَطَت الفطائر المقلية بالزيت فوق الشاهد الحجري الأخضر، فَبَدَت تلك الفطائر الصفراء كأنها نقودٌ ورقيةٌ نثرها أحدهم.

بعد حادثة الاغتصاب بقليل عرفت "أن شويه أر" عن الطعام والشراب بسبب ذكريات ذلك المشهد المملوء بالعار، وبسبب الألم الناتج عن تمزُّق جسدها، فصارت تغسل وجهها بالدموع وتعجز عن النوم، وكم ودَّت أن تتحوَّل إلى قطعة من الحطب ليدفعها أحدهم داخل الموقد حتى تصير رمادًا، بعدها استمرت المُطرزة و"شين تشي زا" في جلب المأكولات لها، فَجَرَّبَت أن تنسى وسط الطعام كل ما حدث، فأشعلت مُحركات جسدها لتدور أمعاؤها بسرعة عالية وتلتهم كل ما جلباه من مأكولاتٍ بنهمٍ، وقتها صار عقلها فارغًا تمامًا، فلم يُعد به أي شيء بعد أن امتلأت معدتها سوى الرغبة في النوم، وتلاشت تدريجيًا آلام قلبها وجسدها، وعشقت الطعام عِشْقًا لا رجعة فيه. وانخفض مستوى الأرز في جرة الأرز بمطبخها بمعدلٍ سريع، أمَّا جوال الدقيق الممتلئ البالغ وزنه ثلاثين جين، وكان يكفي في العادة لثلاثة أشهر، فقد نَحَلَ تمامًا في نصف شهر فقط. وصار لعبها يسيل بمجرد رؤية أي طعام، وفي الليل حين تستلقي على فراشها ويغرق العالم من حولها في الصمت، يصير بإمكانها سَماعُ صوت مُوِّ جسدها، فكانت مفاصلها بالكامل تُصدِر طقطقاتٍ صاخبةً كأنها تُعْغِي كورال الحياة، أمَّا بطنها فكانت كأنها مملوءة بماءٍ يغلي ويفور، وأظافرها تشتكي بأن مساحتها ليست كبيرة بالقدر الكافي؛ لذا كانت توسَّع بلا

توقُّفٍ مجالَ سطوتها، أما شعرها فصار كأعواد القمح التي دخلت في  
طَوْر النُّمُوِّ السريع، حيث ازداد طولها بجنون.

وهكذا دخلت في النوم وهي تستمع إلى صوت مُؤوِّها.

ومن أجل إثبات أن قامتها طالت، نوت "أن شويه أر" الخروج من  
المنزل لترى ردَّ فعلِ الناس في القرية. وجاء هذا بالضبط في الوقت  
التي جلبت فيه المُطرِّزة سنجابًا لها، فصار لديها حجة للخروج.

دائمًا ما يُغلَّف الضباب والسُّحُب جبل التنين في بدايات الصيف،  
وفي الوقت الذي اتَّخَذت فيه "أن شويه أر" قرار الخروج من المنزل،  
حلَّ ضبابٌ كثيفٌ لأيام متواصلة، فاضطرت للانتظار، حيث خَشِيت أن  
تَقِلَّ قُدرةُ الناس على الإبصار في الضباب فيرونها أقصر.

وأخيرًا جاءها صباحٌ جميل، كان ضوء الشمس فيه ساطعًا لدرجة  
يمكن معها رؤية الخيوط الرفيعة التي نسجها العنكبوت بين الأشجار.  
فتزَيَّنت "أن شويه أر" بسعادةٍ كأنها ستقضي عيد رأس السنة. فغسَّلت  
وجهها ومَشَّطت شعرها، ودهنت بعضًا من الكريم العِطريِّ، ثم  
عَقَّصت شعرها في ضفيرة ذيل حصان، ووضعت فيه مشبك الشَّعر  
المُرَّصع بالكريستال الذي أهدته لها "تانغ ماي". لكن ظَلَّت مسألة زرِّ  
الملابس هي المشكلة الأكثر إرهابًا، فقد بدت الملابس صغيرة عليها،  
لكن لم يكن لديها ما هو أكبر؛ فاضطرت لتسيير أمورها بما هو  
موجود؛ لذا اختارت بنطالًا أزرق مزِينًا بزهور بيضاء أقدامه مَطوِيَّة  
للأعلى؛ فكانت تلك الزهور تعطي للرَّائي إحساسًا بأنها تطير، ومن  
أجل اختيار لونٍ يليق مع البنطال، ارتدت قميصًا أبيض ذا ياقة عالية،  
بعدها قصَّت الزرِّين الموجودين على الصدر وخاطتهما ثانية بسرعة  
ورشاقة للخارج قليلًا؛ وذلك لأنَّها خَشِيت ألا يتحمَّلا الضغط فيكشفا  
صدرها، وعندما همَّت بتغيير حذائها الخفيف اكتشفت أن قدميها  
كَبَرَتَا بسرعةٍ أكبر من جسدها، فكلُّ الأحذية الموجودة على الرَّفِّ



أصبحت كأنها غير راضية عنها وغير راغبة في البقاء معها، فألممتها قدماها كثيراً حين حاولت حشرهما بداخلهم؛ فاضطرت في النهاية إلى الخروج وهي تُجرِّح قدميها في الحذاء. وكانت أصابع أقدامها في السابق في حجم حبة البازلاء، أما الآن فصارت في حجم براعم الفوانيا، مستديرةً ونضرةً ورقيقة ووردية اللون، تلك الأصابع بالتأكيد تستحق أن تُظهرها زهواً. وهكذا تأبطت قفص السنجاب وخرجت من باب البيت.

لم تنس "أن شويه أر" أن تجلب معها مالا كافياً، فمؤمها هذا جعل ملابسها وأحذيتها وقبعاتها مثل الزهور التي فات موسمها، وتوجب عليها استبدالها، بالإضافة إلى أن جرة الأرز وجوال الدقيق بالمخزن أوشكا على الانتهاء؛ ويجب شراء المزيد من الغلال.

في البداية ذهبَت أولاً إلى منزل العمّة "دان سيه"، ففي الفترة التي انغلقت فيها على نفسها طرقت العمّة "دان سيه" بابها عدّة مرّات لرؤيتها، لكنها رفضت شاكرةً. وقد خشيت "أن شويه أر" أن تُضمّرها لها العمّة في قلبها؛ لذا جلبت معها قلب خنزير وضعتّه في كيس بلاستيكي لتعطيه للعمّة هديّةً، وكان "شين تشي زا" قد جلبه لها في الصباح الباكر.

وقتها كان "دان شيا" واقفاً في الفناء، ممسكاً بفرشاةٍ ودلوٍ صفيحيٍّ ويمشط شعر الحمار الأسود، فقد كانت العمّة "دان سيه" تأمره في منتصف كل شهر أن ينظف جسد الحمار الأسود؛ لذا فإن هذا الحمار هو أنظف حيوانٍ في قرية "لونغ تشان".

نادت "أن شويه أر" على "دان شيا"، لكنه بدا كأنه لم يسمعها، بل ظلّ مُطأطئاً رأسه، مُنكفئاً على عمله دون أن ينبس بأي صوت، لكن ذلك الحمار الأسود هو ما أدار وجهه ناحيتها، ونظر لها بعينٍ مُتفخّة، ثم نهق بصوتٍ عالٍ وثنى قدمه اليسرى الأمامية.

في تلك اللحظة كانت العمّة "دان سيه" قد انتهت من صنع الفطير الذي ستبيعه لهذا اليوم، وحملته خارجةً من غرفة صنع الفطير لتضعه فوق العربة ذات العجلة الواحدة وتدفعها حتى السوق الجنوبية كي تبيعه هناك، فوقع بصرها على "أن شويه أر"، لكنها لم تتعرّف عليها، بل سألتها: "عمّن تبحثين..."، فمطّت "أن شويه أر" فمها، وغمزت بعينيها بشقاوةٍ، عندها رأّت العمّة "دان سيه" بريقًا مألوفًا في تلك العينين، فدقّقت النظر أكثر، عندها تعرّفت عليها، فأطلّقت صيحة دهشة، وسقط منها الفطير أرضًا، ولحُسن الحظ كان الفطير ملفوفًا بالقماش، فلم يتسخ كثيرًا، لكن الفطير الطازج هَشُّ ورقيق مثله مثل جسد الفتاة، لا يحتمل الضربات؛ لذا لم تبقَ منه واحدة سليمةً.

رأت "أن شويه أر" في تعبيرات وجه العمّة "دان سيه" التغيّرات المدهشة التي طرأت عليها، وظلّت مُترقبةً أن تنطق العمّة بها. لقد صارت الكلمات في تلك اللحظة مثل قلم التصحيح بيد المُدرّس، فرغم كونها تعلم أنها قد أجابت إجابةً صحيحة على سؤال صعب، إلّا أنه بدون علامة الصواب تلك سيظلُّ قلبها يضرب مثل الطبول.

وهنا قالت العمّة "دان سيه" وهي تضرب على صدرها: "يا إلهي، أيّتها المبروكة، كيف مَموتِ كلُّ هذا خلال بضعة أيام لم أركّ فيها؟ هل جاءت الجنّيات إلى ورشة صناعة الأحجار؟ لا عجب أنّي طرقتُ بابكِ عدّة مرّات دون إجابة".

فأطلّقت "أن شويه أر" زفرةً، وقالت: "أين هي تلك الجنّيات؟"، فأشارت العمّة "دان سيه" إلى السنجاب الموضوع في القفص، وقالت بصوت مُتقطّع: "أليس هذا جنّيًا؟".

فهزّت "أن شويه أر" رأسها نافيةً، وقالت: "لقد أهدته لي المَطْرَزَة، وكنتُ أنوي سؤالك ما الذي يحبُّ تناوُلَه؟ فأنا لم أُطعمه مُؤخَّرًا سوى بقايا خبز المانتو، ويبدو أنه لا يحبُّه".

"لو كان سنجابًا عاديًا، فأنا أعلم ما يحبُّ تناوله، أما لو كان جنّيًا، فأنتي لي أن أعرف ما يُحبُّه من طعام وشراب؟".  
"إنه مجرد سنجابٍ عادي".

"أسنان السنجاب قوية؛ لذا فهي تحبُّ كلَّ ما له قشرة: الصنوبر، اللب، الفول السوداني، البندق، الجوز، كلها بالنسبة لها مثل أمّها".

فهزّت "أن شويه أر" رأسها، ثم ناوَلت العَمَّة "دان سيه" قلب الخنزير.

وما إن ألقت العَمَّة نظرةً عليه حتى قالت بفرحة: "إن تلك هي الوجبة المفضّلة لـ "دان شيا"، وقبل أن يُصاب بالمرض كان دائم القَوْل "ما أجمل لو كان للخنزير سبعة أو ثمانية قلوب"، هل اشتريته لنا؟".

فأخبرتها "أن شويه أر" بالحقيقة، قائلةً إن شين تشي زا أهداه لها.

وعلى الفور اسودَّ وجه العَمَّة "دان سيه"، وعلقت قلب الخنزير الموضوع في كيس بلاستيكي في مقبض الباب، وقالت بلهجةٍ يملؤها الإحباط: "ألن يغضب لو علِم أنك أعطيتني القلب الذي أعطاك إيّاه؟".

فقالت "أن شويه أر": "إنه ليس قلبٌ بشر، ما الذي سيُغضبه؟".

فاحمرَّ وجه العَمَّة دان سيه، ولم تُعلّق ثانية على موضوع ذلك القلب، بل نادت على "دان شيا" لكي يتوقّف، فلو استمرَّ في فَرَك الحمار ربما يبيّض لونه الأسود.

وهكذا تأبّطت "أن شويه أر" قفص السنجاب وغادرت منزل العَمَّة "دان سيه".

الشمس في فصل الشتاء بمنطقة "سونغشان" غالبًا ما تكون منخفضة، منخفضة لدرجة أنها تشبه زجاجة محاليل مُعلّقة فوق الرؤوس، وجهها مُصفرٌ وخالية من المشاعر. أمّا الشمس في الصيف فمختلفة تمامًا، فبعد رحلة علاج طويلة في فصل الشتاء، ثم بعد فترة نقاهة في الربيع، تصير جميلةً وممتلئة، وتُصدر أشعّتها في كل الاتجاهات، كما أنها تكبر مثلها مثل "أن شويه أر" بالضبط، وتصير مرتفعةً في السماء، وتصبح الشمس في هذا الوقت مثل مُدبّرة المنزل التي ترى ظلّها في كل الأركان: في الجبال والغابات، وفي الأنهار والحقول، وفي الطُرُق والبيوت. وقد شعرت "أن شويه أر" أنّ الشمس حَنُونٌ لدرجة أنها مُهتمة أيضًا بقامتها، فعندما ارتدّت الحذاء شعرت كأنّ ضوء الشمس قد تجمّع تحت نعلِه ليصير كأنه بطانةٌ ذهبيةٌ للحذاء؛ ممّا أطال قامتها أكثر.

عندما قاربت على الوصول إلى طريق "لونغ جي"، هدأت "أن شويه أر" من خطواتها؛ فهذا الطريق هو مسارٌ إجباريٌّ للناس الذين يتحرّكون بين الجناحين: الشمالي والجنوبي، فيه الكثير من الناس، والكثير من السيارات، وكذلك فيه الكثير من البهائم التي تسير هنا وهناك. وجميع أضواء الطُرُق بالقرية من صَفٍّ واحد، فقط في طريق "لونغ جي" تجد الإضاءة صَفَيْن. لكن هذان الصّفان من أعمدة الإنارة عادةً لا يُضاءُ منهما إلّا صَفٌّ واحد فقط، ولا يُضاء الصّفان معًا إلّا في الأعياد الكبرى، أو عند زيارة أحد المسؤولين للقرية؛ لذا كان الناس حين يرون الصّفين مُضاءين في غير الأعياد يطلقون سبابًا، قائلين: "اللعنة، هناك مسؤول قادم".

وما إن وُطئت قدماها ذلك الطريق حتى شعرت بأن هناك حدثًا جَلًّا؛ فقد تجمّع الكثير من المشاة في الشارع يتناقشون في أمر ما، وظهرت سيارة شرطة مُسرّعة من ناحية مقرّ حكومة القرية مُتّجهة ناحية الغرب، وخلفها ثلاثة كلابٍ تطاردها بجنونٍ وهي تنبح بأعلى

صوتها. وخلف الكلاب بمسافةٍ بعيدةٍ كانت مجموعة من كبار السنّ تتبع السيارة. فشعرت "أن شويه أر" بالرّيبة، عندها صادقت "لاو واي" بائع "الدوفو"<sup>(1)</sup>، والذي يحمل على كتفه عصا مُعلّقُ بها سلّة، فبادرت بندائه: "أيّها العمّ" "لاو واي"...؛ وذلك لكي تستفسر منه عمّا حدث بالقرية.

في البداية لم يتعرّف عليها "لاو واي"، بالضبط كما حدث مع العمّة "دان سيه"، بل قال لها: "يبدو أنّك من خارج القرية وجئت لزيارة أقاربك؟ ألم تسمعي بأنه لو مات شخصٌ بعد الآن فلن يتمكن من الدفن في تابوت، بل يتوجّب حرقه وتحويله إلى رمادٍ ووضعه في جرة؟ وهكذا صار كبار السنّ من صانعي التواييت بلا عمل؛ فذهبوا لحكومة القرية للتعبير عن غضبهم، وفي ثورة غضبهم حطّموا الزجاج هناك، وهكذا قام عمدة قريتنا ابن الرّائية باستدعاء الشرطة للقبض على كبار السنّ الذين قادوا الاحتجاج...". عندها فهّمت "أن شويه أر" أن تلك الكلاب الثلاثة التي كانت تطارد عربة الشرطة فعّلت ذلك لأن أصحابها داخل السيارة. وقد تعرّفت على كلبين منهما: تلك الكلبة المبرّقة ذات الأقدام البيضاء تخصّ منزل الحدّاد "وانغ"، أمّا الكلب الأصفر فهو كلب منزل النّجار "لي"، وكلا الرّجلين من كبار السن.

"كيف عرفت اسمي؟". فجأة تنبّه "لاو واي" للأمر، وألقى الجمل عن كتفه، وثبتت بصره على "أن شويه أر"، وما إن تبين الحقيقة حتى أطلق صيحةً عاليةً "أهاااااااا"، كما لو كان أحدٌ قد خدعه، وضرب براحة يده على فخذه، وقال وهو يهز رأسه: "إنّك المبروكة، هل صار بإمكانك الخروج الآن؟ لم نرك لعدّة أسابيع... كيف تغيّرت فيها هيئتُك وصوتُك، واستطالت قامتُك أيضًا؟".

(1) الدوفو هو جبن مصنوع من فول الصويا، وهو أكلة شهيرة في الصين وشرق آسيا عموماً- المترجم

رَكَزَتْ "أن شويه أر" بصرها على سَلَّة "الدوفو" الخاصَّة بـ "لاو واي"، تلك القِطْع المُشْرِقة أثارت شهِيَّتَهَا وأسالت لُعَابَهَا، رغم أنها تناوَلت على الإفطار طبقًا من حِساء الأرز، مع قطعتين من خبز "المانتو"؛ لذا وَضَعَت قفص السنجاب أرضًا، وأخْرَجَت نقودًا، وقالت للعم "واي": "أرغب في تناوُل قطعيتين من "الدوفو"."

سحب "لاو واي" من جيبه كيسًا بلاستيكيًا ونفخ فيه، ثم عبأ به قِطْعَتَي "دوفو" مُسْتَحْدِمًا مَعْرِفَةً خَشْبِيَّةً، ثم ناوَلَه لها قائلاً: "المبروكة لم تأكل من "الدوفو" خَاصَّتِي منذ وقت طويل، خذيه مجَّانًا".

لم تتردَّد "أن شويه أر"، ولم تتصنَّع اللباقة، بل أعادت النقود إلى جيبها وأخذت "الدُوفو" ووقَّفت في الطريق وبدأت في تناوله. لقد أَحْسَت في فمها وهي تأكله بصوتٍ مثل صفير الكير، وفي غمضة عين هبَّطت قطعتا "الدوفو" إلى معدتها، ولم يَبْقَ في الكيس البلاستيكي سوى العُصارة الصفراء التي نزلت منه.

كان "لاو واي" أحوَلَ العينين؛ لذا كانت حدقة عينه السوداء مثل الطفل الذي ارتكب خطأً فانزوى نصفُ جسده في زاوية العين، لكنه حين يُحْمَلِق تبدو حدقتا عينيه السوداوان مثل زوجين من النحل يطيران نحوَك، وفي تلك اللحظة بدا "لاو واي" مُشْرِقَ الطَّلَعَة، وما إن رأى "أن شويه أر" وقد التَهَمَت قطعتي "الدوفو" بسرعة كبيرة حتى سأَلَهَا وهو يُحدِّقُ بها عمَّا إذا كانت ترغب في تناول المزيد، فرَكَزَتْ بصرها على حدقتَي عينيه السُّوداوين وهزَّت رأسها أن نَعَم، فقال هو بأريحية: "إذن استمرِّي في الأكل طالما ترغبين في ذلك، لن آخذ منكِ قرشًا واحدًا".

لم تكن "أن شويه أر" قد اكتفت حَقًّا من تناول "الدوفو"، فقد أَكَلَتْ بسرعة كبيرة؛ لذا لم تَلْتَفِت للمذاق، لكن حنجرة الإنسان عميقة مثل الوادي الجبلي؛ ويحتاج الطَّعامُ الجَيِّدُ إلى ابتلاعه ببطءٍ

وَمَعَّنَ حَتَّى يَتِمَّ كُن الطَّعْمُ الرَّائِعُ مِنَ الِارْتِقَاءِ فِي الوَادِي، وَهَذَا أَنْ "لَاو وَاي" لَا يَمَانَعُ فِي أَنْ تَأْكُلَ كَمَا شَاءَتْ؛ فَقَدْ جَاءَتْهَا الْفُرْصَةُ لِتُنْشِرَ طَعْمَ "الدُّوْفُو" الرَّائِعَ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ ذَلِكَ الوَادِي. فَالْتَقَطَتْ "الدُّوْفُو" بِنَفْسِهَا وَالتَّهَمَّتْ ثَلَاثَ قِطَعٍ أُخْرَى، وَفِي تِلْكَ الْمَرَّةِ أَكَلَتْهَا بِيْطَاءً، أَكَلَتْهَا بِاسْتِمْتَاعٍ، فَصَارَتْ قِطْعُ "الدُّوْفُو" الطَّرِيَّةَ الدَّسِمْةَ فِي فَمِهَا أَشْبَهَ بِالْعُرُوسِ الرَّقِيْقَةِ الَّتِي يَتَحَسَّسُهَا لِسَانَهَا حَتَّى تُصْبِحَ كَالْعَجِيْنِ السَّائِلِ وَيَتَمَلَّكُهَا تَمَامًا، عِنْدَهَا فَقِطْ تُرْسِلُهَا إِلَى جَوْفِهَا. وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ مِنَ الْأَكْلِ شَعُرَتْ بِعَبَقِ الطَّعَامِ لَا يَزَالُ مَلْتَصِقًا بَيْنَ أَسْنَانِهَا، وَبَقَايَا صَدَاهُ تَتَرَدَّدُ فِي فَمِهَا، يَبْدُو أَنَّ الطَّعَامَ الزَّيِّيَّ مِثْلَهُ مِثْلَ دَقَّاتِ السَّاعَةِ، يَصَدِّحُ لِيَمْلَأَ الْمَكَانَ وَيَبْقَى طَوِيلًا وَلَا يَفْنَى.

لَمْ يُبْعِدِ "لَاو وَاي" عَيْنِيْهَ عَنْهَا حَتَّى انْتَهَتْ مِنْ تَنَاوُلِ "الدُّوْفُو"، ثُمَّ أَطْلَقَ حَشْرَجَةً كَأَنَّ شَيْئًا وَقَفَ فِي حَلْقِهِ، فَسَعَلَ قَلِيلًا لِتَنْظِيفِ حَنْجَرَتِهِ، وَقَالَ: "أَيْتَهَا الْمَبْرُوكَةُ" "أَنْ"، بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُكَ تَأْكُلِينَ هَكَذَا يُمْكِنُنِي الْقَوْلُ إِنَّكَ سَتَأْكُلِينَ حَتَّى تُصْبِحِي بَقْرَةً حَلُوبًا". أَمَّا الْمُشَاءَةُ فِي شَارِعِ "لُونْغِ جِي" فَقَدْ كَانُوا يَتَنَاقَشُونَ حَوْلَ حَادِثَةِ تَجْمَهُرِ كِبَارِ السَّنِّ حَوْلَ مَبْنَى حُكُومَةِ الْقَرْيَةِ وَمِهَاجِمَتِهِ، وَمَا إِنْ رَأَوْا "لَاو وَاي" يَتَحَدَّثُ مَعَ فَتَاةٍ غَرِيبَةٍ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّهُ قَدْ أَتَى بِحَبِيبَةٍ مِنْ خَارِجِ الْقَرْيَةِ، فَتَجَمَّعُوا حَوْلَهَا. وَعِنْدَمَا اكْتَشَفُوا "أَنْ شُوِيَهَ أَرْ" - الَّتِي طَالَتْ قَامَتُهَا - أَلْجَمَتِ الدَّهْشَةَ أَلْسِنَتَهُمْ. وَأَخْبَرُوهَا أَنَّهُ مِنْ بَعْدِ الْأَوَّلِ مِنْ أَغْسَطُسَ مِنَ الْعَامِ الْقَادِمِ سَيَتَوَجَّبُ إِرْسَالُ الْمَوْتَى إِلَى مَحْرَقَةِ الْجُنْثِ فِي مَحَافِظَةِ "تَشِينْغَشَان"، وَسَتُخْتَفِي التَّوَابِيْتُ تَمَامًا. ثُمَّ سَأَلُوهَا وَالْقَلْقُ يَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ: هَلْ سَيُشْعَرُ الْمَوْتَى بِالْأَلَمِ إِنْ تَمَّ إِحْرَاقُهُمْ؟ وَهَلْ سَتُنَاسِخُ أَرْوَاهُمْ بَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا رَمَادًا وَيُوضَعُوا فِي الْأَوَايِي؟

فَرَدَّ "لَا وَاي": "الْإِنْسَانُ حِينَ يَمُوتُ يَصْبِحُ مِثْلَ الْمَصْبَاحِ الِذِي انْطَفَأَ، أَيُّ تَنَاسُخِ أَرْوَاحٍ هَذَا؟"، وَأَضَافَ: "تَمَتَّعُوا بِالْحَيَاةِ فِي وَقْتِهَا".

كان "لاو واي" من غربي الأتوار في القرية، ففي الماضي كان عاملاً في مصنع إصلاح الماكينات بمحافظة "تشيونغشان"، وبعد فترة قصيرة من زواجه ربّطه علاقةً آثمةً مع واحدة من المتدربات، وذات يوم ضبّطهما أحدهم في الورشة، وفي ذلك الوقت كان السلوك المعيب في الحياة يُعتبر أمراً جَللاً؛ لذا تمّ رّفده من وظيفته الحكومية، وتطلّقت زوجته منه. وهكذا فقد "لاو واي" عمله، وتلوّنت سُمعته؛ فلم يُعد قادراً على البقاء في محافظة "تشيونغشان"؛ لذلك ذهب إلى قرية "لونغ تشان" والتحق بفريق الإنتاج فيها، وعاش مع مُربيّ البهائم ليتكسّب بعض الأرباح من قيادة عربات الكارو، وفي كل عام أثناء الشتاء حين تُوزع الأرباح كان يتحوّل ليصير أشبه بالإوزة، فيسير مُتبخترًا مادًا رقبته. وبعد ثمانية أو عشرة أيام يعود ثانيةً مُطأطئًا مثل الدجاجة المُصابة بالطاعون. فكان الناس يقولون بأنه ذهب للمدينة بحثًا عن بعض المرح. وكان فريق الإنتاج يبيع الحيوانات بالمزاد في فترات الكساد، فاشترى "لاو واي" حمارًا، وكذلك اشترى منزلًا بفناءٍ في المدخل الشمالي، وبدأ في صناعة "الدوفو". وقد تعلّم مهارات صناعة "الدوفو" من "هاو باي شيانغ" من فريق الإنتاج.

كان "وانغ تشينغ شان" زوج "هاو باي شيانغ" عاملَ قَطع أشجار، فكان دائمَ السّير في الثلوج والنّوم وسط الجليد؛ ممّا أصابه بمرض الروماتيزم بعد أن تجاوزَ الأربعين، ومن بعدها صار غيرَ قادر على القيام بأي أعمال شاقّة؛ فاضطرَّ للتقاعد والعودة إلى البيت لزراعة الفناء وتربية الدجاج والبط، والاعتماد في معيشة الأسرة على عمل زوجته في صناعة "الدوفو" في فريق الإنتاج، فكانت "هاو باي شيانغ" حين تأتي في الصباح الباكر لمقرّ فريق الإنتاج لتأخذ الحمار كي تدير الرّحى، تُزعج "لاو واي" النائم في الحظيرة فيهبُ مستيقظًا.

كانت "هاو باي شيانغ" ذات ملامح عادية، وهي أكثر امرأة ممتلئة في القرية. إن النساء الممتلئات كُنَّ ولا يَزكَنَ منذ القِدَم وحتى الآن



السَّلَاحُ الفَتَّاكَ ضد الرِّجال البالغين، وقد كانت "هاو باي شيانغ" ذات مؤخّرة مستديرة عالية، وصدر منتصب، ووجه أشبه بالطبق الفضي. كانت هي نفسها تُشبه قطعة "دوفو"، بيضاء وممتلئة بالعصارة. فكان الرجال حين يصادفونها لا بُدَّ وأن يتفحّصوها عدّة مرّات، مثنيين على جمالها الأمامي والخلفي المتمثلان في صَدْرَها ومُؤخَّرَها، وقد وقع "لاو واي" في غرام أنوثتها، إلا أنها لم تُعِرهِ اهتمامًا. ومن أجل استمالتها صار "لاو واي" يهبُّ زاحفًا من مَرَقِدِهِ لتجهيز الحمار بمجرد أن تصل هي إلى الحظيرة، وحين يبدأ الحمار في الطّحن كان "لاو واي" لا يهدأ ولا يستريح، بل يساعدها في وضع حبوب الصويا المنقوعة المنتفخة في عين الرّحى، أمّا هي فكانت مُدْرِكةً أن مساعدته لها كانت بغرض أن ينالها، لكنها لم تكن ترغب بالوقوع في ذلك الإثم معه؛ لذلك كانت تطرده دومًا حين يهْمُ بمساعدتها، وإن لم تتمكّن من طرده كانت لا تعيره أي اهتمام، بل تعتبر نفسها استخدمت شخصًا أبقم.

كانت الشبورة كثيفةً بغرفة صنّع "الدوفو"، كأنها سحابٌ يلفُّ المكان، وحتى حين تسطع الشمس لا تمُدُّ حتى قَدَمَها لداخلها؛ لذا كانت الغرفة كأنها لا يطلع عليها صباح، هذا الجوّ جعل "لاو واي" يَغْرَقُ أكثرَ في تخيّلاته الشهوانية. وذات يوم شتويّ لم يتحمّل أكثر؛ لذا احتضن "هاو باي شيانغ" فجأةً وسط ضجيج دَوْران الحمار حول الرّحى، قائلاً: "ارحميني، دعيني أتذوّقك ولو لمرة، أنا أقبل أن أكون حِمَارًا لكِ وأدور في رَحَاكِ طيلة عمري"، لكن "هاو باي شيانغ" كانت موفورة القوّة، فدفعته بعيدًا بدفّعةٍ واحدة، قائلة: "لو ضايقتني ثانية فسأقطعك إربًا وأصعّك في عين الرّحى لأجعلك عجينًا أصنع منه "دوفو" بشريًا أطعمه لكلّ كلاب القرية"؛ فارتعب "لاو واي" حتى كاد يبول في بنطاله، ولم يجرؤ على أن يُكرّرها ثانية. وهكذا صار لا يتحرّك من مكانه حين تأتي "هاو باي شيانغ" إلى الحظيرة لأخذ الحمار.

وفي النهاية ماتت "هاو باي شيانغ" بسكتة قلبية مفاجئة وهي في غرفة صنع "الدوفو"، فتحطم قلب "لاو واي"، وذات ليلة شرب جين كاملاً من خمر "لاو باي جان" الأبيض، وبكى حتى ضاع صوته وهو يحتضن حمار "هاو باي شيانغ" في الحظيرة. ورغم أن "لاو واي" لم ينل "هاو باي شيانغ"، إلا أنه تعلم مهارتها في صنع "الدوفو". وبما أنه لم يحظَ بفرصة كي يرُدَّ الجميل لها؛ لذا ردهُ إلى زوجها، فكان "لاو واي" يصنع "الدوفو" ويحمل السَّلَّةَ بالعصا على كتفه ويجوب الحارات والشوارع لبيعه، وكانت أولى محطَّاته دائماً هي منزل "هاو باي شيانغ"، والذي ما إن يصله حتى يضع حِمْلَه عن عاتقه ويهدي "لوانغ تشينغ شان" قطعةً من "الدُوفو" الساخن. وعندما يأكلها "وانغ تشينغ شان" تسيل دموعه، قائلاً: "طعمها مثل تلك التي كانت تصنعها "هاو باي شيانغ" بالضبط"، وقد ظلَّ "لاو واي" يهديه "الدوفو" ليأكله مجاناً، إلى أن ظهرت "المرأة المدخنة"

لم يكن "وانغ تشينغ شان" راغباً في الزواج ثانية، لكن في السنة الرابعة بعد وفاة "هاو باي شيانغ"، غرق ابنه الوحيد وكان يدرس في الصفِّ الأوَّل الثانوي بالمدرسة الثانية بمحافظة "تشينغشان"، بعد أن نزل إلى النهر مع زملائه قُربَ المساء، وهكذا وصل "وانغ تشينغ شان" إلى حافة اليأس بعد أن فقد زوجته وابنه، فأخذ حبلاً وربطه في عارضة النافذة، عازِماً على الذهاب للعالم الآخر كي يجتمع ثانيةً معهما. لكنه بمجرد أن علَّق نفسه حتى انكسرت العارضة مُصدِرةً صوت طقطقة عالية، وسقطت لتكسر اثنتين من أسنانه الأمامية. ففسر ذلك بأن زوجته قد وجدت رفيقاً غيره في العالم الآخر ولم تعد راغبةً فيه. وهكذا لم يمَّت "وانغ تشينغ شان"، وبعد أن عالج أسنانه المكسورة طلب من الخاطبة أن تبحث له عن زوجة؛ فبقاؤه وحيداً في المنزل يجعله دائم الشُّعور بأن العالم مُظلم بلا شمس. لكن النساء اللاتي جلبتهنَّ الخاطبة كُنَّ يعزفن عن الأمر بمجرد رؤية

"وانغ تشينغ شان" الأشبه بخيال المآتة، وبيته الفقير. وعندما بلغ اليأس منه مبلغه وأصابه الاكتئاب، جلبت له الخاطبة امرأةً أخرى من منجم الفحم. أو بالأحرى: جلبت له ثلاثة أشخاص، فتلك المرأة جلبت معها فتاةً في السابعة عشرة من العمر، وابنة أخرى لم تَبْلُغ بعدُ.

تلك المرأة كانت أرملةً عامل مناجم، قصيرة القامة، سوداء الوجه، قليلة الكلام، وكانت تحبُّ تدخين الغليون، وأسنانها صفراء مثلها مثل "تشين تشي زا"، وتشبه بهيئتها الكاملة المدخنة السوداء؛ لذا أطلقت عليها الخاطبة اسم "المرأة المدخنة". بعد أن مات زوجها في انفجار غازي، أقسمت بإيمان شديد ألا تتزوج ثانية من عامل مناجم؛ لذلك ما إن سمعت بأن "وانغ تشينغ شان" ليس لديه أي مسؤوليات أُسريّة، وغير قادر على القيام بأي عمل شاق، بل لا يغادر المنزل بتاتاً؛ حتى وافقت على الفور، قائلةً بأن مثل هذا الرجل آمنٌ تمامًا، ولن تحدث له أي حوادث، بالإضافة إلى سأمها من الجوّ المُشبع بتراب الفحم في منطقة المناجم، فكانت الجبال النظيفة والمياه الصافية بقرية "لونغ تشان" بالنسبة لها أشبهَ بنافذةٍ أملّ مليئة بالإغراءات؛ لذا كانت متعطشةً لقضاء ما تبقى من حياتها جالسةً أسفل تلك النافذة. وكان طبعها حاسماً في اتخاذ القرارات ولا تترك لنفسها مجالاً للتردد؛ لذلك لم تهتمَّ إذا ما كان "وانغ تشينغ شان" سيتقبلها أم لا، بل باعت بيتها وأرضها، وأخذت معها كل ما له قيمة في منزلها، واتجهت شمالاً حتى وصلت لقرية "لونغ تشان".

وما إن رأى "وانغ تشينغ شان" المرأة المدخنة حتى شعر ببرودةٍ تُغْلِف قلبه، فلو قلنا بأن "هاو باي شيانغ" كانت قطعةً من حَجَر اليشم، فإنَّ المرأة المدخنة أشبهُ بأحجار المرحاض. وقد عجز عن تخيل النوم في سرير واحد مع مثل تلك المرأة، فما بالك بأنها قد أحضرت معها واحدةً كبيرةً وأخرى صغيرة؛ لذا رفضها تمامًا، إلا أنها لم تتراجع،

بل نصبت خيمةً أمام باب بيته وعسكرت فيها، واشترت من دُكان الخردوات أدوات الطبخ، وبنّت موقدًا من الحجر، واستعدت لحوض حربٍ طويلة الأمد، وصارت تطبخ كلَّ يوم وترسل وجبةً لـ "وانغ تشينغ شان" بغض النظر عما إذا كان الطعام جيّدًا أم لا، وهكذا صار هؤلاء النسوة الثلاث علامةً من علامات قرية "لونغ تشان"، فكان الناس حين يتمشّون بعد الغداء يحبّون الذهاب إلى هناك لإلقاء نظرة عليهنّ، ولمّا كانت المرأة المدخنة قليلة الكلام؛ فكان هناك من يتكلّم بالنيابة عنها، ألا وهو إبرىق الشاي النحاسي طويل العنق، هذا الإبرىق لم ينقطع الشاي منه أبدًا، فكلّما جاء أحدهم صبت له كوبًا من الشاي، فكان هذا يُعادل آلاف الكلمات التي تبادلتها مع الضيوف. وصار كلُّ من شرب الشاي الساخن من أهل القرية يُحدّث "وانغ تشينغ شان" بأن المرأة المدخنة هي امرأة صالحة، ولم يبق أحدٌ لم ينصحه بالزواج منها.

استقرت أسرة المرأة المدخنة في مكانها من الصيف وحتى منتصف الخريف، فصارت الرياح أكثر برودةً مع مرور الوقت، وبدا واضحًا أن الثلج على وشك الوصول، وعندما رأى "وانغ تشينغ شان" تلك الأسرة منكمشةً في خيمتها، سمح لهنّ - على مَضٍ - أخيرًا بالدخول إلى المنزل، وانصاع لقدره. لكن مزايا المرأة المدخنة كانت في الواقع ليست بقليلة؛ فهي بصحة جيّدة، وماهرة في الطبخ، ودؤوبة في أعمال المنزل، كما أنها تعرف كيف ترعى زوجها. لكن عيبها الوحيد هو ضيق أفقها، فما إن يتحدّث "وانغ تشينغ شان" مع أي امرأةٍ أخرى حتى يشتعل صدرها غضبًا، أمّا الأدهى من ذلك فهو غيرتها من الموتى، فعندما علّمت أن "لاو واي" يهديهم "الدوفو" بسبب عجزه عن نسيان "هاو باي شيانغ"؛ صارت لا تلمس "الدوفو" خاصته من يومها، كما لو كان ذلك "الدوفو" مصنوعًا من لحم "هاو باي شيانغ". وقد قال الجميع بأن طبعها الغريب هذا نابغٌ من خوفها من فقدان الزوج

الثاني، فبعد أن فقَدَت زوجها الأول لم تحظْ بـ "وانغ تشينغ شان" إلا بصعوبة بالغة.

كانت المرأة المدخنة و"لاو واي" هما أكثر من يُسبب الصداع لعمدة القرية "تانغ هان تشينغ"؛ فالمرأة المدخنة لديها خبرات كبيرة في الشكاوى، وقد اكتسبتها من خلال سعيها خلف تعويض مصرع زوجها الأول؛ فصار لديها وعيٌ كبير في الحفاظ على حقوقها؛ لذا ما إن صارت سيِّدة منزل أسرة "وانغ" حتى ذهبَت للمدينة سعيًا خلف تعويضٍ لحادث غرق الابن الوحيد لـ "وانغ تشينغ شان"، وقتها لم تصرف المدرسة أيَّ تعويضٍ لـ "وانغ تشينغ شان"، وهو ما رآته المرأة المدخنة أمرًا غير مقبول؛ فالطفل مات أثناء فترة تواجده بالمدرسة؛ لذا تتحمَّل المدرسة مسؤوليَّته، لكن نظرًا لانقضاء مُدَّة رفع الدعوى لم تستطع رَفَع شكاوها؛ لذلك تنكَّرت في زيِّ شحَّاذة، ونكشت شعرها وافترشت الأرض أمام باب المدرسة الثانوية الثانية بمحافظة "تشينغشان" قبل الظهرية وبعدها، حين يكون عدد المارة في ذروته، وانتحبت بصوتٍ عالٍ قائلةً بأن ابنها مات غرقًا في النهر في فترة الدراسة، وحتى الآن لم يُعْرِها أحدٌ اهتمامًا ليفسِّر لها ما حدث، وأن المدرسة ليست مكانًا للتعليم، بل هو جحيمٌ تمرح فيه العفاريات؛ فأرسل مديرُ المدرسة الأمنَ كي يُبعدها، لكنها كانت قويَّة، ورسخت في مكانها كالصخرة، فعجز فردًا أمنٍ عن زحزحتها من مكانها، أمَّا أولياء الأمور الذين كانوا يوصلون أبناءهم فقد اعتقدوا أنها أمُّ الطفل الذي غرق؛ وتعاطفوا معها جميعًا، فمنهم من أعطاهم المال، ومنهم من ساعدها في الهتاف، وفي النهاية لم يتحمَّل مدير المدرسة الضجَّة والفوضى التي أحدثتهما فعقد خُصيصًا اجتماعًا للجنة المدرسة، وقدَّمت المدرسة عشرة آلاف يوان، كما جمع المدرسون تبرُّعاتٍ بقيمة أكثر من ثلاثة آلاف يوان، وأعطوها كلُّها للمرأة المدخنة، التي ما إن أخذت النقود حتى جرت إلى السوق. كان يومًا حارًّا، فاشترت لكلِّ

فرد في الأسرة حذاءً، بعدها كَفَأَتْ نفسها بِسَخَاءٍ، فاشترت قميصًا حريريًا قُرْمَزِيَّ اللَّوْنِ، مُزِينًا بزهور بيضاء، وتُورَة حريرية بيضاء، وحذاءً بُنِيًّا من جلد الغنم، ثم ذَهَبَتْ إلى مرحاضٍ وارتدت ملابسها الجديدة، بعدها عرجت على الكوافير وشفقت شعرها، وذَهَبَتْ للمطعم وأكلت طبقين من المكرونة بالصلصة، وأخيرًا ذَهَبَتْ إلى المقهى واحتست برآدًا من الشاي الجيّد، عندها فقط ارتاح جسدها وقلبها، وعادت إلى قرية "لونخ تشان" رافعةً رايات النصر، ومن وقتها تغيّرت نظرة سُكَّان القرية لها، أمّا "وانغ تشينغ شان" فقد تزوّجها على الفور.

لكن المرأة المدخنة لم تكتفِ بطلب التعويضات للموتى فقط، بل طالبت للأحياء أيضًا. فـ "وانغ تشينغ شان" هو عاملُ غاباتٍ تقاعد بسبب مرضه، وكان يتقاضى شهريًا ألفًا وثمانمائة يوان فقط، وبعد إلغاء العلاج الحكومي صار نصف مُرتبته يضيع على الأدوية، وهذا لم يُرضِ المرأة المدخنة، حيث قالت إن زوجها كان يقطع الغابات وقتها ويبذل الجهد من أجل بناء البلاد، فلا يُعقل أن يدفع هو تكاليف علاجه بعد مرضه؛ لذا صارت بمجرّد وجود فواتير أدوية تذهب بها إلى حكومة القرية. وكان "تانغ هان تشينغ" يعلم بأنها صعبةُ المِرَاس؛ لذا كان يساعدها في بعض تلك الفواتير سرًّا، بعدها صارت كثيرة التردّد على مقرّ الحكومة؛ فعزف "تانغ هان تشينغ" عن لقائها. لكنها كانت تملك دائمًا طريقة تُجبره على رؤيتها، فكانت ما إن ترى القرية وقد تزيّنت بالأنوار، وكُنست شوارعها، وهرع مسؤولوها للإمساك بالدجاج واقتياد الأغنام، حتى تعلم أن هناك مسؤولًا هامًا قادمٌ للزيارة. فتأخذ فواتير الدواء، وتختبئ وسط الأشجار عند مخرج القرية، وما إن ترى طابور السيارات قادمًا حتى تقفز إلى منتصف الطريق وتوقف السيارات مُشتكيةً الظلم، وهكذا لعدّة مرّات، حتى استسلم "تانغ هان تشينغ" وأقنع "تشين ماي تشين" أن تدع المرأة

المدخنة تذهب للسوق الجنوبي لتعمل مراقبة نظافة. هذا المنصب تم ابتداعه خصيصاً من أجلها، وإلا فلن يكون هناك سبب شرعي لإعطائها النقود. وقد كان كل ما عليها هو ارتداء شارة حمراء والممرور في السوق لتفقدته بشكل رمزي، وهكذا يمكنها أن تحصل كل شهر على سبعمائة يوان. أما أصحاب المحال في السوق الجنوبي فكانوا يتهامون من وراء ظهرها، قائلين: انظروا إلى تلك المرأة وهيتها، إنها لا تهتم بنظافتها الشخصية، طوال الوقت شعنا الشعر متسخة الوجه، وفي أي مكان تذهب إليه تمضغ غليون التبغ بين أسنانها الصفراء، مثل الكلب الذي يعز على التخلي عن عظمة لم يبق فيها أي لحم. ما هي مؤهلاتها كي تفقد نظافة محلاتهم؟ وقد اعتادت المرأة المدخنة وهي في السوق الجنوبي على التقاط بعض الأشياء في طريقها، فعند تفقد نظافة المحلات كانت تأخذ قطعة جنزيبيل أو رأس ثوم من ذلك الدكان، أو تلتقط عود بصل أو تدس في جيبتها بيضة من هذا الدكان؛ وهذا جعل أصحاب المحلات يمقتونها بشدة، لكن "تانغ هان تشينغ" و"تشين ماي تشين" لم يملكا الجرأة على إقالتها.

كان هذا الإزعاج الذي تسببه المرأة المدخنة من أجل مصلحة أسرتها، أما الإزعاج الذي كان يسببه "لاو واي" فكان من أجل نفسه ومن أجل الآخرين. كان يحب الأشياء الجديدة، ويعتقد أن كل ما هو موجود في المدينة يجب أن يكون موجوداً في قرية "لونغ تشان" أيضاً؛ لذا كان يرفع مقترحاته إلى "تانغ هان تشينغ". فعلى سبيل المثال: امتلك أهل القرية التلفازات ذات الكابل والهواتف الثابتة في وقت مبكر عن القرى الأخرى، وكان لهذا علاقة بنداءات "لاو واي" المتكررة. فمن وجهة نظره كانت تلك من الرفاهيات التي يجب أن يتمتع بها الناس في ظل تقدم المجتمع، ويتوجب على من يتولى منصب العمدة أن يحصل عليها من أجل القرية. والآن صار "لاو واي" يلح على العمدة "تانغ" قائلاً إن محافظة "تشينغشان" قد دخلها الإنترنت منذ

فترة طويلة، وهناك مقاهي إنترنت في كل مكان بالشوارع هناك؛ لذا يتوجّب وجود مكانٍ للدخول إلى شبكة الإنترنت في قرية "لونغ تشان"، فردّ عليه "تانغ هان تشينغ": "إنّك مجرد شخص يبيع "الدوفو"، ما حاجتُك للدخول إلى الإنترنت؟"؛ فأتّسعت عينا "لاو واي" وقال: "هناك الكثير من الأشياء البرّاقة على الإنترنت، ومشاهدتها فيها مُتعةٌ كبيرة، فالأخبار على شبكة الإنترنت تأتي بسرعة، فيمكن أن نعرف في أسرع وقتٍ أيّ مكانٍ وقَعَت به كارثة، ويمكن أيضًا أن تبحث عن حبيب على شبكة الإنترنت، فلا تحتاج للخاطبة، والأهم من هذا كلّهُ أنّك لو كنتَ في مزاج غير رائق، يمكنك ارتداء قناع على شبكة الإنترنت وتوجيه السّبَاب للآخرين دون أن يعرفك أحد"، فردّ عليه "تانغ هان تشينغ" بلهجة حادة: "اذهب إلى المدخل الشمالي وابحث عن "لاو يو"، لديه شبكةٌ هناك". وكان لاو يو صيادًا؛ لذا كان لديه في منزله جميع أنواع شباك الصيّد.

وبسبب الإنترنت صار "تانغ هان تشينغ" مؤخرًا يحدد عن طريقه بمجرد أن يلمح "لاو واي".

بعد أن انتهت "أن شويه أر" من تناول "الدوفو"، سارت باتجاه السوق الجنوبي، فحمل "لاو واي" عصاه وسلّته وتبعها، وما إن يرى أناسًا حتى لا ينادي على بضاعته من "الدوفو"، بل ينادي على الناس، حتى يجعل الجميع ينظرون إلى "أن شويه أر": "انظروا، هل بإمكانكم التّعرّف على "المبروكة أن"؟".

لم تكن حلقات الفطور قد انفضّت بعدُ في السوق الجنوبي؛ لذا بعد أن وصلته "أن شويه أر" تناوَلت قطعتين من الخبز الطويل المقلبي وطَبَقًا من حساء اللوبياء الخضراء، وثلاث قطعٍ من الخبز الهَشّ المسكّر، كل هذا وسط حلقة من المحيطين بها. الذين نظروا إليها بدهشة واستغراب دون أن ينطقوا بكلمة وقلوبهم مملوءة بأسف لا



يمكن البوح به، فقط المرأة المدخنة هي من قطعت الصمت وصاحت بفرح وهي تلوك الغليون في فمها: "هذا الفتى "شين شين لاي" قام بإنجاز حقيقي، ألم تصر "المبروكة" فتاةً حقيقيَّةً بعد أن اغتصبها؟".

ولما كان "لاو واي" دائماً يدافع عن "أن شويه أر"; لذا اشتعل غضبه عندما سمع قول المرأة المدخنة، فرفع العصا التي يحمل بها "الدوفو" وضرب بها غليونها فأسقطه أرضاً، هذا الغليون المصنوع من خشب الأبنوس وفمه مصنوع من العقيق أهداه لها زوجها الذي مات في حادثه المنجم، فكان عزيزاً على قلبها؛ لذلك كان إسقاط "لاو واي" له بمثابة إهانة لقبر زوجها السابق، وهكذا استشاطت هي أيضاً غضباً، والتقطت الغليون من على الأرض، واندفعت تجاه "لاو واي" بعيون محمّرة، وضربته فوق رأسه بأداة حشو الغليون وهي تسبّه، قائلة: "هل أنت راغب في الموت؟".

فقفز "لاو واي" مبتعداً عنها، وقال: "أنت من تبحثين عن قضائك، ستكونين أنت أيتها الشريرة أوّل من يدخل إلى محرقة الجثث في العام القادم".

فضحكت المرأة المدخنة ورفعت رقبتها، وقالت: "حسنًا، لو صرت أوّل من يدخل إلى المحرقة، فسيعدّ هذا كأني ربحتُ الجائزة الكبرى لليانصيب، ستصير حياتي ذات معنى".

وفي وسط احتدام شجارهما جاءت المطرزة. وما إن وصلت حتى صمت كلاهما على الفور، فلم يكن هناك من يجرؤ على رفع صوته أمامها في قرية "لونغ تشان"; لذا حمل "لاو واي" عصاه، وتابع عمله في بيع "الدوفو"، أمّا المرأة المدخنة فقد مسحت الرماد عن الغليون بكُمّها، وأشعلت النار في التبغ وسحبت عدّة أنفاس قويّة، وأطلقت زفرةً طويلة، ثم ذهبّت لتفقد نظافة المكان.

أما المطرزة فتطلعت إلى "أن شويه أر" كأنها تتطلع إلى جبل جليدي، حيث ظلت ترتعش، فنادتها "أن شويه أر": "جدتي"، لكن المطرزة لم ترد عليها، فنادتها ثانية: "جدتي". وأخيراً لم تتحمل المطرزة أكثر، فقالت بصوت مُرتعش: "ألم تكوني تنادينني بالمطرزة؟"، وسقطت دموعها، لكن "أن شويه أر" لم يبدُ عليها أي ملمح من ملامح الحزن، بل كان اهتمامها لا يزال مُنصباً على الطعام، وعندما رأت الدكان المقابل وقد علق سباطة من الموز خارجه، حتى سال لعابها ثانية، فوضعت قفص السنجاب أرضاً واندفعت تجاه الموز ذي الشكل الهلالي.

جففت المطرزة دموعها، وانحنت بصعوبة لتفتح باب القفص، لتحزّر السنجاب الذي اصطادته بيديها. ويبدو أن ذلك السنجاب قد تملكه الجوع، ففي اللحظة التي خرج فيها من القفص تملكته الشجاعة ليأكل أولاً بقايا الخبز الهش المسكّر الذي أوقعته "أن شويه أر" على الأرض، قبل أن يهرب جاراً ذيله الضخم.

وبينما كانت المطرزة مُمسكةً بالقفص الخاوي، شعرت بالأرض تدور بها كما لو أن الشمس قد سقطت على الأرض، وانكفأ رأسها في القفص ووخزها لدرجة عجزت معها عن فتح عينيها. وشعرت بضيق في قلبها فتمددت على الأرض، وتدحرج القفص عدّة مرّات وتوقّف عند قدميها، فصار أشبه بمزهرية فارغة امتلأت بأشعة الشمس.



## 7

### المُطَارَدَة

وكان الشمس أجيرٌ لدى الأرض، لا يرتاح في الأربعة فصول إلا قليلاً.

في الصيف يصير هذا العامل أكثرَ قُدْرَةً على العمل، ويخرج كل يوم عند الساعة الرابعة أو أكثر في الصباح الباكر، ولا يرحل سوى في الساعة السادسة أو السابعة مساءً، ليعمل أكثر من عشر ساعات. ولا أحد يعلم هل السماء تزيدده أجراً في ذلك التوقيت أم لا.

لقد امتطى "أن بينغ" الحصانَ الأبيض، لكنه لم يقبض على "شين شين لاي" وسط الغابات، إلا أنه كان بإمكانه رؤية آثار الشمس في كل مكان، فالشمس لم تعمل هباءً، بل كان عملها مُذهلاً، وغابات الجبال ازدهرت بسببه، وماء الجداول صار دافئاً، والأزهار البرية نمت وتفتحت، وأصوات الطيور صدحت عالياً. والسَّير في غابات الجبال الصيفية التي غمرتها الشمسُ بضوئها يُعادل السَّيرَ في الجنة.

خرج "أن بينغ" لأكثر من عشرة أيام. وجلب معه طعامًا يكفي لشهر كامل، من لحم مُجفَّف وخُضار مخلل ونقانق مُجفَّفة وأرز مُحَمَّر وملح طعام وبسكويت مضغوط، وغير ذلك، وبالطبع أحضر معه مُستلزمات العيش في البرِّيَّة من خيمة وإناء طبخ مُعلَّق وأداة إشعال النار والسكين والمصباح اليدوي والبوصلة والأدوية شائعة الاستخدام والزيت المضاد للناموس، وربَّطَ كلَّ هذا في سِرَج الحصان. ورغم أن الحصان الأبيض قد كَبُرَ في السَّنِّ ولم تُعدِّ قواه كالسابق، إلا أنه ظلَّ دُؤوبًا يَقِظًا. وعندما يكتشف وجود ذئاب أو دِبَّبة سوداء أو خنازير برية وغيرها من الحيوانات التي تُهدِّد حياة سيِّده؛ كان يلوذ بالفرار منها في الوقت المناسب. إن الحصان الذكي هو عبْدٌ لسيِّده، وكذلك حارسٌ له.

وجلبَ "أن بينغ" معه أيضًا خريطة لتضاريس "سونغشان"، ووضع مختلف التحليلات للأماكن التي قد يختبئ فيها "شين شين لاي". فهو يعلم أنه قد ارتكب جريمةً عقابُها الإعدام؛ لذا سيهرب بالتأكيد تجاه الأماكن التي يَنذُرُ فيها وجود البشر، ويتعد عن المناطق السكنية والتي تمرُّ فيها خطوط السكك الحديدية والطُرُق العامَّة. بالإضافة إلى أنه بعد نجاحه في الفرار، ومع مرور الوقت انتهى الصيْفُ وجاء الخريف؛ فصار يواجه نقص الغذاء والطقس السيئ والأمراض وغيرها من الأخطار المميتة، أمَّا أكثرها صعوبةً في التَّحمُّل فهو الوحدة، لقد كان "أن بينغ" يتطلَّع إلى أن تنهار عزيمة "شين شين لاي" ذات يوم، ويخرج من قلب الجبل ليعترف بجريمته ويُسلِّم نفسه.

ولم يكن حُكْمُه هذا بلا أساس.

في تلك المرة من نقل البنادق استقلَّ "أن بينغ" ومَن معه القطار لتنفيذ المهمة، فالقطار أكثر أمانًا من الطُرُق العامَّة. وقد ركب "أن بينغ" واثنان من زملائه "دا شو" و "شياو جيانغ" القطار المتَّجِه إلى

"سونغشان" في الساعة الثامنة والنصف مساءً. تصير الشمس بعد الانقلاب الصيفي مثل السكر المرابط في الحانة، أحمر الوجه، ولا يرحل إلا متأخراً. وعندما ركبوا القطار، كانت السماء قد بدأت في الإظلام لتوها. وقد سمح لهم رئيسهم بحجز كابينة نوم وحدهم نظراً لطبيعة المهمة الخاصة التي يؤدونها. وبعد أن ركبوا القطار تواصلوا مع رئيس القطار كي يُقدّم لهم المساعدة في حالة ما احتاجوا إليها.

كان "دا شو" أصغر من "أن بينغ" بتسع سنوات، ويبلغ طوله مائة وثمانين سنتيمتراً، وله وَجْهٌ مُرْبَعٌ، وحنجرة مجلجلة، وجسد متين، يحبُّ الطعام وإلقاء النُّكات، ويشغل منصب نائب رئيس فريق في فرقة تنفيذ الأحكام. ولكن هذا الفحل الذي لا يخشى الأرض ولا يهاب السماء، تبوّل في سرواله في المرة الأولى التي نفَّذ فيها عملية إعدام بالرصاص. وبعد الحادثة قال لـ "أن بينغ" إنه لم يَخَفْ، بل رأى المحكوم عليهم وقد بلّلوا سراويلهم أمام فوهة البندقية، ففكّر أن تلك هي المرة الأخيرة التي سيتبوّلون فيها، وشعر فجأةً أن التبوّل في السروال هو أمرٌ رائع لا مثيل له؛ لذا فتح نيران بندقيته، وفي نفس الوقت ترك بَوْلَه لينساب داخل بنطاله. أمّا "شيا جيانغ" فهو أعزبٌ تَخْطَى العشرين من العمر، نحيف الجسد، وبسبب سوء لون بشرته بدأ كأنَّ وجهه لم يُشْرِقْ من قبل أبداً، حتى إن الناس أطلقوا عليه "اليوم المكفهر". ورغم قِلَّة كلامه إلا أنه كان شديد الفطنة. وقد قضى ثلاث سنوات في فرقة تنفيذ الأحكام، لم يَقْمْ خلالها سوى بتوصيل المحكومين إلى المحكمة عند عقد الجلسات، ولم يُنفَّذ أَيَّ مَهْمَةٍ إعدامٍ بالرصاص. فبمجرد أن توكَّل المحكمة إليه تنفيذ مَهْمَةٍ، حتى يبدو كمن أصابه مَسُّ شيطاني، فترتفع دَقَّاتُ قلبه على الفور لتصل إلى أكثر من مائة وثلاثين دَقَّةً في الدقيقة، ويرتفع ضغطه بجنونٍ مثل سهم البورصة في يوم سوقٍ صاعِدَةٍ، فيضطر إلى دخول المستشفى. وفي

كل مرة يفحصه الطبيب فيها يقول إنه لا أثر لأي مرض في قلبه، وإنما تلك الأعراض هي بسبب التوتر والحماس الزائدين، فهو مرض عصبي. ومن أجل هذا قام "شياو جيانغ" بتحميل عدة ألعاب قتل خطيرة من مواقع الإنترنت المظلم ليلعبها في أوقات فراغه، وهكذا صار جهاز الألعاب الذي في حجم كف اليد رفيقًا جيدًا له يلزمه دائمًا. وقد صار في ساحة القتل الافتراضية تلك قابضًا للأرواح ذا مستوى عالٍ، فتجاوز مستويات اللعبة واحدة تلو الأخرى بلا خوف ولا رهبة. لقد استعدَّ بشكل جيد للحرب الحقيقية، لكن عندما يقترب ميعاد تنفيذ مهمة كان يصير كالشجرة التي ضربها البرق، ليرقد على سرير المرض؛ لذلك عندما صدر الأمر بإلغاء الإعدام رميًا بالرصاص أصابه الحماس والإحباط معًا: الحماس لكونه غير مُضطرب لإراقة ماء وجهه ثانية بالرقود في سرير المرض فجأة، والإحباط بسبب أنه فقد إلى الأبد الفرصة كي يُجرب في الحقيقة مهارات القتل العالية التي تمرن عليها في الألعاب الافتراضية.

في ذلك اليوم جلب "شياو جيانغ" الكثير من المأكولات التي ملأت كيسًا كاملًا، لحم البقر بالصلصة، ورقاب البط المطبوخة في المرق، و"الدوفو" المُجفَّف المُدخَّن، وبيض البط المُملح، وال فول السوداني المُتبَّل، وعلب الجعة، وزجاجات الخمر الأبيض من نوع "أر جوا تو" وغيرها، وقال إن أمه جهزتها خصيصًا عندما علمت أنه خارج في مهمة مع رؤسائه. لكن نقل البنادق أمر لا يمكن الاستهانة به؛ لذا أمرهما "أن بينغ" بعدم لمس الخمور، وحتى الذهاب للحمام يجب أن يتمَّ بالتناوب لضمان وجود شخصين داخل الكابينة؛ وذلك تحسُّبًا لأي طارئ، لكن تناول المرات فقط دون لمس الخمر المحبوبة كان بمثابة تعذيبٍ لـ "دا شو"، فقال: بصراحة، إن هذا أشبه بليلة دُخلة لا تسمح فيها العروس له بلمسها، وهذا كبتٌ قد يؤدي للموت، وعندما رآه

"أن بينغ" هكذا سمح له بشرب علبة واحدة من الجعة كي يُخَفِّف تعَطُّشَه.

فتح "دا شو" علبة جعة، وما إن لامست شفتاه رغوتها حتى طَوَّح برأسه يمينًا ويسارًا بسعادة، وطرق نافذة القطار قائلاً بلهجة ناعسة إن السماء كانت كريمةً معهم حيث أعطتهم هذا الجوّ الرائع للخروج، كذلك حضرت لهم أكالات شهية إلى جوار الخمر، من دجاجٍ مَشْوِيٍّ وكُرَات القريدس. "يا له من أمر رائع".

شبهه "دا شو" الهلال الذهبي بالدجاج المشوي، وشبهه النجوم بكرات القريدس.

فقال "أن بينغ": "وفقًا لقولك فإن مجرّة درب التبانة هي عبارة عن بركة جعة؟". "بالطبع"، قالها دا شو وهو يناوله الخمر، مضيّفًا: "اشرب رشفةً أو اثنتين. أعلم أنك أيضًا مشتاق إليها، في العادة لا تؤثّر فينا ثلاثة أو أربعة "ليانغ"<sup>(1)</sup> من النبيذ الأبيض؛ لذا فيضغُ عُلْبٍ من الجعة هي أمرٌ هينٌ، سيزول أثره بمجرد التبول".

وسانده "شياو جيانغ" قائلاً: "أيها الرئيس "أن"، يمكنك تناول علبة، فأنا لا أنام مُطلقًا في القطار، فحتى لو سكرتما تمامًا فلا مشكلة، فأنا سأتولّى الحراسة ليلاً، بالإضافة إلى أنه لا يوجد مَنْ يعلم عن مهمّتنا، كذلك لا أحد غريب في الكابينة، وبمجرد غلق مزلاج الباب سيصير المكان كمملكة مستقلة، اطمئننا، حتى لو دخلت ذبابة فإنني سأكسر جناحيها".

فأطلق "دا شو" ضحكة مجلجلة وقال: "أيها الرئيس "أن"، انظر إلى "شياو جيانغ"، كم هو ذكي! شابٌ ممتازٌ مثله بالتأكيد سيحظى بزوجة رائعة، يمكننا أن ننام مطمئنّين في وجوده، هيا اشرب علبة".

(1) الليانغ هي وحدة موازين صينية تساوي خمسين جرامًا- المترجم.



ثم أتبع كلامه بفتح علبة جِعة دون أن ينتظر ردًا من "أن بينغ"، وناولَه إيَّاهَا، فلم يُعد أمام "أن بينغ" سوى أن يتناولها. تلك الرغبة البيضاء كالثلج التي فارت من الجِعة بَدَت أشبه بزهور الكمثرى التي تلمع ويصُدُّر عنها عبرٌ كعبير الربيع، فلم يستطع "أن بينغ" مقاومة ذلك الإغراء، فانغمس في تلك اللذَّة مع "دا شو".

احتسبًا علبةً ببطء، فلم يُرضِ هذا نهم "دا شو"، فانتهاز فرصة خروج "شياو جيانغ" إلى الحمام وفتح علبتين أخريَّين دون نقاشٍ وهو يعضُّ شفثيه مثل طفلٍ يتعمَّد التَّصرُّف بشقاوة، وفي تلك المرَّة بادَرَ "أن بينغ" بالتقاط الجِعة منه وشرب نصف العلبة دفعة واحدة، لقد كان مكتئبًا ويحتاج بشدَّة إلى مواساة الخمر، وكان "دا شو" يعلم من أين ينبع اكتئاب "أن بينغ"، فمدَّ يده عبر المنضدة ليضعها على كتف صديقه ويربَّت عليه، قائلاً: "يا صديقي، ثِقْ بي، إن "شين شين لاي" هو مُجرَّد وغدٍ لا يملك أي قدرات. إن عديلي يعمل في الشرطة الجنائية بمديرية الأمن، وقد أخبرني أنهم حين استجوبوا "شين شين لاي" في ذلك العام، تلك المرَّة التي تسبَّب فيها في حريق الغابة، هذا الخسيس صمَّم على موقفه في اليومين الأوَّلين مُصمِّمًا على أنه لم يُلْقِ بعقب سيجارة في الغابة، لكنهم ضربوه ومنعوه من النَّوم ليلاً ولم يعطوه في اليوم سوى وجبةٍ واحدة، وفي النهاية عجز عن المقاومة واعترف على الفور، وإن كنتُ أظنُّ أنه هرب إلى عُمق الجبل وفي ذهنه فكرةٌ واحدة، هي البقاء على قيد الحياة؛ لذا لن يكشف خطواته بسهولة، وسيصعب البحث عنه، ولكن بعد بضعة شهور، عندما يحلُّ البرد وتطول الليالي وينقص الغذاء؛ فإنه لن يتحمَّل، وسيتحرك تجاه الأماكن التي يسكنها البشر؛ لذا فإن القبض عليه هو مجرد مسألة وقت ليس إلَّا".

كان "أن بينغ" قد سمع بأن بعض ضبَّاط الشرطة الجنائية بمديرية أمن محافظة "تشينغشان" يستخدمون أساليب التعذيب بشكلٍ سرِّيٍّ

عند استجواب المشتبه فيهم إذا لم يتجاوبوا معهم. ورغم أنهم في معظم الأوقات يحصلون بسبب هذا على اعترافاتٍ حقيقيةٍ مُمكنهم من حلّ القضايا، إلا أن هناك حالات أدلت باعترافات كاذبة تحت التعذيب. ومن رأي "أن بينغ" أنّ هذا نوعٌ من إخضاع جسد الإنسان وليس روحه. فهؤلاء المجرمون الذين تعرّضوا للظلم سيُزرع بذور الحقد والكراهية في قلوبهم، ولن تُجدي معهم سنوات من الإصلاح والتأهيل، وهذا النوع من المجرمين ما إن يخرج من السجن حتى يصير بمثابة قنبلة غاية في الخطورة تدحرجت نحو المجتمع.

ورغم أن من تعرّض للضرب هو "شين شين لاي"، ممّا جعل قلب "أن بينغ" تملؤه الفرحة قليلاً، إلا أنه قال لـ "دا شو": "أنا أعارض التعذيب من أجل انتزاع اعترافات، إن ثماني أو تسعاً من كلّ عشر قضايا ظالمة كان هذا سببها".

فقال "دا شو": "لم يكن أمامهم مفرٌّ من التعذيب، فرؤساء لجنة منطقة "سونغشان" أصدروا أوامرهـم بعد حريق الغابة هذا بضرورة إيجاد سبب الحريق في غضون عشرة أيام، وقد مرّ "شين شين لاي" من هناك في نفس يوم الحريق، وكان معه سجائر وقداحة، بالإضافة إلى أنه دخل السجن من قبل، ولديه سجلّ إجرامي، فلو لم يشتبهوا فيه ففي من يشتبهون إذًا؟".

فسأله "أن بينغ": "إذن لقد وقع في المصيدة، ولكن أين الأدلة؟".

"يا صديقي، إنك حقاً ساذج، أليس هذا أمراً بسيطاً؟ لقد جلبوا شاهدين وأعطوهما بعض المال، فقالا إنهما رأيا "شين شين لاي" في ذلك اليوم يُدخّن السجائر في المنطقة، وعند استجوابه قدّموا له بعض السجائر ليُدخّنهما، وبعدها أخذوا أعقاب السجائر خلسةً، قائلين بأنهم وجدوها في الطريق العام الموجود بمسرح الحادث، وهكذا اكتملت الأدلة الماديّة مع الاعترافات، وتشكّلت سلسلة القرائن، أليس هذا

كافيًا لإنهاء القضية؟ كل ما يحتاجه الأمر هو تفسيرٌ وحلٌّ لمن في الأعلى، أمّا مَنْ في الأسفل فحتى لو قبضتَ على مائة مظلومٍ عَفِينٍ فَمَنْ سيحاسبك؟"، ثم أضاف "دا شو": "بالإضافة إلى أن "شين شين لاي" ليس بالشخص الصالح، وليس في هذا ظلم له".

فقال "أن بينغ" بتردُّدٍ وحَدَرٍ: "هل حلَّ القضايا بهذا الشكل سيتسبَّب في وجود أرواح مظلومة من بين مَنْ أعدمْتُهُم؟".

"لو فرضنا وجودهم، فماذا في هذا؟ لا علاقة لنا بالتحقيق في عقوبة الموت، لنقلها بصراحة: أنا وأنتَ مجردُ رُماة، فلو كان هناك حقًّا أرواح مظلومة، فذلك هو قدرهم".

عندها لم يستطع "أن بينغ" منع نفسه من إطلاق شهقة باردة.

وعندما رآه "دا شو" مُكفهرَ الوجه ظنَّ أنه حزين لأن "شين شين لاي" حين سيسقط في يد العدالة ذات يوم لن يتلقَّى رصاص بندقيته، فقال له متعاطفًا: "يا للصدفة اللعينة، الإعدام رميًا بالرصاص لم يُلغَ في وقتٍ مبكَّر ولا في وقت متأخَّر، بل أُلغِيَ بالضبط في اللحظة الحاسمة التي تعرَّضتَ فيها "المبروكة أن" لتلك الحادثة، أنا أعلم أن قلبك يحمل ضغينة وشعورًا بالظلم، لكن حتى لو تمَّ القبض والحكم عليه بالإعدام، فلن يُرسلَكَ الرؤساءُ لتنفيذ الإعدام فيه لأنَّك على علاقة بتلك القضية. لكن اطمئن، حين يتمَّ القبض عليه سأبحث عن أصدقائي ليذيقوه العذاب قبل إرساله للموت، لا يمكن أن نترك ذلك الوغدَ يرحل بسهولة".

فقال "أن بينغ": "كيف ستُذيقه العذاب؟".

"أم يغتصب ابنتنا العزيزة؟ سنترك عليه الكلاب البوليسية لتنهش عضوه... إن "شين شين لاي" مجردُ حيوان، سنستعمل الكلاب للتعامل معه".

فقال "أن بينغ": "دا شو"، لو كُنَّا في المجتمع القديم، لكنَّ أنتَ زعيم عصابة".

"وهل تعتقد أنه لا يوجد عصابات الآن؟ أيُّها الرئيس "أن"، هل تتصنَّع البلاهة أم ماذا؟ ألم تسمع حقًا من قبل عن الرؤساء الذين يتعاملون مع الأخيار والأشرار في نفس الوقت؟". وقد كان "دا شو" يرغب في الاسترسال في الكلام، إلَّا أن "شياو جيانغ" عاد، وما إن عاد حتى غيرًا موضوع الحديث، فرغم أن وجه "شياو جيانغ" مكفهرٌ دائمًا إلَّا أن قلبه مُفعمٌ بضوء الشمس؛ لذا لم يرغبًا في أن يتعرَّف هذا الشاب على ظلام المجتمع في وقت مبكر.

قال "شياو جيانغ" إنه بعد أن خرج من الحمام تفحص ممرَّ كبائن النوم، فلم يجد أيَّ شخصٍ مُثير للريبة في المسافرين، ودعاها للاطمئنان واعتبار الأمر مجردَ رحلة لقضاء عطلة.

فقال له "دا شو": "اشرب أنتَ أيضًا علبة جعة، لتحارب السُّمَّ بالسُّم، فلو أكثرتَ من الشُّرب فستعالج حساسية الكحول لديك".

فقال "شياو جيانغ": "ماذا لو ظللتُ مُصابًا بالحساسية؟ سيمتلئ وجهي بالبتور حين أصحو في الصباح، كيف أقابل الناس عندها؟".

فداعبه "دا شو" قائلاً: "أليس لديك حساسية من الفتيات أيضًا؟"، فمطَّ "شياو جيانغ" طرف شفثيه وسأل "دا شو": "فليخبرني الرئيس "شو" ما هي أعراض الحساسية تجاه الفتيات؟".

فعمد "دا شو" حاجبيه وغمز بعينيه وهو يقول: "لو نمتَ مع فتاةٍ فستعرف... ستجد نفسك طائرًا... طائرًا"، قالها وهو يفرد ذراعيه، مُتخذًا وضع الطيران، وفي يده علبة الجعة، وفي اليد الأخرى رقبة البطة التي أكل نصفها، فأطلق "شياو جيانغ" صوتًا مُستهجنًا، من فم أعوج وقال: "مَن مِنَّا لم يُحلِّق من قبل؟"، ثم داس بقدمه على درجة السُّلم، وبقفزة واحدة اندسَّ فوق السرير العلوي.

فأطلق "دا شو" صيحةً عاليةً وقد فتح عينيه عن آخرهما، وقال مُوجِّهًا حديثه لـ "أن بينغ": "اسمع، كُنَّا نعتقد أنه مجرد طفل، مَنْ كان يتوقَّع أنه حَلَّق من قبل، يبدو أن البنادق الجديدة أكثر حنكةً من البنادق العجوز".

فأطلَّ "شياو جيانغ" برأسه من الأعلى، وطرقع بأصابعه، وقال: "كيف للبنادق الجديدة أن تكون أكثر حنكةً من البنادق العجوز؟ لقد مرَّت البنادق العجوز بمئات الحروب".

فانفجر "دا شو" و"أن بينغ" في الضحك بصوتٍ عالٍ.

وبعد أن فرغًا من شرب علب البيرة الستة التي أحضرها "شياو جيانغ"، التقط "دا شو" زجاجة "أرجو تو"، لكنه ما إن رأى "أن بينغ" يهزُّ رأسه رافضًا بتصميمٍ، حتى لم يعد أمامه سوى تقبيل زجاجة الخمر وهو يقول: "يا فتاتي الصغيرة، لا أجرؤ على لمسك اليوم، غدًا سأدلكُ جيّدًا"، ثم وضعها مرّةً ثانية في كيس المأكولات.

عندما انتهيا من ترتيب المنضدة الصغيرة كانت الساعة قد قرّبت العاشرة والنصف، وذهب "أن بينغ" و"دا شو" بالتناوب إلى الحَمَّام، وبعد أن عادًا أغلقا باب الكابينة بالمزلاج، أمّا ما أشعرهما بالدهشة على غير المتوقَّع فهو أن "شياو جيانغ" - الذي قال إنه لا ينام مطلقًا في القطارات - قد غطَّ في النوم وارتفع شخيره عاليًا.

فقال "دا شو": "لقد كان قرارًا صائبًا بعدم الإكثار في الشُّرب؛ فلا يمكن الاعتماد عليه في الحراسة ليلاً".

فردَّ عليه "أن بينغ": "الشباب ينامون كثيرًا، سأتولّى أنا الحراسة في النصف الأول من الليل، وتولّى أنت الحراسة في النصف الثاني".

فلم يتصنَّع "دا شو" الكُلْفَة، وقال: "حسنًا، سأنام أوَّلًا، وفي النصف الثاني أيقظني، فأنت تعلم أن نومي ثقيلٌ، ولو وضعتُ رأسي سأنام حتى الصباح".

وافقه "أن بينغ"، وأطفأ الأنوار.

نام كلُّ من "أن بينغ" و"دا شو" في السرير السُّفليّ، وكان "دا شو" سريعَ النَّوم، فما إن وضع رأسه على الوسادة حتى تصاعد منه صوت الشخير. أمَّا "أن بينغ" فإنه لم يَنَمْ ليلةً واحدة هائلة منذ حادثة "أن شويه أر"، فصار ينهض كل ليلة في منتصف الليل ليعاقر الخمر حتى الصباح.

في الماضي كان "أن بينغ" حين يركب القطار ويسمع صوت الصَّيرير الصادر من احتكاك العجلات مع القضبان ينتابه شعورٌ يمكن وصفه بالحميمية؛ فهذا الصوت الأشبه بانصهار نهرٍ جليديٍّ كان دائمًا يُذكِّره بوجه "لي سو تشين" الرقيق، وملامح "أن شويه أر" الأشبه بالملائكة، ولكن في تلك الليلة صار هذا الصوت كسكِّينٍ حادٍّ خَفِيٍّ ينغرس في قلبه، وقد كان يعلم أن الخمر القوية هي أسرع مُسكِّن، لكنه كان مُدْرِكًا أيضًا لِعِظَمِ المسؤولية التي على عاتقه، فلا يمكنه الاقتراب من الخمر ثانية، إلا أنه مع انتصاف الليل ازداد ضيق صدره لدرجةٍ لا تُحتمَل، وعجز أخيرًا عن التَّحمُّل، فمدَّ يده إلى الكيس البلاستيكي الموضوعة بداخله خمر الـ "أرجو تو".

كان ذلك القطار الذي يخترق منطقة "سونغشان" غيرَ نظيف، فالكابينة التي ركب فيها "أن بينغ" ورفيقاه تفوح منها رائحةٌ عَطْن، والوسائد كأنها استُخدمت لتنظيف فُرْنٍ قديمٍ فصارت سوداء مُغبرَّة، أمَّا ستائر الشُّبَّاك ذات اللون الأخضر الداكن فقد انقطع الرباط الذي يضمُّهما سوياً فعجزت عن الانغلاق بإحكام، إلا أن هذا كان أمرًا جيدًا؛ حيث صار بإمكان ضوء القمر الدخول للكابينة ليضيف عليها لمسة

ضياء حتى بعد إطفاء نورها. وهكذا لم يُتَعَب "أن بينغ" عينيه في البحث، بل أمسك على الفور بزجاجة الخمر في يده، وفي اللحظة التي رطبت فيها الخمرُ القوية حلقه شعر كأنَّ شعاعًا من ضوء الشمس صعد من قلبه. وما إن رأى كلاً من "دا شو" و"شياو جيانغ" غارقين في سبات عميق، حتى فتح الستارة على مصراعيها، وجلس وحيداً يتمتّع بمنظر الليل الجميل في الخارج.

لقد انحفر الوقت الذي غادر فيه "أن بينغ" الكابينة في ذاكرته، الثانية عشرة والرابع بعد منتصف الليل؛ وذلك لأن في تلك اللحظة مرَّ القطار بساحة "إيلين" الجنوبية لتنفيذ أحكام الإعدام، فنظر إلى ساعة يده المضيئة وتذكّر امرأةً نَفَذَ فيها حُكْمَ الإعدام في تلك المنطقة، تلك المرأة التي طلبت فك قيودها، وفي النهاية كان ذئبٌ هو من ساعدها لتنفيذ طلبها، عندها لم يستطع منع نفسه من الغرق في تهديدات متواصلة، ثم قال بصوت خفيض مُوجَّهًا حديثه لخارج النافذة: "هل تلوميني على أنني لم أفكك وثاقتك فجئت بحثا عني؟ لو كان هذا حقًا، فوجَّهني انتقامك لي، وليس لابنتي، إنها صغيرة وضعيفة". قالها ثم تحشّرت الكلمات في حلقه.

وفي تلك اللحظة فكر "أن بينغ" فجأةً أنَّ "شين شين لاي" لو كان قد هرب إلى الجبال في تلك المنطقة، فسيفكر بأن الحادثة قد وقّعت منذ أيام طويلة، وتراخى التفتيش في الطُّرُق العامّة والسكك الحديدية؛ لذا ربّما سيستقلُّ ذلك القطارَ الليليّ كي يهرب خارج الجبال. ذلك التفكير جعله عاجزاً عن الجلوس في مكانه، فتجرّع الخمر الباقية في الزجاجة، وهبّ واقفاً نحو السرير العلوي مثل المحارب الذي تلقى أمراً بالهجوم، ليلتقط تلك البندقية التي رافقته لسنوات طويلة، وحملها خارجاً من الكابينة، متّجهاً نحو عربات الجلوس.

كانوا قد خرجوا لتلك المهمة في ملابس مدنية، كما قاموا بوضع تمويه دقيق على البنادق، فالبنادق الخمسة المطلوب تسليمها كان منها نصف أوتوماتيكي، ومنها أيضًا بنادق أوتوماتيكية، وكلها من طرز مختلفة. فتلك البندقية من طراز ٥٦ القديم التي يستخدمها "أن بينغ" قام بتغطيتها بحبالٍ من الليف وقماش مضاد للمطر، وربطها وحدها، وقام بحشو القماش بالقطن حتى يصير حجمها متساويًا من الأعلى والأسفل فلا يمكن رؤية شكل البندقية من خارج اللفافة. أما البنادق الأربعة الأخرى فقد عُلفت كُلُّ اثنتين معًا، ووُضعت كُلُّ لفافة في صندوق مصابيح إضاءة من إنتاج مصنع "تشينغشان" للآدوات الخشبية كي تبدو كأنها مصابيح.

كانت كبائن النوم تقع في منتصف القطار، وقد بدأ "أن بينغ" التفتيش أولًا في اتجاه مقدمة القطار، وبجوار عربات النوم كانت عربة المطعم، وحينما مرَّ بها وجد رئيس القطار الأسمر النحيل ذا اللحية المثلثة جالسٌ هناك في تلك الساعة يستمتع بطبقٍ ساخن من "الهوريوتوين"<sup>(1)</sup> يتصاعد منه البخار، وهناك عاملة ترتدي زيًا أبيض، وممسكٌ بيدها صينيةً مصنوعة من "الاستانلس ستيل" لتقدّم له خَلَّ الأرز وزيت الشطة الحارة، وكان الزيت مصنوعًا لتوّه بالتأكيد؛ فكانت رائحة الشطة النفاذة تفوح من اتجاه المطبخ. وكان "أن بينغ" قد تواصل مع رئيس القطار بعد أن ركب من "تشينغشان" وأخبره أنهم في مهمة نقل بنادق، طالبًا منه تقديم المساعدة لهم. وقتها تفحص رئيس القطار هويّة العمل الخاصة بـ "أن بينغ"، والأوراق الثبوتية الصادرة من جهة العمل، ثم قال بترحاب: "لا مشكلة، قطارنا هذا قد سار لألف يومٍ متّصل دون أي حوادث، اطمئن"، لكن "أن بينغ" حينما مرَّ بجواره في تلك اللحظة حاملاً البندقية، لم يرفع رئيس القطار رأسه

(1) أكلة صينية تُصنع من العجين المحشو باللحم - المترجم.



نحوه، بل ظلَّ بصره مُعلَّقًا بالطبق الذي تعلوه طبقةٌ سميكة من الزيت الحار.

وبعد عربة المطعم كانت عربات النوم من الدرجة الثانية، وكان الرُّكَّاب بها قد استغرقوا جميعًا في النوم. وقد فكَّر "أن بينغ" أنَّ "شين شين لاي" لو هرب وركب هذا القطار مُسرِّعًا فإنه من المستحيل أن يتمكَّن من شراء تذكرة نوم؛ فتلك التذاكر شحيحة؛ لذا مرَّ على عربتيَّ النوم من الدرجة الثانية في عجالَةٍ، حتى وصل إلى عربات الجلوس، وعلى الفور تحفَّزَت أعصابه، وصار يتفحَّص الجميع بعناية، دون أي اعتبار إن كانوا رجالًا أم نساءً وأطفال أم كبارًا، كان يخشى أن يفلت المجرم من شبابه، فهناك حالات تنكَّر فيها الرجال في هيئة النساء كي يهربوا، كما أن هناك الآن أقنعةٌ من جلد البشر المقلَّد بدقَّة يمكن أن تجعل الشابَّ كهلاً، والكهملَ شابًا. كانت هناك مقاعد خالية لأن فترة الذروة لم تصل بعد، وغرق معظم الركاب في النوم بأوضاع مختلفة، فمنهم من أمال رأسه على النافذة، ومن وضع رأسه على المنضدة أمامه، ومنهم من أراح رأسه على كتف المسافر بجواره. لقد كان المجرم الهارب بالنسبة لـ "أن بينغ" مثل ورقة كوتشينة وسط أوراق مقلوبة، فبدون أن يكشف عن وجهه القبيح كانت كل الأوراق مُشتَبَهًا فيها، مثلها مثل هؤلاء الأشخاص الذين لا يرى وجوههم. ولم يكن "أن بينغ" في حياته مُفتَقِرًا للياقة مثل تلك المرة، فقد أيقظ الرُّكَّابَ الراقدين على المناضد، وفي اللحظة التي يرفعون فيها رؤوسهم بعيون مُشوَّشة من أثر النعاس كان يبادرهم بقول "آسف، لقد التبس عليَّ شخص آخر".

وعندما واصل "أن بينغ" في بحثه إلى العربة الثالثة من عربات الجلوس، توقَّف القطار في محطة "سونغ تاو"، وتلك محطة صغيرة يتوقَّف فيها القطار لدقيقتين فقط، حيث إن عدد الرُّكَّاب الصاعدين والهابطين قليلٌ للغاية. وعندما مرَّ "أن بينغ" بباب العربة، نظر إلى

رصيف المحطة نظرة سريعة، كانت كافيةً لكي يكتشف أن الشخص الأخير المتجه إلى مخرج المحطة يشبه "شين شين لاي" إلى حدٍ كبير، سواء من ناحية الجسد أم خطواته، فلم يتردد "أن بينغ" كثيرًا وقفز من القطار، وفي اللحظة التي اندفع فيها نحو باب المحطة، أطلق القطار من خلفه صوتًا كأنه يُخرج ريحًا احتبست داخله طويلًا، ثم غادر المحطة ببطء.

عادةً لا تعمل الماكينات في مخارج المحطات الصغيرة، وبالطبع لم تكن محطة "سونغ تاو" استثناءً، فلا ترى فيها أيُّ مُفتش تذاكر، أمّا ماكينة فحص التذاكر الموضوعية على المخرج فهي أشبه بتثورة فتيات الليل بالشوارع، مفتوحة عن آخرها؛ لذا خرج "أن بينغ" من المحطة بسهولة، أمّا ذلك الرجل الذي يترصده فكان لا يزال في الميدان الأمامي للمحطة لم يخطُ خارجه، فاتّجه نحوه "أن بينغ" بخطواتٍ مُسرّعة، وقبل أن يهجم عليه، سمع ذلك الرجل صوتَ خطواتٍ غير طبيعية خلفه، فالتفت ليتبيّن الأمر، وتحت الضوء الأبيض الشاحب رأى "أن بينغ" وجهًا قبيحًا للغاية، لا يشبه البتّة وجه "شين شين لاي". هذا الوجه يشبه الأحجار القديمة المُستخدمة في ممرّات المقابر، لقد أصابت رؤيته "أن بينغ" باليأس، فارتعش جسده وصاح بصوتٍ هادرٍ: "تبًا لك، لماذا تمشي بتلك الخطوات؟ هيا اغرُب عن وجهي قبل أن أُمسك بالبندقية وأمزّكك".

ففزع الرجل وسارع بالركض هاربًا.

وهنا تلفت "أن بينغ" حوله بنظرات زائغة، وألقى بالبندقية أرضًا، وتهاوى جالسًا على الأرض، ثم أخرج سيجارة بيد مرتعشة، كانت الأرضية الأسمنتية للميدان باردةً للغاية، يَخزُ برُدّها العظام، فكانه جلس على طبقة من الجليد؛ وظلّ يرتعش رعشاتٍ متتالية، كان يتمنى أن يقع زلزال ضخم في تلك اللحظة لتنشق الأرض وتصير قبرًا يبتلعه.

وفي اللحظة التي أشعل فيها سيجارته الثانية، ظهر شخصان يسيران تجاهه واحدًا وراء الآخر. أحدهما طويل والثاني قصير، والاثنتان نحيفان، أعطتهما أضواء الطريق ظِلِّين طويلَيْن كأنَّ كُلاًّ منهما يسحب وراءه ذيلًا؛ ممَّا أعطى إحساسًا مُرعبًا.

كانا سائقيَّي أجرةٍ ممَّن يأخذون الركاب من أمام المحطة، وكان الطويل منهما يقود سيارَةَ ماركة "شِيالي"، والقصير يقود درَّاجَةً نارية، وعندما رأياه يخرج من المحطَّة ويتسكَّع أمامها جاءا ليسألاه عمَّا إذا كان يرغب في استعمال سيارة. فقال الطويل: "اركب سيارتي؛ فإنها سريعة"، وقال القصير: "اركب درَّاجتي؛ فإنها رخيصة".

أيقظ ظهورهما حواسَّ "أن بينغ" تمامًا، فقال لذلك الطويل مالك السيارة الـ "شِيالي": "يا أخي، أنا أرغب في اللحاق بذلك القطار الذاهب إلى "سونغشان"، بأيِّ ثمنٍ ترغب فيه، ساعدني من فضلك"، فهزَّ الرجل كتفيه وقال غير مستوعب: "ألم تهبط لتَوَكُّ من ذلك القطار؟"، فهزَّ "أن بينغ" رأسه بنعم، وقال إنه مصاب بنوع من الهستيريا تتملَّكه عند السفر، وقد شرب الكثير من الخمر لتَوَهُ، وما إن وصل القطار إلى "سونغ تاو" حتى تهَيَّأ له أنه سمع صوتًا ينادي اسمه من على رصيف المحطة، فنزل من القطار وهو في غير وعيه، لكن هناك رفاقٌ له على متن القطار، وهم ذاهبون غدًا صباحًا إلى "سونغشان" لتنفيذ مهمَّة؛ لذا يجب اللحاق بذلك القطار. وهنا اقترب القصير من الطويل وجذب كُمَّهُ بخِفَّة، وقال له بصوتٍ خفيض: "هل صادفنا عَفريتًا؟"، فنهض "أن بينغ" على عجل، وناولهما شارة الشرطة الخاصَّة به، قائلاً إنه بشر. لكنَّ خوفهما ازداد بعد أن رأيا الشارة، فكيف يمكن لمن هو مصاب بالهستيريا أن يصير ضابطَ شرطة؟ وعندما استدارا عازِمَيْن على المغادرة، أخرج "أن بينغ" النقود الموجودة بجيبه، قائلاً إن تلك النقود لهما إن ساعدها. تلك النقود كان لها مفعول السحر، فأوقفت خطواتهما، فالتقط الطويل النقود،

وتفحصها ورقةً ورقةً، ثم قال للقصير إنها نقود حقيقة، فالتقط القصير ورقةً منها، وركض ليتفحصها بدقة تحت ضوء الطريق، ثم عاد وقال للطويل: "إنها ليست نقوداً من الورق المزيف، إنه ليس بعفريت"<sup>(1)</sup>.

ثم انتحى كلاهما جانبًا وتناقشا لدقيقتين أو ثلاث، وعادًا وأخبرًا "أن بينغ" أنهما موافقان على الصفقة، سيقوم صاحب الدراجة النارية أولًا بإعادة الدراجة إلى المنزل في طريقهم، ثم سيقود الاثنان السيارة الـ "شيالي" ليطاردا جميعًا القطار. فالتقط "أن بينغ" البندقية، وعندما وصل معهما أمام السيارة تذكّر فجأة أنه يجب عليه الاتصال أولًا بـ "دا شو" ليخبره ألا يفزع هو و"شياو جيانغ". فأخرج هاتفه المحمول، لكنه اكتشف عدم وجود إشارة، فمنطقة "سونغشان" لم تتم تغطيتها بالكامل بشبكة الهواتف المحمولة، ومن سوء الحظ أن "سونغ تاو" كانت من المناطق غير المغطاة، ففكر "أن بينغ" أنه ما دامت الأمور قد صارت إلى ما صارت إليه، فلا مفر من التسليم بما تراه السماء.

كان بيت صاحب الدراجة قريبًا من المحطة، فوصلوا بعد دقيقتين أو ثلاث. وضع القصير الدراجة داخل المنزل ثم عاد وهو مُمسكٌ بحبل من النايلون، وقال مُعتذرًا وعلى وجهه ابتسامة، مُوجهًا حديثه لـ "أن بينغ" إنهما لن يطمئنا في الطريق إلا لو قيّدًا يديه. وكان "أن بينغ" يعلم ما الذي يقلقهما، فوافق، لكنه طلب أن يساعده في القيام بمكالمة هاتفية بمجرد الوصول إلى مكان به شبكة.

كان القطار الذي استقله "أن بينغ" ورفيقاه قطارًا بطيئًا، سرعته تتراوح بين ستين وسبعين كيلومترًا في الساعة، وقد ضيّع "أن بينغ" ما يقارب نصف الساعة في "سونغ تاو"؛ لذا لو كان الطريق جيّدًا،

(1) في التراث الشعبي الصيني، الأحياء يرسلون نقودًا من الورق المزيف إلى الموتى في الأعياد، وذلك عن طريق حرقها في المقابر - المترجم.

والسيارة جيدة؛ فسيتمكّن من اللحاق بالقطار خلال ساعتين أو ثلاث. لكن تلك السيارة الـ "شياي" كانت سيارة مُستعمَلة، وقدراتها سيئة، وعندما تصل سرعتها إلى مائة كيلومتر في الساعة كانت تصير كالمُصاب بالروماتيزم، فترتعش بقوة كأنها ستفتكك إلى أجزاء، بالإضافة إلى أن الطُرق في تلك المنطقة غير مستوية، فلا يمكن السير عليها بسرعة، حتى إن عينيّ "أن بينغ" قد آلَمَتاه من شِدَّة القلق، وبعد أن ساروا بالسيارة لمدة خمسين دقيقة، وعندما مرُّوا بمحطة "يولين" قال سائق الدراجة النارية الجالس مع "أن بينغ" في المقعد الخلفي إن هناك إشارة في تلك المنطقة، ويمكن إجراء مكالمات هاتفية، وساعده في إخراج الهاتف المحمول.

وما إن وصل الهاتف إلى يد سائق الدراجة النارية حتى بدأ في الغناء، هناك مَنْ يتّصل، فأسرع الرجل برفع الهاتف إلى جوار أذن "أن بينغ". كان المتّصل هو "دا شو": "أين أنت أيُّها الرئيس "أن"؟".

فقال "أن بينغ": "لقد نزلتُ من القطار دون قصد، لا تقلق، أنا بخير، لقد استأجرتُ سيارةً وأطارد القطار، سأكون معكما في الصباح". فسأله "دا شو" على عَجَلٍ بصوتٍ يملؤه القلق: "هناك رفيقٌ ناقصٌ، هل هو معك؟".

فردَّ "أن بينغ": "موجود".

فقال "دا شو" بصوتٍ به نبرةٌ بكاء: "أيُّها الرئيس "أن"، لا ترتكب حماقةً، فَضُرَّ نفسَك والآخريين".

وهنا اغرورقت عينا "أن بينغ" بالدموع.

فيما بعدُ صار حادثُ نزول "أن بينغ" من القطار ومعه البندقية نُكْتَةً يتحاكاها رجالُ مَحْكَمَة محافظة "تشينغشان". ضابطٌ عجوزٌ يحمل بندقية بلا رصاص ملفوفة داخل طبقاتٍ فوق طبقات، هل

هذا أشبههُ بِمُطَارَدَةِ رَجُلٍ؟ إنه أقرب لمُطَارَدَةِ شَبَحٍ، يبدو أن تلاقِي الكراهية مع الخمر يَنْتُج عنهما فقدان العقل والمنطق.

كان أول مَنْ اكتشف وجود أمر غير طبيعي هو "شياو جيانغ"، فقد استيقظ ليلاً وفتح الضوء بجوار السرير فاكتشف غياب "أن بينغ"، واعتقد أنه ذهب للحَمَام، فانتظره لعشر دقائق لكنه لم يرجع، وهنا بدأ الشُّكُّ يتسرَّب لقلبه، فتفحَّص الأمتعةَ بدقَّة ليكتشف غياب بُندقية، وهنا سارَعَ بإيقاظ "دا شو"، وعندما وجد "دا شو" أن البندقية غير موجودة ارتعب حتى لانت قدماه من الخوف، واتَّصل مرَّةً تلو الأخرى بهاتف "أن بينغ"، لكن لم يستطع الوصول إليه، حتى فكَّر في القفز من القطار من شدَّة القلق. أمَّا "شياو جيانغ" فقد أصابه الخوف هو الآخر، ونصح "دا شو" أن يُبلغ الشرطة؛ لذلك وقبل أن يصل "أن بينغ" إلى القطار، كانت سيَّارة الشرطة قد لحقت به أوَّلًا.

بعدها تَوَاصَلَ رئيس محكمة محافظة "تشينغشان" مع عدَّة أطراف، وسخَّر علاقاته كي يعالج هذا الأمر دون شوشرة، مُعلِّلاً ما حدث بأن "أن بينغ" قد اشتغل مُنفَّذ أحكام إعدام لفترة طويلة؛ ممَّا سبَّب له ضغطًا نفسيًّا كبيرًا، وقد أصابته نوبةٌ عصبيةٌ جعلته يأخذ البندقية ويغادر القطار أثناء المهمة؛ لذا تمَّ إعفاؤه من منصبه كرئيس فريق تنفيذ أحكام الإعدام، وإجباره على الخروج على المعاش بسبب المرض. وقد تأدَّى "دا شو" أيضًا ممَّا فعله "أن بينغ"، فكان هناك نائبان لرئيس فريق تنفيذ أحكام الإعدام، وكان هو يسبق النائب الآخر، والمفترض أن يتولَّى رئاسة الفريق بعد أن يتقاعد "أن بينغ" بشكل طبيعي، لكن بسبب تلك الحادثة أثناء نقل البنادق، تمَّ تحميله المسؤولية أيضًا بوصفه واحدًا من المرافقين؛ لذلك ترقَّى نائب رئيس الفريق "ليو" ليسبقه ويصير هو رئيس الفريق.

أصاب هذا "دا شو" بالاكْتئاب، وساوَرَه الشُّكُّ أن "شياو جيانغ" هو مَنْ أوقع بهما. فقد كان يعرف تمام المعرفة أنه غير مسموح بتناول الخمر أثناء نقل البنادق، إلا أنه صمّم على إحضار خمرٍ معه على متن القطار، كما أنه قال إنه لا ينام أبداً عند استقلال القطار، لكنه لم يَنم فحَسَبُ، بل استيقظ تماماً في اللحظة الحاسمة، أمّا أكثر ما أثار ارتياب "دا شو" فهو أنه عندما عجز عن الاتصال بـ "أن بينغ"، وسمع التنبيه أن الهاتف خارج نطاق الخدمة، فإن الاحتمال الأقرب هو أن الهاتف لم يكن مُغلقاً، ويبدو أن "أن بينغ" قد تحرّك وفقاً لخُطّة، ولا احتمال لأن يكون قد هرب واختفى، إلا أن "شياو جيانغ" أصرَّ على إبلاغ الشرطة، والنتيجة أنه بعد فترة قصيرة من الاتصال بالشرطة نجح "دا شو" في الاتصال بـ "أن بينغ"، فلو لم يستيقظ "شياو جيانغ" في منتصف الليل، ولو صمّمًا على عدم إبلاغ الشرطة؛ لنَجَحَ "أن بينغ" في اللحاق بالقطار والصعود إليه في إحدى المحطات، والعودة إليهما دون أن يشعر به أحد. بل إن "دا شو" قد شكَّ حتى في أن تلك الخمر والمأكولات كانت من إعداد نائب الرئيس "ليو"، والذي جعل "شياو جيانغ" يحملها معه إلى القطار.

لكن "أن بينغ" لم ينظر للأمر من تلك الزاوية، فلو كان ما أحضره "شياو جيانغ" معه قبلة حتى، فإنها لن تنفجر لو لم يلمسها، فالخطأ لا يزال خطأهما.

كان السُّلُحُ الذي يحمله "أن بينغ" خلال بحثه ومطاردته لـ "شين شين لاي" هو سَكِّينُ قتل الخنازير ذات السَّبعة إنشآت، والتي لم يستخدمها "شين تشي زا" لفترة طويلة. والعجيب أن "أن بينغ" قبل الانطلاق في رحلة البحث ذهب إلى منزل "شين تشي زا" ليطلب منه تلك السكين، وما إن دَلَّفَ إلى فناء منزله، وقبل أن يفتح فمه، مسحه "شين تشي زا" الذي كان يجلس على المقعد الخشبي أسفل شجرة البتولا البيضاء يدخّن غليونه بنظرةٍ خاطفة، فَفَهِمَ على الفور

السبب الذي جاء من أجله، وأطفأ غليونه ونهض من مكانه مُتَّجِهًا نحو حظيرة الذبح وحمل تلك السكين خارجًا، وعندما أمسك بها "أن بينغ" في يده نصحه "شين تشي زا" أنه لو أمسك بذلك الحقيـر فليغرس السكين في صدره عند القلب لو أراد القضاء عليه، فهو نحيل للغاية، طعنة واحدة كفيلة باختراقه، "فلتُسَدِ معروفًا لي ولتَمَنِّحْهُ ميتةً سريعة".

فنظر "أن بينغ" بنظرة ثابتة إلى "شين تشي زا"، وشعر ببرودةٍ في عموده الفقري، لقد شعر بمدى ثِقَلِ تلك السكين.

يبدو أن رغبة القتل الكامنة في القلب لا تخفى على عين جزَّارٍ عجوز. لم يتمكَّن "أن بينغ" من القبض على "شين تشي لاي"، لكنه رأى صقرًا عجوزًا يمسك بأرنب، ورأى ثعبانًا يبتلع فأرًا. إن القتل والتعدِّي موجود بين كل المخلوقات، لكن كل هذا يحدث في هدوءٍ دون أن يشعر به أحد، بل إن بعضه يحدث تحت مُسمِّيات مُذهلة.

في تلك الليلة عَسَكَرَ "أن بينغ" على ضِفَّة الجدول، وقد اعتمل في قلبه شعورٌ بعدم الارتياح. أمَّا الحصان الأبيض المربوط بجواره فما انفكَّ يضرب الأرض بحوافره، وخطَّت بومةٌ لتجلس ساكنة على شجرة سوداء ضربها البرقُ كأنها أرملةٌ تُصدِر صِيحَاتٍ مثل البكاء. لم يَسْتَطِع "أن بينغ" النوم، فذهب إلى ضِفَّة الجدول وغسل وجهه والتقط حجَرَيْنِ رمى بهما البومة، لكن لم تَطِر خوفًا، بل زادت جرأتها وصارت تصيح بأصواتٍ مختلفة، فتارةً تُصدِر صوتًا أشبه بالضحكات العالية، وتارةً تُصدِر صوتًا أشبه بالهمسات الخفيفة، وتارةً تُصدِر صوتًا أشبه بالسُّعال. وعندما رأى "أن بينغ" الضوء المنعكس من عيني البومة، خشي أن يكون قد حدث مكروهٌ ما لأسرته، فلملم أشياءه بسرعة وحمل متاعه عائِدًا للبيت.





## 8

### نساء كالزهور

لقد أعطى مقتل "وانغ شيو مان" أملاً في الزواج لثلاث نساء على الأقل، من بينهن اثنتان رأيتنا ذلك الأمل لنفسيهما، أمّا الثالثة فقد رآته لوحده أخرى.

عندما فقد "شين تشي زا" شريكة حياته، اعتقدت "تشين ماي تشين" أن الفرصة قد جاءت لكي تُخلِّص ابنتها من "تشين يوان"؛ وذلك لأن "تانغ ماي" كانت تترك "تشين يوان" لدى منزل "شين تشي زا" في كل مرة تخرج فيها، وكانت "تشين يوان" ترفض بقائها في أي مكان آخر، باستثناء الوحدة الصحية، وكانت تُحبُّ مشاهدة "شين تشي زا" وهو يقتل الخنازير، وتحب تناول الكلاوي الحارة التي يطبخها، وتحبُّ تشمُّ العِطْرَ الذي يفوح من غليونه، حتى إنها عشقت ملابسه المعلّقة على حبل الغسيل، وكانت تلصق وجهها فيها عندما تراها. وكان "شين تشي زا" يحبُّ ارتداء الملابس نُحاسيَّة اللون المُتناسقة

مع لون بشرته؛ لذلك فَهِمَ الناسُ حركة "تشين يوان" هذه بأنها عبارة عن قُبَلات تُعطيها لـ "شين تشي زا" بشكل لطيف وغير مباشر. أمّا أكثر الأمور غَرَابَةً فكان مجيئها من المنحدر الغربي إلى المدخل الشمالي عند هطول الثلج كي تَمَسِّكَ بِأثار أقدام "شين تشي زا" ورغم أنه متوسِّط الجسد، كانت قدمه كبيرة بشكل مُلْفِت، فهو الرَّجُل الوحيد في قرية "لونغ تشان" الذي يلبس مقاس سِتَّةَ وأربعين، فكانت آثار الأقدام التي يتركها في الثلج عميقةً وضخمةً، وكل واحدة منها تشبه عينَ مياه، وفي كل مرَّةٍ تَمُدُّ "شين يوان" قدمها لتضعها داخل تلك الحفرة الثَّلْجِيَّةَ كانت تُصَدِرُ صوتَ ضحكاتٍ يخلب العقول؛ لذا قالت "وانغ شيو مان" من قبل لـ "شين تشي زا" عندما كانت لا تزال على قيد الحياة أنها لو تُوفِّيت قبله، يمكنه أن يتزوَّجَ "تشين يوان"؛ فهذه الفتاة البلهاء مُهْتَمَّةٌ به جدًّا، كما أنها لا تزال غَضَّةً وممتلئة، وهما مناسبان لبعضهما.

أمّا "تانغ تشيه" فعندما وصله خبر أن أخته قد جاءت بفتاةٍ بلهاء لتعيش معها؛ نَبَّهَ أُمَّه في الهاتف عبر المحيطات إلى أن الشذوذ الجنسي قد صار أمرًا غير مُسْتَعْرَبٍ في الخارج؛ لذا فـ "تانغ ماي" و"تشين يوان" بنسبةٍ كبيرة في علاقة حب، وإلَّا فكيف لها أن تُضْحِي بشبابها من أجلها؟ ورأت "تشين ماي تشين" مَنَظْفًا في كلام ابنها؛ لذا جاهدت مرارًا وتكرارًا للتفرييق بين زوج العصافير هذا. وحاوَلت في البداية أن ترسل "تشين يوان" إلى دارٍ لكبار السَّنِّ في مدينة "سونغشان"، وتحدَّثت بالفعل مع رئيس الدار، لكن "تانغ ماي" هدَدت أنها ستلقي بنفسها من فوق الجبل إن أرسلوا "تشين يوان" إلى هناك، واعتقدت والدتها أنها تخشى فقدان "تشين يوان" للدَّفءِ الأَسْرِيِّ؛ لذلك ذهبت خَصِيصًا إلى أسرة "تشين يوان" وأقنعتهم أنهم لو وافقوا على استقبال ابنتهم ثانية ورَعَوْها بشكل جيد فإنها ستعطيهم كلَّ عامٍ مبلغ خمسة عشر ألف يوان. فرحت أسرة "تشين" من كبيرها لصغيرها، وتحوَّلت "تشين

يوان" بين ليلةٍ وضحاها من عبءٍ يثقل على كاهلهم إلى كَنزٍ ذهبِيٍّ يُدرُّ المال، وعلى الفور ترك والد "تشين يوان" ما بيده من أعمال الزراعة، وعاد مع "تشين ماي تشين" إلى قرية "لونغ تشان". لكن "تانغ ماي" عارَضَت بتصميمٍ قائلةً إن "تشين يوان" لو عادت لمنزلها فإنهم سيعاملونها مُعاملةً الحيوانات التي تعمل في الحقل يوميًّا. وهكذا فشلت جهود "تشين ماي تشين"، وخضعت قليلًا لابنتها قائلةً إنه يُمكن السماح لـ "تشين يوان" بالبقاء في قرية "لونغ تشان"، على شرط ألاَّ يَسْكُنَا سوياً، بل سترسل "تشين يوان" للسكن في نُزلِ الشَّمس الحمراء، على أن تتكفَّل هي بمصاريف إقامتها، ولا تقابلها "تانغ ماي" إلاَّ مرَّةً واحدةً في الأسبوع.

كانت صاحبة نُزلِ الشمس الحمراء السيدة "ليو شياو هونغ" زوجة "تشو تشينغ يه" رئيس مصلحة المشروعات المائية بمحافظة "تشينغشان". وفي السابق كان لزوجها عشيقة وقرَّر الانفصال عن زوجته، لكنها لم ترضَ بذلك، واشتكته لدى لجنة الانضباط والقيَم بأن سلوكه يتَّسم بالفساد، فخشي أن تطالَه عقوبةٌ إداريَّة؛ لذا عاد إلى المنزل ولم يطرح أمرَ الطلاق مرَّةً ثانية. لكنَّهما ظلَّا ينامان في سريرٍ واحدٍ، ويحملان أحلامًا مختلفة، فقد ظلَّ "تشو تشينغ يه" يبحث عن فرصة للخلاص منها، أمَّا هي فكانت تعمل في مصلحة الكهرباء، ووفقًا للسياسات المحليَّة يتوجَّب على السيدات العاملات الخروج للمعاش في سنِّ الخمسين؛ لذا تحمَّل "تشو تشينغ يه" حتى وصلت إلى سنِّ الخمسين، فاشتري لها بناية بشارع "يون شويه" بالزاوية الجنوبية الغربية بقرية "لونغ تشان" كي تفتتح فيها ما شاء لها من مشاريع بعد المعاش، لكن في الحقيقة كان وسيلةً كي يُخرِجَها من المنزل، وحاليًّا يدرس ابنتهما الوحيد في الخارج، ولا تعود هي إلى المنزل سوى مرَّة كل عشرة أيام أو نصف شهر، أمَّا السيد "تشو"

فيعيش وحيداً في محافظة "تشينغشان"، ويسكن بجرأةٍ وعلانيةٍ في منزل عشيقته.

هكذا صار زواج "ليو شياو هونغ" موجوداً اسماً فقط، أما فعلياً فقد انتهى، لكنها ظلت حين تذكر زوجها أمام الآخرين تقول "زوجي السيد تشو"، كما لو أن الآخرين لا يعرفون أمرَ أسرتها. وكان نُزلها صغيراً، يتكوّن من طابقين بمساحة أكثر من مائتي متر، لكنّه مقسم بشكل مثالي، ولا يوجد مترٌ مُربّع واحد غير مُستغل؛ ففي الطابق الأعلى ثماني عُرف للضيوف، وفي الدور السفلي غرفتان صغيرتان ومطبخ، والباقي مطعم. وكان النُزل مُزدهراً بسبب وجود أيقونتين ذهبيتين فيه، هما: الطَّبَّاح "جيه شي باو"، والخادمة "لين دا هوا".

"جيه شي باو" هو الأخ الأصغر لزوجته "أن تاي"، من قومية "إيلوينتشوين"، في الأربعين من عمره، ذو وجه مُفلطح وعينين صغيرتين وفم كبير، وشعر مُجعّد، قصير القامة وسمين، ويحبُّ الخمر القويّة، وكان في السابق طبّاحاً في دار ضيافة "قويوا وينشيانغ"، وكان بارعاً في طهو أكلات "إيلوينتشوين"؛ لذا كان كبار المسؤولين بمحافظة "تشينغشان" حين يستقبلون مسؤولين أكبر دائماً ما يذهبون إلى "قويوا وينشيانغ"، والسبب الرئيسي هو تذوّق الأطباق اللذيذة التي يُعدّها "جيه شي باو". وقد انتقل إلى قرية "لونغ تشان" لأنه بعد رحيل زوجته صار يذهب دائماً إلى المقبرة أعلى الجبل بعد أن يشرب الخمر؛ لينام بجوار قبر زوجته، ولم يعد يهتمُّ بابنه الصغير، وفي شتاء أحد الأعوام، سكر حتى ارمى بجوار المقبرة حتى قارب على الموت متجمّداً، وأنقذه الحطّابون، ورغم أنه ظلّ على قيد الحياة إلا أنه فقد إصبعين من قدمه، ومن وقتها صارت خطواته أشبه بمشية البطة. وحشيت "جيه شيو لي" زوجة "أن تاي" أن يُجنّ أخوها الأصغر إذا استمرّ طويلاً على هذا الوضع؛ فنصحتّه بمغادرة "قويوا وينشيانغ".

وَتَصَادَفَ افْتِتَاحَ نُزُلِ "ليو شياءو هونغ" في ذلك العام، واحتياجاها لطبّاخ؛ لذلك رشّحته للوظيفة.

ساعده الزّوجان "أن تاي" في شراء غرفتين بالضلع الجنوبي الشرقي للقرية، فأحضر ابنه "جيه شياءو باو" وانتقل إلى قرية "لونغ تشان"، وبعد أن غيرَ البيئة التي كان يعيش فيها تبدّل حاله وصار مُقبِلاً على الحياة، حتى إن النُّزُلَ أصبح تتصاعد منه دائماً أصواتُ ضحكاته، وحين علم المسؤولون في محافظة "تشينغشان" أن "جيه شياءو باو" قد انتقل إلى قرية "لونغ تشان" طاروا من السعادة؛ فالمجيء إلى هنا للاستمتاع بأكلات "الإيلوينتشوين" أقرب وأسهل بكثير من الذهاب إلى "قويوا وينشيانغ". أمّا "تانغ هان تشينغ" فصار كلُّما استقبل مسؤولاً مُهمّاً لا بُدَّ أن يُرتَّبَ له وجبة في هذا المكان. وكان في نُزُلِ الشَّمس الحمراء ثلاثتان كبيرتان ممتلئتان بالمنتجات البرّية لمنطقة "سونغشان" مثل طيور "الطّيهُوج"، ويد الدّبّية، والسناجب، والدجاج البري، وأرانب الثلوج، وغيرها، ومعظمها كانت حيواناتٍ يُحظَرُ صيدها. ورغم أن رواد المطعم كانوا يُدرِكون الوسيلة التي أتت بها تلك الممنوعات، إلّا أن أحداً لم يعلم بأمر وجودها؛ فقائمة الطعام الموضوعة بشكل عَنَتِيّ أمام الزبائن كان كلُّ ما تحويه هو الدجاج المطهو مع فِطْرٍ عيش الغراب، واللحم الأبيض المُحمَّر مع الملفوف المخلل، و"الدُّوفو" بدم البط، وطبق الثلاث خضروات، وغيرها من الأطباق المنزلية، ولا يوجد فيها حتى رائحة الأصناف البرّية، لكن الزبائن المعروفين للمكان يعلمون جميعاً أن المكان يعتمد في رواجه تمام الاعتماد على أطباق الأصناف البرّية.

أمّا الأيقونة الذهبية الثانية في نُزُلِ الشمس الحمراء "لين دا هوا" فهي ابنة المرأة المدخنة. وقد خرّجت من التّعليم في الصّفّ الثاني الإعدادي قائلةً إنها لو استمرّت في التّعليم فستصبح بلهاء مثل "دان شيا"، كما أنها مُحبّبة للموسيقى ويمكنها العزف على الأكورديون،

وخشيت المرأة المدخنة على ابنتها أن تتعرض للتنمر لو ابتعدت عنها؛ لذا منعها من مغادرة قرية "لونغ تشان"، واشترت لها أكورديون، وجعلتها تتعلم الحياكة لدى المطرزة، وبغض النظر عن ملابس المرأة المدخنة غير المهندمة، وأسنانها الصفراء، وبصاقها العشوائي الدائم، إلا أنها كانت تعرف تمام المعرفة أن الموسيقى والتطريز بالنسبة للفتيات كزينة جميلة سترفع من شأن ابنتها درجةً في رحلة البحث عن عريس جيد؛ لذلك لم تبخل بإنفاق النقود لتأتي بمدرّس موسيقى خصوصي للمنزل كي يرفع من مهارة "لين دا هوا" في العزف، وقد سمعت الابنة كلام أمها فيما يتعلّق بتعلّم الموسيقى، لكنها كانت تكره التطريز، فكانت ما إن تلامس الإبرة والخيط حتى ينتابها الصداق؛ لذا ذهبت إلى المطرزة بضع مرّاتٍ، بعدها لم تذهب مرة قط.

كانت "لين دا هوا" تخشى كل ما يتعلّق بالسّواد، ولا أحد يعلم إذا كان هذا نابغاً من مناجم الفحم، أم من مصرع والدها الذي ترك آثاراً عميقة في نفسها. فبمجرد أن يحلّ الظلام لا تجرؤ على الخروج من البيت، كما أنها لا تأكل فطر الخشب الأسود ولا الفاصوليا السوداء ولا السمسم الأسود، بل إنها حتى لا ترتدي الأحذية أو الجوارب السوداء. وإذا ما رأت كلباً أسود أو حصاناً أو خنزيراً أسود أو بطّة سوداء، تفزع وتهرب كمن رأى شبحاً. وكانت تشتري بمصروفها الذي تعطيها لها والدتها كلّ أنواع الكريمات المفتحة للبشرة كي تدهن بها وجهها. وكانت ستائر غرفتها بيضاء، حتى إن حجرتها أشبه بحجرات المرضى، وفي الصيف كانت تخرج بالمظلة سواء كان الجو مشمساً أم غائماً، وبالطبع كانت لا تحمل مظلة سوداء، وعندما تهبّ رياح الشتاء الشمالية، كانت تخشى أن تُسودّ الرياح وجهها؛ لذلك تغطيه بوشاح ولا يظهر منها سوى عين واحدة.

كانت المرأة المدخنة قصيرة القامة، ضخمة العظام، قويّة البنيان، ذات وجه كبير. أمّا "لين دا هوا" فكانت متوسطة القامة، رقيقة

العظام، نحيفةً وذات وجه بيضاويٍّ وحاجبين وعينين دقيقتين، بالإضافة إلى بشرة بيضاء؛ ممَّا أعطاها مظهرًا جميلًا رقيقًا. وعندما افتتحت "ليو شياو هونغ" نُزُلَ الشَّمس الحمراء، أُعجِبَت بمهارة وذكاء "لين دا هوا" فعَيَّنَتها خادمة بالنزل، أمَّا المرأة المدخنة فانتبهت إلى أن ابنتها لو جَلَسَت في المنزل بلا عمل فلن تحظى بمستقبل أفضل، كما أن ذلك النُّزُل ذو مكانة، ويأتيه الكثير من كبار المسؤولين لتناول الطعام، وهناك فرضٌ كثيرة أن يُعجَب أحدهم من ذوي المال والسُّلطة بابنتها؛ لذلك ما إن حددت "ليو شياو هونغ" موعِدًا مع المرأة المدخنة، وتناقَشتا في المُرْتَب، حتى سمَحَت المرأة المدخنة لابنتها بالمجيء للنُّزُل.

لكن "لين دا هوا" لم تأتِ خاويةً الوفاض، بل جَلَبَت معها شيئين: الأكورديون، وأدوات الحِجامة بكوؤس النار؛ فقد عانى "وانغ تشينغ شان" كثيرًا من آلام الحَصر، وعندما كانت المرأة المدخنة تعالجُه بكوؤس النَّار عَلِمَت هذا الفَنَّ لابنتها؛ لذا كانت "لين دا هوا" - بالإضافة لعملها في تنظيف العُرف - تقوم بالحِجامة إذا ما شعر أحدُ النُّزلاء بالضُّداع، فصار الزبائن المعروفون في النُّزُل يطلبون منها الحِجامة حتى لو لم يكونوا يعانون من أيِّ أمٍّ؛ وذلك طلبًا لبعض الراحة، وبالطبع كان هناك من الزبائن مَن حاوَلَ مَدَّ شِباكِه نحوها، إلَّا أنها لم تَقَع في المصيدة، فقد قالت لها المرأة المدخنة مرارًا وتكرارًا إنها لا تملك أُسرَةً جيِّدة، ولا عملاً جيِّدًا، ولا جمالًا مُبهرًا، وفي عالمنا الحالي يُطلَق عليها "امرأة بلا مُميَّزات"، وهذا يجعل احتماليَّة مَمْتُعها بمستقبل مُشرق احتماليَّةً ضعيفة؛ لذلك يجب عليها حماية عِفَّتِها وعُذريَّتها جيِّدًا؛ فهي بالنسبة لمن يُقدِّرها من الرجال أشبهُ بسيارة "بي إم دبليو" فاخرة؛ ولذلك أصبَحَت المرأة المدخنة مثل رَجُل الشرطة، حيث تذهب دَوْمًا في الليل إلى نُزُل الشمس الحمراء لترى طبيعة الأشخاص المتواجدين مع ابنتها.



أرادت "تشين ماي تشين" أن تُرسل "تشين يوان" إلى نُزُلِ الشَّمس الحمراء من أجل مصلحة "تانغ ماي" من ناحية، ومن أجل مصلحتها الشخصية من ناحية أخرى، فقد كانت تشكُّ أن زوجها على علاقة مع "ليو شياو هونغ"؛ فهو كان دائمَ التَّردُّدِ على المكان حتى لو لم يكن هناك مسؤول أعلى جاء للقريبة، مُعلِّلاً ذلك برغبته في تناول الطَّعام الذي يُعدُّه "جيه شي باو"، وفي كل مرَّة يعود فيها من هناك كانت "تشين ماي تشين" تُبادِر بطلبه في الفراش؛ لكي تعرف هل أقام علاقةً مع غيرها أم لا، إلا أن "تانغ هان تشينغ" كان دائمَ التَّهرُّبِ بشتَّى الحُجَج. وفي تلك الليلة، غرق هو في نُعاسٍ عميق، أمَّا هي فقد جافاها النوم، فهي تعلم في قرارة نفسها أنه لم يُحبِّها أبدًا، رغم أن لديهما ابن وابنة. وفي السنوات الأخيرة ذهبت إلى المدن الكبرى عدَّة مرَّات للقيام بعمليات تجميل، فأزالت الانتفاخات حول عينيها، وأزالت الشامات والدهون، وعدَّلت أنفها، وأخذت حُقن تنحيف الوجه، وغيرها، وتحمَّلت الكثير من الألم الجسدي فقط كي تصنع من نفسها امرأةً جديدةً جميلة. أتى هذا بثماره في البداية، وصارت بشرَّتُها ناعمةً ووجهها نَضْرًا جميلًا، وبَدَت أكثرَ شبابًا. لكن طبقات جديدة من التجاعيد ظهرت بكثرة، ولم يَدُم الشكل الجديد الذي جَلَبَّته بمشارط الأطباء طويلاً، فكَرَّرت العمليات ثانية، وهنا بدأت النتائج الوخيمة في الظهور، وأصبح وجهها كأنه ضربَه زلزالٌ؛ فانحنى أنفها، وصار جانِبَا الوجه غيرَ متساويين، أمَّا الأكثرُ رُعبًا كانت عينيها؛ فنتيجة لتدبير التجاعيد المتكرِّرة انتفخ جفناها حتى صارت العينان لا تنغلقان تمامًا، وأثناء نومها يبدو فيهما شقٌّ كأنَّهما لشخصٍ مَيِّت، حتى إن "تانغ هان تشينغ" قال أكثر من مرة إنه ينام مع عفريتٍ؛ ممَّا فَطَرَ قلبها. أمَّا تلك المدعوَّة "ليو شياو هونغ" فهي ذات ملامح عادية، بوجه طويل كوجه الحصان، وعينين طويلتين ضيقتين وأنفٍ مُستَوٍ وفمٍ كبير إلى حدِّ ما، وكان لديها ميزتان: بشرتها البيضاء، وشعرها النَّاعِمُ الأسود

الفاحم، ذلك الأبيض مع الأسود أعطيهاها سحرًا نسائيًا خاصًا، ورغم أن "تشين ماي تشين" مثلها في العمر إلا أن شَعْرَهَا شابِ نِصْفُهُ وصارت مُضطَّرَّةً لصبغه كلُّ ثلاثة أو أربعة أشهر، وإلا صار كأنه مغروسٌ فيه أقلام من ريش الإوز، أمَّا شَعْر "ليو شياو هونغ" المنسدل فكان أشبه بغابةٍ من أشجار الزَيْفُون الممتلئة بقوة الحياة، وقد تهاَمَسَ أهالي قرية "لونج تشان" بأنها تتخذ من النُّزُل بيتًا لها، فيبدو أن به مَنْ تحبه. هناك مَنْ قال بأنها تحب "تانغ هان تشينغ"، ومَنْ قال إنها تحبُّ "جيه شي باو". إلا أنَّ "تشين ماي تشين" كانت ترى أن "ليو شياو هونغ" لن تُحِبَّ طَبَآخًا، بالإضافة إلى أن "جيه شي باو" قال من قبل إنه يُفَضِّلُ نساء "الإيلوينتشوين".

فلو سَكَنَت "تشين يوان" في نُزُلِ الشَّمْسِ الحمراء، عندها ستفترق عن "تانغ ماي"، وفي نفس الوقت يمكن لـ "تشين ماي تشين" أن تتعلَّلَ بزيارتها كي تذهب إلى النُّزُلِ في الليالي التي يذهب فيها "تانغ هان تشينغ" إلى هناك لتناول الطعام. لكن "تانغ ماي" قالت إن هذا النُّزُلِ غير ملائم، و"ليو شياو هونغ" ليست بالمضيفة الجيدة، فلو ذَهَبَت "تشين يوان" إلى هناك من المُحْتَمَلِ أن تُجبرها على العمل في البغاء؛ لذلك عارَضَت الأمر بتصميمٍ شديدٍ، ورغم أن "تشين ماي تشين" قوبِلَت بالرَّفْضِ، إلا أنها في قرارة نفسها استمتعت بكلمات ابنتها حين قالت إن "ليو شيو هونغ" امرأة سيئة؛ لذلك صارت تستخدم تلك الكلمات كسلاحٍ فتَّاكٍ تُشهره في وجه زوجها لتزكِّله به.

ورغم أن "تشين يوان" لم تذهب في النهاية إلى نُزُلِ الشَّمْسِ الحمراء، إلا أن "تشين ماي تشين" لم تُعَدِّ تشكُّ بعدها في شذوذ ابنتها؛ وذلك لأنه بعد فَشَلِ تلك الخطة سَمِعَت أنَّ ابنتها على علاقة حميمة مع "وانغ" قائد فرقة الجيش المُعسكر هناك. وكان القائد "وانغ" دائمًا يستقلُّ السيارة إلى الوحدة الصحية كي يَصْرِفَ الدواء، ويرسل سيارة لاستقبال "تانغ ماي" كي تذهب إلى ثكنة الجيش لتطبيبه. لكن الجميع

يعلم أن التجهيزات الطبية داخل الوحدة الصحية أفضل بكثير منها في الوحدات العسكرية، بالإضافة إلى أن "تانغ ماي" درّست عِلْمَ الأدوية، وهي ليست ماهرةً في الكشف عن الأمراض، وعندما تَهَامَسَ النَّاسُ في الخفاء أن "تانغ ماي" قد صارت عشيقَةَ القائد "وانغ"، أَطْلَقَتْ "تشين ماي تشين" تنهيدةً ارتياحٍ طويلة، فعلى الأقل هذا أثبت أن التَّوَجُّهَاتِ الجِنْسِيَّةَ لابنتها طبيعِيَّةً، إلَّا أنها لم تكن تأملُ استمرارَ علاقتهما؛ فالقائد "وانغ" لديه زوجةٌ وأبناء، وحتى لو طَلَّقَ زَوْجَتَهُ من أجل ابنتها فإنها لا تقبل أن تصير ابنتها زوجةً تاليةً؛ لذا رَكَزَتْ تفكيرها على إزالة عقبة "تشين يوان" كي تتمكَّن من إيجاد فتى الأحلام المناسب لـ "تانغ ماي". وعندما أوشكت "تشين ماي تشين" على الوصول إلى منزل "شين تشي زا"، لم تَشْمَ رائحة الشَّيخِ المعهودة، فعَلِمَتْ أنه لم يفتح دُكَّانَهُ اليوم، وكان "شين تشي زا" حين يذبح خنزيرًا يُكْمَمُ فمه باستخدام جبل رفيعٍ من الليف كي لا يُزِعَجَ الجيرانَ بصراخه؛ لذلك لا يمكن الحُكْمُ من الأصوات إن كان يزاوُل تجارته أم لا، وكان دائمًا يحرق الشَّيخِ عند ذبح الخنازير كي يُزِيلَ رائحتها؛ لذلك يمكن عن طريق الرائحة مَعْرِفَةَ أحوالِ العَمَلِ في حظيرة الذبح.

كان "شين تشي زا" يقف في فناء البيت ويتطلَّع في شروءٍ إلى الملابس المعلقة على الجبل.

ولم يكن يُشبهه أباه في الملامح تمامًا، كان وجهه أباه "شين كاي ليو" طويلًا ونحيفًا، ذا ذقنٍ مُدَبَّبٍ، وعينين ضيقتين، وفتحتا أنفٍ مائلتين للخارج، وله شِفَاهُ رقيقة وأسنان مثل أسنان الفأر، أمَّا شعر رأسه وذقنه كان خفيفًا مُتناثرًا، ويسير بخفَّةٍ مثل الريح، فكانت هيئته بالكامل تشبه يعسوب ذو أقدامٍ دقيقةٍ وشكلٍ عجيب، أمَّا "شين تشي زا" كان يملك وجهٍ مُرَبَّعٍ، وعينين كبيرتين يُظللُّهما حاجبان كثيفان، مع شِفَاهٍ غليظة، وأسنان أمامية كبيرة، وشعرٍ كثيفٍ، ولحية سوداء غزيرة. وجثته ضخمة توحى بالقوة، إذ يمكنه حمل خنزيرٍ بوزن مائتين إلى

ثلاثمائة جين دون أدنى تعب، وقدماه كبيرتين، تُصدران ضجيجًا عند السير، و صوته قويًا وأَجَشَّ. وكانت النسوة يتحدثن في الخفاء أن هذا الأب وابنه لا تربطهما أيُّ صلّةٍ دَمٍ؛ لأنهن في الواقع لم يَجِدن أيَّ وَجِهٍ تَشَابُهٍ بينهما.

أما مسكن أسرة "شين" وحظيرة الذبح فكانت العلاقة بينهما مثل الزوجة الأولى والزوجة الثانية، فرغم أنهما يتشاركان نفس الفناء، إلا أن مكانتهما مُخْتَلِفَةٌ، فالمَسْكَن هو الأساس، مَسَاحَتُهُ كبيرة، ومُرْتَفَع عن الأرض، ومفتوحٌ من الجهات الأربعة؛ لذا فهو فسيحٌ وجيّد الإضاءة، أمّا حظيرة الذبح فكانت تحتلُّ المكانة الثانوية، ذات اتجاه شماليّ جنوبيّ، وسقفها منخفضٌ، ولا تتجاوز مساحتها ثلاثين مترًا مُربَّعًا، وفي منتصفها رفٌّ من خشب الصنوبر طوله يقارب المترين، وعرضه سبعون أو ثمانون سنتيمترًا، كان هو بمثابة منضدة الذبح، أو يمكن القول بأنه سريراً لجُثث الخنازير، فكان مُلَطَّخًا بالدهون ومُلْتَصِقًا به كلُّ ألوان شَعَر الخنازير، وفي الرُّكن الشمالي الشرقي يقبع قِدْرٌ كبيرٌ يستخدم لَغَلِي الماء اللَّازِم لنَزْع الشَّعَر عن الخنازير. وفي الرُّكن الجنوبي الغربي هناك بئرٌ مُغَطَّاةٌ، مياهها سيئة لا تَصْلُح سوى للغسيل وغير صالحة للشُّرب، وكانت الحظيرة لا تُشبه المَسْكَن ذو الباب واحد، بل مفتوحة، وبها بابان: الباب الشرقي، وهو عالٍ من مصراعين، أو يمكن القول بأنه باب الخنازير، حيث تمرُّ عبره الخنازيرُ المَجْهَزة للذبح أو المذبوحة التي قُطِّعت أوصالها؛ لذلك خارج الباب الشرقي هناك مساحةٌ لاصطفاف السيارات، وبركةٌ للرَّوْث تَلْقَى فيها المُخَلَّفَات الناتجة عن ذبح الخنازير كي يُصنَع منها السَّمَاد. والذي يأخذه "شين تشي زا" إلى الحقل كي يزرع به التَّبغ. أمّا الباب الغربي فهو ضيقٌ من ضلْفَةٍ واحدة، وهو البابُ المُخَصَّص للَبَشَر. وعندما لا يكون هناك بَيْعٌ ولا شراء، يُغْلَق البابُ الشَّرْقِيّ بالقُفْل، بينما يظلُّ الباب الغربي مُوَارَبًا حتى يتمكّن "شين تشي زا" من الدخول إلى الحظيرة في أيِّ وقتٍ

لَسَنُ السَّاكِينِ أَوْ تَنْظِيفِ مَنْصَدَةِ الذَّبْحِ. وفي العادة تنتشر في حظائر الذبح رائحةُ الدِّمَاءِ، إِلَّا الحَظِيرَةُ المَوْجُودَةُ بِمَنْزِلِ "شِينِ تَشِي زَا"، وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْرِقُ عِنْدَ الذَّبْحِ طَبَقًا مِنَ الشُّيْحِ، وَيُضَعُهُ تَحْتَ مَنْصَدَةِ الذَّبْحِ، تِلْكَ الرَّائِحَةُ الغَرِيبَةُ لِلشُّيْحِ كَانَتْ تَقْضِي تَمَامًا عَلَى رَائِحَةِ قَتْلِ الخَنَازِيرِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ هُنَاكَ دَائِمًا كَوْمَةٌ مِنَ أَعْشَابِ الشُّيْحِ فِي الرُّكْنِ خَارِجِ البَابِ الشَّرْقِيِّ، فَقَدْ كَانَ المِزَارِعُونَ فِي قَرْيَةِ "لُونِغِ تَشَانِ" يَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَحْتَاجُ الشُّيْحَ؛ لِذَا كَانُوا عِنْدَمَا يُصَادِفُونَهُ أَتْنَاءَ تَخْلُصِهِمْ مِنَ النَبَاتَاتِ الضَّارَّةِ فِي الحَقُولِ يَجْمَعُونَهُ وَيُحْضِرُونَهُ مَعَهُمْ، ثُمَّ يَلْقَوْنَهُ مُبَاشَرَةً فَوْقَ كَوْمَةِ الشُّيْحِ خَارِجِ البَابِ الشَّرْقِيِّ، دُونَ حَتَّى أَنْ يَخْبِرُوا "شِينِ تَشِي زَا".

وَمَا أَنْ شِينِ تَشِي زَا جَزَارٌ؛ كَانَ حُبُّهُ لِحَظِيرَةِ الذَّبْحِ يَفُوقُ حُبَّهُ لِمَسْكِنِهِ، لَقَدْ كَانَتْ الزَوْجَةُ الثَّانِيَّةُ فِي فِنَائِهِ هِيَ الَّتِي تَحْطَى بِالمَكَانَةِ الأَعْلَى، لَكِنْ بَعْدَ مَصْرَعِ "وَانِغِ شِيُو مَانِ"، بَدَأَ فِي التَّعَلُّقِ بِالمَسْكَنِ، فَكَانَتْ الوَسَائِدُ الَّتِي نَامَتْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ، وَالأَغْطِيَةُ الَّتِي تَغَطَّتْ بِهَا، وَالمَلَابِسُ الَّتِي ارْتَدَّتْهَا، وَحَتَّى الأَحْذِيَّةُ الَّتِي انْتَعَلَتْهَا كُلُّهَا تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَتُهَا، وَحِينَ يَغْلِبُهُ الشَّوْقُ لَهَا يَعْجَزُ عَنِ مَنَعِ نَفْسِهِ مِنْ تَشْمُّمِ كُلِّ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، أَمَّا الأَدْوَاتُ الَّتِي اسْتَخْدَمْتَهَا فِي المَنْزَلِ، مِثْلُ: مِئْفَضَةِ رِيَشِ الدَّجَاجِ، وَالمِلكِئَسَةِ، وَالمِمْسَحَةِ، وَالجَارُوفِ، وَفَرشَاةَ تَنْظِيفِ القُدُورِ، كُلُّهَا صَارَتْ كَخَطُوطٍ مِنْ دَمُوعِ الفِرَاقِ تُمَزَّقُ قَلْبَهُ، وَبِدُونِهَا أَصْبَحَتْ كُلُّ هَذِهِ الأَشْيَاءِ أَشْبَهَ بِالأَثَاثِ الجِنَائِزِيِّ، أَمَّا أَكْثَرُ مَا لَا يَطِيقُهُ فَهُوَ حَبْلُ الغَسِيلِ الَّذِي كَانَ يَمْتَلِئُ بِمَلَابِسِ البَيْتِ الرَّأهِيَّةِ، فَيَصِيرُ مِثْلَ قَوْسٍ قُرْحٍ يَسِرُّ النَّاطِرِينَ، أَمَّا الآنَ فَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ سِوَى مَلَابِسِهِ هُوَ، وَالَّتِي تُشْبِهُ الغَيُومَ السُّودَاءَ الَّتِي تُطْبِقُ عَلَى رَأْسِهِ، فَالأَيَّامَ بِلَا نِسَاءٍ هِيَ فِي الحَقِيقَةِ بِلَا حَيَوِيَّةٍ وَلَا بَهْجَةٍ.

عِنْدَمَا دَلَقَتْ "تَشِينِ مَائِي تَشِينِ" إِلَى المَكَانِ وَمَلَحَهَا "شِينِ تَشِي زَا" اعْتَقَدَ أَنَّهَا جَاءَتْ مِنْ أَجْلِ أَقْدَامِ الخَنَازِيرِ؛ فَهِيَ تُحِبُّ أَكْلَ تِلْكَ

الأشياء، واشتهرت بذلك في القرية، والسبب هو تجميل البشرة؛ لذا بادَرها بالقول إنه لم يذبح خنازير اليوم.

لكن "تشين ماي تشين" قالت إنها لم تأت اليوم من أجل أقدام الخنزير، بل من أجل إنسان.

فكّر "شين تشي زا" بأن أمر أقدام الخنزير يمكن مناقشته على الملأ في الفناء، لكن أمور البشر دائماً مُعقّدة؛ ويتوجّب الدخول إلى الغرفة للحديث، فطلّب منها الدخول، وعندما همّ بصنع الشاي لها أشاحت بيدها قائلة: "لَف لي سيجارةً من التّبغ الأصفر وأشعلها بنيران الشّمس؛ فأنا مُتعطّشة لها".

تناول "شين تشي زا" السّلة المصنوعة من لِحاء البتولا التي يضع فيها التّبغ الأصفر بجوار السرير، وصنع قِرطاساً من التّبغ باستخدام ورق جرائد قديم مقصوصٍ شَرائِطَ، ثم خرج من الغرفة وتردّد قليلاً قبل أن يتّجه إلى حظيرة الدّبح ويشغل اللّفاة باستخدام الكبريت، وعاد إلى الغرفة وأعطاه لـ "تشين ماي تشين" التي سحبت منها نفّساً عميقاً ثم قالت: "يا للذّة"، وقبّضت على السّيجارة بيدها اليسرى، أمّا يدها اليمنى فتحسّست السّرير والمنضدة والنافذة مثل جهاز الاستشعار، ثم فردّتها أمام "شين تشي زا" قائلة له: "انظر، إنّ التّراب كثيرٌ بالغرّفة. إن منزلاً بلا امرأةٍ يجعل الأيامَ مَمْرُ رماذيّةٍ كئيبةٍ بلا بهجة".

فسارَع "شين تشي زا" بمناولتها منشفةً مُبلّلةً.

تدلّت السّيجارة من فم "تشين ماي تشين" وهي تمسح الغبار الذي من يديها، بينما بصّرها مُركّزٌ على الجرائد القديمة المكوّمة أعلى الصّوان المكوّن من خمسة أدرّاج، وهي تقول: "كما أرى لم يتبقّ الكثير من الجرائد، سأرسِلُ فيما بعد أحدهم بِرِبطَةٍ منها، فعلى أيّ

حال الجرائد المشتركة بها حكومة القرية كلها مُرسلة من الجهات العليا ولا أحد يقرؤها، من الأفضل قضاها وصنع لفائف التبغ منها". فتنهَّد "شين تشي زا" قائلاً: "لقد رحلت "شيو مان"، ولم تعد تلفُ سجائر التبغ الأصفر، فما حاجتي للجرائد؟".

كانت "تشين ماي تشين" تعلم أنه يُدخن الغليون، ولا حاجة له لاستعمال الجرائد؛ لذا أطلقت زفرةً حارةً، وقالت: "عندما جئتُ إلى هنا في المرة السابقة، كانت زوجتُك تجلس في الفناء تلفُ التبغ وتمزح معي قائلةً إن السماء تعلم أنها لا تعرف قراءةً إلا القليل من الرموز، لذا حكمتَ عليها أن تلفُ التبغ في الجرائد لكي تتعلم القراءة وهي تُدخن. وناولتني السجائر التي لفتها لثريني الرموز الموجودة على أجسادها، وكان من بين تلك الرموزِ رمزُ "الفرح"، وما إن أخبرتها بذلك حتى أمسكتَ بتلك السجارة وسحقتها بين يديها وغيّرتَ ورقةً أخرى ولفتها من جديدٍ قائلةً إن ابنها لم يتزوج بعد؛ لذا يجبُ إبقاء رمز "الفرح" له، لا يمكن تدخينه".

فدعَكَ "شين تشي زا" أنفه، وقال: "ما الخطأ أو الصواب في الرموز؟ لو دخنتُ رمزَ "الحزن" أفلن يتبقّى إلا الفرح؟".

فوافقته "تشين ماي تشين"، قائلة: "صحيح، لقد أصبتَ كيدَ الحقيقة، يجبُ على الإنسان أن يتقبلَ قدره، فلو كان قدرُك أن تكون بلا ذريرةٍ فلا تطلبها بالقوة، ولو كان قدرُك ألا تعيش مع رفيقِ دربك حتى يشيبَ رأسك، بينما أنت تتشبثُ بيده بقوة؛ فهذا مضيعةٌ للوقت، وملكُ الموت إن أراد أن يفرقَ اثنين فلا بُدَّ لهما أن يفترقا، لكنَّ النصيب المكتوبَ في القدر هو أن تكونا معًا في النهاية حتى لو باعدتَ بينكما بحارٌ وجبالٌ وممرٌ بماصائبٍ وكوارثٍ كثيرة، إن الزوجين الحقيقيين لا يفترقان، بالضبط مثلك أنت و"تشين يوان"."

فتجمّد "شين تشي زا" في مكانه، وسعل مرّتين، وجحّظت عيناه، وحدّق لِبُرْهَةٍ في "تشين ماي تشين" ثم استدار وسار بخطواتٍ واسعةٍ نحو الفناء كأنّه يهرب من كارثةٍ تاركًا إيّاها وحيدةً داخل الغرفة. وعندما عاد ثانية كان يعتمر على رأسه قُبْعَةً رماديّةً زرقاء جديدة، وبفمه يتأرجح الغليون.

وعندما رأت "تشين ماي تشين" هدوءه وهو يُدخّن اعتقدت أنه قد اقتنع بالأمر، فاستطرّدت قائلةً إنه بعد إتمام الجِدَادِ مائةَ يومٍ على "شيو مان" ستجهّز لهما الزفاف، وستكون هي بمثابة أمٍّ لـ "تشين يوان"، وبالطبع ستجهّز لها كلّ تلك الأشياء. ثم سألت "شين تشي زا": "هل تحبّ إضافة أيّ شيء للمنزل؟ هل تحتاج لتغيير تلفازٍ مُلوّنٍ كبير، أم تريد غسالة ملابس أوتوماتيكيّة بالكامل؟".

فهزّ "شين تشي زا" رأسه رافضًا وهو يُطلق صوتًا غير مفهوم.

فاعتقدت "تشين ماي تشين" أنه لا يريد تلفازًا مُلوّنًا ولا غسالة ملابس، فقالت: "إذن سأشتري لك درّاجة ناريّة، يابانيّة أصليّة؛ فدرّاجتُك تلك استخدمتها لعشرة أعوام تقريبًا، أليس كذلك؟ لن أتحدّث عن استهلاكها العالي للبنزين، لكن انظُرْ إلى طلائها الذي تساقط حتى صارت كالمصاب بمرض الذبّبة الحماميّة، وأصبح منظرها رثًا، بالإضافة إلى أن كُرسِيّها قد بَلِيَ وصار شبيهاً بعُشّ الدّبابير".

لكن "شين تشي زا" هزّ رأسه رافضًا مرّةً ثانية.

فاعتقدت "تشين ماي تشين" أنها قد مسّت مَحْظورًا عندما ذكّرت أنّ الدّراجة الناريّة قادمة من اليابان، فنصّحته قائلة: "مهّمًا كان هؤلاء اليابانيون أوغادًا، فإن الأشياء التي يصنعونها شديدة التّحمّل، ويصعب أن يظهر فيها عيوب؛ فلا تُوجّه غضبَكَ للأشياء".

هنا لم يجد "شين تشي زا" بُدًّا من أن يقول: "لا أستطيع أن أقبلَ عَرَضَ الزّواجِ هذا".



"لماذا؟" أصاب القَلْقُ "تشين ماي تشين"، وأضافت: "هل تَعِيبُ عليها كونها بلهاء؟".

فلم يَرُدَّ عليها، بل سَحَبَ أنفاسًا من غليونه لتَصُدُرَ عنه قَرَقَعَةٌ مُتَّصِلَةٌ.

فَعَدَّدَتْ "تشين ماي تشين" مزايا الزَّوْجِ من "تشين يوان"، حتى إنها تَحَدَّثَتْ عن مزايا مُضَاجَعَةِ فتاةٍ بلهاء؛ لإِغْوَاءِ "شين تشي زا"، إلا أن كلَّ هذا لم يَهْزُ شَعْرَةً مِنْهُ، فَغَضِبَتْ إلى حَدِّ الجُنُونِ، وحينما هَمَّتْ بِمِغَادِرَةِ مَنْزِلِهِ، تَنَاوَلَتْ الجِرَائِدَ القَدِيمَةَ المَوْضُوعَةَ أَعْلَى الصُّوَانِ، وَلَفَّتْهَا كُفَّهَا وَأَلْقَتْ بِهَا فِي قَلْبِ المَوْقِدِ وَأَشْعَلَتْ فِيهَا النِّيرانَ.

إلا أن هذا لم يُثِرْ غُضَبَ "شين تشي زا"، لقد كان في حَاجَةٍ لِقَبَسٍ مِنَ النِّارِ، وبمِجْرَدِ أَنْ خَرَجَتْ "تشين ماي تشين" مِنَ البَابِ، خَلَعَ قُبْعَتَهُ، وَأَلْقَاهَا دَاخِلَ المَوْقِدِ كِي تَحْتَرِقَ بِمَا تَبَقَّى مِنَ نِيرانِ الجِرَائِدِ.

تلك القُبْعَةُ أَهَدَتْهَا لِه العَمَّةِ "دان سيه" عِنْدَمَا خَرَجَ إِلَى الفِنَاءِ كِي يُشْعِلَ غُليونَهُ، وَعِنْدَمَا سَارَتْ تِجَاهَهُ، لَمْ يَتَبَيَّنْ أَنْ مَا بِيَدِهَا قُبْعَةٌ، نِظْرًا لِلضَّوْءِ الَّذِي يَأْتِي مِنَ خَلْفِهَا، وَلَمْ يَدْرِكْ أَنَّهُ قَدْ تَمَّ "تتويجه" إلا عِنْدَمَا وَصَلَتْ أَمَامَهُ وَرَفَعَتْ يَدَهَا وَأَلْبَسَتْهُ إِيَّاهَا عَلَى رَأْسِهِ. ثُمَّ هَمَسَتْ بِرِقَّةٍ: "مَنَاسِبَةٌ تَمَامًا"، وَاسْتَدَارَتْ وَانصَرَفَتْ. وَهنا أَدْرَكَ "شين تشي زا" أَنَّهَا بِكُلِّ تَأْكِيدٍ قَدْ رَأَتْ "تشين ماي تشين" وَهِيَ تَدُلُّفُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَاسْتَنْتَجَتْ سَبَبَ مَجِيئِهَا؛ لِذَا سَارَعَتْ عَلَى عَجَلٍ كِي تُعْرِبَ لَهُ عَنِ حُبِّهَا.

أَتَتِ العَمَّةُ "دان سيه" إِلَى مَنْزِلِهِ مَرَّتَيْنِ بَعْدَ مِصْرَعِ "وانغ شيو مان"، مَرَّةً مُسَاعِدَتِهِ فِي غَسِيلِ المِلابِسِ، وَأُخْرَى مُسَاعِدَتِهِ فِي تَنْظِيفِ المَسْكَنِ، إلا أن "شين تشي زا" رَفَضَ مُسَاعِدَتَهَا شَاكِرًا، لَقَدْ كَانَ تَائِهًا تَمَامًا وَجِثْمَانِ "وانغ شيو مان" لَمْ يَبْرُدْ بَعْدُ، فَأَتَى لَهُ بِالْبَالِ الرَّائِقِ لِلتَّفَكِيرِ فِي تِلْكَ الأَشْيَاءِ، وَحَتَّى لَوْ فَكَّرَ فِيهَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِنَّ العَمَّةَ "دان

سياه" ليست هي الصنف الذي يُفضّله، كان مُتعاظفًا معها، بل إنه فكّر في أن يجعل "دان شيا" مُساعدًا له في حظيرة الذبح فيما بعد، ويُعطيه ألفًا أو ثمانمائة يوان كلّ شهر تساعدُها على تخفيف أعبائها، لكن أن يتزوَّجها فهذا أمرٌ مستحيل؛ فهو لا يحبُّ جبهتها العريضة ولا شَفَتَيْها الرِّقيقتين، وملامحها الباردة وهل يصلح الزواج من امرأة دون السَّعيّ خلف الدفاء؟ كما أنه لا يحبُّ استغلالها لـ "دان شيا" أثناء بيعها الفطائر في السُّوق الجنوبية، فالجُملة المُعلّقة على فمها دائماً هي: "اشتروا فطائرَ منِّي، اعتبروها عَطْفًا على ابني الأبله"، هو لا يحب النسوة اللَّاتي لا يتمتَّعن بالاحترام لأنفسِهِنَّ، حتى لو كُنَّ فقيرات، بالإضافة إلى أنها رأت "شين شين لاي" وهو يغتصبُ "أن شويه أر"، لكنَّها لم تَمْتعه، ولم تصرخ طلبًا للمُساعدة كي يَمْتعه أحدُهم؛ لذا شعر "شين تشي زا" بأنها قاسيةُ القلب، لكنَّ تفسيرها لهذا الأمر الذي قالته للنَّاس كان أنها سمِعت من الكبار منذ صِغَرها أن إخافة الحيوانات أثناء مُمارستها للجنس سيَجلب على الفاعل مصيرًا مشؤومًا. في الحقيقة كانت هناك امرأة تختبئ طوال الوقت في قلب "شين تشي زا"، واسمها "جين سو تشوو".

القرية الثالثة والقرية الخامسة هما قريتان تابِعَتان لقرية "لونج تشان". و يبلغ تعداد سُكَّان القرية الثالثة أكثر من أربعين أسرة، بينما عدُّ سُكَّان القرية الخامسة حوالي عشرين أسرة فقط. وتقع القرية الثالثة في سهل بين الجبال، أرضها خصبة، وشمسها ساطعة، وتجاور نهر "جيلوا"، أمَّا طَقْسُها فهو رَطْبٌ ومُناسبٌ لنموِّ المحاصيل؛ لذا فالقمح وفول الصويا المزروعان هناك يتميَّزان بجودة عالية، وصُنِّفت من قِبَل منطقة "سونغشان" باعتبارها قاعدةً خاصَّةً لتوفير الحبوب. وهناك ثلاث خصائصٍ مُميِّزة للزُّيوت المُستخرَجة من الحبوب في هذه القرية، الرِّزاعة بدون مُبيداتٍ، والحِصادُ اليَدويُّ، والتصنيع بالطُّرق التَّقليديَّة؛ ولذلك فمُنْتَجات الدَّقيق من علامة "يوباى"، ومنتجات

زيت الصويا من علامة "ليوجين باي" قد جعلت تلك القرية غنيّة  
وذائعة الصيت.

كانت "جين سو تشوو" هي مؤسّسة علامة "ليوجين باي" لزيت  
الصويا؛ فهي تملك أكبر مَعْصرة زيوت في القرية الثالثة، وتستخدم  
فيها الطريقة اليدويّة للعصر، ويعمل معها أربع أسر. وهناك بالمعصرة  
عربة نقل كبيرة، وعربتان صغيرتان، وسبعة أو ثمانية رجال أشداء. وفي  
موسم عصر الزيوت تعمّ أرجاء القرية رائحة زيت الصويا؛ لذلك لا  
تحتاج النساء لوضع العطور، ومع ذلك تبتعث من أجسادهنّ دائماً  
رائحة عطرة.

"جين سو تشوو" أصغر من "شين تشي زا" بأربعة أعوام، وهي  
في الأصل من القرية الخامسة، وعندما تزوّجت "لي لاي تشينغ" من  
القرية الثالثة كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط. وكان سبب  
زواجها المبكر هو فقر أسرتهما؛ فقد عجزت أخوتها الأكبر منها عن  
تحمل تكاليف الزواج؛ لذا استخدمت أسرتهما مهرها ومهر أختها  
الكبيرة كي يتكفلوا بمصاريف زواج أخوتها الأكبر. لكن "جين سو  
تشوو" لم تكن قد وصلت إلى سن الزواج وقتها؛ لذا اكتفت هي و"لي  
لاي تشينغ" بإقامة مأدبة الزفاف، ولم يستخرجاً وثيقة زواج، ولم تحصل  
على الوثيقة إلّا بعد أن أنجبت ولداً وبنّاً، لكن بعد أن كبر ابنها  
وابنتها طلبت الطلاق؛ ممّا جذب انتباه الجميع وقتها.

كان "لي لا تشينغ" هو الابن الوحيد لأسرته؛ لذا تميّز بحِدّة الطبع  
والعناد، وكان أكثر ما يحبّه هو مصارعة الكباش، فكان زواج "جين  
سو تشوو" منه يعادل الدخول إلى قطيع كباش، حيث كان لدى أسرته  
حوالي مائة رأس من الغنم. وقد حافظ سُكّان القرية الثالثة على  
تقاليد مصارعة الكباش؛ لذا تجد في كل أسرة كباشاً أو اثنين مُخصّصين  
للمصارعة، وفي الربيع بعد موسم الزراعة يختارون يوماً جيّد الطقس

ويقودون كِباشَهُم ويجمعون في ميدان لجنة القرية الصَّغِيرِ ي  
يتنافسوا على الفائز في المصارعة، وكان كبش أُسْرَة "لي لاي تشينغ"  
يحصل على المركز الأول كلِّ عامٍ تقريبًا. وبسبب حُبِّه الشديد لمصارعة  
الكِباش كانت العلاقة بين "لي لاي تشينغ" و**كِباشِه** أكثرَ حَمِيمَةً من  
علاقته بالبشر، فكان يستخدم كافة الطُّرُق والوسائل كي يَسْتَفِزَّ الكِباش  
ويُحَفِّزَ لديها روح القتال، وبالتدريج تحوَّلت مُصارَعَةُ الكِباش في القرية  
الثالثة إلى عيدٍ، ومن وقتها صار سُكَّانُ قرية "لونغ تشان" يأتون  
خصيصةً للاستمتاع بمُشاهدَتِها، وبذكاءٍ منه قرَّر "تانغ هان تشينغ"  
نقلَ مسابقات مُصارَعَةِ الكِباش إلى قرية "لونغ تشان"، وتسميتها بـ  
"عيد مُصارَعَةِ الكِباش بقرية لونغ تشان"، وفي اليوم الخامس من  
الشهر الخامس بالتقويم الصِّينِيَّ من كلِّ عامٍ، يأتي مُحبُّو مُصارَعَةِ  
الكِباش من القرى المجاورة، ساجِبِينَ معهم كِباشَهُم إلى قرية "لونغ  
تشان" للمشاركة في المسابقات، أمَّا زواج "جين سو تشوو" فقد خُرِّبَ  
في ذلك العيد.

ذات مرة خسر كِبَشُ "لي لاي تشينغ" أمام كبش "شو دا فا" من  
القرية الخامسة. وفي السَّنة التي تليها جاء "شو دا فا" بكِبَشِه الحائز  
على المركز الأول، فرآه "لي لاي تشينغ" لا يزال مُحْتَفِظًا بهيبته وقُوَّته،  
وخشي أن يخسر كبشُه للعام التَّالِي على التَّوَالِي، فانتَهزَ فرصةَ انشغال  
الجميع وسقى كبش "شو دا فا" دواء يسبب الإسهال بينما هو في  
السَّاحة الخَلْفِيَّة، وكانت النَّتِيْجَةُ كما هو مُتَوَقَّع أن كبش "شو دا فا"  
ظَلَّ يتغوَّط بلا توقُّف بمجرد دخوله إلى ساحة المصارعة؛ فخرَّسَ دون  
قتال، واقتنص كبش "لي لاي تشينغ" المركزَ الأوَّل. وبينما كان "شو دا  
فا" يُغادرُ السَّاحة وهو مُطأطِئُ الرَّأسِ مهموم القلب، أخبره "شين  
كاي ليو" هامسًا أن أحدهم دَسَّ لكِبَشِه دواءً، وهذا الدَّواءُ صرَّفَه هو  
بنفسه. فقد كان "شين كاي ليو" يفهم في الأعشاب الطبية الصينية،  
ودائمًا يصنع وَصَفاتِ الدَّواءِ بنفسه، ويعرف أن الأعراض التي تظهر

على الحيوانات بعد تناولها للدواء الذي يُحضّره مُخْتَلِفة عن تلك الأعراض التي تظهر لو تناولتَ دواء كتبه الطبيبُ البيطريُّ، وهو فقط الذي يمكن أن يُلاحِظها. وقد جاء "لي لاي تشينغ" واشترى منه الدواء المستخدم قبل عيد مُصارعة الكباش بثلاثة أيام.

كان "شو دا فا" من البداية يُضمر كُرْهاً في قلبه تجاه "لي لاي تشينغ"؛ فقد كان يحب "جين سو تشوو"، إلا أنه وبسبب فقر عائلته لم يَسْتَطِع تدبير مَهْرها؛ لذا لم يكن أمامه سوى مُشاهدة الفتاة التي يُحبُّ وهي تتزوّج من "لي لاي تشينغ". ورغم أن "شو دا فا" تزوّج بعدها إلا أنه ظلّ دائم المُقارَنة بين زَوْجته وبين "جين سو تشوو"، وما إن يقارن حتى ينفطر قلبه؛ فزوجته لا تضاهي "جين سو تشوو" في أيِّ جانب؛ لذا ما إن أخبره "شين كاي ليو" بالحقيقة حتى سارع بإعلانها على الملأ في ساحة المُصارعة، ورغم أن "لي لاي تشينغ" لم يَعْتَرِف بفِعْلَتِهِ، لكن كان واضحاً للجميع أن كبش "شو دا فا" قد تعرّض لمكيدة؛ ولذلك طلبت "جين سو تشوو" الطلاق من "لي لاي تشينغ"، وقالت إن الرّجل يمكن أن يخسر، لكن لا يمكنه استخدام وسائل دينية لتحقيق الفوز، وهي لا يمكنها العيش مع رَجُلٍ بتلك الدناءة. إلا أن "لي لاي تشينغ" لم يوافق على الطلاق، فاضطرت "جين سو تشينغ" إلى رفع قضيّة في محكمة الشّعب بمحافظة "تشينغشان". حاولت المحكمة الإصلاح بينهما عدّة مرّات، وتوسّط ابنها وابنتها كي يطلبا الصّفح منها عن أبيهما، إلا أنها لم تتزحزح، وفي النهاية وافق "لي لاي تشينغ" على الطلاق في ثورة غضبٍ، قائلاً إنّه يصعب إيجاد حمارٍ ذي ساقين، لكنّ الأرض مليئة بالنساء ذوات السّاقين، فلا أحد سيموت إن فارق إحداهن. وبعد الطلاق افتتحت "جين سو تشوو" معصرة زَيْتٍ، وازدهرت تجارتها مع الوقت، أمّا "لي لاي تشينغ" فقد ظلّ يُربّي الأغنام، وكنوعٍ من الانتقام جاء بأرملته من قرية "لوجانغ"

في نفس السنة التي تمَّ فيها الطَّلَاق، لكنهما لم يستَخْرِجَا وثيقةَ زَواجٍ، وعاشا سوياً دون زواج.

كانت بواقى عصر الزيت عَلفاً جيِّداً للبهائم؛ لذا افتتحت "جين سو تشوو" حظيرةً للخنازير بجوار المعصرة. وكان هناك الكثير من مُربي الخنازير في القرية الثالثة والقرية الخامسة؛ فكان "شين تشي زا" دائماً يقود سيارته إلى القرى لشراء الخنازير وبيعها بعد ذَبْحِها للأسواق الزراعية في محافظة "لونغ تشان"، أو لتُجَار اللحوم في السُّوق الجنوبية بقرية "لونغ تشان"، ويكسب فارق السُّعر، وفي كلِّ مرَّة يذهب فيها للقرية الثالثة لشراء الخنازير لا ينسى الذهاب لمَعصرة زيوت "جين سو تشوو" ملء إبريقٍ من الزيت. ذلك الإبريق صغيرٌ لا يَسَعُ سوى خمسة جين من الزيت، إضافة إلى حُبِّه للزيت؛ فكان يضطرُّ للمجيء مرَّةً كلَّ عشرة أيَّامٍ أو نصف شهر. ولم تفهم "وانغ شيو مان" المنطق من ذلك؛ لأنها اشترت له من قَبْلُ إبريقاً يَسَعُ عشرة جين من الزيت، لكنه قال إن الزيت الطَّازج لذيذُ المذاق، وظلَّ يستخدم الإبريق الصغير؛ وبذلك يمكنه الذهاب لمعصرة الزيوت لمِرَّاتٍ أكثر.

وبعد وفاة "وانغ شيو مان"، ظلَّ "شين تشي زا" لفترةٍ طويلة لا يذهب إلى القرى لشراء الخنازير؛ فحَسِبَتْ "جين سو تشوو" أن يَدخُل في نوبةٍ اكتئابٍ بسبب ما تعرَّضَ له؛ فنَوَتْ انتهاء فرصة ذهابها لإيداع نقودٍ في الوحدة التأمينية بقرية "لونغ تشان" لكي تزوره في منزله، لكن لم تتخيَّل أن يأتي "شين تشي زا" إليها وقتَ الغروب، ومن خلف النَّافِذة رآته ولم تَكُن معه السيارة؛ فعرَفَتْ أنه لم يأتِ لشراء الخنازير، فازدادت سُرعةً ضربات قلبها، وما إن رآه شابٌّ مِمَّن يُنقُّون حبوبَ الصُّويا في الفِناء حتى صاح قائلاً: "يا إلهي، لقد نحفت كثيراً يا أخ "شين"، فلتخرُجْ من حُزْنِكَ ولتأكُلْ ما يجب عليك أكله، ولتشرَبْ

ما يجب عليك شربه، ولتشتري الخنازير كسابق عهدك، الحياة لا يمكن أن تتوقف".

أما "جين سو تشوو" فقد دفعت باب المعصرة وسارت إلى الفناء. ورأت "شين تشي زا" تحت أشعة الشمس الغاربة وقد نحف كثيرا بالفعل، لكن نحافته جعلته أكثر حيوية عن ذي قبل، فقد صار وجهه مستقيماً، وبدأ أكثر شموخاً، وامتلات عيناه بشيء جديد، ألا وهو رقعة ممتزجة بحزن يهز المشاعر. وقد تفحصها "شين تشي زا" بنظراته فاكتشف أنها نحفت هي الأخرى، وكذلك امتلات عينها بشيء جديد، كما لو أن هناك نجومًا تتلألأ بداخلهما، ولم تعد كالماضي ينقصهما البريق رغم صفائهما.

لم يكن "شين تشي زا" يرغب في الذهاب إلى معصرة الزيت بتلك السرعة، لكن استمرار "تشين ماي تشين" والعممة "دان سيه" في الذهاب إلى منزله أصابه بالتوتر، وظل خيال "جين سو تشوو" يتراقص دومًا أمام ناظره، وبعد أن أحرق تلك القُبعة، استحم وحلق دقنه وارتدى ملابس نظيفة، ثم ركب دراجته النارية إلى القرية الثالثة. وكان من المفترض أن يصل مبكرًا، لكنه بعد أن وصل إلى منتصف الطريق تذكر "وانغ شيو مان"؛ فترجع عمًا في رأسه واستدار عائداً، ودخل إلى حظيرة الدبج وجرح إصبع يده اليسرى لتسيل منها بعض الدماء، ثم هدأ قليلاً، وبعدها التقط إبريق الزيت ووضعه على المقعد الخلفي من الدراجة النارية، وهمس باسم "وانغ شيو مان" بصوت خفيض، وأخبرها أنه لم يكن يرغب في الذهاب إلى المعصرة، لكن إبريق الزيت أصبح فارغًا، ولا بُد أن يذهب ملئه، ويُمكنها لو رغبت أن تذهب معه.

وصدق بالفعل أن "وانغ شيو مان" صاحبته في الرحلة؛ وذلك لأنه بعد أن ألقى التحيّة على "جين سو تشوو" استدار عائداً ليجلب

إبريق الزيت، فاكتشف زهرة فُلِّ بَرِّيِّ ملتصقة بالعجلة الخلفية  
للدراجة النارية.

مرّ في طريقه بمنطقة عُشبيّة ازدهرت فيها الزهور البرّيّة، هو يعلم  
أن "وانغ شيو مان" تحبُّ الزهور؛ لذا تعمّد المرور من منتصفها،  
وسار مسافةً كي يعطيها فرصة التمتع بالزهور، ولم يتوقّع أن تلتصق  
بعجلة الدراجة النارية الزهرة الأحبُّ لقلب "وانغ شيو مان"، ذلك  
الفُلُّ البرِّيُّ ذو اللون الأحمر الناري جعله يُفكّر في ذلك المشهد منذ  
سنواتٍ عديدة عندما جاءت "وانغ شيو مان" بحثًا عنه، ويتذكّر  
ليلتها الأولى؛ فاختلج قلبه، وشعر بالخجل من نفسه، فلم يجرؤ  
على البقاء طويلًا، بل غادر المعصرة على عجلٍ بمجرد أن ملأ إبريق  
الزيت.

مكتبة  
t.me/soramnqraa





## 9

### أَنْشُودَةُ أَبْطَالِ نَهْرِ "جِيلُوا"

يمتلك نهر "جيلوا" الحوض الأكبر في منطقة "سونغشان"، ويبلغ طوله أكثر من أربعمائة كيلومتر، ونظرًا لوقوعه على الحدود الشمالية؛ لذا تصل مُدَّة تَجْمُده إلى أكثر من مائة يوم؛ فيبدو أثناء فصل الشتاء كما لو أنه صار رجلاً أعمى، حيث يتغطَّى بطبقة سميكة من الجليد، وبمجرد أن يزول حُكْمُ البَرْدِ القارسِ حتى ينفذ عن نفسه الجليد ويمتلئ بروح الربيع بمساعِدةٍ من الرياح الدافئة، وذلك في منتصف أو نهاية شهر أبريل، وعندما تمرُّ ألواح الجليد على سطح مياه النهر مثل الزهور المُبشِّرة بِمُقَدِّمِ الربيع، تتفتَّح أعين نهر "جيلوا"، العميقة والصافية واللامعة؛ فمن بين أنهار الصين يمرُّ بمناطق لا يسكنها الكثير، ويشغل مساحةً واسعة؛ فلم يتلوَّث بِمُخَلَّفَاتِ الصناعة، ولم تنتشر المداخن التي تنفث الدُخان الأسود على ضفَّتَيْهِ، وإمَّا كل ما حوله هي قرى هادئة.

هذا النهر في بدايته هادئٌ وضيِّقٌ وضحلٌ، أشبهُ بالفتاة الصغيرة الخجول، ولكن في منتصفه يتحوَّل إلى فَحْلٍ مُمتلئٍ بالعنفوان، فتصير صفحته واسعةً، وأمواجه مُتقلِّبةً، وهدير مياهه يصمُّ الآذان، فيبدو مهيبًا، وفي نهايته يصير كالكهل الذي أنهكته سنواتُ العمر، فتري مياهه عميقةً وهادئةً، وفي الليالي التي تشتدُّ فيها الرياح تبدو مياهه المحصورة بين الجبال الشاهقة كأنها تشدو بأنشودة حُبِّ حزينة. ومجرَّد حلول فترة نشاط نهر "جيلوا"، تصير السُّحب ضيفًا دائمًا بين أحضانه.

السُّحب في منطقة "سونغشان" ذات أشكال مُتعدِّدة، منها ما يُشبه الزهور، ومنها ما يُشبه الصقر، ومنها ما يشبه الأبقار والخراف، ومنها ما يُشبه المنازل، ومنها ما يُشبه الأطباقَ وقُدورَ الطَّهي، وتلك السُّحب تتغيَّر أشكالها بسرعة، ففي لمح البصر تتبدَّد السُّحب التي تُشبه الزُّهور، لتصير كالحبوب المنثورة على الأرض، ويصير الصَّقر سلَّةً كما لو كان أحدهم يرغب في حَمَلها لِقَطْفِ بعض الثُّمار، والسُّحب الشَّبِيهة بالمنازل تتحوَّل من طابقيِّ واحدٍ إلى طابقيْن وثلاثة؛ ممَّا يجعل المرء يتعجَّب من سرعة السماء في بناء المنازل، أمَّا تلك التي تبدو مثل طبق مَلاعٍ بريقي فضيِّ تتحوَّل إلى مزهريَّة طويلة العُنُق، وعندما تنعكس صورة السُّحب على مياه النهر تنقُض عليها الطيور التي تدور في السَّماء لتضرب المياه بأجنحتها برفقٍ، هُم في الغالب لا يفهمون كيف وصلَّت مُعجزاتُ السماء إلى الأرض.

تقع قرية "لونغ تشان" عند مَصَبِّ نهر "جيلوا"، ووحدة الجيش المتواجدة على بُعد أكثر من خمسين لي من قرية "لونغ تشان" بالقرب من القرية الثالثة، تقع أيضًا في مَصَبِّ النهر.

وللوحدة العسكرية رقم عسكري مُسلسل، هذا الرقم لا يُعلَن للمدنيين، والمدنيون القريبون من الوحدة لا يهتمُّون بهذا الرِّقم، بل

يدعونها "لواء الثعالب البرية"؛ وذلك بسبب كثرة الثعالب البرية التي تظهر في منطقة الوحدة العسكرية، وإطلاق الناس تلك التسمية يحمل في طياته أملاً جميلاً، فلو حدث نزاعٌ على الحدود في يومٍ من الأيام فإن لواء الثعالب البرية سيقاتل بشجاعةٍ ليجتث كلَّ الأعداء؛ فالثعالبُ ذكّيةٌ وفي نفس الوقت غريبة الأطوار، وتلك الوحدة منذ تأسيسها وهي متواجدة في ذلك المكان. كانت في البداية مُكوّنة من كتيبتين، بعدها صارت فوجاً، أمّا الآن فهي في حجم لواء. فما هو عددُ الجنود وحجم المُعدّات في اللواء؟ هذا السؤال كان دائماً موضوعَ الحديث المفضّل لدى العامّة أثناء احتساء الشاي بعد تناول الطعام. لقد اعتبروا كلَّ الجبال القريبة من الوحدة مناطقٍ عسكريّة، فمنهم من قال إن الجبلين القريبين من النهر قد تمَّ إفراغهما بالكامل من الداخل ووضع المُعدّات العسكريّة بداخلهما، ومنهم من قال بأنه في منتصف الليل سمع صوتاً أشبه بهزيم الرعد، لكنّ القمر كان واضحاً في كبد السماء، والجو صافياً إلى أبعد الحدود، بالتأكيد كان ذلك الصوت هو صوت الوحدة العسكرية وهي تنقل الدبّابات تحت جُنح الظلام. وبالقرب من فرقة الثعالب البرية كان هناك كهفٌ لا يدخله أحد، وهناك قصتان حول أسباب تشكّل ذلك الكهف، القصة الواقعية هي أن الجنود حفروه في بدايات إنشاء الدولة لتخزين الأسلحة والذخائر، بعدها تخلّوا عنه بسبب كثرة الثعابين التي تأتيه صيفاً هرباً من القيظ، وتأتيه شتاءً للبيات الشتويّ فصار الكهف مرثعاً للثعابين، وانسدَّ مدخله بشكلٍ طبيعي بالأشجار والشّيح البرّي التي نمت عبر سنواتٍ عديدة. أمّا القصة الأسطوريّة فهي ذات علاقة بالثعابين أيضاً، حيث تقول إن ثعباناً ضخماً بمنطقة "سونغشان" كان أكثر ما يخشاه هو الضوء؛ لذلك أمرَ الثعابين الصغيرة أن تحفر ذلك الكهف كي يرتاح فيه. وقد طلب الثعبان الضخم أن يتوافر في الكهف طعامٌ وشرابٌ؛ فكان على الثعابين الصغيرة بالإضافة إلى شقّ الكهف أن

يجلبوا المياهَ الجَوْفِيَّةَ ويصطادوا الضَّفادعَ والطيورَ الصغيرةَ وينقلوها للتُّعبانَ الضخمَ كي يستمتعَ بها. وَمَنْ لا يُنْقِذَ الأمرَ منهم يقتله الثعبان الضخم؛ لذا فَكَهْفُ الثُّعَابِينَ في الأسطورة تلك مملوءٌ برائحة الرُّعب، وحتى الشجعان لا يجروؤون على دخوله. والثعابين في تلك المنطقة معظمها مُرَقِّطُ الظَّهر؛ لذلك أطلق السُّكَّانُ عليها لقب "الجَدُّ المُرَقِّطُ" احترامًا لها، آمليْن أَلَّا تؤذيهم لو صادفوها وسط الجبال. أمَّا ذلك الكهف فقد أطلقوا عليه اسم "كهف الجَدِّ المُرَقِّطُ".

وجنود لواء الثُّعالب البرِّيَّة هم من كلِّ مكان في الشمال والجنوب، والقِلَّة القليلة فقط من سُكَّان المنطقة. أمَّا أكثرُ جُنُديِّ مألوف بالنسبة لسُكَّان قرية "لونغ تشان" فهو "أن دا ينغ".

لدى "أن تاي" ابنان: "أن دا ينغ"، و"أن دا تشينغ". وعندما أُصيب الجد "أن يو شوين" بالزَّهَامِر في سنواته الأخيرة، فلم يُعَدَّ يتعرَّف على أحدٍ تقريبًا، وصار يعتبر ابنه شَحَاذًا جاء يطلب الطعام، ويتخيَّل أنَّ مَنْ تأتي لتفصيل ملابس الزفاف هي قريته، فيسحبها من يدها ويحكي معها ذكريات الماضي بعيون أغرقتها الدموع. كما لم يُعَدَّ يتعرَّف على أحفاده، فمَثَلًا اعتبر "أن شويه أر" خادِمَةً لدى أسرة الإقطاعيِّ؛ فصار يسألها "هل يلمس سيِّدك وجهك أو مؤخَّرتك عندما يطلب منك تدليك قدميه أو التهوية له بالمروحة؟"، كما أنه اعتبر "أن دا تشنغ" تلميذًا في مدرسة خاصَّة؛ فصار يسأله "هل تعرَّض للضرب بالعصا من المدرِّس أثناء حفظ "الأشعار الثلاثة"؟"، لكنه حين يرى "أن دا ينغ" يصبح ذهنه صافيًّا إلى درجة غير عادية، فينادي اسمه، ويقول له إن الرجل الصالح يتوجَّب عليه إطلاقُ النَّارِ والقتال لحماية البلاد، وإلَّا فإن ذلك الشيء الكامن في بنطاله لن يصير صُلْبًا وقويًّا، وفي كل مرة يقول فيها "أن يو شوين" تلك الكلمات يهزُّ "أن دا ينغ" رأسه مؤمَّنًا على كلامه، فيُعَلِّمه "أن يو شوين" كيف يؤدِّي التحيَّة العسكرية. ورغم كونه يتعكَّز على عصا، إلَّا أنه حين يؤدِّي التحيَّة

العسكرية تصبح ملامحه صارمةً، ويؤدّيها بدقة وإتقان؛ لذلك أتقن "أن دا ينغ" التحية العسكرية بشكل مضبوط حتى قبل دخوله إلى الخدمة. وكان "أن تاي" و"جيه شيو لي" يُعَارِضان التحاق ابنهما الأكبر بالجيش؛ فقد كان مُتفوّقًا في دراسته، ويمكنه الالتحاق بجامعة قومية بكل سهولة بعد الحصول على الثانوية العامة، إلا أنه في النهاية ارتدى الزي العسكري كي يوفّي بوعده الذي قطّعه لجده، ولم يعد أمام أبويه سوى احترام اختياره، لكنهما لم يوافقا على أن يبتعد عن البيت؛ لذلك طلبا من اللجنة العسكرية لمنطقة "سونغشان" أن تُوزّعه على لواء الثعالب البريّة.

في بداية التحاقه بالجيش مرّ أولًا بتدريبات قاسية في كتيبة من المستوى القاعديّ لمدة سنتين، بعدها تمّ نقله للقيام بأعمال سكرتارية في قسم الدعاية باللواء، ثم عاد ثانيةً إلى المستوى القاعديّ، وتولّى منصب قائد فصيلة، ثم قائد كتيبة، ثم عاد مرّةً أخرى للواء وتولّى منصب مُدرّب. وقد كان "أن تاي" وزوجته يرغبان في أن يجعلاه يُغيّر مجال عمله سريعًا، وأن يبحثا عن واسطة لترتيب عمل جيّد له، لكنهما لما رأياه يتقدّم بشكل جيّد في الجيش، تركاه يعمل كما يشاء.

لا يوجد شيءٌ مُميّز في ملامح "أن دا ينغ"؛ فوجهه أسمر، وعيناه صغيرتان مثل حبّتي صويا، أمّا حاجباه فكانا كالحقل الذي لم تنبت فيه الفسائل بشكل مُنتظم، وخفيفان إلى أقصى مدى، وأنفه لين متهدّل، لكنّ شفتيه جميلتان، وبهما غمّازتان صغيرتان تظهران عند الابتسام. كما أن مظهره العام جيّد، بالإضافة لجسمه - الذي ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا بالسمين ولا بالنحيف - مُناسبٌ تمامًا لارتداء الزي العسكري، فكانت الهيبة تنضج منه، وقد وصل إلى سنّ الزواج، فبدأ أبواه في الحديث عن البحث عن عروس له، إلا أنه كان دائم القول إن الوقت لا يزال مبكرًا. وقد كان كثير التردّد على قرية "لونغ تشان" لرؤية المُطرّزة، و"أن شويه أر"، وخاله "جيه شي باو"، هؤلاء

هم الأقرب إلى قلبه، وفي كلِّ عامٍ عند حلول عيد "تشينغ مينغ" كان حريصًا على الذهاب لمقبرة الشهداء كي يزور قبر جدّه، ففي ذلك اليوم من كل عام يستيقظ في الصُّباح الباكر؛ ليصل إلى هناك قبل شروق الشمس، في ذلك الوقت تكون المقبرة هادئة تمامًا، ولم يصلها أيُّ من القادمين لزيارة المقابر، عندها يؤدِّي التحية العسكرية باحترام، ثم يجلس ليحدّثه عمًّا في قلبه.

كان كلامه لجدّه في البداية مُفَعَمًا بمشاعر البطولة، فرغم أن البلاد في فترة سلام، إلّا أن الجيش دائمًا في حالة الاستعداد للحرب. حيث ساد الانضباط لدى كلِّ كبيرٍ وصغيرٍ من ضبّاط وجنود؛ ممّا جعله يستشعر قُدسيّة العملِ كجنديٍّ، لكن في السنوات القليلة الماضية وخاصةً بعد عودته إلى اللواء، اكتشف أن الفساد مُنتشر مثل الطّاعون في أوصال الجيش، وفي بداية التحاقه بالجنديّة كان قائدُ اللّواء "جوا جين" رجلًا يتميَّز بالعدل والشّجاعة والقلب الطيب، وكان دائمَ الزيارة إلى الكتائب الأدنى، ويسكن ويأكل ويتدرَّب مع الجنود، ودائمَ التّفقُّد للكتائب المتواجدة على الحدود، فكان يتمتّع بحُبِّ الجنود جميعًا؛ لذا عندما غادَرَ منصبه لم يستطع الكثير من الجنود كبخ دموعهم، أمّا مَنْ تولى من بعده واسمه "لي تشي يو" فكان بدين الوجه، ضخم الأذنين، ويُقال إن هناك ذوي سَطوّةٍ في عائلته؛ لذا فمجيئه إلى لواء الثعالب البرية كان لإضفاء سُمعةٍ جيّدة في سيرته الذاتية. وقد كان جَشَعًا، وشَرَهًا للطّعام، ومُحِبًّا للصّيد، ومَنْ لا يُقدِّم له "القرابين" من جنود اللواء فليُنسَ تمامًا أيُّ فرصة للترقي. وإذا لم يقف الجنود "انتباه" عند رؤيته كانوا يتعرّضون على الفور للعقابِ البَدنيِّ، أمّا أكثر مَنْ كانوا يعانون معه هم جنودُ الخدمة، فقد كان يتعيَّن عليهم - بالإضافة إلى ترتيب سريره يوميًا - أن يغسلوا له جواربه وملابسه الداخليّة. كما أنه كان سَكِيرًا، يشرب كلِّ مساءٍ نصفَ زجاجةٍ من خمر "ماوتاي" أو خمر الحبوب، وكل تلك الخمور كانت تأتي له خصيصًا من أماكن

بعيدة؛ لذلك بمجرد مجيئه للواء أقام خُصِيصًا قبوًّا للخمور. وكان مُتعدِّد الصِّداقات، فمنهم التُّجَّار والمسؤولون الحكومِيُّون، والأطباء، والمُبَشِّرون، الذين كانوا دائمِي التَّرُدُّد على المكان لزيارته، كما أنه كان يؤمن بالخرافات؛ لذا استخدم السيارات لنقل صخرة أكسيد رصاصٍ من جبل "إيشين" تُشبه في شكلها "الباغودا" - وذلك بتوجيهاتٍ من عَرَّافٍ - ووَضَعها على مدخل اللِّواء قائلاً بأن تلك الصخرة العملاقة تُعادلُ قوَّة لواءٍ كامل. وقد كان "لي تشي يو" واسعَ العلاقات بالفعل، فلم يَبَقَ في لواء الثعالب البرِّيَّة سوى سنتين فقط، بعدها ترقَّى إلى المنطقة العسكرية بمدينة "لين". أمَّا "جوا جين" الذي حظي بحُبِّ الجنود فقد عاد إلى المنطقة العسكرية كمُجرَّد انتقالٍ عادي وليس ترقيةً، بل إنه شغل منصبًا لا يلفت الأنظار في قسم الخدمات اللوجستية.

وبعد رحيل "لي تشي يو" جاء القائد "وانغ"، وهو رجُلٌ تبدو عليه الحنكة؛ فلا يتحدَّث ولا يضحك كثيرًا، ولا يُحبُّ مَدَحَ الآخرين، لكنه كذلك نادرًا ما يُوبَّخهم. أمَّا عن مظهره فهو ضعيفُ الجَسَد، أرسقراطيُّ المَظَهَر، وجهه ضيق، لكنه رغم ذلك يرتدي نظارة ذات إطارٍ أخضر مُربَّع يأكل نصف وجهه تقريبًا؛ ممَّا أعطى انطباعًا بحياة صعبةٍ يعيشها. وقيل إنه لا يُعاني من قِصَر النَّظَر، وتلك النظارة مصنوعةٌ من الكريستال الطبيعي، ويستخدمها لحماية عينيه، وكذلك للوقاية من ناموس وبعوض منطقة "سونغشان"؛ فهنا في فصل الصيف تتشكَّل أسراب من الناموس والبعوض وتدور في الهواء، وذلك البعوض يحبُّ الاندساس في أعين وأنوف البشر. والقائد "وانغ" يرتعب منها؛ لذلك ما إن تَوَلَّى منصبه حتى كانت أوَّل هدية يحصل عليها الجنودُ هي أن مَنَحَ لكلِّ واحدٍ فيهم ناموسيةً. وذات مرة خلال خطابٍ تَلْخِصِيٍّ بإحدى مسابقات القتال حكى قصَّةً أنَّه بعد الانتصار في حرب مقاومة اليابان، تَقَاتَل الحزبُ الشيوعيُّ الصيني وقُوَّات "الكومينتانغ"



في "دونغباي"، فكان مَنْ يَقَع في يد العَدُوِّ من جيش المقاومة في فصل الصيف يخلع عنه العَدُوُّ ملبسَه بالكامل، ويربطه على شجرة وسط الغابة ليلدغه الناموس حتى الموت، وعندما وصل القائد "وانغ" إلى تلك النقطة اغرورقت عيناه بالدموع، فخلع نظَّارته الثقيلة، ومسح عينيه بمنديل، ثم قال وهو ما زال يبكي: "أيُّها المقاتلون، إن بلادنا لم تَقُمْ بسهولة، لقد قامت على دماء أعدادٍ لا حصرَ لها من الشَّهداء؛ لذا يجب علينا أن نتوَخَّى الحذر في كل لحظة، ولا نُفِرِّط في بوصة واحدة من أراضيها. لِتَحْمِ أنهارنا وجبالنا؛ لكي نجعل تلك الأيام التي مات فيها جنودُ جيش المقاومة تحت لدغات الناموس تذهب إلى غير رَجَعَة." كانت كلماته في بدايتها صارمةً مهيبَةً، لكنَّ عبارته الأخيرة كانت مُفَعَّمَةً بطابعٍ كوميدِيٍّ، حتى إن الجنود الجالسين أسفل المنصة عَضُّوا على أسنانهم وضمُّوا قبضاتهم كي يكتموا الضحك.

كان أكثر ما يخشاه القائد "وانغ" هو فصل الشتاء؛ فكان يُسارع في الانتهاء من مهامَّه العسكرية قبل تَساقُط الثلوج، وما إن تهبَّ الرياح الباردة حتى يدخل في بيَّاتٍ شتويٍّ. لم يكن يشبه "لي تشي يو" في حُبِّه للخمر؛ ولم يكن يشرب قطرةً منها طالما ليست لديه مهامُّ استقبال ضيوف. وكان طعامه خفيفًا، لا يُحِبُّ السَّمَك ولا اللحوم، كما أنه مهووسٌ بالنظافة؛ فيُغَيِّرُ قميصه يوميًا، ولا يسمح بوجود ذرَّةٍ تُرابٍ واحدة في مَسكِّنه، أمَّا أدوات الطَّعام التي يستخدمها فيجب تعقيمها يوميًا، وكان لا يَثِقُ في دولاب التعقيم؛ لذا طَلَبَ من عُمَّال المطبخ استخدام الطُّرُق القديمة التقليدية في التَّعقيم، حيث يضعون أدوات الطعام في قِدرٍ كبير ويغمرونها بالماء ثم يغلونها. وكان يُفَضِّلُ الذهاب للمنطقة العسكرية لِعَقْد الاجتماعات في الشتاء؛ وبهذا يُمكنه مُغَادَرَةُ اللواء لفترةٍ مُتَجَنِّبًا التِّيَّارات الباردة، ورغم هذا كان يحب نُدْفَاتِ الثَّلْج؛ وما إن يُصادِفُ يومًا تتساقط فيه الثلوج، حتى يرتدي ملابس دافئةً ويهرع إلى ضِفَّة نهر "جيلوا" ليقف هناك بُرْهَةً في صمتٍ كما

لو كان يتفكّر في الأمور والأشياء وسط ندفات الثلج المتطايّرة في الهواء، أمّا حَرَسُه الشخصيُّ فيقفون بعيدًا لا يجروؤون على إزعاجه، وفي مثل تلك الليالي كان يقضي ليلَه كُلَّه في قراءة الكتب، وفي بعض الأحيان كان يتصاعد من خيمته صوتُ ترتيلٍ خفيض.

هذا القائد ذو المظهر والطابع الأرستقراطي، والذي لديه أسرة كان يُخفي جانبًا شهوانيًا، وهذا الأمر لم يتوقَّعه "أن دا ينغ". أمّا الأمر الذي لم يتخيَّله أكثر فهو أن "تانغ ماي" خريجة كلية الطب بمدينة "لين" وافقت بكامل إرادتها أن تكون عشيقَةَ القائد "وانغ"، وقد كان هذا سرًّا مُعلنًا في لواء الثعالب البرية.

كانت تأتي في كل مرّة عند الغروب، وبعد تناول العشاء تدلّف إلى خيمة القائد "وانغ"، والحجّة هي الكشف عليه، ولكن بعد نصف ساعة، تتصاعدُ من هناك أصوات صرخاتها وتأوّهاتها، ورغم أوامر القائد "وانغ" للحرس أن يقفوا بعيدًا، وأنه لا ضرورة للوقوف في حراسته عندما تكشّف عليه "تانغ ماي"، لكنّ صرخاتها كانت رنانةً مثل أوامر الهجوم؛ لذا كانت تنتشر خارج الخيمة، فلا يسمعا الحرسُ فحسب، بل يسمعا حتى حرس المعسكر الواقفون في أماكن خدمتهم، فكانوا يتهايمسون سرًّا أن المريض في الحقيقة ليس القائد "وانغ"، بل الطبيبة "تانغ ماي".

ولا يزال "أن دا ينغ" يذكّر بوضوح الموقف الذي تعارف فيه القائد "وانغ" على "تانغ ماي".

فهما كان المكان المعسكر به وحدات للجيش، فإنها لا بُدَّ وأن تتدخل لمساعدة السكّان المحليّين إذا ما تعرّضوا لكوارث وتهديداتٍ طبيعيّة؛ لذلك عندما تراكمت الكتلّ الجليديّة في نهر "جيلوا" مُسبِّبةً فيضانات، استخدم لواء الثعالب البريّة زوارق الاقتحام لإنقاذ السكّان العالقين بسبب الفيضانات في القرية الخامسة والقرية الثالثة، وفي

السنة الثانية من تَوَلَّى القائد "وانخ" قيادة اللواء، وهي نفس السنة التي جَلَبَتْ فيها "تانغ ماي" صديقتها "تشين يوان" وعادت بها للقرية، تعرَّضت قرية "لونخ تشان" لكارثة ثلجيَّة لم تتعرَّض لها منذ مائة عام، حيث هطَّلت الثلوج لمدة أسبوع مُتواصِل، بداية من اليوم السابع عشر من الشهر الثاني عشر بالتقويم القمري؛ ممَّا تَسَبَّب في غلق الطُّرُق العامَّة بين الجبال، هذا الوقت كان قُرَبَ بداية العام الجديد، لكنَّ البضائع لم تَعُدْ قَادِرَةً على الدخول، ولم يَعدْ الناس قادرين على الذهاب للمدن كي يبتاعوا احتياجات رأس السنة، أمَّا الحطب المُكْوَم أسفل الجبل فلم يَعدْ في الإمكان نَقْلُهُ إلى أعلى الجبل، وانقطاع الحَطَب في الشتاء في منطقة باردة مثل منطقة "سونغشان" هو أمرٌ مُخيفٌ مثل خنق رقبة أحديهم؛ فعانى الكثيرون من التَّجمُّد، وماتت البهائم بأعداد هائلة، ووقف الناس أعلى جبل التنين والثلج قد وصل إلى خَواصرهم يتطلَّعون إلى ذلك العالم الأبيض الممتدَّ تحتهم وهم يفكِّرون في أن ذلك الثلج الكثيف ربما سيصير كَفَنًا يلتفُّ به أهالي قرية "لونخ تشان"، وفي تلك اللحظة الحاسمة قاد القائد "وانخ" جنود لواء الثعالب البريَّة وقادوا الجَرَافات، وحرك قوَّة فَوْج كاملٍ لتتكاتف الماكينات مع سواعد الجنود في كفاحٍ دام ثلاثة أيَّام بلياليها حتى تمكَّنوا في النهاية من فتح الطريق، وقد عانى الجنود كثيرًا من قضامات الصَّقيع نتيجة للرياح الشمالية القارسة، ولدرجات الحرارة المنخفضة التي وصلَّت في الخارج إلى ثلاثين أو أربعين درجة تحت الصُّفر، وتمَّ نقل المصابين إلى الوحدة الصحية لتلقي العلاج، فذهب القائد "وانخ" لزيارتهم، وهناك التقى بـ "تانغ ماي"، وقتها كان "أن دا ينغ" موجودًا خلف قائده.

ورغم أن "تانغ ماي" -مثلها مثل باقي الأطباء- كانت ترتدي بلوثر أبيض وتعتَمِرُ قُبْعَةً بيضاء، إلَّا أن جمالها تَبَدَّى كاملاً بنظرةٍ واحدة، فكانت ترتدي ذلك اليوم كنزةً من الكشمير قرمزيَّة اللون، فبَدَّت

رقيتها البيضاء كأنما حطت عليها فراشةٌ بنفسجية، وتناغمَ هذا مع ملامحها المتناسقة ونظراتها التي تحمل مسحةً كآبة، كل هذا أضيف عليها جمالاً غير عادي، وعندما صادفها القائد "وانغ" في الممر، كان كمن داس على لغمٍ أرضي، فتسمّر دهشة، ثم سألتها: "هل جئت من مكانٍ آخر للتدريب هنا؟"، فهزّت رأسها نافيةً، وقالت: "أنا من هنا".

وبعد أن انقشعت تلك الكارثة الجليدية حلَّ عيدُ الربيع، فعاد القائد "وانغ" إلى مدينة "لين" لزيارة الأهل، وعاد ثانية في الخامس من الشهر الأول، وقد كان في العادة لا يعود إلا بعد مهرجان الفوانيس. وعندما عاد إلى الوحدة تتبع أخبار "تانغ ماي" عن طريق "أن دا ينغ" بشكلٍ غير مباشر، فأخبره "أن دا ينغ" بكل ما يعرفه، ومن ضمنه عائلتها، وأين التحقت بالجامعة، وكذلك "تشين ماي" التي أحضرتها معها بعد التخرُّج، حتى إنه بحث عن الجرائد التي نشرت أخبار "تانغ ماي" وأعطائها للقائد "وانغ" كي يقرأها، وكان لدى القائد "وانغ" عددٌ لا يُحصى من علامات الاستفهام، لماذا عادت فتاةً جميلةً متفوقةً ومن أسرة مرموقة مثلها إلى قرية "لونغ تشان"؟ لماذا جلبت معها - بإرادتها وعن طيب خاطرٍ - زميلةً دراسةٍ بلهاء؟ لماذا لم تقع في الحب؟ لكن لم يكن "أن دا ينغ" وحده عاجزاً عن الإجابة، بل إن أبويها نفسهما كانا عاجزين عن الإجابة، فلم يسع "أن دا ينغ" سوى أن يهزّ رأسه لقائده مُعبراً عن جهله، ولكن بدايةً من ذلك الوقت، بدأ القائد "وانغ" في التردُّد على الوحدة الصحية بقرية "لونغ تشان" للكشف، مرّةً من صداعٍ نصفيّ، ومرّةً ضيق في الصدر، ومرّةً برودة في الأرجل والأقدام، وغيرها من الحجاج، وكلها أمراض لا تُشفى ولا تُضُر، وكان مدير المستشفى "جان تشيه شينغ" يفهم قليلاً في الطب الصيني؛ لذا عالجه بالإبر الصينية والتدليك، قائلاً بأن ذلك علاج بلا كيماويات، إلا أن القائد "وانغ" كان دائم القول إنه بلا نتيجة، بعدها بادر باقتراح أن تُعالجه "تانغ ماي"، مُتعللاً بأنها خريجة كلية طب

مرموقة؛ لذا فمستواها بالتأكيد ممتاز، وهنا فقط أدرك "جان تشيه شينغ" أن مرض القائد "وانغ" سببه "تانغ ماي"، وهي أيضًا العلاج. أمّا عن أي يوم بالتحديد صارا فيه سويًا فهو أمرٌ لا يعلمه "أن دا ينغ"، هو فقط يذكر أنه في بداية الربيع بإحدى السّنوات، عندما عاد لِلّواء بعد شهرين قضاهما مُتمركزًا في كتيبة الاستطلاع، شاهد "تانغ ماي" تحمل حقيبة الأدوية وتسير ناحية مقرّ القائد "وانغ". وكان وجهها أبيض شاحبًا، إضافة إلى ملابسها البيضاء؛ فبدت أشبه بالسائر في جنازة أبويه، وفي اللحظة التي تلاقت فيها نظراتهما بدت على وجهها تعبيراتٍ لِعوبٍ، ثم بادرتَه بالقول: "لقد عدت؟"، فقال لها: "لقد جئت؟"، فقالت: "لقد فُتح نهر "جيلوا"، فردّ عليها: "كنتُ في كتيبة الاستطلاع، وهناك رأيت ثعلبًا أحمر"، وهكذا كانت إجابتهما لا علاقة لها بالأسئلة المطروحة، رغم أن كليهما كان يفكر في أعماق قلبه في نفس الأمر المشين. بعدها ركبت "تانغ ماي" السيّارة وأشاحت له بيدها ثم رحلت، إلّا أنه لم يُلوح لها بيده، لقد صارت يده ثقيلةً لدرجةٍ عَجَزَ معها عن رفعها.

كان قلب "أن دا ينغ" في الحقيقة يحمل بين جنباته فتاتين، الأولى: هي "تانغ ماي"، والثانية هي "لين دا هوا"، كانت "تانغ ماي" بالنسبة له كسحابةٍ بعيدة المنال، لا يسعُه سوى التطلّع لها، لكن مَنْ كان يتوقّع أن تجلب معها "تشين يوان" وتستقرّ في قرية "لونغ تشان"؟ وهذا جعله يرى بصيصًا من الأمل، فحاول التقرّب منها، وصار في كلِّ مرّة يأتي لرؤية جدّته فيها يذهب إلى الوحدة الصحية من أجل صرف بعض الأدوية الاعتيادية، وفهم "جان تشيه شينغ" ما يُضمِرُه "أن دا ينغ" في قلبه؛ فصار ما إن يراه قادمًا حتى ينادي "تانغ ماي": "أيتها الطيّبة "تانغ"، لقد أتى المدرب العسكري كي يراك"، لكن "أن دا ينغ" لم يرَ الحُبَّ في عيني "تانغ ماي"، كانت عيناها حائرَتين، مثل انعكاس ضوء القمر البارد فوق الثلوج، هذا البريق المنفصل عن العالم جعله

يتقهقر للوراء. أمّا "لين دا هوا" فرغم أنها تخاف الظلام، إلا أن عينيها مُفعمتان بالرّقة وممتلئتان بالرغبة في الحياة. كانت تُضيق عينيها في كلّ مرّة تراه فيها عندما يذهب إلى نُزل الشّمس الحمراء لرؤية خاله ثم تصيح: "وجهُك شديدُ السّواد، إنه مُخيفٌ"، فيقول "جيه شي باو": "الرّجال ذوو الوجوه السمراء يمكن الاعتمادُ عليهم"، عندها تفتح "لين دا هوا" فُرجةً صغيرةً بين أصابعها وتنظر من خلالها نحو "أن دا ينغ" وهي تهمس في خَجَلٍ ودلال: "مَن ذا الذي يرغب في الاعتماد عليه، أنا لا أحبّه".

ومراعاةً لمشاعرها كان "أن دا ينغ" في كل مرّة يذهب فيها لنُزل الشمس الحمراء يرتدي ملابس فاتحة اللون، وإذا صادفَ فصلًا جيّدًا من فصول السنة، كان يقطف في طريقه بعضًا من الزهور البريّة، مُتعلّلًا بأنها من أجل ابن خاله "جيه شياو باو"، لكن مَن يصدّق هذا؟ إن "جيه شياو باو" طفلٌ شقيٌّ، دائمًا يحبُّ صعود السّلم، سواء في فصل الصيف أم الشتاء ليجلس أسفل المدخنة الموجودة على سطح النزل ليضرب بببليته الطيور المُحلّقة في السماء؛ لذلك إن سرتَ في شارع "يون شويه" فهناك حَطرٌ أن تضربك الطيور الميئة الهاوية من السماء.

وفي كل مرة يجلب فيها "أن دا ينغ" الزهور البرية كانت "لين دا هوا" مُصمّص شفتيها، وتقول: "إهداء زهور برّية لصبّي سيُفسدُه"، عندها يمدُّ "أن دا ينغ" باقةً الزهور نحو صدرها، قائلاً: "إذن فلتعتني أنتِ بها"، وعندما ترى صاحبة النُزل "ليو شياو هونغ" ذلك المشهد كانت دائمًا ما تُداعِبُ "أن دا ينغ" قائلةً: "كلّ ما قَطَفْتَه هو زهورٌ صغيرة، لا توجد زهور كبيرة، كيف يمكنها أن تقبل بالعناية بها؟"، هنا تُطلق "لين دا هوا" همهمةً رضا، ثم تقول: "بدون الزهور الصغيرة أُنّي للزهور الكبيرة أن توجد؟"، ثم تفتح يديها لتلتقط منه الزهور البريّة، وتخفّض رأسها وتتّجه مباشرةً نحو المطبخ بحثًا عن مزهريّة تضعها

بها. وهنا تُوجَّه "ليو شياو هونغ" حديثها لظَّهر "لين دا هوا" المبتعد عنها، قائلة: "انظروا انظروا، الآن تساندينه!".

وبعد أن تضع "لين داه هو" الزهور البرية في المزهريّة، تصفُّها فوق الخزينة كما لو كانت ترغب في إضفاء بعضٍ من العَبَقِ الفَتَّان لتلك النقود الخالية من الروح.

وعندما كان "أن دا ينغ" يُناجي جَدَّه في مقبرة الشهداء بما يجول في قلبه، سأله ذات مرَّةٍ، لو أنَّ شَابًا في قلبه فتاتان، فهل هو ليس بِرَجُلٍ؟ إن "تانغ ماي" و"لين دا هوا" هما بمثابة الرُّثة اليمنى والرُّثة اليسرى التي يتنفَّس بهما حُبُّه، لا يمكن أن تنقُص إحداهما. لكن في بداية الأمر كانا بالنسبة له واحدة في السماء والأخرى على الأرض، وبعد أن صارت "تانغ ماي" عشيقةً القائد "وانغ"، انقلبت مكانتهما، فسقطت "تانغ ماي" من السماء إلى عالمنا الفاني، وارتقت "لين دا هوا" إلى عنان السَّحاب، بما أظهرته من نقاءٍ وانسلاخٍ من العالمِ المادِّي. لكن - ويا للعجب - أصبح في كلِّ مرَّةٍ يقابل فيها "تانغ ماي" ويرى نظرات الرَّغبة في السُّقوط البادية في عينيها، وملامحها المتعبَّة، وصوتها الذي صار أجشَّ يومًا بعد يوم، كل هذا يفطرُ قلبه.

كذلك سأل "أن دا ينغ" جَدَّه وهو جالسٌ أمام قبره، "لماذا لا يُشبهه العسكريُّون اليومَ جيلَكم في تطلُّعاتهم العظيمة؟ لماذا لم يحصل قائدُ اللواء الشريف مُتحمِّلُ المسؤولية على التقدير الكافي، بينما القائد "لي تشي يو" الغارق في الملدَّات، والذي لا يتميَّز بأي شيء، سواء في الخلق أو الكفاءة، يترقَّى إلى العُلا بخطواتٍ ثابتة؟ ولو حدث نزاعٌ على الحدود فهل يمكن لمثل ذلك القائد أن يقود جنوده للنَّصر في الحرب؟"، بالطبع لم يُجبه جده؛ فقد ابتعد تمامًا عن هذا العالم. لكن هذا الفضاء الصَّامت أعطى لـ "أن دا ينغ" نوعًا من القوَّة الصامتة.

وبعد حادثة "أن شويه أر"، هرع "أن دا ينغ" إلى قبر جدّه، واستند إلى شاهدِ القبر المصنوع من اليشم الأبيض، وبكى بحرقّة، ثم سأل جدّه، "لو ألقِي القَبْضُ على "شين شين لاي"، ذلك الشيطان المتخفي بين البشر، وفجّر جُمُومَتَه المتعفّنة، فهل يُعدُّ هذا مخالفة للميثاق العسكري؟"، وما إن انتهى من سؤاله حتى سمِعَ نعيق غرابٍ مارٍ من فوقه في السماء. فقال باكيًا: "يا إلهي، ما معنى هذا؟ هل الإجابة نعم أم لا؟".

وبعد أن حدث ما حدث أثناء نقل "أن بينغ" للبنادق، وما ترتّب عليه بعد فصله من وظيفته، كانت محطّته الأولى حين عاد إلى قرية "لونغ تشان" وامتطى الحصانَ الأبيض مُتَّجِهًا للجبل بحثًا عن "شين شين لاي" هي الوحدة العسكرية؛ فقد كان قَلِقًا على ابن أخيه الذي بإمكانه حمل السلاح، وبعد أن نادى الجنديّ حارسَ بؤابة لواء الثعالب البريّة على "أن دا ينغ" ليخرج له، أمسك "أن بينغ" بلباس فرسه، وظلَّ صامِتًا، واقتاده حتى ضفّة نهر "جيلوا"، ثم قال لـ "أن دا ينغ": "تذكّر، مهما كرهتَ ذلك الوغد، لا تُفكّر في استخدام السلاح، لا يمكن لاثنين من نفس الأسرة أن يرتكبا خطأً بسبب نفس الشّخص، فعَمَّكَ لا يكثرث للأمر بعد أن وصل لهذا السنّ، أمّا أنتَ فلا زلتَ شابًا، وأمّامك مستقبلٌ زاهرٌ، إيّاكَ أن ترتكب هذا الخطأ، وإلا فسيعدُّ إهانة لروح جدّك في السماء، يجب أن تعطيني عهدًا بهذا"، فنظر "أن دا ينغ" إلى عيني عمّه، وقال بصوتٍ خفيض: "أعدّك"، فلم يقتنع "أن بينغ" بعدم التصميم البادي عليه، وجعله يستدير تجاه مقبرة الشّهداء ويؤدّي التحية العسكرية ويقسم على ذلك، فتردّد "أن دا ينغ" قليلًا، ثم دار بجسده متوجّهًا نحو الجنوب الشرقي تجاه مقبرة جدّه، وأدّى التحية العسكرية. ولكن بسبب ارتعاش يده بدت تلك التحية مثل رايات الجيش المهزوم التي تخفق وهي تسقط، فتقدّم



"أن بينغ" للأمام وساعده لتعديل وضعه، وقال بعيونٍ ملأها الدموعُ  
السَّاخنة: "فتى صالح"، ثم امتطى حصانه ودخل إلى عمق الجبل.

وفي تلك الليلة أخرجت صيحاتُ البوم الكثيبة "أن بينغ" من عمق  
الجبل، وفي اليوم التالي قُربَ الغروب عندما مرَّ على كومة القشِّ أمام  
حظيرة الدَّبَح بيت "شين تشي زا"، صادفَ "جيه شياو باو" يمسح  
دموعه، فسأله ماذا حدث؟ فقال إن أباه قدَّم له في المدرسة دون  
علمه، فغَضِبَ وكَسَرَ بعض الأطباق في النُّرْل بالنُّبلة، فضربه والدُه  
بشدة. ثم أضاف مُنْكَسِرًا: "لقد وافقَ أبي من قبل ألا أدخل المدرسة  
إلا في سنِّ العاشرة، وأنا الآن لا أزال في الثامنة من عمري، وقالت لي  
أمي إن هذه عدم مصداقية، إنه لا ضررَ في أن يَصْفَعَنِي، فلن يتسبَّب  
هذا إلا في إغمائي عدَّة أَيَّامٍ في أسوأ الحالات، لكن لا يجب أن يركل ما  
بين قدَمَيَّ، فهي تقول إن الصَّيبة الذي يتعرَّضون للركل هنا يُصْبِحون  
مَحْنِيَّي الظهر حين يكبرون". لقد كانت "ليو شياو هونغ" تحبُّ هذا  
الصَّبي؛ فَاتَّخَذَتْه كابنٍ لها. وهنا قال له "أن بينغ": "إنَّ أُمَّكَ تُخِيفُكَ  
ليس إلا، مَنْ من الصَّيبة لم يتعرَّضْ للركل بين ساقَيْه في الصَّغر؟"، ثم  
أضاف أنه في صِغَرِهِ كان أبوه عاجزًا عن ركله بقدمه؛ ولكنه كثيرًا  
ما استخدم عصاه كي يَخِزَهُ في ذلك المكان، وها هو الآن لم يُصْبِح  
مَحْنِيَّي الظَّهر؛ ومن الطبيعي ألا يصير هو أيضًا كذلك، وهنا تحوَّل  
بُكاء "جيه شياو باو" إلى ضحكاتٍ وأخبر "أن بينغ" أنَّ فَمَ المَطْرِزَةِ قد  
اعوجَّ، وأنها دخَلت الوحدة الصحية، وجاءت عمُّه وزوجها من قرية  
"جويواوين"، فانتاب الفَرَعُ قَلْبَ "أن بينغ"؛ فعودة الزوجين "أن تاي"  
تعني أن مرضَ أُمِّه بالتأكيد ليس بالهَيِّن، وهكذا ركض الحصانُ الأبيض  
به نحو الوحدة الصحية مباشرةً، حتى قبل أن يركله "أن بينغ".

في الوقت الذي حُمِلت فيه المَطْرِزَةُ إلى الوحدة الصحية كانت  
قد فَقَدَت الوعي، واعوجَّ فمها، واحوَّلت عيناها، وعندما رأى "جان  
تشيه شينغ" الوضعَ سيئًا طَلَبَ مِمَّن معه الاتصالَ بسيارةٍ لنقلها

إلى المستشفى، وفي نفس الوقت اتّصل بالعمدة "تانغ"؛ فالمطرزة هي أرملة بطلٍ قديم؛ لذا رأى أن هذا الأمر يجب إبلاغه للحكومة، وأثناء انتظار سيارة الاسعاف القادمة من محافظة "تشينغشان" خشي "جان تشيه شينغ" أنه في حالة وفاتها دون أن يكون أحدٌ من أبنائها بجوارها فسيقع اللوم عليه؛ فسارع بالاتصال هاتفياً لإبلاغهم، وقتها كان "أن بينغ" قد ذهب بمفرده إلى أعماق الجبل بحثاً عن "شين شين لاي"، وهناك لا توجد شبكة هاتفٍ محمول؛ فلم يتمكّن "جان تشيه شينغ" من الاتصال سوى بـ "أن تاي".

وبعد أن أرسلت المطرزة إلى "مستشفى الشعب" بمحافظة "تشينغشان"، تم إجراء أشعة مقطعية لها على المخ، ولحسن الحظ كانت سكتة دماغية خفيفة؛ فاستعادت وعيها قبل حتى أن يعطيها الطبيب دواءً، لكن ظلّ فيها مُعوجاً مثل الهلال؛ ممّا جعلها تُعاني في النطق. وقد قالت لـ "أن تاي" الذي جاءها على عجل إنها لا تحبّ محافظة "تشينغشان"، ولو ماتت فهي ترغب في الموت في قرية "لونغ تشان"، وصممت على العودة، إلا أنه لم يوافق، فأطلقت أناتٍ منكسرةً كمن تعرّض لظلمٍ شديد، ففحصها الأطباء بدقة، ثم وافقوا على أن تبقى في مستشفى المقاطعة لثلاثة أيام فقط، بعدها تعود لتستكمل العلاج في قرية "لونغ تشان"؛ وذلك كي يهدئوا من روعها ممّا يساعد على استعادتها عافيتها. فوافقت المطرزة.

وعندما وصل "أن بينغ" وقابل المطرزة كانت قد أصبحت قادرةً على السير ببطءٍ في فناء الوحدة الصحية متعكزةً على عصاها. تلك العصا المصنوعة من خشب الدردار تعكّز عليها "أن يو شوين" من قبل. وحين توفي أبدي أفراد الأسرة رغبتهم في إحراق تلك العصا كي يأخذها "أن يو شوين" معه، لكن المطرزة لم توافق، وقالت إنها لا ترغب أن يظلم رفيقٌ دربها أعرج في العالم الآخر، بالإضافة إلى أن وجود العصا بجانبها سيذكّرُها به. وقد كانت العصا طويلةً بالنسبة

لها؛ لذا قَطَعَتْ جُزءًا من أسفلها، لكن "أن بينغ" عَرَفَهَا من نظرةٍ واحدة؛ فقد استخدمها أبوه طوال عمره، كما أنها مصقولة مثل اليشم، والعِصِي الأخرى كلها لا تحمل ذلك البريق واللّمعان.

كان فَمُ المَطْرَزَة لا يزال على حالته؛ فَبَدَت تعبيرات وجهها كأنها تسخر من الشمس الآبِلَة إلى الغروب. وما إن لمَحَت الحصان الأبيض حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وجرجرت أقدامها خطوةً بخطوة حتى وَصَلَت أمامه، وارتعشت شفتاها، وجاهدت كي تقول: "لم يذهب العُشْبُ الجيّد الذي أَطَعَمْتُكَ إِيَّاه هبَاءً، لقد عُدَّت لي بولدي"، ثم انفجرت في البكاء، وشاركتها "أن بينغ" بكاءها، كذلك أطلق الحصان الأبيض زَفَرَاتٍ من منخَرِيه، على الأرجح لم يفهم لماذا تستخدم المَطْرَزَة تلك العصا التي تركها "أن يو شوين"؟

وبعد ثلاثة أيام خَرَجَت المَطْرَزَة من المستشفى، وبقي "أن بينغ" في قرية "لونغ تشان" بصُحْبَتِها وطلب من الزوجين "أن تاي" أن يعودا إلى قرية "جويواوين". وفي معظم الوقت صار الأمُّ والابن يجلسان متقابلين ينظران لبعضهما دون أن ينطقا بكلمة، وقد حاولت المَطْرَزَة أن تُمسك بإبرتها لحياكة ملابس العرس، لكن يدها لم تَمْتِثْ لها. فصارت كلَّ يومٍ تتعكّز على عصاها إلى اسطبل الخيول لتبقى قليلًا مع حصانها الأبيض، حينها يصدُر من الاسطبل صوتُ أنين، ولم يكن "أن بينغ" يدري إن كان ذلك الصوت صادرًا عن أمّه أم عن الحصان، فأنين الحصان الذي شاخ وكبر، وأنين الأم التي دخلت سنواتها الأخيرة كانتا متشابهتين للغاية.

في ذلك اليوم قُرِبَ الغروب، حمل "أن دا ينغ" سَلَّةً من البرقوق وذهب لزيارة جدّته، كان باديًا عليه القلق والإجباط، فلم يجلس سوى لدقائق معدودة ثم غادر على عَجَلٍ، مُتَعَلِّلاً بالذهاب لتنفيذ مهمّة.

لقد جاء إلى قرية "لونغ تشان" لتنفيذ أمر باصطحاب "لين دا هوا".

فقبل أسبوعٍ جاء إلى لواء الثعالب البريّة القائد "يو" قائد الفيلق والوفد المرافق له، وتفقدوا فوج المشاة، وكتيبة الدبّابات، وفصيلة الاستطلاع والعمليات الخاصة والمزارع التي تُؤمّن الاحتياجات اللوجيستية للواء. وكان القائد "يو" في الثانية والخمسين من العمر، وتبدو عليه الهيبة حين يرتدي القُبعة العسكرية، لكن بمجرد أن يخلعها وتظهر صَلَعَتُهُ، حتى يبدو تقدّمه في السن. وقد كانت طفولته قاسية، وليس له مَنْ يستند عليه، كما كان يتجاذب أطراف الحديث مع الجنود حين ينزل للكتائب لتفقدّها، وكان أيضًا يحب إلقاء النكات والمزاح معهم لخلق جوٍّ مَرِحٍ إذا ما عاد للواء في أوقات تناول الطعام، بوجهٍ عام: كان يبدو عليه أنه قائدٌ صالح.

وبعد أن أنهى القائد "يو" جولته التّفقُديّة استعدّ للعودة إلى مدينة "لين"، ووفقًا للعادات طلب القائد "وانغ" من الوحدة العسكرية تجهيزَ كلِّ أنواع المُنْتِجات المحليّة ليهديها للقائد "يو" والوفدِ المرافق له. فقام المطبخ في وقت الظهر بذبّح الدجاج والأغنام لتجهيز وليمة الوداع. وفي الساعة الثانية بعد الظهر، قام القائد "وانغ" باستدعاء "أن دا ينغ" وناولَه سَلَّةً من البرقوق، قائلاً إنّه برقوق طازجٌ قُطِفَ للتوّ، وقد سمع أن جدّته مريضة، وطلب منه أن ينقل سلامه إليها ويهديها تلك السَلَّة على الفور. وبالطبع لم يتخيّل "أن دا ينغ" أنّ القائد "وانغ" مملوءٌ هكذا بالمشاعر الإنسانية، وفي اللحظة التي تأثّر فيها أخبره القائد "وانغ" أنّ السائق ينتظره في الخارج، فليسرِعْ بالذهاب، وبعد أن ينتهي من زيارة العجوز لديه مهمّة أخرى، وهي أن يذهب في طريقه إلى نُزُلِ الشَّمس الحمراء، ويأتيه بشخصٍ ما.

وما إن سَمِعَ "أن دا ينغ" أنّه ذاهبٌ لاستقبال شخصٍ ما من نُزُلِ الشَّمس الحمراء حتى جال بذهنه على الفور "لين دا هوا"، أمّا القائد "وانغ" فقد قال بكلماتٍ حَذِرَةٍ إن الفارق في درجات الحرارة بين الليل والنهار كبيرٌ هنا، واستمرَّ القائد "يو" في جولته التّفقُديّة لعدّة

أيام متواصلة مُتعبَة؛ فأصاب البردُ عِظامَه، وهو مُصابٌ الآن بالسعال وارتفاعٍ خفيفٍ في درجة الحرارة. وقد كشف عليه طبيبُ الوحدة وكتب له دواءً، لكن القائد "يو" ترعرع في أسرة فقيرة مُتواضعة؛ لذا فهو لا يحبُّ الأدوية؛ وقد اعتاد منذ صِغَرِه حين يصيبه المرض أن يعالجه بالحِجامة، وطبيبُ الوحدة لا يجيد تلك الطريقة الشعبية، فرشَّح له أحدُهم "لين دا هو" من نُزلِ الشَّمس الحمراء، قائلاً إنها بارعَةٌ في ذلك الفنِّ، وقد أرسل إليها أحدُهم فوافقت على المجيء. وسأله "أن دا ينغ": "سأتي بها اليوم، وبعد أن تنتهي من الحِجامة سأعيدها ثانيةً، أليس كذلك؟".

فلم ينظر القائد "وانغ" في عينيه، بل نظر خارج النافذة، وقال: "الحِجامة ستتمُّ بعد وليمة العشاء، أعتقد أن الوقت سيكون متأخراً جداً، سنَدَعُها تبيتُ ليلةً في اللّواء، وسأرتبُ ذلك بنفسِي، وستعود في صباح غد".

وهنا صدرت هممةٌ اعتراضٍ بقلب "أن دا ينغ": "فهو لا يوافق على أن تبيتَ الفتاةُ التي يهتمُّ بها في مكانٍ لا سُلطةَ له فيه، لكن لم يكن أمامه سوى تنفيذ الأمر والذهاب لإحضارها.

كان سُكَّانُ قرية "لونغ تشان" يعرفون عرَبَةَ القائد "وانغ" الجيب، والتي تُعلّق لوحات الجيش، فلم يتخيّلوا أن مَنْ يركب فيها في تلك المرّة هو "أن دا ينغ"، أمّا الأكثر إثارةً للعجب هو أن السيارة في تلك المرّة لم تأتِ لأخذ "تانغ ماي"، وإمّا "لين دا هو".

ارتدت "لين دا هو" بنطالاً كحلياً، وقميصاً ضيقاً يصل لخصرها، أزرق اللون، عليه زهور حمراء، وفوق ياقته التي على شكل رقم سبعة وأكمامه الواسعة تتدلّى "شراشيب" وردية اللون، وفي قدميها ارتدت جواربَ بيضاء مع حذاءٍ قُمَاشيٍّ أزرق، واستخدمت منديلاً حريريّاً أزرق ذا زهور زرقاء لتلف شَعْرَها على هيئة ذيل حصانٍ

عالٍ، ولم تَضَع مساحيق تجميلٍ على وجهها، فكانت أشبه بأقحوانةٍ برّيةٍ تتأرجح وسط الرياح، وبها سحرٌ لا يوصف، وحملت في يدها حقيبة مصنوعة من لحاء الشجر، تلك الحقيبة صنعها لها "جيه شي باو" بنفسه كي تضع فيها أدوات الحِجامة.

لم تكن "لين دا هوا" تتوقّع أن يأتي "أن دا ينغ" لاصطحابها، فتمسّرت قليلاً واحمرّ وجهها، ثم ناوَلته الحقيبة قائلةً: "أنا ذاهبةٌ لأقوم بالحِجامة لقائِدِكَ وأنت لا تُبادِرُ بحملِ الحقيبة؟ يا لك من مُفتَقِرٍ للياقة؟".

فتلقّف "أن دا ينغ" الحقيبة منها، وقال بصوتٍ خفيفٍ: "هل الحِجامةُ تحتاج لهذا التّزيّن؟ إنها ليست مسابقةً جمالاً".

وعلى الفور تحوّل وجهها من الأحمر إلى الأبيض، وصعدت إلى السيّارة وهي تُهمهم: "إنّك لست قائدي، هل لك حُكمٌ عليّ؟".

ونظرًا لوجود سائق القائد "وانغ"، لم يُجادلها "أن دا ينغ"، وعندما خرّجت السيارة من شارع "يوين شويه"، أبصر "وانغ دا ينغ" المرأة المدخنة. كانت أشبه بما تبقي من جذع شجرة مقطوع، ترتدي ملابس بسيطةً وتقف على جانب الطريق، وفي اللحظة التي مرّقت السيّارةُ بها، ورأت ابنتها فيها بدًا عليها الفزع، وضمت يديها داخل أكمامها، ورأى "أن دا ينغ" الجالسُ في المقعد الخلفي بوضوح "لين دا هوا" الجالسةً بجوار السائق وهي تشيح برأسها بعيدًا، دون أن تُطيل النّظر في أمّها.

وفي الطريق لم يتكلّمَا كثيرًا، فقط عندما كانت "لين دا هوا" ترى الغابات والزهور البرية وهي غارقةٌ في أضواء شمس المغيب، تقول كلماتٍ مثل: "تلك الأزهار البرّية رائعة الجمال"، أو: "لماذا ذُبّلت كلُّ الزّنباق؟"، أو: "الأقحوان الأبيض صار أقحوانًا ذهبيًا بفعل انعكاس الضّوء"، أمّا "أن دا ينغ" فلم يُعر كلامها اهتمامًا؛ فقد شعر أنها

تحدّث مع الزهور، فلا حاجةً لإجابتها، وعندما اقتربوا من مقرّ الوحدة كانت السماء قد أظلمت؛ فلم يعد بالإمكان رؤية ليس فقط الزهور البرية، بل حتى أشكال الأشجار؛ لذا توقّفت "لين دا هوا" عن الرثاء، وقد كان يعلم أنها تخشى الظلام؛ فقال: "لقد أوشك القمر على الظهور".

كانت تلك ليلةً ساطعةً لم يغمض فيها له جفنٌ، فظلّ واقفًا أمام النافذة، وكان ضوء القمر لامعًا، حتّى إنه رأى بوضوح الظلال الموجودة على سطح القمر، وفكّر أن الشمس عليها ظلال أيضًا، ولكن الناس لا يرونها بأعينهم المجردة؛ لأن الشمس تظهر في النهار، وظلالها تختفي تحت الضوء. أمّا خلفيّة القمر فهي الظلام الدامس؛ لذا فإن ظلاله التي تبدو وسط ضوئه تتراقص في الليل مثل الزهور.

وتنفيذًا لتعليمات القائد "وانغ" رتب "أن دا ينغ" عشاءً مُنفردًا لـ "لين دا هوا" بعد وصولها، وبعد انتهاء الوليمة اصطحبها القائد "وانغ" من عند "أن دا ينغ" إلى المبنى الأبيض الصغير الذي يقطن فيه القائد "يو".

بنى "لي تشي يو" أثناء تولّيه قيادة اللواء مبنًى أبيض صغيراً من ثلاثة طوابق في ركنٍ مُنعزلٍ شمال شرق الوحدة العسكرية، خصّصه لاستقبال الضيوف، الطابق الأول منه قاعةٌ طعامٌ وغرفةٌ حراسة، والطابق الثاني مُكوّن من ستّ غرفٍ ضيوفٍ، أمّا الطابق الثالث فيه جناحان كبيران، إضافة إلى غرفة ساونا، وغرفةٍ لِلعِب الورق، وقاعة سينما، وقاعة بلياردو، ويمكن رؤية نهر "جيلوا" من الشرفة الشمالية للجناح، أمّا الشرفة الجنوبية فتواجه حديقة الفاكهة الخاصّة بالمزرعة في منظرٍ رائع، وفي العادة حين يأتي قائد كبير للنزول في الجناح، يسكن معه قائدُ اللّواء في الطابق الثاني، كنوعٍ من الاحترام، لكن في الليلة السابقة لمُغادرة القائد "يو" للواء، وبعد دخول "لين دا هوا" إلى

المبنى، شاهدَ "أن دا ينغ" من حديقة الفاكهة القائدَ "وانغ" يخرج من المبنى، وليس هو وحده، وإمّا معه الحرسُ الخاصُّ بالقائد "يو" أيضًا، وباتوا ليلتَهم جميعًا في نُزُل اللّواء الصّغير المقابل للمبنى الأبيض. وكان الضوء ساطعًا في البداية في الجناح الشّرقيّ بالطابق الثالث، لكن بعدَ أقلِّ من رُبع ساعةٍ اختفى الضوء، هذا الضوء الذي اختفى كان بالنسبة لـ "أن دا ينغ" مثل قلب الحبيب الذي توقّف عن النّبض للأبد، وأوصّله إلى قِمّة اليأس؛ فكان يعلم أن الحِجامة تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة على الأقل، ولا يمكن أن تَتِمَّ في الظلام تَجَبُّبًا للإصابة، لكن أضواء الطابق الثالث بالمبنى الأبيض الصغير لم تشتعل ثانيةً في تلك الليلة، أمّا القمر فلم يُطفئ أنواره طوال الليل، إلا أن أشعته كانت مثل إبرٍ فولاذيّة تخرُ قلبَ "أن دا ينغ".

في اليوم التالي كان الجوُّ صحوًا، وبعد الإفطار صاحَب القائد "وانغ" القائدَ "يو" والوفدَ المرافقَ له في رحلة العودة، ومن أجل إظهار الصّدق في الوداع كان يتوجّب عليه مرافقتهم حتى محافظة "تشينغشان"، وبدًا على وجه القائد "يو" المستعدُّ للمُغادرة حُمرةً شديدةً وسعادةً غامرة، أمّا وجه "أن دا ينغ" الواقف بين جموع المودّعين فقد كان مُكفهرًا، وقلبه مثل الرّماد الميّت، فناده القائد "وانغ" إلى جواره ومدح مهاره "لين دا هوا" في الحِجامة، والتي بفضْلِها سُفي مرضُ القائد "يو" في ليلةٍ واحدة، ثم أوكلَ له مهمّة إيجاد سيّارةٍ وإعادة "لين دا هوا" من حيث أتت.

وبعد أن غادر القائد "يو" والوفدُ المرافق له، ساد الهدوء على الفور في فناء الوحدة العسكرية، فقد انطلّقت كلُّ السيارات الجيّدّة مع القائد "وانغ"، ولم يَعد أمام "أن دا ينغ" سوى قيادةٍ شاحنةٍ خفيفةٍ تُستخدَم لنقل الأفراد والبضائع من القسم اللوجيستي إلى المبنى الأبيض الصغير كي يأخذ "لين دا هوا"، وكانت تلك العربة قد نقلت لتوها دجاجًا حيًّا؛ لذا كانت تفوح منها رائحة براز الدجاج.



كانت "لين دا هوا" على نفس هيئتها التي جاءت بها، لكن الاختلاف الوحيد أنها لم تربط شعرها "ذيل حصان عالٍ"، بل صقفته في ضفيرةٍ وحيدة منخفضة تتدلى خلف رأسها، وهذا جعلها تبدو كأنها قَصُرَتْ عَقْلَةً. ويبدو أنها لم تَنَمَ جيِّدًا؛ فقد اسودَّ حول عينيها، وظهرت شُعيراتٌ حمراء في عينيها. وعندما صعدت إلى السيارة وجلست في المقعد بجوار السائق، احتضنت حقيبتها المصنوعة من لِحاء شَجَر البتولا بقوة مثل أم تُرَضِع وليدها وتحتضنه.

لم يَسِر بها "أن دا ينغ" في الطريق الكبير؛ فهذا الطريق يحمل آثار سيارات القائد "يو" والقائد "وانغ"، فالاختلاط بتلك السيارات سيُشعره بأنه صار مُلوِّثًا مثلهم؛ فسار على الطريق الصغير المحاذي لنهر "جيلوا".

"لماذا لم تَسِر في الطريق الكبير؟" سألته "لين دا هوا" بغضبٍ وهي تلتفت إليه ثم أضافت: "الطريق الصغير سيجعلنا نهتز كثيرًا".

فأمسك "أن دا ينغ" مقودَ السَّيَّارة بقوة وألقى نظرةً سريعة على مياه النهر ولم ينطق بكلمة.

"هل ترغب في أن تجعلني أشاهد نهر "جيلوا"؟ هذا النهر القَدِر رأيته لسنوات عديدة، واكتفيتُ منه"، هكذا صاحت "لين دا هوا": "أريد أن أسير على الطريق الكبير".

فردَّ عليها "أن دا ينغ" ببرودٍ: "الطريق الصغير سيوفِّر الوقت، وسأتمكّن من إرجاعِكِ سريعًا"، فحدَّجته بنظرةٍ خاطفة، وقالت: "ألا ترغب في البقاء معي وقت أطول"، ثم سدَّت أنفها وضغطت على الشباك الأيمن لتفتحه، وهي تقول: "ما بالُ تلك السَّيَّارة ممتلئة برائحة بُراز الدَّجاج؟".

"أليست مُناسبَةً تمامًا لتوصيلِكِ؟" قالها "أن دا ينغ" بلهجةٍ عميقة ذات مغزى، ثم ضغط بقوة على بدّال البنزين وسار بسرعةٍ جنونِيَّةٍ

لمسافةٍ تزيد عن عشرين لي، ومُصاحبةٍ صرخات الفرع المتقطعة الصادرة عن "لين دا هوا" ضغط بعنفٍ فرامل السيارة بجانب أرضٍ عُشبيةٍ مليئة بالزهور البرّية وتحاذي النهر. ثم ضغط على بوق السيّارة، أمرًا "لين دا هوا" أن تفتح حقيبتها ليري إذا ما كانت كؤوس الحجامَة الرُجاجة قد انكسرت أم لا.

فاحتضنت "لين دا هوا" حقيبتها بقوةٍ أكبر، وهي تقول: "بأيّ حقّ ترى أشياءي؟".

فلم يُجِبها، بل اختطف الحقيبة منها، وقبل أن يفتحها، انهمرت "لين دا هوا" في البكاء.

وفي اللحظة التي فتح فيها الحقيبة تصاعدت منها رائحةٌ حبر صباغة؛ فقد كان فوق كؤوس الحجامَة بالحقيبة طبقةٌ من النقود الجديدة فئة المائة يوان، عدّها "أن دا ينغ" بيديّ مُرتعشة، ثمانية رُزم، لو أن بكل رُزمة مائة ورقة، إذن فالمبلغ هو ثمانون ألف يوان، فأغلق الحقيبة وهو يرتعش، وأعادها لها، وأطلق ضحكةً باردةً ساخرة، قائلاً: "إنك حقًا عاهرة، بعثت نفسك بثمانين ألف يوان، هل هذا ثمّنٌ مُرتفع أم مَنّ بخس؟".

فرفعت "لين دا هوا" رأسها وقالت والدمعُ يلتمعُ في عينيها: "بأيّ حقّ تتدخل في شؤوني؟ إنها حرّيتي أن أفعل ما أشاء، هل تفهم معنى الحرية؟ أنا لا أكرث بسخريتك إن قلت إن الثمن مُرتفع أم بخس، ففتاةٌ في مثل ظروفٍ إن باعت ليلتها الأولى وعذريتها بمبلغ ثمانين ألف يوان مُكُنني من فتح دُكانٍ في شارع "يويِن شويه"، لأصبح صاحبةً عمليّ مثل "ليو شياو هونغ"، وأستطيع أن أعيش مثل البشّر بهامةٍ مُنتصبة ولا أضطرّ لسَماع صيحاتِ النَّاس في وجهي، إذن فهو مَنّ مُرتفع. والقائد "يو" لديه السُلطة والنُّقود، ونقوده ليست من مصادِر شريفة، أمّا أنا فقد جعلته يتذوّق طعم النُّوم مع عذراء،

فبالنسبة له فقد تذوق شيئاً جديداً وإنفاق نقودٍ قَدْرَةٍ في صَفَقَةٍ قَدْرَةٍ يجعل تلك الثمانين ألفاً مَنَّا بَخْسًا".

فلوَح "أن دا ينغ" بَقْبَضَتِهِ، وقال: "سأذهب لأبْلِغ عنه وزارة الحربية، زبون العاهرات الذي يكسو نفسه بملامح الفضيلة هذا".

"إذن فمن الأفضل أن تُبْلِغَ أيضاً عن القائد "وانغ"، فلو كان القائد "يو" زبونَ عاهراتٍ فالقائد "وانغ" قَوَادٌ"، ثم جَفَقَت دموعها، وقالت بلهجةٍ لا تخلو من السُّخرية: "وبالمناسبة، يجب إضافةُ شَخِصٍ آخر، حبيبة قلبِكَ "تانغ ماي"، إِيَّاكَ أن تعتقد أُنِّي بلهاء، أنتَ تُعامِلها أفضلَ مِنِّي، وسأصدُقُكَ القول: إنها هي مَنْ عرَفْتَنِي بالقائد "وانغ"، وَمَنْ لا يعلم علاقتها به؟ لكنِّي لم أركَ مَسُّ شَعْرَةٍ واحدةٍ منها. لو كنتَ تهتمُّ بي حقًا وتعلم أيضاً ما الذي جِئْتُ ليلَةَ أمسٍ لِفِعْلِهِ لَكُنْتَ أَمَسَكْتَ ببندقيَّتِكَ وقَتَلْتَ القائد "يو"، لكنِّي من البداية أدركتُ حقيقةَ مَنْ هُمْ على شاكلتِكَ من الرِّجال، تتصنَّع البطولة والعدالة من الخارج، لكنَّكَ ضعيفٌ من الداخل، لا أعلم حفيدٍ أُنِّي بَطْلٍ أنتَ؟ إنني أفضلُ أن أمنحَ ليلتي الأولى للنقود على أن أمنحها لفاشِلٍ، بالإضافة إلى أنك في نفس الوعاء المُنْتَسَخ، أُنِّي لك أن تكونَ نظيفًا؟ بالتأكيد أنتَ أيضاً فَقَدْتَ عُذْرِيَّتَكَ قبلي".

أمَّا المشهد الذي حدث تاليًا فلن تنساه "لين دا هوا" طوال حياتها، لقد صاح "أن دا ينغ": "سأريك ماذا يعني جَسْدُ شابٍّ بَتَوَلٍ"، ثم فتح باب العربة وسَحَبَ نَفْسًا عميقًا وقفَزَ منها، وعلى الأرض العُشْبِيَّة خَلَعَ ملبسَه كالمسحُوب التي تنقشع من أمام الشمس ليُعيدَ لنفسه جَسْدًا صافيًا تمامًا، فَبَدَا وهو واقِفٌ وسط الأعشاب التي تُلامِسُ رُكْبَتَيْهِ مثل تمثالٍ نُحاسيٍّ، ولمع جَسْدُه بلونٍ نُحاسيٍّ قديمٍ يثير الشَّهوات، أمَّا العضلات البارزة في صدره فَبَدَتِ أشبهَ بأكوام الأعشاب التي تنمو بالمستنقعات، مُمْتَلِئَةٌ بالحيويَّة والقوة. وقد تراقصت زهورُ السَّنْفِيَّةِ

الجَبَلِيَّةُ وَرَدِيَّةُ اللَّوْنِ مِنْ بَيْنِ الْأَعْشَابِ كَأَنَّهَا تَرْغَبُ فِي أَنْ تُغَطِّيَهُ، ظَلَّتْ تَتَرَاقَصُ عِنْدَ مَنْطِقَةِ عَائِتِهِ. وَقَتَهَا تَذَكَّرَتْ "لِين دَا هَوَا" كَرِشَ الْقَائِدِ "يُو" الضَّخْمِ، وَعَضَلَاتِهِ الْمَتْرَهْلَةَ الَّتِي رَأَتْهَا لَيْلَةَ أَمْسٍ؛ فَانْتَابَهَا إِحْسَاسٌ أَنَّهَا أَكَلَتْ طَعَامًا فَاسِدًا، وَرَغِبَتْ فِي الْقَيِّءِ، لَقَدْ أَخْضَعَهَا جَسَدٌ "أَنْ دَا يَنْغ" الْجَمِيلِ، لَكِنَّهَا بَعْدَ أَنْ قَفَزَتْ خَارِجَ السَّيَّارَةِ تَعَمَّدَتِ النَّظَرَ لِلسَّمَاءِ، قَائِلَةٌ: "يَا إِلَهِي، هَلْ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرَ سَوَادًا مِنْهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ؟ إِنَّهُ أَسْوَدٌ لِدَرَجَةٍ تُثِيرُ الرُّعْبَ، مَنْ يُمْكِنُهُ أَنْ يَلْقَى بِهِ فِي النَّهْرِ لِيُغْسِلَهُ وَيُرْجِعَهُ أَيْضًا مِنْ أَجْلِي؟".

وظَلَّتْ هَكَذَا رَافِعَةً رَأْسَهَا تَتَأَمَّلُ السَّحْبَ لِفَتْرَةٍ قَبْلَ أَنْ تَخْفِضَهَا، وَقَتَهَا كَانَ "أَنْ دَا يَنْغ" قَدْ ارْتَدَى مَلَابِسَهُ وَخَرَجَ مِنْ وَسْطِ الْأَعْشَابِ. وَعِنْدَمَا رَكِبَ السَّيَّارَةَ ثَانِيَةً وَسَارَ عَلَى الطَّرِيقِ كَانَ وَجْهُهُ غَارِقًا فِي الدَّمُوعِ، وَكَانَ يَقُودُ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ؛ فَقَالَتْ لَهُ: "أَلَسْتَ رَاغِبًا فِي أَنْ تُعِيدَنِي بِسُرْعَةٍ؟".

فَزَادَ مِنْ سُرْعَةِ السَّيَّارَةِ.

كَانَتْ "لِين دَا هَوَا" تَرْغَبُ بِشَدَّةٍ فِي الْبَقَاءِ مَعَهُ لَوْ قَتِ أَطْوَلَ، وَتَأَمَّلَتْ بِشَدَّةٍ أَلَّا يَكُونَ لِلطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ لِقَرْيَةِ "لُونْغِ تَشَان" نَهَايَةَ، لَكِنَّهَا هَمَهَمَتْ: "حَتَّى الْعَرَبَاتُ الَّتِي تَجْرُهَا الْأَبْقَارُ أَسْرَعُ مِنْهَا، يَا لِلْغَبَاءِ".

فَضْغَطَ "أَنْ دَا يَنْغ" عَلَى بَدَالِ الْبَنْزِينِ بِقُوَّةٍ، فَانْتَفَضَتِ السَّيَّارَةُ وَأَطْلَقَتْ هَدِيرًا عَالِيًا وَجَرَتْ بِسُرْعَةٍ مِثْلَ مَرِّ شَرَسٍ هَابِطٍ مِنَ الْجَبَلِ. وَصَارَتِ الرِّيَّاحُ الْمُعَاكِسَةُ حَوْلَهَا تَزَارُ بِقُوَّةٍ. وَعِنْدَ مَنْعَطٍ خَطِيرٍ عَلَى نَهْرٍ "جِيلُوا"، كَانَتْ تَرَقُدُ صَخْرَةً ضَخْمَةً بَعْرَضِ الطَّرِيقِ سَقَطَتْ مِنَ الْجَبَلِ أَثْنَاءَ الْأَمْطَارِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ "أَنْ دَا يَنْغ" تَفَادِيَهَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ بِسَبَبِ السَّرْعَةِ الْعَالِيَةِ، فَاصْطَدَمَتْ الشَّاحِنَةُ بِقُوَّةٍ وَطَارَتْ بِاسْتِدَارَةٍ فِي الْهَوَاءِ لِتَسْقُطَ دَاخِلَ النَّهْرِ.

وكان النهر عميقًا، وشديد التيار في تلك المنطقة، انقلبت الشاحنة على جانبها وسقطت فيه وغمرتها المياه بسرعة. أمّا الأمر الذي عجزت "لين دا هوا" أن تُسامح نفسها عليه طوال حياتها فهو أنه في اللحظة التي وقعت فيها الحادثة وتغطى جانب السيارة الأيسر بالماء بينما كان جانبها الأيمن لا يزال مُعلّقًا على سطح النهر، قامت أولًا بإلقاء الحقيبة بكل قوتها نحو الضفة، بعدها همت بفتح باب السيارة، لكن الوقت كان قد تأخر؛ فقد غاصت السيارة بسرعة كما لو كانت مملوءة بالرصاص، وسريعًا ما امتلأت كابينة القيادة بالمياه. ونتيجةً لمقاومة الماء تحوّلت كابينة القيادة إلى سجن، وصار من المستحيل فتح بابها. وفي اللحظة التي شارفت فيها على الغرق، استخدم "أن دا ينغ" كل قواه لكي يدفعها خارج النافذة، وبينما كانت تُجاهد للسباحة إلى الضفة، غاصت السيارة تمامًا إلى قاع النهر، تاركة خلفها دوامةً كبيرةً، ولم يبق لها أي أثر.

فتحة النجاة الضيقة كانت هي فتحة المصير بالنسبة لهما، فقد أرسلت فتاةً إلى ضفة الحياة، لكنها أعاقت جسد شاب قويّ صخيم، لتبقى على ضفة الموت، ولتجعله يصير سَمكةً في الأعماق.

وبعد شهرٍ، صار "أن دا ينغ" بطلًا، وتمّ دفنه في مقبرة الشهداء بـ "تشينغشان" ليصير رفيقًا لجده.

## 10

### مِنَ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ

اعتمد تحوُّل "أن دا ينغ" إلى بطلٍ على قَلَمَيْنِ: قلم "سوران" البارِع، من قسم الدعاية بمنطقة مدينة "لين" العسكرية، وقلم "دان أر دونغ" المُبدِع من اتحاد الآداب والفنون بمنطقة "سونغشان"، أي أن دخول "أن دا ينغ" إلى مقبرة الشُّهداء كان الفضل فيه لقلم الجيش الذي شَنَّ الهجوم أوَّلًا، ثم قَلَمٍ من الحكومة المحلية قام بدور الدَّعم والمساندة. بعد أن انفصل "دان أر دونغ" والعمَّة "دان سيه" لم يُعَد ولا مرَّة إلى بلده؛ لذلك شعر بحَرَجٍ شديد عندما رتَّب رؤساؤه أن يقوم هو بالكتابة حول "أن دا ينغ"؛ فكان يخشى أن يرى زوجته السابقة وجيرانه القدامى بالقرية، بالإضافة لأنه لا يحبُّ الكتابة عن الأبطال؛ فهذا النوع من الشخصيات يحتاج لأن ترفعه إلى أرقى المراتب، وهذا ليس من ضمن مهاراته. ورغم ذلك لا يستطيع رفض الذهاب؛ فقد قال رئيس اتحاد الآداب والفنون بمنطقة "سونغشان" أن تلك المهمة جاءت

بتكليفاتٍ من المنطقة العسكرية بمدينة "لين"، وهذا أمر متعلّق بالعلاقة بين الجيش والحكومة المحلية، أي أنه على درجة كبيرة من الأهمية. وكان هو الاختيار الوحيد لتنفيذ ذلك اللقاء الصحفي؛ فأسلوبه في الكتابة جميل، وكذلك فالفتاة التي أُنقِذت موجودة في قرية "لونج تشان"، وهو على دراية بأحوال تلك المنطقة.

وعبر خمسة أيام تنقّل "دان أر دونغ" بين لواء الثعالب البريّة وقرية "جويواوين"، حيث قابل زملاء "أن دا ينغ" في الجيش، ووالده، وكانت محطّته الأخيرة هي قرية "لونج تشان". ونظرًا لأن تقرير الجيش قد صدر أوّلًا، ونشّرت الصحيفة العسكرية للمنطقة العسكرية بمدينة "لين" مَقَالًا يحمل توقيع "سوران"؛ لذا فقد كان المطلوب من "دان أر دونغ" هو إضافة بعض من الدماء والروح إلى مآثر "أن دا ينغ". لقد مدّحه زملاؤه في الجيش بكلماتٍ مختلفة ونغمةٍ واحدة، فمَثَلًا قالوا إنه كان يواظب على التدريب حتى لو أصابته الإنفلونزا والحُمى، وكان دائمًا يساعد الزملاء في الوحدة اللوجيستية لإطعام الخنازير وزراعة الخضروات، ورغم أن منزل أسرته في نفس المنطقة إلّا أنه كان دائمًا يقضي عيد الربيع في الوحدة، ويقف مع جنود الحراسة في مُناوَبَتِهِمْ. كما كان يجيد حلاقة الشّعر؛ فكان يساعد الجنود على حِلَاقَةِ شَعْرِهِمْ تَطَوُّعًا، وكان يحبُّ العامّة، فإن رأى أثناء قيامه بأعمال الدورية أبقارًا أو أغنامًا تائهةً كان يتتبّع أثرها حتى يعيدها لأصحابها، وقد شعر "دان أر دونغ" من حكايات هؤلاء الجنود أن هناك قصصًا حقيقيّةً وأخرى مُفبركة. تلك المآثر المُفبركة هي بالتأكيد بتدبير من القادة، وهو يفهم هذا الأمر جيّدًا، لكن بَعْضُ النَّظَرِ عمّا إذا كانت حقيقيّةً أم مُفبركة فكلُّ تلك اللقاءات مُسجّلة، وعن طريق تحويلها إلى كلماتٍ مَكْتُوبَةٍ يمكن اعتبارها صوتًا حقيقيًّا.

أمّا ما تحصّل عليه "دان أر دونغ" في قرية "جويواوين" فكان قليلًا جدًّا؛ لأن هؤلاء الرّيفيّين من قوميّة "الإيلوينتشوين" صرّحاء

للغاية، ويتحدثون دون أيِّ مُوَارَبَةٍ، فمنهم مَنْ قال إن "أن دا ينغ" لا يُعَدُّ بَطْلًا؛ لأن الشَّرْطَ الأساسيَّ لإنقاذ الآخرين هو أن تكون لديك القدرة على إنقاذ نَفْسِكَ، ولا يجب أن تُضَيِّعَ حياتَكَ من أجل ذلك، ومنهم مَنْ قال إنه كان يُحِبُّ في صِغَرِهِ تَنَاوُلَ اللَّحْمِ النَّيِّئِ، وقتها كان جَسَدُهُ قَوِيًّا حَقًّا يُمكنه تحطيم صخرة بِرَكْلَةٍ واحدة، وقد حُجِسَ داخلَ السَّيَّارة، ولم يَسْتَطِعْ أن يخرج من النافذة الجانبية مثل "لين دا هوا" ضئيلة الجسد، أفلم يَكُنْ قَادِرًا على رَكْلِ الزجاج الأمامي بِقَدَمِهِ ليكسِرَهُ وينجو بحياته؟ لكنَّه لم يفعل؛ ممَّا يوضِّح أن طعام الجيش خالٍ من السُّعرات الحرارية؛ ممَّا أضعَفَ جَسَدَهُ وألان ساقه، وهذا ما تَسَبَّبَ في موته. وهناك أيضًا مَنْ قال إنه تَبَوَّلَ في النهر في صِغَرِهِ؛ ممَّا أغضبَ آلهةَ المياه؛ وهذا ما تَسَبَّبَ في مقتله. وبوَجْهِ عام، كانت كلها مقولاتٍ لا يُمكن كتابتها أو الاعتماد عليها، أمَّا الشخصية المِحوَرِيَّة "أن تاي"، فقد كان أكثرَ صِدَامِيَّةً، فعندما تَلَقَّتْ أُسْرَةً "أن" الخبرَ أوشَكَتْ أعصابه على الانهيار، وأثناء اللقاء الصحفي كان مُطَاطِئُ الرَّأسِ، مُلتَزِمًا الصَّمْتِ، ووقف في الليلة السابقة لمُغَادَرَةِ "دان أر دونغ" لقرية "جويواوين" نظر إليه مطوِّلاً، ثم قال بصوتٍ ثقيل: "ما هي مؤهلاتُكَ لِعَقْدِ لِقَاءِ صَحْفِيٍّ معي وأنتَ قد قَطَعْتَ كُلَّ مِشاعِرِكَ تجاهَ زَوْجَتِكَ السَّابِقَةِ وابِنِكَ؟ كيف ستفهم أَلَمْ فَقَدِ أبُ لابنه؟". كلماته تلك جعلت "دان أر دونغ" يُطَاطِئُ رَأْسَهُ ولا يجرؤ على النظر لعينيه، ولقد كان يأمل أن يحصل على إضافاتٍ من لقائه الصحفي مع "جيه شيو لي"، لكنَّها لم تكن موجودة. فَبَعْدَ مَصْرَعِ "أن دا ينغ" جاء "أن دا تشينغ" الذي يدرس في معهد القوميات بمدينة "لين" للمشاركة في الجِنَازَةِ، وبعد أن فَقَدَتِ ابنها استأجرت شَقَّةً في مدينة "لين" ولازَمت "أن دا تشينغ" مثل ظِلِّهِ في الصَّبَاحِ والمساء.

ورثب اتِّحاد الآداب والفنون بمنطقة "سونغشان" إقامة "دان أر دونغ" في نُزُلِ الشَّمْسِ الحمراء؛ وذلك لتسهيل لقائه مع الفتاة التي



وَقَعَتْ لَهَا الْحَادِثَةُ، لَكِنَّهُ عِنْدَمَا غَادَرَ قَرْيَةَ "لُونِغْ تَشَان" كَانَتْ "لِين" دَا هُوَا" لَا تَزَالُ طِفْلَةً، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا النُّزُلُ مَوْجُودًا.

لَكِنَّهُ بَعْدَ نَزْوِلِهِ فِيهِ عَرَفَ أَنَّ "لِين" دَا هُوَا" تَرَكَتِ الْعَمَلَ فِي النُّزُلِ بَعْدَ مَصْرَعِ "أَنَّ دَا يَنْغْ". فَإِنَّ أَرَادَ عَقْدَ لِقَاءٍ مَعَهَا فَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ الْذَهَابُ لِمَنْزِلِهَا، إِلَّا أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمَذْخَنَةَ كَانَتْ مَشْهُورَةً بِصُعُوبَةِ إِرْضَائِهَا؛ لِذَا رَاوَدَتْهُ فِكْرَةٌ إِبْغَاءِ الْأَمْرِ.

بَعْدَهَا اشْتَرَى صِنْدُوقَيْنِ مِنَ السَّجَائِرِ مِنَ السُّوقِ الْجَنُوبِيِّ كِي يَكُونَ هَدِيَّةً طَلَبِ مُسَاعَدَةٍ مِنْ "لَاو وَاي"، فَهُوَ لَا يَجْرُؤُ عَلَى طَلَبِ مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَةِ الْمَحَلِّيَّةِ؛ فَقَدْ خَشِيَ أَنْ يَبْصُقَ عَلَيْهِ "تَانِغْ هَانْ تَشِينِغْ"، فَفِي السَّنَةِ الَّتِي تَخَلَّى فِيهِ عَنْ زَوْجَتِهِ وَابْنِهِ سَبَّهُ "تَانِغْ هَانْ تَشِينِغْ" بِأَنَّهُ قَدْ جَلَبَ الْعَارَ لِكُلِّ أَهَالِي قَرْيَةِ "لُونِغْ تَشَان"، وَقَالَ عَلَى الْمَلَأِ إِنَّهُ "لَوْ تَجَرَّأْتُ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى هُنَا مَرَّةً ثَانِيَةً فَسَأَكْسِرُ سَاقَهُ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ تِلْكَ جَرِيمَةً"، فَكَمَا قَالَ "تَانِغْ هَانْ تَشِينِغْ" إِنْ زَوْجَتَهُ هِيَ أَقْبَحُ امْرَأَةٍ فِي الْقَرْيَةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهَا؛ لِذَا فَتَخَلَّى "دَانْ أَرْ دُونِغْ" عَنْ زَوْجَتِهِ هُوَ قِمَّةُ انْعِدَامِ الضَّمِيرِ وَالْأَخْلَاقِ، لَكِنْ "دَانْ أَرْ دُونِغْ" لَمْ يَقِفْ مَكْتُوفَ الْأَيْدِي، بَلْ نَاطَحَهُ قَائِلًا: "لَوْ لَا وَجُودَ شَقِيقِ زَوْجَتِكَ، لَكُنْتُ طَلَّقْتُ "تَشِينْ مَائِي تَشِينْ" مِنْ زَمَنِ بَعِيدٍ، فَلَا تَتَصَنَّعِ الْأَخْلَاقَ أَمَامِي".

كَانَ ذَلِكَ فِي صَبَاحِ بَدَايَاتِ الْخُرَيْفِ، وَكَانَ "لَاو وَاي" مَشْغُولًا فِي الْعَمَلِ بِغُرْفَةٍ صُنِعَ "الدُّوْفُو" الْمَلِيئَةُ بِالضَّبَابِ، فَسَمِعَ طَرَقَاتٍ عَلَى الْبَابِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ مَنْدُوبٌ أَحَدِ الْمَطَاعِمِ جَاءَ مُبَكِّرًا لِاسْتِلَامِ "الدُّوْفُو"، فَصَاحَ عَلَى عَجَلٍ: "لَا يَزَالُ يَحْتَاجُ إِلَى سَبْعِ أَوْ ثَمَانِي دَقَائِقَ، انْتَظِرْ قَلِيلًا".

فَقَالَ "دَانْ أَرْ دُونِغْ": "أَيُّهَا الْأَخُ "وَاي"، أَنَا "أَرْ دُونِغْ"."

فَشَهَقَ "لَاو وَاي" بِصَوْتٍ عَالٍ وَقَالَ: "إِنَّهُ حَقًّا أَنْتَ، لَقَدْ سَمِعْتُ بِالْأَمْسِ أَنَّكَ أَتَيْتَ، لَكِنِّي لَمْ أُصَدِّقْ، يَا لَكَ مِنْ شَجَاعٍ، أَلَا تَخْشَى أَنْ يُعْرِقَكَ النَّاسُ هُنَا بِبِصَاقِهِمْ؟".

حينما غادر "دان أر دونغ" قرية "لونغ تشان" في تلك السنة لم يُودَّعه سوى شخصٍ واحدٍ، وهو "لاو واي". فقد دعاه إلى أفضل مطعم صغير بالقرية وقتها، وطلب أربعة أطباقٍ صغيرة وشربًا الخمر سويًا، وعندما شربًا حتى الثمالة، طرَّق "لاو واي" المنضدة بعصيّ الطعام وقال: "إن لم تُعد تُحبُّ امرأةً وطلَّقتها فهذا لا يشينك كرجُل، ارفع رأسك واصنعْ سعادتك مع مَنْ تُحبُّ، فعلى أيِّ حال، بعد أن تزول السعادة فالإنسان مصيره الموت، وهناك الكثير من المرء الذي ينتظركَ لتتجرَّعه". هذا الكلام سمَّعه صاحب المطعم الصغير فعضَّ على أسنانه من شدَّة الغضب، وسبَّهما قائلاً إنهما صُحبةٌ فاسدة، وحقَّالةُ الرِّجال، ولم ينتظرهما كي ينتهيا من الطَّعام والشُّراب وطردهما خارج المطعم، حتى إنه لم يأخذ منهما ثمنَ الأكلِ والشُّرب، قائلاً إنَّه سيعتبر نفسه قد أطمعَ كلبين. وهكذا انتهت وجبةُ الوداع تلك بشكلٍ غير سارٍّ، لكن "دان أر دونغ" ظلَّ يذكُر في قلبه تفهُم "لاو واي" له.

جذب "لاو واي" ذراع "دان أر دونغ" إلى خارج غرفة صُنع "الدوفو" وتفحصه بدقَّة تحت ضوء الشمس، ثم همهم قائلاً: "لماذا أنت شديد النحافة هكذا؟ إنَّك رجُلٌ يعتمد في حياته على الكتابة وله مرَّتُب ثابتٌ، ولا تقلق بشأن المأكَلِ والملبَس، لست مثلي أنا الذي أخرج وسط الرِّياح وأعود وسط الأمطار كي أبيع "الدوفو"، وكيف تراجع شعرك حتى بانَّت صلعتُك، والبُقَّع على وجهك أكثر ممَّا على وجهي؟ هل زوجتُك الثانية شابةٌ للغاية فأرهقتك على السَّرير وامتصَّت حيويَّتكَ؟ أو أنكَ تكتب كثيراً حتى التَّعب؛ ممَّا أتلَّف رأسك".

فضحك "دان أر دونغ" ضحكةً مريرةً، وقال: "نعم أيُّها الأخ "واي"، إنَّك أكبر منِّي بسنتين، لماذا لا تظهر عليك علاماتُ الكِبَر؟ يبدو أنكَ في تلك السنوات قد أكلتَ الكثير من "الدوفو"<sup>(1)</sup>".

(1) "يأكل الدوفو" مصطلح يحمل معنى آخر في اللغة الصينية، وهو "مُعاشرة النساء" - المترجم.

ولقد التقط "لاو واي" ذلك المعنى المزدوج في كلامه، فقال ضاحكاً: "هذا صحيح، فأنا أبيع "الدوفو" لأكسب القليل منه، وكل عشرة أيام أو نصف شهر، عندما أشتاق لذلك "الدوفو"، أركب درّاجتي إلى المدينة؛ فأنا شخصٌ بلا وظيفة ولا سُلطة، لستُ مضطراً لفعل ذلك في الخفاء. فهناك مجموعة من صالونات الحلاقة في الميدان الأمامي لمحطة المدينة بمحافظة "تشينغشان"، والكل يعرف أنها في الحقيقة بيوت دعارة، يُمكنك أن تدخل الدار التي تحلو لك، وترى مَنْ تروق لك، لتتفق على السعر، بعدها تمرح كما شئت، في الماضي عندما كنتُ شاباً، كنتُ أحبُّ تبديل الأوضاع، أمّا الآن فقد كبرتُ في السنّ، كل ما أحْتاجه هو سعرٌ رخيصٌ، وامرأةٌ صادقة، وأن أُوفّر طاقتي، وإلا فلن أجد لديّ القدرة على قيادة الدراجة في طريق العودة، لا يمكن عدم الاعتراف بتقدّم السنّ".

كلماته تلك أضحكت "دان أر دونغ" من قلبه، وقال: "إنك حقاً تعيش حياتك كما يحلو لك".

فأطلق "لاو واي" زفرةً لا تخلو من الرضا، وهو يقول: "سعادة لا مُبرر لها".

وهنا قدّم له "دان أر دونغ" السجائر، وطلب منه أمرين، الأول: هو أن يطلب من المرأة المدخنة أن تسمح له بعقد لقاء صحفي مع "لين دا هوا"، والثاني: هو أن يأخذه ليرى العمّة "دان سيه" وابنه "دان شيا"؛ فهو يخشى إن ذهب وحده ألا يفتحاً له الباب. وقد خشي أن يرفض "لاو واي" هذا الطلب؛ فأخبره أنه قد جمع للأُم وابنها مبلغ عشرة آلاف يوان، ويرغب في إعطائه لهما. فرقت عين "لاو واي" بقوة، كان في الحقيقة يرغب في أن تبدو طبيعياً، لكن مع ذلك الضغط المفاجئ صارت قزحيّتا عينيه مثل التوأم الذي التصقا ببعضهما، أمّا بياض العين ذو المساحة الكبيرة فقد أعطى لمن يراه شعوراً بالخواء.

ثم قال: "ليس الأمر أنني غير راغبٍ في مساعدتِكَ، لكن هذان الأمران أصعبُ من بعضهما؛ فأنت تعلم أنني أحبُّ "هاو باي شيانغ"، ولكن المرأة المدخنة منذ أن ارتبطت بـ "وانغ تشينغ شان" منعتَه من تناول "الدوفو" الذي أصنعه، بل زادت على ذلك أنها منعتَه من زيارة قبرها، أي أسرة تلك في رأيك التي لا تزور موتاها في العام الجديد؟ لقد صارت "هاو باي شيانغ" وحيدةً هناك لا أحد يزورها، وهذا ما لم يتحمّله قلبي، فصرتُ أخذ "الدوفو" والخمر واللحم وأشتري رزمةً من الأوراق المخصّصة للحرق وأذهب لزيارة قبرها في السابع والعشرين من الشهر الثاني عشر من كل عام صيني، لكن من كان يتوقّع أن يراني أحدهم وأنا أزور قبرها، ويهمس بذلك في أذن المرأة المدخنة، ومن وقتها صارت تكرهني أكثر، وتقول بأنني أتدخل في شؤون أسرتها الخاصة، هل برأيك الشخص الذي يُعاندُ الأموات يمكن أن نعتّبه إنساناً؟".

فقال "دان أر دونغ": "إنها حقًا متطرّفة النّزعة".

لكن يبدو أن "لاو واي" لم يدرك معنى كلمة "متطرّفة النّزعة" وسط هذا السياق؛ لذا رفّ بعينه بقوة أكبر، وفي تلك المرة لم يتلاقَ سوادُ عينيه، بل انسابَ من زاوية العين إلى منتصفها، فصار وجهه مُتناسقًا فجأة، ثم استطرد كيف أنّ الأمر الثاني صعبٌ أيضًا: "إنّ طباع العمّة "دان سيه" أنت على علمٍ بها، إنها قويّة، لكن الحياة لم تدع لها أيّ مجالٍ تكون فيه أقوى من غيرها، إنها امرأةٌ بلا رجل، تعول ابناً نصفَ أبله، ما شعورها؟ إنك كاتبٌ، يجب عليك أن تكون قد خبرت مثل هذا الشعور، فلو لم تُطلّقها، فلرّبما ما فقد "دان شيا" عقله، وربّما عاشت هي في سلام، إن الشقاء الذي عاشته تلك الأم وابنها خلال السنوات الأخيرة، كيف يمكن أن تُعوّضه عشرة آلاف يوان؟ من أهل القرية لا يعرف كُرّها لك؛ لذا لا يمكنني أخذك إلى هناك حتى لا يصير لدينا قتيلاً آخر مثلما حدث في منزل "شين تشي زا". إن

قوى "دان شيا" العقلية مضطربة، فلو قتلَكَ فستموتُ هباءً؛ فهو لن يُعاقب على ذلك، فلتعدّ وزنَ الأمر ثانيةً، ثم أعقب كلامه بوضع السّجائر على عتبة النافذة الموجودة بالفناء، والتفّ عائداً إلى الداخل، متعللاً بأن الوقت قد حان لرفع "الدوفو".

فجلس "دان أر دونغ" بجوار حَجَر الطاحون في الفناء، وبدأ في التدخين. كان يعرف أن "وانغ شيو مان" قد قُتلت على يد ابنها بالتبني، وسمِعَ أيضاً أن "شين شين لاي" بعد أن قتلها، وقبل أن يهرب اغتصبَ "أن شويه أر". تلك الفتاة كانت في قلبه دائماً كملاكٍ حطّ بين البشر، لكن يبدو أنه لا شيء مقدّس لا يُمكن انتهاكه في هذا العالم. كان يفكّر في الأساس أن يعقد لقاءً صحفياً مع المُطرزة أيضاً؛ لتحدّث معه عن انطباعاتها عن حفيدها، لكنّه سمِعَ أنّها مريضة، وأخفت عنها عائلتها أمرَ ما حدث لـ "أن دا ينغ". أمّا بالنسبة للعمّة "دان سيه"، فهو لا يخشى رؤيتها، فعلى أيّ حال هو في نظرها قاتلٌ بدمٍ باردٍ لا يُضاهي كلباً أو خنزيراً، إن من يخشى لقاءه هو ابنه الذي صار أبله، إنه بمثابة بندقية حَفِيّة مُصوّبة إلى صدره.

بعد أن انتهى "لاو واي" من رفع "الدوفو" عادَ مرّةً ثانيةً إلى الفناء، وقتها كان "دان أر دونغ" قد انتهى من سيجارته السّابعة، فنظر "لاو واي" إلى أعقاب السجائر ذات اللونين الأصفر والأبيض والمُلقاة على الأرض، فانفطر قلبه حتى كادت عيناه أن تسقطَ من محجريها، وقال بصوت مهزوم: "إنك حقاً تتكسّب من مُرتّبك ومن كتابة المقالات، الأعقاب التي ألقيتها كبيرةً للغاية".

فضحك "دان أر دونغ" بأسى؛ فقد كان هو أيضاً يُشفيق على السجائر، إلّا أنه اليوم مضطرب الذهن، ويشعر بمرارة في فمه؛ فتوهم أن طعم السجائر به شيء غير طبيعي؛ لذلك لم يُدخّن سيجارةً واحدةً حتى نهايتها.

وضع "لاو واي" "الدُوفو" في السَّلَّة التي يحملها بعصا على كتفه، ثم دَسَّ صندوقَي السَّجائر التي أحضرها "دان أر دونغ" في حقيبة خَصْره العسكريَّة والتي يحملها دائماً معه، وقال إنه يمكن أن يأخذه إلى السُّوق الجنوبيَّة ليُهدي تلك السَّجائر للمرأة المدخنة، ثم يُتبعها بكلامٍ مَعسولٍ، وليُجربَ حَظَّهُ، ولو استطاع أن يُجري لقاءً مع "لين دا هو"، فهو يأملُ منه أن يُساعدَه في أمرٍ ما.

فسأله "دان أر دونغ": "أي مساعدة؟".

فحمل "لاو واي" العصا، وجحَظت عيناه وهو يقول: "إنَّ قلمَكَ بارعٌ، ساعدني في إطلاقِ نداءٍ كي يوصلوا شبكة الإنترنت لنا، وسأشتري كمبيوتر، وسأنشئُ لنفسِي بيتين على الإنترنت: بيت أتزوِّج فيه زوجةً صالحه، ولن أجعلها تُحدِّد النِّسل؛ كي تُربِّي لي مجموعةً من الأطفال، وتزرع الحقل وتُربِّي الزهور وتُطعم الدجاج والبط والإوز والكلاب، ولنعيشَ معاً حياةً هادئةً مريحة".

فقاطعه "دان أر دونغ" قائلاً: "هل تريد أن تصبح "تاو يوان مينغ" <sup>(1)</sup>؟".

لم يعرف "لاو واي" مَنْ هو "تاو يوان مينغ"، فبرق بعينه وسأل: "مَنْ هذا المُلقَّب بـ "تاو"؟".

فظهرت ضحكةٌ ساخرةٌ على وجه "دان أر دونغ"، لكن "لاو واي" لم يَلتفت لها، بل واصل رَسَمَ شكل البيت الثاني: "أمَّا البيت الثاني فسأكون فيه أعزب، سأبني قِيلًا، وبها عربتان فارهتان، وسأفتح صالة قمار، وبيت دَعارة، ومَجْرزًا. سأجعل مَنْ حَقَّقوا ثروةً بلا تعب يذهبون لصالة القمار؛ كي أنظف ما لَطَّخ أجسادهم من أوساخ، وأجعل الرِّجال يذهبون قبل الزواج إلى بيت الدَّعارة كي يتعلَّموا كيف يتعاملون مع

(1) شاعرٌ صينيٌّ قديمٌ اشتهر بانعزاله عن العالم المادِّي حتى صار مثلاً لذلك - المترجم.

زوجاتهم في المستقبل، أمّا المجرز، فسأخصّصه لذبح الموظّفين المرتشين والفاستدين".

تلك التخيّلات المتعلّقة بالبيتين على الإنترنت جعلت "دان أر دونغ" ينفجر في الضحك، ويقول: "يا له من خيالٍ خصبٍ، يُمكنك أن تصير أديبًا"، ثم طلب منه أن يحتفظ بالسجائر قائلًا إنها هدية له، وسيشتري غيرها للمرأة المدخنة.

فقال "لاو واي": "هل هناك تكليفٌ بيننا؟ انتظرني بعد أن أنتهي من بيع "الدوفو"، واعزمني في المساء لشرب الخمر في نُزل الشمس الحمراء، الخمر والطعام هناك غال، ونحن فقراء لا نجرؤ في العادة على الدخول هناك، والآن هي فرصةٌ مناسبةٌ لأستغلّك".

فلم يتصنّع "دان أر دونغ" التكلّف، وقال: "حسنًا".

فأضاف "لاو واي": "امشٍ معي لتكون في أمان، فالعمّة "دان سيه" على وشك الذهاب للسوق الجنوبية في هذا الوقت لبيع الفطائر، ولو ضربتك بشيءٍ ما يُمكنني أن أدافع عنك بعصاي".

وهنا انتاب "دان أر دونغ" شيءٌ من الفزع.

وهكذا سار "لاو واي" في الأمام حاملاً العصا على كتفه، وخلفه سار "دان أر دونغ" مطأطئ الرأس، وخرجًا من المدخل الشمالي للقريّة. لم يجرؤ على رفع رأسه والنظر للناس، لكن نداءات "لاو واي" طوال الطريق لبيع "الدوفو" جعلت الأنظار تتّجه نحوهما، وقد تعرّف عليه بعض الناس، وكان كلٌّ من يتعرّف عليه قد سمع أنه عاد كي يكتب عن "أن دا ينغ"، فمنهم من سأله كم يكسب من الكتابة عن الأبطال؟ ومنهم من سأله إن كان قد اشترى سيّارةً يركبها أم لا؟ ومنهم من سأله ما هي كُتبه الجديدة؟ ومنهم من سأله إن كان حرقُ الموتى في المحرقة هو أمرٌ مُخيفٌ؟ ومن سأله إن كان دخول المراحض العامّة في مدينة "سونغشان" برسومٍ حقًا؟ ومن سأله إن

كانت زوجته الثانية أصغرَ منه بعقدٍ كاملٍ؟ بوجهٍ عامٍّ، كان الأمر الذي لم يتوقَّعه هو أنَّ النَّاسَ كانوا يسألونه بأريحيةٍ، لم يُوجَّه أحدُهم سِهامَه نحوَه، ولم يَبْصُق عليه أحدٌ، وهذا أثرٌ فيه حتى سال مُخاطبُه، فأجاب عن أسئلة كلِّ شَخْصٍ فيهم بحرارةٍ، وبشكلٍ وافيٍّ. أمَّا الأكثرُ طَرافَةً فكانت "تشين ماي تشين"، فعندما رأته في شارعٍ "لونغجي" لم تسأله أيُّ سؤالٍ، بل صاحت "هاي"، لقد عامَلته بالضبطِ كما كانت تُعامِلُه منذ سنين مَضَتْ باعتباره سكرتيراً في حكومة القرية، وناولته بحُكمِ العادة الحَقِيبَةَ الَّتِي فِي يَدِها، فاحمَرَّ وَجْهُه، وأبعَدَ يَدَه، لكنَّه في النهاية التقط الحَقِيبَةَ منها، وقد فكَّر في أنه لو فشل "لاو واي" في مَسعاهُ، فسَيُمكنُه أن يطلبَ العَوْنَ منها؛ فهي ملكة السوق الجنوبية، وهي المسؤولة عن المرأة المدخنة.

كانت "تشين ماي تشين" آتيةً من ناحية المُنحَدَرِ الغربيِّ، وقد ذَهَبَتْ منذ الصباح الباكر إلى منزل ابنتها، لأنها سمِعَتْ أن "لين شان تساي" صاحب مصنع أثاثٍ "شي شوين جيا" من مدينة "سونغشان" قد وَقَعَ في غرامٍ "تانغ ماي". هذا الرَّجُلُ في الثامنة والعشرين، ورغم ملامحه الفُظَّة، والوحمة الكبيرة على جبهته، والأكياس المنتفخة حول عينيه، إلَّا أنه قويُّ البنية، ويحمل سِمَاتِ الرَّجُولَةِ، والأهم من هذا كلُّه أن أُسْرَتَه رفيعة المستوى، تتخطى ثروتها العشرة ملايين، وبالإضافة لذلك فهو يملك نفوذ سياسي، حيث إنه عضوٌ مَجْلِسِ الشَّعْبِ لمدينة "لين"، ونائب الرئيس التنفيذي لرابطة رجال الأعمال بمنطقة "سونغشان"؛ لذلك كان بالنسبة لـ "تشين ماي تشين" شخصيَّةً كامِلَةً بلا عيوب، ولو تزوَّجته "تانغ ماي" لَتَمَتَّعت بثراءٍ وعِزٍّ لا ينتهيان.

تعرَّف "لين شان تساي" على "تانغ ماي" عندما كان في طريقه إلى ميدان الصَّيد في قرية "جويواوين" رفقةً أصدقائه. وقتها أصابته بثورٌ كثيرةٌ في وجهه ممَّا أصابه بحكَّةٍ شديدة؛ لذا أمر سائقه عندما مرُّوا بالوحدة الصحية بقرية "لونغ تشان" أن يذهب ويأتيه بوصفَةٍ طبيَّة،



عندها رأى "تانغ ماي"، تلك النظرة لم يقدر على نسيانها. وهكذا لم يَبِثْ في ميدان الصيد سوى ليلةٍ واحدة، عاد بعدها من فوره لقرية "لونغ تشان"، وأقام في نُزُلِ الشَّمسِ الحمراء، وبدأ في مُطاردة "تانغ ماي"، إلا أنها لم تُعِرْه أيَّ اهتمام، فلم يَعُدْ أمامه سوى أن يغادر، مُجْرَجاً ذيول الخيبة.

وهكذا أتت "تشين ماي تشين" لتَنصَحَ ابنتها؛ فكانت ترى أنه ليس من الصواب رفض "لين شان تساي".

فقالت "تانغ ماي": "إن له جسداً مليئاً بالدهون، ووجهاً قروياً، ما إن تراه حتى تعرف أنه مُحدث نعمة، ما الجيد فيه؟".

فردت عليها والدتها: "في هذا الزمن، أيُّ مِمَّنْ حَقَّقُوا الثروات ليس مُحدث نعمة؟".

فقالت "تانغ ماي" ببرودٍ وهي تُصَفِّفُ شَعَرَ "تشين يوان": "لقد قُلْتُ من قبل إنني سأقضي عُمرِي كُلَّهُ مع "تشين يوان"، لا تشغلي بآلكِ بهذا الموضوع بلا طائل".

فردت عليها "تشين ماي تشين" بوجهٍ مُكفَّهٍ من الغيظ: "إذن ماذا تُسمِّينِ علاقتكِ بالقائد "وانغ"؟ لا تظنِّي أنني لم أسمع بالأمر، إن القائد "وانغ" لديه زوجة وأولاد، وسلوككِ هذا يُعدُّ تدميراً لزوجٍ عَسْكَرِيٍّ، هل تَعِينِ الأمر؟ فحَتَّى لو طَلَّقَ زَوْجَتَهُ وَتَزَوَّجَكَ، فلن أوافِقَ أنا أو أبوك، أيُّ فتاةٍ ناضجةٍ عاقلةٍ تَقْبَلُ بلا سببٍ أن تكون زوجةً تاليةً لأحدهم؟ بالإضافة إلى أن ذلك القائد "وانغ" ذو وجهٍ أبيضٍ مُخَنَّثٍ لا يُعْتَمَدُ عليه، أتى له أن يشبه "لين شان تساي"، لقد ذَهَبْتُ أنا وأبوكِ إلى نُزُلِ الشَّمسِ الحمراء لرؤيته، هو رَجُلٌ ذو وجهٍ أَسْمَرٍ، مهما تَفَحَّصْتِ فيه ستجديه شخصاً صادقاً".

وما إن انتهت من كلامها حتى همست "تشين يوان" بعبارة: "الوجه الأسمر الذي يَقْتُلُ الخنازير...".

فعرفت "تشين ماي تشين" أنها تقصد "شين تشي زا"، فسألتها في عَجَالَةٍ: "هل تقبلين بالزواج من ذلك الرَّجُلِ الأسمر الذي يقتل الخنازير؟"، فلم تردَّ عليها، ولكن بدت عليها الفرحة، حتى سال لُعبُها من شِدَّةِ السعادة.

لم ترغب "تانغ ماي" في أن تستمرَّ أمُّها في تضيق الخناق عليها؛ لذا سارعت بصرفها وهي تقول إن "أن شويه أر" أصابتها نوبةٌ قيءٍ حادةً بالأمس، وجاءت للكشف في الوحدة الصحية، وقد اعتقد الجميع أنها تناوَلت طعامًا فاسدًا، وكادوا أن يكتبوا لها دواءً لداءِ بالمعدة والأمعاء، لكن لحسن الحظِّ أجرت "تانغ ماي" لها تحليل بولٍ، فعلمت أنها حامل، ثم أضافت "تانغ ماي" أنها بعد أن تُرتب أمور "تشين يوان" ستأخذ "أن شويه أر" على الفور إلى المدينة للقيام بتحليل أكثر كي ترى حالة تطوُّر الجنين، وعمًّا إذا كان من الممكن الإبقاء عليه أم لا وفقًا لحالتها الصحية.

وما إن سمعت "تشين ماي تشين" بخبر حمل "أن شويه أر" حتى فغرت فاهًا من شِدَّةِ الصدمة، فتساقطَ كَريم الأساس الموضوع على وجهها، وبعد أن استفاقت من أثر الصدمة راهنت "تانغ ماي" على أنه قبل أن تمرَّ ثلاثة أيام ستكون "أن شويه أر" قد نقشت شاهد قبرٍ من أجل طفلها الذي سيموت قبل أن يولد، فجسدها هذا لا يتحمل الإنجاب، وحتى لو كان قادرًا على ذلك، فإن أسرة "أن" لن تسمح بميلاد نسلٍ لقاتل.

في الحقيقة كانت هناك علامات واضحة لحمل "أن شويه أر"، لن نتحدَّث هنا عن استطالة قامتها، أو زيادة وزنها، لكنَّ بطنها قد استدارت أيضًا، واعتقد الجميع أن هذا بسبب شهيتها المفتوحة في الفترة الأخيرة، ولم يتوقَّع أحدٌ أن قِزْمَةً يمكنها أن تحمَل، أو أن يتسبَّب اغتصاب "شين شين لاي" في حملها، وكانت هي تتجوَّل كلَّ يومٍ في

السُّوق الجنوبيَّة مثل طَائِرِ زَاهِي الْجَنَاحَيْنِ، حيثُ تَرْتَدِي مَلَابِسَ مُلَوَّنَةً، أَمَّا المَطَاعِمُ ومَحَلَّاتُ الأَطْعَمَةِ الخفيفةُ فَهِيَ بالنسبةِ لَهَا كالأشجارِ التي تَسْكُنُ فِيهَا، وَكَانَ ذَهَابُهَا إِلَى أَيِّ مَطْعَمٍ بِمِثَابَةِ فَاتِحَةِ خَيْرٍ عَلَيْهِ، حيثُ يَتْبَعُهَا الزَّبَائِنُ لِيُشَاهِدُوهَا وَهِيَ تَأْكُلُ؛ مِمَّا جَعَلَهَا مَوْضِعَ تَرْحِيبٍ دَائِمًا فِي كُلِّ المَطَاعِمِ، حتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ يَعْفِيهَا مِنْ دَفْعِ الحِسَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْطِيهَا حَصَمَ نِصْفِ الفاتورةِ، وَآخَرُونَ يَزِيدُونَهَا أَطْبَاقًا مَجَانِيَّةً، وَكَانَتْ تَتَحَرَّى أَيُّ الأَطْبَاقِ شَهِيٍّ الطَّعْمِ لِتَطْلُبَ مِنَ المَطْبُخِ أَنْ يَصْنَعَ لَهَا المَزِيدَ مِنْهُ كِي تَأْخُذَهُ لِلْمُطْرَزَةِ المَرِيضَةِ، لَكِنِّهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُوَصَّلُ الطَّعَامُ لَهَا كَانَتْ تَضَعُهُ فِي اسْطِطْلِ الخِيُولِ خَشِيَّةً أَنْ تَرَى جَدَّتْهَا كَيْفَ سَمَنْتَ حتَّى تَغَيَّرَ شَكْلُهَا فَيَنْقَطِرَ قَلْبُهَا عَلَيْهَا، أَمَّا المُطْرَزَةُ فَكَانَتْ كُلَّمَا تَعَكَّرَتْ عَلَى عِصَاهَا وَذَهَبَتْ لِرُؤْيَةِ حِصَانِهَا الأَبْيَضِ وَاكْتَشَفَتْ وَجُودَ طَعَامِ بَجَوَارِ الاسْطِطْلِ تَعَلَّمُ أَنْ حَفِيدَتِهَا قَدْ جَاءَتْ إِلَى هُنَا.

وَنَقَلْتُ "تَشِينُ مَآيَ تَشِينُ" خَبَرَ حَمَلِ "أَنْ شُوِيَهُ أُر" إِلَى "لَاوِ وَآي"، الَّذِي صُعِقَ فُورَ سَمَاعِهِ، حتَّى كَادَتْ سَلَّةُ "الدُّوْفُو" أَنْ تَسْقُطَ مِنْ عَلَى كَتْفِهِ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَعَادَ تَوَازُنَهُ قَالِ إِنْ هَذَا بِالتَّأَكِيدِ آخِرَ يَوْمٍ فِي العَالَمِ، كَيْفَ يَمْكَنُ لِلْمَبْرُوكَةِ أَنْ تَحْمَلَ مِنْ مُجْرِمٍ مُغْتَصِبٍ؟

أَمَّا "دَانِ أُر دُونِغِ" فَقالَ بِكَلِمَاتٍ مُنْمَقَةٍ تَتَصَّنَعُ الحِكْمَةَ: "العَالَمُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ قَبْلِ بَدَايَةِ حتَّى تَكُونَ لَهُ نَهَايَةُ، وَلَا وَجُودَ لِمَا هُوَ غَيْرُ مُمَكِّنِ الحَدُوثِ بَيْنَ البَشَرِ" قَالَهَا كَمَا لَوْ كَانَ حَمَلِ "أَنْ شُوِيَهُ أُر" هُوَ أَمْرٌ مُتَوَقَّعٌ بِالنسبةِ لَهُ.

وَهَكَذَا سَارَ "لَاوِ وَآي" فِي طَرِيقِهِ يَبِيعُ "الدُّوْفُو" وَيُنْشِرُ خَبَرَ حَمَلِ "أَنْ شُوِيَهُ أُر". وَكَانَ هَذَا الخَبَرَ بِالنسبةِ لِأَهَالِي قَرْيَةِ "لُونِغِ تَشَانِ" - مِثْلَهُ مِثْلَ خَبَرِ أَنَّهُمْ سَيُحْرَقُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فِي المَسْتَقْبَلِ - يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالقُّشْعَرِيرَةِ. وَقَدْ سَارَ "لَاوِ وَآي" حَامِلًا العِصَا عَلَى كَتْفِهِ سِرًّا

مُتَقَطِّعًا، تَخَلَّتْهُ تَوْفُقَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ لِلسُّوقِ الجَنُوبِيَّةِ كَانَتْ "تَشِينُ مَآيَ تَشِينٍ" وَ"دَانُ أُرْ دُونِغٍ" قَدْ اخْتَفَيْآ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى بِالضَّبْطِ فَارَقَاهُ، كَمَا أَنَّهُ بَحِثٌ فِي السُّوقِ الجَنُوبِيَّةِ عَنِ المَرَأَةِ المَدْخَنَةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهَا أَثْرًا، أَمَّا العَمَّةُ "دَانُ سِيهِ" فَلَمْ تَأْتِ دَافِعَةً عَرَبَتِهَا ذَاتِ العَجَلَةِ الوَاحِدَةَ لِبَيْعِ الفَطَائِرِ إِلَّا بَعْدَ بِيِهِ لِأَكْثَرِ مِنْ نِصْفِ "الدُّوْفُو" الِذِي مَعَهُ.

وَبَدَتِ العَمَّةُ "دَانُ سِيهِ" كَأَنَّهَا تَحَوَّلَتْ لِشَخِصٍ آخَرَ، ففِي العَادَةِ كَانَتْ تَرْتَدِي بِنِطَالًا وَاسِعًا رَمَادِيًا، أَمَّا اليَوْمُ فَقَدْ ارْتَدَتْ بِنِطَالًا ضَيِّقَ الأَرَجُلِ، أَسْوَدَ اللُّونِ، أَظْهَرَ شَكْلَ سَاقِيهَا الجَمِيلِ إِلَى حَدِّ مَا. وَفَوْقَهُ ارْتَدَتْ بِلَوْفَرِ عَالِي الرِّقْبَةِ، قُرْمَزِيًّا فَاتِحًا، وَليْسَ ذَلِكَ بِلَوْفَرِ الأَخْضَرِ القَدِيمِ بَدُونِ رِقْبَةٍ الِذِي تَرْتَدِيهِ عَادَةً؛ مِمَّا غَطَّى تَمَامًا جِلْدَ رَقَبَتِهَا المِترَهَّلِ. أَمَّا أَكْثَرُ مَا جَذَبَ العَيُونَ نَحْوَهَا فَهُوَ ارْتِدَاؤُهَا حِذَاءَ أَسْوَدِ جَدِيدًا ذَا كَعْبٍ مُرْتَفِعٍ، وَلَقَّتْ شَعْرَهَا وَرَبَطْتَهُ بِمَنْدِيلٍ أَزْرَقٍ بِزَهْوَرٍ بِيضَاءٍ، فَبَدَتِ طَوِيلَةً القَامَةَ، وَأَضَافَ لَهَا لِمَسَّةً أَرَسْتَقْرَاطِيَّةً، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُا وَضَعَتْ مَسَاحِيْقَ زِينَةٍ خَفِيفَةٍ عَلَى وَجْهَيْهَا؛ مِمَّا مَنَحَهُ لَوْنًا حَيَوِيًّا، فَحَدَّقَ فِيهَا "لَاوِ وَايَ" فَأَغْرًا فَاهُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ مَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الصِّيَاحِ: "مَا أَغْرَبَ هَذَا اليَوْمُ؟ كُلُّ النِّسَاءِ مُثِيرَاتٌ لِلدَّهْشَةِ، "المِبروكَةُ أَنْ" حَمَلَتْ، وَأَنْتِ تَحَوَّلْتِ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاها إِلَى امْرَأَةٍ لِعُوبٍ".

وَمَا إِنْ سَمِعَتِ العَمَّةُ "دَانُ سِيهِ" الخَبَرَ حَتَّى تَرَنَّنَتْ، وَوَضَعَتْ عَرَبَتِهَا تَحْتَ شَجَرَةِ حُورٍ، وَاسْتَنَدَتِ إِلَى الشَّجَرَةِ، وَقَالَتْ بِكَلِمَاتٍ زَائِغَةٍ: "إِنَّهَا "المِبروكَةُ أَنْ"، كَيْفَ لَهَا أَنْ تَحْمَلَ؟"، وَهنا هَبَّتْ رِيَاْحُ الخَرِيفِ البَارِدَةِ لَتَهَزُّ شَجَرَةَ الحُورِ، وَتَرَأَّقِصُ ذَلِكَ الفَرْعُ لِيتَرَكَ عَلَى وَجْهَيْهَا ظِلًّا لاَ غَيْرَ مُتَنَاسِقَةٍ، كَمَا لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ قَدْ جَرَحَ وَجْهَهَا. أَمَّا الأُورَاقُ الذَّابِلَةُ الصُّفْرَاءُ فَقَدْ تَطَايَرَتْ مَعَ الرِّيَاحِ، وَسَقَطَ بَعْضُهَا عَلَى العَرَبَةِ ذَاتِ العَجَلَةِ الوَاحِدَةَ، كَمَا لَوْ أَنَّ السَّمَاءَ تَرَعَّبُ فِي إِضَافَةِ بَعْضِ الفَطَائِرِ مِنْ أَجْلِهَا.

وهنا قلّد "لاو واي" لهجة "دان أر دونغ"، وقال: "لا يوجد ما هو غير مُمكن الحدوث بين البَشَر".

ثم نَبَّهَهَا بصوتٍ خفيضٍ أن "دان أر دونغ" قد عاد، ويبدو أن حياته ليست على ما يُرام، حيث يبدو عليه كِبَرُ السَّنِّ، فلا داعيَ للشُّجار معه إن صادفته، وعلى أيِّ حالٍ، هُم كانوا أُسرَةً واحدة، وعندما رآها لم تُبِدِ أيَّ انفعال؛ عَلِمَ أنها قد عرَفَت أنه عاد، وهي على استعدادٍ نَفْسِيٍّ لذلك؛ لذا قال بحَذَرٍ: "لقد جاءني صباحًا طالبًا مني أن أَخْذَهُ لِيَرَاكَ أَنْتِ وابنه، ويعطيك عشرة آلاف يوان، لكنِّي لم أجروُ على إجابته، فلو وافَقَتِ أَنْتِ فساأُحضرُه، لقد خشيتُ أَنَّكَ قد لا تريدان نقوده وستلعنين أسلافَ أسلافي لو جِئْتُكَ به".

فأطَلَقَتِ العَمَّةُ "دان سيه" صيحةً استهجانًا، وقالت: "أخبره أنني لو حتَّى تسوَلتُ الطَّعامَ أنا وابني في المستقبل فسأظلُّ لا أقبلُ به، أمَّا نقوده فهي في نَظْرِي قَدِرَةٌ، لو أراد حقًا أن يُعطيني إيَّها فليُلقِها في بركةِ الفُضلاتِ بمَجْرَرِ منزلٍ "شين تشي زا".

فتجشأ "لاو واي"، وأطَلَقَ صيحتين أشبه بنعيق الغربان، ثم قال: "لو استخدم "شين تشي زا" ذلك السِّمادَ لزراعة التَّبغِ أَفَلَنْ يُنَبِّتَ أوراقًا ذهبيةً؟ أعتقد أن مثل هذا التَّبغِ لن تُشعلهُ نيرانُ الشَّمسِ؛ فالذَّهَبُ الحقيقيُّ لا يخشى النار".

كانت العَمَّةُ "دان سيه" قد سَمِعَتِ بالفعل خبرَ عودة "دان أر دونغ"، وفكَّرت في البداية أن تتجنَّبَه، وألَّا تخرُجَ للعمل لبِضعةِ أيَّامٍ، إلَّا أنها عَزَّتْ عليها تجارتها، فمَن يشترُون فطائرَها أَكثَرُهم زبائنُ قدامى يرغبون في تناولها كلِّ يومٍ، وفي نفس الوقت كانت لا ترغب إن خَرَجَتِ للعمل أن يرى "دان أر دونغ" معيشتها القاسية هي وولدها؛ لذا لم تكتفِ بالتَّزِينِ هي فقط، بل زيَّنت "دان شيا" أيضًا، واشترت له خُصِيصًا بلوقرٍ بخطوطِ سماويةٍ، وصَفَّقَت له شَعْرَه، بل إنَّها علَّقَت

في أذن حمارها الأسود اليُسرَى زَهْرَةً ورديَّةَ اللَّونِ، كما لو كان الحمار ذاهبًا لاستقبال عروسٍ، بوجهٍ عامٍ، أضافت لمسةً جديدةً على كلِّ ما هو حَيٌّ في المنزل ويُمْكِنُ أن يُصَادِفَ "دان أر دونغ" في الطريق.

بعد أن ارتكَبَ "شين شين لاي" جرِيْمَتَه، وضَعَت العَمَّةُ "دان سيه" هدفَيْنِ نُصِبَ عينيها، لكن الآن يبدو أن كليهما سيذهب أدراجَ الرياح. فَبَعْدَ طَلَّاقِها كانت أكثرَ امرأةٍ تَحْسُدُها هي "وانغ شيو مان"؛ وذلك لأنها حَظِيَّتَ برَجُلٍ صالِح. إن عدل "شين تشي زا" وإخلاصه هو السَّببُ في هيام العَمَّةُ "دان سيه" به، ولو كانا يعيشان في العصور القديمة لَقَبِلَتْ بلا تَرَدُّدٍ أن تصيرَ زَوْجَةً ثانيةً له، فَمِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِها، مثل هذا الرَّجُلِ يُمكِنُ أن يتحمَّلَ على عاتِقِه امرأتين. وبعد رحيل "وانغ شيو مان"، رَغِبَت العَمَّةُ "دان سيه" أن تصيرَ هي سيِّدةَ المَجْزَرِ، إلاَّ أنَّها لم تَرَه يَرتدي القُبَّعةَ التي اشترتها له ولو مرَّةً واحدة، بل إنها سَمِعَت أنه قال من قَبْلُ في حديثٍ مع أحد الأشخاص إن "جين سو تشوو" امرأةٌ ليست سَهْلَةً، فبدا من الواضح أن قلبه مَشْغُولٌ بها. أمَّا الهدف الآخر الذي وضَعته العَمَّةُ "دان سيه" نُصِبَ أعينها فكان مُوجَّهًا نحو "أن شويه أر" وابِنِها "دان شيا"؛ فقد سَمِعَت بأنَّ بعضَ المرضى النَّفْسِيِّينَ تتحسن حالتهم فيما يُشْبِهُ المُعْجِزةَ بِمَجْرَدِ الزَّواجِ؛ لذا فَكَّرَت منذُ وقتٍ طویل في البحث عن زوجة له، وقد هداها تفكيرها إلى "أن شويه أر"، حيثُ إنها مُعاقَّةُ الجَسَدِ، والرَّجال الطَّبِيعِيُّونَ لن يطلبوا يدَ امرأةٍ قِرْمة، لكن "دان شيا" يُمكِنُه ذلك، إلاَّ أنها غريبةُ الأطوار، والكلُّ يتعاملُ معها باعتبارها من الآلهة، فأثَى للعَمَّةُ "دان سيه" بِالجَرأةِ الكافية لطلبها للزَّواجِ؟ إلاَّ أن الفرصة جاءتُها بعد أن قام "شين شين لاي" باغتصاب "أن شويه أر"، فَبَعْدَ أن فَقدَت عُذْرَتَها ستفقد قيمتها بين ليلةٍ وضُحاها، ويُمْكِنُ أن تتساوى في المكانة مع "دان شيا"، لكن مَنْ كان يتوقَّع أن تَحْمَلَ؟

ظَلَّ أَصْحَابُ الْمَحَالِّ فِي السُّوقِ الْجَنُوبِيَّةِ يَتَحَدَّثُونَ طَوَالَ الصَّبَاحِ عَنْ حَمَلٍ "أَنْ شُوِيَهُ أَر". مِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا لَا يَجِبُ السَّمَّاحَ لَهَا بِالْأَكْلِ الْمَجَّانِي؛ فَهِيَ تَحْمِلُ فِي بَطْنِهَا ابْنَ سِفَاحٍ، وَإِطْعَامُهَا يَعْنِي ارْتِكَابَ جَرِيمَةٍ تَسْتُرُّ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ يَجِبُ عَدَمَ إِعْدَادِ أَطْبَاقٍ جَيِّدَةٍ لَهَا، بَلْ يَتَوَجَّبُ صُنْعُهَا مِثْلَ طَعَامِ الْخَنَازِيرِ وَالْكَلَابِ حَتَّى يَصْعَبَ عَلَيْهَا بَلْعُهَا، لَا يُمْكِنُ السَّمَّاحُ لِبَذْرَةِ "شَيْنِ شَيْنِ لَآي" أَنْ تَنْمُوَ فِي تَرْبَةٍ جَيِّدَةٍ، وَبِالطَّبَعِ كَانَ هُنَاكَ بَعْضٌ مِنَ ذَوِي الْقُلُوبِ الرَّحِيمَةِ الَّذِينَ رَأَوْا أَنْ حَمَلَهَا هُوَ أَمْرٌ جَيِّدٌ؛ فَالْمُطْرَرَةُ سَيَصِيرُ لَدَيْهَا جَيْلٌ رَابِعٌ؛ مِمَّا سَيُسَاعِدُ عَلَى اسْتِعَادَتِهَا لِعَافِيَّتِهَا، وَسَيَحْظِي "شَيْنِ تَشِي زَا" بِحَفِيدٍ؛ مِمَّا سَيُخَفِّفُ عَنْهُ أَلَمَ فُقْدَانِ زَوْجَتِهِ، أَمَّا "أَنْ شُوِيَهُ أَر" فَسَيَصِيرُ لَدَيْهَا ضَمَانٌ أَنْ يِرْعَاهَا أَحَدُهُمْ فِي شَيْخُوخَتِهَا إِذَا أَنْجَبَتْ طِفْلًا مِنْ صُلْبِهَا. إِلَّا أَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ تَخْيُلِ حَجْمِ الطِّفْلِ الَّذِي سَتَلِدُهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ أَمْرًا خَارِقًا لَوْ وُلِدَ فِي حَجْمِ قَبْضَةِ الْيَدِ، وَتَبَأَ الْبَعْضُ أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي طُولِ عِصِيِّ الطَّعَامِ، وَمَنْ قَالَ أَنَّهُ وَفَّقًا لِسُرْعَةِ نُمُوِّ "أَنْ شُوِيَهُ أَر" الْحَالِيَةِ فَإِنَّ الطِّفْلَ لَنْ يَكُونَ صَغِيرًا، عَلَى الْأَقْلِ سَيَكُونُ فِي حَجْمِ قَدَمِ "شَيْنِ تَشِي زَا" الضَّخْمَةِ. وَكَانَ حَدِيثُهُمْ حَوْلَ الطِّفْلِ بَبْطِنِ "أَنْ شُوِيَهُ أَر" مِثْلَ السَّكَاكِينِ الَّتِي تُمَزَّقُ قَلْبَ الْعَمَّةِ "دَانَ سِيهِ"، فَفِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ صَارَتْ تُخْطِئُ فِي إِرْجَاعِ بَاقِيِ النُّقُودِ لِلزَّبَائِنِ، وَكَانَتْ حِينَ تُعِيدُ لَهُمُ الْبَاقِيَّ بِالزِّيَادَةِ، يُشْفِقُونَ عَلَى حَالِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ وَابْنِهَا وَكَأَنَّهُمْ يَتَامَى، فَيُعِيدُونَ النُّقُودَ إِلَيْهَا ثَانِيَةً، أَمَّا حِينَ تُعِيدُ الْبَاقِيَّ بِالنُّقْصَانِ، وَيُرُونَ زَيْنَتَهَا الْمُبَالِغَةَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَخْلَاقَهَا فَسَدَتْ، فَيَطْلُبُونَ نَقُودَهُمْ بِفِظَازَةٍ مِمَّا يَحْرَجُهَا كَثِيرًا. وَمَنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَهَا لَمْ تَرَ "دَانَ أَر دُونِغ" فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ، حَتَّى إِذَا لَمَلَمَتْ أَشْيَاءَهَا وَرَحَلَتْ قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ بَيْعِ كُلِّ الْفَطَائِرِ.

بعد أن تخلص "دان أن دونغ" من ضحبة "لاو واي"، وصل "تشين ماي تشين" مباشرة إلى مكتبها في السوق الجنوبية.

كان ديكور مكتب "تشين ماي تشين" يُشبهها تمامًا، صَاحِبٌ، وَيَفْتَقِرُ إِلَى الدُّوقِ الرَفِيعِ، فَعَتَبَةُ النَّافِذَةِ مِنَ الرُّخَامِ الأَصْفَرِ، وَالْحَوَائِطُ ذَاتُ لَوْنٍ أَحْمَرَ خَمْرِيٍّ، أَمَّا الأَرْضِيَّةُ فَهِيَ بِلَاطٍ أبيضٍ وَأَسْوَدٍ أَشْبَهُ بِرُقْعَةِ الشَّطْرَنْجِ، وَرَغْمَ أَنَّ الوَقْتَ نَهَارًا إِلَّا أَنَّهَا أَضَاءَتْ مَصَابِيحَ العُرْفَةِ بِمَجْرَدِ أَنَّ دَخَلَتْهَا؛ وَذَلِكَ كِي تَتَفَاخَرَ أَمَامَهُ بِالثَّرِيَّا الكَرِيسْتَالِ العَمُودِيَّةِ الضَّخْمَةِ، وَعَلَى المُنْضَدَةِ المِصْنُوعَةِ مِنَ الخَشَبِ الأَحْمَرِ بِمُنْتَصَفِ العُرْفَةِ تَرَأَّصَتْ قِطْعُ زِينَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِثْلَ مَلْفُوفٍ صِينِيٍّ مِصْنُوعٍ مِنَ اليَشْمِ، وَقِطْعَةٍ جَلَبِ الثَّرْوَةِ مِصْنُوعَةٍ مِنَ الزُّجَاجِ المَلُوءِ، وَمُجَسِّمِ كُرَّةِ أَرْضِيَّةٍ مِنَ الكَرِيسْتَالِ، وَإِلَهُ ثَرْوَةٍ مِصْنُوعٍ مِنَ الطِّينِ، وَغَيْرِهَا. وَبَعْدَ أَنَّ جَلَسَتْ "تَشِينِ مَائِ تَشِينِ" عَلَى مَقْعَدِهَا أَخْرَجَتْ مِنْ حَقِيبَةِ يَدِهَا مَنْدِيلَ تَعْقِيمٍ مُبَلَّلًا مَسَحَتْ بِهِ يَدَيْهَا، وَأَخْرَجَتْ زَجَاجَةَ مُرْتَبِ بَشْرَةٍ، قَائِلَةً إِنَّ رِيَّاحَ الخَرِيفِ أَزْدَادَتْ قَسْوَةً، تِلْكَ التَّمَشِيَّةُ جَفَّقَتْ بِشَرَّتِهَا، ثُمَّ أَعْقَبَتْ كَلَامَهَا بِبِخَّاتٍ عِدَّةٍ عَلَى وَجْهِهَا، وَأَخِيرًا أَخْرَجَتْ زَجَاجَةَ عَطْرِ بَلَوْنِ العَنْبَرِ وَوَضَعَتْ مِنْهَا تَحْتَ إِبْطِهَا، وَهِيَ تَقُولُ لـ "دَانِ أَرِ دُونْغِ" هَذِهِ أَحَدُ مَوْدِيلٍ مِنَ عَطْرِ "شَانِيلِ".

وَبَعْدَ أَنَّ انْتَهَتْ مِنْ هُرَائِهَا هَذَا أَشَارَتْ لَهُ كِي يَجْلِسُ عَلَى المَقْعَدِ المَقَابِلِ لَهَا، قَائِلَةً إِنَّ بِإِمْكَانِهَا مَسَاعَدَتَهُ فِي عَقْدِ لِقَاءِ صَحْفِيٍّ مَعَ "لِينِ دَا هُو"، وَلَكِنْ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ إِسْدَاءُ خِدْمَةٍ لَهَا.

ثُمَّ التَّقَطَّتِ القَلَمَ المَوْضُوعَ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَشَخَبَتْ بِهِ عَلَى الرُّوزْنَامَةِ، وَرَفَعَتْ رَأْسَهَا وَالقَلَمَ الَّذِي بِيَدِهَا، وَقَالَتْ إِنَّ زَوْجَهَا وَابْنَتَهَا قَدْ كَتَبَتْ عَنْهُمَا الجَرَائِدَ مِنْ قَبْلُ، أَمَّا هِيَ فَلَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ خَارِجَ القَرِيَّةِ، رَغْمَ أَنَّهَا تُدِيرُ السُّوقَ الجَنُوبِيَّةَ بِبِرَاعَةٍ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ أَصْحَابِ المِحَالِّ لَمْ يُثْنِ مِنْ قَبْلُ عَلَيْهَا؛ لِذَا فَهِيَ تَرُغِبُ فِي أَنَّ يَسَاعِدَهَا "دَانِ أَرِ دُونْغِ" فِي البَحْثِ عَنِ صَحْفِيٍّ مَاهِرٍ لِيَأْتِيَ إِلَى قَرِيَّةِ "لُونْغِ تَشَانِ" وَيَعْقِدَ لِقَاءً صَحْفِيًّا مَعَهَا؛ كِي تَظْهَرَ هِيَ أَيْضًا فِي جَرِيدَةِ "سُونْغَشَانِ".



فقال "دان أر دونغ": "يكتب عنك؟ لو أشرت فقط لأخيك الأكبر، لأرسل لك أفضل صحفي، ما الداعي أن تطلبي مساعدي أنا؟ لو ساعدتكم في البحث عن صحفي فإن من سيأتي سيعتبر الأمر عملاً بأجر، وسيطلب مقابلًا لذلك".

"بعد أن نشرت الصحف موضوع "تانغ ماي" قال أخي إن الصحف هي التي أذنتها وتسببت في معيشتها مع زميلتها وعدم بحثها عن حبيب، فأني لي بالجرأة الكافية كي أفتح معه هذا الموضوع؟"، ثم أضافت: "أنا لا أهتمم بالنقود، ابحث عن صحفي جيد فحسب، وهناك أمر آخر، عند نشر المقال يجب أن ترفق معه صورة لي وحدي".

"هذا أمر مفروغ منه".

فأخرجت "تشين ماي تشين" من الدرج صندوق سجائر من نوع "تشونغ هوا"، وعضو ذكريًا لغزال، كانت السجائر هديةً منها لـ "دان أر دونغ"، أما عضو الغزال الذكري فهو من أجل "تشين جين جو"، وقالت: "أخبرني أخي في الهاتف مؤخرًا أن حصره يؤلمه، وأعتقد أن هذا بسبب الكلى؛ لذا اشتريت له خصيصًا عضو غزال بري من أفراد "الإيلوينتشوين" في قرية "جويواوين"؛ كي يستخدمه لتقوية جسده، وبما أنني لن أمكّن من الذهاب إلى "سونغشان" قريبًا، وإرساله بالبريد ليس آمنًا، وأخشى إعطائه لأحدهم فيبدله بعضو غزال مزارع طمعًا فيه".

فتأثر "دان أر دونغ" من ثققتها فيه، وأخذ منها عضو الغزال، وبالطبع أخذ السجائر أيضًا. وهكذا اتصلت "تشين ماي تشين" بالمرأة المدخنة، وقالت في البداية إنها قد أبلت حسنًا في مراقبة الصحة والنظافة في هذا الفصل من العام لذا ستكافئها بمبلغ خمسمائة يوان، ثم أضافت إن "دان أر دونغ" يرغب في عقد لقاء صحفي مع "لين

دا هوا"، وطلبت منها التعاون معه، ورغم أن المرأة المدخنة لم تكن راضية عن الأمر، إلا أنها وافقت على مَضِض.

وعندما همَّ "دان أر دونغ" بالمغادرة تردَّد قليلاً، ثم تَرَجَّى "تشين ماي تشين" أن تُراعي العمَّة "دان سيه"، فنقشت "تشين ماي تشين" صدرها، وضربت بيدها على الطاولة، وصاحت بصوتٍ غاضبٍ رنان: "مَن في قرية "لونغ تشان" لا يَعْلَمُ أَنَّ هناك شخصاً واحداً يُمارس تجارته في السوق الجنوبية ولا أنقاضي منه أيُّ مُقابل؟ هذا الشخص هو زوجتُك السابقة، هل تراني بحاجةٍ إلى تعليماتك؟".

فاحمرَّ وجهُ "دان أر دونغ" كأنَّ أحدهم قد صفَّعه بقوة. وفي مساء اليوم التالي ذهبَ في الميعاد المتَّفَق عليه إلى منزل المرأة المدخنة. وقد ذهب مساءً لأنها أخبرته أن "لين دا هوا" قد تأثرت كثيراً بعد الحادثة، فكانت في الماضي تخشى الظلام، أمَّا الآن فتخشى الضوء؛ لذلك تقضى النهارَ في النوم، وفي الليل حين يحلُّ الظلام تفتح عينيها كالحيوانات التي تعيش ليلاً.

كان "وانغ تشينغ شان" هو الوحيد من أهالي قرية "لونغ تشان" الذين قابلهم "دان أر دونغ" ولم يجد علاماتِ التَّقدُّم في السَّنِّ بَدَتْ عليه. ليس هذا فحسب، بل بدا أكثرَ شباباً عن ذي قبل؛ ممَّا يُثبت أن المرأة المدخنة بارعةٌ في العناية بالرجال. لقد كان مُتورِّدَ الوجه، قليلَ التَّجاعيد، ولا يزال شعره أسودَ فاحماً، ولون شفَّته أحمرَ كالرُّمَّان وليس كما كان في الماضي يميل للقرمزيِّ. أمَّا ملابسه فكانت أفضلَ من ملابس المرأة المدخنة، كان يرتدي بنطالاً رمادياً، وقميصاً أسود فوقه بلوفر من صوف الكشمير، وما إن رأى "دان أر دونغ" حتَّى حيَّاه بهمهماتٍ غير مفهومة، ثمَّ ذهبَ للغرقة الخلفية ليرصَّ أوراق الكوتشينة.

لم يكن النور مُضاءً في الحجرة الغربيَّة التي تقطنها "لين دا هوا"، بل رآها "دان أر دونغ" بمُساعدَةِ الضَّوءِ القادم من طُرُقَةِ المطبخ جالِسَةً أمام المقعد أسفل النافذة مُتَشِحَّة بالسَّواد. وقد أدركَ أَنَّهُ لا يمكن التسجيل كتابَةً في هذا الضَّوءِ الخافت، فَشَغَلَ قَلَمَ التَّسْجِيلِ في الخَفَاءِ.

"هل اعتدتِ الذَّهاب إلى الوحدة العسكريَّة للقيام بالحِجَامَةِ للجنود؟" كان هذا هو السؤالُ الأوَّلُ الذي ألقاه عليها.

"لم تذهب سوى مرَّاتٍ قليلة" هكذا بادرتِ المرأةُ المدخنة بالإجابة عليه، ثم استطرَدت: "لقد سَمِعْتُ أَنَّ "دا ينغ" يقول إن وحدتهم جاءها بعضُ الجنودِ من الجنوب الذين لا يتحمَّلون الرياح الباردة لدينا؛ لذا أُصيبوا بِالآلَمِ في الخَصِرِ والظَّهْرِ، وقد تعلَّمت "لين دا هوا" الحِجَامَةَ مِنِّي، كما أَنها طَيَّبَةُ القلب؛ لذا ذهبتُ كي تقوم بالحِجَامَةِ لهم كي تَطْرُدَ من أجسادهم الصَّقِيعِ، لكن مَنْ كان يتوقَّع أن تلك المبادرة الطيِّبة سوف تنتهي بحادثَةٍ في طريق العودة؟".

فسأل "دان أر دونغ": "هل كان أن "دا ينغ" يستقبلُك ويرجِعُك في كلِّ مرَّةٍ تذهبين فيها؟".

فردَّت المرأةُ المدخنة: "في السَّابقِ كانت تذهب وحدها، لكن هذه المرَّةُ تصادَفَ عودة "دا ينغ" لزيارة المطرزة؛ لذا أخذها في طريقه".

أثار إصرارُ المرأةُ المدخنة على الإجابة بالنِّيابة عن ابنتها الشُّكَّ وعدمَ الارتياح لدى "دان أر دونغ"، فقال بدون مُوارَبَةٍ إنه يرغب في الحديث مُنفَرِدًا مع صاحِبَةِ الشَّانِ، فغادرتِ المرأةُ المدخنة الغُرْفَةَ، لكنها تصنَّعت العَمَلَ في المطبخ كي تتصنَّت على ما يقولانه.

بدا من الواضح أن "لين دا هوا" قد جهَّزت كلامها، فلم تنتظر أن يطرح "دان أر دونغ" أسئلته، بل بادرتِ بسرِّ ما حدث، وأنها ذهبت إلى الوحدة كي تقوم بالحِجَامَةِ للجنود، وفي طريق العودة عندما وقَّعت

الحادثة، استخدم أن "دا ينغ" كل قواه ليدفعها خارج قمر القيادة. وقالت إنها عندما وصلت إلى ضفة النهر غرقت تلك السيارة مثل الشمس الغاربة.

وبينما هي تسرد ما حدث ظل "دان أر دونغ" يراقبها، ورغم عدم تمكنه من رؤية التفاصيل الدقيقة لتعبيرات وجهها بوضوح، إلا أنه قد بدأ واضحاً أنها غير مستقرة في جلستها، كانت مثل طائرة ورقية تتأرجح في الهواء، أما يداها فكانتا ترتعشان بقوة.

"ماذا كانت كلماته الأخيرة قبل وقوع الحادثة؟"

"لم يقل أي شيء."

"هل كان يقود بسرعة؟"

"يتوجّب عليك سؤال النُسر"، قالتها "لين دا هوا" بلهجة عدائية، "لقد كنت في العربة، لم أشعر بالسرعة أو البطء، أمّا النُسر فكانت في السماء، ورأت بشكل أوضح مني".

إجابتها أصابت "دان أر دونغ" بالدهشة الشديدة، فتابع سؤاله: "هل رأيت نسوراً في السماء؟".

فردت عليه: "لقد رأيت نسراً يصنع عشاً وسط الشُحْب"، فأطلق "دان أر دونغ" تنهيدة تنم عن قلة الحيلة.

وهنا عادت المرأة المدخنة إلى العُرفة متعلّلة بتقديم الشاي، وقالت إن "أن دا ينغ" سيئ الحظّ بسبب سقوط السيارة في تلك المنطقة على وجه التحديد؛ ففي السنوات الأخيرة تكالب سُكّان القرية الثالثة على كسب المال، وصارت معاصر الزبوت تزدادُ كل عام عن الآخر، وبناء تلك المباني يحتاج للرمل، والرمل في تلك المنطقة من النهر جيّد؛ لذا استأجر الجميع مراكب حفر وحفروا لاستخراج الرمال من هناك، والنتيجة أنهم حفروا حفرة ضخمة يمكنها ابتلاع الرجال.

وهكذا أدرك "دان أر دونغ" أنه لن يخرج بأي شيء ذي نفع من اللقاء مع تلك المرأة وابنتها. كما أن الأشياء ذات القيمة عادةً لا يُمكنُ كتابتها في هذا النوع من المقالات، فكلُّ ما يحتاجه الأمر لتنظيم المقال بشكلٍ جيّد هو لقاء مَنْ وقَعَت له الحادثة؛ لذا شعرَ أن الوقت قد حانَ لإنهاء تلك المقابلة.

وعندما نهض وهمّ بالرحيل سأَلها السؤال الأخير: "لماذا صرّت تخافين النهارَ من بعد الحادثة؟".

فصمّت تمامًا، حتى اعتقدَ أنها لن تجيب، ولكن في اللحظة التي خرَجَ فيها من الباب، قالت فجأةً وهي تبكي: "لأني لا أرغب في رؤية وجهي، كذلك لا أرغبُ في أن يراه الآخرون".

فتسمّر "دان أر دونغ" في مكانه، فقد كان لديه نفسُ الشُّعور عندما عاد للقريّة. إنه لا يرغب في أن يرى الآخرون وجهه، كما أنه هو شخصياً لا يرغب في رؤية وجهه، إنه يتمنّى ألا يكون هناك صباحٌ في قرية "لونغ تشان"، وأن تغرق طوال الوقتِ في ليلٍ طويل.

وصلته المرأة المدخنة و"وانغ تشينغ شان" إلى باب المنزل. ووصّته قائلةً: "لا تكتب عن ابنتي بشكلٍ جيّد للغاية، لقد تعرّضت لصدمةٍ، ولن تذهب ثانيةً إلى الوحدة العسكرية لعمَل الحِجامة للجُنود".

فردّ "دان أر دونغ": "فهمتُ".

أمّا "وانغ تشينغ شان" فقال: "لا تكتب أنها تُحبُّ الليلَ الآن، وإلا فسيعطّل ذلك عُثورها على حبيب".

فردّ "دان أر دونغ": "اطمئن".

فأشعل "وانغ تشينغ شان" سيجارةً، وناولها له.

سار "دان أر دونغ" والسيجارة تتدلى من فمه، حتى وصل أمام المنزل القديم الذي سكّن فيه من قبلُ مع العمّة "دان سيه" في الرأوية

الجنوبية الغربية، ونظر طويلاً إلى الأضواء الغربية المنبَعثة منه، ثم استدار مُغادِرًا. ورغم أضواء الطريق القليلة إلا أنها أضاءت بوضوح جَبَلِ التَّينِ، وبدا كُلُّ طريقٍ فيه واضحًا للعيان مثل الذِّكريات التي يَصْعَبُ مَحْوُهَا، فتذكَّر "دان أر دونغ" المرَّةَ الأولى التي رأى فيها العَمَّةُ "دان سيه". فقد كان هو وأشقاؤه أربعة، الأخ الأكبر والأخ الثالث كانا يَسْكُنَانِ مع أبويهِ في قرية "دونغ تشينغ"، أمَّا هو والأخ الثاني فكانا يَسْكُنَانِ في قرية "لونغ تشان". وقبل أكثر من عشرين عامًا في فصل الصيف جاءت الخاطِبةُ بها من قرية "شيومو" كي تُعَرِّفَهَا على الأخِ الثاني من أُسرةِ "دان"، كان أبوا العَمَّةِ "دان سيه" قد تُوَفِّيَا في وقتٍ مُبَكَّرٍ، فترعرعت في بيتِ عَمِّهَا، إلا أن زوجة عَمِّهَا كانت لا تُحِبُّهَا، وترغب في تزويجها في أسرع وقتٍ. أمَّا هي فكانت نحيفةً، صفراءَ، ذاتَ وجهٍ طويلٍ وعينين صغيرتين وشَفَّةٍ مُتهَدِّلةٍ قليلًا، وتُصَفِّفُ شَعْرَهَا في ضفيرتين مجدولتين، وقليلة الكلام. ألقى "دان أر"<sup>(1)</sup> نظرًا وَّاحِدَةً عليها، ثم قال إن لها وَجْهًا بَائِسًا، وضمائرَها مُضْفَرَةٌ بلا عناية، ولا تُشْبِهُ بِأَيِّ حَالٍ رَبَّةٍ مَنزِلٍ مَاهِرَةٍ؛ لذا رَفَضَهَا بِشِدَّةٍ. إلا أن "دان أر دونغ" اهتزَّ قَلْبُهُ لَهَا. لقد كانت في ذلك اليوم ترتدي قميصًا أبيض، وتُؤوِّرُهُ سوداءَ، وشبشبًا بلاستيكيًا وردِيَّ اللَّوْنِ؛ فَبَدَتْ بِسِيطَةً ونظيفةً وبرَّاقةً، وتبعثُ على التَّعَلُّقِ بِهَا؛ فترَوَّجَهَا "دان أر دونغ"، وأَحَدَ زَهْرَةَ شَبَابِهَا، وفي النهاية تخلَّى عنها، وعندما تَمَّ الطَّلَاقُ بينهما كان والداه قد تُوَفِّيَا، وإلا لكانا استشاطا غَضَبًا منه، أمَّا "دان أر" فقد انتَقَلَ إلى قرية "دونغ تشينغ" بعد أن أُصِيبَ "دان شيا" بَعْلَةٍ في المِخْ؛ وذلك خَشْيَةً أَنْ تُرهِقَهُ تِلْكَ المُطَلَّقةُ وابْنُهَا إِذَا مَا صَادَفْتَهُمَا مَتَاعِبٌ، ومن وقتها تبرأ من أخيه الأصغر "دان أر دونغ".

(1) أر باللُّغَةِ الصُّينِيَّةِ تعني رقم اثنين، في إشارةٍ إلى أَنَّهُ الابنُ الثَّانِي لِأُسرةِ "دان" - المترجم.

في تلك الليلة سَهر "دان أر دونغ" كي ينتهي من ذلك المقال، وعند  
 الفجر خَرَجَ من المنزل ووصلَ إلى المدخل الشمالي، كان الوقت مُبَكَّرًا  
 والهواء مُبْتَلٌ بِبَدَى خفيفٍ، ولم يكن هناك أيُّ مازةٍ في الطُرقات، فقط  
 كَلْبٌ مُسْنٌ أصاب العَشَى الليلي عينيه يرقد أمام باب مَبْنَى مُهدَّم  
 مَهجورٍ، نَبَحَ فيه غاضبًا بلا قُوَّة، وعندما مرَّ أمام فِنَاءٍ مُجاوِرٍ للطَّاحون  
 سَمِعَ صَوْتًا رَتِيبًا مُتَكَرِّرًا مثل بندول الساعة؛ فعرف أنَّ الحمار يُحرِّك  
 حَجَرَ الطَّاحون، وفي المدخل الشمالي لا يوجد أحدٌ يَطْحَن - باستثناء  
 "لاو واي" - غير العمَّة "دان سيه"، فلا بُدَّ أنها هي؛ فتَقافَزَ قلبُه  
 سريعًا، وشعر بصعوبةٍ في التقاط أنفاسه، وتوقَّفت خطواته، وأخرجَ  
 من جيبه أقراصَ إنقاذٍ سريعٍ للقلب، ابتلَعَ منها بضَعَّ حَبَاتٍ، ثم  
 دخل إلى الفِناء وهو يرتعش.

كان حَجَرُ الرَّحَى الأبيض يدور لتُخرج منه العُصارَةُ الدَّهبيَّة للذُّرَّة،  
 كما لو كان يَذرفُ الدَّمع، وكان الحمار الأسود مَعصوبَ العينين بِعِصَابَةٍ  
 سَوْداء يدور هو أيضًا، وقد صنع دائرةً عميقةً بحوافره في أرض الفِناء  
 الطينية، لو نظَّرت إليها من بعيدٍ لَبَدتَ مثل عينٍ غاضبةٍ تُحدِّقُ  
 في "دان أر دونغ"، وشابُّ يرتدي بلوفر أزرق يحمل دلوًا من الصفيح  
 ويتبع الحِمَارَ لِيَمْلَأَ عَيْنَ الرَّحَى بحبوبِ الذُّرَّة المنقوعة، كان ذا شَعْرٍ  
 أسود كثيفٍ، ووجهٍ أَسْمَرٍ مُحَمَّرٍ، ولحيةٍ صغيرةٍ خفيفة، وعندما سَمِعَ  
 صوتَ خُطواتٍ خَلَفَه أدار رأسَه نحوها، فرأى "دان أر دونغ" عينين  
 لامِعَتَيْنِ صافِيَتَيْنِ تُشْبِهَانِ بِالضُّبُطِ عَيْنِي العمَّة "دان سيه" التي رآهما  
 منذ سنواتٍ طويلةٍ مَضَّت، تلك العينان بالنسبة له بمثابة اللَّيْلِ في  
 حياته. وفي أعماق قلبه أطلقَ "دان أر دونغ" صِيحَةً حارَّةً: "ولدي"، ثم  
 ألقى العشرة آلاف يوان التي كان يَحْتَضِنُهَا على الأرض، وخرج مُترنِّحًا  
 من الفِناء وهو يتخَبَّطُ يمينًا ويسارًا.

وبعد أسبوعٍ نَشَرَتِ الصَّحيفةُ مقالَ "دان أر دونغ". وعندما قرأ  
 أهالي قرية "لونغ تشان" تلك الصَّحيفةَ سَبَّوه بأنه مُخادِعٌ عَشَّاشٌ؛

فقد أَلَفَ الكثيرَ من التفاصيل، مثل أن "لاو واي" قال إن "أن دا ينغ" كان يُساعِدُهُ في حمل سَلَّةِ "الدوفو" بالعصا على كتفه، وأن "جيه شي باو" قال إن "أن دا ينغ" أنقذَ من قبل طائرٍ عَقَعَ مَصَابًا، وأنَّ المَطْرِزَةَ قالت إنه تَعَلَّمَ الحياكَةَ منها حين كان يزورها خَصِيصًا كي يُرَقِّعَ الملابس لزملائه الجنود، وأن "لين دا هوا" قالت إنَّه تَطَوَّعَ بلا مُقَابِلٍ لإصلاح المقاعد والمناضِدِ بالمدرسة. أمَّا أكثرُ الأمورِ عَجَبًا فكان أنَّ صاحِبَةَ نُزُلِ الشَّمْسِ الحمراء قالت إنها قد عرَفْتَهُ بفتاتينِ كي يَخِطِبَهُمَا، لكنه قال إنه مُرابِطٌ لحماية الحدود، ولا يُفكِّرُ في المسائل الشخصية. وهكذا، عندما استَعَرَضَ أهالي القرية مقال "دان أر دونغ" اكتشفوا للمرَّةِ الأولى أن الأخبار المطبوعة في الصُّحُفِ يمكن أن تكونَ مُجَرَّدَ أكاذيب؛ فلعنوه كثيرًا، ولكن بعدَ ثلاثةِ أو خَمْسَةِ أَيَّامٍ تَطَايَرَتِ أخبارٌ بأنه قد أُصِيبَ بِسَكَّتَةِ دِمَاعِيَّةٍ، وألَقَتْهُ زَوْجَتُهُ الثَّانِيَّةُ في المستشفى ولم تَعُدْ ترعاه أو تسأل عنه؛ فتعاطَفَ معه الجميعُ، قائلين: "لقد لَقِيَ جَزَاءَهُ"، وسامحوه على الأكاذيب التي خَرَجَتْ من تحت قلمه؛ فعلى أيِّ حالٍ كانت كُلُّ تلك الأكاذيب تتحدَّثُ بشكلٍ جيِّدٍ عن "أن دا ينغ".

# مكتبة

t.me/soramnqraa





## 11

### عيد البضائع القديمة

هناك عيدٌ خاصٌ بقرية "لونغ تشان"، بالإضافة إلى عيد "مُصارعة الكباش"، وهو "عيد البضائع القديمة"، وإذا كان عيد مُصارعة الكباش يأتي مع عيد الفوانيس، فإنَّ عيدَ البضائع القديمة يأتي بعد حصاد الخريف.

ولولا "شين كاي ليو"، لَمَا كان لهذا العيدِ وجودٌ.

فقبل سِتَّةِ عشرَ عامًا، وفي يومٍ من أيامِ نهاية الخريف، وعندما كان "شين كاي ليو" يجمعُ الأدوات الزراعيَّة بعد أن انتهى من حصادِ الفناء الخلفيِّ والأمامي اكتشف أن المحرَّاث القديم الذي لم يستخدمه لسنوات عديدة يشغل مكانًا كبيرًا، فتفتَّق ذهنُه عن فكرة، وحمل المحرَّاث على كتفه وذهب إلى السوق الجنوبيَّة حيث يتركِّز الباعةُ الجائلون والدكاكين الصغيرة على أمل أن يُقايسَه مِنجَل. فالغرفة المصنوعة من الطين والأعشاب التي يسكن فيها قد مرَّ عليها وقتٌ

طويل، وصارت تُسَرَّب ماء المطر؛ لذا فُكِّر في أن يضع على سقفها بعض الأعشاب الجافة عندما يحلُّ الصيف، وبالطبع فإن المنجل لا غنى عنه في قطع الأعشاب. وعندما انتشر خبر أنه يرغب في مُقايضة محراثه بمنجل حفز ذلك الفلاحين على أن يهرعوا إلى بيوتهم ويحملوا أدواتهم الزراعيّة الزائدة عن حاجتهم، أو التي تركوها لفترة طويلة بلا استخدام مُقايضتها بما يحتاجونه. وهكذا استبدل النَّاسُ وسط نسمات الخريف بالمحراث منجلاً، وبالمنجل شادوفاً، وبالْمِعْوَل فأساً، فمنها أكملوا ما ينقصهم من مُعدّات زراعيّة، ومنها حظوا بسعادة لا توصف. وفي نهاية خريف العام التالي لم تُعد المُقايضة مُقتصرَةً على المُعدّات الزراعيّة فحسب، بل دخلها الأثاث المنزليُّ وأدوات المطبخ، فصار الصُّندوق يُستبدل بصوان، والمقعد الخشبي ذو الذراعين يُستبدل بمائدة طعام، وصارت البضائع أكثر تنوعاً مع مرور الوقت، وهكذا ازدهر سوق البضائع القديمة. ومع حلول العام الثالث، توسّع نطاق المُقايضة ثانية، حيث دخلته الملابس والأحذية والقُبُعات وديكورات المنزل والأدوات الدراسيّة، فصارت الملابس الملونة تُستبدل بالأحذية القماشية، والسُّروال يُستبدل بمريّة مطبخ، والمزهرية تُستبدل بشمعدان، والمرآة تُستبدل بعلبة أقلام، والقُبُعة تُستبدل بقفاز، حتى القلم الرصاص يُستبدل بمحاة؛ فصار كلُّ شيءٍ تتخيّله موجوداً. وكان "تانغ هان تشينغ" و"تشين ماي تشين" يشعُران في البداية بنفورٍ من هذا النوع من التجارة؛ ففي اعتقاديهما أنه سيؤثّر على صورة السُّوق الجنوبيّة، قائلين بأننا في عصر اقتصاد السُّلع، ونظام مُقايضة السُّلع بالسُّلع هو نظام مُتخلّف. لكن لم يُعد أحدٌ قادراً على منع مثل هذه السوق الذي تشكّلت وكبُرت، فقد سَكنت في قلوب الناس، وتدرجياً صارت عيداً من أعياد سُكّان قرية "لونغ تشان"، فلم يُعد أمام الحكومة المحليّة للقرية إلّا أن تنصاع للتّيّار، وتقيم عيد البضائع القديمة في نهاية الخريف من كلِّ عام في السوق الجنوبيّة.

أما في أيّ يومٍ تحديداً يبدأ عيدُ البضائع القديمة، فهذا بيد "شين كاي ليو"، فعندما يظهر في السُّوق الجنوبيّة حاملاً بضاعته القديمة يُعد هذا بمثابة قصّ الشريط للعيد، ويمكن للناس عندها أن يجلبوا بضائعهم القديمة من منازلهم كي يُقايسوا بها. وأحياناً يستمرُّ العيد ليومٍ أو اثنين، وأحياناً من ثلاثة لخمسة أيام، فهذا يتوقّف على ما إذا كانت البضائعُ كثيرةً أم لا، وبالطبع يتوقّف أيضاً على الطّقس، فأحياناً تكون الشَّمسُ ساطعةً في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني تهطلُ الأمطارُ المختلطةُ بالثلج، وهكذا ينتهي عيدُ البضائع القديمة بعدَ يومٍ واحدٍ، وأحياناً يستمرُّ الطّقسُ المُشرقُ لعدّة أيام، فيمتدُّ العيد ليومين أو أكثر. هذا العيد جَلَبَ للقرية جواً من السّلام والألفة، وفي نفس الوقت جَلَبَ أيضاً الكثير من المتاعب. فمثلاً لو أخذت أسرة "شي" إبريق شاي من أسرة "دونغ" واستخدمته على مائدتها، فهذا الإبريق صار يُعاملُ مُعاملةً جيّدة؛ وُعد أمرٌ يُفرِحُ أسرة "دونغ"، حيث إنَّ بضاعتهم القديمة تَمَتَّعت بمصيرٍ جيّد؛ لذا يتعاملون مع أسرة "شي" بمودّة، لكن لو طبق غسيل الوجه الخاصّ بأسرة "لي" صار طبقاً لإطعام الدجاج بعد أن أخذته أسرة "وانغ"، فإن أسرة "لي" ستشعر أن أسرة "وانغ" لا تحترمهم؛ لذا تَعَبَسَ وجوههم إن قابلوا أحداً من أسرة "وانغ". أما الأسوأ على الإطلاق فهُم هؤلاء ذوو الدّائِرة الضعيفة، فهم يُقايسون أشياءهم، ولكن لو رأوا الآخرين يرتدون قُبَعَاتهم، أو اكتشفوا أحدهم يحمل شادوقاً كان لديهم في المخزن، أو رأوا أسرةً أخرى تَنشُرُ الأرز على سَلّةٍ كانت موجودةً لديهم في الفناء، أو شاهدوا قفص طيورٍ مُعلّقاً في شجرة أسرة ما وهذا القفص كان أطفالهم يلهون به، حينها يَشْكُونُ أن الآخرين قد سرقوهم، ويذهبون لإبلاغ الشرطة؛ لذلك بمجرد حلول العيد يُرسل مركزُ الشرطة شُرطيّين إلى السوق الجنوبيّة، مهمّتهما - بالإضافة لحفظ الأمن - هي حلُّ الخلافات التي قد تنشأ بين الأطراف أثناء المُقايسة، وكذلك تنبيه الجميع أن يتذكّروا جيّداً الأشياء التي

قايضوها، وأن أي شيء قايضوه هو مثل الماء الذي سكبوه، أو الابنة التي زوّجوها، كلها لم تُعد تربطهم بها علاقة.

وقد كان "تانغ هان تشينغ" يشمئز من كَوْن "شين كاي ليو" جنديًا هاربًا؛ لذا عندما كان الغُرباء يأتون للقريّة في عيد البضائع القديمة ويسألون عن نشأة هذا العيد، كان يكتفي بالقول بأنه عيدٌ من اختراعهم، ولا يلفظ اسم "شين كاي ليو" أبدًا، بل أنه أعطى تعليماتٍ لبعض الأشخاص أن يأخذوا بضائعهم القديمة ويذهبوا مُبكرًا إلى السُوق الجنوبية في نهاية الخريف من كلِّ عام؛ كي يُخفّف من الهالة المُرتبطة بـ "شين كاي ليو" في هذا العيد، ولكن العجيب أنه لا أحد يملك قُدرة "شين كاي ليو" على جَمع النَّاس؛ فبظهوره فقط يبدأ الناس في الذّهاب إلى هناك في جماعات، لقد كان أهالي قرية "لونغ تشان" يَحْتَقِرُونَ "شين كاي ليو" في الأيام العاديّة، ولكن في تلك الفترة من كلِّ عام كانوا يُقدِّسونه.

أمّا البضائع القديمة التي يحملها "شين كاي ليو" لتكون بمثابة إشارة البدء لهذا العيد فكانت تَخْتَلِفُ من عامٍ لآخر، ففي العام الأول كان محراثًا، وفي العام الذي يليه مطرقة، وفي العام الثالث دلو ماء، وفي الرابع مقعدًا خشبيًا طويلًا. وبوجه عام، كان قادرًا على مُقايضة البضائع القديمة التي يجلبها معه كلِّ عام، أمّا الأشياء التي يأخذها في المقابل فكانت دائمًا مُتفرّدة، فقايض المقعد الخشبيّ الطويل بسوط خيل، لكنّه لا يُربيّ خيولًا، وقايض دلو أرزٍ مصنوعًا من لِحاء شَجَر البتولا بهارمونيكا، لكنّه لا يجيد العزف عليها. أمّا الأكثر طرافةً كان مُقايضته أوراق لعبٍ وأخذ بدلًا منها لوحة عامٍ جديدٍ اصفرّ لونُها، وعَلَّقها على جانب السُّوان.

واعتقد الجميع أن "شين كاي ليو" ليس في مزاجٍ جيّد للمُشاركة في عيد البضائع القديمة لهذا العام؛ فحفيده ارتكب جريمةً وهاربٌ

من العَدالة، لكن في اليوم التالي لمنتصف الخريف، وما أن احمرَّت الشمس في السَّماء، وقبل أن يذوب الصَّقيعُ فوق أسطحِ المنازل، ظهر "شين كاي ليو" في السُّوق الجنوبية. وكان هنداؤه غريبًا، حيث ارتدى سُرَّةً صفراء مليئةً بالرُّقع، مع بنطالٍ قُطنيٍّ خَفيفٍ أسود اللون، مع حذاءٍ ضخمٍ مُضحك، واعتَمَرَ قُبْعَةً فُماشَ رَماديَّةَ سُداسيَّةَ الأطراف، وحمل في يده سَلَّةً من فَحِمٍ أَسودَ لامِعٍ شديدِ السَّواد.

كان "جيه شي باو" هو أوَّل مَنْ رَأَى "شين كاي ليو"، أثناء ذهابه للعمَل في نُزُلِ الشمس الحمراء، وما إن رآه حتى حَكَّ أنفه المسدودَ بفِعلِ البَرْد، وقال: "ما كُلُّ هذه الرُّقع الموجودة في ملابسك؟ هل ترغب في العودة للمُجتمَع القديم؟". مكتبة سُرٍ مَنْ قرأ

فاهتَزَّت لحيه "شين كاي ليو" البيضاء، وقال ساخِرًا: "الرُّقع هي زهور الملابس، وكل زهرةٍ وراءها قصَّة، ما أدراك أنت بهذا؟".

لم يغضب "جيه شي باو" من سُخريته، بل تحوَّل للهجوم على قُبْعته: "أما قُبْعَتُكَ تلك فهي ليست بقُبْعَةٍ كاهنٍ ولا قُبْعَةٍ جُنديٍّ، أي شيء هي بالضبط؟".

"لولا هذا الشيء، لَمَا عِشْتُمْ في سلامِ اليوم، هل لا زِلتَ ترغب في حَكِّ أنفِكَ هنا؟ انسَ الأمر" قالها "شين كاي ليو" ووَضَعَ السَلَّةَ على الأرض وهو يلهُثُ ثم عَدَّلَ من وضع قُبْعته.

فحَكَّ "جيه شي باو" أنفه، وقال: "هل اكتشفتَ أنَّ أنفي هذا هو ابنُ قُبْعَتِكَ؟ أيَّ حظٍّ عاثِرٍ جَمَعَ بينهما؟" ثمَّ ضحك ضحكةً مريرةً وغادر مُتَّجِهًا نحو نُزُلِ الشمس الحمراء.

طلَّعتِ الشمسُ، وذاب الصَّقيعُ، وعندما يذوب فوق المنازل يسيل الدمع من الأسقفِ، وعندما يذوب فوق الأشجار، يتعلَّق كاللألئِ فوق الأغصان والأوراق ليلمع لمعانًا يخطف الأبصارَ، وحين يذوب فوق الطُّرُق التُّرابيَّة، تصير الطُّرُقُ مثل المحبِّرة، أمَّا الأقدام فتصير هي

الخاتم الذي يترك على الطريق كل أشكال آثار أقدام البشر، وآثار أقدام الدجاج والبط والإوز. والهواء بعد الصقيع مُنعشٌ إلى حدٍّ كبير، كأنَّ به بقايا ثلوج، وتلك هي مُقدِّمة لهطول الثلج.

بدأ الناس يكثرُون تدريجيًّا في سوق البضائع القديمة، وكان الجميع يشعرون بالفضول حول ملابس "شين كاي ليو"؛ لذا تجمَّعوا حوله، ولكن كلِّما سأله أحدُهم اكتفى برفع رأسه والنظر للسماء دون أن ينطق بكلمة، وعند حلول الظُّهر، وصلت السوقُ إلى ذروتها، وهنا فقط واجه الجماهيرَ وبدأ في سرد القصة وراء ملابسه.

قال بأن تلك القُبعة كان يرتديها عندما كان في جيش المقاومة يحارب اليابانيين، لقد كان جنديًّا ذا درجةٍ بسيطة، فكان يحلق شعره بالكامل؛ ولذلك كان يحبُّ ارتداء القُبعات. وقد ارتدى من قبل ثلاث قُبعات مثل تلك، واحدة أخذتها الرياحُ إلى هاويةٍ جبليَّة عندما كان الجيش يسير على عَجَل، وواحدة فجَّرتها قُبلة، ولم يبقَ إلا هذه القُبعة.

وكان "لي لاي تشينغ" من القرية الثالثة يُضمر الكراهية في قلبه تجاه "شين كاي ليو" منذ أن فَصَح الأخيرُ فعلته في عيد مُصارعة الكباش وتَسبَّب في طلاقه من زوجته وتشتت أسرته، وتصادف أنه جاء إلى عيد البضائع القديمة حاملاً على كتفه دلو ماء، وعندما سمع حديث "شين كاي ليو" بصق، وقال: "لقد تزوجت من يابانيةٍ ولديك الجرأة لتقول إنَّك حاربت اليابانيين؟ من تُخادع؟".

لم يُعره "شين كاي ليو" أيَّ انتباه، واستمرَّ في سرد حكايات ملابسه. فقال إن ملابسه تلك هي ملابس عسكرية ارتداها جنديُّ يابانيٌّ من قبل، فهي غنيمةٌ حرب، وعندما عانى جيش المقاومة من نقص في الإمدادات ارتداها، وقد اهترأت الملابسُ وامتلات بالثقوب جرَّاء ارتدائها وسط الأشجار الكثيفة؛ لذا فالرُّقع فيها كثيرة. وهنا لم يكن "لي

لاي تشينغ" هو الوحيد الذي شكك في هذه الملابس، بل إن الجميع "مَصَمَّصوا" شفاههم وقالوا: "كيف لجيشنا أن يرتدي ملابس العدو العسكرية؟ إنك تهذي".

أحاطت الأصوات المتشككة بـ "شين كاي ليو"، لكنه لم يهتز، وقال إن قُبَعته وملابسه هم أحبابه، ولن يُقايضهم ولو بالذهب والأحجار الكريمة، لقد ارتداهم فقط كي يفتح مدارك الناس ويُريهم شيئاً جديداً، لكن ما يرغب في مقايضته ليس هم، وإنما الفحم.

لقد أراد مقايضة سَلَّة الفحم بحِصانٍ، وعلى وجه التحديد حِصان "أيلوينتشوين".

بالطبع اعتقد الجميع أنه قد جُنَّ، سواءً بسبب ملبسه أو بسبب كلامه.

لقد أطلقت منطقة "سونغشان" مؤخرًا مشروع "استبدال الخشب بالفحم"؛ وذلك من أجل حماية الغابات. أي أن الأخشاب التقليدية المُستخدمة كوقود تمَّ استبدالها بالفحم. وعند إحراق تلك الأخشاب ترى الدخان المتصاعد من مداخل البيوت مثله مثل قطع السُحُب، أبيض كالثلج، وخفيفًا، وبه رائحة عطرية خفيفة. أما الفحم فهو مثل خلاصة الفِساء، يُصدر دُخانًا أسود عند حرقه وتصدر عنه رائحة كريهة، ويلوث الهواء. والكلُّ يعرف أن "تانغ هان تشينغ" يُحبُّ البيئة، ويحافظ عليها أكثر من أي شيء آخر؛ لذلك ومن أجل تقليل أضرار تُراب الفحم فقد جمَعَ الأموال بشتّى الطرق، وطبَّق نظام التَّدفئة المُجمَّعة في معظم مناطق قرية "لونغ تشان" وأصدر أمرًا بإلغاء الأفران الصَّغيرة في المنازل، وبنى غَلَّابَتَيْن: واحدة تقع بين الضلع الجنوبي الشرقي وبين الزاوية الجنوبية الغربية، والأخرى تقع على المنحدر الغربي. ولم يستثن من ذلك سوى المدخل الشمالي؛ وذلك لأن المنازل هناك قديمة ومتهالكة، وغير مُتناسقة؛ لذا يصعب إعادة



تأهيلها؛ ولذلك تَجِدُ المنازلَ في المدخل الشمالي رغم أنها تستخدم أفران الغاز لصنع الطَّعام مثلها مثل باقي المنازل، ولكن مع حُلُولِ الشَّتاء تُشعل النيران من أجل التدفئة، ولم يسمح لهم "تانغ هان تشينغ" باستخدام الفحم، بل سمَّح لهم باستخدام الأخشاب الطبيعية؛ لذا ظلَّ الدُّخان المتصاعد من منازل المدخل الشمالي عَطِرًا وخفيفًا.

ولأن "شين كاي ليو" يصنع الفحم في الجبل؛ لذا كان قُرْبُ منزله يأكل الفحم. لكنَّ الفحمَ لا يتحمَّل الحرق؛ لذلك تجده في الأيام الثلاثة الأشد بردًا في السنة يحرق أعواد الخشب؛ فأعواد الخشب صُلْبَة، وتُخرِج الحرارة بسرعة. ولكن في السنوات الأخيرة لاحظَ الجميع أمرًا غريبًا، فقد صار "شين كاي ليو" لا يُخزِّن أعواد الخشب، وعندما يعود للبيت لقضاء العام الجديد يظلُّ شهرًا كاملًا لا يرون فيه تقريبًا أيَّ دُخان يتصاعدُ من مدخنةِ بيته، لكنه لم يتجمَّد بردًا. ومن ثمَّ قال البعض بأنه تقدَّم في السنِّ، ودائمًا ما يجول وسط الجبال؛ وربما قد سَحَرته الثعالبُ، فصار لا يجوع، رغم عدم تناوُل الطَّعام، ولا يبرد رغم عدم إشعال الحطب.

كان الفحم في السَّلَّة الموضوعة بجوار قَدَم "شين كاي ليو" أسودَ لماعًا بشكلٍ لا يضاهى، لدرجةٍ بدًا معها أنك لو وضعتَه في قدرٍ ساخن يمكنك أن تستخرج الزيتَ منه. وليس به شوائب، فالقِطْع الكبيرة منه في حجم المحبرة، أمَّا القِطْع الصغيرة فتشبه العيون، وينبعث منه ضوءٌ يلفت الأنظار.

ورغم أن جَوْدَة هذا الفحم غيرُ عادية، إلا أن مُقايضته بحصان "إيلوينتشوين" جعلت الجميع يَهزُّون رؤوسهم رافضين؛ فقد شعروا أن ذلك مَحْضُ خيالٍ مجنون، لكن "شين كاي ليو" لم يتزعزع، بل قال إنه واثق بقدم شخصٍ ما ومعه الحصانُ المطلوب؛ فهذا الفحمُ هو فحمٌ غير عاديٍّ، إنه فحمٌ بلا دخان، وهنا فهم النَّاسُ فجأةً لماذا لا

يتصاعد الدُخان من مدخنة بيته في الشهر الأوّل من العام، لقد كان يحرق هذا النّوع من الفحم. فسألوه من أين أتى به؟ فردّ عليهم بابتسامة أظهرت أسنانه: "من أين أتى؟ بالتأكيد ليس من مؤخرتي، فأنا لا أتبرز مثل هذا الفحم الجيّد".

فضحك الجميع، وانشغلوا بالمقايضة، ولم يهتم أحدٌ ثانيةً بتلك السّلة من الفحم.

كان "شين كاي ليو" بمجرد أن يصل إلى سوق البضائع القديمة حتى يتراءى أمام ناظرَيْه خيال "تشيوشان أيتزيه". لقد رآها للمرّة الأولى في اجتماع المعبد، وكان ذلك في مثل هذا الفصل الصّافي البارد من فصول السّنة.

وقبل أن يقابلها كان بالفعل مُحاربًا.

لقد وُلد "شين كاي ليو" في أسرةٍ وضيعةٍ في جبل "شياو" بمقاطعة "تشييجيانغ". والمقصود بأسرةٍ وضيعةٍ هم الفقراء الذين يعيشون في أدنى درجةٍ من درجات المعيشة. وهم أيضًا أدنى درجة من درجات الباعة الجائلين، حيث يصنعون الحلوى الهلامية من كسر الأرز ويقايضونها بالبضائع القديمة، ثم يُجدّدونها ويضعونها في سلةٍ محمولةٍ بالعصا على الكتف، ويلقون في الشوارع والأزقة مُنادين على بضاعتهم وهم يتفرون على طبلةٍ صغيرة، وهكذا يستخدمون تلك الطريقة لكسب العيش. وكان الرّجال يُقايضون البضائع القديمة باستخدام الحلوى الهلامية، أمّا النّساء فكاننّ يستخدمنها في المناسبات السعيدة في بيوت الثّجار الكبار كي يحصلنّ مُقابلها على بعض النقود؛ ولهذا كانت نساء الطبقة الوضيعة لا يذكرنّ أعياد ميلاد أهل بيتهنّ، ولكنهنّ لا ينسينّ أبدًا أعياد ميلاد الكبار والصغار في بيوت الأغنياء. وفي تلك المناسبات يرتدين ملابسٍ لائقةً إلى حدّ ما، ويأخذنّ الحلوى الهلامية مُباركاتٍ ومهنّئاتٍ، ومن أفواههنّ تخرج الكلمات المعسولة؛ لذلك لم

يشعر "شين كاي ليو" في طفولته أبدًا بأن الحلوى الهلامية مُسكّرة؛ فقد كانت تلك الحلوى بالنسبة له تحوي بداخلها مَرارة الحياة.

وعندما بَلَغَ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ من العمر باعه أبواه. ففي ذلك العام تعرّضت القرية لكارثةٍ حَشْرَاتٍ قَصَّت على المحاصيل الزراعية وتسبّبت في مَجَاعَةٍ، وانتشر الجوع في رُبوع القرية. وقد كانت الطَّبَقَةُ الوَضِيعَةُ تُمارِس الشُّحَاذَةَ في المناسبات السَّعيدة، وفي المناسبات الحزينة أيضًا يساعدون الآخرين في "النَّدْب". وبالطَّبع لم يَكُن الفقراءُ يحتاجون لتلك الخدمة؛ فهُمُومُهُم كثيرةٌ، ودُموعُهُم أَكثَرُ. أمَّا الأغنياءُ فيختلفون، فحياتهم رَغِيدَةٌ، فَمِنْ أين لهم بالدموع الغزيرة؟ ولو نُقِصَت الدُموع في الجِنَازات فلن تَلَمَع العيونُ بقطرات الدَّمع، وهذا سَيُقَلِّل من بريق الجِنَازة؛ لذلك يستأجر بعضُ الأغنياء مَنْ ييكون وَيَنديبون. وبالمُنطق لن يموتَ الأغنياءُ بسبب المَجَاعَةِ، فمخازنهم مَمْلوءة، ومَطَابِخُهُم تتصاعدُ منها الرِّوائحُ الذَّكِيَّةُ الشَّهِيَّةُ ووجوههم مُتورِّدة، وأرْجُلُهُم مُفَعَمَةٌ بالقُوَّة، بل إنه ليسوا هم وحدهم مَنْ يتحدَّثون بقوة، بل إن حتى كلابهم تَنبَح بصوتٍ موفور الصُّحَّة. وكانت قرية "شين كاي ليو" قد مات فيها تاجرٌ غِلالٍ كبير، اسمه "مو شو تساي"، وكان بيع "شين كاي ليو" له علاقة بموت هذا الرَّجُل.

وعندما يسترجع "شين كاي ليو" سنوات الطفولة يَجِد حتى ملامح أخوته وأخواته ضبابيَّة، لكن يتذكَّر بوضوح هَيْئَةَ "مو شو تساي"، فهو مَنْ غيَّرَ حياتَه، كان قصير القامة، ذا وَجِهٍ طويلٍ أصفر، ويسير بأرْجُلٍ مُعَوَّجَةٍ للخارج، وفي الصَّيف والرَّبِيع يرتدي جلبابًا رماديًا، أمَّا في الشتاء والخريف فيرتدي فوقها قميصًا وفي قدميه ينتعل حذاءً قُماشِيًّا أسود طوال العام. ورغم ثرائه إلَّا أنه كان شديد البُخل، فكان مُقْتَرًا في مأكله وملبسه. وعندما حلَّت المَجَاعَةُ طار "مو شو تساي" من الفرحة كأنه رأى شروق شمسٍ عظيمًا، فقد نوى تخزين الحبوب الموجودة في مخازنه حتى دُرُوة الجوع والموت، وعندها يبيعه بأسعار فَلَكيَّة، وقد

حَكَمَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ أَلَّا يَأْكُلُوا أَيَّ طَعَامٍ جَائِفٍ، بَلْ يَكْتَفُونَ بِشُرْبِ بَعْضِ الْعَصِيدَةِ؛ لِذَلِكَ كَانَتْ الْعَصِيدَةُ تُصَنَعُ يَوْمِيًّا فِي مَنْزِلِهِ، وَعِنْدَمَا زِدَادَاتُ حِدَّةِ الْمَجَاعَةِ، مَنَعَ أَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ شُرْبِ الْعَصِيدَةِ حَتَّى الشَّبِيعِ، وَصَارَ هُوَ نَفْسَهُ مِثَالًا لَهُمْ يَحْتَذِرُونَ بِهِ، فَلَمْ يَعُدْ يَلْمَسُ عَصِيدَةَ الْأُرْزِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً كُلَّ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ، وَهَكَذَا ثَابَرَ عَلَى تِلْكَ الْمَشَقَّةِ لِنِصْفِ شَهْرٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَمَّلْ فِي النِّهَايَةِ، وَخَرَّ صَرِيحًا أَمَامَ مَخْزَنِ الْحُبُوبِ، وَمَا إِنْ لَفِظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ حَتَّى تَعَاوَنَ أَهْلُ بَيْتِهِ وَحَمَلُوهُ بَعِيدًا، ثُمَّ فَتَحُوا مَخْزَنَ الْحُبُوبِ وَأَشْعَلُوا نِيرَانَ الْمَوْقِدِ، وَصَنَعُوا قِدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْأُرْزِ الْجَائِفِ، وَأَكَلُوا حَتَّى التُّمَالَةَ مَعَ الْكَثِيرِ مِنَ الْخُضَارِ الْمَمْلُوحِ، وَبَعْدَهَا فَقَطْ بَدَأُوا فِي التَّفَكِيرِ فِي أَمْرِ الْجِنَازَةِ، وَعِنْدَمَا نَظَرُوا إِلَى جُثْمَانِهِ الْيَابِسِ انْتَابَتْهُمْ نُوبَةٌ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ، فَلَوْلَا مَصْرَعُ هَذَا الشَّيْءِ الْعَجُوزِ لَبَاتَتْ حَيَاتُهُمْ عَلَى شَفَا الْهَآوِيَةِ، وَلَمْ تَسْقُطْ مِنْ أَعْيُنِهِمْ دَمْعَةٌ وَاحِدَةٌ عَلَيْهِ؛ فَدَمَوْعُهُمْ فِي الْأَصْلِ قَلِيلَةٌ، وَيُضَافُ إِلَى ذَلِكَ كِرَاهِيَتُهُمْ لَهُ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بُدٌّ مِنْ اسْتِدْعَاءِ النَّدَابَاتِ. وَهَكَذَا أَخَذَتْ أُمُّ "شَيْنِ كَاي لِيُو" ابْنَهَا مَعَهَا إِلَى الْجِنَازَةِ.

لَمْ يَكُنِ النَّدْبُ غَرِيبًا عَلَى "شَيْنِ كَاي لِيُو"، فَعِنْدَمَا كَانَ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عَمْرِهِ تَقْرِيْبًا أَخَذَتْهُ أُمُّهُ مَعَهَا إِلَى مَخْتَلَفِ الْقُرَى وَالنُّجُوعِ كِي يَبْكِيَا مِنْ أَجْلِ الْآخِرِينَ. فِي الْبَدَايَةِ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْبُكَاءِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا رَأَى أُمَّهُ تَبْكِي بِحُرْقَةٍ خَشِيَّ أَنْ تَمُوتَ مِنْ شِدَّةِ الْبُكَاءِ، فَبَدَأَ فِي الْبُكَاءِ مِنَ الْفَرَزَعِ. وَعِنْدَمَا كَبُرَ قَلِيلًا، عَرَفَ أَنَّ أُمَّهُ لَنْ تَمُوتَ مِنَ الْبُكَاءِ؛ لِذَا صَارَتْ تَقْرُصُ أُذُنَهُ عِنْدَمَا يَجْفُ دَمْعُهُ فِي الْجِنَازَاتِ، أَوْ تَصَفَّعَهُ عَلَى وَجْهِهِ كِي يَبْكِي، بِالطَّبْعِ كَانَ طَعْمُ الضَّرْبِ مُرًّا؛ لِذَا كَانَتْ أُمُّهُ تَشْتَرِي لَهُ أَطْيَبَ الطَّعَامِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْجِنَازَةِ وَحَصُولِهَا عَلَى أَجْرِهَا، إِلَّا أَنَّهُ ظَلَّ عَازِفًا عَنِ الدَّهَابِ لِلْجِنَائِزِ.

وَعِنْدَمَا ذَهَبَ مَعَ أُمَّهُ إِلَى مَنْزِلِ "مُو شُو تَسَاي" لِلْبُكَاءِ، بَكَى بِحُرْقَةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَمَامَ نَاوُوسِ الْأَرْوَاحِ كَانَ هُنَاكَ طَبَقٌ مِنْ خُبْزِ "الْمَانْتُو" الَّذِي

يتصاعدُ منه البخارُ السَّاخِنُ، مُقَدَّمٌ كَقُرْبَانٍ لا يمكنُ المساسُ به، فلم  
 يَكُنْ باستطاعته سوى النَّظَرِ إليه والتَّلَمُّظِ جوعًا، فعَدَّبَهُ الجوعُ،  
 وعَدَّبَهُ الحِرمانُ، أمَّا أهلُ "مو شو تساي" فقد تناوَبوا على الأتِّكاءِ  
 فوق السَّرِيرِ لحراسةِ ناووس الأرواحِ، وذلك بعد أن تَعَبَّتْ أمعاؤهم  
 من كثرةِ الأكلِ. وعند الغروبِ انتهزَ فُرْصَةَ ذَهَابِ أُمِّهِ لِلحَمَّامِ وعدمِ  
 وجودِ أحدٍ من أُسْرَةِ "مو شو"، وغيابِ أيِّ شخصٍ حَيٍّ من أمامِ  
 ناووس الأرواحِ وابتلع في جوفه كَامِلَ طَبَقِ خُبْزِ "المانتو"، وليس هذا  
 فحَسَبُ، بل إنه شَرِبَ زَيْتَ المِصباحِ، فذلك المِصباحُ كان مَصنوعًا من  
 زيتِ بذور اللُّفْتِ، وبالطَّبْعِ انطَفَأَتِ شُعْلَةُ المِصباحِ بعد أن جَفَّ زَيْتُهُ،  
 وعندما عادت الأُمُّ وخرَجَ أفرادُ أُسْرَةِ "مو"، اكتشفوا اختفاءَ الخُبْزِ من  
 أمامِ ناووس الأرواحِ، وانطفَاءَ شُعْلَةِ المِصباحِ، فَشَحِبَتْ وجوهُ الجميعِ  
 من هَوْلِ المفاجأةِ. فوفقًا للعاداتِ لا يجبُ أن تنطفئَ شُعْلَةُ المِصباحِ  
 أمامِ ناووس الأرواحِ إلَّا بعد أن يُوارى الفقيدُ التُّرى، فلو غاب الضوؤُ  
 فإن تلكِ نبوءةٌ بسقوطِ نَسْلِ الفقيدِ في ظلامِ حَالِكٍ من بعده،  
 وعندما عَلِمَتِ أُسْرَةُ "مو" أن ابنَ النَّدَابَةِ هو الذي أَكَلَ الخُبْزَ خِلْسَةً  
 وشَرِبَ زيتَ المِصباحِ سِرًّا ثارتِ أعصابهم، وانهالوا عليه ضربًا باللُّكَمَاتِ  
 والرِّكَلاتِ حتى شارَفَ على الموتِ، حتى إن ابنَ "مو شو تساي" استلَّ  
 سَكِينًا حادَّةً ناويًا أن يسلخَ جِلْدَهُ ليأخذ ما تحته من دهونٍ ويصنع  
 منها زيتًا يُشعِلُ به المِصباحِ، أمَّا أُمُّ "شين كاي ليو" فقد سَجَدَتِ على  
 الأرضِ ومرَّعَتِ جَبْهَتَها أمامهم مرارًا، مُتَضَرِّعَةً للعفو عن وَلَدِها، قائلةً  
 إنهم حتى لو سَلَخُوا جِلْدَهُ فلن يُخْرِجُوا منه ولو قَطْرَةَ زيتٍ واحدةٍ،  
 فهو مُجَرَّدُ جِلْدٍ على عظامِ، إلَّا أن أُسْرَةَ "مو" لم يصفحوا عنه، وفي  
 النهاية سَقَوْه رغماً عنه طبقًا من الماءِ بالصابونِ، وعلَّقوه رأسًا على  
 عَقِبِ على شجرةِ توتٍ حتى يُرْجِعَ لهم ما أَكَلَهُ سَرَقَةً، ولا يزال "شين  
 كاي ليو" يذكر مَشْهَدَ تعليقه في الشجرةِ، فقد تراقصت نجومُ ذَهَبِيَّةٌ  
 أمامِ عينيه، وشعرُ بالغَثَيانِ الشديدِ، ولَفَّتْ به الدنيا، حتى آمَنَ تمامًا

أن ما هو فيه الآن هو الجحيم الذي تحكي عنه العجائز. وفي النهاية خرج خُبز "المانتو" الذي أكله من جوفه مثل القمامة، وعلى الفور قفز كلبُ أسرة "مو" إلى الأمام ليلعق ما تقيأه. وقد بدا لسان الكلب أحمرَ بلونِ الدَّم، وعيناه أيضًا بلونِ الدم، ربما كان ذلك بسبب ضوءِ الشَّمسِ الغارِبَةِ.

وفي تلك المرّة من النَّدب، لم يحصُلا على قرشٍ واحد، بل والأمرُ من هذا أنهما تعرّضا للإهانة والضرب. والغريب أنه بعد الجِنازة تعرّضت أسرة "مو" لنكباتٍ وعثرات، ففي نفس العام ولدت زوجةُ ابنه جنيئا ميئا، وتعرّت زوجته في عتبة الباب فانكسرت ثلاثٌ من أسنانها، أمّا الأغرَبُ فكانت ابنة "مو شو تساي"، ففي صباح أحد الأيام لم تعد عينها تُبصران فجأةً، وقد نسبت أسرة "مو" كل تلك المصائب إلى "شين كاي ليو"، فلو لم يشرب زيت المِصباح لظلت أيام عائلتهم مُشْرِقةً ومُضيئةً، وكلّما واجههم سوءٌ حظٌّ، بحثوا عنه ليُفرغوا فيه غضبهم، فيضربونه، ويتبولون عليه، ويُجبرونه على تناول فضلات الكلاب. وعندما أُصيبت الابنة بالعمى، أرادوا القبض عليه كي يُصيح هو عصاها التي تتوكأ عليها ويخدمها طوال حياته، وهكذا اضطرَّ أبواه إلى بيعه في مكانٍ بعيدٍ خشيةً أن تعرّ عليه أسرة "مو".

ولا يزال "شين كاي ليو" يذكر اليوم الذي أخذه فيه المُشترِي، وأهدى لأسرته خمسين كيلوجرامًا من الأرز الأبيض، وبالنسبة لأسرةٍ وضيعةٍ لا تجد ما تأكله في زمن المجاعة كان ذلك الأرز الأبيض بمثابة ضوءِ الشَّمسِ الذي أضاء في لحظاتٍ ظلماتِ الأيام، لقد وقف أخو "شين كاي ليو" الأكبر وأخته الصُغرى بجوار برميل الأرز هذا يُحدقان في الأرز الأبيض بنظراتٍ ثابتةٍ لا تحوّل عنه ولعابهما يسيل، أمّا أبواه فقد ألقيا نظرةً واحدةً على الأرز ثم سارا تجاه حوضِ الماء ليغبّا منه الماء البارد عبًا كما لو كانت النارُ مُشتعلةً في جسدَيْهما والماء البارد يُطفئها. وفي اللحظة التي أخذَ فيها المُشترِي "شين كاي ليو" لم تكن

أَنْظَارُ عَائِلَتِهِ مُثَبَّتَةٌ عَلَيْهِ، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ فِنَاءِ الْمَنْزَلِ صَعِدَ مِنْ خَلْفِهِ صَوْتُ بُكَاءٍ يُمَزَّقُ الْقُلُوبَ، لَقَدْ كَانَ صَوْتُ بَكَائِهِمْ مُفَعِّمًا بِحُزْنٍ لَا يُوَصِّفُ كَأَنَّهُمْ يَبْكُونَ دَمًا، وَظَلَّ هَذَا الصَّوْتُ عَالِقًا بِذَاكِرَةِ "شِين كاي ليو" مَدَى الْحَيَاةِ.

فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ كَانَ التُّجَّارُ الشَّمَالِيُّونَ الْقَادِمُونَ إِلَى مَنْطِقَةِ مُقَاطَعَتِي "جِيَانْغَسُو" وَ"تَشِيَهْجِيَانْغ" يَجْلِبُونَ مَعَهُمْ فَوَلَّ الصُّوْيَا وَالْفَحْمَ وَيَقَايِضُونَهُمَا بِالشَّايِ وَالْحَرِيرِ، وَاشْتَرَى "شِين كاي ليو" تَاجِرُ شَايٍ مِنْ مَقَاطَعَةِ "هَارْبِين"، كَهَدِيَّةٍ لَصَدِيقِهِ "لَوَا تَشَانْغَ جَوِي" الَّذِي لَدَيْهِ مَصْنَعُ فَحْمٍ فِي قَرْيَةِ "خِيَه لِي"؛ كِي يَسْتَعْمِلُهُ كَسَائِسٍ لِلخَيْلِ.

كَانَ "لَوَا تَشَانْغَ جَوِي" مُدْمِنًا لِلأَفْيُونِ، قَصِيرَ الْقَامَةِ، ذَا سَاقَيْنِ مُعَوَّجَتَيْنِ، وَوَجْهٍ أَسْوَدَ، وَأَنْفٍ ذِي فَتْحَتَيْنِ مَائِلَتَيْنِ لِلأَعْلَى قَلِيلًا، وَأُذُنَيْنِ بَارِزَتَيْنِ لِلخَارِجِ، وَسِنِّينِ كَبِيرَتَيْنِ بَارِزَتَيْنِ خَارِجَ فَمِهِ، يُوَحِيَانِ بِالشَّرَاسَةِ، لَكِنْ قَلْبُهُ لَمْ يَكُنْ شَرِيرًا، وَكَانَ وَدُودًا مَعَ العُمَّالِ، يَهْتَمُّ بِطَعَامِهِمْ وَمَلْبَسِهِمْ، وَيُعْطِيهِمْ مُرْتَبَاتٍ كَبِيرَةً. وَكَانَ مُحِبًّا لِلخَيْلِ، وَلَدَيْهِ مُرَبُّ مَخْصُوصٌ لَهَا. وَالخِيُولُ السَّبْعَةُ الْمَوْجُودَةُ بِالإِسْطَبْلِ اخْتَارَهَا جَمِيعًا بِنَفْسِهِ، وَكَانَ يَكْرَهُ الخِيُولَ البِيضَاءَ؛ حَيْثُ رَأَى أَنَّهَا حِينَ تَرَكُضُ تَبْدُو مِثْلَ الأَرْوَاحِ وَتُثِيرُ الخَوْفَ فِي الْقُلُوبِ؛ فَكَانَتْ كُلُّ الخِيُولِ الَّتِي يُرَبِّيهَا بُنْيَةً اللَّوْنِ. وَكَانَ مُرْتَبُ "شِين كاي ليو" مِنْ عَمَلِهِ سَائِسًا لِلخِيُولِ أَقْلَ مِنْ مُرْتَبَاتِ العُمَّالِ الَّذِينَ يُنْقَبُونَ عَنِ الفَحْمِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَمَّ بِذَلِكَ؛ فَكَانَ كُلُّ مَا يَعْنِيهِ هُوَ الأَكْلُ حَتَّى الشَّبْعِ فَحَسْبُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي فِتْرَةِ مُوُ الْجَسَدِ، وَبِمَاكَانِهِ تَنَاوَلُ ثَلَاثَةَ أَرْغَفَةِ خُبْزٍ وَطَبَقَيْنِ كَبِيرَيْنِ مِنْ "الدُوفُو" مَعَ المَلْفُوفِ الصِّينِيِّ فِي الوَجْبَةِ الْوَاحِدَةِ؛ لِذَلِكَ طَالَتْ قَامَتُهُ وَتَوَرَّدَ وَجْهُهُ بَعْدَ أَقْلٍ مِنْ نِصْفِ عَامٍ مِنْ وَصُولِهِ لِقَرْيَةِ "خِيَه لِي".

كَانَ عِدَدُ سُكَّانِ قَرْيَةِ "خِيَه لِي" لَيْسَ بِالكَبِيرِ، وَفَصَلَ الشِّتَاءَ فِيهَا طَوِيلٌ، وَيَفْصِلُهَا عَنِ الْإِتِّحَادِ السُّوفِيَّتِيِّ نَهْرٌ. وَقَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَى هُنَا

لم يَر "شين كاي ليو" نُدَفَاتِ الثَّلْجِ الصَّغِيرَةِ فِي جَبَلِ "يَان" إِلَّا مَرَّتَيْنِ، لَكِنَّهُ بَعْدَ وَصُولِهِ عَلِمَ أَنَّ الثَّلْجَ ضَيْفٌ دَائِمُ الحُضُورِ فِي الشَّمَالِ، حَيْثُ يَهْطُلُ هُنَا مَرَّةً كُلَّ عَشْرَةِ أَيَّامٍ تَقْرِيْبًا. وَكَانَ "لِوَا تَشَانْغِ جُوي" يُحِبُّ امْتِطَاءَ الخَيْلِ بَعْدَ هَطُولِ الثَّلْجِ؛ فَكَانَ يَرَى أَنَّ الأَثَارَ الَّتِي تَتْرَكُهَا حَوَافِرُ الخَيْلِ فَوْقَ الثَّلْجِ هِيَ زَهْورُ الشُّتَاءِ؛ لِذَا فَكَانَ عَلَيَّ "شِين كاي ليو" أَنْ يَسْتِيقِظَ بَآكِرًا فِي الأَيَّامِ الثَّلْجِيَّةِ مَعَ مُرِّي الخَيْلِ وَيَذْهَبَانِ لِإِطْعَامِ الخَيْوَلِ وَتَصْفِيفِ شَعْرِهَا وَتَلْمِيعِ سُرُوجِهَا؛ فَكَانَ "لِوَا تَشَانْغِ جُوي" فِي اخْتِيَارِهِ لِلخَيْوَلِ يَشْبَهُ اخْتِيَارَ المَحْظِيَّاتِ، حَيْثُ يَدْخُلُ إِلَى الاسْطَبْلِ وَيَنْتَقِي الحِصَانَ ذَا المَظْهَرِ الجَيِّدِ وَالحَالَةِ الجَيِّدَةِ، أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَرْتَدِي المَلَابِسَ السُّودَاءَ عِنْدَ امْتِطَاءِ الخَيْلِ. وَهَكَذَا جَعَلَتِ الثَّلُوجُ البَيضَاءُ وَالخَيْوَلُ البُنِّيَّةُ وَالمَلَابِسُ السُّودَاءُ مَوَاطِنَ "شِين كاي ليو" الَّذِي يُرَاوِدُهُ فِي أَحْلَامِهِ يَتَلَاشَى تَدْرِيجِيًّا، حَتَّى إِنَّهُ صَارَ مَمْتَنًّا بِاصْطِحَابِ تَاجِرِ الشَّايِ لَهُ إِلَى هُنَا؛ فَلَمْ يَعُْدْ مُضْطَرًّا لِلنَّدْبِ وَالبِكَاءِ، وَصَارَ يَأْكُلُ حَتَّى الشُّبْعِ، وَأَصْبَحَ يَرَى مَنَاطِرَ جَمِيلَةٍ.

لَكِنَّ أَيَّامَ الرِّخَاءِ الَّتِي قَضَاهَا "شِين كاي ليو" فِي قَرْيَةِ "خِيَه لِي" لَمْ تَدُمْ إِلَّا لِعَامٍ وَاحِدٍ، بَعْدَهُ انْدَلَعَتِ أَحْدَاثُ الثَّامِنِ مِنْ سَبْتَمْبَرِ، وَأَسَّسَ اليَابَانِيُّونَ دَوْلَةَ "مَنْشُورِيَا"، وَقَضُوا عَلَيَّ حُكْمَ الإِمْبَرَاطُورِ "بُو إِي"، وَبَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا صَارَتِ قَرْيَةُ "خِيَه لِي" مَرْتَعًا لِلْيَابَانِيِّينَ، الَّذِينَ اسْتَوْلُوا عَلَى حَقُوقِ التَّنْقِيبِ عَنِ الفَحْمِ، وَأَسَّسُوا "شَرِكَةَ مَنْشُورِيَا لِمَنَاجِمِ الفَحْمِ"، وَاسْتَقَرَّتِ الاسْتِطْلَاعَاتُ اليَابَانِيَّةُ بِجَانِبِ جَيْشِ "جُوانِ دُونْغِ" فِي القَرْيَةِ، وَهَكَذَا، وَفِي طَرْفَةِ عَيْنٍ صَارَ مَنجَمُ فَحْمِ "لِوَا تَشَانْغِ جُوي" مَنجَمَ دَهَبٍ لِلآخِرِينَ، فَاسْتَشَاطَ هُوَ غَضَبًا، وَعَجَزَ عَنِ تَقْبُلِ الأَمْرِ، وَصَارَ يُدَخِّنُ الأَفْيُونَ أَكْثَرَ، وَلَمْ يَعُْدْ يَمْتَطِي الخَيْلَ، وَفِي اللَّيْلِ يَجْلِسُ مَتْرَبَعًا عَلَى السَّرِيرِ لِيُظَلَّ فِي مَوْضِعِهِ هَكَذَا حَتَّى الصَّبَاحِ، وَفِي النِّهَايَةِ أَخَذَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْوَالٍ وَوَزَعَهُ جُزْءًا مِنْهَا عَلَى العُمَّالِ، وَجُزْءًا أُعْطَاهُ لِزَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ، وَأَخَذَ هُوَ جُزْءًا صَغِيرًا وَامْتَطَى أَقْوَى حِصَانٍ



لديه وغادَرَ بلا أَثَرٍ في صباحِ يَوْمِ ثَلْجِيٍّ، ولم يعلم أَحَدٌ إلى أين ذهب. أَمَّا زَوْجَتُهُ "لوا تشانغ شيه" فقد بَكَت حتى كادت تقضي نَحْبَهَا وهي تقول إن رحيلَه بمثابة إلقاء حِمْلٍ عليها دون أن يتقيّد بابنه وابنته، فلتَشْتُقُّ نفسها إذن.

كانت "لوا تشانغ شيه" صغيرةَ القَدَم، وحين تسير كانت تتطاير على الأرض، وبعد أن فقَدَت زوجها شابَ نِصْفِ شَعْرِهَا، وذَبُلَ وَجْهَهَا، وزاغت نظراتها وصارت مِشِيَّتْهَا غيرَ مُسْتَقَرَّةٍ أَكْثَر، مثلها مثل السَّمَكَةِ التي خَرَجَت من الماء، والتي ستلفظ أنفاسها في أيِّ لحظة. وباعت منزليْن من منازلهم الثلاثة، وأبَقَت على أصغرِ مَنْزِلٍ فيهم، قائلة بأنها يستحيل أن تُغادِرَ عُنْوَانَهَا القديم؛ خشيةً أن يعود "لوا تشانغ جوي" في يوم من الأيام ولا يجدهم فيتملكه الذُّعْر. كما باعت الخيولَ أَيضًا؛ فقد كَرِهَتْهَا؛ لأن تلك الخيول هي مَا أَخَدَت زوجها منها، ولم تُبْقِ على حصانٍ واحد، أَمَّا الاسطبل فقد نظَّفَه "شين كاي ليو"، وصار مَخْرَنًا. وفي النهاية لم تُبْقِ بجوارها سوى شخصين: الطَّبَّاخَةُ العَمَّةُ "جوا"، و"شين كاي ليو".

وفي العام الثالث من اختفاء "لوا تشانغ جوي"، ألقى اليابانيون القبض على "شين كاي ليو" وأخذوه للعمل بالسُّخْرَةِ. ففي ربيعِ ذَلِكَ العامِ أَرْسَلْتَهُ "لوا تشانغ شيه" إلى منزل أسرة "خيه" التي تعمل في بَيْعِ الخنازير بجوار النُّهْر لكي يجلب خنزيرَيْن يربونهما، ولا يزال "شين كاي ليو" يَذْكُرُ أن ذلك الصباح كان كثيفَ الضَّبَاب، وقد أَخَذَ النُّقُودَ وَحَمَلَ الجِوَالَ بعد أن تناوَلَ الإفطارَ، وانطلق إلى خارج المدينة، وقتها جَعَلَ الضَّبَابُ الشَّمْسَ تبدو كأنها رُوْحٌ هَائِمَةٌ يَصْعُبُ أن ترى ظلالها، أَمَّا السَّائِرُونَ في الطَّرِيقَاتِ فَبَدَوْا مثل الأشباح. وعندما اقترب من الخروج من المدينة انقَشَعَ الضَّبَابُ وكشَفَتِ الشَّمْسُ عن وجهها، ورأى من بعيدٍ منزلَ أُسْرَةِ "خيه". عندها شعر بمثائِلَتِهِ تَصْرُخُ بسبب تناوُلِهِ لعصيدة الأرز في الصباح؛ فلم ينتظر الوصولَ إلى حَمَّامِ بيتِ أُسْرَةِ

"خيه"، بل وَقَفَ لِيَتَبَوَّلَ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، وَمَا إِنْ فَكَّ بِنِطَالِهِ حَتَّى تَوَقَّفَتْ خَلْفَهُ فَجَاءَهُ سَيَّارَةٌ آتِيَةٌ مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ، وَقَفَزَ مِنْهَا أَشْخَاصٌ، وَقَبَلَ أَنْ يَلْتَفِتَ بِرَأْسِهِ شَعْرَ بـ "سونكي" بِنَدَقِيَّةٍ يُلَامِسُ خَصْرَهُ، عِنْدَهَا عِلْمٌ أَنَّهُ كَالطَّيْرِ الْمُقَيَّدَةِ أُجْنَحَتْهُ وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الطَّيْرَانِ؛ لِذَا اسْتَمَرَ فِي التَّبَوُّلِ، لَكِنْ تَبَوَّلَهُ كَانَ مُتَقَطِّعًا، وَبَوْلُهُ كَثِيرًا كَأَنَّهُ بِلَا نِهَآيَةٍ.

وَبَعْدَ أَنْ أُجْبِرَ عَلَى الصُّعُودِ لِتِلْكَ السَّيَّارَةِ اِكْتَشَفَ وَجُودَ سَبْعَةِ أَوْ ثَمَانِيَةِ رِجَالٍ أَقْوِيَاءَ فِيهَا، وَيَبْدُو مِنْ مَلَاحِمِهِمُ الْمَذْعُورَةَ أَنَّهُمْ مِثْلَهُ تَمَامًا؛ تَمَّ الْقَبْضُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَتْ، وَكَانَتْ الْعَرَبَةُ مُغْلَقَةً بِأَحْكَامِ الْفُؤَادِ، وَالْجُنُودُ الْيَابَانِيُّونَ يُصَوِّبُونَ الْأَسْلِحَةَ نَحْوَهُمْ؛ فَلَمْ يَجْرَوْا أَحَدٌ عَلَى الْكَلَامِ، وَعَجَزُوا عَنِ رُؤْيَةِ مَا بِالْخَارِجِ، لَكِنْ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ شَمُّ رَائِحَةِ أَعْشَابِ الرَّبِيعِ، وَفِي النِّهَايَةِ لَمْ يَتِمَّاكَ رَجُلٌ أَصْفَرُ الْوَجْهِ قَابِعٌ فِي الزَّأْوِيَةِ نَفْسَهُ، وَصَاحَ بِاسْمِ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ، وَبَكَى بِحُرْقَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَبْكِ سِوَى لِدَقِيْقَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ، بَعْدَهَا لَمْ يَجْرَوْا عَلَى الْبُكَاءِ ثَانِيَةً؛ فَقَدْ صَوَّبَ جُنْدِيٌّ يَابَانِيٌّ "سونكي" بِنَدَقِيَّتِهِ نَحْوَ صَدْرِهِ، هَذَا السَّلَاحُ اللَّامِعُ كَانَ مِثْلَ إِخْطَارٍ صَامِتٍ بِالْمَوْتِ تَقَشَّعْرُ لَهُ الْأَبْدَانُ.

وَفِي ظَهْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ اقْتِيدَ "شِين كاي ليو" وَمَنْ مَعَهُ إِلَى مَكَانٍ سَرِّيٍّ، وَفِيمَا بَعْدُ عِلْمٌ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ هُوَ قَلْعَةٌ جَبَلٍ "شوين"، قَرِيبَةً جَدًّا مِنْ قَرْيَةِ "نِينْغ" الشَّرْقِيَّةِ، وَيَفْصَلُهَا نَهْرٌ عَنِ الْاِتِّحَادِ السُّوْفِيَّتِيِّ، فَقَدْ كَانَ جَيْشُ "جِوَان دُونْغ" يَبْنِي مُنْشَأَتٍ عَسْكَرِيَّةً هُنَا وَيَحْتَاجُ إِلَى عُمَّالٍ، وَمِنْ بَيْنِ الْعُمَّالِ كَانَ هُنَاكَ أُسْرَى حَرْبٍ، وَبَعْضُ مَنْ تَمَّ خِدَاعُهُمْ لِلْقُدُومِ إِلَى هُنَا بِدَعْوَى الْحُصُولِ عَلَى عَمَلٍ، وَهُنَاكَ أَيْضًا مَنْ هُمْ مِثْلَهُ مِمَّنْ قُبِضَ عَلَيْهِمْ وَأُجْبِرُوا عَلَى الْمَجِيءِ إِلَى هُنَا بِالْقُوَّةِ. وَهَؤُلَاءِ تَحْدِيدًا مِنْهُمْ الْمُزَارِعُونَ وَبَائِعُو الْحَطَبِ، وَهُنَاكَ صُنَاعُ الْأَطْبَاقِ وَالْقُدُورِ، أَمَّا أَغْرَبُهُمْ فَكَانَ عَرَاْفًا يَقْرَأُ الطَّلِيعَ فِي الطَّرْقَاتِ، وَقُبِضَ عَلَيْهِ أَيْضًا. فَكَانَ الْعُمَّالُ يَسْخَرُونَ مِنْهُ كُلِّ يَوْمٍ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى عُنْبَرِهِمْ، قَائِلِينَ: "كَيْفَ لَمْ تَتَنَبَّأَ بِمِثْلِ هَذَا الْكَارِثَةِ الْكَبِيرِي؟".

كان "شين كاي ليو" يغادر العنبرَ كلَّ يومٍ قبل شروق الشمس للعمل تحت الأرض، ولا يعود له إلا بعد مغيب الشمس، حتى شعر أنه صار نصف كفيفٍ خلال السنتين التي عمَلَ فيهما بالسُخرة، وقد استطاع في النهاية الهربَ بسبب تشييد المطار، حيث انتقل للعمل من تحت الأرض إلى فوقها، ورغم وجود سياجٍ شائكٍ يُحيطُ بهم من الجهات الأربع، بالإضافة إلى رقابةٍ صارمةٍ، لكن القدرةَ على رؤية ضوء الشمس منحتَه إحساسًا بالعودة مرةً ثانية إلى عالم البشر، وذات مرةً ذهبَ ليقضي حاجته بجوار السلك الشائك فاكْتَشَفَ فجأةً وجودَ راعٍ للأغنام في الأرض العُشبية خارج السور، فكان مثلَ مَنْ التقى مُنقِذَه، وتوسَّلَ إليه أن يقطع فتحةً في السور الشائك كي يهرب منها، لكنَّ الراعي قال إنه لا يملك "كماشة"؛ لذا يجب الانتظار حتى يُحضِرَها في المرة القادمة. وهكذا أخبر "شين كاي ليو" تلك المعلومة لاثنين من أصدقائه العمَّال المُقربين، وتناقش الثلاثة حول كيفية الهروب.

كان كلُّ مَنْ يرغب في قضاء حاجته أثناء العمل يتوجَّب عليه طلبُ ذلك من المراقب الياباني، ولا يُسمح بالرفقة خلال ذلك، بل يتعيَّن عليهم الذهابَ واحدًا واحدًا بالدَّور؛ لذا إن أرادوا أن يغادروا مَوقِعَ العمل سويًا يتعيَّن عليهم انتظار مُساعدة القمر؛ وذلك لأن المراقب الياباني كان دائمًا يقتادهم إلى موقعِ العمل في الليالي القمرية المضيئة، ويراقبهم بترآخٍ، حيث عادةً ما يدور دَوْرَةٌ حولهم ثم يعود إلى مبنى الحراسة لشرب الخمر سرًّا، ويترك كلبه فقط في موقعِ العمل. فمن وجهة نظره يُعدُّ الليل سورا إضافيًا يُضاف إلى السور الشائك، وبوجود سورين حولهم بالتأكيد لن يَقَع أيُّ حادث.

ويذكر "شين كاي ليو" أن ذلك اليوم كان الخامسَ عشرَ من الشهر السابع بالتقويم القمري، "عيد الأشباح"، حيث كان القمر مُكتملاً ومُضيئًا، وعندما رأى المراقب الياباني ذلك المصباح السماويَّ يُضيء الليل حثَّهم على العودة إلى موقع العمل. وأمسك بكلبه ودار في مَوقِع

العمَل دورَتَيْنِ، ثم أطلق سراح الكلب وعاد إلى مبنى الحِرَاسَة لتناول الخمر، وهكذا صار الكلبُ مثل جُنديِّ الدَّورِيَّة يلفُّ حولهم ليراقب العُمال. أمَّا "شين كاي ليو" وصاحبه فقد رَگزوا أبصارهم على الكلب وهم يعملون، حتى رأوه يتسلَّل إلى خلف مبنى الحراسة ليتبول، عندها تحرَّكوا على عَجَل.

ذلك الرَّاعي كان حقًّا رَجُلًا صالحًا، ففي نفس المكان وجدوا بالفعل فتحة في السُّور؛ لذلك، وبعد سنواتٍ عديدةٍ شعر "شين كاي ليو" بالنَّدَم بعد أن فضَّح ما فعله "لي لاي تشينغ" من دَسِّ الدواء لكَبش غريمه؛ لأنَّ مَنْ أنقذَه حياته من قَبْل هو راعي غَنَم، فصار يحمل امتنًا في قلبه لكلِّ رُعاة الغنم.

وقد ركض "شين كاي ليو" وصاحبه نحو عُمقِ الجَبَل بعد هربهم؛ خَشِيَّة أن يَتِمَّ القَبْضُ عليهم وإعادتهم ثانية، وبعد أن قَضَوْا يومَيْنِ في الغابات التي لا يسكنها بَشَرٌ صادَفَتهم فصيلةٌ من جيش المقاومة، فقال "شين كاي ليو" إن ذلك هو مصيرهم المكتوب؛ لذا انضمُّوا لتلك الفصيلة دون أيِّ تَرَدُّد، وعمل "شين كاي ليو" طبَّاخًا لهم، فكان يحمل قِدْرًا كبيرةً في كلِّ مرَّةٍ يتحرَّكون فيها، هذه القِدْرُ كانت مثل الدَّرْع؛ صدَّت عنه من قَبْل الرِّصاص. إلَّا أنه أُصيبَ من قَبْل أثناء المعارك، ولحُسنِ الحَظِّ كانت كلها إصابات غير قاتِلَةٍ.

وقد طبَّق جيش "جوان دونغ" سياسةً "جمع القُرى في مكانٍ واحد"؛ من أجل قَطع الاتِّصال بين المدنيين وبين جيش المقاومة، وأَسَّس تَجْمُعاتٍ مُوحَّدة؛ ممَّا أدَّى إلى بَوار مساحاتٍ شاسِعَةٍ من الأراضي الزراعية وخَواء عَدَدٍ لا يُحصَى من القُرى. وهكذا فَقَدَ جيشُ المُقاوِمة دَعَمَ العامَّة، وَعَجَزَ عن توفير احتياجاته ودَخَلَ في ظروفٍ صَعِبَةٍ. وفي شتاء ذلك العام نَفَدَت الغِلالُ؛ فصار المُقاتِلون لا يأكلون لِعِدَّة أَيَّام، ويعتمدون للحفاظ على حياتهم على لَعَق المِلح وشُرْبِ

عُصَاةٌ لِحَاءِ شَجَرِ الْبَتُولَا كُلِّ يَوْمٍ. وَتَحْتَ وَطْأَةِ تِلْكَ الظُّرُوفِ، قَرَّرُوا ذَبْحَ الْحِصَانِ الْأَخِيرِ، وَكَانَ "شَيْنَ كَايَ لِيُو" يُحِبُّ الْخَيْلَ بِسَبَبِ "لُوا تَشَانِغِ جُوِي"، أَمَّا هَذَا الْحِصَانُ فَقَدْ كَانَ مُخَصَّصًا لِنَقْلِ الْغِلَالِ، وَيَسِيرُ مَعَهُ دَائِمًا فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَحَرَّكُ فِيهَا الْجَيْشُ، وَكَانَتْ تَرْبِطُهُمَا مَشَاعِرُ مُشْتَرَكَةٍ، فَكَانَ هَذَا الْحِصَانُ بِالنِّسْبَةِ لـ "شَيْنَ كَايَ لِيُو" هُوَ مَخْزَنُ الْغِلَالِ، وَيَبْدُو أَنَّ الْحِصَانَ قَدْ شَعَرَ بِنَيْتِهِمْ قَتْلَهُ؛ فَسَالَتْ دُمُوعُهُ عِنْدَمَا سَارَ نَحْوَهُ الْقَاتِلُ مُسْتَلًّا سَكِينَةً. تِلْكَ الدُّمُوعُ كَانَتْ مِثْلَ حَبَّاتِ نَدَى الصَّبَاحِ فِي الصَّيْفِ الَّذِي فَارَقَهُمْ مِنْذَ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَتَطَايَرَتْ وَسَطَ الصَّقِيعِ لِتَخْرَجَ قَلْبَ "شَيْنَ كَايَ لِيُو" أَلْمًا، لَمْ يَكُنْ فِي نَيْتِهِ الْإِنْفِصَالَ عَنِ فِرْقَتِهِ، بَلْ كَانَ يَرِيدُ فَقَطْ تَجَنُّبَ مَشْهَدِ قَتْلِ الْحِصَانِ؛ فَلَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِهِ تَحْمُلُ سَمَاعَ أُنَاتِهِ الْأَخِيرَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ غَادَرَ الْمَعْسَكَرَ سَارَ بِمُحَاذَاةِ الْوَادِي الثَّلْجِيِّ الْأَبْيَضِ فِي اتِّجَاهِ غَابَةِ مِنْ أَشْجَارِ الْبَتُولَا، وَقَتَهَا قَارَبَتْ الشَّمْسُ عَلَى الْمَغِيبِ، فَتَغَطَّتْ ظِلَالُ أَشْجَارِ الْبَتُولَا عَلَى الثَّلْجِ بِطَبَقَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، لِتَصِيرَ كَأَشْجَارٍ تَطْرَحُ نَقُودًا، وَرَكَضَ "شَيْنَ كَايَ لِيُو" تَجَاهَ جِذَعِ شَجَرَةِ بَتُولَا مَقْطُوعٍ، تِلْكَ الْجَذُوعُ الْمَقْطُوعَةُ دَائِمًا مَا يَنْمُو فِيهَا فِطْرُ أَشْجَارِ الْبَتُولَا الْأَصْفَرِ اللَّذِيذِ، فَكَانَ الطَّبَّاخُونَ الْعَسْكَرِيُّونَ يَقْطِفُونَهُ وَيَسْلُقُونَهُ مَعَ الْمِلْحِ، وَيُقَدِّمُونَهُ كَوْجِبَةٍ شَهِيَّةٍ لِلْمَقَاتِلِينَ، فَهُوَ بِمِثَابَةِ لَحْمِ نَبَاتِيٍّ أَشْهَى مِنَ اللَّحْمِ نَفْسِهِ، هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْفِطْرِ لَا يُشْبِهُ فِطْرَ عَيْشِ الْغُرَابِ الْعَادِي الَّذِي يَتَعَفَّنُ بِسُرْعَةٍ، بَلْ إِنَّهُ يَتَبَيَّسُ بِفِعْلِ رِيَاكِ الْخَرِيفِ، وَيَنْكَمِشُ دَاخِلَ جِذَعِ الشَّجَرَةِ، وَفِي الشِّتَاءِ تَحَبُّ السَّنَاجِبُ رَفَعَ الثَّلُوجُ الْمُتْرَاكِمَةَ عَلَى جَذُوعِ أَشْجَارِ الْبَتُولَا الْمَقْطُوعَةِ بَحْثًا عَنْهُ، وَصَارَ الْمَقَاتِلُونَ يَبْحَثُونَ عَنْهُ أَيْضًا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي انْقَطَعَتْ فِيهَا الْمُوْنُ، لَكِنْ مَا يَعْثَرُونَ عَلَيْهِ كَانَ دَائِمًا قَلِيلًا.

سَارَ "شَيْنَ كَايَ لِيُو" حَتَّى وَصَلَ إِلَى جِذَعِ الشَّجَرَةِ ذَاكَ، وَانْحَنَى وَالْأَمْلَ يَمْلُؤُهُ لِيُزِيحَ الثَّلُوجَ عَنْهُ، لَكِنْ لَمْ يَجِدْ مُتَكَوِّمًا فَوْقَهُ سِوَى

الأفرع والأوراق الذابلة. فنهض وقد تملكه الإحباط كي يبحث عن جذع آخر، عندها ترمى إلى سمعه فجأة صوتٌ قادمٌ من بين أشجار الغابة، وفجأة ظهر أمام ناظرينه أيلٌ أصفرُ بارتفاعِ نصفِ قامَةِ إنسانٍ يُطلُّ برأسه مُستكشفاً المكان، وما إن رآه "شين كاي ليو"، حتى صار كمن سمع أمرًا بالهجوم، وعلى الفور التقطَ عودًا خشبيًا من تحت قدميه وبدأ في مطاردته، وقد نَدِمَ وقتها أنه لم يجلب معه بندقيَّةً، ورغم عدم مهارته في استخدام البنادق واستحالة نجاحه في إصابة ذلك الأيل به، لكن على الأقل كان صوتها لينبئه زملاءه أنه قد وجد طريدةً، فقد كانوا في بحثهم عن أيِّ غداءٍ في الغابة قبل ذلك لم يعثروا ولو حتى على آثار أقدام حيوان. وهناك مقولةٌ تنتشر بين العامة أن الأيل أبله، وعندما يرى البشر يمدُّ أذنيه بفضولٍ ويقف في مكانه بلا حركة حتى إنه بإمكانك أن تقتله باستخدام عصا خشبيَّة، لكن ذلك الأيل الذي طارده "شين كاي ليو" لم يكن كذلك، بل كان سريع البديهة؛ فجرى إلى اليمين واندفع إلى اليسار كأنه يلعب معه لعبة الغمِيضة، حتى أخرج "شين كاي ليو" خارج غابةِ البتولا، وقاده نحو وادٍ جبليٍّ ضيق، واستمرَّ هذا الحال حتى مغيبِ الشمس.

عندما حلَّ الظلام الدامس اختفت آثار الأيل، فبلغ اليأس من "شين كاي ليو" مبلِّغَه، والأسوأ من كل هذا هو هبوب رياحٍ مُحمّلةٍ بالثلوج بين الأشجار أعجزته عن تحديد موقع المعسكر، وغطت الثلوج على آثار أقدامه فلم يعد قادرًا على تتبعها للعودة، ولم يعد أمامه سوى السير وفقًا لإحساسه، والنتيجة أنه صار جُنديًا هاربًا.

وهكذا سار وسط البرد القارس ليلةً كاملةً، وعند بزوغ النهار رأى نهرًا، ولو كان في فصل الصيف لسار مع اتجاه التيار حتى يخرج من تلك المتاهة، لكن في البرد الشديد الذي يصل إلى ثلاثين درجة تحت الصفر صار النهرُ أبكمَ لا يُميِّز الاتجاهات ولا يعرف الشرق من الغرب. واعتصر الجوعُ أمعاءه وأفقده البردُ الإحساسَ بأطرافه

حتى فكّر بأنه سيموت لا محالة في عمق الجبل. وبينما هو غارق في يأسه سمع فجأة صوتَ طيورٍ عذّبا، ورأى عصفير حمراء الرأس تهبط من السماء لتتقافز فوق صفحة النهر المتجمّد، فاندفع نحوها على أمل الإمساك بواحدةٍ منها يسدُّ بها جوعه، لكنها طارت فزعًا، واندفعت نحو الغابة، فلم يمّسك هو سوى بالهواء وسقط أرضًا، فرقدَ فوق طبقة الجليد كأنه راقدٌ فوق لوحٍ زجاجٍ، فتلك المنطقة من النهر هبّت فيها الرياح وكنتت الثلج المتراكم فوقه فصار شفافًا مثل الكريستال، حتى إنه رأى بوضوح النباتات المائية تحت طبقة الجليد، كانت النباتات المائية المتجمّدة مثل حواجب مرسومة كأنّ هناك عيونًا جميلة تسبح تحت الجليد. وكانت النباتات المائية مائلةً في اتجاه واحد، وهنا أدرك "شين كاي ليو" فجأة أن الاتجاه الذي تميل فيه هو نفسه اتجاه تيار النهر، وهذا أشعل فيه جذوة الأمل في الحياة ثانية، فسار بمحاذاة النهر، وقرب المساء رأى أخيرًا آثار البشر، لقد وصل إلى "لين جانغ".

ومنذ ذلك اليوم الذي تمّ إنقاذه فيه تعود "شين كاي ليو" أن ينثر الحبوب أمام وخلف منزله في الأعياد لكي يطعم العصفير.

وفي "لين جانغ" عمّل "شين كاي ليو" عاملاً في متجر رهونات، وصار يُرتّب الأشياء في المخزن ولا يخرج إلا نادراً، وكان هذا يوافق رغبته؛ فقد كان يخشى الخروج للشارع حتى لا يقبض عليه ثانية للعمل بالسُخرة، وفي المرّات القليلة التي خرج فيها اختار السير مع الآخرين، وكذلك عدم الخروج في الضباب أو الظلام، وذات مرّة ذهبَ برُفقة زميله إلى جنوب مدينة "لين جانغ" بحثًا عن شخصٍ ما، فرأى إعلانًا بالقضاء على قاطع طريقٍ مُلصقًا أعلى عمود كهرباء أمام مطعمٍ إسلاميٍّ يُعلّق لافتةً زرقاء، أمّا الشخص الذي قُطع رأسه في الإعلان فكان "لوا تشانغ جوي"، وقتها اعتبر اليابانيون كلّ المسلّحين الذين يقاومونهم قُطاع طُرُق، ووضعوهم على قائمة التصفيات. وكانت صورة

"لوا تشانغ جوي" بهذا الإعلان هادئة النَّظَرَات، صافية الملامح، كأنَّ صاحبها ارتقى ملكانة القديسين، أو كأنه لم يمُرَّ من قبل بعالم البَشَر. وهنا صاح "شين كاي ليو" بصوت عالٍ: "السَّيِّد "تشانغ جوي"..."، ثم انحنى لذلك الإعلان وقد أغرَقَ الدَّمْعُ الحارُّ وجهه.

وبعد الانتصار في حرب المقاومة، صار "شين كاي ليو" حُرًّا في تنفُّس الهواء المُنعش بالخارج، وغادر متجر الرُّهونات في "لين جانغ" على عَجَلٍ، وذهب إلى "إيلان" ليعمل بحارًّا على سفينة هناك. فكان إبحاره في نهر "سونغهاو" بمثابة تعويض له عن نقص المناظر الطبيعية في مُخيلته لسنوات طويلة، حتى أحلامه لم تُعدَّ بها مشاهدٌ مُخيِّفةٌ مثل الماضي، بل صارت لوحاتٍ شعريَّةً، وفي خريف ذلك العام عندما نزلَ على ضِفَّة "سانشين" بعد عودته من الرحلة البحرية، صادف "تشوشان أيتزيه".

كانت من ناجازاكي، ولديها أخٌ أكبرٌ وأخٌ أصغر. أمَّا أبواها فقد توفِّيَا منذ زمن بعيد، وكان والدها صانع سُنَنِ. وبعد أن تزوجت، وبسبب صعوبات الحياة، تأثَّرت بدعاية الحكومة حول الأراضي الخصبة في "منشوريا"، فقدَّمت هي وزوجها للاشتراك في مجموعات الفاتحين، وهكذا عبَّرا البحارَ، وجاءا إلى الصين ليُصبحا عضوين في مجموعة "تيانجين" لفتح المناطق الجديدة، وزرعا الأرز، ولم يعودا قَلَقَيْن بشأن الطَّعام والشَّراب، واستقرَّت حياتهما، وأحبَّبا الحياة هنا، وأنجبا ولدًا، وقرَّرًا الاستقرار في المكان. ولكن في ربيع عام 1945 اندحرت اليابان في المعارك، وتمَّ استدعاء كُلِّ الرِّجال الأعضاء في فرقة "تيانجين" لكي يُقاتلوا في الجيش على الحدود بين الصِّين والاتحاد السُّوفيتي، ولم يبقَ في القرية سوى النِّساء والأطفال. وبعد الخامس عشر من أغسطس، سقطَ كُلُّ اليابانيين بين أسيرٍ ومَنكوبٍ، فهرب كُلُّ فردٍ بمُفرده. فاصطحبت "تشوشان أيتزيه" ابنتها "تاي إي لانغ" ذا السِّنِّ سنوات واختبأت في القرى لفترةٍ، وبعدها جاءت إلى "إيلان".



وعندما صادفها "شين كاي ليو" كانت في حفل المعبد تسأل الناس عما إذا كان هناك تاجرٌ كبيرٌ يرغب في استعمال خادِمة، حيث قالت إن زوجها تُوفِّي، واليابان انهزمت، وفقدت هي وابنها أرضهما، ولم يُعد لديهما القدرة على الاستمرار في العيش، فلو رَغِبَ أحدٌ في استخدامها وتكفَّل فقط بِمَسْكِنِها وطعامِها هي وابنها فإنها لا تريد مُرتبًا، وقالت إنها ماهرة في الزَّراعة، وجَلْب الماء، وحيَاكة الأغطية والطَّبْخ وصناعة الفوانيس وإطعام الماشية. وعندما رأى "شين كاي ليو" ملامحها المُتناسِقة، ووجهها الدافئ وجسدها الذي تنبَعثُ منه رائحةٌ نعناعٍ عَطرة خفيفة؛ اهتزَّ قلبه. فهو تجاوزَ الثلاثين من العُمر ولم يتزوَّج بعد، ويرغب بشدَّة في تكوين أُسرةٍ، ورغم عِلْمِه بأنَّها يابانيَّة، ومعها ابن، وأنه سيُعاني فيما بعدُ من نظرات الاحتقار من الآخرين، إلَّا أنَّه تقدَّم نحوها وأخبرها أنه بحار، ولا يملك النُّقود لاستخدامها كخادِمة، له لكن يُمكنه أن يكونَ رَجُلًا، ويصيرَ ملجأً لها ولولدها، ويوفِّر الطَّعام والملبَّس، ويحميها من التَّنمر، فحدَّقت فيه بعينين متسَعَتين، وظلَّت تُحَمَلق هكذا لبرهة، ثم أطرقت رأسها في تفكيرٍ عميقٍ، بعدها رفَعَت رأسها بعينين ممتلئتين بالدموع، وأشارت إلى أنفها وسألته: "أنا؟ واحدة؟"، ففهم "شين كاي ليو" أنَّها تعتقدُ بأنَّه مُتزوَّج، ويرغب في أن تكون هي زوجته الثانية، فرفع لها إبهام يده اليمنى، وقال بكلماتٍ قاطِعة: "أنتِ، واحدَة"، فنظرت إلى ابنها، ثم نظرت إلى "شين كاي ليو"، وعَضَّت شَفَتَيْها وهزَّت رأسها موافقةً. ومن وقتها أصبحت تلك العينان السوداوان مثل زريّن جميلين ربطا "شين كاي ليو"، وجعلتاه مُقيَّدًا بها برغبتِه وعن طيب خاطر، إلى أن رحلت من قرية "لونغ تشان".

وعندما تذكَّرها وهو في سوق البضائع القديمة، لم يستطع مَنع دُموعه من الانسياب في صمتٍ، لقد شعر كلُّ مَنْ رأى دموعه بالغرابة، وسألوه عما به، لكنه أشاح بِيَدِه وبَحَثَّ عن حُجَّةٍ، قائلاً: "تلك

الملابس لم أرتدّها لعشرات السنين، يبدو أن كُراتِ النفتالين بالصُّوان  
قد جعلت رائحتها كالفلفل الأسود الذي يحرق العيون".

وهنا هبّت ثلوجٌ خفيفة، وأوشك سوق البضائع القديمة الذي  
استمرّ ليومين على الانتهاء، وفي اللحظة التي اعتقد الجميع فيها أن  
"شين كاي ليو" سيعود خالي الوفاض، جاء "تانغ هان تشينغ" ساجبًا  
خلفه حصان "إيلوينتشوين" قويًا. ثم ناوّل اللجام إلى "شين كاي ليو"،  
وحمل تلك السلّة من الفحم.



## 12

### مَصَدَرُ الْكُلِّيَّةِ

عندما اكتسى جبل التنين بزهور الثلج فصار تَئِينًا أبيض، جاء نائب مدير الأمن الشاب "تشين تشينغ باي" برُفْقَة الكثير من الضباط إلى قرية "لونغ تشان".

وقد جاء من أجل كُليَّة والده "تشين جين جو" فقبل نصف شهر، تمَّ تشخيصه بفشلٍ في الكُلِّيَّتَيْنِ، وصار أمرُ نقل كُليَّة إليه لا يحتمل التأخير.

عمل "تشين جين جو" مسؤولًا حكوميًّا طوال حياته، في أماكن ذاتِ سُلْطَة؛ لذا لم يَنْقَطِع دَخْلُهُ الرَّمَادِيُّ، ذلك الدَّخْل المتأرجح بين ما هو قانونيٌّ وما هو غير قانونيٍّ. فليده مُدَخَّرَاتُ بأكْثَر من سبعة ملايين، وَعَدَدٌ لا يُحْصَى من الحُلِيِّ الفُضِيَّةِ والذَّهَبِيَّةِ، والسَّاعَات والحقائب القِيَّمة، وكذلك عقارات في "باي داي خيه"، و"سانيا".

كان يُخَطِّط ليتمتع بكلّ هذا بعد التقاعد، لكن مَنْ كان يتخيّل أن يُصاب بهذا المرض الخطير؟

في الحقيقة كان أكثر ما يُخيفه هو أن يتورط في قضية فساد؛ لأنّ الكوادر على درجةِ المحافظةِ أو الإدارات في منطقة "سونغشان"، جميعهم لهم علاقاتٌ تبادلٍ مالٍ وسلطةٍ معه، هؤلاء الأشخاص لو ترصدتهم أعينُ لجانِ الانضباط أو هيئات الفحص والرقابة؛ سيتعيّن على "تشين جين جو" أن يتدخّل لحلّ المسألة، ويفكر في مختلف الطُرُق التي يحميهم بها حتى لا يسقط هو أيضًا.

لكنه عَجَزَ عن حلّ تلك المشكلة المتعلقة به هو شخصيًا، فليديه المال، لكن رغبته في الحصول على كُليّةٍ من شخصٍ له صلةٌ قرابةٍ معه هي أشبهُ باصطيادِ القَمَرِ المُنعكِسِ على صفحةِ الماء، لقد كان يعتقد أن علاقاته الاجتماعية هي فقط من تعتمدُ على سلطته وأمواله للحفاظ عليها، لكن هذا المرض جعله يُدركُ أنّه حتّى عائلته تعتمدُ على السلطةِ والمال لكي تستمر في دعمه. وهذا الأمرُ أصابه بياسٍ لا مثيلَ له.

كان "تشين جين جو" في أعماقه رَجُلٌ قَظٌّ، يُحبُّ شرب الخمر والتهامَ قِطَعِ اللحمِ الكبيرة، ففي اعتقاده أنه ما دام قادرًا على الأكل والشرب فهذا دليلٌ على صحّةِ جسده، وعندما يشعر بالتعب لا يذهب للمستشفى، بل يجلبُ المُعالِجينَ الشّعبيينَ الذين يدّعون أنهم مبروكون لعلاجه، وهؤلاء الأشخاص لهم طرائقهم الغريبة في العلاج، فحين يصيبه صداعٌ شديدٌ، يقول "المبروك" إن "تشين جين جو" قد أغضب أحدَ الوضيعين، ومن ثمّ يرسم ذلك المبروك صورةً لمن قال إنه شخصٌ وضيعٌ أسفلَ قدرِ الطّعامِ حتى يحترق بالنّار يومًا ويصير رمادًا؛ فيُشفى "تشين جين جو" من صداعه، وعندما أُصيب بتشنُّجٍ في عضلات ساقه ليلاً قال المبروك إنه نام في مواجهةِ نجم

طالع سَيِّئٍ، ونصحته بتجنُّب النُّجوم، فأضاف إلى ستائر عُرفَةِ نومه طبقتين سوداوين سميكتين؛ ممَّا جعل العُرفَةَ أشبهَ بملاجئ الغارات الجويَّة، لا يدخلها بصيصُ ضوءٍ، قائلاً إنه بهذا الشَّكل لن تتشجَّج عضلاتُ قدمه ثانيةً. وبالإضافة لطُرق العلاج تلك، تناوَل من قَبْلُ بعض الحبوب العلاجية التي صنَعها هؤلاء المبروكون بأنفسهم، وشَرِب من قَبْلُ مَعجونَ تقوية الجسد المصنوع من الخمر الصفراء ورماد البَخور، لقد صارت عُرفَةُ مَكْتَبِهِ في المنزل أشبهَ بمعبِدٍ مُختبئٍ وسط المدينة، مُكرِّس لخدمة كلِّ المذاهب الرُّوحية.

وبداية من صيف العام الحالي بدأ "تشين جين جو" في الشُّعور بِثَقَلٍ في أقدامه، وألمٍ لا يُحتمَل في خَصْرِهِ، كما صار يشعر بالغَثيان أحياناً، وصار تَبوُّله مُتكرِّراً، مع وجود رغبةٍ به؛ فاستدعى المبروك لكي يكشف عليه، فأخبره أنَّ هناك جِنِّيَّة هي السبب، ووضَعَ مقصاً أسفل مخدَّته، وفي الأيام التي نام فيها والمَقصُ أسفل المخدَّة صار يحلم دائماً بأن ملابسه قد ظهَرت بها ثقوبٌ كثيرة. واستمرَّ الحال هكذا حتى تَبوَّل دَمًا، عندها فقطَّ أصابه الفِرْعُ، وذهب إلى المستشفى مُرغَمًا. فأظهر تقريرُ تحليل الدَّم أنَّ مُعدَّل "الكرياتينين" في جسده أعلى بعشرة أضعافٍ عن المعدَّل الطبيعي، وأظهر "السُونار" ضمورًا حادًّا في الكُلَيْتَيْنِ، عندها شعر "تشين جين جو" بالنَّدَم، وأنه ما كان يجب عليه الإيمان بخُرافات هؤلاء المبروكين.

تمَّ تحويل "تشين جين جو" إلى مستشفى كلية الطب بمدينة "لين"، وبدأ في غسيل الكُلَى، وقال الأطباء إنه يجب وفقًا لحالته العثورُ في أقرب وقتٍ على مُتبرِّعٍ مُناسبٍ لنقلِ الكُلَى، وإلَّا فإن الأمور ستصير خطيرةً. لم يكن تنقصه النقود، لكنَّ البحث عن تلك الكُلَى المناسبة له أرهق خلايا عقله، فأفضل مصدرٍ للكُلَى هو الأقرباء المباشرين، وهو لديه أخٌ أصغرُ، وأختٌ صُغرى، وابنٌ، وابنة، وابنٌ أخٍ، وابنُ أختٍ،

وابنةُ أخت - ولم يَقْبَلْ أيُّ منهم إجراءَ اختبارِ تَوَافُقٍ معه، سوى "تانغ ماي"، وكان لدى كُلِّ منهم عُذْرٌ قويٌّ.

فأخوه الأصغر "تشين ين جو" قال إنه مُصابٌ بتصلُّب الكبد بسبب شُرب الخمر، كما أنه استأصل المرارة، فلو فقد كُليَّةً أيضًا فقد يُكلِّفه هذا حياته. والتَّضحية بحياته من أجل إنقاذ أخيه الأكبر هو أمرٌ يَسْتَحَقُّ، لكن المشكلة تكمن في أن إمكانية إنقاذ أخيه ليست بالأمر المؤكَّد، فماذا لو فَشِلَت العمليَّة وماتا هما الاثنان؛ فستفقد أسرة "تشين" عمودَيْها، ومَن سيزور قبر أبويهما في المستقبل؟

أمَّا أخته الصغرى "تشين ماي تشين" فقالت إن زواجها غير مُستقرٍّ، وهناك تَقَارُب ما بين "تانغ هان تشينغ" وبين صاحبة نُزُل الشَّمس الحمراء، فلو أُصيبت بالبرود الجِنسيِّ نتيجة استئصال الكُليَّة فهذا سيُصعِّب عليها أكثر مَهْمَةً استمالة قلبه، ولن يعود بمقدورها سوى مُشاهدته وهو يُوطِّد علاقته بـ "ليو شياو هونغ"، وهذا بالنسبة لها بمثابة حياةٍ أشبه بالموت، بالإضافة لأنها مُصابةٌ بتضخُّم في الكيس الكلوي، فحتى لو تبرَّعت بكُليَّتها لأخيها سيكون ذلك بمثابة إهدائه شيئًا معطوبًا، وسيحتاج لتغييرها بعد فترة وجيزة.

أمَّا ابنته "تشين شويه سونغ" فقد تخرَّجت لتوها من الجامعة، وعيَّنها "تشين جين جو" بعلاقاته في مصلحة الحفاظ على البيئة في مدينة "لين"، واشترى لها شقَّة العُرس. لكنَّ حبيبها خشي إن تبرَّعت لأبيها بكُليَّتها فسيُضعف هذا من أبنائهما في المستقبل؛ فبدأ عليه عَدْمُ الرِّضا، وقام بتأجيل الزواج، ولم يَعدْ أمام "تشين شويه سونغ" سوى أن تتعهد له أن كُليَّتها ملكٌ لرفيقها وليس لأبيها.

أمَّا ابن أخيه فقال إنه قد بدأ العمل لتوِّه، وليس لديه حبيبة؛ ولو فَقَدَ كُليَّةً فإنه سيعيش أعزبَ لبقية حياته؛ وأعرب لعمِّه عن رغبته الصَّادِقة في مُساعدته وعَجْزه عن تحقيق هذا. أمَّا "تانغ تشيه"

فكان قد قرر أن يعود إلى البلاد قبل عيد الشُّكر لرؤية والدَيْه، لكنه عندما سَمِعَ من أمِّه أن خاله يبحث عن مُتبرِّعٍ ولم يعثروا على شخصٍ مناسبٍ بعدُ أصابه الفزعُ، وغيرَ تذكُّرته ليذهب إلى هاواي مع زملاء دراسته. فقط "تانغ ماي" هي مَنْ قالت إنها يُمكنها التَّفكير في الأمر، وكان الأمر الوحيد الذي يُقلِّبها هو تسليم "تشين يوان" لشخصٍ آخر أثناء فترة العمليَّة، فاستشاطت أمُّها غَضَبًا، وعَنَّفَتْها قائلةً: "إن أبناءه من صُلبه لم يتبرَّعوا له، فهل تحاولين أنتِ إثباتِ قُوَّتِكِ وأنتِ حتى لا تحمليين اسمَه؟"، لكن هذا جعل "تانغ ماي" تتوجَّه إلى الوحدة الصحية وتُوقِّع إقرارًا بالتَّبَرُّع بأعضائها بعد الوفاة.

هذا جعل "تشين ماي تشين" ترى أن ابنتها قد أدمنت لعب دورٍ مثالِ الأخلاق، ولحُسنِ الحَظِّ أن "تشين جين جو" قال بعدها إنه لا يريد كُليَّة "تانغ ماي" حتى لو كانت الثَّمَن موتَه، فكيف لرجُلٍ أن يَقْبَلَ كُليَّةَ امرأة؟

أمَّا أكثر شخصٍ كان يهتمُّ به "تشين جين جو" في أُسرته فهو ابنه "تشين تشينغ باي"، وهو في الثانية والثلاثين من العمر، ومُتزوِّج منذ سبع سنوات، ولديه ابنٌ في الخامسة من العمر وأُسرةٌ سعيدة مُستقرَّة، ويتمتَّع بصحَّةٍ جيدة. كذلك هو مُوفِّقٌ في حياته الوظيفية، وبالطَّبَع يَرِجِعُ هذا لاستناده إلى ظَهْر قويٍّ، في الحقيقة حتى لو رغب "تشين تشينغ باي" حقًّا في إعطاء كُليَّته لوالده، فلن يقبل "تشين جين جو" بذلك؛ حرصًا على مستقبل ابنه، لكن ما لم يكن مُتوقِّعًا هو قيام "تشين تشينغ باي" بجَلْبِ تقريرِ تَشخيصٍ من المستشفى بأن وظائف كُليَّته غيرُ مُستقرَّة؛ وذلك خوفًا من أن يفكِّر والدُه في أخذ كُليَّته، بالطبع كان الوالدُ يعلم تمامَ العِلْم أن كُليَّة ابنه قويَّة، مثلها مثل المُحرِّك الخارج لتوِّه من المصنوع؛ وذلك لأنه في كُلِّ عامٍ يُشارك في الفَحْصِ الطَّبي الشامل الذي يُنظِّمه مكانُ عَمَلِه، ثم يعود ليتفاخر بصِحَّتِه، وأنه لا يُعاني من أيِّ مشاكلٍ صحيَّة، سوى التهابِ



بسيط في المعدة، كما أنه سمع أن ابنه لديه عشيقتان: واحدة لديها ملهى ليلي، والأخرى مرؤوسته في العمل. ويستحيل أن يُحافظ على علاقة جنسيّة طويلة مع ثلاث نساء بدون كُليّة قويّة.

إن هاتين الكليتين القابعتين في جسده بدون أيّ عزيمة أو قدرة على القتال صارتا مثل خائتَيْن دفعاه نحو حافة الموت ليرى بأمر عينيه أشياء لم يكن ليراها في الأحوال العادية.

وكان يعلم تمام العلم أن المناصب بلا أصدقاء حقيقيين، لكنّ المرض الثقيل الذي ألمّ به جعله يختبر تلك المقولة بنفسه. فأتى في مستشفى منطقة "سونغشان"، وقبل أن يتمّ تحويله لمستشفى أخرى، كان المسؤولون من كل القطاعات ومن مصالح كلّ المحافظات والمناطق يأتون لزيارته بشكل اعتياديّ، وكان من الواضح أنّ النقود التي كانوا يدسّونها له أثناء زيارتهم أقلّ من خمس ما حصلت عليه زوجته حين دخلت المستشفى في السابق، وهذا يثبت بشكل واضح أنّهم على تمام العلم بأن وجوده في منصبه كنائب للسكرتير العام لن يستمرّ طويلاً، لقد أصبح بلا نفع، فبالنسبة لسنّه الآن كان يجب أن يذهب إلى مجلس النواب قبل عامين، لكنه اعتاد على السُلطة غير المحدودة، وخشي أن يفقدها بذهابه، ففقدان السُلطة وهو لا يزال في الوظيفة يختلف عن خروجه للمعاش ليتمتّع بالحياة، وهكذا استخدّم سلاح المال، وأعطى رشوةً لرئيس الوحدة التنظيميّة الأعلى منه لكي يبقى في منصبه. لكنّ مرضه هذا كان بمثابة ترتيب له كي يذهب إلى مجلس النواب؛ لذلك عندما علّم بخبر مرضه من هم على نفس درجته الوظيفيّة، والذين كانوا يتطلّعون لمنصبه وقتها لكنهم فشلوا في اقتناصه أحسّوا كأنهم سمعوا خريز ماء الربيع وسطّ البرد القارس؛ فتملّكتهم سعادة غامرة، وبدأوا في التحرك هنا وهناك كي يحصلوا على فرصة خلافته في المنصب. مثل هؤلاء حينما يزورونه في المستشفى، كانت كلمات المواساة لا تُفارق أفواههم، لكنّ نظراتهم كانت كمن

رَبِحَ الجائزة الكبرى في اليانصيب. أمَّا الكوادر المتطلَّعون لترقيَّة فكأنوا في السابق يسيرون خلف خُطاه، ويضربون بزبدِ المال صخورَ سُلطتِهِ، أمَّا الآن فقد أصابهم الجَزْرُ، وقد عَلِمَ "تشين جين جو" أنَّ الجهات التنظيمية الأعلى ستنقله إلى مجلس النُّوَاب في المستقبل القريب، حتى لو لم يطلب هو ذلك بِنَفْسِهِ؛ لذا ورغبةً منه في الرَّحيل بكرامتِهِ بادَرَ هو بإرسال طلبِ نَقْلِ للجهات التنظيمية، بحُجَّة المرض الشديد، وذلك قبل أن يُنقل إلى مستشفى في مدينة "لين".

ورغم أن "تشين تشينغ باي" رفض التَّبَرُّع بكُلِّيَّتِهِ لأبيه، إلا أنه بحثَ بحماس عن مُتَبَرِّع له. ومَرَضُ والده هذا جعله يعرف أن المحتاجين لنَقْلِ كَلِّيَّ كثيرين جدًّا، فوفقًا للترتيب الزمني سيحتاج "تشين جين جو" للانتظار لثلاث سنواتٍ على الأقل، ولا أحدَ يعلم إن كان بإمكانه الصُّمود لثلاث سنواتٍ اعتمادًا على الغسيل الكلويِّ. لكن "تشين تشينغ باي" كان مُؤمِنًا أنه لا وجود لمشكلةٍ تَعَجَز النقودُ عن حلِّها، فأعطى للطبيب مائة ألف يوان، فوافق على الفور على إعطاء كلية لـ "تشين جين جو" بمجرد وجود كَلِّيَّةٍ تتوافق مع جسده، كما تَوَاصَلَ "تشين تشينغ باي" مع رَجُلٍ يعمل في تجارة الأعضاء ويُلقَّب بـ "ما سان"؛ كي يُساعِدَهُ في شراء كَلِّيَّةٍ إن تَعَدَّر الحصول عليها بالطَّرُق القانونية.

وقد تأخَّرت المستشفى كثيرًا دون أيِّ أخبار، أمَّا "ما سان" فسرِعًا جاء بالخبر إلى "تشين تشينغ باي"، فقال إن لديه مُتَبَرِّعًا في الثانية والأربعين من العمر. هذا الرَّجُلُ عامِلٌ مُتقاعدٌ، وأمُّه مَشلولَةٌ في السرير، وزوجته مريضة، وابنه التحق بالجامعة لتَوَهُ. ويعتمد في معيشتِهِ مُؤخَّرًا على بعض الأعمال المتفرِّقة، بالإضافة إلى بيع دَمِهِ. وأخبرهم "ما سان" أن هذا الرَّجُلُ يشتكي من أن عائدَ بَيعِ دمائه قليلٌ، ويأتي ببطء؛ لذا يرغب في بيع كَلِّيَّتِهِ للحصول على مبلغٍ كبيرٍ يُحسِّن به من أحوال عائلته الفقيرة. والسَّعر الذي طلبَهُ هو أربعمائة ألف يوان، وسيحصل

"ما سان" من تلك الصفقة على مائتي ألف، أي أنه لو وافق المشتري على دفع ستمائة ألفٍ وقتها يُمكن إجراء العملية.

وافق "تشين تشينغ باي" على الفور، وطلب من "ما سان" أن يُحضِر ذلك الرَّجُل كي يقوم بإجراء فحصٍ طبيٍّ شاملٍ.

كان الرجل أصفرَ الوجه، ونحيفًا كجِلْدٍ على عظام، كأنه قادمٌ من مُعسكر لاجئين، وعندما جاء إلى المستشفى كان يَعْلَم أنه سيسحبون منه دمًا؛ لذا وبحُكم العادة شَرِبَ طَبَقَيْنِ من ماءِ السُّكَّر الأحمر؛ فاضطرَّ "ما سان" إلى إعادته، ثم أتى في اليوم التالي بمِعدَةٍ فارغة، لكن النتيجة التي لم يتوقَّعها أحدٌ أن الفحوصات أثبتت أنه مُصابٌ بالإيدز.

فاستشاط "تشين تشينغ باي" غَضَبًا، وألقى بنتيجة التقرير في وجه "ما سان" وهو يصيح: "ابن العاهرة هذا مُصابٌ بذلك المرض ويرغب في بَيْع كُليَّته؟ هل اتَّفقتِ أنتَ وهو على خداعي أم ماذا؟".

لكن "ما سان" لم يكن يعلم أن هذا الرَّجُل مُصابٌ بالإيدز، وقد غضب هو الآخر بشدة، فرَكَلَ الرَّجُلَ وأسقطه أرضاً وهو يسبُّه: "يا ابن العاهرة، هل أصابك التفكيرُ في النقود بلوثةٍ في عقلك؟ أيُّ كُليَّةٍ تريد بَيْعها وأنتَ مُصابٌ بالإيدز؟".

فتكَّوم الرَّجُل على الأرض ثم زحف ليلتقط التحليل الذي ألقاه "ما سان" وهو ينتحب: "لماذا أنا منحوسٌ هكذا؟ لم يَكُن بي هذا المرضُ حين بعثُ دمي في الربيع، ألا ترغِبُ السَّماء في منحي أيِّ فرصةٍ للحياة؟".

"مَن مِن أولاد العاهرة بائعي الدَّماء دَمُه نظيفٌ؟"، قالها "ما سان"، ثم ركل ذلك الرَّجُل ثانيةً فأسقطه أرضاً مرَّةً ثانية، بعد أن كان يجاهد للوقوف على قدميه.

وسريعًا جاء "ما سان" بشخصٍ آخر يريد بيع كُليَّته.

ذلك الرجل سائق شاحنة، طويل القامة، ليس بالسمين ولا بالنحيف، فظُّ الملامح، ذو خطوات قوية، وبوجه عام تبدو عليه العافية، وقد سأله "تشرين تشينغ باي" لماذا يبيع كُليته، فردَّ عليه: "ألا ترى حول عيني منتفخًا كصدرِ مرضعة؟"، ثم قال إنه يقود الشَّاحنة كلَّ يومٍ على الطُّرُق السريعة، ويفعل ذلك بلا راحةٍ ولا توقُّف، وفي بعض الأحيان ينام أثناء القيادة؛ لذا وقعت له حادثتان صغيرتان، الأولى عندما اقتحم سياج الطريق السريع وارتطم بكومة من القمح، والثانية أثناء هطول الثلج اصطدم بمؤخرة سيارة أجرة، وذكر أن كومة القمح وندفات الثلج هما مُنقذاه؛ فالثلج عندما هبط قلل من سرعته، ولولاه لكان سحق سيارة الأجرة في اللحظة التي غالبه فيها النعاس وفقد السيطرة على الشاحنة وكان هناك ستّة أرواح سيلاقون حدهم بالتأكيد. ثم أضاف أنه لا يمكنه المخاطرة ثانية، بل سيبيع كُليته ويفتح ورشةً لتصليح السيارات الصغيرة، ويعيش أيَّامه في سلام.

وبعد أن انتهى سائق الشاحنة من الفحوصات الطبية لم يجدوا فيه أيَّ مَرَضٍ باستثناء بعض الدُّهون على الكبد وارتفاع طفيفٍ في الكوليسترول، والأهم من هذا كلُّه هو أن كليته مُتوافقة مع "تشرين جين جو"، وقد قال إن كُليته مُمتازة؛ لذا طلب فيها نصف مليون يوان، وقد وافق "تشرين تشينغ باي".

وفي اليوم الذي ظهَّرت فيه نتيجة تحليل المُطابِّقة، غَمَرَت السَّعادةُ كلاً من "ما سان" و"تشرين تشينغ باي"، وضرباً موعداً للقاء سائق الشَّاحنة في إحدى الحانات ليتناقشوا في تفاصيل عملية شراء الكلية، فقال سائق الشَّاحنة إنه بمجرد دخول نصف المليون إلى حسابه فهو مُستعدُّ لدخول غرفة العمليات، لكن بعد أن تناوَل عدَّة كؤوسٍ من الخمر خرَجَ لاستقبال مُكاملةٍ هاتفيَّة، ثم عاد وقد تغيَّر موقُفه، قائلاً بأنه لن يبيع كُليته، فاعتقد "تشرين تشينغ باي" أنه يحاول رَفَع السُّعر؛ فبادر بزيادة خمسين ألفاً أخرى، لكنَّ سائق الشاحنة

قال إنه قبل تلقّي المكاملة الهاتفية كانت كليته ملكه هو وحده، ويُمكنه التّصرّف فيها كما يشاء، أمّا الآن فقد صارت ملكاً لشخصين؛ لذا فهو لا يملك القرار وحده. واتّضح أنه طلق زوجته منذ ستّ سنوات، لكنه ظلّ عاجزاً عن نسيانها، وظلّ دائماً يفكّر في الرّجوع لها، وترجّأها كثيراً وتوسّل إليها، لكن بلا فائدة، لكن منذ قليل اتّصلت به زوجته السّابقة وأخبرته بموافقته على الرّواج منه ثانية، ثم قال سائق الشاحنة إنه لو فقد كليّة فإن هذا يُعادِلُ فقدان جسده لشمس، فماذا لو لم يُعد قادراً على تلبية احتياجات امرأته، وقتها ستفرّق تلك الأسرة مرّة ثانية، وبعد أن انتهى من كلامه انحنى طالباً السّماح، ثم بادَرَ بدفع الحساب، وغادر حاملاً سعادة الرّواج ثانية وهو يُدندن بلحنٍ ما.

بلغ الغضبُ من "ما سان" حتى تطايّر الشرُّ من عينيه، وصَفَع نفسه على وجهه، وظلّ يُردّد كلمات الاعتذار على مسامع "تشين تشينغ باي"، قائلاً: "يا أخي، ثق بي، الشّخص التالي بالتأكيد لن يفعل هذا، سأذهب على الفور للبحث عن الشّخص الثالث، ولو طراً طارئاً ثانية أقسم أنني سأززع كليّتي وأعطيها للعمّ دون أيّ مقابل، اذهب واسأل عني، فالجميع يعرف كم أنا منظم في عملي وكلمتي واحدة؟".

فأثنى "تشين تشينغ باي" على رجولته، ورفع كأسه ليشرب نخبه، لكن قلبه أصبح مُتردّداً، فتجارة الأعضاء تحمل مخاطر كبيرة، ولو حدّثت أي مشاكل فإن المكاسب لن تُغطّي الخسائر؛ لذا عاد إلى المستشفى ونادى أمّه "شو جين لينغ" إلى خارج غرفة أبيه، وأخبرها بمخاوفه وما يعتمل في قلبه من قلق.

فأخبرته "شو جين لينغ" ألا يقل؛ لأن "تشين جين جو" أخبرها بسرّ، لقد بدأت كليّته الضّامرة في العودة للعمل ثانية.

تصغر "شو جين لينغ" "تشين جين جو" بعامّين، وفي شبابها كانت تعمل بائعةً في مطعم مركز تنمية الغابات. تملك ملامحٌ مُحبّبة، وصوتٌ عذب، وابتسامةٌ خلّابة، وقتها كان أهالي قرية "لونغ تشان" يدعونها "الفتاة المسكّرة". وقد أعجب بها "تشين جين جو"؛ فبالإضافة إلى عذوبتها وجد أيضًا أن اسمها يحمل كلمة "جين" مثل اسمه<sup>(1)</sup>؛ لذا رأى أن اجتماع ذهبيْن معًا سيجعل أُسرتهما تغتني سريعًا. وبعد الزواج، ربّ لها "تشين جين جو" عملاً آخر كمُحاسبة في جمعيّة التوريد والتسويق. ومع ترقّيه في المناصب، غيّرت هي أيضًا عدّة وظائف، وكلّما غيّرت وظيفةً كلّما استراحت أكثر، وعندما شغل "تشين جين جو" وظيفةً في لجنة منطقة "سونغشان"، استطاعت هي بالعلاقات أن تشغل وظيفةً في مؤسّسة عامّة، وبعدها تقاعدت مُبكرًا.

"شو جين لين" امرأة ذكيّة تُجيد التّخطيط، لقد تقاعدت مُبكرًا كي تتمكّن من لعب دور زوجة الموظّف الحكومي. فمن وجهة نظريها أنّ المرأة إن تمكّنت من الإمساك ببيتها بقوة؛ فإنها ستمكّن من القبض على زوجها بقوة أيضًا؛ لذا فهي في المنزل قادرةٌ على أن تجعل زوجها يتناول الطّعام الشهيّ في كل وقتٍ وحين، وأن تجعل أبناءها وبناتها يرون وجهًا مُبتسمًا بمجرد العودة للمنزل، فالهدوء والاستقرار في المنزل هما السبيل لبثّ الرّاحة والطّمأنينة في نفوس المشغولين بعملهم خارجَه، كما كان لعدم عملها فائدةً أخرى، وهي سهولة تلقّيها للهدايا. فهؤلاء الذين يُخرجون من تقديم الرشوة في مكتب "تشين جين جو" كانوا دائمًا ما يترقبون أوقات العمل كي يأتوا لمنزله، فصارت "شو جين لين" مثل مُحاسبٍ منزليٍّ، كلّما تلقّت رشوةً كانت تُسجلها مُبوبةً في سِجِلٍّ، وتسالهم بوضوحٍ عن طلباتهم؛ ولهذا السبب

(1) جين كلمة تعني "الذهب" وهي أيضًا وحدة موازين صينية، هم في الأصل كلمتان مختلفتان في الكتابة، لكن متطابقتان في النطق - المترجم.

تحديدًا لم تستخدم مُرَبِّية في منزلها أبدًا، فوجود شخص غريب في مثل تلك المواقف يُعيق العَمَل.

كانت ترى أنه طالما أخذت نقودًا من الآخرين؛ يجب أن تُساعِدَهم في إنجاز أمورهم، فكانت تضع علامةً بقلمٍ أخضر في السَّجِلِّ بجوار أسماء هؤلاء الذين قدّموا الهدايا وتمَّ حَلُّ مشاكلهم. أمّا الذين لم تُحلَّ مشاكلهم بعدُ فكانت تضع بجوارهم علامة استفهام بقلمٍ أحمر، وتحثُّ "تشين جين جو" أن يُسرِع في تنفيذ طلباتهم. وكان "تشين جين جو" أحيانًا يعجز عن تنفيذ بعض المطالب، هؤلاء تحديدًا كانوا بالنسبة لها مثل الأलगام الأرضية؛ فكانت تضع بجوارهم مُثلثًا بقلمٍ أسود كي تُعيدَ لهم هداياهم في أقرب وقت؛ لذلك كان كلٌّ من لديهم مطالبٌ لدى "تشين جين جو" يقولون إن زوجته تُراعي كلَّ صغيرةٍ وكبيرة، والهدايا التي ستأخذها يستحيل أن تذهب سُدى.

تعلّمت "شو جين لين" وهي في المنزل مُضارَبَةَ الأسهم في البورصة، وكلّما خَسِرَت الكثير من المال كلّما تزيّنت ولبست أرقى الملابس لتتفاخَرَ بها أمام الآخرين، وعندما يمتدح الآخرون جَمَالَ ملابسها تُخبرهم أنها كافأت نفسها بها بعد أن رَبِحَت الكثير من البورصة. أمّا الشهر الأخير من كلِّ عامٍ فهو ذُرْوَة تَلْقَى الهدايا، فتجدها مَشغولةً خلاله بشكلٍ غير عاديٍّ، فما إن تُودَّع مجموعةً حتى تستقبل موجةً أخرى، وعلى مائدة حُجْرَة الضيوف تتراصُّ أطباقُ الفاكهة وعُلب الحلوى وأكواب الشاي ومَنافِض السجائر؛ وذلك كي يشعر الضيوف بأنهم في بيتهم. وفي الشهر الأول من العام، وبعد انقضاء أعياد العام الجديد، تذهب مع زوجها إلى خارج المقاطعة بحُجَّة زيارة عيادة الطبيب؛ وذلك لإيداع المتبقي من الأموال. فابنها الذي يعمل في وزارة الداخلية استخرج لها بطاقةً هُويَّةً أخرى باسمٍ مُزيَّف، هو "شو شو تشين"، وكانت كلُّ عَقاراتِ أُسرتهم في "باي داي خيه"، و"سانيا" كلُّها مُسجَّلة بهذا الاسم.

وكانت هناك فائدة أخرى وراء عدم عمل "شو جين لين"، وهي مُراقبَتُها بدقَّةٍ إذا ما كان زوجها على علاقة مع غيرها أم لا؛ فهي تَعَلِّمُ في فُرارةِ نفسها أنه تقريبًا لا يوجد رَجُلٌ يَمْلِكُ سُلْطَةً إلا ويدخل في علاقات غير مشروعة. وكانت على استعدادٍ لأن تتغاضى عن أيِّ علاقةٍ عابِرةٍ، بشرط ألا تتسبَّب في تدمير أُسرتها؛ فهي لا تشبه النساء الأخرى اللواتي يتَّصِلن بأزواجهنَّ عشراةِ المرَّاتِ يوميًا لتتبع خطواتهم، ولم تتَّصل أبدًا مرَّاتٍ عديدةً بزوجها وهو في العمل ما لم يكن هناك أمرٌ طارئٌ.

فما هي الطريقة السحرية التي استخدمتها "شو جين لين" كي تُسَيِّطِرَ على زوجها؟ إنه أنفها، فحاسةُ الشَّمِّ بالنسبة لزوجة الموظف مُهمَّةٌ للغاية، فما إن يدخل "تشين جين جو" إلى المنزل حتى ترمي "شو جين لين" في أحضانه طالما الأبناء ليسوا متواجدين، وبما أنها أقصرُ منه قليلًا؛ لذا عندما تحضُّنه يُصبح رأسُها بالضبط عند عنقه، عندها تأخذ نَفْسًا عميقًا لتشمُّ تَغْيِراتِ رائحةِ جسده؛ فرائحُ الدُّخانِ المُعقَّدة تدلُّ على أنه عائدٌ لتوّه من غرفة الاجتماعات، أمَّا لو كان في زيارةٍ تَفْقُدِيَّةٍ لمصنع منتجاتِ حبوب الصويا، أو مصنع الدقيق أو مصنع الألعاب النارية؛ فإن الرائحة التي تفوح من جسده هي رائحة فول الصويا، أو رائحة القمح، أو البارود. أمَّا لو كان قد أقام علاقةً مع سيِّدة؛ فإنه بسبب التوتُّر يتعمَّد احتضانها بقوة، لكنَّ نَظراته تصير زائغةً، ولو كان قد احتضن امرأةً أخرى فسَتَتَرَكُ رائحةَ عَطرَةٍ مُختلِفةٍ على رَقَبَتِهِ، رائحةَ عِطْرِ خَفِيفَةٍ، أو رائحة سِجائر نسائيةٍ بالنعناع. كذلك الملابس التي يخلعها "تشين جين جو" كانت هدفًا مُهمًّا للفحص من قِبَلِ زوجته، خاصَّةً ملابسهِ الداخلية، فهي مثل ضابط المباحث الجنائيَّة بالضبط، تعتبر تلك الملابس أدلَّةً على الجرائم؛ لذا تتفحَّصها وتتشمَّمها بدقَّةٍ مرارًا وتكرارًا قبل غسلها.



وذات مرة شَمَّت على ملايسِه الدَّاخلِيَّة رائحةً لَبَنٍ لا تَصْدُرُ إلا عن امرأةٍ في فترة الرضاعة، فأَسْرَتْها في نفسها، وتَبَعَت الأمرَ سِرًّا حتى عَرَفَتْ أن زوجها على علاقة وثيقة برئيسة قسمٍ في لجنة التنمية والإصلاح، وتلك المرأة عادت لتَوَّها من إجازة وَضَع، ودائمًا ما تذهب لمكتب "تشين جين جو" لترفع تقاريرَ له. هذا المكتب عبارة عن جناحٍ كاملٍ، الجزء الخارجيُّ منه عُرْفَةٌ مكتبٍ واستقبال ضيوف، والجزء الداخلي به سريرٌ صغيرٌ للراحة، وقد خَمَّنَتْ "شو جين لين" أنَّ تلك المرأة لديها حاجةٌ لدى زوجها؛ لذا قدَّمت تقارير العمل فوق السرير الذي بالداخل. بعدها بفترةٍ قصيرةٍ حصلت تلك المرأة على ترقية، وصارت رائحةً اللَّبَن على جَسَدِ زوجها أكثرَ قُوَّةً مع الوقت؛ فخَشِيَتْ "شو جين لين" أن تتولَّد مشاعرٌ بينهما إذا طالَ أمدُ العلاقة، وشعرت لأول مرةٍ بالخطر؛ فواعَدَتْ تلك المرأة لتَشْرَب معها الشاي، وأهدتها ياقَةً من أفخر أنواع فِراء الثَّعالب، قائلةً إن الثَّعالب يُمكنها أن تُبرِز الجمال، لكن لا يوجد ثَعْلَبٌ مَصيره جيِّد، فهل هناك ثعلب ممكَّن في النهاية من الهرب من بندقيَّة الصِّياد؟ ومن بعدها اختفت تمامًا رائحة اللَّبَن تلك من على جسد زوجها.

وبسبب بلوغها سنَّ اليأس صار نومُها مُتقلِّبًا في السنوات الأخيرة؛ لذلك صار كلُّ منهما ينام في غرفةٍ مستقلة، وفي الليل حين يجافيهما النَّوم وتسمع صوت شَخير زوجها الصادر من الغرفة الأخرى تبدأ الأفكار والهواجسُ في شَغْل تفكيرها، كم امرأةٍ على علاقة به؟ هل أنجب أطفالاً غير شرعيَّين؟ ماذا لو أخبرها فجأةً بعدَ تقاعده أن لديه أبناء آخرين، ماذا تفعل حينها؟ أمَّا بعد إصابة زوجها بتَبَوُّل الدَّم فصارت تتمنَّى أن يتحقَّق أكثر ما تخشاه، فلو كان لديه أبناء غير شرعيَّين فإن أحوالَ أُسرتِه لن تكون بالتأكيد أفضل من حال أُسرتِها، حينها يمكنها أن تَضْمَن سَلَامَةَ أبنائها وبناتها، وتعطي نقودًا لتلك الأسرة كي تسمح لابن "تشين جين جو" غير الشرعيِّ بإعطاء كُليَّة

لزوجها؛ لذلك بعد أن تمَّ تحويله إلى مستشفى بمدينة "لين"، وعندما صارت معه بمفردها في غرفته، لمَحَتْ له أكثرَ من مرَّة أنه لو كان له ابنٌ غيرٌ شرعيٍّ يُمكنه إنقاذه؛ فإنها ستعترف بهذا الابن.

وقد تحمَّل "تشين جين جو" كثيرًا، لكنه وتحت وطأة إغراءاتها ويأسه؛ أفصح أخيرًا عن السرِّ الذي يُطبِق على صدره.

هذا السرُّ لم يعرفه سوى من عامٍ مَضَى، رغم أنه هو صانعُ الأسرار.

فذات يومٍ من أيام خريف العام الماضي، وعندما انتهى "تشين جين جو" من عمله نادته امرأةٌ وأوقفتَه خارجَ غرفة حارس المبنى.

كانت تبدو مُسنَّةً للغاية، وترتدي جلبابًا صينيًّا تقليديًّا من الحرير الأزرق الغامق، وعليه بلوقر أسود مفتوح، وحذاء جلدِيًّا أسود ذا كعبٍ نصف عالٍ، وتعتمر قُبْعَةً صوفيةً رمادية، وكانت قصيرةً ونحيفةً، ووجهها أصفر داكن تملؤه التجاعيد، لكنَّ عينيها كانتا لامِعَتَيْن، واعتقد "تشين جين جو" أنَّ لديها شكوى، فأخبرها أن تذهب إلى قسم الالتماسات إن كان لديها مَظَلَمَةٌ. وهنا نادته تلك المرأةُ بصوتٍ مُرتَعَشٍ: "جين جو"، ثم قالت بصوتٍ خفيض: "ألا تذكر شابَّةً تُدعى "ليو أي دي"؟ لقد كانت في مصلحة الغابات في "تشينغشان" قبل ثلاثين عامًا".

فتسَمَّر "تشين جين جو" في مكانه، وطفَّت أمام عينيه "ليو أي دي" منذ ثلاثين عامًا، كانت مُدرَّسةَ الفنون الجميلة بمدرسة مركز "هوا لينغ" لتنمية الغابات، كانت مُثَقِّفَةً من "شانغهاي"، ضئيلة الجَسَد، ورفيقة، وبِشْرَتُها بيضاء ناعمة وغلُضَّةٌ مثل "الدوفو"، ولها حاجبان مُقوَّسان وفمٌ هلالِيٌّ، وعندما تضحك تظهر على جانبي شفتيها غمَّازتان جذابتان، كان عمرها وقتها بضعةً وعشرين سنة، لكنها تبدو مثل فتاة صغيرة في السَّابعة أو الثامنة عشرة. تلك الفترة كانت ذُرْوَةٌ عودة المُثَقِّفين إلى مُدُنِهِم، وكان معظم المُثَقِّفين التابعين لمصلحة

الغابات في "تشينغشان" قادمين من "شنغهاي" و"وينتسوو"، ويعملون في التدريس، وقتها كان "تشين جين جو" نائب رئيس مصلحة الغابات، ويشغل أيضًا منصب رئيس المثقفين. فكانوا كلهم يتملقونه من أجل العودة إلى مُدُنِهِمْ في أسرع وقت، فكانوا يتبارون في إعطاء الهدايا، ومنهم مُثَقَّفَات يُلقين بأنفسهنَّ بين أحضانه، لكن "تشين جين جو" لم يَكُن يتجاوَبُ مع تلك الطريقة؛ فهو مُتزوِّج، وبالإضافة لذلك كان مشوار تَرْقِيهِ الوظيفيِّ قد بدأ لتَوَّه؛ لذا توجَّب عليه الحَدْرُ الشَّدِيدُ<sup>(1)</sup>.

لكنَّ تَعَارُفَهُ على "ليو أي دي" كان من قبيل الصدفة. فقد عاد المثقفون ممن تنطبق عليهم السياسات إلى مُدُنِهِمْ جماعاتٍ جماعاتٍ، لكنَّه سمع أن هناك مُثَقَّفَةً من "شانغهاي" في مدرسة مركز "هوا لينغ" لتنمية الغابات رَفَضَت العودةَ إلى المدينة. وتصادفَ هذا مع حلول الشهر الأخير من العام القمريِّ، حيث يتوافد رؤساء مصلحة الغابات إلى الوحدات القاعدية في زياراتٍ تَفَقُّدِيَّةٍ بمناسبة قُرْبِ أعياد الربيع، وتصادفَ أن يذهب "تشين جين جو" إلى مركز "هوا لينغ" لتنمية الغابات، فرتَّبَ خِصِيصًا محطةً في زيارته كي يذهب لمؤازرة تلك المدرِّسة التي اختارت البقاء في المدرِّسة، وهكذا تَقَابَلَ معها.

عندما بدأت الإجازة الشتوية، بقيت "ليو أي دي" وحدها في مَسْكَنِ المدرِّسة، ولن ينسى "تشين جين جو" للأبد الملابس التي كانت ترتديها في ذلك اليوم: بلوفر أبيض ذو ياقة طويلة، وبنطال أسود بحمَّالات، وصَفَقَت شعرها في ذيل حصانٍ عالٍ ربَطْتَهُ بمنديلٍ وَرَدِيٍّ لامِع، فَبَدَت أشبه بزهرة "أزاليا" مُتَفَتِّحة، وفي الخارج كان الثلجُ يملأ المكان، أمَّا عُرْفَتُهَا فانتَشَرَت فيها أضواء الربيع، حيث وَضَعَت حَامِلَ لَوْحَاتٍ من شَجَرِ الصَّنوبرِ أسفل الشُّبَّاكِ الجنوبي الذي عَلَتَهُ الثلوج، وعلى اللوحة

(1) يَقيِدُ بالمُثَقَّفِينَ هنا المُتعلِّمين خلال فترة الثَّوْرَةِ الثَّقَافِيَّةِ، الذين أُجْبِرُوا على النُّزوح من المُدُنِ إلى المناطق النائية لكي يعملوا بالتدريس على وجه الخصوص - المترجم.

يظهر منظرٌ لغاباتٍ تعلوها شمسُ الربيعِ وجداولٌ مائيَّةٌ وزهور  
بريَّةٌ مُفتتحةٌ ونحلٌّ يطيرُ وقرَاشاتٌ تتراقصُ، فسألها "تشين جين جو"،  
كيف ترسمين فصلًا مُغايرًا تمامًا للفصل الحالي؟ فردَّت ضاحكةً: "رسم  
الربيع في الشتاء يجعل الأيامَ أكثرَ سهولَةً". فسألها لماذا لا ترغب في  
العودة لشنغهاي؟ فقالت إن أبويها ماتا، ولم يَعد في "شنغهاي" سوى  
أخيها الأكبر؛ فليس لديها مَنْ تسعى للعودة له. بالإضافة إلى أنها  
تُحبُّ مَرَكزَ "هوا لينغ" لتنمية الغابات؛ فكلُّ فصلٍ من فصول السنة  
هنا يتمتَّع بمناظرٍ خَلاَبة؛ لذلك ترغب في البقاء هنا طوالَ عُمرِها  
لتُعلِّمَ الأطفالَ الرِّسم.

عاد "تشين جين جو" من تلك الزيارة وهو غير قادرٍ على نسيان  
"ليو أي دي". ومن وقتها صار كثيرَ الدَّهَابِ إلى مَرَكزِ "هوا لينغ" لتفَقُّدِ  
سَيْرِ العَمَلِ، فعلى أيِّ حالٍ لا تبعد "تشينغشان" عن هناك سوى ساعةٍ  
واحدة بالسيارة، وفي كلِّ مرَّةٍ يذهب فيها كان يبحث عن حُجَّةٍ لرؤية  
"ليو أي دي"، وبعد أن توطَّدت علاقةُ "ليو أي دي" معه صارت في كلِّ  
مرَّةٍ تذهب فيها إلى محافظة "تشينغشان" لشراء أدوات الرِّسم تَمَرُّ في  
طريقها لرؤيته، وفي العام الثاني لتعارُفهما وفي عطلة نهاية الأسبوع  
بفصل شتاءٍ جاءت "ليو أي دي" إلى "تشينغشان"، عندها هبَّت عاصفةٌ  
ثلجيَّةٌ وانقطعت المواصلات؛ فاضطرت للمبيت في نُزُلٍ. وبسبب التُّلُوجِ  
الكثيفة والبرد الشديد والرياح الشمالية أظلمت السَّماءُ والسَّاعةُ لا  
تزال الثالثةُ بعدَ الظُّهرِ، وهذا جَعَلَ الدَّماءَ تغلي في عروق "تشين  
جين جو" عندما ذهب لرؤيتها، فلم يَسْتَطِعْ مَنعَ نفسه من الاندفاع  
نحوها واحتضانها بقوة؛ فلم تُبدِ أيَّ رَفِضٍ له، فاحتضنها حتى الفِراشِ.  
وبقيت "ليو أي دي" في النُّزُلِ ثلاثةَ أيَّامٍ، وكان "تشين جين جو" يذهب  
كلَّ يومٍ مرَّةً لزيارتها. وكان العُمَّالُ بالنُّزُلِ ما إن يَرَوْا رئيسَ مصلحة  
الغابات حتى يُسارعوا بالتَّوارِي بعيدها، فعلى أيِّ حالٍ لم يكن هناك  
ضيوفٌ آخرون بالنُّزُلِ بسبب العاصفة الثلجية.

لكن لا يوجد في العالم حائطٌ لا يُسْرَبُ الهواء، وهكذا، بعد أن عادت "ليو أي دي" إلى مركز "هو لينغ" بأسبوعٍ، جاء سكرتير لجنة الانضباط بمصلحة غابات "تشينغلين" إلى "تشين جين جو" ليتحدّث معه، وقال له: "إنَّكَ شابٌّ، وأمامك مستقبلٌ، ولديك أسرةٌ ووظيفة... إِيَّاكَ أَنْ تُضَيِّعَ هَذَا كُلَّهُ عَلَى أَجْسَادِ النِّسَاءِ"؛ فارتعب "تشين جين جو"، وجعل السكرتير يمنع "ليو أي دي" من الدخول عندما جاءت مرّةً ثانية بحثًا عنه، مُتعللاً بأيّ حجةٍ لعدم رؤيتها، لقد خشي أن تتعلّق به؛ لذا اتّصل بالجهات المسؤولة في شنغهاي كي يُصدِّروا أمراً بعودتها. وكانت المرّة الأخيرة التي تقابلاً فيها في مكتب مصلحة الغابات، حيث كانت تُوَقَّع بعض الأوراق الأخيرة الخاصّة بعودتها للمدينة. وقتها كان الرّبيع قد جاء، لكنها رغم ذلك كانت ترتدي معطفاً قطنيّاً ثقيلاً؛ فَبَدَت مُنْتَفِخَةً للغاية، أمّا وجهها فكان مُصْفَراً شاحباً مثل الخضار المملّح، وعندما همّت بالرحيل مدّت "تشين جين جو" يده نحوها بألف وخمسمائة يوان جهّزها لها، قائلاً إنها ستحتاج النقود بعد عودتها لشنغهاي، وهذا تعبيرٌ بسيط عن مشاعره نحوها. وعلى عكس ما تُوَقَّع، لم تُلقِ النقودَ في وجهه، بل إنها لم تأخذها وحسب، وإمّا قَبَضَتْ عليها بقوةٍ في يدها؛ وهذا جعل "تشين جين جو" يشعر بالذنب وتأنيب الضمير، وهكذا افترقا، وسار كلُّ منهما في طريق.

هذا الفراق استمرّ لثلاثين عامّاً لم يسمع فيها أيُّ منهما أيّ خَبَرٍ عن الآخر.

لكن "ليو أي دي" التي ظهّرت فجأةً الآن لم تُكُنْ تُشْبِه مَنْ فِي الخمسين من العمر، بل كانت امرأةً طاعنةً في السّن، ولم يعلم "تشين جين جو" لماذا أتت، وبعد أن كان ينوي العودة للمنزل مَشِيّاً، اتّصل على عَجَلٍ بسائقه ليأتي، قائلاً إنه سيستضيف صديقاً قديماً، وأخذها إلى مطعمٍ، وجلسا في غرفةٍ خاصّةٍ، وسألها عن كل شيء بالتفصيل.

في البداية أخبرته أنها مُصَابَةٌ بِسَرطَانِ الرَّحِمِ في مرحلةٍ مُتَأخِّرةٍ، ولم يَأْتِ العِلاجُ الكيماويُّ بنتيجةٍ، وانتَشَرَتِ الخِلايا السَرطانيَّةُ في الجِسدِ كُلِّهِ، ولن تَرى الشُّروقَ ثَانيةً سِوَى مُلرَّاتٍ قَليلةٍ، وطلَّبتَ منه ألاَّ يَتوتَّرَ، بعدها أخبرته الهدفَ من زيارتها تلك.

قالت إنها جاءت من بعيدٍ رغبةً منها أن تَرى ابنتهما مُرَّةً واحِدةً سِرًّا، لكنَّ ابنتهما في السُّجْنِ؛ وهذا ما اضطرَّها أن تأتي طَلِّبًا لمساعدته.

واتَّضحَ أنها عندما غادَرتَ مركزَ "هوا لينغ" في ذلك العام كانت بالفعل حَامِلًا في الشهر السَّادسَ من "تشرين جين جو". وقتها كانت ضئيلةَ الجَسَدِ؛ لذا لم يَبْدُ عليها الحَمْلُ والجَينين في الشَّهرِ الرَّابِعِ، وكانت دورتها الشَّهريةُ دائِماً غيرَ مُنْتَظِمةٍ، وقد حدثَ من قَبْلُ كثيرًا أن انقطَعَتَ عنها لثلاثة أو أربعة شهور؛ لذلك لم يُثِرِ الأمرُ سُكوكها في وقتها. أمَّا العَغيان الذي صار يَنتابها أحيانًا فقد أَرَجَعته إلى اضطرابٍ في الأمعاء، وهكذا حتى وصلَ الجَينين إلى الشهرِ الخَامِسِ، عندها فقط شعرتَ بأن هناك شيئًا غيرَ طبيعيٍّ؛ لأن بطنها بدأت في الانتفاخ. وقد عَلِمْتَ أنه يصعبُ إجهاضَ الجَينين، وحتى لو قَرَّرْتَ إجهاضه فليس لديها إثباتٌ على نَسَبِ الطَفلِ؛ لذلك لم تُعَدَّ لشنغهاي بعد رحيلها عن مركزَ "هوا لينغ"، بل ذَهَبْتَ إلى وحدة تجميل الغابات شمال مركزَ "هوا لينغ"، وأعطت الألفَ وخمسمائة يوان التي منَحَها إيَّاهَا "تشرين جين جو" إلى "تشانغ شيو تشين"، ووضَعْتَ مولودها هناك.

كانت "تشانغ شيو تشين" وزوجها مُربيًا نحليًّا، ولديهما ثلاثة أطفال، وتعرَّفْتَ "ليو أي دي" عليهما عندما جاءت إلى هنا لرسم المناظر الطبيعية. وقد كَذَبْتَ على "تشانغ شيو تشين"، وقالت لها إنها بينما كانت وحيدةً في سَكَنِ المُعَلِّمين أثناء الإجازة الشتوية، اقتحم عُرفَها رَجُلٌ غريبٌ ذات مساءً واغتصبها، وخشيتَ أن يَضُرَّها الأمرُ إذا أخبرتَ به الجميع؛ لذا لم تُبلِغَ الشرطة، ولم يكن في الحسبان

أَنْ تَحْمَلَ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَتْ "تشانغ شيو تشين" طَيِّبَةً الْقَلْبِ، فَقَالَتْ لَهَا كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَزَوَّجِي إِنْ عُدْتِ لَشَنْغَهَائِي وَمَعَكَ ابْنٌ مُغْتَصَبٌ؟ أَعْطِيهِ هَدِيَّةً لِشَخْصٍ مَا. وَقَدْ سَمِعَتْ "تشانغ شيو تشين" أَنَّ هُنَاكَ زَوْجَةً جَزَّارٌ مِنْ قَرْيَةِ "لونغ تشان" قَدْ أَجْرَتْ عَمَلِيَّةَ تَعْقِيمٍ، وَتَبَحَّثَ عَنْ طِفْلٍ تَتَبَّنَاهُ؛ لِذَا بَحَّثَتْ عَنْ وَسِيلَةٍ لِلتَّوَاصُلِ مَعَهَا، وَمَا إِنْ أَكْمَلَ الطِّفْلُ شَهْرًا حَتَّى أَعْطَتْهُ لَهَا. وَلَمْ تُخْبِرْهَا أَنَّهُ نِتَاجُ اغْتِصَابٍ خَشِيَّةٍ أَنْ تَنْفِرَ مِنْهُ "وانغ شيو مان". بَلْ قَالَتْ لَهَا فَقَطْ إِنْ أُمَّ هَذَا الطِّفْلِ مِنْ مِثْقَفِي "شَنْغَهَائِي"، وَأَنْجَبْتَهُ مِنْ رَجُلٍ مَحَلِّيٍّ، وَحَالِيًّا عَادَتْ لِلْمَدِينَةِ، وَالطَّرْفَانِ لَا يَرِغْبَانِ فِي هَذَا الطِّفْلِ؛ لِذَا طَلَبَا مِنْهَا أَنْ تَهْدِيَهُ لِأَحَدِهِمْ، عَلَى أَلَّا يَتَقَابَلُوا لِلأَبَدِ. وَهَكَذَا أَخَذَتْ "وانغ شيو مان" الطِّفْلَ وَرَجِعَتْ بِهِ وَهِيَ فِي غَايَةِ الْفَرَحَةِ وَالسَّعَادَةِ.

إِنَّهُ "شِين شِين لاي".

وَبَعْدَ أَنْ عَادَتْ "ليو أي دي" إِلَى شَنْغَهَائِي عَمَلَتْ فِي مِتْجَرٍ لِلتُّحْفِ الْيَدَوِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ، وَتَزَوَّجَتْ مِنْ سَائِقِ حَافِلَةٍ نَقَلَ عَامًّا بَعْدَ أَنْ تَجَاوَزَتْ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْعُمُرِ. وَقَالَتْ إِنْ السَّمَاءُ رُبَّمَا أَرَادَتْ أَنْ تَنْتَقِمَ مِنْهَا لِتُخْلِئَهَا عَنْ ابْنِهَا؛ فَلَمْ تَحْمَلْ ثَانِيَةً. وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الزَّوْجِ تَطَلَّقَتْ، وَمِنْ وَقْتِهَا عَاشَتْ وَحِيدَةً، ثُمَّ قَالَتْ إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْتَرِبِ الْمَوْتُ مِنْهَا لَمَا فَكَّرَتْ فِي الْعُودَةِ لِرُؤْيَا ابْنِهَا. وَعِنْدَمَا عَلِمَتْ مِنْ "تشانغ شيو تشين" أَنَّ ابْنَهُمَا أُرْسِلَ إِلَى أُسْرَةٍ جَزَّارٍ مِنْ قَرْيَةِ "لونغ تشان" ذَهَبَتْ بَحْثًا عَنْهُ، وَعِنْدَمَا ذَهَبَتْ وَسَأَلَتْ عَنْهُ عَلِمَتْ أَنَّهُ فِي السُّجْنِ، وَشَعَرَتْ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَحْمَلُ ذَنْبَ وَجُودِهِ فِي السُّجْنِ؛ لِذَا جَاءَتْ إِلَيْهِ، وَقَالَتْ إِنَّهَا لَنْ تَعِيشَ لِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ مُرَاعَاةَ ابْنِهَا؛ لِذَا يُمْكِنُ لـ "تشانغ شيو تشين" بِسُلْطَاتِهِ وَمَكَانَتِهِ أَنْ يُسَاعِدَهُ سِرًّا بَعْدَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ السُّجْنِ، فَيُرْتَبِّبَ لَهُ عَمَلًا. فَإِنْ صَارَ لَهُ دَخْلٌ ثَابِتٌ فَإِنَّهُ لَنْ يَسِيرَ فِي طَرِيقِ الضَّيَاعِ.

وقد وافق "تشين جين جو" على ما طلبته، ولم تكن تلك الموافقة نابعة من قلب صادق، بل هي مجرد عادة، تلك العادة نمت لديه من سنوات الوظيفة الطويلة، وهي أن يوافق على كل ما يطلبه الطرف الآخر طالما طلبه، بغض النظر عما إذا كان قادراً على تنفيذه أم لا.

ويبدو أن "ليو أي دي" لاحظت أن "تشين جين جو" في حالة قلق منذ بداية اللقاء حتى نهايته؛ لذا وعند افتراقهما خلعت قبعتها لثريه رأسها الأصلع تماماً بسبب العلاج الكيماوي، وقالت له: "انظر، إنني امرأة صار رأسها مزروعاً بترابٍ أصفر حتى المخ، لا أفرق كثيراً عن الهيكل العظمي، اطمئن، لن أذهب لمنزلك، ولن أخبر أي مخلوق بهذا السرّ. والمثير للشفقة أن هذا المرض قد التهم المائتي ألف يوان التي ادخرتها بعرقتي وتعبي، ولم أترك أي شيء لابني. فالمنزل الذي أعيش فيه ترّكه أبواي لأخي الأكبر، وستعود ملكيته إلى ابن أخي بعد وفاتي، وتمّ تسجيل ذلك على أن يتولّى ابن أخي مسائلاً ما بعد وفاتي، وينقل رمادي إلى المكان الذي نقلت له للعمل في الماضي، وينتشره في مركز "هوا لينغ" لتنمية الغابات. فأجمل المناظر التي رأيته في حياتي كلها هنا". ثم ارتدت قبعتها، وضحكت ببرودٍ وقالت: "بعد أن أعود لشنغهاي لن أرسم لوحاتٍ، وإلا فإنني سأترك لابني بضع لوحاتٍ، لكن حتى لو تركتها فهي بلا قيمة، فمن يعرف من أنا؟".

وفي النهاية طلب منها "تشين جين جو" رقم هاتفها في "شنغهاي"، قائلاً إنه سيذهب لرؤيتها لو أتحت الفرصة، لكنه لم يعطها رقم هاتفه. كان هدفه الحقيقي من طلب رقم هاتفها هو الاتصال بها بعد ثلاثة أو أربعة شهورٍ ليرى إذا ما كانت لا تزال على قيد الحياة أم لا. فلو ماتت فإنه لن يهتمّ البتّة بابن الحرام القابع في السجن هذا.



وبعد أربعة شهور اتّصل "تشين جين جو" بذلك الرّقم وقلبه مضطرباً تماماً، فردّ عليه شاباً، وعندما سأله عن "ليو أي دي"، ردّ عليه الشابّ بنفادٍ صبرٍ قائلاً إن عمّته ماتت منذ شهرين، ولا تتّصل هنا ثانية، فوضع "تشين جين جو" سماعة الهاتف، والفرح والحزن يتداخلان في أعماقه.

ماتت "ليو أي دي" ومات معها سرُّ ابنه غير الشرعيّ، لكنّ قلب "تشين جين جو" لم يطمئنّ لهذا الأمر. وذات مرّة في بداية الربيع اتّصل هاتفياً بـ "تشين ماي تشين"، فتصنّع عدم القصد، وسأل عن أحوال "شين تشي زا"، فقالت "تشين ماي تشين" إن أحوال "شين تشي زا" جيّدة، لكنّ ابنه بالتبني هو المشكلة؛ فهو زبونٌ دائم في السّجن، لقد خرج من السّجن لتوّه، وتعلّم ذبح الخنازير من والده، ولكن بعد شهرٍ واحد ارتكبَ جريمةً قتلٍ. وعندما نظر "تشين جو" إلى صورة ابنه الموجودة على إعلان البحث عن المجرمين، ورأى تلك العينين الصغيرتين للغاية، والأنف القبيح، وحتى شكل الأذنين، رآه أكثر شبهاً منه من "تشين تشينغ باي"، عندها ارتعش قلبه.

بعدما انتهت "شو جين لينغ" من سرد قصّة "تشين جين جو" و"ليو أي دي" على مسامع ابنها، أطلق "تشين تشينغ باي" سبّةً قائلاً: "هذا العجوزُ اللعين، لديه تلك الأمور الخليعة".

فقالت "شو جين لينغ" إنها هي و"تشين جين جو" يفكران في التّالي، أن يكشفًا أوراقيهما لأسرة "شين" ويخبراهم أن كلّ المطلوب أن يتّصل بهما "شين شين لاي"، ويُسلم نفسه ويعترف، وسيُفكران في وسيلةٍ لمساعدته في الإفلات من عقوبة الإعدام، ويعترفان به ابناً، بعدها يُعطيان أسرته مَبْلَغًا كبيراً من المال، ويُرتبان له إقامةً مُريحة في السّجن؛ فلا يتعرّض له أحدٌ، وبالطبع المقابلُ لكلّ هذا هو أن يتبرّع "شين شين لاي" بكلّيته.

فضحك "تشين تشينغ باي" ضحكةً باردةً، وقال لأُمّه إن هذا المُسنَّ قد خَرَفَ، فهل ستخرفين أنتِ أيضًا؟ إنّه لم يمُت بعدُ ولا يزال في وظيفته، لو تَسَرَّبَ أمرُ الابنِ غيرِ الشَّرعيِّ فسيصبح كادرًا ذا مشاكل، وستُوَقَّع عليه العقوبة، ولن يضمن حتى وظيفته في مجلس النُّوَّاب، ورغم هذا لديه الجرأة على الاعتراف بابن؟ إنها حقًّا نُكَّتة، بالإضافة إلى ذلك، هل يستحقُّ قاتِلٌ أن يُصبح فردًا في أسرة "تشين"؟ أن يصبح أخًا لي؟".

فانفجرت الدُموع في عيني "شو جين لينغ"، وقالت: "إذن ما العمل؟ أبوك يحتاج لكليته؛ فيها يمكن أن نُنقِذَه تمامًا، وأنا لا أستطيع أن أرى والدك يموت أمام عيني، لقد طلبتُ من الطبيب أن يُجري لي التحاليل سرًّا، لكن كليتي غيرُ مطابِقةٍ له، وإلا لُكُنْتُ أعطيتها له عن طيب خاطرٍ؛ فلولا والدك أُنِّي لنا بالأيام الهنيئة التي نعيشها الآن؟".

فأطلق "تشين تشينغ باي" صوتًا مُستنكرًا، وقال: "كليتُه هذا الشَّقِيّ بالطبع سناخذها، من حُسنِ الحَظِّ أنه قاتِلٌ، سيُحكَم عليه بالإعدام، وسنبحث عن طريقةٍ نَجعلُه لا يَطَعنُ على الحُكم، ويتمُّ تنفيذُه في أسرع وقت، إن انتزاعَ أعضاء المنقذ فيهم حُكم الإعدام ليس سرًّا، وهذا سيوفّر علينا حتى ثَمَن شراء الأعضاء، حقًّا لا يأس مع الحياة".

عندها نظرت "شو جين لينغ" إلى وجه ابنها المرتسمة عليه ابتسامةً شريرة، فشعرت للمرة الأولى بالغرَبَة، وللمرَّة الأولى أيضا شعرت بالخوف.

وعلى الفور غادر "تشين تشينغ باي" مدينة "لين" ومعه عيئةٌ من دَم والده، وكان الأمر الأوَّل الذي فعله بعدما عاد إلى منطقة "سونغشان" هو أن قام سرًّا بإجراء مُطابِقةٍ حامِضِ نوويِّ بين عيئة دَم والده وبين عيئة دم "شين شين لاي" الموجودة بقاعدة بيانات المُجرمين،

وبعد أن تأكّد أنه بالفعل ابنُ وإِدِه، قاد بضعةً أفرادٍ من نُخبَةِ الضُّباط الجنائيّين من فريق البحث الجنائي إلى محافظة "تشينغشان"، لِيُنْفِذُوا - بالتَّعاوُن مع مديريّة الأمن العام بالمنطقة - عمليّةً مُشترَكةً للبحث عن "شين شين لاي".

وكان الأمر الذي أصدَرَه للضُّباط هو... "اقبضوا عليه حيًّا".

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

## 13

# العاصفة الثلجية

الشهر الأخير من العام القمريّ هو الوقت الذي ينشغل فيه الجميع بالاستعداد للعام الجديد، ومثل هذا الوقت في السنوات الماضية كان "أن بينغ" يذهب دائماً إلى منزل "لي سو تشين" ليهدئها مُستلزمات العام الجديد ويساعدها في بعض الأعمال التي يتوجّب على الرجال فعلها، مثل تعليق الفوانيس وكنس التراب المتراكم على السطح، وتنظيف مخزن الفحم، وغير ذلك من الأعمال، لكن في العام الحالي لم يجرؤ على الذهاب لمنزلها، فبمجرد أن يدخل من الباب يبدأ زوجها في العواء مثل الذئب وهو مُمسكُ برقبتَه بشكل مُفزع.

هذا التصرف غير الطبيعي جاء من برنامج تلفزيوني.

لقد خشيت "لي سو تشين" أن يشعر زوجها بالوحدة في المنزل؛ لذا ربّت له زهوراً وطيوراً حوله، كذلك وضعت جهاز التلفاز أمام سريره؛ وبهذا يُمكنه مشاهدة العالم الخارجي وهو مُتكيّ على السرير.

كان زوجها لا يحبُّ المسلسلات التلفزيونية؛ فهو يرى أنها مُخادعة، وكان أكثر ما يُحِبُّه هو برنامج "عالم الحيوان"، ويحبُّ الحيوانات المفترسة، مثل: الفهد الصياد والنمر والأسد، قائلاً إنه لو حلت روحه بعد الموت في حيوان فهو يتمنى أن تجلَّ في حيوان مفترس، له أطراف قويَّة ليصبح ملك الغابة، كذلك كان يُحبُّ مشاهدة الأفلام التسجيلية، خاصَّة القانونيَّة والحياتيَّة، والتي تتحدَّث عن الأطعمة الشهيَّة، بوجه عام كان يحبُّ كلَّ البرامج الحقيقية.

وقد شاهد في أحد البرامج التسجيليَّة رجلاً في منتصف العمر مُصاباً بمرضٍ مُشابهٍ لمرضه، وظلَّ مشلولاً في السرير لسنواتٍ طويلة. هذا الرجل لديه أمٌ عجوز في السبعين، ولديه طفلٌ في التاسعة، والأسرة كلها تعتمد في شؤونها الداخلية والخارجية على الزوجة. وقد أنهكت الزوجة نفسها في العمل أكثر من طاقتها؛ فشابَّ شعرها وهي في الثلاثين، وتجعَّد وجهها وصارت كالعجوز. وفي النهاية لم تتحمل فأقنعت زوجها بالطلاق، وبعد أن تزوجت ثانيةً أنجبت من زوجها الجديد طفلاً بديناً، أمّا هي فعادت شابةً من جديد، وأصبحت مُمتلئةً بالحيويَّة، لكنها ظلَّت ترعى زوجها الأول وأمه بعنايةٍ كما في السابق. تلك القصة أثرت تأثيراً عميقاً على نفسيَّة زوج "لي سو تشين"، وخاف أن تطلبَ منه الطلاق ذات يومٍ مثلما فعلت المرأة في البرنامج، وتأخذه معها لتتزوج من "أن بينغ".

وقد رأى أن العيشَ بذلك الشكل يضاهاى الموت، فهو لا يستطيع تخيُّلَ مشهدٍ معيشته تحت سقفٍ واحدٍ مع "أن بينغ". فمُنِّفَذ أحكامٍ إعدامٍ تعود على قتل البشر إذا سَكَنَ معه في نفس المكان فسيقتله بسهولة، وحتى لو أقسمت له "لي سو تشين" فهي من المستحيل أن تصبح مثل المرأة التي في البرنامج وتأخذه معها لبيت زوجها؛ لذا أصبح كلما أتى "أن بينغ" كأنه رأى إله الطاعون، فيصرخ بلا توقُّف.

وبسبب هذا دَبَّ الخِلافُ بين "لي سو تشين" وبين "أن بينغ".

وفي الرابع عشر من الشهر الأخير، ذهبَت "لي سو تشين" إلى المَجَزَرِ كي تجلبَ مُستلزمات العام الجديد، فاشترت زوجًا من آذان الخنازير، وثمانِي أُرْجُلِ خنازير، وكان السُّكَّانُ في تلك المنطقة يستخدمون أنابيب الغاز في الصيف لطهي الطعام، أمَّا في فصل الشتاء فيستخدمون الفحمَ للتدفئة؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يستخدموا الفُرنَ للطهي.

أمَّا منزل "لي سو تشين" فكان يعتمد في التدفئة على الفحم والحطب. ذلك الحطب كانت تجمعه بنفسها، منه لِحاء أشجار البلوط، وشظايا الخشب، وهناك أيضًا الأفرع الجافة الصغيرة، تلك الأفرع تجمعها من الجبل، وهي لا تتحمَّل النار، فحزَمَةٌ منها تحترق سريعًا في الموقد، وخلال عشر دقائق على الأكثر تصير رَمادًا، أمَّا شظايا الخشب فتجمعها من مُخلفات مواقع البناء، وكميَّاتها قليلة، فلا تجمَع على مدار العام إلا القليل منها. أمَّا أكثر ما يُحرق في منزل "لي سو تشين" هو لِحاء أشجار البلوط، فخارج المدينة هناك مصنعُ ألواح الخشب يتخلَّص مساءً كُلِّ خميس من لِحاء الشَّجر النَّاجم عن عمليَّة تصنيع الخشب الخام، وما إن يخرج لِحاء أشجار البلوط من المصنع ويكوِّم في الخارج حتى يندفع نحوه جامعُو اللِّحاء.

لذا وفي كل خميس بعد الظُّهر تركب "لي سو تشين" درَّاجتَها إن لم تُكُن هناك جِنازاتُ بالمدينة الصغيرة، وتأخذ معها جِوالَيْنِ فارغَيْنِ وتذهب لتعبئة لِحاء البلوط، دون أن يَمَنعها مَطَرٌ ولا رياحٌ. وأحيانًا يُحالفها الحَظُّ فتتمكَّن من مَلءِ الجِوالَيْنِ بالكامل، وبعدها تُعلِّقهما على جانِبَي درَّاجتها من الخلف، وبينما هي تقود الدَّرَاجة عائِدَةً للمَنزِلِ تتوقَّد جذواتُ لَهَبٍ حمراء في أعماق قلبها.

تفضَّل "لي سو تشين" استخدامَ لِحاء البلوط عند طهي اللحم، فعَبَّقُ البلوط العميق الذي ينبعث منه يتَّحدُّ بشكلٍ مُذهلٍ مع

اللَّحْمَ لِيَنْتُجَ عَنْهُ طَعْمٌ لَذِيذٌ. وَكُلُّ مَنْ زَوْجَهَا وَ"أَنْ بِيَنْخَ" يَحْبَبَانِ اللَّحْمَ الَّذِي تَطْبَخُهُ عَلَى لِحَاءِ الْبَلُوطِ حُبًّا جَمًّا؛ لِذَلِكَ فَعِنْدَمَا تَجْهِّزُ طَعَامَ الْعَامِ الْجَدِيدِ، وَمَهْمَا كَانَتْ حَالَتَهَا الْمَادِيَّةُ غَيْرَ مَيَسُورَةٍ، فَإِنَّهَا يُكِنُّهَا التَّخْلِيَّ عَنْ شِرَاءِ اللَّبِّ وَالْمَكْسَّرَاتِ وَالْحَلْوَى، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ إِلَّا تَشْتَرِي اللَّحْمَ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّجُلَانِ.

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَشْعَلْتَ "لِي سُو تَشِينِ" النَّارَ فِي الْمَوْقِدِ، وَوَضَعْتَ فَوْقَهُ قِدْرًا حَدِيدِيَّةً ضَخْمَةً ثَقِيلَةً سَوْدَاءَ، ثُمَّ وَضَعْتَ فِيهَا اللَّحْمَ الَّذِي اشْتَرَيْتَهُ مِنَ الْمَجْزَرِ فِي مَاءٍ نَظِيفٍ، وَوَضَعْتَ مَعَهُ خَمَرَ الطَّهْيِ وَصَلَصَةَ فُولِ الصُّوِيَا، ثُمَّ أَضَافْتَ الْيَنْسُونَ النَّجْمِيَّ وَفَلْفَلَ "سِيْتَشَوَانَ" وَأَعْوَادَ الْقَرْفَةِ وَالزَّنْجَبِيلِ، وَطَهَّتَهُ لِسَاعَةٍ وَنِصْفٍ عَلَى نَارٍ هَادِيَّةٍ تَارَةً، وَمُتَأَجِّجَةً تَارَةً أُخْرَى، حَتَّى نَقَصَ الْحِسَاءُ وَنَضَجَ اللَّحْمُ تَمَامًا، وَبِالتَّأَكِيدِ تَسَرَّبَتِ الرَّائِحَةُ اللَّذِيذَةُ مِنْ فُرْجَةِ الْبَابِ إِلَى الْخَارِجِ، فَسَمِعْتَ مَوَاءَ الْقَطِطِ الضَّالَّةِ الَّتِي تَسْتَجِدِي الطَّعَامَ وَهِيَ تَخْمِشُ الْبَابَ بِمَخَالِبِهَا، وَفَكَّرْتَ "لِي سُو تَشِينِ" فِي "أَنْ بِيَنْخَ" الَّذِي لَا يَجْرُؤُ عَلَى الْمَجِيءِ بِسَبَبِ الْعِدَاوَةِ مَعَ زَوْجِهَا؛ لِذَا بَعْدَ أَنْ انْتَهَى زَوْجُهَا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، لَفَّتَ قَدَمِي خَنْزِيرٍ فِي وَرَقِ كَرْنَبِ صِينِي كَبِيرٍ، وَاسْتَعَدَّتْ لِلذَّهَابِ إِلَى "أَنْ بِيَنْخَ"، لَكِنْ مَا إِنْ رَأَاهَا زَوْجُهَا تَرْتَدِي مَعْطَفَهَا حَتَّى قَالَ بِلَهْجَةٍ غَرِيبَةٍ: "هَلْ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ لِبَيْتِ الْمَوْتَى؟"، فَردَّتْ عَلَيْهِ بِلَهْجَةٍ غَيْرِ مَكْتَرِثَةٍ: "لَا يَوْجَدُ مَوْتَى الْيَوْمِ". فَقَالَ: "لَا يَوْجَدُ مَوْتَى فَلِمَاذَا تَخْرُجِينَ؟"، فَقَالَتْ سَأَذْهَبُ إِلَى الْبِقَالَةِ لِشِرَاءِ صَلَصَةِ الصُّوِيَا، فَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ أُخْرَى، وَبِسَبَبِ هَذَا امْتَلَأَ قَلْبُهَا بِاللُّؤْمِ عِنْدَمَا خَرَجْتَ مِنَ الْبَابِ، وَمَا إِنْ دَخَلْتَ مَنْزِلَ "أَنْ بِيَنْخَ" حَتَّى وَضَعْتَ قَدَمِي الْخَنْزِيرِ وَقَالَتْ: "لِنَفْعَلْ" مِثْلَ ذَلِكَ الْبِرْنَامِجِ التَّلْفِزِيُونِيِّ، سَأَتَطَلَّقُ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ مَانِعٌ، سَأَتِي بِهِ مَعِي وَأَتَزَوَّجُكَ، فَعَلَى أَيِّ حَالٍ لَقَدْ تَقَاعَدْتَ وَلَنْ تَخْشَى أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْكَ أَحَدُهُمْ بِكَلَامِ فَارِغٍ، عِنْدَهَا سَأُنَادِيهِ أَخِي، وَبِالتَّالِي لَنْ يَجْرُؤَ عَلَى أَنْ يَنْظُرَ لِي بِسُوءٍ". لَكِنهَا لَمْ تَتَخَيَّلْ إِلَّا يَتَجَاوَبُ مَعَهَا "أَنْ

بينغ"، بل اكتفى بالقول إنه لولاها لَمَا بَقِيَ له أَيُّ دَافِعٍ لِلْبَقَاءِ فِي "تشانغتشينغ"، ولَبَاعَ منزله من زمنٍ وعاد إلى قرية "لونغ تشان". عندها شعرت "لي سو تشين" أنه لا يرغب في التضحية من أجلها، وأن حُبَّه لها مَشْرُوطٌ؛ لِذَا تَعَلَّلتُ بِأَنَّهَا نَسِيَتْ وَضَعَ كُوبِ مَاءٍ عِنْدَ سُرِيرِ زَوْجِهَا قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ، وَتَخْشَى أَنْ يَشْعُرَ بِالْعَطَشِ فَيَسْبُهَا عِنْدَمَا تَعُودُ لِلْمَنْزَلِ، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ وَالذَّمْعُ مِلًّا عَيْنَيْهَا.

في الحقيقة كان "أن بينغ" يحبُّ "لي سو تشين"، خَاصَّةً يَدِيهَا، لَكِنَّهُ لَا يَتَقَبَّلُ فِكْرَةَ مَعِيشَةِ ثَلَاثَةِ أَشْخَاصٍ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، إِلَّا لَوْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلَ مَيِّتًا إِكْلِينَكِيًّا، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ أَبْلَهُ.

وعندما اتَّصَلَ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَصْبَحَتْ تَقُولُ إِنَّهَا إِمَّا فِي دَارِ الْجَنَائِرِ تُجْمَلُ الْمَوْتَى، أَوْ تَطْهَوُ الطَّعَامَ لِزَوْجِهَا، وَلَا تَرْغَبُ فِي الْحَدِيثِ طَوِيلًا. لَمْ تَعُدْ بِحَاجَةٍ لَهُ؛ فَشَعَرَ أَنَّ الْمَدِينَةَ خَاوِيَةٌ، فَسَارَعَ فِي الْعُودَةِ إِلَى قَرْيَةِ "لونغ تشان".

كان هذا في الحادي والعشرين من الشهر الأخير.

استعادت المطرزة عَافِيَتَهَا بِسُرْعَةٍ، وَلَمْ تَعُدْ قَادِرَةً عَلَى الْعِنَايَةِ بِنَفْسِهَا فَحَسَبُ، بَلْ عَلَى الْعِنَايَةِ بِـ "أَنْ شُوِيَهْ أَرْ" أَيْضًا.

وكان الأمر الأول الذي فَعَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْ بِعَصَاهَا الَّتِي تَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا هُوَ الذَّهَابُ إِلَى الْوَرِشَةِ لِرُؤْيَةِ حَفِيدَتِهَا. وَعِنْدَمَا رَأَتْ بَطْنَ "أَنْ شُوِيَهْ أَرْ" الْمُنْتَفِخَةَ لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ، بَلْ سَارَتْ إِلَى الشَّاهِدِ الْحَجَرِيِّ الْأَخْضَرِ فِي الْفِنَاءِ، وَرَبَّتَتْ بِيَدِهَا عَلَى تَمثال "أَنْ يُو شُوِيَن"، رَبَّتَتْ أَوَّلًا عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ عَلَى سِرْبِ الطَّيُورِ مِنْ حَوْلِهِ، وَفِي النِّهَايَةِ عَلَى الْغَزَالِ فِي مَكَانٍ سَاقِيهِ الْمَقْطُوعَةِ. ثُمَّ تَوَقَّفَتْ يَدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قَرُونِ ذَلِكَ الْغَزَالِ وَقَالَتْ لِحَفِيدَتِهَا: "مَا أَجْمَلُ لَوْ كَانَ بِالْإِمْكَانِ تَجْفِيفَ مَلَابِسِ الطِّفْلِ فَوْقَ تِلْكَ الْقُرُونِ"، فَانْدَفَعَتْ "أَنْ شُوِيَهْ أَرْ" نَحْوَهَا وَاحْتَضَنَتْهَا



وقد سألت دموعها الحارّة، لكنّ حِضْنَهُمَا لم يَكُن قوياً، فعلى أيّ حال كان يَفصل بينهما طفلاً في شهره السادس أو السابع.

أَخَذَت المَطْرُزَةَ "أن شويه أر" معها، وطلّبت من "أن بينغ" أن يعود للمدينة، فاضطرّ لإخبارها بأنه تَقَاعَد، فحدّقت بعينيها فيه وسألته: "هل تمّ فصلك بسبب تغيّيك عن العمل لمطاردة "شين شين لاي"؟"، فهزّ رأسه نافيّاً، وقال: "المحكوم عليهم بالإعدام لن يُعَدَموا رمياً بالرصاص بعد الآن، بل سيتمّ استخدام الحُقنة السامة، وأنا أحبُّ البنادق، لا أحبُّ الحُقن؛ لذلك تَقَاعَدْتُ"، فتنهّدت المَطْرُزَةَ، ثم سألت عن "أن دا ينغ"، لماذا لم يأتِ للمنزل لرؤيتها كلّ هذه المُدّة؟ فأجابها باقتضاب أنه تلقى أوامراً عاجلةً من قادته في فترة مَرَضِها وتمّ اختياره للدراسة في مدرسةٍ عسكريّةٍ خارج البلاد لإعداد القادة العسكريين المهتمين، فرحل دون أن يجد الوقت الكافي لوداع أسرته، ونظراً لأن تدريباته تلك سرّيّة لذلك ليس لديه أيّ وسيلةٍ تواصلٍ مع الأسرة. فسألت المَطْرُزَةَ: "كم سيغيب؟"، ففكّر "أن بينغ" قليلاً، ثم قال: "أعتقد خمسة أعوام"، فغضبَت المَطْرُزَةَ، وقالت: "لماذا كل هذه المدة الطويلة؟ وهل لا يُمكنه تَعَلُّم العلوم العسكرية في بلادنا؟ ماذا لو صار فاسداً في الخارج وتمّ إغواؤه وساعد الأعداء في مُحاربتنا في المستقبل، ألن يُصبح خائناً لقوميتنا؟"، فردّ عليها "أن بينغ" بسرعة: "رغم أننا لا نعلم إلى أيّ دولة ذَهَبَ، إلّا أنّها بالتأكيد دولة صديقة"، فقالت المَطْرُزَةَ بقلبٍ مُنْقَطِر: "عندما يعود بعد انتهاء دراسته، سينعثنى بـ "تلك العظمة العجوز"، فردّ "أن بينغ" بصوتٍ ضعيفٍ: "أني له هذا...".

وقد خشي "أن بينغ" و"أن تاي" أن يُخبر أهالي قرية "لونغ تشان" المَطْرُزَةَ بخبر موت "أن دا ينغ" دون قصْدٍ إذا ما صادفوها؛ لذا قاما بعد أن أعاداها للمنزل من الوحدة الصحية بالذهاب إلى بيوت القرية بيتاً بيتاً لينبّهوهم إن قابلوا المَطْرُزَةَ يُمكنهم التّسامر معها في

أيّ موضوعٍ إلاّ موضوع "أن دا ينغ". أمّا السُّوق الجنوبيّة التي كانت دائماً الدّهَاب إليها فكانت هو الوجهة الأساسيّة لتعليماتهم.

أمسكت المطرزة بإبرتها ثانيةً من أجل طفل "أن شويه أر" الذي قارب على المجيء للعالم، وظلّت تتدرّب يوميًا بمشقّةٍ حتى استطاعت في النهاية أن تمنع يدها من الارتعاش، وأصبحت قادرةً مرّةً أخرى على العمل. فاستخدمت القماش القطنيّ الأزرق الناعم لتطرّز للطفل قُبْعَةً وحزامَ خَصِرٍ وحذاءً، وإذا ما أرهقها التطريز اتّكأت على السرير لتحتسي الشاي وتقلّب الرُوزنامة وتضع علاماتٍ على الأيام التي قد تضع فيها "أن شويه أر" مولودها. كما أخرجت من المخزن المهّد المصنوع من لِحاء شَجَر البتولا الذي استخدمه "أن بينغ" و"أن تاي" من قبل، ونقضت عنه الغبار، واستخدمت الأقلام الملوّنة لإعادة رسم الزُهور الموجودة على الحائط والتي بهتت لونها.

وبمجرد أن عاد "أن بينغ" بادرته "أن شويه أر" بالأخبار التالية: لقد عاد "دان أر دونغ"، طلق زوجته وعاد، وهو راغبٌ في قضاء أعياد العام الجديد مع العمّة "دان سيه" وابنه "دان شيا"، لكن العمّة "دان سيه" منعتهم من دخول المنزل، فنام على القشّ في حظيرة الحمار، لقد تعافى لتوه، ولا يزال جسده ضعيفًا، ولا يوجد مرّجلٌ في الحظيرة، فخشيت العمّة "دان سيه" أن يموت من البرد، وأن تتحمّل هي المسؤولية القانونية وتدخل في قضايا ثانية؛ لذا أبلغت مركز الشرطة لكي تطرده. لكن مركز الشرطة أخبرها أنه وإلّا الطفل؛ لذا فهذا يُعدُّ خلافًا عائليًا، وليس لديهم السُلطة لطرده. وهكذا فشلت تطلعاتها، واضطرت إلى وضع مرّجلٍ صفيحيّ في الحظيرة، على أن يتولى "دان شيا" إيصال الطّعام له كلّ يوم.

فقال "أن بينغ": "يبدو أنه راغبٌ في الرّواج ثانيةً من العمّة "دان سيه"، يبدو أنّ مرضه هذا يستحقّ العناية لو لم يُصبه بالبّله، لكن

اعتقد أنه لا يَحِقُّ لِلْعَمَّةِ "دان سيه" أن تتركه يَسْكُن مع البهائم مهما كان حجم خطئه".

فقالت "أن شويه أر": "لقد أَخَذَت الْعَمَّةُ "دان سيه" الحمارَ إلى الخارج بمجرد أن سَكَنَ "دان أر دونغ" في الحظيرة، قائلَةً إن حمارها طاهرٌ ولا يُمكنُ تركه ليتعلَّم الخُبثُ من "دان أر دونغ"، فهي تَضَعُ أملها على هذا الحمار لكسب المال. كما أعادت لـ "دان أر دونغ" العشرة آلاف يوان خاصته لكي يذهب وَيَسْكُنَ في فُنْدُق. لكنَّ الجميعَ قالوا إنها أَخَذَت الحمارَ كي لا تُزْعِجَ رائحةُ بُرازِهِ "دان أر دونغ"، وأعادَت له النُقودَ كي تجعله يُقدِّرها أكثر".

ففكَّر "أن بينغ"، ربما كان "دان أر دونغ" يستخدم حيلةً تَعْذِيبِ الذَّاتِ كي يجعل الْعَمَّةَ "دان سيه" تستسلم.

استمرَّت عمليات البحث والتمشيط عن "شين شين لاي" إلى نصف الشَّتاء، وشاركَ فيها عددٌ كبيرٌ من قوَّات الشُّرطة، وفتَّشوا القُرى القريبةَ ومناجِمَ الفحم ونقاطَ التَّنقيب عن الذهب ونقاطَ قَطْع الأشجار، مع فَرَضِ مُراقَبَةٍ سَرِيَّةٍ على "شين تشي زا" و"شين كاي ليو"، إلا أنَّ كَلَّ هذا لم يُسْفِرَ عن اكتشاف أي أثرٍ لـ "شين شين لاي". وخلال تلك المدَّة جاء "تشين تشينغ باي" ثلاثَ مرَّاتٍ لقرية "لونغ تشان" لقيادة العمليات، لكنه عاد في كلِّ مرَّةٍ بخيبة أمل. ومع اقتراب أعياد الربيع، تمَّ تسريحُ الفريق، ولم يَبَقْ سوى أفراد الشُّرطة من مركز شُرطة قرية "لونغ تشان"، الذين ظلُّوا كلَّ يومٍ يُفتَّشون الداخلين والخارجين إلى ومن القرية بشكلٍ رَمزِيٍّ مرَّةً أو اثنتين يوميًّا.

وقد لاحظ "أن بينغ" أنَّه مع تراخي عمليَّات البحث عن "شين شين لاي"، بدأ الفَرْحُ على ملامح وجه "أن شويه أر"، ففي الفترة السابقة عندما كان رجالُ الشُّرطة مُنتشرين في القرية، كانت مُقْطَبَةُ الحاجِبَيْنِ بشكلٍ دائم.

ورغم أنها لم تَعُدْ تَقْطُنْ في الورشة، إلا أنها كانت تذهب مرّة كل ثلاثة أو خمسة أيام لتُشْعِلَ النَّارَ هناك؛ فقد كانت تخشى على المسكن أن يتشقق من البرد. وتابع "شين تشي زا" تحركاتها، وما إن يرى باب الورشة مفتوحاً حتى يُسارع بالذهاب لإعطائها بعض الطعام: لحم الخنزير المُقَدَّد، و"الدوفو" المَجْفَف، وأقدام الخنزير بالصلصة، وكبد الخنزير، وغيرها. منها ما هو مطبوخ جاهز، وما هو مُجمّد. فقد رأى أنه مهما كان "شين شين لاي" وُغداً، إلا أن من في بطنها هو من أسرة "شين"؛ لذا يجب عليه أن يتحمّل مسؤوليته باعتباره جَدًّا. ولكنّه لا يجرؤ على الذهاب لمنزل المطرزة لتوصيل تلك الأشياء؛ فهو يخشى أن تغضب العجوز لرؤيته، وقد قال "أن بينغ" إن المطرزة لا تتحمّل أيّ صدماتٍ أو انفعالات.

وفي صباح يوم ٢٣ من الشهر الأخير من العام القمري، قاد "أن تاي" سيارته وسط البرد القارس وجاء إلى قرية "لونغ تشان"؛ لكي يأخذ "أن بينغ" ويذهباً سوياً لزيارة قبر والدهما، لكن "أن بينغ" خشي ألا يتحمّل "أن تاي" رؤية قبر "أن دا ينغ"؛ لذا طلب منه البقاء في المنزل مع أمهما، على أن يذهب هو وحده، وقد شعرت المطرزة بالرغبة من فعله فسألته لماذا لا يدع "أن تاي" يذهب معه؟ فسارع "أن تاي" بالقول إن أخاه يخشى أنه قد تعب من القيادة في طريق شاق من قرية "جويواوين" إلى هنا. فقالت المطرزة: "إن قبر أبيكما هناك، وفي هذا الوقت من كل عام يتوجّب عليكما البرّ به، وإلا فسيعتقد أنني مَعتُ أحدكما من الذهاب إن اكتشف غيابَه، بالإضافة إلى أنكما ستذهبان بالسيارة، ولن تتعبا، السيارة فقط هي من سيتعب".

فهزّ "أن تاي" رأسه مؤمناً على كلامها.

استيقظت المطرزة في الساعة الخامسة فجرًا، وكعادتها في السنوات السابقة أعدت لولديها الأشياء التي سيأخذانها لزيارة المقابر، منها المأكولات التي يحبها "أن يو شوين"، مثل خبز "المانتو" المصنوع من الطحين الأسود، واللحم المكمور، وسمك السلور المطهو على البخار مع فول الصويا، وكذلك خمر الأرز التي يحبها. أمّا "أن شويه أر" فقد صنعت سلّة من النقود الورقية باستخدام ورق القصدير، وطلبت من والدها أن يأخذها ويحرقها أمام قبر جدّها.

وعندما همّ "أن بينغ" و"أن تاي" بالانطلاق ناداتهما المطرزة، وقالت لهما: "سأستغل فرصة أنني لا زلتُ بكامل قواي العقلية وأنكما الاثنان موجودان لأبلغكما بترتيبات ما بعد وفاتي. عندما أموت لا تدفناني في قبر، لو كان حظي جيدًا ولم يُطبّقوا الحرق بعد الموت وقتها فادفوني في الهواء الطلق، أنا أحب أشجار البتولا، لتجعلنا مثواي فوق شجرة بتولا بيضاء، وفي مساء اليوم الأخير من العام وأثناء تناولكم لطعام التجمّع العائلي للعام الجديد اسكبوا بعضًا من الخمر من أجلّي في الفناء الخارجي ونادوني "أمّي"؛ عندها سأتمكّن من شربها، أمّا لو كان حظي سيئًا وعشتُ لسنواتٍ أطول وتمّ تطبيق الحرق بعد الموت، فلا تُقيموا طقوسًا خاصّةً لي باعتبارنا من "الإيلوينتسوين"، بل احملوني إلى المحرقة، ولا تحتفظوا بالرماد، بل انثروه فوق شجر بتولا أبيض فوق منحدر جبليّ مُشمس".

فقال "أن بينغ": "إنك لا زلتِ على قيد الحياة، لماذا تتفوهين بمثل هذا الكلام؟".

فرمقه "أن تاي" بنظرة خاطفة، ثم قال لأمه بلهجة ثقيلة: "لقد حفظتُ كل ما قلتَه، اطمئني، لو جاء ذلك اليوم حقًا فلن نسمح أبدًا بدخولك القبر، أنا أعلم أن قبرك في الهواء الطلق".

فضحكت له المطرزة.

وضع "أن بينغ" و"أن تاي" الأشياء التي سيأخذونها لزيارة القبور في السيارة، بعدها قال "أن بينغ" إنه هو مَنْ سيقود، وطلب من "أن تاي" النزول لرؤية "جيه شي باو" و"جيه شياو باو"، وسيذهب هو وحده؛ فَفَهِم "أن تاي" أنه يخشى عليه من عدم تحمُّل رؤية قبر ابنه، فقال له: "دعنى أذهب، لقد اشتقتُ لولدي، لو ألقيتَ بي هنا هذه المرَّة فسأذهب بعدها وحدي، وأصدُقُكَ القول: إنني قد ذهبتُ خلسةً من قبل، فاطمئنْ، لن أبكي".

نظر له "أن بينغ" ورأى الاشتياقَ الشَّدِيدَ بادياً على وجهه؛ فوافق.

وما إن وصلتَ السَّيَّارَةُ للطَّرِيقِ العامِ حتى سأل "أن تاي" أخاه "أن بينغ": "هل لازلَّتْ على علاقةٍ جيِّدةٍ بتلك المرأة من دار الجِنَازاتِ؟".  
فهزَّ "أن بينغ" رأسه أن نَعَم.

فقال "أن تاي": "إن استمراركما بهذا الشكل ليس بالأمر الجيِّد، فعلى أيِّ حالٍ هي زوجة شخصٍ آخر، رأيتُ أن تبحثَ عن غيرها إن وجدتَ شخصاً مُناسِباً".

فلم ينطق "أن بينغ" بكلمة.

فأضاف "أن تاي": "من حُسنِ الحَظِّ أننا من قومِيَّةِ "الإيلوينتشيون"، ومسموحٌ لنا بإنجاب أكثر من طفل، فلو كان غيرَ مسموحٍ للأسرة أن تُنجبَ أكثرَ من طفلٍ واحدٍ لضعُنا، لقد راح "دا ينغ"، ولا يزال لدينا "دا تشينغ"، والآن أمُّ "دا ينغ" تخشى أن يحدثَ لـ "دا تشينغ" كما حدثَ لأخيه؛ لذا فهي مُصمِّمة على إنجاب طفلٍ آخر، إنها أكبرُ منِّي بأربع سنوات، ما رأيك، هل يمكن لمن في هذا السنِّ أن تحمَلَ؟".

فردَّ "أن بينغ" مازِحًا: "هذا يعتمد على جودةِ بُذورك؟"

فضحك "أن تاي" للمرَّة الأولى منذ فترةٍ طويلة، وقال: "إذن يجب أيضاً أن نرى جودةَ تُربَّتِها"، وعندما سمع "أن بينغ" ضحكته أخرج

ما في قلبه من شكوك، وقال إنه رغم اعتبار ابن أخيه بطلاً، إلا أنه دائماً ما ينتابه شعورٌ بأن هناك ما يُريبُ في الأمر؛ فأهالي قرية "لونغ تشان" لم يَرُوا "لين دا هوا" تَذْهَبُ من قَبْلُ لكي تقوم بالحِجَامَة للمُقَاتِلين، لكنّها ذَهَبَتْ تلك المرّة، وكان مَنْ استقبلها وأعادها "هو دا ينغ"، بالإضافة إلى أن المرأة المدخنة ظهّرت عليها فجأةً علاماتُ الثَّرَاء، وأخَذَتْ دُكَّانًا في السُّوق الجنوبيّة، وتُجَهِّزه الآن لكي تفتتِحه مقهى إنترنت من أجل "لين دا هوا" بعد أعياد العام الجديد. فبسبب عدم وجود إنترنت ذهب "لاو واي" إلى المحافظة مرّتين واشتكى العمدة "تانغ"، كذلك ساندته "ليو شياو هونغ" من نُزُلِ الشَّمس الحمراء، وقالت إن الزبائن عندها غير قادرين على الدُخول للإنترنت، وهذا يُسبّب صعوباتٍ كثيرةً، كذلك كانت لدى القيادات نيّةً لتعميم الإنترنت في القرى والمدن السياحية؛ فلم يَسْتَطِعِ العمدة "تانغ" الوقوفَ في وجه كلِّ هذا؛ وبهذا ستمكّن قرية "لونغ تشان" من الدخول إلى الإنترنت بعد عيد الربيع. وقال "أن بينغ" إنه بالنسبة للوضع الاقتصادي لأسرة المرأة المدخنة يستحيل أن تملك مُدْخِرَاتٍ كثيرةً، وكذلك لم يَرَهَا تذهب لطلب قرضٍ من جمعية الضّمان؛ فَمِنْ أين أتت بنقودٍ مقهى الإنترنت؟

فصّمت "أن تاي" لبرهةٍ، ثم مدَّ يده إلى المِقْوَدِ وضغط بوقِ السّيّارة، وقال: "إنَّ مَصْرَع "دا ينغ" هو بوقٌ صَغَطَ هو بنفسه على مصيره، لقد رَحَلَ وهو مُدْرِكٌ لما يفعله، فدعنا لا نتذكّر سوى مَحاسِنِهِ، لقد مات ولدي، ولا أرغب في سَماعِ المزيد من الأصوات المُزعِجة".

فابتلّت عينا "أن بينغ"، وضغط على بدّال البنزين واندفع نحو الجبل، وتحت هذا الجبل كانت غابة كثيفة، وفوقه أشجار صنوبر مثل سحابة خضراء تعلوها شمسٌ لا تخمد، تلك الشمس انعكست على بقايا الثلج فوق الجبل لتعكس ألوانًا مثل قوس قزح.

يقع قبر "أن دا ينغ" إلى اليسار أمام قبر "أن يو شوين"، وشاهدُه مصنوعٌ من الرُّخام الأخضر، ومكتوب عليه باللون الذهبي. كان شاهده أعلى من شاهد قبر جدّه؛ فصار قبرُه أكثر القبور وضوحًا في مقبرة الشهداء، وبينما "أن بينغ" يضع القرابين على قبر أبيه اكتشف وجود علاماتٍ واضحةٍ على شاهدِ القبر، وهناك مسحوقٌ صخرٌ داخلها، فكان من الواضح أنها صُنِعت باستخدام آلةٍ حادّة؛ فانخلع قلبُه، وسارعَ بالنظر إلى شاهدِ قبر "أن دا ينغ"، فوجدَ علاماتٍ عليه أيضًا، تلك العلامات المنقوشة على شاهدِ القبر غامِقِ اللّون كانت أوضح من تلك الموجودة على شاهدِ قبر "أن يو شوين" الأبيض؛ فسارع "أن بينغ" بالذهاب لتفقد شواهد القبور الأخرى، فلم يجد عليها أيّ علاماتٍ، فقال إن هذا الفعلُ مُوجّهٌ لأسرة "أن"، وعلى الفور تبادر لذهنه "شين شين لاي"، وشعر بحرقان شديدٍ في وجهه كأنّ أحدهم قد خَطَّ فوقه بسكينٍ حادّ.

كما لاحظ "أن تاي" أن تلك العلامات لم تكن موجودةً من قبل، فقد جاء سرًّا للمكان مرّتين بعد دفن ابنه، آخرهما كانت في بداية الشتاء، وعندما لاحظ ارتعاش جسد "أن بينغ" من شدّة الغضب واساه قائلًا: "الناس الآن لا يحقدون على الأغنياء فحسب، بل يحقدون أيضًا على الأبطال، لقد شغلت أسرة "أن" مكانين في مقبرة الشهداء، وهذا بالتأكيد سيثير غيظ الآخرين؛ لذا من الطبيعي أن يخطأوا بعض العلامات".

"بالتأكيد هذا من فعل "شين شين لاي"، هذا الشيء الذي يتوجّب قتله، هذا الوغد لا يزال على قيد الحياة ولم يغادر المكان" قالها "أن بينغ" وسارع بحرق النقود والانحناء لوالده، وما إن انتهى من مراسم الزيارة، وقبل حتى أن يغادر مقبرة الشهداء اتّصل بـ "تانغ ماي" هاتفياً وسألها عن رقم هاتف ابن خالها "تشين تشينغ باي" ليطلب منه أن يأتي سريعًا برجاله، فقد اكتشف آثارًا لـ "شين شين لاي".



كان هذا الوقت هو وقتُ شُيوع الإنفلونزا؛ فكان عددُ زوّار الوحدة الصحية للعلاج كبيراً، فاختلط صوت "تانغ ماي" في الهاتف بأصوات السُّعال، وقالت: "كنتُ سأتصلُ بك، هل لديك وقتُ اللَّيلة؟ هناك أمرٌ أرغب في إخبارِكَ به على انفراد".

"أعطيني رقم هاتف "تشين تشينغ باي" أولاً، أو اتصلي به أنتِ، أخبريه أن يأتي سريعاً برجاله، "شين شين لاي" لم يغادر المكان"، وبينما هو يقول تلك الكلمات، كان "أن تاي" يشدُّ كُمه وهو يقول بصوتٍ خفيضٍ: "ليس من الضروري أن يكون "شين شين لاي" هو مَنْ فَعَلَهَا".

يبدو أن "تانغ ماي" خرَّجت من الوحدة الصحية، حيث حلَّ صوتُ الرِّيح محلَّ أصوات السُّعال، وقالت: "حسنًا، سأتصلُ به حالاً، لكن الليلة لدي أمرٌ مهمٌ لأخبركَ به، أمرٌ متعلِّقٌ بـ "أن شويه أر"، هل يُمكنك أن تأتي لمنزلي عند المنحدرِ العَرَبِيِّ السَّاعة السادسة أو السابعة مساءً؟".

ما إن سمع "أن بينغ" أن الأمر الذي ستُحدِّثه فيه مُتعلِّقٌ بابنته حتى وافقَ على الفور؛ فالكلُّ يعلم الآن أن ابنته حاملٌ؛ لذا فكَّر أن "تانغ ماي" باعتبارها طبيبةً تريده في أمرٍ يتعلِّقُ بابنته، إذن بالتأكيد الأمر له علاقةٌ بالجنين. هل يمكن أن تكون حاملًا في جنينٍ مُشوَّهِ أو ميِّت؟ لو كان هذا هو الأمر فهو على العكس أمرٌ جيِّد، حيث سيُمكنهم عندها التخلُّص من ابن "شين شين لاي". لكنَّ المشكلة أنها في مرحلة متقدِّمة من الحمل، ولا يمكن التخلُّص من الجنين إلا بولادةٍ مُبكرَّة، فماذا لو عرَّضت الولادةُ المبكرَّة حياتها للخطر؟

وفي طريق العودة قاد السيارة "أن تاي"، وبعد أن أوصل أخاه إلى قرية "لونغ تشان" عاد مباشرةً إلى قرية "جويواوين"؛ فوراءه أعمالٌ كثيرة تحتاج لمعالجتها قبل نهاية العام، فأخبر "أن بينغ" أنه سيأتي هو وأفراد أسرته عشيَّة العيد، وسيأكلون طعام التَّجمُّع العائلي مع

أُمّه ثم يعودون في الصباح الباكر من اليوم التالي؛ فهو يخشى إن بقي لوقتٍ طويل أن تتحدّث أُمّه مع زوجته، والتي تعجز بدورها عن التحمّل؛ فتُفشي خبر مصرع "أن دا ينغ".

وعندما وصل "أن بينغ" إلى المنزل ناوَلته "أن شويه أر" طبقًا من الماء النظيف؛ فمن يذهبون لزيارة المقابر يتعيّن عليهم غَسْلُ أيديهم بمجرد العودة للمنزل.

لم تكن المُطرّزة في المنزل، لقد ذهبت إلى اسطبل الخيول.

غسل "أن بينغ" يديه وهو يسأل ابنته: "هل تشعرين بأي وعكة؟".

فوضعت يدها على بطنها وقالت بخجل: "الطفّل تعلم الرّكَل، وهو يُحبُّ الرّكَل ليلاً، فأيقظني بركلاته عدّة مرّات".

فقال "أن بينغ": "في السّابق ركّلتِ أنتِ أُمّكِ بنفس الشكل".

فقالت "أن شويه أر": "لم يكن ينبغي عليّ أن أعامِلَ أُمّي هكذا عندما جاءت إلى الورشة تترجّاني".

فلم يرُدّ عليها "أن بينغ"؛ فهو يعلم أن "تشوان لين يان" تعيش ظروفًا صعبة، لكنه حين يتذكّر تلك المرأة لا ينتابه أيُّ شعورٍ بالألم نحوها، إنّما مُجرّد شعور بالشّفقة.

بعد أن انتهى من غسل يديه، ذهب إلى الاسطبل ليخبر أُمّه أنه سيأخذ الحصان ليذهب إلى الجبل غدًا؛ وذلك كي تُطعم الحصان جيّدًا.

ربّنت المُطرّزة على وجه الحصان، وقالت: "نحن على وشك قضاء العام الجديد، ماذا ستفعل في الجبل؟".

"لقد اختنقتُ من الجلوس في المنزل، سأذهب لاستنشاق الهواء".

"الجوّ باردٌ جدًّا، إن لم تكن تُشفيق على نفسك، فإني سأتألّم من أجل الحصان". لقد أدركت المُطرّزة تمام الإدراك الهدف الذي

سيذهب للجبل من أجله؛ لذا قالت بلا مواربة: "كنتُ أرتب لك حقيبةً ظهرَكَ من عدّة أيام، ورأيتُ فيها سكينَ دَبَحِ خنازير ذات السّبعة إنشآت، لقد نقشتُ بنفسِي النُقوشَ الموجودة على مقبضِها وأعرفُ أنّك أخذتها من "شين تشي زا"، وأعلمُ أيضًا ما تتوي فِعَلُهُ". فقال "أن بينغ": "ألم تركبي الحصانَ أنتِ أيضًا من قبلٍ ودخلتِ إلى الجبل بحثًا عن هذا الوغد الواجب قتله؟".

فأنزكت المطرزةُ يدها عن وجه الحصان واستدارت نحو ابنها وهي ترتعش. لقد كبرت في السنّ وانكمش جسدها، وبدا من الواضح مُعاناتها وهي تحيط وجهه "أن بينغ" بيديها، ثم قالت بعينين مألهاما الدّمعُ: "لو كنتَ ترغب حقًا في الذهاب فيمكنك ذلك، لكن أولًا لا تركب الحصان، ثانيًا لا تأخذ السكين معك، أنا أريد ابني".

كانت تعلم تمام العلم أنه لن يذهب بعيدًا دون الحصان؛ فقد انتشرت الثلوج في البريّة، وإن لم يسر بعيدًا فابنُها في أمان.

كان "أن بينغ" يعرف والدته حق المعرفة، فأثناء جنازة والده احتضن أمّه المكلومة حضنًا شديدًا باعتباره الابن الأكبر. ومن وقتها لم يحتضنًا لسنواتٍ طويلة، ولكنه انحنى وسط الزفّرات الرقيقة للحصان واحتضنها، وتعهّد لها أنه لو أمسك بـ "شين تشي لاي" فإنه لن يُنفذ فيه الإعدام بنفسه، بل سيُسَلّمه إلى مديرية الأمن.

"إذن سأصنع خُبزَ الحبوب المشوي من أجل الحصان الأبيض حتى يأخذك غدًا إلى قلب الجبل، ولكن إياك أن تضربه بالسوط إذا عجزَ عن الرّكض".

فهزّ "أن بينغ" رأسه موافقًا، لكنه في النهاية لم يمتطِ الحصانَ إلى الجبل كما كان مُخطّطًا.

في مساء عيد السنة الصغرى تناول "أن بينغ" "الجياوتزيه"، وغادر المنزل في الساعة السادسة ذاهبًا إلى "تانغ ماي". وقبل أن يغادر كَذَبَ على أمه قائلاً إنه ذاهبٌ لرؤية "دان أر دونغ" بمناسبة عيد السنّة الصغرى، فقالت له: "حسنًا، وانصَح العَمّة "دان سيه" أن عودة الرَّجُل تعني اعترافه بذنبه، فلا تتمادى في عدم الصّفح، فلا يجوز أن تجعله يقضي العيد في الحظيرة".

فوافق "أن بينغ" وغادَرَ المنزل.

المسافة من الضلع الجنوبي الشرقي إلى المنحدر الغربي لا تتجاوز الخمسمائة متر؛ لذا ذهب "أن بينغ" سَيرًا على الأقدام. إن السماء تُظلم مُبكرًا في الشهر الأخير من العام، فالشَّمس تغرب بعد الساعة الثالثة. وقد صار "أن بينغ" يحب السير ليلاً منذ حادثة "أن شويه أر"؛ فالمُشاة ليلاً قليلون؛ وبهذا لن يحتاج لرؤية نظرات التّعاطف في عيون الآخرين. وبمجردُ خروجه من البيت ضربته الرِّياح الباردة، وعَوَت في وجهه الرِّياح الشماليّة الغربية، فسارَع بإنزال واقِي الأذن في قُبَعته وإلّا تساقطت أذناه من شِدّة البرد إن سار هكذا حتى المنحدر الغربي. إن درجات الحرارة المنخفضة التي تصل إلى ثلاثين أو أربعين درجة تحت الصّفر هي أمرٌ معتادٌ بالنسبة لسكّان قرية "لونغ تشان". وكانت السماء مُظلمةً تمامًا، لا يظهر فيها أي نجم، وبدا أن الثلوج ستساقط ثانيةً. وعندما سار "أن بينغ" حتى وصل إلى طريق "لونجي" وسط الرِّياح الباردة كانت ندفات الثلج قد بدأت في التّساقط، فانعكست أضواء صَفّ أعمدة الإنارة بالشارع على ندفات الثلج المتراقصة في الهواء بين الأعمدة فلمعت مثل الكريستالات.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يذهب فيها "أن بينغ" إلى منزل "تانغ ماي"، وقد فَتَحَتْ له البابَ واستقبلته تحت الضّوء الدافئ

بابتسامة عريضة وهي ترتدي بلوقر من الكشمير الأخضر فبدت مثل شجرة صفصاف في الربيع.

تَوَجَّس "أن بينغ" قليلاً، فمجرد دخوله من الباب لاحظ أن المنضدة الصغيرة بغرفة الضيوف عليها مأكولات، والمنزل تفوح فيه رائحة بلوط عطرة خفيفة، فبادر بالتوضيح أنه تناول طعامه بالفعل، وسأل لماذا لا يرى "تشين يوان"؟ فردت "تانغ ماي" بلا مبالاة أن "تشين يوان" قد نامت؛ فهي تُصاب بالنعاس بمجرد تناول الطعام الشهي.

هذا الكلام جعل "أن بينغ" مثل من خطأ في حقل ألغام، فلم يجرؤ على التوغّل أكثر، بل جلس بحذرٍ على مقعدٍ صغيرٍ مُخصَّص لارتداء الأحذية بجوار الباب، لقد أراد بفعله هذا أن يُرسل إشارة خفيفة لـ "تانغ ماي" أنه سيرحل فوراً بعد أن ينتهي من سماع قصتها. وعندما رآته "تانغ ماي" متوتراً هكذا ابتسمت، وقالت: "أنا لست قاضياً، وأنت لم تأت للاستجواب، لماذا تجلس على المقعد الصغير هذا؟".

زادت كلمة "أنت" التي قالتها من توتره؛ ففي السابق كانت دائماً تناديه "العم أن".

لكنه ردّ عليها: "لديّ أمورٌ أخرى بعد قليل، فلتُخبري "العم أن" الآن: ما خطبُ "أن شويه أر"؟".

فقالت بعناد: "إن لم يدخل "العم أن" ليجلس بالداخل فلن أتكلّم".

شعر "أن بينغ" بالراحة قليلاً عندما سمع كلمة "العم"؛ فخلع قُبَعته وحذاءه الضخم، وانتعل شبشباً ونهض ببطءٍ ودخل للغرفة، ثم جلس بجوار مائدة الطعام المصنوعة من الخشب الأحمر. كانت هناك زجاجة خمر عليها وسجائر وأربعة أطباق من المزة، هي فول سوداني مسلوق، وسمك صغيرٍ حارٍ، ولحم بالصلصة، وأوتار قَدَم غزالٍ

مُحَمَّرَة، وهناك أيضًا كأسًا خمريًّا من الفَخَّارِ المُرَيَّنِ بالرُّهُورِ موضوعان متقابلين ومملوئين.

"لتشرب كأسًا أولًا أيُّها "العم أن؟".

"هل اتَّصَلتِ بابنِ خَالِكٍ وأخْبَرْتَهُ أَنْ "شين شين لاي" لا يزال يَنْشَطُ في المنطقة؟".

فهزَّت رأسها بِنَعَم.

فرفع "أن بينغ" كأسه، وقرعًا كأسيهما ثم أفرغها في جوفيهما.

ثم قالت "تانغ ماي" وهي تصبُّ الكأس الثاني: "أيُّها "العم أن"، سأخبرك بأمرٍ "أن شويه أر" بعد أن تنتهي من الكأس الثالث".

واقفها "أن بينغ" بهزَّةٍ من رأسه، وسارَعَ بشربِ الكأس الثاني.

فضحكت وقالت: "لا يُمكنُكَ شُرْبُ الخَمَرِ فقط دون تناوُلِ بعض الطعام، لِتَتَذَوَّقَ ولو القليل لِتَخْتَبِرَ مهارتي في الطبخ، هل يمكن أن أفتتحَ مَطْعَمًا في المستقبل؟".

التقط "أن بينغ" عِصِيَّ الطعام، وتذوَّقَ كلَّ نوع، وأثنى كثيرًا على أوتار الغزال المحمَّرة، ثم بادر بصبِّ الكأس الثالث لنفسه، وشربَه حتى آخر قَطْرَةٍ، ثم وضعه أمامها كي ترى قاعه كأنه يهديها زهرة.

فابتسمت "تانغ ماي" وهزَّت رأسها رافِضَةً، وقالت: "لقد قُلَّتِ إننا سنشرب ثلاثة كؤوس سوياً، ما تحتسيه وحدك لا يُحتَسَب".

فاضطرَّ "أن بينغ" إلى صَبِّ كأسٍ آخر لنفسه، ثم قرع كأسها الثاني بكأسه الرابع.

وعندما رآته "تانغ ماي" يعقد حاجِبِيه وتبدو عليه علاماتُ عدم الرِّضا قالت: "انس الأمر، لن أضغط عليك أكثر من هذا"، ثم أمسكت كأسها وشربَت الكأس الثاني لها كُلُّه، وقالت: "ما أريد إخبارك به هو

أَنَّ والدَ طفلٍ "أَن شويه أر"، هذا المدعو "شين شين لاي"، هو ابن خالي، هو أَخٌ شقيقٌ لـ "تشين تشينغ باي".

فذهل "أَن بينغ"، كأنه قد تلقى ضربةً قويَّةً بعضًا غليظةً فترجرج دماغه، وحدَّق في وجه "تانغ ماي" وظلَّ هكذا لِبُرْهَةٍ عاجِزًا عن النُّطق بكلمة.

"هذا ما أخبرني به ابن خالي "تشينغ باي" بلسانه، ولا أحد يعرف هذا الأمر من خارج عائلتنا".

هنا عَجَزَ "أَن بينغ" عن الجلوس في مكانه، فتناوَلَ سيجارَةً من العُلبَةِ وأشعلها وسَحَبَ منها نَفَسًا عميقًا، ثم سار نحو النَّافِذَةِ الشَّمالية وتطلَّع إلى زهور الصَّقيع الملتصِّقة على الرُّجاج، وسأل وظهره لـ "تانغ ماي": "أنتِ لا تختلقين القصص، أليس كذلك؟".

"أنا لسْتُ "دان أر دونغ"."

فصمت "أَن بينغ" ثانيةً، ثم سأل: "لو فتحتِ النَّافِذَةَ في الصَّيف، هل يُمكنك سماعُ هدير مياه نهر "جيلوا"؟".

فردَّت عليه برِقَّةً: "عندما تفيض مياه نهر "جيلوا" في الصَّيف يمكن سماعُها حتى دون فتح النافذة".

رفع "أَن بينغ" يَدَه وأطفأ سيجارته في زهور الصَّقيع على الرُّجاج، ثم لفَّ جسده وسألها بصوت مرتعش: "أبوه هو خالك، فمَن هي أمُّه؟".

"مُثَقِّفة من "شنغهاي" جاءت إلى هنا للتدريس"، ثم أضافت بعد صمتٍ قصير: "لقد ماتت".

"مَنبَعُ الشَّرِّ" قالها ثم عاد وجلس أمام المائدة ثانيةً، واستطرد: "لقد فَهِمْتُ الآن، "تشين تشينغ باي" جاء بنفسه لمتابعة القبض على "شين شين لاي" ليس من أجل تحقيق العدالة للمَجني عليهم،

ولكن من أجل كَلِيَّةِ "شين شين لاي"، أليس كذلك؟ لقد سَمِعْتُ  
أَنَّكَ الوحيدة من الأقارب التي وافَقْتَ على التَّبْرُع بِكَلِيَّةِ له، أليس  
كذلك؟".

لكن "تانغ ماي" لم تَرُدِّ، بل ارتشَفَتْ من كأسها.

ألقي "أن بينغ" بعُقبِ السَّيْجَارَةِ المَبْتَلِّ في المنفضة، وقال: "أعلم  
لماذا أخبرتني، أنتِ تَخْشِين أَنِّي لو قَبَضْتُ على "شين شين لاي"  
وقتلته فلن يَجِدَ خَالُكَ كَلِيَّةً حَيَّةً، لقد أدركتُ أيضًا لماذا قالوا في  
أثناء عمليات البحث والتمشيط نريده حيًّا وليس ميِّتًا".

"معنى إخباري لك بهذا الأمر عكس ما فهمته أنت تمامًا"، ثم  
وضَعَتْ كأسها، وأضافت: "لأن ابن خالي قال إن "شين شين لاي" حتى  
لو سَلَّمَ نفسه فإن حياته ستكون الثَّمَنَ، هو لا يريده حيًّا، لكن  
بالطبع يريد الإبقاء على كليته".

"هذا اقتراح خالك؟"، ثم أضاف "أن بينغ" ببرودٍ: "خُطَّةٌ في منتهى  
الذكاء".

"هذا اقتراح ابنِ خالي، سيستخدم ابنُ خالي كَلَّ الطَّرْقِ كي يموت  
"شين شين لاي" سريعًا بعد القبض عليه، وأنا أرى أن هذا ليس عَدْلًا،  
رغم أَنَّهُ بالفعل يستحقُّ الموت، وأعتقد أَنَّهُ رَجْمًا سَتُغَيَّرُ رأيك بعد  
أن تعرف مصيره إذا وَقَعَ في أيدي الشرطة، فهو الآن والِدُ طفل "أن  
شويه أر". وهذا أيضًا يُعَدُّ إنقاذًا لـ "تشين تشينغ باي"، فأنا لا أرغب  
في رؤيته يهوي إلى الحَضِيضِ مثلي، إنَّ العيش كمنبَعٍ للشَّرِّ هو أمرٌ لا  
يُطاق".

ظَنَّ "أن بينغ" أنها تقصد علاقتها مع القائد "وانغ"، فتذكَّرَ علاقته  
هو مع "لي سو تشين"، وهي أيضًا علاقَةٌ آثَمَةٌ؛ لذا قال وقد مسَّ  
الأمرُ شِغافَ قلبه: "تلك الأمور بين شخصين أحيانًا لا تكون واضحةً.  
وأرى أن القائد "وانغ" في علاقته مَعَكَ لا يريد اللُّهُوَ فقط. بالإضافة



إلى أن تَبَيَّنَ لـ "تشرين يوان" ومُعَامَلَتَهَا كَأَخْتٍ لِكَ هُوَ أَمْرٌ يُقَدَّرُهُ  
الجميع، لا وجودَ لشخصٍ كامل بين البشر".

نظرت له "تانغ ماي" بنظراتٍ ثابتة، وارتعشت شفتاها كأنها  
تريد التَّفَوُّهُ بشيء ما لكنها عاجزةٌ عن ذلك، فنهَضت من مكانها  
وأغلقت المصباح الخشبيَّ سُداسيَّ الزوايا الموضوع على المائدة، ولم  
يَبْقَ إِلَّا الضَّوؤُ الخافِيفُ المُنبَعِثُ من مصباح الحائط على شكل شمعةٍ،  
المعلَّقِ فوق الحائط الشمالي؛ فغرقت العُرْفَةَ في الظلام، ثم عادت إلى  
المائدة وابتسمت ابتسامَةً حزينةً، وأشعلت سيجارةً تلو الأخرى حتى  
سعلت، ثم صَبَّتْ لِنَفْسِهَا كَأَسِينٍ من الخمر، ثم أمسكت بعصوان  
الطعام ووضعتهما معًا لتُشكِّلَا صليبيًا، وقالت بصوتٍ مُرتِعِشٍ: "أنا  
أحملُ صليبيًا على كاهلي، أنتم لا ترونه، لكني سأحمله طوال حياتي".  
فانتفض قلبُ "أن بينغ" وسألها: "هل ارتكبتِ ذنبًا؟".

فقالت بصوتٍ مُنتحِبٍ وَقَوِيٍّ خائِرةً: "أعظمُ ذَنْبٍ في العالم، ذنب  
تَعَجَزَ الشَّيَاطِينُ حتى عن ارتكابه، إِنَّكَ شُجَاعٌ؛ فقد أعدمَت بالرِّصَاصِ  
الكثير من الناس، أرجو ألا يُفَزِعَكَ كلامي". ثم قالت وهي تضغط  
على كلِّ كلمةٍ من كلماتها: "أنا السَّبَبُ في حالة "تشرين يوان" هذه".  
فقال "أن بينغ" بتلقائيةٍ: "مستحيل، أنتِ تُعامَلِينها بشكلٍ جيّدٍ".

"انتهزُ فُرْصَةَ الشُّجَاعَةِ التي انتابتني الآن ودعني أحكي لك؛ ربَّما  
يُخَفِّفُ الحديثُ مع أحدهم ذلك الجِملَ عن قلبي، فلا يوجد شخصٌ  
في العالم يعرف بهذا الأمر".

ثم نَحَّتْ عَصَوَانَ الطَّعامِ جانِبًا، وأمسكت بزجاجة الخمر، وشربت  
كلَّ ما تبقي فيها، ثم غطت وجهها بيديها، وأصدرت نحيبًا متألِّمًا،  
وبعد فترة ليست بقصيرة، وضعت يديها، وجاهدت كي تجلس مُعتدلةً  
بموازاة المنضدة، ثم نظرت إلى "أن بينغ" وقالت بصوتٍ ضعيفٍ: "تشرين  
يوان" هي أفضلُ صديقةٍ لي في كلية الطب، لقد كُنَّا نَسكنُ في غرفة

واحدة، حيث كان سريرها أسفل سريري، وكُنّا نذهب للمحاضرات سوياً، ونذهب للمطعم سوياً، ونذهب للمعمل سوياً، كانت علاقتنا جيّدة كأننا شخصٌ واحد، وكانت من أسرة فقيرة، لكنها تتمتع بعزّة نفْسٍ، وعندما كنتُ أدسُّ لها النُقود في محفظتها خلسةً كنتُ لا أجرؤ على دَسِّ فئاتٍ كبيرة حتى لا تكتشفها. وفي ربيع عامنا الجامعيّ الرَّابع، عندما ذهبنا للتدريب العمليّ في مصنع للأدوية وقعنا في نفس الوقت في غرام طالبٍ دراسيّ عليا بقسم المشروعات البيولوجية، وهذا الشابٌ اختارها هي في النهاية، لا تنظر إلى هيتها الحالية، لقد كانت وقتها أجمل طالبةٍ في قسمنا؛ لها وَجْهٌ طويلٌ بيضاويّ، وشعرٌ طويلٌ، وجَسَدٌ ملفوفٌ، ثُمَّ تَوَقَّفت "تانغ ماي" عن الحديث لتتنحج بقوةٍ كأنها تخشى ألا يسمع "أن بينغ" الكلمات التّاليّة بوضوح، ثم قالت: "إن الهزيمة في معركة الحُبِّ على يد "تشين يوان" جعلتني كالمجنونة، لقد حَقَدْتُ عليها، وكرهتها، فسَرَقْتُ من المعمل مُرْكَبًا كيميائيًا سامًا، ودَسَسْتُهُ على ثلاث مرّاتٍ في كوب الماء خاصّتها، وبعد أن شَرَبَتْ الماء المخلوط بذلك المُرْكَب الكيماي، صارت لا تنام ليلاً، وتسرح بعينها، وضَعَفَتْ ذَاكِرَتُهَا وتَسَاقَطَ شَعْرُهَا، وصار جَسَدُهَا يرتعش، وتدرجياً أَصْبَحَتْ لا تتعرّف على الأشخاص؛ فاضطرت لترك الدّراسة والعودة للمنزل، وبعد أن صارت "تشين يوان" ليست هي "تشين يوان" السّابقة تخلّى عنها ذلك الشاب، وصار يجري خلفي أنا، لكنني رَفَضْتُهُ. "أن بينغ"، هل هناك وجودٌ للحُبِّ الحقيقيّ في هذا العالم؟".

"يا للسّماء...يا للسّماء... هل استطعتِ حقًا القيام بهذا الأمر؟".

فهزّت "تانغ ماي" رأسها أن نَعَم، والدَّمْعُ يلمع في عينيها.

فقال ساخرًا: "لقد أَدَيْتُهَا، ثم أَحَسَنْتِ إليها، وأحضرتها لجوارِك، هل لأنك تخشين أن تعود لها ذَاكِرَتُهَا ذات يومٍ فتفضحك؟".

فأطرقت "تانغ ماي" برأسها، وقالت: "كيف لها أن تستعيد ذاكرتها، لن يحدث هذا أبداً. لقد أصابني تأنيب الضمير والتدم عند التخرج فذهبت لرؤيتها في منزلها، كان شعرها منكوشاً وملابسها مهترئة فبدت مثل الشحاذين، أما زوجة أبيها فكانت تُعاملها مثل الحيوانات؛ فلم أحتمل رؤيتها هكذا، إن جحيمها هو نفسه جحيمي؛ لذلك أقسمت أن أحميها طوال حياتي، وأن أبقِيها إلى جوارِي".

هنا شعر "أن بينغ" بالبرودة تحيط به، فهض ثانيةً وسار إلى النافذة الشمالية. كان ظلام الليل قد ازداد تدريجياً، وتصاد الصقيع طبقةً فوق طبقة من أسفل النافذة، وتفتحت زهور الصقيع في منتصفها، وبدا صوت الرياح المتسرب عبرها مثل فحيح الأفاعي التي أفاقت من بياتها الشتوي، وترغب في الاندساس للداخل. فضغط "أن بينغ" بكفيه على النافذة، فارتسم فوقها أثر كفين مُبتلتين أضيفتا إلى الفتحة الأشبه بعود البصل التي أحدثها بعقب سيجارته قبل قليل، كذلك استفاق عقله كثيراً. ولم تنتظره "تانغ ماي" كي يستدير نحوها، بل سارت هي تجاهه واحتضنته قائلةً: "أن بينغ"، أنا مُجرمة، وقد اعتقدت أنني سأذهب بهذا السر إلى القبر، لكنني طلبت منك المجيء لأنني أقدسك منذ صغري، لقد صارت "أن شويه أر" إنسانةً عاديةً، لكنني على ثقة أنه يُمكن لي أنا وأنت أن نُنجب جنياً؛ فلديك تلك الجينات في جسدك، وأنا لن أستطيع الزواج أبداً بسبب مُرافقتي لـ "تشين يوان"، من فضلك أعطني تلك الجنينة لتُصاحبني أنا و"تشين يوان"، لقد جعلتها لا تكبر، والجنينات أيضاً لا يكبرن، ما الجيد في أن نكبر؟ فقط أم بلا نهاية". قالتها "تانغ ماي" ثم انهمرت في البكاء.

فقال "أن بينغ": "ألا تخشين أن أزج بك في السجن؟".

"أنا بالفعل في سجن، الجبال التي تحيط بي من الجهات الأربع هي كالجدران العالية بالنسبة لي، والضباب هو سياج حديدي خفي،

أما ذلك المنزل الخشبي فهو ززانتني، وأمام "تشرين يوان" تصبح عقوبتي سجنًا مدى الحياة". قالتها وقد جعلت من ظهره حائطًا تضرب به رأسها وهي تصيح وتبكي.

إن يدي "تانغ ماي" طويلة، فقد احتضنت "أن بينغ" من الخلف ووصل كفيها إلى أمام صدره، فشعر هو بصعوبة في التنفس، هاتان اليدان كانتا مثل أغلالٍ باردة تُطبق عليه وتُصييه بالفرع. وعندما نزعهما عنه بالقوة شعر كم هما باردتان ويابستان، رغم أن ملامح وجهها لا تزال نضرةً شابةً.

التفت "أن بينغ" بجسده ونظرَ إلى "تانغ ماي". ورغم الضوء الخافت في الغرفة إلا أن بريق الدمع في عينيها، وألمها وندمها وحزنها، كل هذا لمع بوضوح على وجهها، وبدا بلوفر الكشمير الأخضر الفاقع على جسدها أخضر غامقًا، أما نهداها المنتصبان جرأً تنفُسها المتسارع فقد جعلًا ذلك البلوفر كالبحر الذي أصابه المدُّ فصارت أمواجه هائجةً مضطربة، فزقرَ "أن بينغ" زفرةً عميقةً، وقال: "لقد دمّرت "تشرين يوان"، ودمّرتِ نفسك أيضًا".

فقالت: "لقد دمّرتها، لكنها أكثرُ سعادةً مني، لقد رأيتَ بنفسك أنها غرقت في نوم عميقٍ لمجرد تناولها طعامًا شهياً، ولن تستيقظ حتى لو دخلت دبابَةٌ إلى المنزل، أما أنا، فأتناول المُنوم كلَّ ليلة ولا أتمكّن من النوم حتى لثلاث أو أربع ساعات مُتصلة، هل يجب على المرء أن يصير أبله حتى يعيش بلا أم؟".

فوضع "أن بينغ" يديه برفقٍ على رأسها، وربّت عليه، ثم قال: "إنك حقًا أكثرُ طفلةً بلهاءً في قرية "لونغ تشان"، ثم سحب يديه ثانية واغرورقت عيناه بالدموع.

فنظرت له باستجداءٍ، وقالت: "الأطفال البلهاء كلُّهم مثيرون للشفقة، ألا يمكنك أن تحبّ تلك الطفلة البلهاء؟".

فتراجَعَ للخَلْفِ وهزَّ رأسها أن لا.

فَهَاوَتْ بجسدها على الأرض، وقالت بضحكةٍ باردة: "إنَّكَ حَقًّا مُنْفَذُ أَحْكَامِ إِعْدَامٍ صَالِحٌ، لا تخشى إغراءات الجمال، إنك تعتقد أنَّكَ شَخْصٌ سَامٍ، شَخْصٌ لا يعرف أنَّ الدنيا هي الجحيم، اغرُبْ عن هنا، اغرُبْ إلى الرِّيحِ والثَّلُوجِ".

وعندما سار "أن بينغ" مُتوجِّهًا نحو الباب دخلت "تانغ ماي" في نوبة قيءٍ عنيفة، لكنه لم يتردَّد ولم يلتفت برأسه نحوها، وذلك رغم الدموع التي ملأت عينيه. لقد فكَّر في أنها ستقيء الليلة حتى تُنظَّفَ نفسها من الداخل، وربما جعلها هذا أفضلَ حالًا قليلًا؛ فارتدى حذاءه واعتمر قُبَعَتَهُ ودفع الباب على عَجَل.

كانت الثلوج تزداد قوَّةً، وامتلأت أفرعُ شجر الفاكهة بفناء منزل "تانغ ماي" بالثلوج المعلقة والتي انعكست عليها أضواء مركز الشرطة، فصارت أشبه بأشجار الكريسماس. ازداد الثلج، وازدادت الرِّيحُ أيضًا؛ لذا شعر "أن بينغ" وهو يسير من المنحدر الغربي في اتجاه الضلع الجنوبي الشرقي أن الرياح الشمالية الغربية خلفه كأنها زلَّاجَةٌ ثلوجٍ عملاقة تدفعه بقوَّة.

إن قرية "لونغ تشان" في الليالي العاصفة الثلجية تخلو من المازة، وكذلك من السيارات، ولا يبقى فيها سوى أضواء البيوت التي تلمع داخلها أضواءً دافئة. أضواء النيران تلك تبدو أشبه بالنجوم التي سقطت في عالم البشر، وفي تلك الليلة اشتاق "أن بينغ" بشدَّة ليدِّي "لي سو تشين"، وتعتَّش لرؤيتها.

وما إن وصلَ للمنزل حتى قال لأمه إن لديه أمرًا عاجلاً ويتوجَّب عليه العودة للمدينة، فلم تسأله المطرزة عن الأمر، بل ناوَلته قُفَّازين سميكين من جلد الطَّباء، وكوفيَّة من فِراء الأرناب، ونصحتَه ألا يركب الدَّرَاجة النَّارِيَّة؛ فالثلوج كثيفة، والرياح عنيفة، ولو تجمَّد وقودُ

الدَّرَاجَة في الطريق ستتعطّل، ومن الأفضل امتطاء الدَّرَاجَة العادية؛ فاستجاب "أن بينغ" لها، وذهب للفناء، ودفع الدَّرَاجَة وركبها مُتَوَجِّهًا إلى محافظة "تسينغشان".

حين تتساقط الثلوج في منطقة "سونغشان" إلى حدِّ مُعَيَّن تتبّعها الرِّياح الشماليّة الغربيّة مثل الحصان البرِّي الجامح، فلا تكسر زهور الثلوج المتساقطة فحسب، بل تقلب الثُّلُوج المُتراكمة على الأرض لتصنع منها دوّاماتٍ لتلتقي في الهواء موجتَيْن من الثلوج، يُضاف لهما مساندة من الرياح لتُشكّل كُلهَا عاصِفَةً ثلجيّةً، وقتها ينتشر في الجوّ مسحوقُ الثَّلج، وتتكوّم على الطرقات أكوامُه فيصبح السَّيرُ صعبًا، لكن "أن بينغ" ترعرع وسط الجبال؛ لذا فهو يستطيع أن يجعل عجلات الدَّرَاجَة تُلْفُ حتى لو كان الطريق مُعْطَى بالسكاكين الحادّة، اعتمادًا على خبرته الحيّاتيّة وسط الجبال والغابات لسنواتٍ طويلة، وعلى انعكاسِ الضّوء على الثَّلج. بالطبع كان ركوب الدراجة في مثل هذا الطقس أشبه بالعناد مع السَّماء؛ ممّا جعله يتكبّد العناء والمشقّة. وقد تشكّلت على الطريق أكوامٌ عالية من الثلوج؛ لذا اضطرَّ أكثر من مرّةٍ لأن يحمل درَاجَتَه كي يتجاوزها، وعندما وصل إلى مقاطعة "تسينغشان" كان الليل قد انتصف، ففكّر أنه ليس من السَّهل الذهاب لمنزل "لي سو تشين" في ذلك الوقت؛ لذا عاد إلى مَسكِنه، وبمجرّد أن دخل من الباب أرسل إليها رسالةً نصّيّةً: "لقد عدتُ، العاصِفَةُ الثَّلجيّةُ الليلةُ عنيفةٌ، أشعر بالبرد، وأشتاق إليك بقوة"، لكنها لم تُردِّ، ففكّر أنها قد تكون قد استغرقت في النّوم بعد انشغال يومٍ كامل.

إلا أنه بعد ساعة، فتحت "لي سو تشين" باب منزله باستخدام مفتاحها، وبعد أن دلّقت إلى المنزل لم تفتح الأنوار، وإنما خلعت ملابسها بالكامل في الظلام، وداست بقدميها على ملابسها المتناثرة في

المكان وتحسّست طريقها نحو السّرير ورفّعت الغطاء، فاحتضنها "أن بينغ" بقوة، وقبّل يديها الباردتين.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تقضي فيها "لي سو تشين" اللّيل في منزل "أن بينغ"، إلا أن تلك الليلة جعلتهما يدفعان ثمناً باهظاً.

## 14

### تِرْسَانَةُ أَوْرَاقِ الْبَامْبُو

في قرية "لونغ تشان" لا تنتهي أعياد العام الجديد إلا مع انتهاء الشهر الأوّل منه.

وفي هذا العام كان أكثر مَنْ أَكَلَ وَشَرِبَ كيفما شاء ليس الشباب، بل كبارُ السَّنِّ، فتجد مَنْ في السَّبْعِينَ أو الثَّمَانِينَ يأكلون بِشْرَاهَةِ "الجياوتزيه"، ومكرونة اليوم السابع من الشهر الأوّل، وأطباق "تانغ يوان" الخاصّة باحتفال اليوم الخامس عشر من الشهر الأوّل، وذلك بِعَضِّ النَّظَرِ عَمَّا إذا كانت أجسادهم قَادِرَةً على هَضْمِهَا أم لا، وكانوا في السابق يشربون بالكأس، أما الآن فصاروا يشربون بالطَّبَقِ فلا يَمُرُّ عليهم يومٌ دون أن يَسْكُرُوا، وفي السابق كانوا حين يأكلون الفاكهة والخضروات لا يُدَقِّقُونَ كثيرًا في اختيارها، بل يأكلون ما يقع في أيديهم، أمّا الآن فالأمرُ اِخْتَلَفَ، فلا يأكلون التفاح إذا كان به نِذْبَاتٌ، ويرمون الكمثرى إن أصابتها أيُّ خبْطَة خفيفة، ولا يضعون في فمهم الموز إن



اسودَّت قِشْرَتُهُ. إنهم لا يأكلون سوى الفاكهة ذات الألوان الجميلة والقشرة النضرة المملئة بالعصارة، وبالإضافة للطعام والشراب، يُدقِّقون أيضاً في الملابس والأغطية، فيطلبون من أبنائهم وبناتهم السراويل الصوفية، والأحذية الجلدية المبطنة بالقطن، والقُبَعات المصنوعة من فراء القنادس، والسُّترات الملوّنة المصقولة، والأغطية الحريرية، وأغطية السرير المصنوعة من الصوف، والوسائد المطرزة بالورود. وبالطبع كان الأبناء والبنات يُلبُّون رغباتهم؛ لأن العيديات التي يعطيها كبار السنّ للأحفاد والحفيدات من النقود التي أدخروها لدى مؤسّسة الضمان صارت أضعاف ما كانت عليه في الماضي.

كان المُسنُّون يأكلون ويشربون هكذا بكل طاقتهم لأنهم يشعرون أنه العيد الأخير لهم في الدنيا؛ لذا وَجَبَ التَّمَتُّعُ به بقدر الإمكان. ومع انتهاء الشَّهر الأوَّل من التقويم القمريِّ بدأ شهرُ مارس في التقويم الميلادي، فصاروا أقرب وأقرب من الأوَّل من أغسطس الذي سيُطبَّق فيه الحرق بعد الموت؛ لذا بعد الانتهاء من تناول رأس الخنزير في اليوم الثاني من الشهر الثاني القمري، بدأ هؤلاء المُسنُّون الراغبون في الدَّفن داخل توابيت تحت الأرض في تقليل طعامهم وشرابهم؛ فهم يعلمون أن الجسد مثل مصباح الزيت، ووقوده هو الطعام، فلو قلَّتْ زيتته فلن يشتعل لفترة طويلة. لقد عزموا تمام العزم على هذا "الانتحار الجماعي" في مواجهة تغيير سياسات الدَّفن؛ لذلك عندما بدأ الجوُّ في الدفاء تدريجياً، على العكس منه، امتلأت وجوه المُسنِّين بلمسة باردة؛ فالمصابون بداء السُّكري تعمَّدوا تناول الكثير من الحلوى يومياً حتى صاروا كالعُشبة الجافَّة في مهبِّ الرِّيح، والمصابون بمشاكل في الكبد صاروا يشربون الخمر بدلاً من الشَّاي إلى أن يتقيَّؤوا، فصارت وجوههم كأنها لُصق عليها ورقُ زينةٍ أصفر. أمَّا الذين يعانون من مشاكل في القلب فصاروا يبحثون يومياً عمَّا يُغضبهم. لكنهم في نفس الوقت كانوا يرغبون في تركِّ ذكرياتٍ جيِّدة

لمن حولهم؛ لذا كانوا لا يبحثون عما يُغضبهم في البَشَر، ولكن في الحيوانات، فتارةً يغضبون أن الكلب لم يَهْزُ ذيلَه حين يراهم، أو أن الأبقار تُحدِّق فيهم، أو أن ثُغَاء الغنم تجاههم لم يَعُد رقيقًا كما كان، بوجهٍ عام، كانت الحيوانات تُغضبهم دون أن تفعل شيئًا، حتى يتطايَر الشَّرُّ من أعينهم وترتعش أجسادهم، أمَّا مَنْ يعانون من مشاكل في الرئة، فحبسوا أنفسهم داخل عُرفٍ صغيرة، مُجاهدين كي يُدخِنوا سَلَّةً كاملة من التَّبغ في اليوم، أمَّا الأكثر رُعبًا فكانوا هؤلاء المصابين بمشاكل في الأعصاب، والذين كانوا في الماضي يتمكّنون من إغماض أجفانهم لثلاث أو أربع ساعاتٍ فقط في الليل، أمَّا الآن فقد عزفوا تمامًا عن النوم، وصاروا يجلسون أمام النافذة بأعين مفتوحة، قائلين إنهم بهذا سيَجفِّفون زيت أجسادهم تمامًا ويضيفونه إلى القمر، ذلك المصباح المُعلَّق في السماء، لعلَّ وعسى أن يُكتَب هذا في سِجَل أعمالهم الصالحة بعد أن يصعدوا للسماء.

تلك التَّصَرُّفات المُتهوِّرة من كبار السَّن قَضت مضاجعَ أبنائهم وبناتهم، لكنها أسعدت "دان آر دونغ" جَمَّ السَّعادة؛ فقد هجم عليه الإلهام بسببها، واستخدمها كخيَطٍ لبدأ وهو في الحظيرة كتابةً روايةٍ طويلة، ووفقًا لما أفشاه "لاو واي" الذي كان على عِلْمٍ بالأمر فإنَّ اسم الرواية كان "مُذْكَرات الصُّعود للسماء". لقد اندفع في كتابتها بسرعة ثلاثة إلى أربعة آلاف رَمزٍ في اليوم، ولم يُصَب بالتَّعب، بل على العكس، صار أكثرَ حيويَّةً، فَتَحَسَّن لَوْنُ وجهه، وصارت مشيئته أسرع، وأصبح في حديثه قُوَّة، وقال إنه بعد انتقاله إلى اتِّحاد الآداب والفنون بمنطقة "سونغشان"، ورغم اشتغاله بالكتابة هناك، إلَّا أنه كان يشعر دومًا بجفاف قلمه، أمَّا الآن فالأمر اختلف، كأنَّ هناك جِنِيًّا في القلم يجعله نَرِيًّا ومُمْتَلِيًّا. فاندفعَت الجُمَل الرشيقة الجميلة واحدةً تلو الأخرى كجدول الماء الصافية. ورغم أن العمَّة "دان سيه" لم تسمح له بدخول المنزل، إلَّا أنها بعد العيد وبعد أن بدأ هو في كتابة الرواية لم تطرُدُه،

وإنما جاءت مع "دان شيا" وفتَحًا سويًّا فتحةً بارتفاع نصفِ قامة في الحائط الذي يفصل الحظيرة عن المنزل، قائلَةً إن هذا يُسهّل من إعطاء الطَّعام لـ "دان أر دونغ"، تلك الفتحة لم تُوصَل الطعام الساخن فحسب، بل وصَلت أيضًا ضوءَ السَّماء والهواء الدافئ، وفي كل يوم عندما تذهب العمّة "دان سيه" إلى السُّوق الجنوبيّة توصي "دان شيا" ألا ينسى صنْعَ برّادٍ من الشاي الساخن في تمام الساعة العاشرة قبل الظُّهر، ويعطيه للرَّجُل بالحظيرة. لكنها لم تسمح لـ "دان شيا" بأن يناديه أبي، وإنما يناديه "تشين شيه ماي"<sup>(1)</sup>؛ لذلك صار أكثر ما يخشاه "دان أر دونغ" هو السَّاعة العاشرة قبل الظُّهر، لأنَّ "دان شيا" في ذلك الوقت يأتي ليوصل الشاي وهو يصيح: "تشين شيه ماي"، اشرب الشاي"، فيُصحِّح له كلامه قائلًا: "يجب عليك مُناداتي "أبي"، فيهزُّ "دان شيا" رأسه اعتراضًا، ويقول بعنادٍ: "أمي قالت "تشين شيه ماي"، "تشين شيه ماي"؛ لذلك كان الشَّاي طيِّبًا، لكنه حين ينزل في جوف "دان أر دونغ" يشعر بهمراته الشديدة، وصار لا يجروء على الخروج في الأوقات التي لا يتواجدُ فيها "دان شيا" في المنزل؛ فقد كان يخشى أن يُصادِفَه في الطريق فيناديه أمام الناس جميعًا "تشين شيه ماي".

قضَّ الانتحارُ الجماعيُّ الذي يمارسه العجائز مَضجَعَ رئيس الوحدة الصحية "جان تشيه شينغ"، لكنه لم يكن قَلِقًا على صِحَّتِهِمْ، بل كان قلبه يُؤلمه على الخسائر المادية التي تعرَّضت لها الوحدة الصحية، فقد كَفُّوا جميعًا عن القدوم للكشف والعلاج، وهم يُمثِّلون الشَّرِيحَةَ الأساسية لدخل الوحدة، فالمرض في رأي "جان تشيه شينغ" كان مثل الزهور التي تُعطي رَوْنَقًا لمصادر دَخْلِهِ؛ ولهذا ذهب إلى حكومة القرية بحثًا عن "تانغ هان تشينغ"، وقال له إن رغبة المُسنِّين في الموت، وصِحَّتِهِمْ النفسية السيئة يؤثِّران على سُمعة القرية، وطلب

(1) تشين شيه ماي هو شخصية أدبية ظهرت في إحدى الروايات التاريخية، وهو شخص ناكر للجميل تخلى عن زوجته، فصار رمزًا للجحود- المترجم

منه التَّدخُل. فلو وصلنا ليوم الأول من أغسطس وقد مات كلُّ المُسنِّين في القرية، فهل ستظلُّ تُسمَّى قرية؟ إن كبار السنِّ هم مثل بوذا الحي الذي يملأ المكان بَرَكَةً، لا يمكن العيش بدونهم.

كان "تانغ هان تشينغ" قد عاد لَتَوْه من زيارة لـ "تشين جين جو" في مدينة "لين"، لقد أثرت فيه رؤية منظره المُشرف على الموت؛ لذا بادَرَ من نفسه بطلب القيام بتحاليل التَّوَأُق. هذا الأمر غير المُتَوَقَّع جعل أُسرة "تشين جين جو" تطير من الفرحة، فمن وجهة نظرهم فإن وصول "تانغ هان تشينغ" لِمَا وصل إليه اليوم كان بفضل اعتماده على مركزهم؛ لذا من الواجب أن يُضحِّي من أجلهم، وقد وافقت "تشين ماي تشين" هي الأخرى على تَبْرُع زوجها بكُلِّيَّته، فتبرَّعه يُعادِلُ تَبْرُعها هي بنفسها، وهذا سيعطيها فَخْرًا وشرَفًا، كما أنها رأت أنه لن يصبح لديه القوَّة الكافية لخيانتها إذا نُقِصت منه كُليَّة. فلن تخشى بعد الآن من "ليو شياو هونغ"، ولا "وانغ شياو هونغ"، ولا "لي شياو هونغ"، لكنَّ نتيجة التحليل الكيماي أصابتهم جميعًا بالإحباط، فالكُليَّة غير مُتوافِقة، وعندما عاد "تانغ هان تشينغ" من مدينة "لين" كان يملؤه إحساسُ الإفلاتِ من الموت، والفرحة تَغْمُرُه؛ لذا ما إن فاتحه "جان تشيه شينغ" في طلبه حتى وافق عليه فورًا، وقال: "أَيُّ صعوبة في هذا، اخرج من عندي وأعلِنها للجميع أن هناك سياسة عُلَيَا أن الحكومة قرَّرت صرف معاش قَدْرُه أربعمائة يوان كلَّ شهر لكلِّ مَنْ يتجاوز السبعين من العمر بعد الأوَّل أغسطس؛ وبذلك حتى لو كانوا هم أنفسهم غير راغبين في الحياة فإن أبناءهم وبناتهم لن يقبلوا بهذا؛ وبهذا ستجدُّ عندك طوابير مِمَّن يرغبون في إصلاح أجسادهم". كان "تانغ هان تشينغ" يُحبُّ إطلاق اسم "دُكَّان الإصلاح" على الوحدة الصحية، كما لو كان الناس مُجرَّد روبوتات.

فسأله "جان تشيه شينغ": "هل تلك السياسة موجودة حقًا؟ لو كانت موجودة فعلاً فيتوجَّب أيضًا العيش لِمَا بعد السبعين".

فَمَطَّ "تانغ هان تشينغ" شَفَتِيَّه، وقال: "ما المقصود بـ "موجودة"؟ وما المقصود بـ "غير موجودة"؟ سأخبرك أمراً، بِغَضِّ النظر عن أي شيء، عند الحاجة لها فإنها "موجودة"، وعندما ينتفي الاحتياج لها فهي "غير موجودة"، بعد الأول من أغسطس لو لم تُعد تلك السياسة موجودةً فهل سينتحرون؟ حتى لو فعلوا فسَتُحرق أجسادهم وتصير رماداً، إذن فهم مُضطربون للحياة".

وعلى الفور بادر "جان شيه شينغ" بعد خروجه من عند "تانغ هان تشينغ" بإخبارِ أَحَدِهِم أَنَّهُ سَيُصَرِّفُ لكبار السنَّ الذين سيتخطون السَّبعين بعد الأول من أغسطس مبلغ أربعمئة يوان كلَّ شهر، كدعمٍ لمصاريف المعيشة، وهكذا نقل كلُّ فَرْدٍ الخَبَرَ إلى عَشْرَةَ، والعَشْرَةَ نَقَلُوهُ لِمِائَةٍ، وقبل أن تَمُرَّ ثلاثة أيام كان ذلك الخبر قد عمَّ قرية "لونغ تشان" كُلُّهَا مثل رياح الربيع، وخلال نَقْلِ الخبر أضاف الناسُ لمساتهم له، فالرَّاعِبُونَ في رفع الدَّعم أكثر قليلاً، غَيَّرُوا المبلغ من أربعمئة إلى خمسمئة، والراغبون في استلام الدَّعم مُبَكِّراً، غَيَّرُوا شهر أغسطس إلى شهر يوليو، والآمِلُونَ في الدَّفْنِ في توابيت قالوا إن مَنْ يتجاوز الثمانين يمكنه في المستقبل ألا يُحرق، وهكذا انقضى عيدُ العام الجديد في القرية، وأتى عيدُ الوحدة الصحية؛ فقد توافدَ المُسنُّون عليها لأخذ الحُقْنِ وشراء الأدوية. فقط النَّجار "لي" لم يُصدِّق تلك المقولة، وقال إنه صَنَعَ التَّوابيت طوال حياته، فلو عَجَزَ في النهاية عن أخذ واحدٍ منها عند موته، ولم يَرِ سَيِّدُ العالَمِ الآخر مهارته في الصَّنَاعَةِ، ولم يَجِدْ ما يأكله في العالم الآخر، فإن عمله طوال عُمُرِهِ سيذهب سُدًى، مستحيلٌ أن يسمح لنفسه أن يرى التابوت الذي صَنَعَهُ بنفسه وقد صار رماداً في يومٍ من الأيام؛ لذا اختار كَفَنَهُ، واختار مكانَ قَبْرِهِ، بعدها أُضرب عن تناوُلِ حتى حَبَّةِ أرزٍ واحدة، وأخيراً، وفي عيد "تشينغ مينغ" أحرقَ قَطْرَةَ في زيتِ مِصباحِهِ، وانكفأ تحت النافذة الغربية.

هكذا رَقَدَ النَّجَّار "لي" كما تمَنَّى في التَّابُوتِ الَّذِي صَنَعَهُ بِنَفْسِهِ. وقبل دَفْنِهِ دار المُسِنَّون حول التَّابُوتِ وقد أغرق الدَّمْعُ عيونهم جميعًا، يمكن القولُ إِنَّهم كانوا يُودَّعون الفقيد الوداعَ الأخير، لكن الأَدَقُّ هو أَنهم كانوا يُودَّعون الجِنَازاتِ التَّقْلِيدِيَّة. ورغم وجود الإغراءات لهم كي يعيشوا - مُتمثِّلَةً في الأربعمائة يوان شهرِيًّا - إلا أَنهم حسدوا مَنْ ماتوا وأخذوا معهم توابيت تحت التُّراب؛ لذا رَبَّتوا على التابوت، ونظروا له وهو يبتعد عنهم فالتَمَعَت في أعينهم نظراتُ عدم الرِّغْبَةِ في الفِراقِ كَأَنهم يفترون عن أَكْوامٍ من الذَّهَبِ، أمَّا الكَلْبُ الأَصْفَرُ الَّذِي كان مُلَازِمًا لِلنَّجَّارِ فقد ذهب إلى القبر مع المُشَيِّعِينَ، وبعد دفن النَّجَّار "لي" حمل مَنْ دَفَنوه المُعَاوِلَ والفؤوس على أَكتافهم ورحلوا، بينما بقي هو على رأس القبر يَعوي بِنَبَاحٍ حزين، وبعد ثلاثة أَيامِ جاء أَقاربُ النَّجَّارِ "لي" لزيارة القبر فوجدوا الكلب وقد نبش القبرَ حتى مَزَّقَت أَطرافه الأربعةَ وَغَطَّتْها الدماء، ورقد فوق تابوت سيِّده وقد انقطعت أَنفاسُه. فقاموا بإهالة التُّرابِ ثانيةً ودَفَنوا الكلبَ مع سيِّده، هذا الكلبُ تَحَوَّلَ إلى أَكثرَ موضوعٍ مُؤَثِّرٍ في قرية "لونخ تشان" في هذا الربيع.

إن زهرة الفُصْح ذات اللونين الأبيض والأزرق هي أولى الزهور التي تتفتَّح في منطقة "سونغشان"، فعندما تتفتَّح تكون الثلوج بين الجبال لم تَدُبْ بالكامل، وزهور الفُصْح البِيضاء لا تُشبه تلك الزرقاء، فالبيضاء تتفتَّح بجوار بقايا الثلوج؛ لذا فألوان الربيع التي تَجَلُّبُها غير واضحة، ودائمًا ما تموت بمجرد أن تتفتَّح؛ لأن مصيرها هو أن تكون روحًا مَظْلُومَةً تحت أَقدام البَشَر. وعندما تَدْبُل زهورُ الفُصْح، تتفتَّح زهور الأزاليا، والتي لا تُشبه زهور الفُصْح ذات الألوان الباردة، إنها تُزهِر بلونٍ أَحمر ناري، وتتفتَّح بكثافةٍ لثَنيرٍ صَخْبًا يجعل المرء عاجزًا عن تجاهلها. إنها قادرة على صَبْغِ الجبال باللون الأحمر، وَصَبْغِ مياه الربيع بلون العَسَق. وبمجرد أن يَحُلَّ موسمُ تَفْتُّحِها يذهب

أهالي قرية "لونخ تشان" للجبال القريبة لَقُطْف الزُّهور ووضعتها في منازلهم؛ فالزُّهور لا تتمتع بالأوانِ خَلَابَة فَحَسْبُ، وإِنَّمَا تتمتع أيضًا بِرَائِحَةٍ عَطِرَةٍ تَمَلَأُ المَكَانَ بِجَوْ جَمِيلٍ بِمَجْرَدِ وَضْعِهَا فِي المَنْزِلِ. والناس هنا لا يُدَقِّقُونَ كثيرًا فِي الأواني المُخَصَّصَة لوضع الزهور؛ لذا نادرًا ما يستخدمون المِزْهَرِيَّاتِ، وإِنَّمَا يضعون الزهور فِي البرطمانات أو زُجَاجَاتِ الخَمَرِ الفَارِغَةِ، أو فِي جِرَارِ الخَضِرَاتِ المُمْلَحَةِ أو فِي دِلاءِ المَاءِ. بل إن المنازل التي ذَبَحَتِ الخنازير فِي الشهر الأخير من العام ولم تَأْتِ بِصِغارِ خنازير غيرها بعدُ، تَضَعُ الزُّهورَ فِي أَمَاكِنِ وَضَعِ طَعَامِ الخنازير. وكانت "أَنْ شويه أَر" تحبُّ الأزاليا؛ لذا ما إن يَحِلُّ مَوْسَمُهَا حتى تُحوِّلَ الورشةَ إِلَى حديقة، وكانت الأواني التي تَضَعُ الزُّهورَ بِهَا غَنِيَّةً وَمتنوّعةً، حتى أدوات الطهي كان لها نصيبٌ، القدور، وإبريق الشاي والأواني وغيرها، ونظرًا لاختلاف تلك الأواني من حيث الارتفاع والسُّمك؛ كانت "أَنْ شويه أَر" تقصُّ الزُّهورَ لِتتناسبَ فِي الطُّولِ مع حجم الإناء، ورغم كونها على وشك الولادة، وتَقْطُنُ فِي بيت جدّتها، إِلَّا أَنَّهُ بِمَجْرَدِ تَفْتُوحِ زهور الأزاليا تقافز قلبها سريعًا، ولم تستطع منع نفسها من جَمْعِ الكثير منها وحملها على ظهرها للمنزل، كما لو كانت تحمل حطبًا لِتُجَمِّلَ الورشة. وبينما هي تضع الزهور فِي إبريق شاي، شعرت بألمٍ شديد، وقتها كانت قد اختارت عودًا طويلًا سميكا من زهور الأزاليا وغرسته بشكلٍ مائلٍ فِي فَوْهَةِ الإبريق، وبينما هي تنظر له بِرِضًا شعرت بألمٍ شديدٍ فِي بطنها، لكنّها لم تهلع، بل اتّصلت أولًا بِ "تانغ ماي" وأخبرتها أَنَّها ربما ستلد الآن، بعدها أخذت الزهور التي لم تَغْرِسها فِي أوانِئِها بعدُ ووضعتها على الأرض لِتصنع سريراً من الزهور رَقَدَتِ فوقه بِبطءٍ. وعندما وصلت "تانغ ماي" ومعها القابِلَةُ كان صوتُ طفلٍ وِلِيدٍ يَصْدَحُ فِي جَنَبَاتِ الورشة؛ لقد وضعت "أَنْ شويه أَر" مولودًا ذَكَرًا، وزنه خمسة جين واثنان ليانغ.

قَصَّت "أن شويه أر" فترة ما بعد الولادة في الورشة، فوضعت المَطْرَزَة الأشياء التي أعدتها للطفل فوق ظهر الحصان الأبيض وحملتها إلى هناك وسكنت معها، وهكذا صارت الورشة صاحبةً بالنساء القادمات لرؤية الطفل بحجة مُسَاعَدَتِهَا على إدرار اللبن، فَكُنَّ يدخلن للغرفة، وَيَضَعْنَ ما معهنَّ من بَيْضٍ وَسُكَّرٍ أَحْمَرٍ، ثم يندفعن تجاه المهد لرؤية الرضيع، فلم تَبَقْ إحداهنَّ إِلَّا وتَعَجَّبَتْ، فالرَّضِيعُ قَوِيُّ الْجَسَدِ ولا يُشْبِهُ بأيِّ حالٍ من الأحوال جسد القزمة التي كانت عليه من أَنْجَبَتْه؛ فليده وجهٌ ناعِمٌ بَضُّ، وعينان سوداوان لامعتان، وشفتان متورَّدتان، وأنفٌ جميل، بوجهٍ عام: كان طفلاً يُجبر مَنْ يراه على حُبِّه، من رأسه حتى أخمص قدميه، فكانت النسوة لا يَسْتَطِيعْنَ مَمَّا لَكَ أَنْفَسَهْنَ من مَدِّ رُؤُوسِهِنَّ داخل المهد وتقيله برِفقٍ. كُنَّ لا يَجْرؤون على التقبيل بقوَّةٍ؛ فهذا قد يصيب الطفل بمرض سيلان اللُّعاب.

ومنذ أن وضعت "أن شويه أر" حملها رأى أهالي قرية "لونغ تشان" ابتسامَةً عميقةً لا تُفَارِقُ وجه "شين تشي زاي" وأبيه "شين كاي ليو"، واحتار الجميع: هل يهنئونهما على ميلاد ذُرِّيَّةٍ لهما، أم لا. لقد أدرك الجميع من تصرفات "شين تشي زا" أنه سعيدٌ من أعماق قلبه بميلاد حفيدٍ له؛ وذلك لأنه كلُّ ثلاثة أو أربعة أيام يرسل أقدام خنزير إلى العَمَّة "دان سيه" ويرجوها أن تصنع منها حساءً أرْجُل الخنزير من أجل "أن شويه أر"؛ وذلك كي تُدِرَّ اللَّبَنَ، ووفقًا للعادات والتقاليد لا يجوز للرجال دخول غرفة المرأة النَّفساء؛ فصار "شين تشي زا" يُسرِع في خطواته ولا يتوقَّف عندما يمرُّ بالورشة، منذ أن وضعت "أن شويه أر" مولودها. كذلك طال كَرْمُه العَمَّة "دان سيه" أيضًا، فكان اللحم الذي تناوَلته في بيتها طوال هذا الربيع كله هديَّةً من "شين تشين زا"، بل كان يُنَوِّع في هداياه بين اللحم مع طبقاتِ الدُّهن، والأضلاع، وكُلِيَّة الخنزير وكَبِدِه، فكانت تُنَوِّع في طهيها، حتى جعلت وجه "دان



أر دونغ" يمتلئ ويتورّد، ووجه "دان شيا" يُضيء ويلمع، أمّا هي فلم تُعد عظامٌ وجنتيها ظاهرةً، لقد امتلأت وجنتاها باللحم.

أمّا "شين كاي ليو" فمنذ أن قايضَ سَلَّةَ الفحم خاصّته بحصانٍ من "تانغ هان تشينغ"، صار يذهب إلى الجبل ممتطيًا الحصان. أمّا سِرْجُ الحصان الذي كان قايضه من قبل فوجد له دَوْرًا الآن. وكان في السنوات الماضية يصنع الفَحْمَ في الجبال ولا يعود إلا مرّاتٍ قليلةً، أمّا في ذلك الشتاء فقد صار نزوله من الجبل مُتكرّرًا، وازدادت التجاعيدُ على وجهه، وانحنى ظهْرُه، أمّا حصانه فقد أرهقه معه، فصار مُتربّيًا رماديًا، وفي كل مرة يعود فيها يذهب أوّلًا إلى السُّوق الجنوبيّة لبيع الفحم الذي أحضره للمطعم، بعدها يبتاع المأكولات. إن أكثر ما يُحبه هو الفطائر المقلّية وفطائر الصّاج ولحم البقر بالصلّصة والسّمك المُجفّف. فيطلب من العمّة "دان سيه" أن تطوي له فطائر الصّاج، قائلاً إنّ هذا يُسهّل تناوّلها، ثم يطلب من دُكّان الفطائر المقلّية أن يصنع له فطائر بمعجون الفاصوليا الحمراء. لقد كان "شين كاي ليو" يعتمدُ في معيشته على بيع الفحم وبيع الأعشاب الطيبة، ورغم أنه لا يربح الكثير من المال، إلا أنه لم يَعِشْ في عَوَزٍ من قبل، خاصّةً في السنوات الأخيرة، حتى الخمر التي يتناولها ارتقت درجةً عن ذي قبل، فحَمَّنَ النَّاسُ أن لديه مَصْدَرًا سَرِيًّا للمال، وقد لاحظوا أن كمّيّات الطعام التي يأخذها معه للجبل قد زادت، وتنوّعت أيضًا، فعلى سبيل المثال: كان في الماضي لا يأكل سوى الفطائر المقلّية بالملح والفلفل، أمّا الآن فيميل لأكلها بحشو معجونِ الفاصوليا الحمراء، وفي الماضي كان يُحبُّ السّمك المُجفّف الحار، أمّا الآن فيطلب عدم إضافة الشّطّة، ومن هذا استنتجوا أنه يُقدّم الطّعامَ لشخصٍ آخر معه في الجبل، وهذا الشّخصُ على أغلب الظّنّ هو "شين شين لاي"، فهذا الوغد يَخْشَى الطّعامَ الحارّ، كما أن أكثر طعام يُحبه هو الفطائر

المقليّة بحشوٍ معجون الفاصوليا الحمراء، فحينما كان يذهب إلى دُكَّانِ  
الفتائر كان بإمكانه تناولُ سِتَّةٍ منها مع طبقٍ من "الدوفو".

ووفقًا للإعلان الذي نشرته مُديريةُ الأمن، كانت هناك مكافأةٌ  
صَخْمَةٌ لمن يقبض على "شين شين لاي" أو يُدلي بمعلوماتٍ قيِّمة  
لحلِّ القضية؛ لذا كان أهالي القرية يتمنّون فيما مضى أن يقبضوا  
عليه ليغتنوا بهذا المال، لكن بعد أن حَمَلَت "أن شويه أر" عَرَفَ  
مُعظّمهم عن القيام بهذا الأمر، ولم يَبَقَ سوى رجالِ مركزِ الشرطة  
الذين كانوا مُضطرين لذلك، ولمَّا سَمِعُوا أصحابَ المتاجر بالسُّوق  
الجنوبيّة يتناقشون بينهم أن "شين كاي ليو" ربّما كان يُخبئ "شين  
شين لاي"، فَتَبِعُوهُ بِشَكْلِ رَمْزِيٍّ عندما صعد إلى الجبل. لكنهم كانوا  
عاجزين عن تَتَبُّعِهِ حتى مصنع الفحم، لقد خشوا أن يَضِلُّوا الطَّرِيقَ  
أثناء العودة، وقد كان "شين كاي ليو" لا يسير في الطَّرِيقِ المعروفة، بل  
يشقُّ طَرِيقًا جديدةً في الجبل كلَّ عام؛ وذلك من أجل تَقْوِيَةِ عَضَلَاتِ  
ساقَيْهِ، وحتى مع وجود الحصان في ذلك العام فهو لم يكن يسمح  
لحصانه بالسير في الطَّرِيقِ القديمة. إن اختراق الغابات المتشابكة التي  
لا طَرِيقَ فيها هو من المهارات الأساسية لدى خيول "الإيلوينتشيون".  
لكن الوحيدة التي صَمَّمَت بعنادٍ وعزمٍ على تَتَبُّعِ "شين كاي ليو"  
كانت "تشين ماي تشين"، فبعد أن عرَفَت أن "شين شين لاي" هو  
ابنٌ غير شرعيٍّ لأخيها، صارت تَعْتَبِرُهُ القَشَّةَ التي يتعلَّق بها الغريق،  
مثل باقي أفراد أسرة "تشين"، ولمَّا لم تُكُنْ لديها القُوَّة البدنيَّة الكافية  
لتَتَبُّعِهِ بنفسها فقد استأجرت "جيه شي باو" البارِع في ركوب الخيل.  
ورغم أنه أعرجٌ، إلَّا أنه على ظَهْرِ الحصان يصبح مثل الريح. وفي ذلك  
الشتاء، فَقَدَ نُزُلَ الشَّمْسِ الحمراء الكثيرَ من رونقه بسبب غياب  
"جيه شي باو"؛ فَكَسَدَت تجارتها، وهكذا صار وجه "ليو شياو هونغ"  
يَمْتَعِضُ ويكسُرُ كلِّما رأت "تشين ماي تشين". إلَّا أن غضبها كان بلا  
فائدة، ف "جيه شي باو" يكره "شين شين لاي"، وفي بداية القضية لَعِبَ

دَوْرَ الشَّرْطِيِّ الْمَدَنِيِّ، الَّذِي يَشَارِكُ فِي عَمَلِيَّاتِ الْبَحْثِ بِمَجْرَدِ أَنْ يَتَوَافَرَ  
لَدَيْهِ وَقْتُ فَرَاغِ.

كان "جيه شي باو" بحكم عَمَلِهِ كطَبَّاحٍ دَائِمِ التَّرَدُّدِ عَلَى مَنْزِلِ  
أُسْرَةِ "شِين" بِالْمَدْخَلِ الشَّمَالِيِّ لِشِرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ مَجْزَرِهِمْ، وَتَعَامَلِ كَثِيرًا  
مَعَ "وَانْغِ شِيُو مَان". كَانَ يُحِبُّ فِيهَا طَبِيبَتَهَا وَأُرِيحِيَّتَهَا، فَمَثَلًا، حِينَ  
كَانَ يَشْتَرِي أَمْعَاءَ الْخَنْزِيرِ كَانَتْ "وَانْغِ شِيُو مَان" تُنَظِّفُهَا بِاسْتِخْدَامِ  
عِصِيِّ الطَّعَامِ، ثُمَّ تَغْسِلُهَا بِالْمَاءِ الْقَلْوِيِّ قَبْلَ أَنْ تَبِيعَهُ إِيَّاهَا، وَعِنْدَمَا  
يَشْتَرِي رَأْسَ الْخَنْزِيرِ، كَانَتْ تَحْرِقُ شَعْرَ الرَّأْسِ بِاسْتِخْدَامِ بَخَّاخِ النَّيْرَانِ  
لِتَجْعَلَهَا مَلْسَاءً وَنَظِيفَةً، وَعِنْدَمَا يَشْتَرِي اللَّحْمَ بِطَبَقَاتِ الدُّهْنِ كَانَتْ  
تَمْنَحُهُ خَصْمًا يَسَاوِي سَعْرَ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ لِيَانْغِ، وَتَقُولُ إِنَّهُ لَا يَرْبِحُ  
سِوَى مَنْ آمَنَ بِمَبْدَأِ الْاسْتِغْنَاءِ، وَلَمَّا كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ "جِيهِ شِيُو بَاو"  
بَلَا امْرَأَةً فِي حَيَاتِهِ، فَقَدْ كَانَتْ تَصْنَعُ لـ "جِيهِ شِيَاو بَاو" سُرَّةً قُطْنِيَّةً  
جَدِيدَةً وَتَهْدِيهِ إِيَّاهَا فِي كُلِّ خَرِيفٍ؛ فَقَامَتُ الطُّفْلُ تَطُولَ سَرِيعًا، وَإِنْ  
لَمْ تَصْنَعْ سُرَّةً جَدِيدَةً؛ يَظَلُّ سِرْوَالُ الْعَامِ الْمَاضِي مَلَائِمًا لَجَسَدِهِ تَمَامًا  
فِي وَقْتِهِ، وَلَكِنْ مَعَ حُلُولِ الْعَامِ التَّالِيِ يَصْبِحُ سِرْوَالًا قَصِيرًا مُعَلَّقًا، لَوْ  
لَمْ يَتِمَّ تَغْيِيرُهُ بِوَاحِدٍ جَدِيدٍ لِكِي لَا تَتَجَمَّدَ قَدَمَا الطُّفْلِ. وَمَنْ أَجَلُ  
التَّعْبِيرِ عَنِ امْتِنَانِهِ تَجَاهَهَا كَانَ "جِيهِ شِيُو بَاو" يَشْتَرِي بَعْضَ الْهَدَايَا فِي  
كُلِّ عَامٍ عِنْدَ حُلُولِ الْعِيدِ وَيَهْدِيهَا لـ "وَانْغِ شِيُو مَان". وَكَبِدَ الْخَنْزِيرِ  
الَّذِي غَسَلَتْهُ "وَانْغِ شِيُو مَان" فِي يَوْمِ مَصْرَعِهَا كَانَ مِنْ أَجَلِ نُزُلِ  
الشَّمْسِ الْحَمْرَاءِ، وَعِنْدَمَا ذَهَبَ "جِي شِيُو بَاو" لِيَأْخُذَهُ مِنْهَا، اشْتَرَى  
لَهَا كِيلُو تَفَاحٍ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا دَلَّفَ إِلَى الْفِنَاءِ كَانَ مَا رَأَاهُ هُوَ رَأْسُ  
مَقْطُوعٌ تَسِيلُ مِنْهُ الدَّمَاءُ.

إِنْ كَانَتْ الْمُطْرِزَةُ لَا تَسْتَطِيعُ الْاِفْتِرَاقَ عَنِ الْخِيُولِ، فَيَنْ "شِين كَاي  
لِيُو" لَا يَسْتَطِيعُ الْاِفْتِرَاقَ عَنِ الْكَلَابِ. فَعِنْدَمَا يَدْخُلُ الْجَبَلَ لَا بُدَّ وَأَنْ  
يَصْطَحِبَ مَعَهُ كَلْبَهُ، وَقَدْ رَبَّى سِتَّةَ كَلَابٍ مِنْ قَبْلِ مَنْذُ أَنْ جَاءَ إِلَى قَرْيَةِ  
"لُونْغِ تَشَان"، وَكُلَّمَا مَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُ كَانَ يَسْلُخُ فِرْوَتَهُ قَائِلًا إِنَّهُ يَرِيدُ

الاحتفاظ بملابسهم، ثم يدفنه بعدها؛ لذا وصفه الناس هنا بالدموية، فقد كان يستخدم الجلد المسلوخ لصناعة الأغطية، وقرش الأحذية، والوسائد، وحتى القُبَعَات، فالقُبَعَاتُ التي يرتديها في الشتاء لا توجد واحدةٌ منها ليست مصنوعةً من جلد الكلاب، وكانت كلُّ كلابه التي ربّأها من قَبْلُ تُدعى باسمٍ واحدٍ، هو: "أيتزيه"، بِغَضِّ النَّظَرِ عَمَّا إذا كان الكلبُ ذَكَرًا أم أنثى، وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ لَوْنِهِ، كان هذا اسم زَوْجَتِهِ اليابانية؛ لذا كانت كلابه مثله تمامًا، لا تلاقي عادةً ترحابًا من الناس، باستثناء في سوق عيد البضائع القديمة، وقد ربّي "شين كاي ليو" من قَبْلُ كلابًا مُبرَقَشَةً وكلابًا سوداء وكلابًا صفراء، لكنه لا يُرْبِي الكلاب البيضاء؛ فهو يحرق الفَحَمَ طوال العام؛ لذا خشي أن يتبعه كلبٌ أبيضٌ فيصير لونه أسود.

وكلاب "شين كاي ليو" لا تحظى بنَسْلِ لها؛ لأنهم في فترة التَزَاوُجِ عندما يبحثون عن شريكٍ لهم للتلقيح، يتعرّضون للتفريقِ من أصحاب الكلاب الأخرى، فأصحاب الكلاب لا يسمحون لكلابهم بالتزاوج مع هؤلاء "الأيتزيه"؛ لذا اضطرَّ "شين كاي ليو" لإجراء عمليات إخصاءٍ للذكور وتعقيمٍ للإناث؛ حتى يقطعَ عليهم أفكارهم تلك؛ فكانت الكلاب التي تُربّي في منزله سيئةَ الحظِّ في مجال الحُبِّ.

كان الحصان الذي حصل عليه "شين كاي ليو" من "تانغ هان تشينغ" مقابل سَلَّةٍ من الفحمِ ذا لونٍ بُنِّيٍّ وأسود، وكان في عنفوانِ صِحَّتِهِ، وشَعْرُ مَعْرِفَتِهِ كثيفٌ لحدٍ كبيرٍ ولونه أسود لامِعٌ، ورغم أن "شين كاي ليو" صار لديه حصانٌ يمتطيه، إلا أنه ظلَّ يصطحب كلبه معه كلِّما دخل وخرج من غابات الجبل، والكلب "أيتزيه" الذي معه الآن هو كلبٌ أصفرٌ، في السابعة من عمره، وكان الكلب يسير في المُقَدِّمة ليفتح الطريق أمام "شين كاي ليو" حينما يدخل الجبل، وذلك قبل أن يملك حصانًا، وخاصَّةً في فصل الشتاء، حين تكثرُ الثلوج؛ فيستخدم الكلبُ أطرافه الأربعةَ لَشَقِّ الثلجِ أمامه، أمَّا الآن وبعد أن

صار لديه حصانٌ فصار الكلبُ على حُرِّيَّتِهِ، وبإمكانه اللهو واللعب في الجبل.

امتطى "جيه شي باو" أثناء تَتَبُّعِهِ "شين كاي ليو" حصانًا مَنغوليًّا ذا لونٍ بُنِّيٍّ مُحَمَّرٌ، هذا الحصان أجمل من حصان "الإيلوينتشيون"، لكنه لا يُضاهيه في قُوَّةِ التَّحْمَلِ، فلو تسابَقًا لمسافة قصيرة فإن حصان "الإيلوينتشيون" ليس نِدًّا للحصان المنغولي، أمَّا في الركض لمسافات طويلة فإن الحصانَ المنغوليَّ يَقَعُ في المَرْتَبَةِ الأدنى؛ لذا كان "جيه شي باو" يتأخَّر عنه كثيرًا كلما يتبعه، وفي النهاية لا يَصِلُ إلى موقع صُنْعِ الفحم إلا بعد وصول "شين كاي ليو" بأكثر من ساعة، وفي كلِّ مَرَّةٍ يراه فيها "شين كاي ليو" يهزُّ له ذقنه الأشبه بدَقْنِ الماعِزِ الجَبَلِيِّ كنوعٍ من التَّحِيَّةِ. وكان "شين كاي ليو" يسكن في غرفة تحت الأرض، أمَّا "جيه شي باو" فقد نَصَبَ خيمةً صغيرةً من جلد الحيوانات في مكانٍ ليس ببعيدٍ عنه، وعندما لا يجلب "جيه شي باو" ما يكفي من المُوْن، ينقذه "شين كاي ليو" بما لديه، وكان "شين كاي ليو" يقضي نَهَارَهُ في حَرِّقِ الفحم، وركوب الخيل، ومَشْيَةِ الكلب، وأوقات فراغه في اقتلاع بعضٍ من لحاء أشجار البتولا، فلم يكن في تَصَرُّفاته أي شيء غير طبيعي. وبحلول المساء كان يدعو "جيه شي باو" لشُرْبِ الخمر معه، بعدها ينام كُلُّ منهما في مكانه، وقد تَفَحَّصَ "جيه شي باو" الغابات المحيطة بتلك الغُرْفَةِ الأَرْضِيَّةِ بِدِقَّةٍ، فلم يجد آثار أقدام على الأرض الثلجية سوى لحوافر الحصان ومخالب الكلب وآثار أقدام الحيوانات البرِّيَّةِ، مثل الطيور والسَّنَاجِبِ والأرانب البرية، أمَّا الآثار البشرية فلم يجد سوى آثار أقدامه هو و"شين كاي ليو"، ولمَّا وَجَدَ أن تَتَبُّعَ "شين كاي ليو" هو مجهودٌ بلا طائلٍ؛ قَرَّرَ الابتعادَ عنه وتوسيع نطاق البحث. وفي تلك المَرَّةِ تَقَابَلَا أَكْثَرَ من مَرَّةٍ بِالصُّدْفَةِ في الغابات، وحين يُصَادِفُهُ يكون "شين كاي ليو" إمَّا هابطًا من الجَبَلِ لبيع الفحم، أو صاعِدًا إليه جالِبًا معه المُوْن. وقد اكتشف "جيه شي

باو" أن آثار أقدام حسان "شين كاي ليو" وكلبه المتناثرة على الأرض الثلجية تتجهها أحياناً شرقاً، وأحياناً غرباً، وأحياناً شمالاً، وأحياناً جنوباً، كما لو كان صاحبها يُخطط لشيء ما، وقد نسب "جيه شي باو" كل هذا إلى أن "شين كاي ليو" لا يسير على الطُرق القديمة.

استمرَّ تَتَبُع "جيه شي باو" لـ "شين كاي ليو" في الجبل، وبحثه عن "شين شين لاي" لعدَّة أشهر، ولم يَصِل لأي نتيجة. وبحلول شهر مايو تفتَّحت براعم أوراق الصفصاف على ضفاف الأنهار، وبدأت الجداول بين الجبال في الغناء ثانية، عندها عاد "جيه شي باو" مُطَاطِئَ الرَّأس مَمْلُؤهُ الخبيَّةُ إلى قرية "لونغ تشان"، وأعاد الحصان إلى "تشين ماي تشين"، وأعاد لها أيضاً نصفَ المكافأة التي أعطته إيَّاهَا، قائلاً إنه بَدَل قِصَارَى جَهْدِهِ، لكنَّه لم يَعِثُرْ حَتَّى على شَعْرَةٍ من "شين شين لاي"؛ "وهذا يدلُّ على أن هذا الكلبِ ابنَ الكلبِ لم يَهْرَب في الجبال، بل مات في غاباتها وأكلته الجَوَارِحُ". وعندما سَمِعْتَهُ "تشين ماي تشين" يدعو "شين شين لاي" بـ "ابن الكلب" ظهر الضيُّقُ على وجهها، وغمغمت: "لديه اسمٌ ولَقَبٌ، ادعُوه "شين شين لاي"، لماذا تناديه بـ كَلْبِ ابْنِ كَلْبٍ؟"، فتسَمَّر "جيه شي باو" في مكانه لِبُرْهَةٍ غيرَ مدركٍ لماذا طَلَبَتْ منه القَبْضُ على "شين شين لاي" وفي نفس الوقت لا تسمح له بسَبِّهِ، يبدو أن تخمينات أهالي القرية صحيحةٌ أن "تشين ماي تشين" استأجرتَه للقَبْض على "شين شين لاي" لا لكي ترتاح روح "وانغ مان شيو" كما أعلنت "تشين ماي تشين"؛ وإمَّا كان لها أهدافٌ أخرى. لكنَّه لم يستطع التخمين ما هي تلك الأهداف، ولم يكن راغِبًا في التَّخمين أيضًا.

عندما صعد "جيه شي باو" إلى الجبل، أرسل "جيه شياو باو" إلى بيت أخته بقرية "جويواوين". وقد منَحَ مجيئُهُ السَّعادةَ والدَّفءَ لِكُلِّ من "أن تاي" و"جيه شيو لي" اللذين فقَدَا ابْنَهُمَا؛ لذلك عندما أخذه "جيه شي باو" ثانيةً إلى قرية "لونغ تشان" عَزَّ عليهما كثيرًا. كذلك

لم يَرغب "جيه شياو باو" في الرَّحيل؛ لأنَّ إدارة المدرسة القوميَّة هنا مُتِراخية كثيرًا عنها في قرية "لونغ تشان"، حيث لا يحضرون دروسًا سوى لنصفِ يَوْمٍ، وكان "أن تاي" يأخذه دائمًا بالسيارة إلى "ميدان صَيْد شيوين"، ويُعلِّمه الضَّرْبَ بالبُنْدُقِيَّة؛ لذا كان يعيش أيامًا سعيدةً هنا. وميدان الصَّيْد هذا مَبْنِيٌّ وَسَطَ الجَبَل، والغِزلانُ والأَيائلُ الموجودةُ بها كُلُّها نِصفُ مُستأنسة. ففي فصول الربيع والصيف والخريف تعتمد على نفسها في العَيْش من مَنح الطَّبيعة، ومع وصول فصل الشِّتاء وفي الأَيام الباردة لا تَجِدُ ما تَأْكُلُه؛ لذلك يضع لها المُرَبُّون الطَّعامَ في مواعيدٍ مُحدَّدة.

وبناء "ميدان صيد شيوين" له علاقةٌ بهواية الصَّيْد لدى المسؤولين الرئسيِّين بمحافظة "تشينغشان"، الذين بنَّوا هذا الميدان بغرض تنمية السياحة الثَّقافيَّة للأقْلِيَّات، فحدَّدوا منطقة غابات جبليَّة ذات مناظر جميلة بالقرب من قرية "جويواوينط، ورسدوا ثلاثة ملايين يوان لبناء ميدان الصَّيْد، على أن تُديره مُباشرةً هيئةُ السياحة بمحافظة "تشينغشان". وفي العادة يظلُّ هذا الميدان مفتوحًا للجمهور، لكن عندما يأتي المسؤولون لتفَقُّده يتوقَّف عن العمل، وعندها يُمسِكُ المُرَبُّون ببعض الأيائل ويحَقنونها بقليلٍ من المُخدِّر؛ حتى يتمكَّن المسؤولون من تحقيق نسبة إصابة مائة بالمائة أثناء مُطارَدَتها. وبعد بناء هذا الميدان جاءته المُطرزة مرَّةً مُمتطيَّةً حصانها، وعندما رأت الحيوانات نِصفَ المُستأنسة قالت جُملةً واحدة: "مُثيرةٌ للشَّفقة"، ولم تَأتِ بعدها ثانية.

وعندما أتى "جيه شي باو" لأخذ "جيه شياو باو"، وَضَعَ الأخيرُ شَرطًا، ألا وهو الدَّهَاب لميدان صَيْد شيوين مرَّةً ثانية قبل أن يوافق على العودة إلى قرية "لونغ تشان"، فوافقَ "جيه شي باو". وهكذا قاد "أن تاي" السيارةَ وأخذ معه الأبَّ وابنه وانطلقوا جميعًا، كان الجَوُّ صافيًا، وزهور الأزاليا صبَّغت الجبالَ باللُّون الأحمر واللون الوردي كأنَّ

السَّماء قد نَشَرَت على الأَرْض مَلَاسِهَا المَلوَّنة، وعندما بلغوا منتصفَ الطَّرِيق صادَفوا مُراقِبَ مَيدانِ الصَّيد "لاو مو" ينزل من الجَبَل على عَجَل مُمتَطِيًا حِصانه؛ فتوقَّف "أن تاي" بالسيارة، وقفز "لاو مو" عن صَهْوَة حِصانه، وقال مُتَلَعِثًا إن أحدهم كَسَرَ الصُّوانَ الحديديَّ الذي يضعون فيه البنادق والرِّصاص في ميدان الصيد.

يملك "ميدان صيد شيوين" تسعَ بَنادِقِ صَيِّدٍ موجودة في غرفة الأَمَن، ويُقفل عليها عادةً في صُوان حديديٍّ كبير. وقال "لاو مو" إنه في الصباح ذهبَ مع المُربيِّ إلى النُّهر كي يُطعِمَ الأيائلَ ونَسِيَ إغلاق باب غرفة الأَمَن بالمفتاح، لكنَّ مفتاح الصُّوان الحديدي كان مُعلَّقًا في مِلابسه. وعندما عادا اكتشفا أن قُفَلَ الصوان الحديدي مكسورٌ، وهناك بندقيَّة مفقودة، كذلك نَقَصَت أربع عُلبٍ من الذُّخيرة، كُلُّ عُلبَةٍ بها عشر رصاصات، يبدو أن السَّارق كان يحتاج بندقيَّةً واحدة؛ لأن باقي البنادق موجودة.

وأضاف "لاو مو" أن سرقة البنادق والرصاص هو أمرٌ سيئٌ، لكنَّه لا يُمثَل تهديدًا؛ فالرِّصاص الذي سرقه اللُّصُّ غيرُ مُتوافقٍ مع البندقيَّة التي سرقتها، بعبارةٍ أخرى، تلك الرِّصاصات الأربعون بكِماء في الفوهة الكبيرة لتلك البندقيَّة. فما الفارقُ بين بندقيَّة بلا رصاصٍ وبين عصا إشعال النيران؟ وقد استنتج "لاو مو" من هذا أن السَّارق بكلِّ تأكيدٍ ليس من "الإيلوينتشوين"، فَمَن مِن رجال "الإيلوينتشوين" لا يفهم في بندق الصيد؟ إن السَّارق بالتَّأكيد من قومية "الهان". كذلك هو شخصٌ لم يَضِرَّ ببندقيَّةٍ من قبل؛ وهنا فقط اطمأنَّ قلبُ "أن تاي" قليلًا.

استدار "أن تاي" بالسيارة عائِدًا إلى قرية "جويواوين" كي يُبلِّغَ السُّلطات المُختصَّة بالحادثَة، وعندما وجده "جيه شياو باو" يلفُّ عائِدًا بَدَأَ في البُكاء، فصَفَّعه "جيه شي باو" على وجهه، وسبَّه بأنَّه



لا يفهم شيئاً، ميدان الصيد وَقَعَتْ فِيهِ حَادِثَةٌ كَبِيرَةٌ وَهُوَ لَا يَفْكَرُ سِوَى فِي اللُّهُو، فَقَالَ "جِيه شياو باو" مُتَأَثِّرًا: "كَيْفَ لَا أَفْهَمُ شَيْئًا؟ لَقَدْ تَبَوَّلْتُ فِي الْمَرْحَاضِ قَبْلَ يَوْمَيْنِ، وَأَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى نَشْرِ غِطَاءِ فِرَاشِي بِنَفْسِي". تِلْكَ الْكَلِمَاتُ أَدْخَلَتْ السَّعَادَةَ عَلَى قَلْبِ "أَنْ تَاي" الْمَهْمُومِ، فَوَاصَلَ "جِيه شياو باو" حَدِيثَهُ قَائِلًا إِنَّهُ يَعْرِفُ مَنْ الَّذِي سَرَقَ الْبُنْدُوقِيَّةَ، فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ الَّتِي ذَهَبَ فِيهَا هُنَاكَ، وَقُرِبَ الْغُرُوبِ، رَأَى شَخْصًا يَجْلِسُ فَوْقَ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ ضَخْمَةٍ خَارِجَ الْمِيدَانِ، وَكَانَ يَرْتَدِي زِيًا مُمَوَّهًا وَقُبْعَةً مُمَوَّهَةً، وَيمْتَطِي فِرْعَ شَجَرَةٍ ضَخْمًا، وَيُدَلِّي سَاقِيهِ الرَّفِيعَتَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ، وَيُرْكَزُ بَصْرَهُ عَلَى غُرْفَةِ الْأَمْنِ بِالْمِيدَانِ، وَعِنْدَمَا اكْتَشَفَ أَنَّ "جِيه شي باو" يَنْظُرُ لَهُ قَفَزَ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ وَرَكَضَ نَحْوَ أَعْمَاقِ الْغَابَةِ لِيَخْتْفِيَ دَاخِلَهَا دُونَ أَثَرٍ. فَقَالَ "أَنْ تَاي": "إِذْنِ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرِ زَوْجَ عَمَّتِكَ مِنْ قَبْلُ؟"، فَرَدَّ عَلَيْهِ: "كُنْتُ سَأْخِرُكَ، لَكِنْ أَلَمْ أَسْقُطْ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ فِي حُفْرَةِ طِينٍ؟ أَلَمْ أُغَيِّرْ بَعْدَهَا حِذَائِي ثُمَّ انْهَمَكْتُ فِي تَنْظِيفِهِ؟ وَبَعْدَ تَنْظِيفِهِ وَتَنَاوُلِ الطَّعَامِ، أَلَمْ تُظْلِمِ السَّمَاءُ؟ وَقَدْ قَالَ أَبِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ أَيَّ أَمْرٍ يَأْتِي عَلَيْهِ اللَّيْلُ هُوَ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْمَهْمِ؛ لِذَا لَمْ أَقُلْ شَيْئًا".

فَسَأَلَ "جِيه شي باو": "هَذَا الشَّخْصُ هَلْ يَشْبَهُ "شِين شِين لاي"؟".

فَقَالَ "جِيه شياو باو": "لَقَدْ كَانَ أَعْلَى الشَّجَرَةِ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِّي، وَكَانَ يُرْخِي قُبْعَتَهُ عَلَى وَجْهِهِ، كَيْفَ لِي أَنْ أَرَاهُ بَوْضُوحًا؟".

فَقَالَ "أَنْ تَاي" مُوجِّهًا كَلَامَهُ لَجِيه شي باو: "لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ هُوَ سَارِقُ الْبُنْدُوقِيَّةِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ صَمَدُ طَوَالِ الشِّتَاءِ؟"

فَقَالَ جِيه شيه باو: "بِالضَّبْطِ، فَقَدْ بَحِثْتُ عَنْهُ لَعْدَةَ أَشْهُرٍ، لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ أَثْرًا لِشَعْرَةٍ مِنْهُ".

فَقَالَ أَنْ تَاي: "رَبْمَا صَارَ طَعَامًا لِلدُّنَابِ".

لم يكن أحدٌ يعلم إذا ما كان "شين شين لاي" حيًّا أم ميتًّا، وأين يعيش، سوى "شين كاي ليو"، لكنَّه لم يَكُن ليخبر أيَّ شخصٍ. لقد ساعدَ "شين شين لاي" سرًّا على الهروب، ليس من أجل حماية حفيده، وإنما لأنه اعتبر الأمرَ معركةً عظيمةً يخوضها، وهو الجنديُّ الوحيدُ في تلك المعركة، وهو أيضًا القائد الوحيد فيها. لقد رغب في أن يرى الناس جميعًا إذا ما كان قد خاض حربًا من قبلُ أم لا؟ "ألم تحشدوا القوَّات وتُحاصروه بحلقات خلف حلقات لتعثروا عليه؟ باستطاعتي - أنا "شين كاي ليو" - أن أخفيه عنكم في مكانٍ لا يعرفه إنسٌ ولا جانٌّ، وأن أجعله يصمُد في الشتاء القارس، ألسنتم راعبين في الإمساك به على الفور، وإنهاء حياته؟ أنا قادرٌ على جعله يرى المزيد من شروق الشمس في الدنيا..."، وبعد حمل "أن شويه أر" قوَّيت عزيمته أكثرَ على حماية "شين شين لاي" والحفاظ على سلامته، على الأقلُّ حتى يأتي هذا الطفلُ إلى الدنيا؛ فبهذا الشكل يُمكنه إلقاء نظرةٍ أخيرة على ابنه قبل إعدامه بعد إلقاء القبض عليه.

لا يملك "شين كاي ليو" أيَّ سلاح، فقط حصانًا وكلبًا وسكينَ صيدٍ ومنجلاً، إلا أنه تمكَّن من مساعدة "شين شين لاي" حتى استقبل الربيع، وعندما كان كبارُ السنُّ بالقرية قد ملُّوا من العيش لرغبتهم في الدفن تحت التُّرى مع تابوت لهم، كان "شين كاي ليو" يجتاز الجبالَ ويقطع الغابات بهمةً عالية. لقد رأى الكثير من الموتى من قبلُ في ميادين القتال، وكان هو مَنْ دَفَنَ جُثَّتْ رفاقه في المعارك، وكانت في العادة بلا شواهدٍ قبور، وصارت في النهاية أرضًا قفرةً بلا علامات، وفي بعض الأحيان كان وضع القتال حرجًا ويجب التَّحرُّك من المكان على الفور، فلا يجد الوقتَ لدفنِ جُثَّتْ رفاقه، ولا يسعُ الجميع سوى التَّحرُّك وهم يحبسون الدمع، أمَّا بالنسبة لجُثَّتْ الأعداء فكانوا يتكونها ويغادرون على الفور بعد أن يسلبوا ما عليها من أشياء نافعة، تلك الجُثَّتْ المتروكة في العراء تُصبح في النهاية طعامًا للضواري، وقد كان

"شين كاي ليو" يشعر أنه سعيد الحظ لأنه بقيَ على قيد الحياة، وهو لا يخشى أن يصير رماداً؛ فقد امتلأ قلبه بالرماد طوال حياته.

بعد أن تزوج "تشيوشان أيتزيه" اكتشف أن زوجها لم يمّت كما كانت تُشيع، وإمّا لا يعرف أحدٌ إن كان حياً أم ميّتاً. وقد عرف "شين كاي ليو" تلك المعلومة من "ليو الأعرج"، و"ليو الأعرج" هو ابن إقطاعي مُصابٌ بمرض شلل الأطفال، وبعد أن بلغ فتح محلّ أقمشة في "إيلان" وتزوج من فتاة حواءٍ معوجة الفم، كانت زوجته قبيحة، لكن كان لديها تذوق جماليّ جيّد؛ لذلك كان المحل الذي تديره هو أفخم محلّ أقمشة في "إيلان"، سواء من حيث جودة القماش أو رسوماته؛ لذا أحبّه اليابانيّون كثيراً، فكان معظم زبائنه من اليابانيين، وبعد هزيمة اليابان في الحرب، كسدت تجارته كثيراً، وفي شتاء ذلك العام الذي تزوج فيه "شين كاي ليو" من "تشيوشان أيتزيه"، مرّ ذات يوم من أمام محلّ أقمشة "ليو الأعرج"، الذي رآه من خلال النافذة فدعاه للدخول. ثم نبّهه أن يأخذ حذره، لقد كان من الصعب عليه أن يجد زوجة؛ لذا لا يجب أن يسمح لها بالهروب ثانية؛ لأن "تشيوشان أيتزيه" جاءت إلى محلّ الأقمشة لتحسّس أخبار رَجُلها.

عندما كانت "تشيوشان أيتزيه" هي وزوجها في "مجموعة تيانجين لفتح المناطق الجديدة" كانا يأتيان إلى محلّ الأقمشة كلّ عام عندما يبدأ الصيف، وعشيّة العام الجديد؛ لبيتاعاً عدّة قطع من القماش. وعندما رحل زوجها عن المنزل وعلم أن هزيمة اليابان صارت مُحققة، اتّفق مع زوجته على أن يستخدما محلّ الأقمشة هذا كنقطة اتّصال في حالة انحلّت "مجموعة تيانجين لفتح المناطق الجديدة"، وتفرّق الأقارب، وعندما أتى الجيش الأحمر السوفييتي، تمّ نفي الأسرى اليابانيّين الذين لم يُقتلوا في المعارك ولم ينتجروا إلى "سيبيريا"؛ للقيام بالأعمال الشاقة، ولم يهرب منهم إلا القليل، أمّا النساء اليابانيات اللاتي فقدن رجالهنّ ولم يتمكّنن من العودة للوطن إمّا عملن كخادمات

لدى الأثرياء الصينيّين، أو تزوّجن من السُّكّارى الفقراء العاجزين عن إيجاد زوجة، أو اشتغلن بالدّعارة، وبعد أن اصطحبت "تشيوشان أيتزيه" ابنها "تاي إي لانغ" وجاءت إلى "إيلان"، زارت محلّ أقمشة "ليو الأعرج" عدّة مرّاتٍ لتتحسّس أخبار زوجها، لكنها كانت تعود في كلّ مرّةٍ وخيبة الأمل تملؤها. وفي لحظة يأسها فكّرت في العمل كخادمة في بيوت الأثرياء، لكنها لم تتوقّع أن تُصادفَ "شين كاي ليو" في المعبد، والذي رغب في الزواج منها، ورغم أنها في النهاية صارت زوجته، وأنه يُعاملها هي وولدها بشكلٍ جيّد، إلاّ أنّها لم تفقد الأمل، وصارت في كلّ مرّةٍ تنزل فيها إلى الشارع تنسلُّ إلى محلّ الأقمشة بحثًا عن أيّ أخبار من والد "تاي إي لانغ".

بجوار محلّ أقمشة "ليو الأعرج" كان هناك محلّ مكرونة يأتيه "شين كاي ليو" في كلّ مرّةٍ ينزل فيها من المركب، وهكذا تعرّفًا على بعضهما. وذات يومٍ رأى "ليو الأعرج" "شين كاي ليو" مع "تشيوشان أيتزيه" في الشارع وهما مُمسكان بـ "تاي إي لانغ"، وعندها فقط علّم أنهم أسرة. وقتها كان يرغب في إخبار "شين كاي ليو" أن زوج "تشيوشان أيتزيه" ربّما لا يزال على قيد الحياة، لكنه عندما رأى البهجة والسعادة على وجهه فضّل عدم فتح فيه، وفكّر أن "تشيوشان أيتزيه" ربّما قرّرت المضيّ في حياتها ودفنَ الماضي، لكن لم تُمرّ فترةٌ طويلة حتى جاءت ثانيةً إلى محلّه لتسأل عن أخبار زوجها الياباني.

عندها اضطرّ "ليو الأعرج" إلى إخبار "شين كاي ليو"؛ فهو لن يسمح لامرأةٍ يابانيّة أن تخدع ذلك البحّار الكادح.

كانت الفكرة الأولى التي جاءت على بال "شين كاي ليو" بعد سماعه لما قاله "ليو الأعرج" هي اصطحاب زوجته والارتحال بعيدًا، لكنه أحبّ مدينة "إيلان" الصغيرة، ولا يرغب في الرحيل عنها؛ لذا فكّر في أن الأمر الوحيد الذي سيجعل زوجته تتخلّى تمامًا عمّا في

قلبها هو خبرٌ مصرع والد "تاي إي لانغ"؛ لذا ترَجَّى "ليو الأعرج" أن يُسِكَ بذلك الرَّجُل الياباني لو جاء في يوم من الأيام لمحلِّه، ثم يُرسل أحدهم سرًّا ليُخبره بالأمر، عندها سيُفكَّر في طريقة للتخلُّص منه، فقال "ليو الأعرج": "زَوْجُهَا أُسِيرُ حَرْبِ الْآنَ، لَوْ قَتَلْتَهُ بِاعْتِبَارِهِ عَدُوًّا يَابَانِيًّا فَسَتُعَدُّ تِلْكَ مُخَالَفَةً قَانُونِيَّةً". ثم اقترح عليه فكرة أن يلتقط صورةً عائليَّةً له هو وزوجته وابنها ويتركها في محلِّ الأقمشة؛ فإن جاء زوجها فسُيريه الصُّورة، ويُخبره أن "تشيوشان أيتزيه" قد تزوَّجت أحدَ أقربائه، وهل هناك رَجُلٌ يُبقي على امرأة خاتنه؟

ورغم أن "ليو" كان أعرج، إلَّا أن فكرته تلك لم تكن عَرَجَاءَ، فقَبِلَهَا "شين كاي ليو". ولكنه لم يلتقط صورةً لهم هم الثلاثة، بل التقط صورةً له هو و"تشيوشان أيتزيه" فقط؛ فقد رأى أن الرَّجُلَ يُمكنه أن يتخلَّى عن زوجته، لكنه لن يتخلَّى عن لَحِمِهِ وَدَمِهِ، فلو رأى ذلك الرَّجُلُ "تاي إي لانغ" في الصُّورة فيستحيل أن يعود أدراجَه، وفي النهاية ترك "شين كاي ليو" في محلِّ الأقمشة صورتَيْن، الأولى: صورة نصفية يجلس فيها هو و"تشيوشان أيتزيه" مُتجاوِرين، وقد تعمَّد أن يضع يده على كتفها ليُعبِّر عن القُرب، وذلك رغم أن يَدَهُ كَانَتْ مُتصلِّبَةً، وملامح "تشيوشان أيتزيه" باردة. والصورة الثانية: كانت صورة ذات خَلْفِيَّةٍ لمُنظَرٍ طَبِيعِيٍّ، وعلى قُماش الخلفية جَبَلٌ بَعِيدٌ غَيْرِ وَاضِحِ الْمَعَالِمِ، ويجلس فيها هو بهيَّةٍ وقد تدلَّى من فمه غليونٌ، أمَّا هي فتقف بجواره وقد ارتدَّت عِبَاءٌ قُطْنِيَّةٌ، وفي يدها منديل وهي تنظر للأسفل. وعندما رأى "ليو الأعرج" هاتين الصُّورتين قال: "لماذا ليس بهما "تاي إي لانغ"؟".

فقال "شين كاي ليو": "لو سألكَ عنه أخبره أن سيارةً دهسته أثناء هروبه ومات".

فصاح "ليو الأعرج": "يا إلهي، إنَّكَ قاسٍ حقًّا".

فقال "شين كاي ليو": "هل أنتَ مع الصَّينِيِّين أم مع العفاريت اليابانيِّين؟".

فمطَّ "ليو الأعرج" شَفَتَيْه، وقال: "أنتَ هو مَنْ تَزُوجُ امرأةً يابانيةً وليس أنا، أنتَ هو مَنْ التقطَ غنائمَ العفاريت، فَمَنْ في رأيك مع العفاريت؟".

بعد هزيمة اليابان في الحرب انقَطَعَ الاتِّصال بين "تشيوشان أيتزيه" وبين أقاربِها في "ناجازاكي"، وبعد سنواتٍ في فصل الربيع وصلها خبرُ مَصْرَعِ أقاربها هناك، فالقنبلة النوويَّة التي ألقتها أمريكا على المدينة قتلت أباهَا وأخاها الأكبر، ولم يَنْجُ سوى أخيها الأصغر. وعندما عَلِمَت بنبأ مصرع أبيها وأخيها الأكبر، صنَّعت مصباحين عائمَيْن على النهر، ونثرت فوقهما الأقحوان الذهبِيَّ البرِّيَّ، واختارت ليلةً اكتمل القمرُ فيها وأخذت معها "تاي إي لانغ" ووَضَعَت المِصباحين على صفحة نهر "سونغها".

وقد توقَّف "شين كاي ليو" عن الإبحار مع المراكب خشيةً أن تهربَ زوجته؛ فعمل حملاً في مدينة "إيلان"، ورغم أن هذا العمل شاقٌّ، إلا أنه كان سعيداً؛ فقد صار يرجع كلَّ يومٍ إلى المنزل ليتناول الطَّعامَ الساخن، فتلك المكوِّنات العاديَّة تتحوَّل بين يَدَي "تشيوشان أيتزيه" إلى أشهى المأكولات، وفي المساء يشرب كأسين من الخمر، وينقع قدميه في الماء، ثم يُطْفِئ المِصباح على عَجَلٍ ويضمُّ زوجته إلى صدره ويَشُمُّ رائحةَ جسدها العَطرَةَ الخفيفة، عندها تغمره سعادةٌ تملأ القلب.

في البداية كان "تاي إي لانغ" يَنْفِرُ من "شين كاي ليو"، فلا يُحِبُّ الحديثَ معه، وعندما يجلسان إلى مائدة الطعام جميعاً لا ينظر إليه قطُّ، بل يكتفي بالنظر فقط إلى طَبَقِه، ولكن مع مرور الوقت تَعَرَّفَا على بعضهما أكثر وصارا حميمَيْن أكثر، وأخيراً اعترف "تاي إي لانغ"

بأبيه الصَّيْنِيَّ هذا، وصار "شين كاي ليو" بعد أن يعود إلى المنزل بعد يومٍ عَمَلٍ شاقٍّ يُقَدِّمُ له "تاي إي لانغ" طبقًا من الماء الدافئ ليغسل وجهه، ويُنَاولُه شَبَشَبًا كي يريح قدمه. كذلك أَحَبَّه "شين كاي ليو"، فصار يَسطحِبُه معه في أيِّ مكانٍ طالما لا عَمَلٌ لديه. وكان كُلُّ من الابنِ وأُمِّه يتحدَّثان الصَّيْنِيَّةَ، لكنهما لا يتحدَّثانها بطلاقة، وعندما عَلِمَ الجيران بقصَّتِهِما لم يعودوا مُرَحِّبينَ بهما كالسَّابق، فالأطفال لا يلعبون مع "تاي إي لانغ" أبدًا، فصار يلعب وحيدًا في الفناء، لكن اللَّعِبَ وحيدًا لا يستمرُّ كثيرًا؛ لذا كان في الأيام المُشمِسة يلعب ويلعب فينام. وعندما رأى "شين كاي ليو" الجيران يعادون أُسْرَتَه قال إنه قاتل العفاريث من قبل، ولكن لأنَّه ضَلَّ الطَّرِيقَ فقط وانقطع اتِّصالُه بِفِرْقَتِه انحدر به الحال إلى ما هو عليه الآن، وقد تزوَّج "تشيوشان أيتزيه" لأنَّه تَعاطَفَ معها هي وابنها، وأضاف أن الحربَ تَهْدِفُ لأن تعيش النِّساءُ والأطفال حياةً أفضلَ، فالنِّساءُ والأطفال في العالم كلُّه يجب أن يَحظُّوا بالرِّعاية والحُبِّ. لكن الجيران لم يَقْتَنِعُوا بكلامه، بل قالوا كيف لِرَجُلٍ حارَبَ العفاريث من قبل أن يتزوَّج زوجةً يابانيَّةً. وقد أُعجِبَت به جارَّتُهُم الأرملةُ، وحثَّتُه على تَرْكِ زَوْجَتِه والزَّواجِ منها، لقد سَمِعَتُه من قبل يقول إنه قاتل العفاريث فَرَجَّحَت على الفور أنه جنديٌّ هارِبٌ، وإلَّا فكيف انتهى به الحال إلى العملِ حَمَلًا في مدينة صغيرة مثل إيلان، لقد رحل اليابانيُّون، لكنَّ الحربَ لا تزال مُستمرَّةً بين الحزب الشيوعيِّ وحزب "الكومينتانغ" في "دونغباي"، فلو كان قد حارَبَ من قبل حَقًّا فكيف له أن يجلس هكذا هنا؟

في صيف هذا العام، رأى "تاي إي لانغ" أطفالَ الجيران يحملون السَّلَالَ ويذهبون للنَّهر لصيد الجمبري، وبعدها تتصاعد من بيوتهم رائحة صلصة الجمبري الشَّهيَّة، فسأل لعبه، وتَبِعَهُم ذات يومٍ وحمَلَ معه سَلَّةً مثلهم وذهب إلى النَّهر، وعندما رآه الأطفال الآخرون لم يُعيروه أيِّ اهتمامٍ. كان "تاي إي لانغ" قصيرَ القامة، ضئيلَ الجَسَدِ

ولا يجيد السباحة، فقلد الأطفال الآخرين وشمر بنطاله ونزل إلى النهر. كانت الشمس ساطعةً، لكن المياه كانت باردة، وما إن نزلها حتى تشنَّجت قدماه فارتعش جسده ووقعت السلَّة من يده إلى النهر، فطاردها مُتقافِزًا، وهكذا دخل إلى منطقة المياه العميقة؛ ففقد توازنه وصاح بصوتٍ عالٍ طالبًا النجدة، لكن الأطفال سمعوه وتبادلوا النظرات ولم ينطقوا بكلمة، فلم يقبل أيُّ أحدٍ منهم بإنقاذ عفريت صغير، وهكذا ظلُّوا مُحَدِّقين فيه والتَّيَّارُ السَّريعُ يبتلعه.

أخرج صيَّادٌ قُربَ مَصَبِّ النَّهْرِ جُئَّةَ "تاي إي لانغ"، كان فمه وأذناه ممتلئين بالطَّين، لكنَّ عينيه كانتا نظيفتين من أيِّ ذرَّةٍ تُراب، كانتا مفتوحتين، ورغم بصره المُتجمِّد إلا أن الرُّعب كان بادياً عليه.

وبعد موته صارت "تشيوشان أيتزيه" لا تنام مع "شين كاي ليو"، بل ينام كلُّ منهما على طَرَفٍ بَعِيدٍ من أطراف السرير، وإن اقترب هو من غطائها صرَّخت بصوتٍ عالٍ طلبًا للنجدة؛ ممَّا أصابه بإحباط شديد، تلك الفترة كانت ذرَّةٌ عودة اليابانيين من الخارج إلى وطنهم، فاليابانيون المتواجدون في "داندونغ" عادوا عن طريق كوريا الشمالية، واليابانيون المتواجدون في "داليان" عادوا عن طريق الجَيْش السُّوفِيَّتي. أمَّا الموجودون في المناطق الأخرى من "دونغباي" فقد توافدوا جميعًا إلى "هولوداو" وتمَّ إجلاؤهم عن طريق مَرَاكِبٍ أرسَلتها اليابان، وعندما لم تجد "تشيوشان أيتزيه" أيَّ أخبار عن زوجها، وبعد غَرَقِ ابنتها؛ لم تُعدَّ ترغب في البقاء هنا؛ فتلك الأرض لم يُعدَّ فيها من يُعينها على العيش، فاستعظفت "شين كاي ليو" ليُوصِّلها إلى "هولوداو" لتركب سفينةً وتعود إلى "ناجازاكي"، فعلى أيِّ حالٍ تلك هي الأرض التي ترعرعت فيها، ولا يزال لديها قريبٌ هناك. لكن "شين كاي ليو" اضطرب من كلامها، وقال: "أنتِ زَوْجتي، أنا فقط مَنْ أستطيع إنهاء علاقة الزَّواج تلك، هل تُفكرين في التَّخْلِئِ عني؟ مستحيل"، وهكذا حوَّل "شين كاي ليو" المنزلَ إلى سِجْنٍ؛ خشيةً أن تهرب زَوْجته، فسَدَّ



النَّافِذَتَيْنِ باستخدام الطِّينِ الأصْفَرِ، أَمَا الضَّلْفَةُ الوحيدة التي تركها  
فقد وَضَعَ أمامها لوحَيْنِ عازِلَيْنِ يفتحان بشكلٍ مُتْقَابِلِنِ ووضَع عليها  
قُفْلًا، كان يُغْلِقُه بإحكامٍ عندما يخرج إلى العملِ وَيُعَلِّقُ المفتاحَ على  
خَاصِرَتِه. فأصْبَحَتْ "تشيوشان أيتزيه" محبوسةً في منزل كِسْجِن تحت  
الأرض لا تدخله الشمس، كانت بَشْرَتُهَا بيضاءَ فصارت أكثرَ بَيَاضًا.

وذات يومٍ مُمَطِرٍ غَائِمٍ، لم يخرج "شين كاي ليو" للعمل، بل أخذ  
مظَلَّتَه وخرج مع زوجته للتَّنَزُّه، وعندما مرًّا بِمَحَلِّ أدوات مكتبية  
توقَّفت "تشيوشان أيتزيه" رغبةً في شراء بعض الأوراق، فدخل معها  
"شين كاي ليو". فاخترت رُزْمَةً من الورق الفاخر المصنوع من ألياف  
البامبو، كان الورق لِيَنًا خفيفًا رقيقًا، ومَلَمَّسُه ناعمًا، ولونه ليمونيًّا،  
وله رائحةٌ عَطِرَةٌ خفيفة، وقد اعتقد "شين كاي ليو" أنها ستستخدمه  
كورق مرحاضٍ، فسَخِرَ منها، قائلاً: "هل مُؤَخَّرْتُكَ نفيسةً لتلك الدرْجَة  
حقًّا؟"، فهزَّتْ رأسها نافيةً، ولم تنطق سوى بكلمتين "أرسم، رسم؛"  
ففكَّرَ "شين كاي ليو" أن الرَّسْمَ ليس بالأمر السيئ، بل إنها بهذا  
الشكل ستُلهي تفكيرها عن العودة لليابان؛ لذا اشترى لها الورق على  
الفور، واشترى أيضًا حَبْرَ أقلامٍ. وما إن عادت إلى المنزل حتى قصَّت  
الورق، وضمَّتَه مع بعضه باستخدام حَبْلِ رقيق، وصنَّعت منه ألبوم  
رَسْمٍ. وصارت كلُّما خرَجَ "شين كاي ليو" للعمل بقيت هي في المنزل  
ترسم على ضوء المصباح، فلم يتحمَّلَ "شين كاي ليو" تكلفةَ زَيْتِ  
المصباح، لِذَا فَتَحَ فُرْجَتَيْنِ صغيرتين في حواجز النافذة، فكان شريطًا  
الضوءِ الطَّبِيعِيِّ الدَّاخِلانِ عبرهما إلى داخل الغرفة يُعَادِلانِ إشعالَ  
شَمْعَتَيْنِ من أجلها.

في كل رسمةٍ رَسَمَتِها "تشيوشان أيتزيه" كان هناك أثرٌ لمراكب،  
منها الكبيرة والصغيرة، والكثيرة والقليلة، ولكن كلُّها كانت راسيةً على  
الضَّفَّةِ، وكل مركب منها ممتلئٌ بالبشر، رجالٌ ونساءً وأطفالٌ وشيوخ،  
منهم مَن يحمل صُرَّةً مَتَاعِه على ظَهْرِه، ومنهم مَن يحمل مجرقةً

على كتفه، ومنهم مَنْ يحمل سنابل قمحٍ بين يديه، ومنهم مَنْ يرفع مصباحًا، ومَنْ يمسك بلجامِ حصان، أو يسوق كلبًا، وكلهم يبدو التَّعَبُ على ملامحهم، كلُّ هذا كَشَفَ عن رغبتها في العودة لوطنها المدفونة في أعماق قلبها، تلك الترسانة التي صنَّعتها من أوراق البامبو رافقتها في عددٍ لا حصرَ له من الأيام المظلمة.

وفي خريف عام 1948 انتهت بالكامل عمليَّاتُ عودَةِ اليابانيِّين لوطنهم، ففكَّر "شين كاي ليو" أن زوجته لن تستطيع العودة لليابان حتى لو مَتَّ لها أجنحة، إنها لن تستطيع الهرب، ومِن ثَمَّ أعاد البيت لوضعه السابق، وفتح النوافذ المسدودة، وأزال الحواجزَ عن النافذة. وبعد أن حصَلت "تشيوشان أيتزيه" على حُرِّيَّتها ثانية، هرَعَت إلى محلِّ "ليو الأعرج" وعَلِمَت منه أن زوجها الياباني لم يَظْهَر قَطُّ، فتنهَّدت تنهيدةً طويلة، ويبدو أنها استسلمت لَقَدْرِها؛ فاشترت ثلاثَ أقدامٍ من القماش الأزرق، وفصَّلت سروالًا جديدًا من أجل "شين كاي ليو". وبحلول الشتاء، برَزَت بطنُها، فطار "شين كاي ليو" من السعادة، وهو الذي كان يحلم دائماً بأن يكون أبًا، واهتمَّ كثيرًا بتغذيتها، وفي ربيع العام التالي أنجَبَت "شين تشي زا"، وهكذا تحقَّقت أمنية "شين كاي ليو" في أن يحتضنَ ابنًا بدينًا من صلبه.

وعندما أتمَّ الوليدُ شهرًا، أقام "شين كاي ليو" مأدبةً في منزله دعا إليها أصدقاءه لشربِ الخمر؛ احتفالًا بالمولود. لكن كلُّ مَنْ كان يرى الطفل يُقطَّب حاجبيه ويقول إنه لا يُشبهه أباه. في البداية لم يُعرِّهم "شين كاي ليو" اهتمامًا، فمِن وجهة نظره أنَّ كلَّ الأطفال الصغار متشابهون، إلى أن وصل الطُفْلُ إلى عمر ثلاث سنوات، هذا الوجه صار مُختلِفًا تامًّا الاختلاف عن وجهه، فبدأ الجيران يتهامون سرًّا حول هذا الأمر من وراء ظهره، عندها فقط بدأ الشُّكُّ يتسرَّب إلى قلبه. فاستجوب زوجته بدقَّة حتى عَلم أنها غير متأكَّدة أيضًا إذا ما كان الطفل من صلبه أم لا، فقبل أن تحمَلَ به نام معها بالقُوَّة رجلان

آخران غير "شين كاي ليو". فتمكّن الغضبُ من "شين كاي ليو" وسألها لماذا لم تُخبره من قبل؟ فردّت أنها خافت أن يُجبرها على تناول أدوية إجهاض، لقد فقدت "تاي إي لانغ" وتعطّشت لإنجاب طفلٍ غيره. فسألها مَنْ هُما هذا الرجلان؟ فأطرقت برأسها وقالت إنهما جاءا تحت جُنج الظلام، فلم تتبيّن ملامحهما، هي فقط تعرف أن أحدهما سمينٌ لكنه ضعيف، والآخر نحيفٌ لكنّه قويٌّ. إنهما شخصان مختلفان، وقبل أن يرحل كُلُّ منهما ألقى على مَسامِعِها نفس الكلمات، فقال إن هذا انتقام للأقارب الذين ماتوا على يدِ اليابانيين، وبعد أن سمع "شين كاي ليو" كلماتها تلك صَفَع نفسه من شدّة الغضب، وقال: "كان من الأفضل الاستمرار في حبسكِ بالمنزل".

ثم فكّر بعدها أن الجرائم التي ارتكبتها اليابانيون في "دونغباي" لا تُعدُّ ولا تُحصى، فلو جاء الضحايا لزوجته بحثًا عن تصفية حسابٍ، فإن امرأته ستصير عاهرة لهم. وقد سمع أن منطقة "سونغشان" شديدة البرودة، وعدد سُكّانها قليل؛ لذا أخذ زوجته والطفل ورحل عن "إيلان"، واتّجه شمالًا حتى استقرّ في قرية "لونغ تشان". وقد أحبّ من نظرةٍ واحدةٍ تلك القرية المبنية فوق الجبل؛ فهي قريبةٌ من الشمس، والفاقدون فيها قليلون؛ لذا استقرّ هنا، وعاش أيامهم في هدوء.

لكن قلب "شين كاي ليو" ظلّ مُضطربًا تجاه مسألة إن كان "شين تشي زا" من صُلبه أم لا؛ لذلك فكّر في أن تُنجب له "تشوشان أيتزيه" طفلًا ثانيًا، حتى تنزاح تلك الوسوس من قلبه نهائيًا، فمارسا الحبّ كثيرًا، ولكن بلا جدوى، وظلّت بطنُها مثل المياهِ الراكدة التي لا حركةَ فيها، أمّا "شين تشي زا" فكان يكبر يومًا بعد يوم.

في البداية لم يكن أهالي قرية "لونغ تشان" يعلمون أن "تشوشان أيتزيه" يابانية؛ فقد أخبرهم "شين كاي ليو" أنها من "شاندونغ"، ولكن

بعد نصف عامٍ فقط شعرَ النَّاسُ بأمرٍ غريبٍ في لهجتها، فعلى سبيل المثال كانت تحبُّ إضافةً كلمة "يمتلك" وسط كلامها، فإذا ذهبت إلى محلِّ الغلال سألت البائع: "هل مَمْتَلِكُ ذُرَّةً رَفيعة؟"، ولو صادفت جارا لها تسأله: "هل مَمْتَلِكُ ما تأكله؟"؛ فعرف النَّاسُ من لهجتها أنَّها يابانية. وعندما وصل التعداد السُّكَّانيُّ إلى قريتهم لم يعد أمام "شين كاي ليو" مفرٌّ من كُشف هُوَيتها الحقيقية، فليدهما طفلٌ يحتاج إلى إثبات هُوَية، ولن يعيش طوال عمره بلا أوراق.

وفي العام الثاني من حصولهم على أوراق الهوية، اختفت "تشوشان أيتزيه" فجأةً في فصل الخريف. وظلَّت وجهتها لغزاً، فهناك مَنْ قال إنها لم تنسَ زوجها اليابانيَّ لذا هاجرت بشكلٍ غير شرعي للاتحاد السوفيتي، وذهبت إلى "سيبريا" بحثاً عنه، وهناك مَنْ قال إن دُبا أسود التهمها عندما كانت تَجمع فُطرَ عيش الغُراب في الجبل، وهناك مَنْ قال إنها هربت مع مُغنيٍّ شارع، ومَنْ قال إنها ذهبت للبحر واستقلَّت مَرَكَبَ تهريبٍ غير شرعي وعادت لليابان، وهناك أيضاً مَنْ قال إنها سَيِّمَت حياة البَشَر فتزوَّجت من ثعلبٍ برِّيٍّ، ومن هنا بدأ "شين كاي ليو" رحلة بحثه الطويل عنها. لقد أخذ صورتها وعاد إلى "إيلان"، وذهب إلى محلِّ "ليو الأعرج"، وذهب إلى المكان الذي كانت به فرقة "تيانجين"، وذهب إلى "هولوداو"، و"داليان" و"يانتاي"، لكن لم يجد أيَّ شخصٍ قد رآها، ولم تُثمر عودته إلى "إيلان" عن أيِّ نتيجة فحسب، بل سبَّبت له المتاعبَ أيضاً، فالأرملة "وانغ" التي طالما أرادت الزَّواجَ منه طارت من السعادة عندما سمعت باختفاء زوجته، وتتبعته حتى قرية "لونغ تشان" كي تُصبح زوجته، لكنه رفض باستماتة، وفي غمرة يأسها قرَّرت الأرملةُ "وانغ" الانتقامَ منه؛ لذا نشرَّت قبل رحيلها خبراً أنه جُنديٌّ هارب، وأنه خائن، وهكذا كان احتقار أهالي القرية وتجنُّبهم له على علاقةٍ كبيرة بالأرملة "وانغ". لقد تحدَّثوا بأنه غير قادر على نسيان امرأة يابانية، وفي نفس الوقت

يُعَامِلُ أَخْتًا لَهُمْ بِكُلِّ ذَلِكَ الْبُرُودِ وَالْقَسْوَةِ، إِنَّهُ حَقًّا خَائِنٌ لِقَوْمِيَّتِهِ،  
وَفِي تِلْكَ السَّنَوَاتِ عِنْدَمَا كَانَ "شَيْن كاي ليو" يَخْرُجُ بَحْثًا عَنِ زَوْجَتِهِ،  
وَيَتْرِكُ "شَيْن تشي زا" لَدَى مَنَازِلِ الْآخَرِينَ لِلْاعْتِنَاءِ بِهِ، كَانُوا حِينَئِذٍ  
يَتَحَدَّثُونَ بِالسُّوءِ عَنِ "شَيْن كاي ليو" لَا يَتَجَبَّبُونَ الْكَلَامَ أَمَامَ "شَيْن  
تشي زا"؛ لِذَا بَدَأَتْ كَرَاهِيَةُ "شَيْن تشي زا" لِوَالِدِهِ مِنْذُ طِفُولَتِهِ.

لَمْ يَتَزَوَّجْ "شَيْن كاي ليو" مِنْ امْرَأَةٍ أُخْرَى، فَقَدْ عَجَزَ عَنِ نَسِيَانِ  
"تشيوشان أيتزيه"، خَاصَّةً رَائِحَةَ جَسَدِهَا، الَّتِي كَلَّمَا تَذَكَّرَهَا سَالَتْ  
دُمُوعَهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ تَرَكْتَهُ كَانَ كَنَزًا عَزِيزًا فِي عَيْنَيْهِ؛ لِذَا لَمْ يَأْخُذْ أَيًّا  
مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ أَبَدًا إِلَى سُوقِ الْبَضَائِعِ الْقَدِيمَةِ. وَكَانَ أَكْثَرَ مَا يُحِبُّهُ  
هُوَ ذَلِكَ الْأَلْبُومُ الْمَصْنُوعُ مِنْ وَرَقِ الْبَامْبُو، فَكَانَ يُخْرِجُهُ فِي كُلِّ عَامٍ  
جَدِيدٍ لِيَنْظُرَ إِلَى تَرْسَانَةِ السُّفْنِ الْمَوْجُودَةِ بِهِ؛ فَقَدْ رَغِبَ فِي أَنْ يَسْتَدِلَّ  
مِنْهُ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ، لَكِنَّهُ عَجَزَ عَنِ ذَلِكَ؛ فَكُلُّ  
السُّفْنِ لَمْ تُقْلِعْ رَغْمَ امْتِلَانِهَا بِالنَّاسِ، فَفَكَّرَ أَنَّهَا رُبَّمَا تَحَوَّلَتْ إِلَى طَائِرٍ  
وَحَلَّقَتْ بِحُرِّيَّةٍ فَوْقَ الْبَحَارِ، إِنْ الرُّوحُ الَّتِي تَسْتَطِيعُ الْخَطْوَ فَوْقَ  
الْأَمْوَاجِ دُونَ أَنْ تَتْرَكَ أَثْرًا بِالتَّأَكِيدِ هِيَ أَجْمَلُ رُوحٍ.

وَبَعْدَ أَنْ أَنْجَبَتْ "أَنْ شُوِيهِ أَرْ" طِفْلَهَا، رَغِبَ "شَيْن كاي ليو" بِشِدَّةٍ  
فِي إِهْدَاءِ هَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ لِحَفِيدِهِ، وَذَلِكَ رَغْمَ عَدَمِ وُجُودِ قَرَابَةٍ دَمٍ بَيْنَهُمَا،  
إِلَّا أَنَّ "شَيْن كاي ليو" شَعَرَ أَنَّهُ جَدُّ لِهَذَا الطِّفْلِ، لَقَدْ اخْتَارَ الْأَلْبُومَ  
وَرَقَّ الْبَامْبُو الَّذِي تَرَكْتَهُ "تشيوشان أيتزيه" لِيَكُونَ هَدِيَّةً حَفِيدِهِ؛ فَهُوَ  
يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي ظِلِّ حِمَايَةِ "أَنْ شُوِيهِ أَرْ" لَنْ يَذْهَبَ هَذَا الْأَلْبُومُ إِلَى  
الْمَقْبَرَةِ، وَكَانَ فِي نَهَايَةِ الْأَلْبُومِ عِدَّةُ صَفْحَاتٍ فَارِغَةٍ؛ لِذَا حَادَاهُ الْأَمْلُ أَنْ  
يَمْلَأَهَا الطِّفْلُ بِرَسُومَاتِهِ حِينَ يَكْبُرُ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

## 15

### كَهْفُ الْجَدِّ الْمَرْقَطِ

أُطَبِّقَت يَرْقَاتُ الصنوبر على ربيع قرية "لونغ تشان".

في السنوات السابقة حين يذوب الثلج وتذبل زهور الفصح والأزاليا، تبدأ الزنابق والفوانيا والأقحوان البري ولوتس الحصان في التفتح بين الغابات، لكن في هذا العام تعرّضت الغابات لآفة يرقات الصنوبر، والتي منعت الزهور من التفتح.

تسبب قطع الأشجار المستمر من سنوات طويلة في تقديم مهدٍ دافئ لتكاثر تلك اليرقات، والغابات إن أصابها يرقات الصنوبر فإنها تصير ككنز زمرّد وقع تحت أعين زمرة لصويص: سيتعرض للنهب حتى ينقد، وستصفر أوراقها وتذبل جذورها. وقتها تبدو الغابات كما لو أن فيها جنازة، فتبدو متوعكة خالية من الحيويّة. وهكذا أصبحت مساحة مائتي ألف "مو"<sup>(1)</sup> من الغابات التابعة لمحافظة "تشينغشان"

(1) المو- وحدة قياس لمساحة الأراضي في الصين وتساوي 666 متر مربع- المترجم

مرتعاً ووليمة ليرقات الصنوبر، ففقدت الجبال رونقها، فاضطرت الجهات الحكومية لاستخدام المروحيات لرش المبيدات.

تلك المبيدات قتلت اليرقات، وقتلت معها الحيوانات والنباتات التي لا تستحق الموت؛ فذبلت الزهور، وتوقفت الطيور عن الغناء، وتلوّثت الأنهار، وطفت الأسماك الميتة على صفحة الجداول بين الغابات، وتناثرت جثث البط البري على ضفاف الأنهار، وانتشرت رائحة السناجب والأرانب البرية الميتة بين الغابات، حتى الغربان التي تتغذى على اللحم المتعفن صارت نادرة الوجود. وكان أهالي قرية "لونغ تشان" يحبون قطف الخضروات البرية في الربيع، ويحبون تناول أسماك موسم فتح النهر بعد تجمده، لكنهم في ذلك الربيع ودّعوا تلك المأكولات اللذيذة.

وكان "تانغ هان تشينغ" بمجرّد أن يرى المروحيات في السماء ترش المبيدات يشتاظ غضبًا ويتقافز وهو يسب بصوت عالٍ، قائلاً إنه سيذهب إلى لواء الثعالب البرية لسرقة مدفع رشاش لإسقاط تلك الطائرات. أمّا المياه التي تُغذي القرية فهي تأتي من نهر "جيلوا"، وبعد نُفوق الحيوانات والطيور بأعدادٍ ضخمة، أظهرت تحاليل مياه النهر وجود أمرٍ غير طبيعيٍّ في جودة المياه؛ لذا أمر "تانغ هان تشينغ" بإغلاق محبس سحب الماء في محطة المياه، ودعا الجميع إلى شرب مياه الآبار؛ لأن الطائرات تتجنب التجمعات السكنية عند رش المبيدات؛ لذا فالمياه في تلك الأماكن آمنة نسبيًا.

هناك ثلاثة آبار عميقة بقرية "لونغ تشان"، بئر في المدخل الشمالي، وبئران في الضلع الجنوبي الشرقي. وبعد دخول شبكة المياه إلى القرية لم يعد أحدٌ يستخدم تلك الآبار الثلاثة، ورغم أن مياهها ظلت صافيةً منعشةً، إلا أن الطحالب ممت على جدرانها، ولقت فوّهاتها شباك العنكبوت. فقاد "تانغ هان تشينغ" الرجال وظلّوا يعملون لمدة ثلاثة

أيام بلياليهم حتى نظّفوا الآبار، وغيّروا بَكَرَات البئر المتهالكة وحباله القديمة بأخرى جديدة. وأخرج النَّاسُ دِلاءَ وَعِصِيَّ حمل الماء التي لم تُسْتَخْدَم لسنواتٍ طويلة، وخرجوا لجلب المياه، أمّا سُكَّان المنحدر الغربي والزاوية الجنوبية الغربية، فقد تعالت أصوات شكواهم طوال طريق حَمَلِهِم للماء وصعود المنحدر.

أمّا العَمَّة "دان سيه" فكانت روحها مُضْطَرَبَةً في تلك الفترة؛ لذا بحثت عن عملٍ شاقٍ لِيُلْهِيهَا، فَتَعَرَّقُ جَسَدِهَا قد يُصْفِي ذهنها؛ لذلك لم تَعُد تبيع الفطائر، بل أَخَذَتْ "دان شيا" معها، وصارًا يَحْمِلَان الماء لهؤلاء العاجزين عن الحركة، أو للأسر التي لا تريد التَّعَب. الحمل الواحد بثلاثة يوان، ويمكنهما على الأقل نَقْلُ عِشْرِينَ حِمْلًا يَوْمِيًّا، ليكسبا سِتِّينَ أو سبعين يوان، هذا النوع من التجارة الذي لا يحتاج لرأس مال كان أفضل بكثيرٍ من بيع الفطائر.

كانت هُموم العَمَّة "دان سيه" نابعةً من طلب الزواج الذي تَقَدَّمَ به "لاو واي"، أمّا "لاو واي" فقد فعل ذلك بسبب رحيل "دان أر دونغ".

لقد ظلَّ "دان أر دونغ" بعد عودته قابِعًا في الحظيرة، وازداد تواصله أكثرَ وأكثرَ مع العَمَّة "دان سيه" وابنه "دان شيا" منذ فتح تلك الفتحة في الجدار. لكنَّ كِتَابَهُ "مُذْكَرَات الصُّعُود للسَّمَاء" كتب فيه حتى منتصفه ثم أصبح كالنَّهْر الذي انقطع تِيَّارُهُ فجأةً، فجفَّت أفكاره وعجز عن كتابة ثلاثة أسطرٍ حتى في اليوم. فبدأ يشعر بالاضطراب والقلق، وكعادته قبل سنواتٍ طويلة، ألقى اللُّومَ على العَمَّة "دان سيه"، فتذمَّر من أنَّها كل يوم في الصباح الباكر تسحب الحِمَارَ خَارِجًا؛ ممَّا يُزعج أحلامه، وأحلامه هي المنبع الأساسي لذلك الكتاب، وتذمَّر من ارتدائها للملابس الرمادية فصارت أشبهَ بِسَحَابَةٍ سوداء تتطاير أمام عينيه جعلت كتاباته تَفْتَقِر للسَّمَاء الزرقاء، وتذمَّر من أنها لا تغسل أسنانها جيّدًا حيث تَعْلَقُ بقايا الطعام



بين فتحات أسنانها؛ ممَّا يجعل أنفاسها غيرَ نَظيفةٍ وتخنقه وتحجب عن مُخِّه الأَكْسِجِين؛ ممَّا أفقَدَ قلمه قُدراته الإبداعيةَ، وتَدَمَّرَ من استخدامِها للمِغْرِفَةِ لِعَرْفِ مياهِ غسلِ القدور؛ فجعل الدُّهون تلتصق بالمغرفة كأنها وجهُ عاهرةٍ مُغَطَّى بالأصباغ، فصار الشَّاي الذي يُصنَعُ باستخدامِ تلكِ المِغْرِفَةِ مُمتلئًا بالروائحِ الكريهة التي أثَّرت على عقله بعد شُرْبِهِ.

"دان أر دونغ" مُحِبٌّ للمناظر الطبيعية في قرية "لونغ تشان"، وكان في الماضي حين يعجز عن الكتابة يذهب ليتجوَّل في الجبال كي يهبط عليه الوحي. لكن الربيع هذا العام كان ربيعًا مُشوِّهاً؛ فالغابات تفوح منها رائحةُ مُبيداتٍ تُزَكِمُ الأنوفَ جَعَلتَه يخنق. وهكذا لم يَعدُ هناك جَوْ مُناسِبٌ للكتابة، سواء داخل البيت أو خارجه، فهرب من قرية "لونغ تشان" وعاد مرَّةً ثانيةً للمدينة. والعَمَّةُ "دان سيه" المسكينة رَعَتَه حتى أضاء وجهه، لكنَّ هذا الوَجْهَ تَدَمَّرَ من ظلامِ منزلها؛ فذهب ليضيء منازلٍ أخرى. وعندما اكتشف "دان شيا" غيابَ الشخص الذي كان يسكن في الحظيرة سأل أمَّهُ: "لماذا رحل "تشين شيه ماي"؟".

فردَّت عليه أمُّه: "كُلُّ مَنْ اسمهم "تشين شيه ماي" لا يبقون حتى النهاية". وفي اليوم الثالث بعد رحيل "دان أر دونغ" اكتشفت العَمَّةُ "دان سيه" بعد رجوعها من بَيْعِ الفطائر في السوق الجنوبي أن "دان شيا" قد سَدَّ الفتحة بين المنزل والحظيرة، فعادت كما كانت، وعاد الحِمَارُ الأسود أيضًا إلى مكانه القديم.

فقالت: "لقد سَدَدَتِ الحائط، ما العمل لو عاد ثانية؟"، فردَّ عليها وهو يمسح سِكِّينَ البناءِ بالعُشبِ الجاف: "الحمار دخل لمنزلنا وتعرَّضَ للضَّرْبِ يوميًا بالسُّياط ولم يَرَحَلْ عَنَّا، بل ويعمل كلَّ يوم، أمَّا هو فدخل منزلنا ولم يَقُمْ بأيِّ عمل، وأعطيناها المَسْكَنَ والمأكل،

ومنحناه الضوء، ورحل هكذا فجأة، مثل هذا الشخص لو عاد ثانيةً  
من سيظلُّ يُحِبُّه؟".

فحدّقت العَمَّة "دان سيه" في ابنها؛ فهو لم ينطق من قبلُ بمثل  
تلك الكلمات الطويلة، ولم ينطق من قبلُ بمثل هذا المنطق؛ فاحتضنته  
في فرحةٍ، وقالت: "ابني ليس أبله".

فقال "دان شيا" بامتعاظٍ: "ها... إن لم أكن أبله فلماذا لا أساعد  
الآخرين في العمل؟".

وبينما هما يتحدّثان جاء "لاو واي". كان عائداً لتوّه من السوق،  
ويحمل على كتفه مقعداً، وفي يده لحمُ الخنزير، أمّا الحقيبة التي  
يحملها بشكلٍ مائلٍ على خصره فيبرز منها عنقُ زجاجة صلصة  
صويا وزجاجة خلّ. فوضع المقعد أولاً، بعدها وضع الطعام، ثم قال  
موجّهاً كلامه للعَمَّة "دان سيه": "ما الفرقُ بين قدوم "دان أر دونغ"  
إلى هنا وبين قدوم "شين شين لاي"؟ حقاً، لقد كنتُ أعمى البصيرة  
واعتقدتُ أنه تغيّر وغير عيوبٍ ماضيه وسيعيش معك في سلام. لا  
تحزني على هذا الحيوان؛ فهو لا يستحقُّ منك حُزناً، وأنتِ تعلمين  
جيداً مَنْ هو "لاو واي"، لا عيوبٍ فيه سوى حُبّه للنساء، وهذا ليس  
مدحاً في ذاتي، ولكن قلبي طيّبٌ، وأعتقد أنكم أنتنّ النساء تفهمن  
جيداً أن العثور على رجلٍ طيّب القلب هو بمثابة العثور على مياهٍ  
جيدة، اقفزي فيها واسبحي بشجاعةٍ واطمئنان، إننا متقاربان في  
العمر، وظروفنا متشابهة، وملامحنا متوسطة، فإذا كنتِ لا تَريين فيّ  
عيباً، فأبقي على هذا الكرسي واحجزي لي به مكاناً في حياتك، وأنا  
لا أطمح في أن يناديني "دان شيا" "أبي"، لِنَعِشْ أنا وأنتِ كتفاً بكتفٍ،  
أبيع أنا "الدُوفو"، وتبيعين أنتِ فطائر الصّاج، وسنعيش معاً أيّاماً  
مُشرقة، امنحيني شهرين أو ثلاثة أُلِمِّم فيها شذرات قلبي، بعدها  
ننقل متاعنا ونعيش سوياً، ما رأيك؟".

فلم ينتظر "دان شيا" ردًا من أمه، بل صاح بصوتٍ جهوريٍّ: "أرى أنه أمرٌ جيّد"، ثم أخذ مقعد "لاو واي" إلى داخل المنزل، ووضع الخَلَّ وصلصة الصويا على رَفِّ التَّوَابِلِ في المطبخ، ووضع قطعةَ لحم الخنزير على لوح تقطيع الخضروات. وعندما وجد سَكِّينَ الخضروات باردةً قليلًا، أخذ المبرد وبدأ في سَنِّ السَّكِّينَ بعد غَمْسِهَا في الماء.

وهكذا خرج "لاو واي" من منزل العَمَّة "دان سيه" وسطَ صليلِ سَنِّ السَّكِّينَ.

بعدها عندما ذهبَت العَمَّة "دان سيه" لحَمَلِ الماء مع ابنها، لم يقف "لاو واي" بلا عملٍ، بل هرع إلى المدينة، لقد انشغل في إنفاق النقود، حتى "الدوفو" توقَّف عن بيعه؛ فقد فكَّر أنه بعد الزواج يجب أن يصير مسؤولًا تجاه العَمَّة "دان سيه"، فلا يجوز أن ينام ثانية مع العاهرات؛ لذا تَسَكَّع في هذه المرَّة بأرجلٍ مرتعِشة في أماكن تجارة اللحم الرخيص بمدينة "تشانغتشينغ"، فصار يَخْرُج من بيت الدعارة هذا لِيَدُلِّف إلى ذاك، كأنه يودُّ أن ينام مع كلِّ مَنْ يمكن النوم معه، وظلَّ هكذا حتى أنفق كلَّ ما معه من أموال، وأصابه الإرهاق التام، عندها فقط عاد أدراجه.

لم يركب السيارة في رحلة العودة، بل سار على قدميه، وفكَّر في وداع ماضيه عبر هذا السَّير الطويل، ولِيُفكِّر أيضًا في حياته المستقبلية الجديدة مع العَمَّة "دان سيه". كان بحقيقية ظهِّره فطائرٌ مَقْلِيَّة بالمُح، ولحم بقر بالصلصة، وخمر ومياه معدنية. وسار على طول الطريق الجَبَلِيَّ ليسير تارةً ويرتاح تارةً أخرى. كانت آفة يرقات الصنوبر قد مَتَّ السيطرة عليها؛ لذا بدأت الغابات في استعادة عافيتها تدريجيًّا، وأزال عطرُ الغابات رائحة المبيدات الحشرية. وعندما تَمَلَّكَه التعبُ والعطش، جلس "لاو واي" على صخرة، وسحَبَ نَفْسًا عميقًا رَطَّب به حلقه الجاف. كانت الشمس ساطعةً قوية، وسطح الصخرة ساخنًا،

ولكن بمجرد أن جلس عليها صارت باردةً كما لو كان في قلبها مدفونةً روح واحدٍ من الأسلاف.

وفجأةً غيرَ "لاو واي" رأيه، فلم يعد يرغب في الزواج من العمّة "دان سيه"، وكان هذا في طريق عودته. لقد سار حتى بلغ منتصف الطريق، وجلس بجوار جدول ماءٍ صغير، وفتح حقيبة ظهره وشرب الخمر وتناول اللحم. في ذلك الربيع كانت الطيور قليلةً، والغابات هادئةً بشكل غير معتاد، وبعد أن شرب "لاو واي" نصف زجاجة خمرٍ شعر بالنعاس، فتوسّد حقيبته وغرق في النوم، وعندما استيقظ كانت الشمس قد مالَت نحو الغرب، فنهض مُرتعشًا، واكتشف وجود فراشة صفراء بحجم ظفر الأصبع تطير برشاقة وتتراقص على أطراف الأعشاب. أسعده رؤية كائن حيٍّ وسط الغابات، فطارد الفراشة حتى وصل إلى غابةٍ كثيفةٍ من أشجار البتولا، تلك الغابة لم تضربها الآفات، فكانت أوراقها نضرةً لامعة، والزهور البريئة أسفلها مُفتحةً في موعدها، وتمامت فيها نباتات "خُفّ السيدة" ذات اللون الأحمر الوردى مع زهور الأقحوان ذات اللون الذهبي، وتحتهم ترعرعت نباتات البامبو الأبيض القصيرة. ذلك البامبو الأبيض بدا كريستاليًا لمُاعًا مثل قطرات الماء المتناثرة التي تُشعل في الإنسان الرغبة في ارتشافها. أحبَّ "لاو واي" زهور تلك المنطقة، وفكّر في قطف باقيةٍ منها ليهديها للعمّة "دان سيه"، وكان قطفه للزهور هو ما أيقظ الخوف من الزواج في قلبه؛ فقد قطفَ نبات "خُفّ السيدة"، فأحبّه للحظات، بعدها أحسَّ أن نبات البامبو الأبيض أكثر رِقَّةً منه؛ فاندفع نحوه، ولكن بعد أن وقع البامبو الأبيض في يديه، أحسَّ أن لونه باهتٌ بشكل زائد عن الحد، وأن لون الأقحوان الأصفر أكثر بهاءً فتحوّل نحوه، وبعد أن قطف الأقحوان وصار بين يديه، أحسَّ أن لونه فاقعٌ بشكلٍ زائد عن الحد، وبينما هو في تردُّده، استدار بجسده فاكتشف في مكانٍ غير بعيد زهورَ الفوانيا وردية اللون، تلك الزهور كانت مُزدهرةً وتفوح

منها رائحة عَطرَة، لكنه بعد أن قَطَفَهَا شعر أن بتلاتها مرتفعةً بشكل زائدٍ عن الحَدِّ. وهكذا نظر "لاو واي" إلى الزهور البرِّيَّة مختلفة الألوان التي يَضُمُّها لصدرة وأطلق صيحةً تَعَجُّب وفكَّر في أنه وسط هذه الباقَة الجميلة لم يجد زهرةً واحدةً تروق له تمامًا، وإذا ما قارن العمَّة "دان سيه" بتلك الزهور فإنها لا تُضاهي أيَّ واحدة منها، فكيف لها أن تأسر قلبه؟ ما المُمتِع في قضاء العمر مُمسِكًا بزهرة واحدة ذابلة؟

حمل "لاو واي" باقة الزهور وخرج من الغابة وأوقف سيارَةَ نَقْلٍ بالطريق العام وسط الجبال، وركبها عائداً إلى قرية "لونخ تشان" وتوجَّه مباشرة إلى منزل العمَّة "دان سيه"، فلم يجد فيه سوى الحمار، فعرف أنها ذهبت هي وابنها لحمل الماء، فذهب على عَجَلٍ إلى البئر الموجودة في المدخل الشمالي بحثًا عنها. وما أن رآها حتى وضع باقة الزهور البرِّيَّة في أحضانها، بعدها ركع على ركبتيه، فاعتقدت هي أنه بهذا يطلب الزَواج منها، فتنهَّدت وقالت: "إنك ليس لديك أطفال، فلا تعرف أن مَنْ لديهم أطفال يعيشون فقط من أجلهم، لو كان "دان شيا" فَرِحًا بأن تكون أنت والِدَه، فسأتبع أنا إرادته".

كلماتها تلك كانت بالنسبة لـ "لاو واي" كأنه سَمِعَ أمرًا بقطع رأسه، ففزع حتى كادت روحه أن تخرج من جسده، فخرَّجت الكلمات من فمه بلا ترتيب: "أيتها العمَّة "دان سيه"، يا إلهي، كيف أقولها؟ لقد أفسدت الزهور البرِّيَّة زواجنا، لا... لا... ليست الزهور البرية، إنها تلك الفراشة الملعونة، كيف أقولها لك، كنتُ أرتاح في الغابة، وأكلتُ لحمًا وشربتُ خمرًا ونمتُ قليلًا، وعندما استيقظتُ رأيت فراشة. أه... فراشة، وكذلك زهورًا برِّيَّة، هؤلاء الملعونون كانوا كلهم جنِّيَّاتٍ، يفتحن أفواههنَّ ويتحدثن معي، ما العمل؟ لا أستطيع التَّظاهرُ بكوني رجلًا جيِّدًا" قالها "لاو واي" وسجد يضرب رأسه بالأرض.

لم تفهم العَمَّة "دان سيه" كلامه، فقالت: "نحن على وشك أن نُصبح أُسرَةً واحدة، ماذا دهاك كي تُقدِّم لي كل هذا التبجيل.  
ثم نادت على ابنها كي يساعد "لاو واي" على النهوض.

فاستجاب لها "دان شيا" وألقى الجِمَلَ عن كتفه وسار حتى وصل عند "لاو واي" وسحب ياقته من الخلف، وبجَذَبَةٍ واحدة أنهضه وإِقْفًا. ترنَّح "لاو واي" قليلًا قبل أن يقف ثابتًا، ولمَّا رأت العَمَّة "دان سيه" علامات الامتعاض على وجهه قالت لـ "دان شيا": "أمرتُك أن تَسِنِدَه، لا أن تقتلعه من مكانه، إنه ليس نباتَ الهرقليَّة".

وعلى الفور صَحَّح "دان شيا" خطأه، وضرب "لاو واي" بقبضته فطرَّحَه أرضًا، ثم سنده لينهضه ببطء ورفق.

لم يَعُد "لاو" يشعر بأيِّ تأنيب ضميرٍ تجاه تراجُعِه عن الزواج بعدما فعله به "دان شيا"، فلَوَّح بذراعه وتَقافَز على قدمه وهو يسبُّ ويلعن قائلًا لها: "اسمعيني جيِّدًا، أنا "لاو واي"، غَيَّرْتُ رأيي اللعين، ولا أرغب في الزواج مِنكِ، ولا أرغب في أن أكون أبًا لـ "دان شيا"."

كلماته تلك أخافَتها، فحدَّقَت فيه دون كلمة، بل اكتفت بشهقات مُتتاليَّة، وعندما أفاقت من ذهولها، أمرت "دان شيا" أن يضربه ثانيةً ويُسْقِطَه أرضًا، ثم حمَلت دلوًا من الماء وسكَّبتَه عليه بِغِلٍّ، وعندما رأى "دان شيا" أمه تفعل هذا، قام هو الآخر بسكِّب دلوَه على "لاو واي"، وقتها كانت الشَّمْسُ قد مالت نحو الغرب؛ لذا اصطَبَعَت المياه التي سكبوها بأشعَّة الشَّمْس الذهبية، فَبَدَّت كماء الذهب. أمَّا "لاو واي" فقد أغرَقته مياهُ أربعة دِلاءٍ فقام وهو يسبُّ أمهاتهم، ونهَض بصعوبةٍ وعاد لبيته بجَسَدٍ يُغْطِيهِ الطِّين وهو لا يدري هل يبكي أم يضحك وهو يصيح طوال الطريق كأنه يبيع "الدوفو": "الحرية، الحرية"، حتى إن مَنْ قابلوه في الطريق ظنُّوا أنه أصيب بالجنون.

عادت العَمَّة "دان سيه" إلى البئر، فَمَلَّتْ أَوْلًا دَلْوِي "دان شيا" الفارغَيْنِ، وأمرته أن يحملهما إلى منزل "تانغ ماي" بالمنحدر الغربي، وانتظرته حتى سار بعيدًا، ونظرت إلى الدلوين الآخريْن الفارغين طويلًا، ثم حَمَلت واحدًا منهما وربطته في الحبل وأنزته في البئر، وحرّكت الأسطوانة ببُطءٍ حتى ارتفع الدلو ثانيةً وهو ممتلئ عن آخره، فأفرغت نصفه في الدلو الآخر الفارغ، ثم قَسَمَت باقة الزهور البرية التي جلبها "لاو واي" إلى نصفَيْن، ووضعت كُلَّ نصفٍ في دلو، وحملت على كتفها حِمْلًا من الزهور البرية عائدة إلى المنزل.

وعندما دخلت المنزل وضعت حِمْلَهَا عن كتفها واحتضنت الزهور البرية إلى داخل الغرفة، وفتحت النور وغسلت وجهها ثم افترشت الأرض ونسجت طوقًا من الزهور، وعندما انتهت منه كانت السماء قد أظلمت وعاد "دان شيا" للمنزل، فأخذه إلى الحظيرة وألبست طوق الزهور على رقبة الحمار، فبدا الحمار الأسود كأن قوس قزح قد أحاط به، وفرح "دان شيا" كثيرًا بمنظره، فوضعت العَمَّة "دان سيه" يدها على ظهر الحمار، ووضعت اليد الأخرى على كتف ابنها، وقالت: "من الآن فصاعدًا لن نبحث عن أي شخص آخر، سنعيش نحن الثلاثة سويًا حتى الموت"، فهزَّ "دان شيا" رأسه، وهزَّ الحمار رأسه أيضًا. لقد هزَّ "دان شيا" رأسه لأنه اكتشف أن هناك زرًا مفقودًا من قميصه، أمّا الحمار فقد هزَّ رأسه لأن طوق الزهور ضغط على رقبته.

ورغم أن العَمَّة "دان سيه" لم تقضِ مع "لاو واي" ولو يومًا واحدًا، إلا أنه انتابها شعورٌ بأنَّ رجُلًا قد تخلّى عنها مرَّةً ثانية؛ فتحطّم قلبها حتى صار رَمَادًا، وعَلت الكأبةُ وجهها، ومن بعدها صارت لا تتحدّث مع أيِّ رجُلٍ، حتى "شين تشي زا"، صارت لا تردُّ عليه حين يُلقِي عليها التحية.

أما "لاو واي" فلم يَعِش حياةً أفضل، لقد أصابه المرض، وعندما شفي منه كان موسم الأمطار قد حلَّ، فبدأ مرَّةً ثانية في صنَع "الدوفو"، لقد نُحِفَ وَضَعَفَ كثيراً عن السابق، فأصبح حين يسير بين الشوارع والأزقة حاملاً "الدوفو" على كتفه يترنح إلى اليمين وإلى اليسار. ولم يَعد يجرؤ على الذهاب للسوق الجنوبيَّة خشيةً رؤية العمَّة "دان سيه"، فصار على أصحاب الدكاكين الراغبين في تجارة "الدوفو" بالسوق الجنوبيَّة أن يطاردوه حيثما ارتحل، تلك المطاردة بَخَسَتْ ثمن "الدوفو" خاصَّته؛ فأصحاب الدكاكين ادَّعوا أن المُطاردة تُعطلُّ الوقت، فطلبوا منه تخفيض السُّعر، أمَّا سعر فول الصويا فقد ارتفع تدريجيًّا عامًّا بعد عام؛ لذا لم يَعد "لاو واي" يكسب إلا أقلَّ القليل بعد خصم التكلفة، وبما أنه أصبح يخشى أن يتلَف "الدوفو" معه؛ لذا صار مضطراً لتخفيض السُّعر؛ ممَّا أورثه شعوراً بالظلم والقهر.

في ذلك الصباح كانت السماء مُلبَّدةً بالغيوم، وما إن حمل "لاو واي" "الدوفو" وخرج من المنزل حتى قابل "أن بينغ" مُمتطياً حصانه الأبيض وقادماً نحو المدخل الشمالي. وكانا لم يتقابلا منذ فترة طويلة، لقد اسمرت بشرته ونُحِفَ كثيراً وطال شعره ولحيته، وعَلَّت الكأبة وجهه. وكان "لاو واي" سَمِعَ أن عشيقه "أن بينغ"، تلك التي تعمل خبيرةً تجميلٍ في دار الجنائز قد حُكِمَ عليها بالسجن سنتين مع إيقاف التنفيذ بتهمة قتل زوجها عن طريق الخطأ؛ وبذلك لم يكن عليها أن تدخل السَّجن، إلا أنها أصرت أنها مُدنيَّة، ولم تقبل بالحُكم الابتدائي، وطعنت فيه مُطالبته بتطبيق عقابٍ بدنيٍّ عليها؛ ممَّا أثار ضجةً في محافظة "تشيونغشان".

وما إن رأى "أن بينغ" "لاو واي" حتى نزل عن صهوة حصانه، فتوقَّف "لاو واي" ووَضَعَ العصا التي يحمل عليها سلَّة "الدوفو" عن كتفه. ثم قال بصوت ضعيف: "السَّماءُ على وشك أن تمطر، أليست



المطرزة تَقَلِّقُ لأمر الحصان الأبيض ولا تسمح بامتطائه في مثل هذا الطقس؟".

فلم يتحدث "أن بينغ" عن أمر الحصان الأبيض، بل سأله مباشرة: "بكم كل هذا "الدوفو"؟".

فنظر "لاو واي" إلى "الدوفو" الذي لا يزال البُخارُ يتصاعدُ منه، وقال: "لقد صنعتُ ثمانين قطعةً اليوم، لو حَسَبْتُ القطعةَ بيوان ونصف؛ فثمنها كلها مائة وعشرون يوان".

فقال "أن بينغ": "آه..."، ثم أخرج من جيبه مائة وعشرين يوانًا ناوَلَهَا له قائلاً: "سأشتره كله اليوم".

أخذ "لاو واي" النقود، وعندما هَمَّ بسؤاله ماذا سيفعل بكل هذا "الدوفو"، رآه يحمل العصا بالسَّلة، ويقبلها ليتناثر "الدوفو" الأبيض فوق الطريق الترابي، وعلى الفور تشَوَّه شَكْلُهُ، فدَعَرَ "لاو واي" وقال: "ماذا تفعل؟ لو كنتَ مستاءً مِنِّي فلا تُفْرِغِ غضَبَكَ في "الدوفو" خاصَّتِي".

فقال "أن بينغ": "تذكَّرْ، لو تنصَّلتَ من وعودِكَ لامرأةٍ مرَّةً ثانية، فلن أضرب "الدوفو" وقتها، بل سأضربك أنت".

فأصدر له "لاو واي" صوتًا مُعْتَرِضًا من أنفه، وقال: "إيَّاك أيها اللعين أن تعتقد أنك بطل، مَنْ لا يعلم بأمر مُعَاشَرَتِكَ لزوجَةٍ مشلول كَلِّ هذه السنوات في "تشانغتشينغ"؟ لو كان لديك كرامةٌ حقًا لانتظرتَ حتى مات رَجُلُها بشكلٍ طبيعيٍّ قبل أن تُوطِدَ علاقتك بها، مَنْ يفعل هذا هو فقط مَنْ يُسَمَّى رَجُلًا. مَنْ لا يعلم بما حدث تلك الليلة في العام الماضي عندما دَعَوْتَ زوجته إلى بيتك، فأوصدتَ هي الباب على زوجها المشلول حتى مات مُخْتِنِقًا من دُخان الفحم؟ هذا المشلول الذي مات بلا جريرة، مَنْ يتحمَّلُ موته، عشيقتك استاءت من المحكِّمة لإعطائها حُكْمًا مُخَفَّفًا وصمَّمت على دخول القفص،

فماذا يُوضَّح هذا؟ يوضَّح أنها نَدِمَت على علاقتها بك، يوضَّح أنها تشعر بتأنيب الضمير على موت رَجُلها، يوضَّح أنه لا يزال لديها قلبٌ طيِّب، أمَّا أنت يا ابنَ العاهرة فتتصنَّع أمامي السُّموَّ والأخلاق، ولا تنظر إلى الخراء الذي يغطِّي مؤخَّرتك ولم تُنظِّفه جيِّدًا بعدُ".

اندفعت تلك الكلمات من فَمِ "لاو واي"، وصاحبها هزيم الرِّعد؛ ممَّا أعطاهما قُوَّةً وهَيِّبَةً.

لم يشأ "أن بينغ" أن يستمر في الجدل مع "لاو واي"؛ فقد كان عليه الذهاب إلى كهف الجَدِّ المُرَقَّط لأمرٍ جَلَلٍ لا يمكن تأجيله، وعندما قفز على صهوة الحصان، اكتشف الدَّجَاجُ البَاحِثُ عن الطَّعام في المدخل الشمالي "الدوفو" المتناثر على الأرض؛ فتوافَدَ في أسرابٍ لالتقاطه، وتبَّعَه الإوزُ الذي مدَّ رقباه، والكلابُ التي هزَّت ذيلها، والخنازير التي صاحت بصوتٍ عالٍ، كلها توافَدَت تِباعًا، وعندما رآها "أن بينغ" تتراقص في سعادةٍ حول الطعام؛ شعر أن نقوده لم تُلقَ على الأرض هباءً.

أمَّا "لاو واي" فقد التقط العصا، ووضع لوح "الدُوفو" في السَّلَّة، ثم حمل السَّلَّةَ الفارغة على كتفه وعاد لبيته مُطَّاطِئًا الرَّأس، مُكْتَتِبًا الوَجه.

قاد "أن بينغ" حصانه ونزل عن الجبل حتى خرج من القرية كخيَطٍ من الدخان. وازداد هزيم الرعد أكثر وأكثر، وامتدَّ شعاع البرق مثل خطٍّ نارٍ في السماء. هذا البرقُ بدأ وسطَ السَّحابِ الأسود الكثيف، لامعًا مثل شجرةٍ فِضَّة، أمَّا الحصان فكان نادرًا ما يخرج في مثل هذا الجوِّ؛ لذا أصابه الفزع؛ فصار يرتعش في كل لحظة يضرب فيها البرقُ وتهتزُّ فيها الغابات. كذلك لم يعد يطيع أوامر أن بينغ، فحين قاده في اتجاه كهف الجد المرقط، التفت نحو قرية جويواوين،

فاضطر أن بينغ إلى شد لجامه بقوة كي يسير في الطريق الذي يريده أن يسير فيه.

كان "أن بينغ" حقًا في حاجةٍ إلى موجةٍ أمطار تغسله؛ لذلك عندما ذهب إلى الاسطبل لأخذ الحصان ورأى السماء مُلبَّدةً بالغيوم السوداء، لم يحضر معه مظلةً أو رداءً مَطَر.

كانت "لي سو تشين" تشعر بتأنيب الضمير تجاه مصرع زوجها، فكيف له هو ألا يشعر بالذنب تجاهها؟

تلك الليلة التي هبَّت فيها العاصفة الثلجية في العام الماضي صارت ذكرى لا تُنسى بالنسبة لـ "أن بينغ"، كانت ليلةً من الجئة، وكذلك ليلة من الجحيم. في ذلك المساء خرَجَ من عند "تانغ ماي" وقلبه مُمتلئٌ بالشَّفقة، وممتلئٌ بالحُبِّ، ومُمتلئٌ بالحزن، والرغبة العارمة تملؤه لرؤية "لي سو تشين"؛ لذا سارع بالعودة للمدينة مُتحدِّيًا الرياح، ومُعتمِرًا الثلوج، وعندما أزاحت "لي سو تشين" غطاءً فراشه وهي تحمل معها رائحة العاصفة الثلجية، بكى من شِدَّة التَأثر. تلك الليلة كانا مثل شجرتين لهما جذرٌ واحد، التحم جسدهما سوياً، وتشابكت أغصانهما، وظلاً يتقلبان هكذا حتى الصباح. لكن "لي سو تشين" عندما همَّت بالخروج من بيتها خشيت أن يتجمد زوجها؛ لذا ملأت الموقد بالفحم وأوصدت بابي المنزل، وهكذا باتت ليلتها في منزل "أن بينغ" بقلبٍ مُطمئنٍّ، وعندما عادت مُتوجَّهةً إلى البيت كان ضوءُ الفجر لم ييزغ بعدُ، فاشترت لزوجها "الدوفو" وأصابع الخبز المقلية التي يُحبُّها من دُكان بيع الإفطار القريب من المنزل، إلا أنها عندما وصلت البيت وفتحت باب الفناء وخطت فوق الثلوج المترامية في الفناء ثم فتحت باب المنزل شمَّت رائحة دُخانِ فحمٍ تُزكِم الأنف، ووجدت زوجها راقداً على جانبه بجوار الباب وقد انكمش جسده وازرقَّ جلده وامتلات أصابعه بالكدمات وعيناه مفتوحتان ومُتجمدتان، وقد تصلب

تمامًا. لقد ملأت "لي سو تشين" الموقدَ حتى آخره بالفحم؛ فلم يحترق الفحمُ احتراقًا كاملًا؛ لذا ملأ دُخانُه المكانَ؛ وأصيب زوجها بالاختناق، بالإضافة لذلك فالنوافذ كلها مُغلقةٌ بإحكامٍ في فصل الشتاء، وهي أوصدت الباب بالفُفل؛ فعجزَ زوجها عن الهروب بحياته.

في العادة كانت "لي سو تشين" حين تخرُج لقضاء أمرٍ ما لا تترك هاتفها المحمول يُفارقها خشيةً أن يحتاجها زوجها، وكان دومًا على وضع التشغيل، أمّا في ذلك اليوم فبعد أن تلقت رسالة "أن بينغ"، نسيّت أن تأخذ الهاتف معها من شدة تعجّلها لرؤيته. وقد أثبتت الأدلة بعدها أن زوجها اتّصل بها، وبالتأكيد أصابه اليأس التام عندما سمع صوتَ الهاتف يُدوي من داخل المنزل، وقُدّرتَه على إجراء مكالمة هاتفية تُثبت أن الاختناق في البداية لم يكن شديدًا. لقد دفعته فِطْرَةُ البقاء على قيد الحياة إلى السقوط من فوق السرير والزحف بصعوبة حتى الباب. وبالتأكيد صاح كثيرًا عندما عجز عن فتحه، لكنّ الجيران الذين يسكنون في منازل من طابقٍ واحدٍ بعيدون عنه؛ فلم يسمع أحدٌ صرخاته، بالإضافة إلى صوت الرياح الشمالية التي كانت تعوي في تلك الليلة. لقد عاقرَ بالتأكيد كي يدفع الباب بيده على أمل أن يفتحه بما تبقى له من رمقٍ أخير، إلا أن هذا أيضًا كان دون طائل. ويمكن من خلال عينيه المفتوحتين رؤية الرُعب والغضب واليأس الذين حلّوا به قبل وفاته، ورغم أن وفاته كانت واضحةً تمامًا، إلا أن "لي سو تشين" لم تياس، وأوصلته إلى المستشفى على أمل حدوث معجزة. وكان الطبيب على معرفة بها، ومُقدّرًا تمامًا لما يعتمل في نفسها؛ لذا أجرى إنعاشًا قلبيًا له بشكلٍ رمزيٍّ، حتى يمنح بعض المواسة لقلبها، ثم أمرَ الممرضة أن تدفع الفقيد إلى المشرحة.

وفي ظهر نفس اليوم الذي انتشر فيه خبر مصرع زوج "لي سو تشين"، جاء شقيقه الأصغر الذي كان يتجنّبهما كما يتجنّب مرضى الجذام وقد اعترف فجأةً بِصلة القرابة، جاء راكبًا عربةً بثلاث عجلات

مُطالِبًا بنصيبه في الميراث، وقد أراد أن يأخذ التَّلَافُز والثَّلَاجَة. ولما كان الجيران على عِلْمٍ بقسوته على أخيه الأكبر ساعدوها في مَنَعِهِ، ولم يسمحوا له بدخول المنزل. ففَعَلَ كما يفعل أيُّ لِيصٍّ ولم يرحل خالي الوفاض، بل في النهاية أخذ من الفِناء ملاء عربته من لحاء البتولا، كذلك أخذ دَرَاجَةً أيضًا وعاد من حيث أتى، تلك الدَّرَاجَة كان يركبها أخوه قبل أن يُصاب بالشلل، ماركة "يونغجيو"، شبه جديدة. وبعد أن أخذ الأشياء لمنزله ذهب إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن "لي سو تشين"، مُتَهَمًا إياها بقتل أخيه.

وفي اليوم التالي لوفاة زوج "لي سو تشين" قامت الجهاتُ الأُمْنِيَّةُ المُخْتَصَّةُ بفتح تحقيقٍ في تَوَرُّطِ "لي سو تشين" في قتل زوجها، وسريعًا ما أُصدِرَتِ النيابةُ أمرًا بالقبض عليها.

في بداية المُحاكَمَة خَشِيَتِ "لي سو تشين" أن تُورِّطَ معها "أن بينغ"؛ فلم تَذْكُرَ أنها قضت الليلةَ معه، وإِنَّمَا قالت إن الأَرَقَّ أصابها في تلك الليلة، فنهَضت في الساعة الخامسة، فخرَجَت إلى الفِناء لترتيب المخزن. وعندما قَارَبَت الساعة على السابعة انتهت من العمل، لكنها لم ترجع للمنزل، وإِنَّمَا أَغْلَقَت البابَ بالقفل وذهبت لشراء طعام الإفطار، ولم تتخيَّل أن يحدث ما حدث لزوجها؛ إلا أنها لم تكن بارِعَةً في الكذب؛ لذا امتلأت تلك الكذبة بمئات الثُّغرات؛ فالساعة الخامسة في الشهر الأخير تكون السماء لا تزال مُظْلِمَةً، ولا يوجد ضوءٌ في المخزن، فهل استخدمت مِصباحًا يدويًا لترتيبه؟ بالإضافة إلى أن دُكَّانَ بيع الإفطار ذلك لا يبعد عن المنزل سوى مائتين أو ثلاثمائة متر، ولا يحتاج الذهاب له والعودة سوى لرُبْع ساعة، كما أن هناك شخصًا بالمنزل، فما الحاجة لإغلاق الباب بالمفتاح، بالإضافة إلى أن فَحَصَ الجُئَة أثبَتَ أن وقت الوفاة في الساعة الثالثة تقريبًا، فلو قالت بأنها كانت في المنزل في ذلك الوقت؛ فإنها ستُصابُ من دخان الفحم، سواءً باختناقٍ خفيفٍ أو شديد، حتى لو لم تَكُنْ مع زوجها في نفس الغرفة، فكيف لم تشعر بأي شيء، أمَّا

الأهمُّ من هذا كُلُّه فإن الشُّرطة وَجَدَت الرسالة التي أرسلها لها "أن بينغ".

كُلُّ علامات الاستفهام تلك جعلت أجهزة الأمن تتشكَّك في اعترافات "لي سو تشين"، فعاوَدوا استجوابها مرارًا حتى انهارت نفسيًّا في النهاية، واعترفت بالحقيقة في الساعة السابعة عشرة لاحتجازها، فقالت إنها ذهبت للقاء "أن بينغ" سرًّا في تلك الليلة، وخَشِيَت أن يتجمَّد زوجها بردًا؛ لذلك ملأت الموقدَ بالفحم، وخَشِيَت أيضًا أن يقتحمَ لِصُّ المكان، وليس لزوجها القدرة على مُقاومته؛ فأغلقت البابين بالأقفال حرصًا على سلامته. ثم أجهشت بالبكاء، قائلةً إنها لم تقصد أبدًا إيذاء زوجها، لقد أُصيبَ بالشَّلَلِ كُلِّ تلك السنوات، إلا أنها رعته بعناية، حتى إنها لم ترغب في طفل لها. ورغم كون "أن بينغ" عشيقها، إلا أنهما لم تراودهما قطُّ فكرةُ التخلُّص من زوجها.

بالطَّبع شكُّ كُلِّ مَنْ لا يعرفون "لي سو تشين" أنها اشتركت مع عشيقها في التخلُّص من زوجها عندما سمعوا أن الزوج مات باختناق من دُخان الفحم بينما هي في أحضان عشيقها في تلك الليلة، لكنَّ جيرانها لم يصدِّقوا أنها قد تفعل ذلك؛ فهم يعرفونها حقَّ المعرفة، ففي الصيف عندما لا يكون هناك عمَلٌ بدار الجنائز، تحمل "لي سو تشين" زوجها كأنها تحمل رضيعًا لتضعه على السرير الحديدي الموجود بالفناء ليستمتع بأشعة الشَّمس. وفي الشتاء حين يصير الجوُّ باردًا كانت دائمًا ما تُشعلُ فحمًا بالمنزل لتبقيه دافئًا؛ خشيةً أن يتعرَّض زوجها للبرد. ونظرًا لعدم مقدرتها المادية على حرقِ الفحم طوال الوقت لذا كانت تركب درَّاجتها لتجمَع لِحاءَ البتولا من مصنع الخشب، ولا تشتري لنفسها أيِّ قطعةٍ ملابس طوال العام، ولكن مع حلول العام الجديد كانت دائمًا تصنِّع ملابسَ جديدةً لزوجها، كذلك دائمًا ما رأوا "أن بينغ" يذهب إلى هناك حاملاً معه الطعام، ويساعدها في أعمال المنزل، دون شكوى أو تَدْمُر. مثل هذين الشخصين طيَّبي

القلب، ونقيين، ويتحمّلان المسؤولية، فكيف يمكن أن يُؤذيا ذلك الرّجل بتلك الطريقة البشعة؟ الاختناق بدخان الفحم لا يمكن إلا أن يكون حادثاً عارضاً؛ لذلك أرسل أفراداً أكثر من خمسين أسرةً مُدْغرةً مُشتركةً إلى النّياية، يطالبون فيها بإغلاق القضية، وعندما لم يُجد هذا نفعاً، ووصلت القضية إلى المحكمة؛ اتّحدوا مرّةً ثانيةً، قائلين إنه حتى لو وقّع إهمالاً من "لي سو تشين" فإنه بالتأكيد ليس نيّةً في القتل، مطالبين المحكمة بتخفيف الحكم.

كان أكثر من اشتاقت له "لي سو تشين" خلال فترة احتجازها هو زوجها الميت. لقد أشفقت عليه، وكم ودّت أن تُزيّنه بنفسها وتودّعه في رحلته الأخيرة، إنها أكثر من يعلم ما الطول المناسب لشعره والذي سيُدخل الفرح لقلبه، وتعلم كيف تحلق له ذقنه بشكل يجعله راضياً، وتعرف كيف تُدغدغُ باطنَ قَدَمِه حين تغسلها له بشكل يجعله مُرتاحاً للغاية، وبالطبع تعلم ما المناطق التي تتوقّف عندها أكثر عند تدليك جسده لتجعله يُصدر آهاتٍ غارقةً في النشوة.

لكن للأسف هي في ززانة، ولا تستطيع وداعه في رحلته الأخيرة.

بعد الانتهاء من فحص الجثة، حدّد الطّب الشرعي سبب الوفاة بتسمّم ناتج عن دخان الفحم، وأبلغت الجهات الأمنيّة شقيق الفقيد الأصغر أنه يُمكنه دفنه، لكنه عندما رأى أن لا منفعة يمكن أن يخرج بها من وراء ذلك؛ بحث عن كل الحُجج المُمكنة ولم يظهر، وفي النهاية كان "أن بينغ" هو من جاء واشترى تابوتاً من أفضل الأنواع، ورُتب جنازةً لاثقةً، وكان القبر الذي اختاره له لا يبعد كثيراً عن محرقة الجثث التي لا تزال قيّد البناء بالجبل الغربي الصغير، حيث فكّر أن "لي سو تشين" يُمكنها استغلال وقت الفراغ أثناء العمل والذهاب لرؤيته بسهولة إن اشتاقت إليه.

كذلك طلب "أن بينغ" مُسَاعَدَةَ "دا شو" في ترتيب زيارةٍ مُنفَرِدَةٍ له مع "لي سو تشين"؛ وذلك كي يتحدث معها من قلبه، وقد نجح "دا شو" في ترتيب الزيارة بالفعل، لكن "لي سو تشين" رَفَضَتْ رُؤْيَتَهُ، فلم يُعَدِّدْ في وسعه سوى انتظار يومِ بَدءِ المُحَاكَمَةِ.

كانت جلسة المحاكمة الأولى في منتصف مارس، وذهب "أن بينغ" للمحكمة باعتباره شاهِدًا. في ذلك اليوم هطَّلت ثلُوجٌ خفيفةٌ، ونهَضَ "أن بينغ" مُبْكَرًا، وحلَّقَ ذَقْنَهُ، وصَفَّفَ شَعْرَهُ بعنايةٍ، وارتدى الزِّيَّ الصِّينِيَّ الرَّمَادِيَّ الذي تُحِبُّهُ "لي سو تشين"، ولمَّعَ حذاءه الجِلْدِيَّ؛ فقد رغب في أن تراه في أفضل حال. لكن "لي سو تشين" الجالِسةُ على مقعد الاتهام ظلَّت طوال الوقتِ مُطْرِقَةً الرَّأْسَ، تُحَرِّكُ يديها، ولا تنظر إلى أيِّ أحد. لقد فقَدَت يداها الجميلتان لمعانهما المعتاد وصارتا يابِسَتَيْنِ تَمَامًا؛ فشعر "أن بينغ" بغِصَّةٍ في قلبه لرؤيتهما، وعندما سأل المدَّعي العام "أن بينغ" عمَّا إذا كان قد لاحظ تَصَرُّفَاتٍ غير طبيعية على "لي سو تشين" عندما جاءته في ذلك المساء، هَزَّ رَأْسَهُ نَافِيًا، وقال: "لا"، فسأله ثانيةً: "ماذا قالت لك بعد أن جاءتك؟"، فهزَّ "أن بينغ" رَأْسَهُ ثانيةً، وقال: "لم تتكلَّم"، فسأله: "لم تُقَلْ أيُّ شيء؟ إذن ماذا فعلت؟"، فردَّ "أن بينغ" والدَّمْعُ السَّاخِنُ يَمَلَأُ عَيْنَيْهِ: "مارسنا الحُبَّ"، وبعد أن نطَقَ بتلك الكلمتين ساد الهرجُ قاعةَ المحكمة، وضجَّت بالضحك، إلَّا أن "لي سو تشين" لم ترفع رأسها لتَنظُرَ له، وهذا جرَّحَ قَلْبَهُ كثيرًا، وبعد انتهاء الجلسة، قال "دا شو" مُوجِّهًا كلامه لـ "أن بينغ": "إنَّك يا أخي خطيرٌ حقًّا، تقول في شهادة أمام محكمة "مارسنا الحب"؟" ستصير تلك من العبارات الشائعة في مدينة "تشانغتشينغ" لهذا العام".

وفي الجلسة الثانية كان "أن بينغ" مُجَرَّدَ مُسْتَمِعٍ. وكان محامي الدفاع عن "لي سو تشين" قد وُكِّلَهُ "أن بينغ"، وقد قدَّم للمحكمة دليلاً هامًّا، الأول: هو إثباتُ من المستشفى أنه عبر عشرين عامًا



ظَلَّت "لي سو تشين" مواظبةً على الذَّهابِ إلى هناك كلَّ أسبوعَيْنِ لَصْرِفِ الدَّواءِ لزوجها، وهذا يُوضِّحُ أنها كانت دومًا مُتعاونَةً بشكلٍ إيجابيّ مع الأطبَّاءِ لعلاجِ مَرَضِهِ، ولم تَشْكُ من ذلك أبدًا. أمَّا الدليلُ الثاني الذي قَدَّمَهُ المحامي فكان تقريرَ فَحِصٍ يُثَبِّتُ أن الفحمَ المُسْتَخْدَمَ في منزل "لي سو تشين" هو فحمٌ رديءٌ؛ وهي غير قادرة على شراء الفحمِ عالي الجودة؛ فكانت دائماً ما تشتري الفحمَ من أرذأ محطَّاتِ بيعِ الفحمِ بالمُدُنِ الصغيرة، ونظرًا لرداءةِ احتراقِ هذا النُّوعِ من الفحمِ؛ لذا وَقَعَتْ أكثرُ من حادثةٍ اختناقٍ به في السنوات الأخيرة في المنازل التي تستخدم هذا النُّوعَ، ولدى المُستشفى سِجِلٌ للحالات الواردة لها، ومن حُسْنِ الحَظِّ أن تلك الحالات تَمَّ اكتشافها في الوقت المناسب، وتمَّ إنقاذها في الوقت المناسب فلم تَحْدُثِ حالاتٌ وفاة. وأشار المحامي إلى أن مصرع زوج "لي سو تشين" بالإضافة إلى خطئها في إشعالِ الفحمِ، فإنَّ له علاقة كبيرة أيضًا برداءةِ الفحمِ نَفْسِهِ، وهذا يُثَبِّتُ بشكلٍ غير مباشر أن "لي سو تشين" لم يَكُنْ لديها النِّيَّةُ والتَّعمُّدُ في إيذاء زوجها، بل هو حادثٌ مُنفردٌ، حادثٌ عَرَضِيٌّ. أمَّا بالنسبة لاختفائها بالقَوْلِ "أنا مَنْ أَدَيْتُهُ" عند إجابتها على أسئلة القضاة، فإنها لا تُثَبِّتُ أنها مُذنبَةٌ، وإمَّا هي مُجرِّدُ امرأةٍ طيِّبة القلب، وتُعبَّرُ عن شعورها بتأنيب الضمير تجاه زوجها الميت.

عندما أُنجِبَت "أن شويه أر" ابنها في ذلك السَّريرِ المصنوع من الزهور، أَصْدَرَتِ مَحْكَمَةُ الشَّعبِ بِمحافظة "تشانغتشينغ" حُكْمَهَا الابتدائيَّ في تلك القضية التي شَغَلَتِ النَّاسَ. في ذلك اليوم ارتدت "لي سو تشين" سرورًا أسودَ وقميصًا أبيضَ وصديريًّا أصفر، وصَفَّقَتِ شَعْرَهَا ناعِمًا، وكانت نحيفة حتى إنَّ عَيْنَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ بَدَتَا كَبِيرَتَيْنِ، وأنفها بَدَا عَالِيًّا. ويبدو أنها تعرَّضت لهواءٍ باردٍ، فكانت تَسْعَلُ بين الحين والآخر، وعندما أعلن رئيسُ القضاةِ الحُكْمَ بأنَّ "لي سو تشين" لم تتعمَّد قَتْلَ زوجها، بل إنَّ هذا يُعَدُّ قَتْلًا خطأً؛ لذا قَرَّرَتِ المحكمةُ

مُعاقَبَتَها بالسُّجن سنتين مع إيقاف التنفيذ، حَدَّثَ المشهَدُ الَّذِي أَذْهَلَ الجَمِيعَ، لَقَدْ ارْتَعَشَتِ أَيْدِي "لي سو تشين"، وَرَفَعَتِ رَأْسَها فِجَاءً، وَسَعَلَتِ بَصَوْتِ عَالٍ ثُمَّ أَدَارَتِ رَأْسَها نَحْوَ مَحامِياها وَقَالَتِ بَصَوْتِ عَالٍ: "أنا لا أَقْبَلُ بِهَذَا الحُكْمَ، أريدُ الطَّعْنَ عليه"; فَارْتَبَكَ المَحامِي، وَاعتقد أنها لم تفهم ما سَمِعَتْه؛ فَسارع بِشرح الأمر لها أَنَّ هَذَا الحُكْمَ معناه أنها لن تدخل السُّجنَ، بل يمكنها العودَة للمنزل الآن، لكنها قالت والدمع يملأ عينيها: "أريد الطَّعْنَ على الحُكْمِ لأن المحكمة أعطتني حُكْمًا مُخَفَّفًا، أنا مُذنبَة و يجب أن أدخل السُّجنَ لِتَتِمَّ إِعادَة تَأهيلي، ولكي أَكْفَرَ عن جرمي تجاه زوجي"، عندها ساد الصمتُ قاعة المحكمة، ونظر الجميع إليها مذهولين، واعتقدوا أن لَوْتَةً أصابها، ففجفت دموعها بكُميها، واستطردت: "تلك الليلة ما كان ينبغي أن أترك زوجي خلفي وأخرج، ما كان ينبغي أن أقضي الليلة بالخارج، لقد أفاق من رائحة الفحيم في تلك الليلة واتَّصل بي فاكشف أني خَرَجْتُ ولم آخذ الهاتِفَ معي، لم يخطر بباله أن يتَّصل بالنَّجدة، لقد كُنْتُ أنا نَجْدَتَه، لكني خَيَّبْتُ أَمَلَه، يا للسماء، إنه في العادة عاجزٌ عن الحركة، لكن من أجل البقاء لم يتمكن من النزول عن السرير فحسبُ، بل زَحَفَ حتى الباب، أنا لا أجروُ على التفكير في مظهره وقتها، لقد خَمَشَ بأصابعه البابَ حتى سألَ الدَّمُ منها، لَكُنِّي أَقْفَلْتُهُ بِالْقُفْلِ، لقد أَقْفَلْتُهُ بِالْقُفْلِ، لقد تَرَكَته لَسَيِّدِ العالَمِ الآخر، يا سيادة القاضي، أنا مُجرِمة، وَجُرْمِي ثَقِيلٌ".

ذَلِكَ الطَّعْنَ الَّذِي قَدَّمْتَه "لي سو تشين" في المحكمة أصاب المحكمة بالحيرة، وأوقَعها في مُعْضِلَةٍ صَعْبَةٍ؛ فَمِنْذَ إِنشاء المحكمة لم يَرَوْا من قبل مُتَهَمًا لا يقبل بالحُكْمِ لِأَنَّهُ حُكْمٌ مُخَفَّفٌ وَيَطعن عليه بسبب ذلك. وهكذا عَمَّتِ الفوضى في المحكمة؛ فالقُضاةُ بالأعلى تناقشوا على عَجَلٍ وَقَدْ عَلَتِ الحيرةُ وَجوههم، والجمهورُ بالأَسفلِ تجادلوا بصوت عالٍ. حتى إن أحد جيران "لي سو تشين" اندفع نحوها وأشار لأنها

وهو يقول: "هل سقاك أحدهم دواءً مُغيَّبًا للعقل؟ أنتِ لستِ مُذنبَةً، ومُمكنكِ العودة للمنزل، لماذا تُصرِّين على الدخول للقفس؟ هل طعام السُّجن شهِيٌّ لهذه الدرجة؟"، أمَّا "أن بينغ" فلم يَكُن يَتَوَقَّع هو أيضًا أن تطلب "لي سو تشين" السُّجنَ طَواعيَةً من أجل زوجها؛ فتصبَّب العَرَقُ من رأسه من شِدَّة القلق، وارتعش جسده بالكامل. وعندما رآه "دا شو" هكذا قال: "إنَّكَ مُنفذُ أحكامِ إعدامٍ قديم، كيف لك أن ترتعش هكذا؟ إنها غير مُذنبَةٍ، أُسرِعْ بأخذها للمنزل"، لكنَّ ساقِي "أن بينغ" صارتا لِينَتَيْنِ حتى عجز عن الوقوف، فهو يعرف أنه حتى لو وقف على قدميه ومدَّ يَدَه نحو "لي سو تشين"، فإنها لن تذهب معه؛ فشعر بإحساسٍ بِقِلَّة الحيلة، وانتابته رغبةٌ في البكاء، لكنه عجز عن ذلك، لقد عَلِمَ أن القَدْرَ قد حطَّم يَدَ خَفِيَّةٍ في تلك الليلة العاصِفَةِ حائطًا ظلًّا يفصل بينه وبين "لي سو تشين" لسنوات، لكنه أقام بينهما حائطًا آخرَ أكثرَ قوَّة، باردًا، يَنخَرُ العِظام.

وفي النهاية أُطِيقَ سَراحُ "لي سو تشين" وعادت للمنزل، لكنها ظلَّت مُتمسِّكَةً بالطَّعن على الحُكْم، وترجَّت المحكمة أن تحكِّم عليها بثلاث أو خمس سنوات حتى تعطِها الفرصة لتكفر عن خطئها، وفي الأيام التي انتظرت فيها بدءَ المُحاكَمَةِ ثانيةً، ظلَّت "لي سو تشين" تُمارِسُ عملَها كخبيرة تَجميلٍ لِتُرْسَلَ الأموات بتلك المدينة الصغيرة إلى طريقهم النهائي. وفي وقت الغروب بعطلة نهاية الأسبوع تركب درَاجَتَها وتقطف زهرةً من التي كان زوجها يُحبُّها قبل مماتِهِ من حَوضِ الزَّرْعِ الموضوع على النافذة، إمَّا زهرةَ القِرطاسيَّة الحمراء النارية، أو زهور نبات البلسم الوردية، ثم تذهب إلى الجبل الغربي الصغير لزيارته. وفي كل مرَّة تعود فيها من المقابر ترجع بعينين مُحمرَّتَيْنِ مُنتَفِخَتَيْنِ، وعندما يراها الجيران يهزُّون رؤوسهم ويتنهَّدون قائلين: "يبدو أنها بكّت بشدَّة مرَّةً أخرى".

وقد تألم "أن بينغ" من أجل "لي سو تشين"، فكان دائماً ما يُحضر أطيبَ الطعام ويذهب لرؤيتها، لكنها كانت تتعامل معه ببرود. فإذا فُكّر في الإمساك بيدها تتجَنَّبُه. وفي كلِّ مرّةٍ يذهب فيها كانت تقول: "تلك الليلة عندما عُدت تحتَ الرِّيح والثَّلوج، بالتأكيد كان هناك عفريتٌ دَفَعَكَ لذلك، وعندما ذهبْتُ أنا لبيتِكَ، بالتأكيد كان عفريتٌ أيضاً مَنْ دَفَعَنِي لهذا". وقد استَعَدَّت تمامَ الاستعداد لدخول السجن، ونصحت "أن بينغ" أن يبحث عن امرأةٍ أخرى، وفي كلِّ مرّةٍ تقول هذا كان "أن بينغ" يردُّ عليها بالصَّمتِ المُطَبِّق؛ فقد رأى أن الحب العميق تجاه شخصٍ ما لا يحتاج للكلماتِ للتعبير عنه، لكن عندما استمرَّت "لي سو تشين" في التَّفَوُّه بتلك الكلمات اضطرَّ لأن يُخبرها: "لو دَخَلتِ السَّجْنَ حَقًّا، سأنتظركِ مهما طالت السنون، أمّا لو دَخَلتِ الجحيمَ، فلن أنتظركِ، بل سأدخل معكِ، كيف أعيش أياماً لا وجودَ لكِ فيها؟ أيُّ سِجْنٍ أو جَحِيمٍ لن يَقْدِرَ على أن يُفَرِّقَ بيننا".

ألقي "أن بينغ" بكلماته تلك ثم غادر منزلها مُرْتَحِّبًا وقد انتابه شعورٌ بأن جسده قد تَمَّ إفراغُه، وصارت قدماه لِينَتَيْنِ، وتباطأ سَرِيانُ الدَّمِ في عُرُوقِه وصار عَقْلُه فارغًا تمامًا. وعزَفَ عن الطعام والشُّراب بعد عودته للمنزل، ورَقَدَ وَحَدَه في السَّريرِ لمُدَّةِ يومَيْنِ. ومن وقتها لم يذهب ثانيةً لرؤية "لي سو تشين"، لقد فُكِّرَ أن أيَّ كلمات أو تعبير عن المشاعر مع مثل هذا النوع من النساء هو تضييعٌ للوقت، والحلُّ الأمثلُّ هو الانتظار كي تتخلَّص هي بنفسها من هذا الشعور بالجُرم لتعودَ إلى أحضانه ثانية. كانت موافقته على انتظارها في صمتٍ سَبَّبها في رأيه أن انتظارَ امرأةٍ جيِّدة مثل انتظار المُدَنَّبِ الذي لا يأتي سوى كلِّ ألف عام، هذا البهَاءُ والسُّطوع، حتى لو استمرَّ لِلْحَظَّةِ وَاحِدَةٍ فهو قادرٌ على هَزِّ الرُّوح، وإضاءة أعماقِ القلبِ، وَيَسْتَحِقُّ أن يَبْذَلَ من أجله كلَّ السنين والأيام.

وسريعًا ما جاء الحُكْمُ الثاني في قضيّة "لي سو تشين"، حيث رَفَضَتْ المحكمةُ الطَّعْنَ المُقَدَّم منها، وأكَّدَت الحُكْمَ السَّابِق. وفي ذلك اليوم دعا "دا شو" صديقَه "أن بينغ" ليحتفل معه في حانةٍ صغيرة. وقال "دا شو" إن "شياو جيانغ" عاد لَتَوَّه من دورةٍ تدريبيَّةٍ مُنْفَّذِي أحكام الإعدام في المحكمة المتوسِّطة بـ "سونغشان" لتَعْلَم كيفية إعطاء الحُقْن المُميِّتة للمحكوم عليهم بالإعدام، وبعد أن عاد "شياو جيانغ" بكى بحرقةٍ، وقال إنه صار مُمرضةً بين ليلةٍ وضحاها. لقد نَدِمَ على عدم دخوله لساحة تنفيذ أحكام الإعدام من قبلُ وإرداء مُجرِمٍ رَمِيًا بالرصاص. ثم قال "دا شو" إنه من خلال ملاحظته في تلك الفترة وجد أنَّ "شياو جيانغ" ليس مُعقِّدًا كما كان يتخيَّل، بل إنه شخصٌ لطيف. فقال "أن بينغ": "طالما الأمر كذلك لِنَبَحْتُ له عن حبيبة". وقد استنتج "دا شو" من لهجته أنَّ لديه مُرشحةً بالفعل؛ فسأله: "مَن هي؟"، فرَدَّ "أن بينغ": "لين دا هوا" ابنة المرأة المدخنة، إنها الآن لا تعمل في نُزُلِ الشُّمس الحمراء، بل افتتحت مقهى إنترنت. لكنَّها في الماضي كانت تخشى الظلام، أمَّا الآن فصارت تخشى الصباح؛ لذا فستائر المقهى خاصَّتْها مُغلقةٌ دائمًا في النهار". كان "دا شو" يعرف المرأة المدخنة، وما إن سَمِعَ رَغْبَةً "أن بينغ" في تعريف ابنتها بـ "شياو جيانغ" حتَّى قال: "أنس الأمر، إن ابْتُلِي بِحِماةٍ مثل تلك المرأة فكيف سيعيش أيَّامًا سعيدة، بالإضافة إلى أن "شياو جيانغ" يحبُّ ارتداء القمصان البيضاء، فلو تزوَّج من زوجة كهذه ولم يَعد بإمكانه حتى ارتداء القمصان البيضاء، فكيف سيعيش أيَّامًا مُشرقة؟".

لقد أسعد إنجابُ "أن شويه أر" كلَّ أهالي قرية "لونغ تشان"، إلَّا "أن بينغ"، الذي لم يَسْتَطِع الشُّعورَ بالسَّعادة، لقد رأى الطفل مرَّتَيْن فقط، بعدها رأى كابوسَيْن، مرَّةً رأى نَفْسَه يقطع الحَطَبَ فوق سطح القمر، فضرَبته الشُّهْبُ المُتساقِطة من السَّماء على رأسه، ومرَّةً أخرى رأى في الحُلُم عِفرَتَيْنِ صغيرَتَيْنِ بمِلامِحٍ شَرِسَةٍ، يرقصان، ومُسكان بحبلٍ

في أيديهما يريدان أن يخطفاه. وبعد أن أتمَّ الطفلُ شهرًا، ذهبَت "أن شويه أر" إلى مركز الشرطة لتسجيله، وكان الاسمُ الَّذِي سَجَّلَهُ هو "دو أن لاي"؛ فالطفُّلُ وُلِدَ على سريِرٍ من زهور الأزاليا؛ لذلك من الطَّبِيعِيّ أَنْ يُصَبِّحَ لَقَبُهُ "دو"<sup>(1)</sup>، لكن حتى الحمقى كان بإمكانهم ملاحظة أن اسم الطفل هذا يحمل في طَيَّاتِهِ اسمِيَّ "أن شويه أر" و"شين شين لاي"، وهذا أَحَزَنَ "أن بينغ"، بالإضافة إلى أن اسم التَّدليل الَّذِي أَطْلَقْتَهُ "أن شويه أر" على الطفلِ هو "ماو بيان"<sup>(2)</sup>. هذا الاسمُ ذَكَرَهُ بِالْبُومِ الرَّسْمِ المصنوع من أوراق البامبو، الَّذِي أَهْدَاهُ "شين كاي ليو" بِمَنَاسِبَةٍ إِكْمَالِ الطفلِ لشهر، ووفقًا لما قاله كِبَارُ السَّنِّ فَإِنَّ هَذَا الألبوم هو المَقْتَنَى الأَحَبُّ لقلب زوجة "شين كاي ليو" اليابانيَّة قبل اختفائها.

وذهب "أن بينغ" إلى كهفِ الجَدِّ المُرْقُط من أجل القبض على "شين شين لاي"، فقد شكَّ أن "شين شين لاي" هو مَنْ سَرَقَ بُنْدُقِيَّةَ الصَّيْدِ من "شيوين"، لكنه لم يَهْتَدِ بتفكيره إلى المكان الَّذِي قد يخبئُ فِيهِ. وقبل يومين صادف "شين كاي ليو" يَسْحَبُ حِصَانَهُ الَّذِي قَايَضَهُ نازِلًا به من الجبل لبيعه، قائِلًا إن الحصان أدَّى رسالته، وتَوَجَّهَ مُبَادِلَتَهُ بِخَمْرِ يشربها.

فقال "أن بينغ" غيرَ فَاهِمٍ: "وما هي رسالته؟".

فهزَّ "شين كاي ليو" لحيته البيضاء، وقال راضيًا عن نفسه: "لقد اعتمدتُ عليه في معركةٍ، وفُزْتُ بها، انتصرتُ نصرًا شاملًا، وأسحب الجنود الآن".

وعندما رآه "أن بينغ" في حالةٍ من الجنون، لم يأخذ كلامه على محمَلِ الجَدِّ. وفي اليوم التالي عند الغروب عاد "شين كاي ليو" بعد أن باع الحِصَانَ، وشَرِبَ الخَمَرَ حتى سَكِرَ تَمَامًا، ولمَّا عَلِمَ أن المَطْرُزَةَ

(1) اسم زهرة الأزاليا باللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ يبدأ بالمقطعِ الصَّوْتِي "دو" - المترجم.

(2) "ماو بيان" هو الاسمُ الصِّينِيُّ للورقِ المصنوع من ألياف البامبو - المترجم.

ليست في قرية "لونغ تشان"، دَخَلَ القريَّةَ وذهب مُباشرةً إلى منزل أُسرة "أن" بحثًا عن "أن بينغ"، وأشار بإصبعه لأنفِ "أن بينغ" وهو يقول: "لقد أصبحتَ جدًّا، ورأيتَ حَفِيدَكَ، افرحْ، وادعُ والدَ الطِّفلِ كي يَنزِلَ من الجبل، فرغم كلِّ شيءٍ يَجِبُ أن نَدَعَهُ يَرى ابنَه".

فقال "أن" بينغ بحَذَرٍ: "هذا الواجِبُ قَتْلُهُ لا يزال على قَيْدِ الحياة؟ أين يختبئ؟".

فضحك "شين كاي ليو" عِدَّةَ ضحكاتٍ باردة، وقال: "يا لك مِن مُنقذِ أحكامِ إعدامٍ، اللعنة، هل أنتَ عاجِزٌ حقًّا عن الاهتداء لمكانه؟ إن المكان الذي يَسْكُنُهُ لا تَصِلُهُ الرياح، ولا تُبَلِّغُهُ الأمطار، أُمُّكَ وأنتَ و"جيه شي باو" - وأضِفُ أيضًا الباحثين عنه من مُديريَّة الأمن - كلُّكم غير نافعين".

ذلك السَّبَاب الذي وجَّهه له "شين كاي ليو" جعل "أن بينغ" يَسْتَفِيقُ، وظلَّ يُفَكِّرُ لِلِيلَةِ كَامِلَةٍ، وفي النهاية فَهَمَ أن ذلك المكان الذي قال "شين كاي ليو" عنه إن الرِّياح لا تَصِلُهُ والأمطار لا تُبَلِّغُهُ هو على الأرجح كهفُ الجَدِّ المُرقِّط الذي لا يَبْعُدُ كثيرًا عن قرية "لونغ تشان"، ربَّما كانت أسطورةُ كهفِ الأفاعي التي وَصَّعتَ بداخله عامِلًا نفسيًّا منذ الطفولة هي التي جعلته يَسْتَبْعِدُ سَكَنَ البَشَرِ في مثل هذا المكان؛ فلا يُمكنُ لأحدٍ أن يختبئ فيه؛ لذلك فقد بحث في كل أنحاء الجبال والغابات، وكان المكان الوحيد الذي أهملَه هو كهفُ الجَدِّ المُرقِّط.

بعد أن نهض "أن بينغ" من الفِراش أشعَلَ الموقِدَ وصَنَعَ فطيرة البطاطس وذهب لإطعام الحصان أوَّلًا. لقد اختار الذهب مُمتطيًّا الحصانَ لرغبتِه في أن يقوم بعد الإمساك بـ "شين شين لاي" بالركوب على ظَهْرِ الحصانِ بهيبةٍ وقد كَبَّلَ يَدَيَّ ذلك الفاسِدِ وربطَه خَلْفَ الحصانِ وجِره وراءه حتى يُمرِّغَه في التراب، وكان الحصان قد عَرَفَ عن

تَنَاوَلِ الْعُشْبِ حُزْنًا بَعْدَ رَحِيلِ الْمُطْرُزَةِ، حَتَّى لَوْ وَضَعَهُ "أَنْ بَيْنِغ" فِي أَفْضَلِ الْمِرَاعِي، لَكِنَّهُ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ تَنَاوَلَ فَطِيرَ الْبَطَاطِسِ الَّذِي أَعْطَاهُ لَهُ "أَنْ بَيْنِغ".

وكان رحيل المُطْرُزَةِ مُرْتَبِطًا بِمَوْتِ "أَنْ دَا يِنِغ"، فَبَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ "مَآو بِيَان" شَهْرًا، سَاقَتِ الْحِصَانُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَرِشَةِ عَائِدَةً إِلَى الْمَنْزَلِ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ عِنْدَ الْغُرُوبِ جَاءَتْ بِمَقْعَدٍ صَغِيرٍ، وَجَاهَدَتْ كِي تَمْتَطِي الْحِصَانِ، فَاعْتَقَدَ "أَنْ بَيْنِغ" أَنَّهَا خَارِجَةٌ لِلتَّنَزُّهِ قَلِيلًا فَلَمْ يَهْتَمَّ بِالْأَمْرِ؛ لَكِنْ مَعَ ارْتِفَاعِ الْقَمَرِ فِي السَّمَاءِ وَهِيَ لَمْ تَعُدْ بَعْدُ أَصَابَهُ الْهَلَعُ؛ فَرَكِبَ الدَّرَاجَةَ النَّارِيَّةَ وَبَحَثَ فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْمُطْرُزَةُ ذَهَبَتْ إِلَيْهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ لَهَا عَلَى أَثَرٍ، وَظَلَّ حَتَّى الْفَجْرِ عِنْدَمَا بَزَغَ ضَوْءٌ خَافَتْ فِي السَّمَاءِ، وَصَارَ قَادِرًا عَلَى رُؤْيَةِ الطَّرِيقِ بِوُضُوحٍ، عِنْدَهَا فَقَطْ عَثَرَ عَلَى أَثَارِ حَوَافِرِ الْحِصَانِ، وَتَبِعَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَقْبَرَةِ الشَّهَدَاءِ فِي "تَشَانِغْتَشِيْنِغ". كَانَ الْحِصَانُ الْأَبْيَضُ مَرْبُوطًا فِي شَجَرَةٍ بَلُوطٍ خَارِجِ الْمَقْبَرَةِ، أَمَّا الْمُطْرُزَةُ فَكَانَتْ جَالِسَةً مُنْكَسَّةَ الرَّأْسِ أَمَامَ قَبْرِ "أَنْ دَا يِنِغ"، وَفَوْقَ رَأْسِهَا تَحْمَلُ شَعْرَهَا الْأَبْيَضَ وَالشَّمْسَ الْمُشْرِقَةَ، وَجَسَدُهَا يَرْتَعَشُ. فَرَكِضَ "أَنْ بَيْنِغ" نَحْوَهَا وَنَادَى بِصَوْتِ حَمِيمٍ: "أُمِّي"، فَفَرَعَتْ رَأْسَهَا وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ بَعَيْنَيْنِ أَغْرَقَتْهُمَا الدَّمُوعُ، وَمَدَّتْ لَهُ يَدًا مُرْتَعِشَةً وَهِيَ تَقُولُ: "وَلَدِي، اسْنِدْ أُمَّكَ إِلَى ظَهْرِ الْحِصَانِ، الْمَكَانُ هُنَا بَارِدٌ جَدًّا".

خَرَجَ "أَنْ بَيْنِغ" مِنَ الْمَقْبَرَةِ مُتَابِعًا ذِرَاعَ أُمِّهِ، وَأَسْنَدَهَا حَتَّى رَكِبَتْ عَلَى ظَهْرِ الْحِصَانِ، فَقَطَعَتْ الْمُطْرُزَةُ فَرَعَ شَجَرَةِ صَفْصَافٍ وَاسْتَعْمَلَتْهُ كَسَوِطٍ ضَرَبَتْ بِهِ الْحِصَانُ فَبَدَأَ الْجَرِيُّ بِجَنُودٍ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّغِيرِ وَسَطِ الْجِبَالِ. لَكِنْ الْحِصَانُ الْأَبْيَضُ كَبُرَ فِي السَّنِّ؛ لِذَا جَرَى قَلِيلًا ثُمَّ بَدَأَ فِي اللَّهَاتِ وَارْتَعَشَتْ أَقْدَامُهُ وَاضْطَرَبَتْ خَطَوَاتُهُ، وَاضْطَرَّ إِلَى تَخْفِيفِ سُرْعَتِهِ، لَكِنْ الْمُطْرُزَةُ لَمْ تَرْحَمِهِ، بَلْ سَبَّتْهُ بِالْكَسُولِ وَضَرْبَتَهُ ثَانِيَةً بِقَسْوَةٍ.



وبعد أن عادت المُطْرِزَة والحِصان الأبيض إلى البيت مَرِضَ كلاهما. فرقَدَت هي في السرير ولم تُعَد تتناول شيئاً سوى الماء، وعزَقَت عن الطعام، وصارت لا تنام في الليل، بل تَظَلُّ مُحدِّقَةً العينين تنظر إلى السقف ولا تتحدَّث مع أحد، أمَّا الحِصان الأبيض فصار يشرب الماء فقط ولا يأكل العشب، وأصبح عاجِزاً عن الوقوف بثباتٍ من شِدَّة المرض، وخلال أيام قليلة صَمِرَت بطنه كثيراً.

وبعد ثلاثة أيام نهضت المُطْرِزَة، وحمَلَت الحطب وأشَعَلَت النار وصنَعَت فطير البطاطس ثم أخذته للاسطبل وقَطَعته بيديها وأطعمته للحِصان قِطْعَةً قِطْعَةً. ونظَرُوا لبعض البعض بأعين مملوءة بالدمع الساخن. وبعد أن انتهى من تناول فطير البطاطس أُلصَقَت المُطْرِزَة خدَّها بوجه الحِصان وقالت: "يا رفيقي العجوز، أنا آسفة، مهما كان قلبي متألماً لم يَكُن يجوز أن أضربك".

بعدها عرف "أن بينغ" أن المُطْرِزَة عَلِمَت خبرَ مَوْت "أن دا ينغ" من زوجة ابنِ الحدَّاد "وانغ"، فبينما كانت تسحبُ الحِصانَ عائِدةً من الورشة، صادَفَت تلك المرأةَ عديمَةَ الإحساس، والتي بادَرَت المُطْرِزَة بالقول: "الكلُّ يقول إن ابن "المبروكَة أن" يُشبه كثيراً "أن دا ينغ"، للأسف "أن دا ينغ" ناداه جَدُّه ولن يتمكَّن من رؤية ذلك الصغير اللطيف".

وقد فكَرَت المُطْرِزَة في "أن تاي" قائلةً إنه فَقَدَ ابْنَه لكنَّه ظلَّ يتظاهر أمامها، بالتأكيد لم يتمكَّن من البكاء جيِّداً؛ لذلك قالت لـ "أن بينغ" إنها راغِبةٌ في الدَّهاب عند "أن تاي" كي تجعل ابنها يبكي كما شاء في أحضانها، وكان "أن تاي" مَشغولاً في تنظيم مُتحَف قوميَّة "الإيلوينتشوين"، ويحتاج إلى توجيهاتٍ من أمِّه؛ لذلك ما إن ذهبَت المُطْرِزَة إليه حتى أبقاها عنده.

في ذلك الصباح نهض "أن بينغ" وأطعمَ الحصانَ، وصنَعَ إبريقًا من الشاي بالحليب، ثم أكل معه فطيرتين محمّرتين من الأمس، بعدها أخرج الأشياء التي بلا فائدة من حقيبة الظهر، ولم يُبقِ فيها سوى سكين قتل الخنازير ذات السبعة إنشات، والمصباح اليدوي وحبلًا. ثم فتح زجاجة خمر جيّدة ووضعها داخل زمميّة ماء عسكريّة ووضعها داخل الحقيبة؛ وذلك كي يحتفل على ظهر الحصان أثناء عودته بعد الإمساك بـ "شن شين لاي". وقبل الرحيل قام أيضًا برَبْطِ أداة صَيْد الأفاعي في سرج الحصان، لكن مَن كان يتوقَّع أن يصادف "لاو واي" عند المدخل الشمالي؛ ممّا عَطَّله قليلًا.

الطريق من قرية "لونغ تشان" إلى كهف الجَدِّ المرْقُط لا يتعدَّى ثلاثين "لي" إن سِرَّت في الطُرُق الجبليّة. ورغم وعورة الطُرُق الجبليّة إلّا أن الحصان يقطعها بسرعة لو كان الطقس جيّدًا. لكن الأمطار الرّعديّة هطّلت، وانقبض الهواء، وضرب البرق المكان؛ فاضطرب الحصان الأبيض، وأبطأ من سيره كثيرًا، حتى إنَّ "أن بينغ" شعر كأنه يمتطي ظهر بقرة. في البداية حاول أن يحثّه على السير سريعًا، لكنه بعدها تذكّر أنه تعرّض للضرب منذ عدّة أيّام على يد المطرزة أثناء عودتها من مقبرة الشهداء؛ فأشفق عليه، ولم يعد يُطبّق عليه بفخذه، وإنّما أرخاهما وتركه يسير كما شاء؛ فعلى أيّ حالٍ لن يخرج "شين شين لاي" خارج الكهف في مثل هذا الطقس، ولن يتمكّن من الهرب.

عندما تهبُّ الرّياحُ في الغابة تبدأ ضعيفَةً ثم تشتدُّ بسرعة، حتى إن معرفة الحصان تارّجحت مثل عيدان القصب، وبعد أن هبّت الرياح صُعْفَ هزيم الرّعد، وانسحب البرق، ويبدو أن الحصان كان راضيًا عن تلك الرياح المهاجمة من الخلف؛ فأسرّع خطواته. وكانت أفرعُ أشجار البلوط والبتولا على جانبي الطريق مثل أيادٍ رحيمة تتلمّس "أن بينغ" ووجه الحصان الأبيض بلا توقّفٍ لتترك عليه رائحتها العطرة وحضارها. لقد بدأت الغابة تتعافى بعد ما أصابها من

آفات، وبدأت الطيور في الغناء ثانية، والتَمَعَت الزهور البرية وسط الغابات وعلى ضفاف الجداول مثل النجوم، ففكّر "أن بينغ" أن بقايا المبيدات الزراعية ستزول تمامًا بعد عدّة موجات من الأمطار، وقتها يمكن للناس أن يأكلوا أسماك النهر ثانية، وأن تُزَيَّن كنوز الجبال ذات الطعم البري موادثهم مرّةً أخرى.

وبفضل مصاحبة الرياح الطيبة استطاع الحصان الأبيض الوصول بسلاسة إلى كهف الجَدِّ المُرَقَّط، حاملاً على ظهره "أن بينغ". تلك الرياح توقفت فجأةً بمجرد وصولهما كأنها أنهت مهمتها، وكفت أوراق الغابة عن إصدار صوت "الخشخشة". لكن هذا الهدوء لم يستمر طويلاً، فقد أصبح هزيم الرعدِ أشدّ، وأخيراً تشققت السحب لتهطل منها الأمطار الغزيرة. فنزل "أن بينغ" عن حصانه، ولم يربطه، واستلّ السكّين من حقيبته ومعه المصباح اليدوي والجبل، فوضع السكين في خاصرته، ودسّ الجبل في جيب بنطاله، وأمسك بالكشاف في يده اليسرى، وفي اليد اليمنى أمسك بأداة صيد الأفاعي، وسار مُتَّجِهاً نحو مدخل الكهف. ورغم أن الأمطار قد شوّشت الرؤية، إلاّ أنّه اكتشف أن فروع الشجر في مدخل الكهف مقطوعة، وهناك آثارٌ على العشب، بدأ من الواضح أن هناك بشرًا جاؤوا إلى هنا.

في الحقيقة لم يكن "أن بينغ" يخشى الأفاعي؛ فمُعظَم الأفاعي لا تؤذي البشر إن لم يُبادروا بالهجوم عليها، وقد صادف أفاعي عدّة مرّاتٍ من قبل عندما دخل إلى الجبل، والغريب أن تلك الأفاعي التي تزحف بحريّة كما شاءت تُصبح مُسالمةً للغاية بمجرد رؤيته وتتجمّد تمامًا في مكانها دون أي حركة. وعندما أخبر الآخرين بتلك الظاهرة قالوا جميعًا إنه مُنفذ أحكام إعدامٍ وأعدَم الكثير من الناس رميًا بالرصاص؛ لذا فرائحة القتل قويّةٌ في جسده، حتى إن الأفاعي تخشاه أيضًا، ورغم أن الأفاعي التي صادفته من قبل انحنت كلّها له في

خضوع، إلا أنه في تلك المرّة أحضر معه أداة صَيْد الأفاعي إلى كهف الجَدِّ المُرْقُطِ تَحْسُبًا لأَيِّ طارئٍ.

أزاح "أن بينغ" العشب وأغصان الشجر التي تُغْطِي مدخل الكهف ودلف داخله مُنْحَنِيًّا، ثم فتح مصباحه ليضيء الحائط وأرضية الكهف، فلم يَجِد الأفاعي المذكورة في الأساطير، وهنا فقط تشجّع وواصل السير بقلبٍ مُطمئن. لقد كان مدخل الكهف واسعًا، لكن كلما تَعَمَّق فيه كلما ضاق حتى لم يَعد يَتَّسع سوى لجَسَدِهِ فقط. ولكن بعد اجتياز ممرٍّ ضيق بطول أربعة إلى خمسة أمتار، ظهر كهف آخر مساحته مثل غرفة متوسطة وبه إضاءة وصوتٌ خريبر ماء.

أغلق "أن بينغ" مصباحه؛ فاكتشف أن الضوء يأتي من الحائط؛ فهناك قنديلٌ مُعلَّقٌ عليه، وأسفله يجلس على حصيرة "شين شين لاي" مَحْنِيّ الظهر، مُرتديًا زيًّا مُموهًا. وأمام قَدَمَيْهِ موضوعة بلطة وعصا خشبية، وفي يده بندقيّة صيد، وقد طال شَعْرُهُ حتى كَتَفَيْهِ، ونَحَلَ حتى تَغَيَّرت ملامحه، فغارت وجنتاه وبرزت عظامُهما.

وكان يفتح فمه وينظر نحو "أن بينغ" بنظراتٍ زائِغَةٍ وهو يهتف بكلماتٍ مُتقطّعة: "لو جرّوت... على... الاقتراب... مني... فسأقتلك... بالبندقية... يا ابن... العاهرة". فضحك "أن بينغ" ضحكةً باردةً، وقال: "أيها الأحمق، البندقيّة والطلقات التي سرفتها ليستا من أمّ واحدة، لو استطعت أن تجعلهم يتحدّثون لغةً واحدة فأنا مُوافقٌ على أن أتلقّى رصاصاتك".

فألقي "شين شين لاي" البندقيّة، وأمسك بسرعةً بالبلطة الموضوعة تحت قدمه، كان من الواضح أنه جرّب من قبلٌ ووجد أن الطلقات غير مُتطابّقة بالفعل مع البندقية.

وهنا اكتشف "أن بينغ" أن الكهف به بالإضافة للقنديل عصي طعام وأطباق وعُلبُ شاي ومنشفة وصابون ومصباح يدوي، وحتى جهاز راديو، من الواضح أن "شين كاي ليو" هو من جلبها. وعلى يسار الحصيرة كان هناك موقد مصنوع من أحجار مرسومة، وبجواره أغصان جافة وفحم ولحاء بتولا، أما في الجهة المقابلة منه فكان نبع ماء يتدفق على الحائط من أعلى الكهف ليشكل بركة أسفله في حجم حوض استحمام. كان هذا النبع هو مصدر خير الماء الذي سمعه "أن بينغ".

ألقى "أن بينغ" بأداة صيد الأفاعي، ودس المصباح في جيب بنطاله، واستل سكين قتل الخنازير ذات السبعة إنشات من خصره، واقترب من "شين شين لاي"، قائلاً: "انهض أيها الجبان".

فلوح "شين شين لاي" بالبلطة، وثبت بصره على السكين، وأطلق صيحة استهجان، ثم قال: "تلك السكين ملك لأسرتي، اللعنة، ترتدي زي الشرطة وتسرق الأشياء من الناس".

فضحك "أن بينغ" ببرود، وقال: "إنك مجرد خنزير؛ لذا وجب استخدام تلك السكين لمجاهبتك، سأصدقك القول، لقد سمح لي أبوك بأخذها، لكني لا أرغب في أن أكون جزأاً اليوم، لا أرغب في أن أوسخ يدي بقتلك؛ فهناك في هذا العالم من يستحق حبي، لا يمكن أن أسلبهم الحق في التمتع بحبي من أجلك؛ لذا سأعطيك اختياريين: إما أن تمد يديك وتدعني أربطك وأسلمك للشرطة، وإما أن تستخدم تلك السكين لتحز رقبتك، فعلى أي حال أنت مَيِّتٌ مَيِّتٌ إذا ما رجعت بك".

فارتجف "شين شين لاي"، ولاحت في عينيه نظرة يأس.

فَكَرَّ "أَنْ بِيَنْخَ" فِي أَنَّهُ لَنْ يَمْنَعَهُ إِنْ قَرَّرَ إِنْهَاءَ حَيَاتِهِ؛ فَبِهَذَا الشَّكْلِ لَنْ يَتِمَّ كُنَّ "تَشِينِ جِينِ جَوْ" مِنْ الْحَصُولِ عَلَى كَلِيَّةٍ طَارِجَةٍ مِنْ "شِينِ شِينِ لَآي".

أَلْقَى "شِينِ شِينِ لَآي" الْبَلْطَةَ، وَأَشَارَ لـ "أَنْ بِيَنْخَ" كِي يُنَاوِلَهُ سِكِّينَ قَتَلَ الْخَنَازِيرَ. لَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ بِالِاقْتِرَابِ، بَلْ طَلَبَ مِنْهُ الْحِفَافَ عَلَى مَسَافَةٍ بَيْنَهُمَا. فَجَلَسَ "أَنْ بِيَنْخَ"، وَدَفَعَ السِّكِّينَ نَحْوَهُ بِرَفْقٍ، فَطَارَتِ السِّكِّينَ وَهِيَ مُلْتَصِقَةٌ بِحِجَارَةِ أَرْضِيَّةِ الْكَهْفِ الْخَضْرَاءِ مِثْلَ نَوْرَسٍ نَهْرِيٍّ فَضِيٍّ يَعْبُرُ صَفْحَةَ الْمَاءِ، وَلا مَسَّ مَقْبُضُهَا الْأَرْضَ ثُمَّ انْغَرَسَتْ تَحْتَ قَدَمِي "شِينِ شِينِ لَآي". وَبَعْدَ أَنْ التَّقَطُّهَا اخْتَبَرَ حِدَّةَ نَصْلِهَا بِيَدِهِ، ثُمَّ غَمِغَمَ: "لَا زَالَتْ تِلْكَ اللَّعِينَةُ حَادَّةً لِلْغَايَةِ"، ثُمَّ وَضَعَ السِّكِّينَ فِي خَصْرِهِ، وَقَالَ لـ "أَنْ بِيَنْخَ": "وَفَقًّا لِلتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ قَبْلَ تَنْفِيذِ حُكْمِ الْإِعْدَامِ فِي الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ يَجِبُ أَنْ يَأْكُلَ جِيْدًا وَإِلَّا فَسَيَصِيرُ عَفْرِيْتًا جَائِعًا حِينَمَا يَذْهَبُ إِلَى مَلِكِ الْعَالَمِ الْآخَرِ، فَيَحْتَقِرُهُ الْعَفَارِيْتُ الْآخَرُونَ، بِالإِضَافَةِ لِذَلِكَ فَهُوَ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا مِنْذُ أَرْبَعَةِ أَوْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ، بَلْ عَاشَ عَلَى الْمَاءِ وَالْمِلْحِ فَقَطْ، وَلا قُوَّةَ بِجَسَدِهِ لِلانْتِحَارِ"، فَقَالَ "أَنْ بِيَنْخَ" إِنْ لَدَيْهِ الْخَمْرُ فِي حَقِيبَةِ ظَهْرِهِ، وَهِيَ خَمْرٌ مِنْ نَوْعِيَّةٍ جَيِّدَةٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُحْضِرْ مَا يُؤْكَلُ، فَلَمَعَتْ عَيْنَا "شِينِ شِينِ لَآي" كَأَنَّ حَشْرَاتِ سِرَاجِ اللَّيْلِ طَارَتْ وَسَكَّنَتْ فِيهِمَا وَقَالَ: "إِذْنِ اعْطِنِي الْخَمْرَ أَوَّلًا، أَمَّا عَنِ الْمَرْزَةِ، فَبِفَضْلِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي أَحْضَرْتَهُ يُمْكِنُنِي تَدْبُرُ أَمْرَهَا".

فَخَلَعَ "أَنْ بِيَنْخَ" الْحَقِيبَةَ عَنْ ظَهْرِهِ، وَأَخْرَجَ زَمْزِمِيَّةَ الْخَمْرِ وَالْقَاهَا فِي أَحْضَانِ "شِينِ شِينِ لَآي" الَّذِي فَتَحَ غَطَاءَهَا بِلَهْفَةٍ وَتَجَرَّعَ مِنْهَا جَرَعَاتٍ مُتتَالِيَةً، ثُمَّ مَسَحَ فَمَهُ، وَقَالَ: "اللَّعْنَةُ، إِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ يَخْتَلِفُ عَنِ شُرْبِ الْمَاءِ؛ شَرِبَ الْخَمْرَ يُشْعِرُكَ بِالشَّبَعِ حَقًّا، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُسْمُونَهَا رَحِيقَ الْيَشْمِ؟"، ثُمَّ وَضَعَ الزَّمْزِمِيَّةَ مِنْ يَدِهِ وَطَلَبَ مِنْ "أَنْ بِيَنْخَ" أَنْ يَتَرَجَعَ حَتَّى الرُّكْنِ الْجَنُوبِيِّ مِنَ الْحَائِطِ الصَّخْرِيِّ لِيَتَبَعَدَ عَنْهُ أَكْثَرَ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِالْعَصَا الْخَشْبِيَّةِ، وَجَاهَدَ لِلْوُقُوفِ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَسَارَ نَحْوَ

الموقد بخطواتٍ عَرَجَاءَ، وأخرج ثِقَابًا من جيبه وأشعل الحطب، وانتظر حتى تراقصت ألسنةُ اللهب، فسار نحو أداة صيد الأفاعي وانحنى والتقطها، ثم حملها عائداً نحو بركة المياه.

توقّف "شين شين لاي" بجوار صخرةٍ تلمعُ بلونٍ أزرقٍ بجوار بركة المياه، وفتح كلابةَ أداة صيد الأفاعي، ثم انحنى بعنفٍ واصطاد شيئاً ما، وبسرعة ضيق الكلابة، وضحك بصوتٍ عالٍ، وفي اللحظة التي استقام فيها جسده ثانيةً أرخى الكلابة، ثم انحنى والتقط أفعى، كانت تلك الأفعى في سُمكٍ عود دُرّة، وطولها إنشئين، ولونها رمادياً وأبيض، وقد بدت وسط عتمة الكهف مثل شريطٍ من البرق يخطف الأبصار ويفزع القلوب.

طوّح "شين شين لاي" بالأفعى في الهواء عدّة مرّاتٍ كأنها سوطٌ وهو يسبُّ: "تلدغيني أنا؟ في النهاية سأكلُك، سأكل أفعى بيضاء، وحتى لو متُّ بعدها فسأبعث وأصير خالدًا".

وهنا فقط انتبه "أن بينغ" إلى أن ساق "شين شين لاي" مُصَابَة بلدغة أفعى، فتذكر أن "شين كاي ليو" قال من قبل إنه رأى أفعى بيضاء في الجبل، يبدو أن كلامه لم يكن زائفاً.

سار "شين شين لاي" تجاه الموقد وسلخ جلد الأفعى، ثم أدخل فيها قرعاً من البتولا، وأخرج من جيبه ملحاً نثره فوقها وبدأ في شَيِّها، فبدأت ألسنةُ اللهب في تحسُّس لحم الأفعى، مثلها مثل النسومات التي تمرُّ على الزهور المفتحة، لتنبعث على الفور رائحةٌ زكيّةٌ، وما إن اشتَم "شين شين لاي" رائحةَ اللحم حتى لانت ملامحه وقال لـ "أن بينغ" إنه لا يزال هناك وقتٌ ليأكل ويشرب قبل أن يقطع رقبتَه، وأضاف ساخراً إن الضيف الواقف يصعب الحديث معه، وطلب منه الجلوس والانتظار.

كان "أن بينغ" هو الآخر يرغَبُ في أن يستمتعَ "شين شين لاي" بوجبهته الأخيرة؛ لذا أطاعه وجلس في مكانه فوق حقيبة ظهره وهو يفكر في أن المَوْنَ التي قدّمها "شين كاي ليو" لحفيده كثيرةً، وهذا الصَّغير ذكيٌّ أيضًا؛ فهو يحمل معه الملح والكبريت، وكانت تلك من خبرات الحياة في الغابات التي قدّمتها أمُّ "أن بينغ" له وهو صغير: ألا يُفارقُ المِلْحُ والكِبْرَيْتُ جسده أبدًا؛ فهما الجناحان اللذان يساعدان المرء في الطيران عبر حدود اليأس إن تعرَّض للخطر.

انتهى "شين شين لاي" من شواء الأفعى وحملها حتى الحصيِّرة ثم جلس ببطء، كان الجوعُ الشديدُ بادِيًا عليه، فانتزعَ قِطْعَةً منها وألقاها بسرعة في فمه وبلعها بالعِظام دون أن ينتظر حتى ليمضغها جيّدًا، فوقفت في حلقة حتى درات عيناه في محجريهما، وهكذا تناوَلَ بضعةً قِطْعٍ بنفس الطريقة وراء بعضها حتى تلاشى نصفُ الأفعى بلا أثر. عندها وَضَعَ الأفعى المشويَّةَ من يده، ورفع يديه ومَسَحَ فمه بكُمِّه، ثم أمسك بزمزية الخمر وشرب منها ثانية، ثم قال بحُزْنٍ إنه على وشك الموت، ويرغب في التَّحدُّث معه حديثًا من القلب.

فقال "أن بينغ": "تحدّث بسرّعة".

وقبل أن يبدأ "شين شين لاي" في بَثِّ شكواه سأل "أن بينغ" أوَّلًا إن كان رقد جَدُّه على فراش المرض أم مات؟

فهزَّ "أن بينغ" رأسه نافيًا، وقال: "بل نزل من الجبل وباع الحصان واشترى مكانه خمرًا".

فقال "شين شين لاي" بهرارة: "لا عَجَبَ أنني بحثتُ عن قبره في الجبل كله ولم أجده، إنه لم يمُت، ولم يُصب بِمَرَضٍ أرقده، إذًا لماذا لم يعد يُعيرني أيُّ اهتمام؟ لم يعد يُرسل لي الطَّعام ولا يُعطيني أيَّ أوامر".

فقال "أن بينغ": "ربّما شعر أنك تستحقُّ الموت".



فمسح "شين شين لاي" أنفه ثم بدأ في الحديث عمًا يجول في نفسه من مرارة. فقال إن قتله لأمه بالتبني كان حادثًا عرَضِيًّا، فلو لم تَنعته بالجبان لَمَا لَوَّحَ بِسِكِّينٍ قَطَعَ رَأْسَ الحِصَانِ فِي وَجْهِهَا، وَأَضَافَ أَنْ تِلْكَ السِّكِّينِ لَمْ تُسْتَخْدَمْ لِسِنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ؛ فَاعْتَقَدَ أَنَّهَا صَارَتْ بِكَمَاءٍ، حَتَّى يَصْعَبَ عَلَيْهَا حَتَّى قَطَعَ "الدوفو"، مَنْ كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ بِتِلْكَ الحِدَّةِ، وَبَدَأَ فِي البِدَايَةِ بِسَبِّ أَبِيهِ "شين تشي زا" لقيامه بسنُّ السِّكِّينِ، ثُمَّ سَبَّ الحَدَّادَ "وانغ" الَّذِي صَنَعَ تِلْكَ السِّكِّينِ، وَأَلْقَى بِاللُّومِ بَعْدَهَا عَلَى المَطْرُزَةِ، قَائِلًا إِنَّهَا هِيَ مَنْ نَقَشَتِ يَدَ السِّكِّينِ بِشَكْلِ جَعْلِهَا غَيْرَ زَلَقَةٍ بِالمِرَّةِ، وَلَوْلَاهَا لَمَا تَمَكَّنَ مِنَ الإِمْسَاكِ بِالسِّكِّينِ بِثَبَاتٍ، وَلَمَا مَنَحَهَا ذَلِكَ القُوَّةَ اللّازِمَةَ لِقَتْلِ إِنْسَانٍ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ فِي حَدِيثِهِ عَنِ اغْتِصَابِ "أَنْ شُوِيَهْ أَرْ" أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ، وَنَادَى "أَنْ بِينْغَ" بِأَلْفَةٍ وَحَمِيمِيَّةٍ "عَمَاهُ"، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثَانِيَةً وَقَالَ: "أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تَرِغِبُ فِي أَكْلِ بِأَسْنَانِكَ لِاغْتِصَابِي "المبروكة أَنْ"، لَكِنِّي سَأَصْدُقُكَ القَوْلَ، لَقَدْ كُنْتُ أَفْكَرُ فِي اغْتِصَابِهَا مِنْذُ زَمَنِ لِأَعْرِفَ إِنْ كَانَتْ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍّ؛ لِأَنَّي أَكْرَهُ كُلَّ أُسْرَتِكُمْ؛ فَأُسْرَتُكُمْ ذَاتُ مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ جَدًّا فِي قَرْيَةِ "لُونْغَ تَشَانِ"، بِهَا أَبْطَالٌ، وَبِهَا مَبْرُوكُونَ، وَبِهَا ضَبَّاطُ شَرْطَةٍ، وَبِهَا عَمَدُ قُرَى، اللُّعْنَةُ عَلَيْكُمْ! تَمْلِكُونَ كُلَّ شَيْءٍ، أَمَّا أُسْرَتُنَا: فَبِهَا جَنْدِيٌّ هَارِبٌ وَجَزَّارٌ، وَأَضْفُ عَلَيْهِمَا خِرْيِجٌ سَجُونٍ. إِنَّهُ بَيْتٌ مِنْ قَشٍّ، إِنَّنِي حَتَّى لَا أَعْلَمُ مَنْ هُمَا أَبَوَايَ الحَقِيقِيَّانِ، فَمَنْ سِيهْتُمُ بِي؟ لَا أَحَدٌ، أَنَا لَمْ أُدْخُنِ السَّجَائِرَ فِي الغَابَةِ، لَكِنْ قَوَّاتِ الأَمْنِ أَصْرَتِ عَلَى إلقاءِ القَبْضِ عَلَيَّ، قَائِلَةٌ بِأَنَّي أَلْقَيْتُ عَقَبَ سِيجَارَةٍ فِي الغَابَةِ مِمَّا تَسَبَّبَ فِي حَرِيقٍ، لَقَدْ ضَرَبُونِي وَعَدَّبُونِي ظَلْمًا، وَدَخَلْتُ السُّجْنَ ظَلْمًا. بِرَأْيِكَ، هَلْ كَانُوا يَجْرُؤُونَ عَلَى القَبْضِ عَلَيَّ لَوْ كُنْتُ ابْنًا بَطْلًا؟ لَوْ تَمَتَّعُوا بِعَشْرَةِ أَضْعَافِ جَرَائِمِهِمْ لَمَا جَرَّؤُا عَلَى ذَلِكَ. فَهَلِ الحَيَاةُ عَادِلَةٌ؟ إِنَّهَا لَيْسَتْ عَادِلَةٌ"، ثُمَّ سَأَلَتْ دَمُوعَهُ أَثْنَاءَ حَدِيثِهِ.

في الحقيقة كان "أن بينغ" قد عَلِم منذ وَقْتِ مُبَكَّرٍ من "دا شو" أن المرّة الثانية التي دخل فيها "شين شين لاي" السُّجُن كانت ظَلْمًا؛ فقد أَلَقَت الأجهزَةُ الأمنيَّةُ مُؤَخَّرًا القَبْضَ على مُشْعِلِ حرائق، فاكتشفا أنه عامِلٌ في فرقة إطفاء حرائق غابات الجبال بمقاطعة "تشنغشان"، واعترف قائلاً إنَّهم يقبضون أكثر من ألف يون فقط شهريًّا إن قاموا بدورياتٍ عاديَّةٍ لحماية الغابات، أمَّا لو اشتعلت الحرائقُ وذهبوا لمكافحتها فإن مُرتَّب الشهر يتضاعف؛ لذلك عندما لا تحدث حرائق غاباتٍ بِشَكْلِ طبيعيٍّ كانوا يُشْعِلونها عَمْدًا، وذلك الحريق الذي أدانت المحكمة "شين شين لاي" بسببه كان هذا العامِلُ هو مَنْ أشْعَلَهُ. ورغم أن "شين شين لاي" تعرَّضَ للظلمِ فعَلًا في تلك القضية، لكن "أن بينغ" رأى أن هذا لا يَغْفِرُ جرائمه الأخرى؛ فهو لن يغفر أبدًا لقاتِلِ قَتَلَ بِدَمٍ باردٍ أُمَّه التي ربَّته بِمَشَقَّةٍ، ولن يغفر أبدًا لحيوانٍ اغتصب فتاةً مثل الملائكة.

جَفَّف "شين شين لاي" دموعه، وقال لـ "أن بينغ" إنه بعد عامٍ كاملٍ من الهرب صار يُقدِّس جَدَّهُ، ثم رفع إبهامه عاليًا، وقال: "الرَّفِيقُ "شين يونغ كو" عبقرِيٌّ حقًّا، إنه مشروع قائد عظيم"، ثم أخبر "أن بينغ" أن مُساعِدَةَ جَدِّه له على الهرب ظَلَّت دائمًا في الخلفية، ولم يظهر أبدًا، فكان يرسل له الأشياءَ في أماكنٍ مُخْتَلِفَةٍ، مثل "المخزن الأرضي" في جبل "إيشين"، ومثل "كهف الدب" في "قِمَّة الغِربان"، ومثل "مقبرة منحدر الزنابق" القريبة من القرية الثالثة.

وأضاف "شين شين لاي" أنه بعد أن ارتكب جريمته هَرَبَ إلى الغابات، وذهب مُباشرةً إلى جبل "إيشين"؛ فهو يعرف أن جَدَّهُ لديه مَخزَنٌ أرضيٌّ هناك، وكان "شين كاي ليو" يلفُّ في الجبال طوال العام، وخشي أن يُصادفَ ثُلُوجًا كثيفةً في أحد الأعوام تحتجزه داخل الجبال أثناء حرق الفحم؛ لذا حفر مَخزَنًا سَرِيًّا مُلَاصِقًا لِلجُرْفِ الجَبَلِيِّ وسط غابةٍ من أشجار الصنوبر، وضع فيه الثُّقَابَ وَمِلْحَ الطَّعامِ والدَّقِيقِ

وزيت الطعام، وغيرها من المؤن. هذا المخزن مُغلقٌ بإحكام، وليس بمقدور الحيوانات اقتحامه، كما أن الغطاء النباتي حوله كثيفٌ؛ فلم يكتشفه بشرٌ من قبل، وكان "شين شين لاي" يعرف هذا المخزن؛ فقد دخل إلى الجبل مع جدّه عندما كان صغيراً، وقال إنه في بداية هَرَبِه كان يحوم حول جبل "إيشين"، وفي كلِّ مرّة يذهب لجلب المؤن من المخزن كان يذهب مساءً؛ فقد كان يخشى من عمليّات البحث صباحاً؛ لذا كان يختبئ في الأعمدة الصخرية البيضاء الواقعة في الجهة الغربية من جبل "إيشين"، وفي إحدى أمسيات بداية الربيع عندما ذهب إلى المخزن لجلبِ المؤن اكتشف وجودِ زِيٍّ مُموّهٍ وحذاءٍ وبِلَطّةٍ ومصباح يدوي، وبداخل جيبِ الزِيِّ المُموّه ورقّة مكتوبٌ عليها "كَهْفُ الْجَدِّ المُرْقُط"، وما إن رأى خطَّ جدّه حتى طار من الفرحة، وواصل السير بالنهار مُتوجّهاً إلى هناك.

ثم قال إنه عندما وصل إلى كهف "الجدِّ المُرْقُط" اكتشف الحصيـرة والموقد، وعلى الحصيـرة غطاءً من جلد كلبٍ، وبجانب الموقد كومةٌ من الفحم الأسود اللامع، والفظائر، والسّمك المُجفّف، وغيرها من المأكولات، وكذلك كل مستلزمات المعيشة، والأهم هو أن هناك مصدرَ ماءٍ بداخل الكهف، ولم يُجهز له جدُّه قنديلاً فحسب، بل كان هناك أيضاً جهاز راديو، وكان بإمكانه من خلاله سماعُ برامج إذاعة الشعب بـ "سونغشان"، ربما كان ذلك بسبب قُربه من لواء الثعالب البرية. وفكّر أنّ جدّه ترك له هذا الراديو لكي يعرف أخبار العالم الخارجي بشكلٍ وِقْتِيٍّ؛ ممّا يُسهّل عليه الحركة، كذلك خشي أن يسقط في فَخِّ الوحدة؛ لذا جعل الراديو بمثابة رفيقٍ له؛ فبه أناسٌ يتحدّثون، وأناسٌ يُغنون، وقد عَلِمَ من خلال الراديو بعملية البحث المُوسّعة التي قادها "تشين تشينغ باي" بحثاً عنه، وقتها بقي في الكهف ولم يخرج منه ولو مرّةً واحدة؛ فالفحم الذي تركه له جدّه فحمٌ جيّد

الاحتراق، والغريب أنه لا يَصْدُرُ عنه دُخَانٌ؛ لذلك لم يقلق أبداً من أن يكشف عن مخبئه بسبب حَرَقِ الفحم؛ فلا دخان يتصاعد منه. وهنا قاطَعَه "أن بينغ" وسأله: "هل سَمِعْتَ خَبْرَ "أن دا ينغ" من الراديو؟ فَذَهَبَتْ على الفور إلى مقبرة الشُّهداء وخذشتَ شاهدَ القبر؟".

فانفعل "شين شين لاي" ومدَّ رقبته وأطلق سِبابًا، ثم قال: "هل تَتَوَارَتْ البُطولةُ أيضًا؟ أي عمل عظيم في إنقاذ مَنْ سقط في الماء. ظَلَّتْ الإذاعةُ مُجَدِّده مِرَارًا وتكرارًا حتى اشتدَّ بي الغيظ، وكان إحسانًا مِنِّي تجاه أَسْرَتِكُمْ أن لم أَدْمُرْ شاهدَ القبر بالكامل"، ثم بصق بَصْقَةً وأكمل سَرَدَ قِصَّةِ هروبه. فقال إنه في اليوم السابع من دخوله للكهف اكتشف تحت غطاء جِلْدِ الكلب خريطةً رَسَمَهَا جَدُّهُ بِيَدِهِ، وَضَعَ له فيها علاماتٍ على مكانَيْن لنقل المُوْن، بالإضافة إلى مخزن جبل "إيشين"، أحدهما هو "كهف الدُّبِّ" الواقع في "قِمَّةِ الغربان"، والثاني هو المقبرة الموجودة عند "منحدر الزنابق"، وكان من السهل العثور على "كهف الدُّبِّ" بـ "قِمَّةِ الغربان"؛ فهناك جذعُ شجرة بلوط مُتساقِطِ الأوراق دَمَرَهُ البرقُ، بعَرَضِ طبقِ غَسِيلِ وَجْهِهِ، وأشبه ممدخنة مقطوعة تَقِفُ وقد اتَّشَحَتْ بالهباب، وعلى بُعْدِ مِترٍ واحد منه توجد فتحة كهف، هذا الكهف نُحِبُّ الدَّبَّيَّةُ قضاءَ بياتها الشتوي فيه، ولكن في السنوات الأخيرة ازدادت عمليات الصيد الجائر، فَهَرَبَتْ الدَّبَّيَّةُ وَهَجَرَتْ الكهف؛ فاستخدمه "شين كاي ليو" لنقل المُوْن من أجل "شين شين لاي". أمَّا مقبرة "منحدر الزنابق" فهي تقع في قلب غابة، ومدفونٌ فيها أهالي القرية الثالثة، هذا المكان هادئٍ وخالٍ من البَشَرِ تَمَامًا، باستثناء أوقات أعياد الربيع وعيد "تشيونغ مينغ" وعيد الأشباح، لا تطوُّه قدم، وكان "شين كاي ليو" ماكِرًا؛ لذلك كانت الأشياء التي وَضَعَهَا في هذا المكان مُعْظَمُهَا من المُعَلَّبَاتِ: مُعَلَّبَاتِ لحم، ومُعَلَّبَاتِ فاكهة، وكل أنواع الصلصات، فحتى لو عثرتَ عليها الحيواناتُ فإنها لن تتمكَّن من أكلها، وستضطرُّ لتركها. كما أن البشر

لو اكتشفوا وجود المُعلَّبات بالصدفة، فلا خطرَ في ذلك أيضًا، حيث سيعتقدون بالتأكيد أنها قرابينُ جاء بها أحدُهم عند زيارة المقابر. فسأله "أن بينغ": "وأين تلك الخريطة التي رسمها جدُّك؟".

فأطلق "شين شين لاي" صوتًا مُتهكِّمًا، وقال: "كنتُ أعلم أن هذا اليوم سيأتي؛ لذلك أحرقتُ الخريطة والرسائل التي تركها جدِّي، انسوا تمامًا أن تقع أيديكم عليها لتوجَّهوا له تُهَمَّةُ مُعاوَنَةِ مُجرِمٍ، كم سنة سيعيش في سنِّه هذا على أقصى تقدير؟ لا يمكن أن أُورطَه معي". ثم تحسَّس ذقنه الناعمة، بعدها تحسَّس شَعْرَه الثَّائِر المُتهدِّل، ولام على جَدِّه أنه أحضر له أمواسَ الحلاقة، لكنه نَسِيَ أن يجلب له مقصًّا، فلم يستطيع حلاقة شَعْرِهِ، لقد رأى من قبل صورته المُعكَّسة على بِرْكَةِ الماء، فشعر أنه قبيحٌ للغاية، بعدها لام جَدِّه ثانيةً أنه توقَّف عن إرسال المون له من بعد أن تفتَّحت زهور الأزاليا، وذهب إلى المخزن الأرضي وكهف الدببة والمقبرة بحثًا عن الطعام، لكنه لم يجد حتى عود مكرونة، فاعتقد أن جَدِّه مات؛ لذلك ذهب إلى ميدان صيد "شيوين" وسرق بُندقِيَّةً صَيِدٍ عازِمًا على الهرب، لكن البندقية التي سرقها كانت مختلفة تمامًا عن الطلقات، فلا يمكن استخدامها معًا؛ لذلك اضطرَّ للعودة إلى كهف "الجَدُّ المُرقَّط".

استمرَّ في حديثه وهو يتناول قطعةً أخرى من الأفعى، ويتجشَّأ، وقد زاع بصرُه ومَلَمَلَ في جلسته، وصار كلامُه غير مُرتَّب، فتارةً يَسُبُّ آفةَ الصنوبر، وتارةً يسبُّ الأفعى البيضاء. فقال إنه لولا آفة الصنوبر التي أصابت الغابة لما رَشَّت الطائرات المبيدات الحشرية، ولصار هناك الكثير من الأشياء التي يمكن تناولها في الربيع، عندها لم يَكُن ليجوع، فكان بإمكانه رؤية الطيور والسَّنَاجِب الميَّنة في كل مكان بالغابة، لكن كلها ماتت بسبب المبيدات فلم يجرؤ على تناولها. ثم قال إنه فكَّر كثيرًا، وفي النهاية هداه تفكيره إلى ثمار الجوز؛ فَلَحمُها مدفونٌ داخل قَشْرَتِها السَّميكة ولا تَمَسُّه المبيدات؛ لذا فهي آمنةٌ تمامًا، وهكذا بدأ

في جمعها، وغسلها بمياه النبع وأكلها، لكن قسرتها الخارجية صلبة للغاية؛ لذا عندما قضمها تكسرت نصف أسنانه الصناعية التي ركبها بصعوبة، وأضاف ساخرًا من نفسه أن مُعدّل ذكائه انخفض من طول المكوث في الكهف، حتى صار أقلّ من مُعدّل ذكاء قردٍ، فلم يُدرك سوى بعد تكسّر أسنانه أن الأفضل استخدام البلّطة والصخور لكسر الثمار. أمّا بالنسبة للأفعى البيضاء، فقال إنه لولا جوعه الشديد لمّا فكر أبدًا في أكلها. ففي العام الماضي عندما هطل الصقيع على الغابة، دخلت إلى الكهف أفاعٍ كثيرة، مُعظمها كانت تلتصق بحوائطه وتتكوّر حول نفسها مثل الزهرة، ورأسها تنتصب في المنتصف مثل قلب الزهرة، وتدخل في بياتها الشتوي. ورغم سكونها إلا أن جلدها مصقولٌ ومشدودٌ وينعكس عنه ضوء لامع، ومن بين كلّ الأفاعي الرائدة في بياتها الشتوي اكتشف "شين شين لاي" تلك الأفعى البيضاء؛ فهي الوحيدة التي رقدت بجوار بركة الماء، وما إن حلّ الربيع حتى خرجت كلّ الأفاعي الأخرى من الكهف بعد أن استيقظت من سباتها ولم تعد ثانية، ما عدا هي، بقيت في مكانها بجوار بركة الماء كأنها تتعبّد، وإذا خرجت لمرةٍ قليلةٍ تعود ثانية في نفس الليلة. وأضاف "شين شين لاي" أنه تعايّش معها سلميًا دون مشاكل، فوجود أنفاسها في المكان أحسّ بوجود حارسٍ إلى جواره؛ ممّا جعله ينام بعمقٍ واطمئنان، لكنها في هذا الربيع صارت هي الطعام الوحيد المتاح أمامه؛ لذا نمت في عقله فكرة قتلها، فأخذ فرع شجرة مثل الشوكة لاستخدامه كأداة صيد أفاعي، لكنه ما إن اقترب منها حتى رفعت رأسها ولدغته في ساقه قبل أن يتمكن من تثبيت رأسها بفرع الشجرة. ثم ربّت على بطنه وقد بدت على وجهه ملامح الانتصار، وقال متفاخرًا: "أنتها الأفعى البيضاء، لقد التهمتك، لو فكرت ثانية في لدغي فلا مصيرَ أمامك سوى أن تصيري دودةً في بطني، هيّا تحوّلي، تحوّلي...".

لم يَعُد "أن بينغ" راغِبًا في مواصلة سَماعِ تُرّهاته؛ لذا نَبّهه إلى أنه قد أَكَلَ وشَرِبَ بما فيها الكفاية، وحن وقت الرحيل؛ فوضع "شين شين لاي" الخمر من يده، وضحك ضحكة غريبة، واستلَّ سِكِّينَ قَتَلَ الخنازير ولوَحَ بها أمام رقبته، ثم لوَحَ بها ثانيةً أمام قلبه، ثم لوَحَ بها مرّةً أخرى أمام معدته، وسأله "أن بينغ" ألا يَخشى أَنَّهُ لو انتحر ثم جاءت قُوّات الأمن لتجد بصمات "أن بينغ" على مقبض السُّكِّين عند مُعايَنَةِ مسرح الجريمة فتُثبِت أَنَّهُ هو مَنْ قَتَلَهُ؟ لو أن الأمر سار هكذا فإن موته يستحقُّ فِعْلاً؛ فبهذا الشكل سيورطه معه، فضحك "أن بينغ" مرّتين وقال إن الطبيب الشرعي ليس بهذه السذاجة، فجرح الانتحار يختلف عن جرح القتل. فشعر "شين شين لاي" بالإحباط، وصمّت للحظّاتِ ثم وجّه السُّكِّين فجأةً ناحية قلبه، فاعتقد "أن بينغ" أنه سينتحر حقًا، فسأله على عَجَلٍ: "هل سترغب في الحياة لو صرّت أبا؟".

فاهترزت السُّكِّينُ في يد "شين شين لاي"، ومَطَّ شفتيه قائلاً: "لو تناسخت روعي في جَسَد ابني، فَمِن أين سيأتي بالمصير الجيد؟ أنا لا أرغب في تلك المسؤولية، بالإضافة إلى أنني لا يمكن أن أنجب". فبدأ واضحًا من كلامه أن "شين كاي ليو" لم يُخبره بأيّ شيء، وأنه لا يعلم أيّ شيءٍ عمّا حدث في قرية "لونغ تشان"، باستثناء بعض الأخبار التي سمعها في الإذاعة.

شعر "أن بينغ" بالألم يعتصر قلبه، وسأله ثانية: "إن كُنْتَ لا ترغب في ابنٍ من صُلبِكَ، أفلا ترغَبُ في أبيك الحقيقي؟ لو كان أبوك ذا سطوةٍ ومَنصب، ولكنه مُصابٌ بمرَضٍ شديد ويحتاج إلى كُلِّيتِكَ، فهل ستوافق على مَنجِه إيّاها؟ ولكن عليّ أن أنبّهكَ، لو أعطيتَه كُلِّيتَكَ فستموت أيضًا في النهاية".

وعلى الفور لمعت عينا "شين شين لاي" وصاح بصوت عالٍ: "سيكون هذا يومٌ سعدي، لو أن لديّ مثل هذا الأب فلن أقلقُ بموضوع مماتي؛ فكليتي ستظلُّ حيّةً، وستصاحبه في الجلوس على كرسيّ السُلطة لتتمتّع بحياة راقية، وسأكون قد ارتقيتُ أنا أيضًا، بالإضافة لذلك فلو كان لديّ مثل هذا الأب حقًا ويحتاج لكليتي فسينقذ حياتي، سيجد طريقةً للحكم عليّ بالإعدام مع إيقاف التنفيذ، والإعدام مع الإيقاف يصبح سجنًا مدى الحياة، والسجن مدى الحياة يصير سجنًا لفترة مُحدّدة، وهكذا تُخفّف العقوبة بلا توقُّف، لتُصبح مسألة خروجي من السجن ليست مشكلة، فقط لو كان لديّ مثل هذا الأب حقًا، فلن يُعجزنا شيءٌ، هل ما تقوله حقيقة فعلاً؟ لم تخدعني؟"، فهزَّ "أن بينغ" رأسه مؤكِّدًا.

فقهقه "شين شين لاي" بصوتٍ عالٍ، وقال مُنفِعلاً: "يا للسماء، لقد أكلتُ الأفعى البيضاء وشربتُ خمرًا جيّدَةً فصادفني حُسنُ الحظِّ"، ثم جاهد للوقوف ولم يعد ظهره مَحنيًا، وألقى بالسُّكّين ناحية الموقد لترتطم به مُصدِرَةً صوتًا عاليًا، ومدَّ يديه إلى "أن بينغ" وقال: "هيا، صُغ الأغلال في يدي، أنا أرغب في رؤية أبي".

في الحقيقة لو لم يُلقِ "شين شين لاي" بالسُّكّين لقام "أن بينغ" باختطافها منه وتقييده؛ فهو يرى أن الشَّخص الذي فسدت روحه بالكامل ليس مُوهبًا للانتحار؛ فالانتحارُ الحقيقيُّ في رأيه هو للأقبياء المحترمين؛ لذا أراد أن يدعاه يعيش فترةً لكي يتلقَّى العقاب البدني ويعرف أن ما يعتقد بأنّه النُور هو في الحقيقة الظلام الحقيقي الذي سيأخذه في طريقٍ بلا رجعة.

قيّد "أن بينغ" يديّ "شين شين لاي" بالحبال، وسحبّه إلى خارج الكهف. كانت العاصفة قد انتهت وسكنت الرياحُ وتوقّفت الأمطار، وامتلات السماءُ بِقطعٍ سحابٍ صغيرة مثل قطع "الدوفو"، يبدو أن



البرق كان بمثابة مياهٍ مُنظِّفةٍ حوّلت السُّحْبَ السوداء في السماء إلى قِطْعٍ بيضاء.

لكنَّ الحصان الأبيض اختفى، وناداه "أن بينغ" مرّاتٍ عديدةً لكن لم يظهر له أيُّ أثرٍ، فلم يَعدُ أمامهما سوى السَّيرِ على الأقدام، وتَعكَّرَ "شين شين لاي" على عصاه ليسير مُترنِّحًا، أمّا "أن بينغ" فقد بدا كأنه أُصيبَ هو الآخر فصارت خطواته ثقيلةً. وفجأةً غيَّرَ رأيه، ولم يَعدُ يرغب في أن يظهر "شين شين لاي" في قرية "لونغ تشان"؛ فهو لا يرغب أن تراه "أن شويه أر" والطفّل؛ ولذلك أخذَه تجاهَ القرية الثالثة، وفي المساء وصلًا أخيرًا إلى معصرة زيت "جين سو تشوو"، وهناك اتَّصل "أن بينغ" بالشرطة، وعندما وصلت سيارَةُ الشرطة التابعة لمديرية أمن محافظة "تشينغشان"، كان "شين تشي زا" قد وصل هو الآخر راكبًا دراجته النارية، يبدو أن "جين سو تشوو" قد أبلَّغته هاتفياً في الخفاء، وما إن رآه "شين شين لاي" حتى صاح بصوتٍ جهوريّ: "القَدِر قاتِلُ الخنازير، ماذا أتى بك".

فأخرج "شين تشي زا" غليونَه من خاصرته، وضربَ به على رأس "شين شين لاي"، وقال: "جئت لأسألك أيّ ملابس ترغَّبُ في ارتدائها أثناء قضائك محكوميتك لأجهزها لك؛ فهما بلَّغت قذارتك فسأظللُ أعتبر والدك".

وعندما وضعت الشرطة الأغلال في يَدَي "شين شين لاي" ظهرت على وجهه ملامحُ استخفافٍ بالأمر، أمّا "شين تشي زا" فقد أغرق الدَّمعُ الحارَّ وجهه.

## 16

### اللؤلؤة السوداء

بعد وقوع "شين شين لاي" في أيدي العدالة هطلت الأمطار مرّتين؛ فازدادت الغابات خُضرةً وصار الهواء نقيًا بشكلٍ غير مسبوق، وانتشّرت الرائحة العَطرَة في كل مكان. وهناك مَنْ قال بأن الرائحة التي يشمُّها هي رائحة البلوط، ومَنْ قال بأنها رائحة الزنابق، ومَنْ قال بأنها رائحة البتولا البيضاء، ومَنْ قال بأنها رائحة الأبقوان البري، أو رائحة الفيولا الأرجوانية. في العادة كانت الخلافات تنشب بين الناس من شدّة الفَراغ والمَلَل حول ماهية تلك الروائح، كأنْ عدم الاعتراف بقُدرة المرء على تمييز الروائح هو بمثابة احتقارٌ لأنفه. لكن في صيف هذا العام زادت الموضوعات التي يمكن الحديث حولها؛ فصار الناس يهزُّون رؤوسهم موافقين كلِّ مَنْ يقول بأنه اشتمَّ رائحةً عَطرٍ ما؛ فعلى أيِّ حالٍ مهما كان نوع الرائحة فكلُّها في النهاية من أُسرةٍ واحدة.

اشتدَّ الجدل بين الناس حول ما إذا كان يجب على "أن بينغ" إلقاء القبض على "شين شين لاي" أم لا، فكان مَنْ رَأوا أَنه يتوجَّب عليه ذلك هُم مَنْ يَحْبُون "وانغ شيو مان"، ويرون أَنها ماتت ظُلْمًا، ويجب على "شين شين لاي" أَن يدفع حياته ثمنًا لما فعله بها، أمَّا القائلون بعدم وجوب القبض عليه فهم مَنْ يَحْبُون "المبروكة أَن"، حيث قالوا إِنها أَنجَبَت طفل "شين شين لاي"، وبَعَضُ النظر عن أي شيء فهم صاروا أُسرَةً واحدة، فلا يجوز أَن نحرم "ماو بيان" من أبيه بمجرّد ولادته. أمَّا الموضوعات التي تدور حول مخبأ "شين شين لاي" في كهف "الجَدُّ المُرْقَط" فكانت أكثر ثراءً، أليس هذا المكان هو كهف الأفاعي؟ كيف استطاع "شين شين لاي" العيش معها؟ لقد سمعوا كذلك أَن الكهف به ينبوع ماء؛ وهذا ما مكنه من العيش فيه، ومياه ذلك الينبوع تأتي من السَّماء أم تتفجّر من الأرض؟ لو كانت قادمةً من السَّماء فهل تسيل من القمر حين يصير هِلَالًا؟ وهل مَنْ يَشْرَب هذا الماء يصير خالِدًا ولا يشيخ؟ ولو كانت نابعةً من الأرض فهل هي لُعَابٌ بَصَقَهُ مَلَكُ العالَمِ الآخر وَمَنْ يشرب منه ينزل إلى مملكةِ العالَمِ السُّفلي؟ وهكذا دَبَّ الخِلافُ بين فريقِ نظريّةِ السَّماءِ وفريقِ نظريّةِ الأرض، وتجادلوا حتى احمرّت وجوههم وأذانهم.

وتجادل النَّاسُ أيضًا حول "شين كاي ليو": لماذا باع الحصان؟ ولماذا صار عريبدًا بعد سقوط حفيده في يَدِ العَدالَةِ وانحنى ظَهْرُهُ كالشَّجرة التي رَزَحَتْ تحت وطأة أكوامٍ من التُّلوج، وَضَعَفَتْ أَقْدَامُهُ فصار عاجزًا عن المشي بسهولة، كما صار يأخذ معه ذلك الكلبِ المَدْعُو "أيتزيه" في كُلِّ مساءٍ ليتجوَّل بلا هدفٍ في القرية، وكلِّما صادَفَ أحدهم سَبَّ "أن بينغ" بأنه شخصٌ فاسِدٌ؟

وبالحديث عن "أن بينغ"، تَنَاقَشَ النَّاسُ أيضًا حول إذا ما كان سيحصل على مكافأة أم لا لإلقاءه القبض على "شين شين لاي"؛ وذلك لأنَّ مديرية الأمن كانت قد أعلنت وقتها عن مكافأةٍ للقبض عليه.

ففریقُ رأى أنه تتوجَّب مكافأته؛ وذلك لأنه خرج إلى المعاش بسبب المرض، فصار مُواطنًا عاديًا، ولم يقبض على "شين شين لاي" بسبب عمله، أمَّا الفریق الآخر فرأى أنه لا تجبُ مكافأته، فعلى أيِّ حال لا تزال تربطه علاقةٌ بالمحكمة لأنه يأخذ منها معاشَ تقاعده؛ لذلك فما فعله هو الواجب عليه بصِفته شُرطيًّا قديمًا، بالإضافة إلى أنه ابن بطل.

وامتدَّ جدُّ النَّاس حول "أن بينغ" إلى المرأتين المتعلقتين به. فزوجته السابقة "تشوان لين يان" قد تطلَّقت من فترةٍ قريبة، ولم تُنجب من زوجها الثاني، و"المبروكة أن" هي ابنتها من صُلبها، وجاءت مرَّتَيْن إلى قرية "لونغ تشان" وهي تحمل معها لبِنَ الأطفال، وذهبت إلى الورشة لرؤية "ماو بيان"، يبدو أنها ترغب في لَمِّ الشَّمْل ثانيةً مع "أن بينغ"، أمَّا عشيقه "أن بينغ" "لي سو تشين" فهي الآن عَزباء، فأَيُّ واحدة سيختارها في النهاية؟ هناك مَنْ قال إنه سيختار "تشوان لين يان"، فَبِعَضِّ النَّظَر عن أيِّ شيءٍ فلديهما ابنةٌ مشتركة، وهناك مَنْ قال إنه سيختار "لي سو تشين"، فقد سَمِعوا أنه هو مَنْ تكفَّل بترتيبات جنازة زوجها، فكيف له أن يقوم بمثل هذا الأمر إن لم يكن عاشقًا لها من كُلِّ قلبه؟

وعندما تجادل النَّاسُ حول أيِّ امرأةٍ سيختارها "أن بينغ" تحدَّثوا أيضًا عن كل الموضوعات المتعلقة بهذا الأمر.

عرف "أن بينغ" شابًا يُدعى "شياو جيانغ" جاء ليخطب "لين دا هوا"، كان عاديًّا المظهر، لكنه ذكيٌّ للغاية، وظروف أسرته جيِّدة، والأهم أنه يعمل في محكمة المحافظة، أي أنه من ذوي الحظوة، وهذا أفضل أضعافًا مضاعفةً من "لين دا هوا" التي لا عملٌ ثابتٌ لديها. وقع "شياو جيانغ" في غرام "لين دا هوا" من النَّظرة الأولى؛ فهي هادئة، بسيطة، قليلةُ الكلام. إن أكثر ما يخشاه هو أن يقع

في زوجة تافهة ثرثرة لا تجيد سوى رسم حواجبها وطلاء شفثتها  
والثرثرة بجوار أذنه كالعصافير طوال اليوم، فصار يركب كل يوم  
درآجته النارية بعد الانتهاء من العمل ويأتي لرؤية "لين دا هوا". وكان  
مُتفهِّمًا تمامًا لها، فقد صار يرتدي الملابس الدَّاكِنَة؛ لِعَلِمِه أنها تُحِبُّ  
السَّواد، حتى الجوارب لم يَعد يرتديها بيضاء، لدرجة أنه غيَّر السَّاعة  
التي يرتديها في يده إلى ساعة ذات خلفيَّة سوداء. لكن "لين دا هوا"  
كانت كمن أصابها مَسٌّ، فقالت إنها ترغَّب في العيش مع نفسها  
لبقيَّة حياتها، فاستشاطت المرأة المدخنة غضبًا حتى صرخت من ألم  
كيدِها، وهَدَّدت ابنتها إن لم تقبل بالزَّواج من "شياو جيانغ" أنها  
ستُلقي بنفسها في نهر "جيلوا"، لكن "لين دا هوا" لم تُعزها أيَّ اهتمام،  
بل قالت لها على الملأ مُتحدِّيةً: "نهر "جيلوا" مدينٌ لنا بحياة، هيا،  
اقفزي فيه، ولو متَّ، سأبرُك بزيارة قَبْرِكَ مدى الحياة"، فمسحت  
المرأة دموعها، وقالت: "صِرْتِ تلبسين مثل الغراب، أليس هذا برًّا  
بشخصٍ ميَّت؟ إنك تلعينيني، وتنتقمين مني". وفهِّم النَّاس من كلمة  
"تنتقمين" أن المرأة المدخنة لديها ما تخجلُّ منه تجاه ابنتها، لكنهم  
فكَّروا حتى أصابهم الصُّداعُ ولم يتوصَّلا إلى ما هو هذا الأمر. بعدها  
نحفت المرأة المدخنة واسودَّ وجهها، وصارت تبكي كلِّما قابَلت أيَّ  
شخص، ولا تفرح إلَّا إذا رأت "شياو جيانغ" قادمًا. فكانت تهرعُ رغم  
بُخلها إلى نُزُل الشمس الحمراء لتطلب له طبقين من اللحم وتعود  
بهما للبيت، قائلةً إنه نَحيفٌ ويحتاج للتغذية. وطلَّبت من "جيه  
شي باو" أن يصنع الطَّعامَ على أفضل وجه، فلو أُعجِب "شياو جيانغ"  
بالطَّعام فسيأتي دائمًا إلى قرية "لونغ تشان"، ولو نجح الأمر وارتبط  
"شياو جيانغ" و"لين دا هوا" فسُكافئُهُ مادِّيًّا، وسمعها "جيه شياو  
باو"، فخرج وأخبر الجميع أن المرأة المدخنة حين قالت لوالده تلك  
الكلمات، قال "جيه شي باو": "إن ربَّطت مَعِدَّتَه ولم تَربطني قلبه، فما  
الفائدة؟"، فضحك الجميع لما سَمِعوه، وقالوا إن "جيه شي باو" قد

نَطَقَ بِالْحَقِّ. وعندما سمع "جيه شياو باو" مديح النَّاسِ لِرَدِّ فِعْلٍ وَإِلَيْهِ لَمْ يَنْسَ أَنْ يَمْدَحَ نَفْسَهُ، فَقَالَ إِنَّ الْمَرْأَةَ الْمَدْحَنَةَ لَا تَسْمَحُ لَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى "لِين دَا هُوا" كُلَّمَا جَاء "شياو جيانغ"، لَكِنَّهُ لَا يَسْمَعُ كَلَامَهَا، وَذَاتَ مَرَّةٍ ذَهَبَ كَالْعَادَةِ لـ "لِين دَا هُوا"، فَمَنَعَتْهُ الْمَرْأَةُ الْمَدْحَنَةَ الْوَاقِفَةَ عَلَى بَابِ مَقْهَى الْإِنْتَرْنِتِ مِثْلَ كَلْبِ الْحِرَاسَةِ، وَقَالَتْ: "إِنَّهُمَا يَتَحَدَّثَانِ فِي الْحُبِّ، وَوُجُودُكَ يُعَيِّقُ الْأَمْرَ، هِيََا اغْرُبْ مِنْ هُنَا"، فَرَدَّ عَلَيْهَا: "هُمَا يَتَحَدَّثَانِ فِي الْحُبِّ، وَأَنَا سَأُسَاعِدُكَ كَعَمِيلِ مُخَابِرَاتٍ، بَدَلًا مِنْ وَقُوفِكَ هُنَا قَلِيفَةً لَا تَعْلَمِينَ إِذَا مَا تَبَادَلَا الْقُبَلَاتِ فِي الدَّخْلِ أَمْ لَا". كَانَ الْحُبُّ فِي رَأْيِ "جيه شياو باو" هُوَ تَبَادُلُ الْقُبَلَاتِ، وَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْخَبْرَةُ الَّتِي اِكْتَسَبَهَا مِنْ مُشَاهَدَةِ التَّلْفَازِ، فَضَحِكَ الْجَمِيعُ مِنْ كَلِمَاتِهِ وَأَثْنُوا عَلَى رَدِّ فِعْلِهِ هُوَ الْآخِرُ.

إِنْ وَجُودَ مَنْ يَسْعَى خَلْفَ "لِين دَا هُوا" لَمْ يُسْعِدِ الْمَرْأَةَ الْمَدْحَنَةَ فَحَسَبُ، بَلْ أَسْعَدَ "لِيُو شياو هونغ" أَيضًا، وَكَأَنَّهَا تَخْشَى أَلَّا يَعْلَمَ الْآخَرُونَ بِسَعَادَتِهَا؛ فَصَارَتْ كُلَّمَا قَابَلَتْ أَحَدَهُمْ قَالَتْ: "لَقَدْ هَبَطَ الْحِظُّ السَّعِيدُ عَلَى "دَا هُوا"، وَخَطَبَهَا قَاضٍ مِنَ الْمَدِينَةِ"، كَذَلِكَ قَطَعَتْ عَلَى الْمَلَأِ عَهْدًا أَنَّهَا سَتُعْطِيهَا خَمْسَةَ آلَافِ يُوَانٍ هَدِيَّةً زَوَاجٍ إِنْ تَزَوَّجَتْ مِنْ "شياو جيانغ"؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ "لِين دَا هُوا" قَدَّمَتْ الْكَثِيرَ مِنْ أَجْلِ نُزُلِ الشَّمْسِ الْحَمْرَاءِ، وَاسْتَنْتَجَ النَّاسُ أَنَّهَا تَفْعَلُ ذَلِكَ مَحَبَّةً فِي "جيه شي باو"؛ فَهِيَ تَخْشَى أَنْ يَتَزَوَّجَ "لِين دَا هُوا"، فَلَوْ تَزَوَّجَهَا "شياو جيانغ" سَيَصْبِحُ "جيه شي باو" فِي مَأْمَنٍ. وَقَدْ وَجَدَ النَّاسُ فِي الْخَادِمَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي عَيَّنَتْهَا "لِيُو شياو هونغ" دَلِيلًا قَاطِعًا عَلَى حُبِّهَا لـ "جيه شي باو"، فَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ مَا يَكْرَهُهُ هُوَ النِّسَاءُ النَّحِيفَاتُ الطَّوِيلَاتُ، قَائِلًا إِنْ مِثْلَ تِلْكَ النِّسَاءِ ثَقِيلَاتٌ عَلَى الْقَلْبِ. وَالْخَادِمَةُ تِلْكَ الَّتِي جَلِبَتْهَا "لِيُو شياو هونغ" مِنْ مَحَافِظَةِ "تشانغتشينغ" كَانَتْ طَوِيلَةَ الْقَامَةِ، ذَاتَ رَقَبَةٍ طَوِيلَةٍ وَخَصِرٍ نَحِيلٍ وَذِرَاعَيْنِ وَسَاقَيْنِ نَحِيلَةٍ، وَشَعْرٌ طَوِيلٌ حَتَّى حَصْرِهَا، وَمَلَامِحٌ لَعُوبٌ. وَكَأَنَّهَا افْتَتَحَتْ مَحَلًّا إِكْسِسَوَارَاتٍ عَلَى

جسدها، فتجد على رقبتها وأذنيها ومعصمها وكاحلها مُخْتَلَفَ أشكال الحُلِيِّ، ورغم أن مُعْظَمَهَا كانت مُقْلَدَةً، إلا أنها كانت لَامِعَةً ذات بريق، وبسبب كل تلك الحُلِيِّ كانت تُصَدِرُ صَليلاً وجلجلة عند القيام بالعمل، أما حين تسير فالأمر لا يحتاج لشرح كثير، خاصةً في الأيام العاصفة، حيث يَعْرِفُ جَسَدُهَا سيمفونيةً. وكان لَقَبُهَا "فان"؛ لذلك أطلق عليها أهالي قرية "لونخ تشان": "فان المجلجلة".

لم يُحِبَّ "جيه شي باو" تلك الفتاة، ففي الماضي حين لا يكون لديه عملٌ في المطبخ كان يجلس ليستريح قليلاً إلى المائدة المُلاصِقة للنَّافذة ويُدخِّنُ السجائر ويحتسي الشاي ويضيق عينيه ليراقب "لين دا هوا" وهي تعمل. ولكن من بعد مجيء "فان المجلجلة" صار يذهب إلى المقهى ليستريح.

ورغم أن "فان المجلجلة" لم تَرُقْ لـ "جيه شي باو"، إلا أن "ليو شياو هونغ" أحببتها، والزبائن أيضاً أحبُّوها، واعتمَدَت "لين دا هوا" أثناء عَمَلِهَا في نُزُلِ الشمس الحمراء على عَزْفِ الأوكورديون والحِجَامَةِ لكي تحظى بحُبِّ الزبائن، أمَّا "فان المجلجلة" فقد اعتَمَدَت على مهاراتها الصوتية ومهارتها في قَصِّ الشَّعْر لتأسِرَ بهما القلوب؛ فهي بارعةٌ في تقليد كل الأصوات، فبالإضافة إلى أصوات الحيوانات كانت قَادِرَةً أيضاً على تقليد صوت صافِرةِ القِطَار وهزيم الرِّعْد وصوت إخراج الرِّيح، وصوت فراملِ السَّيَّارة، وصوت تقطيع الخضروات، وصوت قطرات الماء المتساقطة من السَّقْف، وصوت تحطُّم الأكواب الرُّجَاجِيَّة، وصوت ساعة الحائط، وصوت خريز الماء، وصوت صَفير الرِّيح الشَّمَالِيَّة، فكانت حين تُقَلِّد أصوات الطُّيور تردُّ عليها الطُّيور بأصوات مُمَائِلَةٍ، وحين تُقَلِّد صوت القِطَّة تُفزع الفئران في المطبخ، وحين تُقَلِّد صوت بوق السَّيَّارة وهي تمشي في الشَّارِع يُفسِحُ لها المُشَاهُ الطَّرِيقَ على الفور، وحين تمرُّ أمام المدرسة الابتدائية وتُقَلِّد صوت الجَرَس يظنُّ الطُّلابُ أن الدَّرْسَ انتهى فيُسَارِعُونَ إلى الخروج من الفصول جماعاتٍ.

وسمع أحد الزبائن تقليدها للأصوات فقال إنها يجب أن تعمل مؤدبة صوتية. كذلك تتمتع "فان المجلجلة" بمهارة كبيرة في قص الشعر، فهي تستخدم ماكينة القص بنفس مهارة استخدامها لعصي الطعام، وكانت تقص الشعر مجاناً، وتصف قصاتٍ مُختلفةً ومُتنوعةً وفقاً لأذواق الزبائن، وقد تحدت أهالي القرية بأن مهارتها تلك تعلمتها وصقلتها في صالونات التجميل بالمدينة، وهل هناك فتاة نظيفة تعمل في الصالونات؟ كذلك تأكد الناس من صواب حكمهم من خلال معرفة "لاوي واي" الوثيقة بـ "فان المجلجلة".

لم تسلّم "تانغ ماي" أيضاً من الموضوعات المتعلقة بالحُبّ والمشاعر، ففي صباح يوم أحد في نهاية الربيع، أخذت "تشين يوان" عند "ليو شياو هونغ" قائلةً إنها ستذهب للمدينة لأمرٍ خاصٍّ وستقضي الليلة هناك، وإن إرسال "تشين يوان" إلى بيت "شين تشي زا" كما كانت تفعل عادةً لم يعد سهلاً؛ لذا رجّت "ليو شياو هونغ" أن تأخذها يومين، فوافقت "ليو شياو هونغ" على الفور. لكن "تشين يوان" لم تكن سعيدةً بذلك، وظلت مُمتعضةً الشفتين بعد أن دخلت إلى النزل، وقالت "ليو شياو هونغ" أنّ "تانغ ماي" في ذلك اليوم تزينت على الموضة، فرفعت شعرها ووضعت تبرجاً خفيفاً، وارتدت بلوفر طويل الرقبة، وضعت فوقه معطفاً أبيض ذا رقبة كبيرة مقلوبة، وربطت حول رقبتها منديلاً قرمزيّاً من الحرير الطبيعي، وارتدت في قدميها حذاءً أبيض قصير الرقبة من جلد الغنم، فبدت راقيةً جميلةً، ولمّا رأت "ليو شياو هونغ" زينتها الجميلة اعتقدت أنها ذاهبةً لمواعدة القائد "وانغ"، وبعد يومين عادت "تانغ ماي" وقت الغروب، وعندما جاءت للنزل لأخذ "تشين يوان" كان ظهرها مَحنيّاً وعيناها غائرتين ووجهها رمادياً مُتربّياً وشفتاها مُزرقَتين، فأصيبت "ليو شياو هونغ" بالرعب من منظرها، وسألتها: "ماذا حلّ بك؟"، فخلعت "تانغ ماي" معطفها، ووضعت على ظهر المقعد وقالت إنها راغبةٌ في تناول طبقٍ



من المكرونة، ثم أوصت "جيه شياو باو" أن يُضيفَ للمكرونة بيضتين. وبعد أن انتهت من تناول المكرونة والبيض، مَسَحَتْ قطرات العَرَق من على جبهتها، ودَفَعَت الحساب، وعندما نَهَضَتْ لارتداء المعطف أَخْبَرَتْ "ليو شياو هونغ" بكلِّ هدوء أنها ذَهَبَتْ للمدينة لربط الرَّجْم، ففَزَعَتْ "ليو شياو هونغ" وصاحت: "ألا ترغبين في الأطفال في المستقبل؟"، فَضَحَكَت "تانغ ماي" ببرودٍ، وأمسكت يَدَ "تشين يوان" وقالت: "أليس عندي واحدةٌ بالفعل؟".

فِعَلَتْهَا تلك ذَكَّرَتْ أهالي القرية بـ "وانغ شيو مان". لقد رَبَطَتْ رَحِمَهَا وقتها من أجل "شين تشي زا"، فمن أجل مَن فَعَلَتْ "تانغ ماي" هذا؟ منهم مَن قال إنه من أجل القائد "وانغ"، فهو لن يُطَلَّق زوجته، وهي تَعَبَتْ من لعب دور العشيقه ولم تُعَدِّ تَثَقُّ في الرِّجال، وَيَسَّتْ تمامًا من موضوع الزَّواج؛ لذلك رَبَطَتْ رَحِمَهَا، وهناك مَن قال إنها تَعَبَتْ من وجود "تشين يوان" ونَدِمَتْ على جَلِبِهَا للعيش معها، لكنها غير قادرة عن التَّخْلِى عنها؛ فربَطَتْ رَحِمَهَا لتَقَطِّعَ على نفسها أيَّ سبيلٍ للتَّرَاجُع حتى لا تحلم ثانيةً بالزواج؛ وبهذا يمكنها مُرافقة "تشين يوان" حتى الممات.

كان قلب "تشين ماي تشين" قد انكوى بالنار حتى احترق بسبب عدم العثور على مُتَبَرِّعٍ مُناسِبٍ لأخيها، فزاد موضوعُ ابْنَتِهَا الطَّيْنِ بِلَّةً، واختفى الربيع من حياتها، فمَرَضَتْ بشدة، وبعدها خَرَجَتْ من البيت فكانت هَيْئَتُهَا مُتَعَبَةً ومُحَطَّمةً تمامًا. لقد دخل الصَّيف وارتدى الجميعُ مَلايِسَ قصيرة الأكمام، أمَّا هي فارتدت الملابس الصوفية، ومع ذلك ظَلَّت تشعر بالبرد. لقد اصْفَرَّ وَجْهُهَا، وصارت دائمة التَّطُّع للسَّماء قائلَةً إن الشمس صارت باردةً، يبدو أن نهاية العالم اقتربت، وعلى وجهها ارتسَمَت ملامح السَّأم من هذا العالم. أمَّا "تانغ ماي" فلم تُعَدِّ تذهب لرؤية القائد "وانغ"، حتى فسَّر

النَّاسُ التَّدْرِيبَاتِ العَسْكَرِيَّةِ المَتَكَرِّرَةَ مُؤَخَّرًا لِلِوَاءِ الثَّعَالِبِ الْهَرِيَّةِ بِأَنَّهَا  
مَجْرَدٌ مَخْرَجٌ لِقَائِدٍ "وَانِخ" يُفْرِغُ فِيهِ شَهْوَاتِهِ.

فَتَرَّتِ العِلَاقَةُ بَيْنَ "تَانِخِ مَائِي" وَالْقَائِدِ "وَانِخ"، فَأَصَابَ هَذَا "جَانِ  
تَشِيهِ شَيْنِخ" بِإِحْبَاطٍ شَدِيدٍ؛ فَقَدْ كَانَ هُوَ العَالِمُ بِبِوَابِطِ العِلَاقَةِ  
العَاطِفِيَّةِ السَّرِيَّةِ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ القَائِدُ "وَانِخ" دَائِمًا مَا يَرْسِلُ جُنُودَهُ  
بِالهِدَايَا إِلَى مَنزَلِهِ فِي كُلِّ عِيدٍ كِي يَكْتُمِ الأَمْرَ وَيَغْلِقُ فَمَّهُ، وَهَذَا جَعَلَهُ  
يَشْعُرُ بِالرِّضَا وَيَتَفَاحَرُ دَوْمًا أَمَامَ النَّاسِ بِأَنَّهُ هُوَ وَالْقَائِدُ "وَانِخ" مِثْلُ  
الأَخُوَّةِ؛ لِذَا فَعَدِمَ ذَهَابَ "تَانِخِ مَائِي" لِلِوَاءِ الثَّعَالِبِ الْهَرِيَّةِ سَيَمَحُو  
مَكَانَتَهُ وَهَيِّئَتَهُ.

إِذَنْ مَن كَانَ الأَجْمَلَ هَيْئَةً فِي قَرْيَةِ "لُونِخِ تَشَان"؟ بَلَا شَكَّ كَانَتْ  
"تَشِينِ يَوَان". فَقَدْ اشْتَرَتْ لَهَا "تَانِخِ مَائِي" عِدَّةَ كِرَاسَاتٍ تَلْوِينِ،  
فَصَارَتْ تَجْلِسُ بَيْنَ أَشْجَارِ الفَاكْهَةِ فِي الأَيَّامِ المُشْرِقَةِ الصَّافِيَةِ لثُلُوثِ  
رَسُومَاتِ الحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ بِالأَوَانِ الشَّمْعِ. وَكَانَتْ تُفَضِّلُ خَلْطَ  
الأَشْيَاءِ أَثْنَاءَ التَّلْوِينِ، فَمَثَلًا ثُلُوثِ أَفْرَعِ شَجَرَةِ الدَّرْدَارِ بِالأَلْوَانِ الأَسْوَدِ،  
أَمَّا الأَوْرَاقُ فَتَجِدُ فِيهَا القُرْمِزِيَّ والأَبْيَضَ والأَحْمَرَ والأَصْفَرَ، كَمَا لَوْ أَنَّ  
سِرْبًا مِنَ الطِّيُورِ المُلَوَّنَةِ قَدْ حَطَّتْ عَلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَمِثَالِ آخَرَ أَنَّهَا  
حِينَ لَوْنَتْ خُرُوفًا، تَرَكَتْ جِسْمَهُ أَبْيَضًا، لَكِنهَا لَوْنَتْ وَجْهَهُ بِأَشْكَالِ  
غَرِيْبَةٍ، فَالْوَجْهُ أَسْوَدٌ، وَالقُرُونُ بِيضَاءَ، وَالعَيُونُ خَضْرَاءَ، وَالأنْفُ حَمْرَاءَ،  
وَالشَّفَتَانِ صَفْرَاوَانِ.

وَنَتِيجَةً لِلْمَشَاكِلِ الأَسْرِيَّةِ لَمْ يَعُدْ تَفْكِيرُ "تَانِخِ هَانِ تَشِينِخ" مُنْصَبًا  
عَلَى العَمَلِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى قِلَّةِ عِدَدِ السُّيَّاحِ هَذَا الرَّبِيعِ بِسَبَبِ آفَةِ  
الصُّنُوبَرِ الَّتِي ضَرَبَتْ القَرْيَةَ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَتِمَّ تَنْظِيمُ عِيدِ مُصَارَعَةِ الكِبَاشِ  
فِي مَوْعَدِهِ بَعْدَ عِيدِ الفَوَانِيسِ هَذَا العَامِ. وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ آفَةُ  
الصُّنُوبَرِ، وَعَادَتْ جِبَالُ وَمِيَاهُ قَرْيَةِ "لُونِخِ تَشَان" لِنَقَائِهَا وَصَفَائِهَا،  
أَزْدَادَ عِدَدِ السُّيَّاحِ الوَاقِدِينَ لِقَضَاءِ الصَّيْفِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى إِدْرَاكِ المُسْتَنِينَ

تدرّيجيًا أنّ دَعَمَ المعيشة لمن هم فوق السبعين هو مُجرّد كِذْبَةٌ؛ لذا اشتاق الكثير منهم للموت قبل أن يَحُلَّ يومُ الدَّفْنِ حَرَقًا في الأول من أغسطس، فصاروا كلِّمًا رأوا "تانغ هان تشينغ" يشتكون أن جزءًا مُهمًّا من سعادتهم نَقَصَ هذا العام لأنهم لم يروا عيد مصارعة الكِباش، وهذا سيؤرِّقهم في مماتِهِم، ولن تَغْمِضَ لهم أَعْيُنُ في الموت، فأدار "تانغ هان تشينغ" الأمر في رأسه، ثم أصدر الأمرَ بتنظيم العيد، حيث فكَّرَ أنه قد ينزاح الهمُّ عن قلبه في عيد مُصارعة الكِباش.

ما إن سَمِعَ أهالي القرية الثالثة والقرية الخامسة بأن عيد مُصارعة الكِباش سيبدأ حتى اشتعلوا حماسًا وفرحة. وبدأ المشاركون في تدريب كِباشِهِم على أمل تحقيق مَرَكِزٍ جَيِّد. وكان الأكثر حَماسَةً من بين هؤلاء المشتركين هو "لي لاي تشينغ"؛ فقد انتقى في العام الماضي كِبَشًا من بين مئات الكِباش، وأطعمه ودَرَّبَه بعناية فائقة، حتى أخرج كِبَشًا لا نِدَّ له في العالم من وجهة نَظَرِه، وكان يُخَطِّط لأن يُدْخِلَه إلى ساحة المصارعة في عيد الفوانيس ليستعرض هَيْبَتَه، لكن قرية "لونغ تشان" ألغيت عيد مُصارعة الكِباش لهذا العام؛ ممَّا أصابه بإحباطٍ شديد. إلّا أن الأخبار السعيدة جاءت الآن فتحسَّنت حالته، وطلَّبَ من زوجته إعدادَ طعامٍ شَهِيٍّ له، قائلاً إن السَّبيل الوحيد ليصير الكِبَشَ جَيِّدًا هو أن يكون بكامل عافِيَتِه ليجعل الكبش يُقدِّم أفضل أداءٍ في ساحة النِّزال. كان على ثِقَةٍ تامَّة أن هذا الكبش هو سَيْفٌ بَنَارٌ مُخْبَأٌ وسط الثلوج، ما إن يخرج من غِمْدِه حتى يُبيدَ كُلَّ الكِباش الأخرى.

وبسبب حُبِّه الشديد لمصارعة الكِباش كان "لي لاي تشينغ" دائمَ التَرَدُّدِ على القرى المُحيطة في أوقات الفراغ من أعمال الزراعة؛ وذلك بَحَثًا عن كِبَشٍ يهواه قلبه. وأخيرًا اكتشف هذا الكبش لدى أسرةٍ في قرية "قِمَّة السُّحْب". كان عمره عامًّا وأكثر، وكلُّه أسودَ اللُّون، ذا عيونٍ كبيرة، وأنفٍ رقيقٍ، ورَقَبَةٍ وأقدامٍ قَصيرة سميكة، صدره قويٌّ، وظَهْرُه مُنْحَنٍ قليلًا، ما إن تراه حتى تعرف أنه خامَةٌ جَيِّدة لكِبَشٍ

مُصَارَعَة، فخبط "لي لاي تشينغ" بيده على قرون الكباش، فسمع صدى صوت رنّان قوي، وقتها عرف أن قرونه متينة تتحمل الصدمات. ثم ركله بقدمه فلم يُصدر ذلك الكباش أنيناً مثل باقي الكباش، وإنما نثى رقبتَه وبرقَ بعينين حمراوين ونظر له بغضب، ثم حنى رأسه فجأةً ونطح بقرنه الشبيه بالهلال ورگه، فعَضَّ "لي لاي تشينغ" على أسنانه من شدّة الألم، لكن قلبه امتلأ بالفرحة، فقايض ذلك الكباش الصغير بكبشَيْن مُمتلئَيْن، وأطلق عليه اسم "اللؤلؤة السوداء".

أطعم "لي لاي تشينغ" "اللؤلؤة السوداء" أفضل الأعلاف، لكنه لم يسمح له بالأكل حتى الشبع؛ فكباش المصارعة لو أكلت حتى استدارت بطنها فإن عزمته على القتال ستقل مع تزايد الدهون والوزن، لكن في نفس الوقت لا يمكن عدم إطعامها بأفضل الطعام، فبدون العلف الجيّد لن تزداد عظامها قوّة؛ فهو يعتقد أن تناول العشب المبلّل بقطرات الندى هو أكثر ما يُغذي الكباش؛ لذلك عندما عجز عن الذهاب للجبال لرعي الأغنام في الربيع بسبب المبيدات الحشرية التي رُسّت، اقتطع "لي لاي تشينغ" قطعة من الأرض الزراعية التي لم يطلها التلوث أمام منزله ولم يزرعها بالخضروات، بل ترك الأعشاب البرية تنمو فيها بجنون، وصار ينتظر سقوط الندى في الصباح كي يأخذ "اللؤلؤة السوداء" إليها ليأكل منها، وبسبب هذا الأمر تشاجرت معه زوجته أكثر من مرّة، قائلةً كيف لهذا أن يدعى تربية كباش؟ لقد صار أشبه بخدمة الأسلاف، فسبّها "لي لاي تشينغ" أنها حمقاء، وأضاف: "لا تنظري تحت قدميك بأنك أكلت خضاراً أقل قليلاً الآن، إن مكافأة المركز الأول التي سنحصل عليها في عيد مُصَارَعَة الكباش هي بضعة آلاف يوان، بضعة آلاف يوان يُمكنها شراء مزرعة خضروات كاملة، بالإضافة إلى السُمعة الطيبة والفخر الذي لا يمكن شراؤهما بالنقود".

عَلِمَتْ زَوْجَهُ "لي لاي تشينغ" الثانية أن زوجها قد فَقَدَ "جين سو تشوو" بسبب فِعْلَتِهِ من دَسِّ الدَّوَاءِ لكِبَشِ الخِصْمِ في ساحة المصارعة، ورغم أنه يعيش معها هي الآن إلا أن قلبه لا يزال مع زوجته السابقة؛ فقد لَحَظَتْ أنه يكره كلَّ الرِّجَالِ الذين يعملون في مَعَصَرَةِ "جين سو تشوو"، وإذا ما قَابَلَهُمْ عَبَسَ بوجهه؛ لذلك فمشاركته كلَّ عام في عيد مصارعة الكِبَاشِ هي في رأيها محاولةً منه لاستعادة سُمْعَتِهِ وهَيْبَتِهِ في ميدان المصارعة، وبالتالي الفوز بقلب "جين سو تشوو" مرَّةً ثانية، لكن للأسف انحدر مستوى "لي لاي تشينغ" وكِبَاشِهِ في السَّنَاتِ الأخيرة، وكان أفضل مَرَكِزٍ حصل عليه هو المركز الثالث، لكنه في تلك المرَّةِ حَظِيَ بـ "اللؤلؤة السوداء"، ورأى أن الفرصة قد حانت لَعَسَلِ عاره؛ ولهذا صنع حظيرةً خاصَّةً بـ "اللؤلؤة السوداء" وحده، وجاء معه بأشْرَسِ كِبَشٍ في القطيع ليكون بمثابة مُرَافِقٍ في التمرين له، وأصبح في الليل يأتي بِمِصْبَاحٍ يَدَوِيٍّ ويستفِرُّ بضوئه "اللؤلؤة السوداء" ويثير غَضَبَهُ ويُشَاهِدُهُ وهو يُحَطِّمُ سور الحظيرة بقرونه. فكان إصلاح السُّورِ الذي حَطَّمَهُ "اللؤلؤة السوداء" هو أكثر الأعمال قُرْبًا لقلب "لي لاي تشينغ".

تَحَدَّدَ عيدُ مُصَارَعَةِ الكِبَاشِ في الساعة السابعة والنصف مساءً في الثامن عشر من يوليو، وكما هو الحال كلَّ عام، أُقِيمَتِ ساحة المصارعة في الميدان الغربي للسوق الجنوبية، ذلك المكان هو أيضًا الملجأ من الكوارث لقرية "لونغ تشان"، هذا الميدان رغم وجود أعمدة إضاءة حديثة تَنَتَّصِبُ فيه، إلا أن أرضيَّته ظَلَّتْ مفروشةً بِالْحَصَى الصغير ولم يوضع فيها البلاط؛ وذلك بسبب عيد مُصَارَعَةِ الكِبَاشِ الذي يُقام في المكان كلَّ عام.

تمَّ إعداد الساحة منذ وقتٍ مُبَكَّرٍ، وأقِيمَتِ حولها مُدْرَجَاتٌ تَسَعُ لستمائة أو سبعمائة شخص، وخلف المُدْرَجَاتِ في الجهة الغربية أُقِيمَتِ منطقة انتظارٍ مُحاطة بسور من الصَّاج الأزرق، وفي الجهة

الجنوبية النقطة الطبية والحمامات المتنقلة، والجهة الشمالية كانت منصة استلام الجوائز، أما المدخل والمخرج الشرقي فكان هو معسكر الباعة الجائلين، فانتشر فيه باعة الشاي المثلج والفشار والبيرة والمثلجات والكباب وفطائر الصاج وعزل البنات، ورصوا بضائعهم على فرشاة خضراء وملونة، كما جهزت أكوام من الحطب المغطى بالشيح في كل أركان الساحة؛ وذلك لطرد الناموس، وعلقت الأعلام الملونة فوق كل عمدة الإضاءة بالساحة، وفوق تلك الأعلام طبعت إعلانات عن كل المنتجات العضوية الخاصة بقرية "لونغ تشان". أما مكبرات الصوت المنتصبة في وسط الميدان فبدأت بعد الظهر في إذاعة الموسيقى الحماسية كتمهيد لبدء العيد.

كان أهالي قرية "لونغ تشان" يفهمون الأصول جيداً عند شغل المقاعد، فلا يجلسون أبداً في مقاعد الصف الأول؛ لأن ذلك الصف مخصص للقادة والضيوف المهتمين، لكن في هذا العام اختلف الأمر، حيث أعلنت حكومة القرية أن الصف الأول - من مقاعد الجهتين: الشرقية والغربية - مخصص لكبار السن من أهالي القرية.

وبعد الظهر جاء المشاركون في العيد من القرية الثالثة والقرية الخامسة ساحين كباشهم، وكانت وسائل نقل الكباش متنوعة ما بين السيارات الكهربائية ثلاثية العجلات، والعربات التي تجرها الأحصنة. ونظمت الشرطة دخول تلك السيارات كلها، ورتبت مكان انتظار موحد لها في الزقاقين الموجودين خارج الساحة.

وعندما وصل "لي لاي تشينغ" إلى ميدان المصارعة ساجباً معه اللؤلؤة السوداء كانت الجموع قد احتشدت بالفعل. وبدت الشمس الغريبة كأنها تتقلب في طين ذهبي مائع، فاكتسى الغرب بأضواء الغسق. ووصل معظم المشاركين مع كباشهم، واضعين اللمسات الأخيرة لاستعدادات النزال، وما إن دخل "لي لاي تشينغ" إلى منطقة

الانتظار حتى هرع نحوَه رئيسُ مكتبِ حكومة القرية "شياو مينغ" لاستقباله ولومه على وصوله اليوم متأخراً، قائلاً إنهم انتظروه وقتاً طويلاً، وطلب منه أن يخرج معه قليلاً فهناك أمرٌ عاجلٌ لا يحتمل التأخير، فقلب "لي لاي تشينغ" شفثيه مُتأقفاً، وقال: "أي أمر عاجل؟ لتحدّث فيه بعدَ المصارعة، لا يمكن أن أفترق عن اللؤلؤة السوداء"; فقد كان يخشى أن يستغلَّ المنافسون لحظاتِ غيابه ويفعلوا السوء في كبشه، فمجرّد شرباتٍ زائدة من الماء قد تتسبّب في هزيمة كبشٍ أمام منافسيه. وجاء بكبشه متأخراً كي يُقلّل من المجهود البدني الذي يبذله من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لرغبته في أن يتفأخر بكبشه المتميّز أمام أعين الجميع، وعرف من نظرات الحسد في عيون منافسيه - وخاصةً نظرات غريمه التقليدي "شودا فا" المملوءة بالحقد - أن اللؤلؤة السوداء "يُشعُّ بهاءً في كل اتجاه، وهذا أشعره بمُتعةٍ لا تُضاهى، وازدادت رغبته في عدم المغادرة. فلما رآه "شياو مينغ" لا يتزحزح من مكانه تصبّب عرقاً من شدة القلق، ومال على أذنه وهمس بلهجةٍ راجية: "أرجوك اخرج قليلاً؛ فهناك فائدة هائلة"، فدارت عينا "لي لاي تشينغ" في محجريهما قليلاً، وسأله: "لكم من الوقت؟"، فقال "شياو مينغ": "فقط زمن تدخين سيجارة"، وهكذا أخذ "لي لاي تشينغ" اللؤلؤة السوداء" معه وخرج مع "شياو مينغ" حتى وصلًا إلى جوار منطقة الحمامات المتنقلة.

تلّفت "شياو مينغ" حوله للتأكد من أن لا أحد يلاحظهما، ثم فتح حقيبة أوراقه، وأخرج منها بسرعة البرق صورةً ضوئيةً وناولها إلى "لي لاي تشينغ". كانت صورة شابٍ يرتدي نظارة، ذي وجهٍ طويلٍ وعينين صغيرتين، ولديه شامةٌ فوق حاجبه، وكان نحيفاً وذا هيئةٍ مثقّف، ويرتدي تيشيرت أزرق، ويعتمر قبعةً زرقاء. وهمس "شياو مينغ" أن هذا الرّجل عنصرٌ خطير، وسيجلس بعد بدءِ المصارعة في الصّف الأول

من الناحية الشمالية؛ لذلك يأمل أن يقود "لي لاي تشينغ" كبشه كي يَجْرَحَه جرحًا بسيطًا حتى يكون دَرَسًا له.

إن مصارعة الكباش هي مسابقة من عِدَّة مَرَاجل، ونظرًا لأن كبش أُسْرَة "لي لاي تشينغ" قد حَصَدَ المركز الثالث في الدورة السابقة؛ لذلك لم يكن كبشه هذا العام بحاجةٍ للدخول في المسابقات إلا من الجولة الثالثة، فقال "لي لاي تشينغ" غير فاهِمٍ: "طالما هو عُنصرٌ خطيرٌ، فلتطلب من الشُرطَة السَّيطرةَ عليه، ماذا لو اندفع نحوَه كبشي ونطحَه فكان يَحمل معه سِكِّينًا وقتله به، ألن يقبض هذا روعي معه؟ أنا أحبُّ "اللؤلؤة السوداء" كثيرًا، ولا يمكنني العيشُ بدونه".

فسارَعَ "شياو مينغ" بالتأكيد على أن هذا الرَّجُل رغم خطورته إلا أنه لا يحمل أيَّ سلاحٍ معه، إنه مُهندسٌ جيولوجي جاء من مدينة لين للبحث والاستكشاف، وجاء خِصيصًا لقرية "لونغ تشان" بحثًا عن مناجم، ولو استطاع العثور على منجمٍ وبدأ العمل فيه فلن يصبح في المكان جِبَالٌ ولا أنهارٌ جيِّدة؛ لذا لو أراد أهالي قرية "لونغ تشان" عيشَ أيامٍ هانئةٍ توجَّبَ عليهم جَعْلُه يَغْرُب من هنا بأقصى سرعة. ثم أخرج "شياو مينغ" من جيبه ألفَ يوان دَسَّها في يد "لي لاي تشينغ"، وأعطاه أيضًا عُلْبَة سجائر ماركة "تشونغهوا" دَخَنَ نصفها، وأوصاه ألا يُخبر أحدًا بهذا الأمر، وأن يقوم به على خير وجه، "وإيَّاكَ أن يُصيبَ رأسَ ذلك الشخص، وأن يصيبه إصابةٌ خفيفةٌ في ساقه، سيكون هذا كافيًا للغاية".

أدرك "لي لاي تشينغ" أن "شياو مينغ" مُجرَّد مُنفذٍ لأوامرِ عليا، ويريد استخدام كبشه كمنفذٍ للعملية، أمَّا المُحرِّك من خلف الستار فهو بالطبع "تانغ هان تشينغ". وبالطبع لا يمكنه رَفُضَ أمرٍ أصدره عُمدةُ القرية، فما بالك أن هناك مكافأة مائيَّة؟ لذلك أخذ "لي لاي تشينغ" النُّقودَ وهزَّ رأسه مُوافقًا.



كان "تانغ هان تشينغ" بالفعل هو مَنْ يريد طردَ هذا المهندس، فقبل عشرة أيامٍ مَضَتْ جاء هذا الرجل الذي بالصُّورة وأقام في نُزُلِ الشَّمس الحمراء. كان يحمل معه جهاز الاستكشاف، ويدور في الجبل كَلَّهُ؛ ممَّا أثار قلق "تانغ هان تشينغ" وحَفَزَ الرُّوحَ القتاليَّةَ لديه، حيث شعر أن هذا الرجل يُقَلِّبُ في أمور عائلته الخاصَّة، واعتقد في البداية أن هذا تنقيبٌ فرديٌّ عن المناجم، وهو أمرٌ مُخَالِفٌ للقانون؛ لذا يمكن طرده ببساطة، لكن مَنْ كان يتوقَّع أنه عندما تَدخُل "شياو مينغ" أخرجَ هذا الرَّجُلُ بِطَاقَةَ عَمَلِهِ، فاكتشفوا أَنَّهُ مُهندِسٌ في معهد الاستكشاف الجيولوجي بمدينة "لين"، واستغلَّ فترةَ الإجازة وجاء إلى قرية "لونغ تشان" للسياحة والعمل في نفس الوقت.

كان "تانغ هان تشينغ" عاشقًا للبيئة الطَّبيعيَّة في قرية "لونغ تشان"، ولا يَقْبَلُ بأيِّ استخراجٍ فيها؛ لأنَّ أيَّ استخراجٍ في بدايته يكون مَحْكومًا، ولكن مع إخراج المال بلا توقُّف مع دَوْران عَجَلَةِ الاستخراج، يعمي بريقُ الذهب قلوبَ البَشَر، وحتَّى الحكومات يُصيها الطَّمَع، والاستخراج المُقَيَّد يصبح بلا قيود؛ ما يتسبَّب في دَمَار البيئَة. تلك الظاهرة تجدها في كل المناطق المتقدِّمة، وأكثر مَنْ يصيبه الضَّرر منها ليسوا المسؤولين، وإنما العامَّة؛ لأنه بعد دَمَار بيئَة المعيشة بعد تَلوُّثها يمكن لذوي المال والنُّفوذ أن ينتقلوا لِمَكَانٍ آخر ويكونوا فيه مَلَاذًا آمِنًا، بل إنَّ منهم حتى مَنْ يهاجر خارجَ البلاد، أمَّا العامَّة الفقراء فلا مَلْجَأَ لديهم للهرب. ورأى "تانغ هان تشينغ" أنَّ المسؤول القادر حقًا على صُنْع السعادة للعامَّة هو الذي يُمكنه أوَّلًا أن يجعلهم يعيشوا في مَعِيَّة جبالٍ وأنهارٍ نظيفة؛ لذلك عندما اكتشف "شين كاي ليو" في ذلك العام الفَحْمَ الذي بلا دُخان في جبل "إيشين"، وجاء وأخبره بالأمر والسَّعادة والحَماسَةُ تلمؤهُ؛ أُصِيب "تانغ هان تشينغ" بالفَرَع، وصار دائِمًا ما يعطيه النقود سرًّا لكي يَسدَّ فمه ولا يخبر أيَّ شخصٍ آخر بالأمر، ورغم أن "شين كاي ليو" لم يُذِع الأمر، إلَّا أنه كان

دائمًا ما يجلب إلى منزله سرًّا بعضَ الفحمِ عديمِ الدخان من جبل "إيشين" ليستخدمه، وصارت مدخنته كأنها لا تأكل من نيران البَشَر؛ فلا دُخَانٌ يَصْدُرُ عنها، لكن كلُّ مَنْ ذهبوا لمنزله في الشهر الأخير من العام لشراء الفحم وشراء الأعشاب الطبية اكتشفوا أن عُرفته دافئةٌ مثل الربيع، فأصابتهم جميعًا الدهشة. وهُدِّدَهُ "تانغ هان تشينغ" من قَبْلُ بسبب هذا الأمر قائلاً إنه لا يجوز أن يستخدم الفحم عديم الدخان بشكلٍ دائم، وطلب منه أن يستخدم الفحم العاديَّ كلَّ يَوْمَيْنِ أو ثلاثة حتى تُخْرَجَ مدخنته بعضَ الدُّخَانِ، وإلا فلن يُعْطِيَهُ ثَمَنَ السُّكُوتِ ثانية. وهكذا صار "شين كاي ليو" أكثرَ حَذَرًا، وصار يحرق أحيانًا حزمةً من لِحَاءِ أشجار الصنوبر، وقتها أَصْبَحَتِ مدخنته بمثابة محطةٍ إذاعة، والدُّخَانُ الصَّادِرُ عنها بمثابة بيانٍ إذعان. وعندما سمع "تانغ هان تشينغ" في خريف العام الماضي أن "شين كاي ليو" ذهب إلى سوق البضائع القديمة ومعه سَلَّةٌ من فَحْمٍ لَامِعٍ بَرَّاقٍ، عازِمًا على مُقَابَلَتِهَا بحصان، نزل الخبر عليه نزولَ الصَّاعِقَةِ، وعلى الفور أرسل مَنْ يَشْتَرِي حصانًا، وقايضه بتلك السَلَّةِ من الفحم، فهو لا يرغب أن يتحوَّلَ جبل "إيشين" إلى منجمٍ للفحمِ عديمِ الدُّخَانِ، وكان يرغب أن يجمع المال في أسرع وقتٍ ليبنى معبدًا في قلب جبل "إيشين" بحجَّةِ تطوير السياحة؛ فبوجود المعبد سيصير الجبلُ مكانًا مُقَدَّسًا لا يجروُ أحدٌ على العَبَثِ فيه.

لو نظرنا من ناحية العمر، فسنجد أن "شين كاي ليو" في أواخر أيَّامه؛ لذا فكَرَّ "تانغ هان تشينغ" في أنه لو ابتزَّه باستخدام الفحم عديمِ الدُّخَانِ؛ فلن يستمرَّ هذا الابتزازُ طويلًا، لكن هذا المهندس يختلف؛ فهو شابٌّ، ولديه سُلْطَةٌ، ولو اكتشف مخبأ الفحمِ فلن تَهْنَأَ قرية "لونغ تشان" بحيَاةٍ هادئةٍ مرَّةً ثانية. وفكَّرَ "تانغ هان تشينغ" في أكثر من طريقة لتعطيله، فمَثَلًا طلبَ من "ليو شياو هونغ" أن تُرْسَلَ "فان المجلجلة" لإغوائه كي ينغمس في هوى النِّسَاءِ وينشغل عن

البحث عن المناجم. فارتدت "فان المجلجلة" ملايس مُثيرةً تكشف صدرها وظهرها، وأرسلت له نظراتٍ وعمزاتٍ إغراءٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى، لكنه لم يُحرِّك ساكنًا كأنه مصنوعٌ من الحجر. وعندما فشلت خُطَّةُ الإغواء فُكِّر "تانغ هان تشينغ" في خُطَّةٍ أخرى، فأرسل "شياو مينغ" إلى نُزُلِ الشَّمس الحمراء ليُشرب معه الخمر ويُفزعَه قائلًا إنَّ الجبل مليءٌ بالقتلة والأفاعي والعناكب السامة والخنازير البرية والذئاب والدببة السوداء، ولا أحدٌ يعلم كم شخصًا أصابت وقتلت، لكن المهندس قال إنَّ لديه خبرة كبيرة في الاستكشاف في البرية، ولديه احتياطاتٌ كاملة، وأنه آمنٌ تمامًا. فأسقط في يد "تانغ هان تشينغ"، ولكنه قدح زناد فكره حتى لمعت فيه فكرةٌ كالبرق، لماذا لا يستغلُّ فرصة عيد مُصارعة الكباش كي يجعل أحد الكباش ينطحه ويصيبه إصابةً خفيفةً تجعله يتوقَّف عما يفعله. وكان الشخص الوحيد القادر على تنفيذ تلك الخُطَّة بنجاح هو "لي لاي تشينغ"؛ فأولًا: هو عبدٌ للمال، وعبيدُ المال تُغريهم الأموال أكثر من النساء، فيبيعون مبادئهم، وثانيًا: هو بارعٌ في مصارعة الكباش، فلن يرتكب أخطاءً، فالتسبب في إصابة خطيرة للمهندس ستُعقِّد الأمور، وثالثًا، والأهم: أن "تانغ هان تشينغ" سمع أن "لي لاي تشينغ" ربِّي كَبشًا أسودَ بارعًا في المصارعة، ويشارك في حلبات المصارعة للمرَّة الأولى؛ لذلك فإن قيام كَبش مُصارعة بلا خبرة بالتسبب في إصابة واحد من الجماهير هو أمرٌ منطقيٌّ لن يثير الشكوك.

غابت الشَّمسُ وأضاءت مصابيح ساحة المصارعة، وإضاءة المصابيح تعني أن الافتتاح صار قريبًا. ومُجرَّد حلول عيد مُصارعة الكباش لا يتناول الرجال العشاء في المنزل، بل يجلسون في مقاعد المتفرجين وبأيديهم زجاجات البيرة يشربونها وهم يأكلون أسياخ الكباب. أمَّا النساء والأطفال فلا تهدأ أفواههم أيضًا، حيث "تُقزقز" النساءُ البنديق واللب، أمَّا الأطفال فيلعقون المثلجات ويأكلون الفيشار. أمَّا كبار

السَّنُّ من أهالي القرية الجالسين في الصف الأول في الناحيتين: الشرقية والغربية، فرغم أن أفواههم لا تتحرك، لكن في يد كل واحد منهم تقريبًا فطيرة صاج، كأنهم يُرفرفون بعلم صغير أصفر، تلك الفطائر كلها اشتروها من العمّة "دان سيه" على أمل أن يقوموا بالعمل الصالح الأخير لهم في الدنيا. كما أن كبار السَّنُّ لم يرتدوا ملابس عاديّة في ذلك العام، بل ارتدوا جميعًا - بلا اتّفاقٍ - ملابس فخمة؛ فالملابس والقبّعات جديدة، وال سراويل مكوّبة، والأحذية نظيفة.

وفي الساعة السابعة والرّبع، توقّفت مكبّرات الصوت عن الإذاعة، وساد السُّكون في الساحة، وسريعًا ما دخل إلى السّاحة من الناحية الشرقية صفٌّ من التلاميذ الذين يرتدون قمصانًا بيضاء وسراويل حمراء وبيريهات حمراء وهم يدقُّون الطُّبول في مَرَحٍ، كانوا يقودون المسؤولين المشاركين في عيد مُصارعة الكباش، وأضاءت أعمدة الإنارة وجوه الجميع باللون الأبيض الشاحب؛ لذا لم يكن واضحًا من الوجوه إذا ما كان هؤلاء المسؤولين قد شربوا الخمر أم لا، لكن خطواتهم المترنّحة ورائحة الخمر التي تفوح منهم وشتت بأنهم قد شربوا الخمر في نُزُل الشَّمس الحمراء، وبعد أن جلسوا في مقاعدهم في الجهة الجنوبية، انسحب الأطفال حامِلو الطبول من السّاحة، ودخلتها مُقدّمة الحفل مُرتديّة جلابًا صينيًا أزرق اللون، وبعد مُقدّمة حماسيّة بدأت فقرة كلمات المسؤولين من مختلف المستويات. بدأها أولًا مسؤول المكتب التنفيذي بمنطقة "سونغشان" والمسؤول عن الزراعة، ثم مسؤول من محافظة "تشينغشان"، وأخيرًا كلمة "تانغ هان تشينغ". كل كلمة من تلك الكلمات أثارت موجة من الضحك؛ لأن مسؤول المكتب التنفيذي لمنطقة "سونغشان" قصير القامة، لكنّ بطنه صخمة، وعندما سار في الساحة بخطواتٍ مُتمهّلة كان شكله أشبه بالمرأة الحامل التي على وشك الولادة. هيئته تلك كانت مُثيرة للضحك، وأضيف عليها أنه قبل أن يُلقي كلمته تجشأ في الميكروفون

من أثر الخمر، وعلى الفور عمَّ الضحك المكان، لكنَّ مُقدِّمةَ الحفل كانت بارعةً في تدارك الموقف، حيث قالت إن المسؤول قد أسكرته مياهُ الجبالِ النقيَّة بقرية "لونغ تشان" فتجشأ من نقائها، أمَّا كلمة محافظة "تشينغشان" فبدأها بقوله: "اليوم هو يوم عيدٍ لكلِّ رجالِ الحزب الشيوعيِّ الصَّينيِّ، ففي تلك اللحظة نُعبِّر من أعماق قلوبنا تجاه كلِّ أعمال التحرير الشعبية الصينيَّة..."، ثم تَوَقَّف فجأة وقد أدرك أنه أخرج مُسوِّدَةً أخرى بالخطأ، كانت تلك مُسوِّدَة خطابه أثناء مؤتمر الاحتفال بتأسيس الحزب الشيوعي الصيني في الأول من يوليو، فالسُّروال الذي ارتداه اليوم هو نفسه الذي كان يرتديه في الأول من يوليو؛ لذلك كانت مُسوِّدَة الخطاب تلك لا تزال في جيبه، وعندما أعطاه السكرتير مُسوِّدَة خطاب عيد مُصارعة الكباش دسَّه على الفور في جيبه، ولم يتوقَّع أن تتبدَّل الورقتان عند إخراجهما. وعندما أخرج المُسوِّدَة الثانية، ساد في المكان صوتُ الصُّفَّارات، بالإضافة إلى أصوات الضحك، لكن مُقدِّمة الحفل القادمة من تلفزيون محافظة "تشينغشان" كانت بارعةً للغاية في التَّعامل مع المفاجآت؛ فاستطاعت في تلك اللحظة أن تتدارك الموقف ثانيةً ببراعةٍ، حيث قالت إنه لولا الحزب الشيوعي الصيني لَمَا كانت هناك الصين الجديدة، ولولا الصين الجديدة لَمَا كانت لدينا الحياةُ الهانئةُ التي نَنعم بها الآن، في الماضي كُنَّا نعيش في جحيم، كان الفلَّاحون يرعون الأغنام من أجل الإقطاعيِّين، أمَّا الآن فنحن أصحابُ الأغنام، والأغنام لم تجلب لنا قيمةً اقتصاديةً فحسبُ، بل جلبت لنا الفرحة والسعادة والمرحَ أيضًا، ومن أجل ذلك جَهَّز السيد المحافظ لنا مُسوِّدَتِي خطابٍ. وعندما جاء الدور على "تانغ هان تشينغ" ليُلقي بكلمته، لم يرتكب أيَّ أخطاء، ولكنه ما إن بدأ في إلقاء خطابه حتى ظهر "شين كاي ليو" عند المدخل ومعه كلبُه الأصفرُ "أيتزيه". لقد جاء متأخرًا، فكان يجب عليه التَّسلُّل من الجانب والبحث عن مقعدٍ في صمتٍ دون أن يُلاحظه أحدٌ، إلَّا أنَّه على

العكس، سار بخطواتٍ واثقة حتى وصل إلى منتصف الساحة. وكان يرتدي نفس ما ارتداه في العام الماضي أثناء عيد البضائع القديمة، ارتدى قطعة الملابس الصفراء المليئة بالرُّقع، واعتَمَرَ القُبْعَةَ الرَّمَادِيَّةَ سداسية الأطراف، أمَّا الاختلاف الوحيد فكان أنه لم يَرْتَدِ الحذاء الضخم، وإنما ارتدى حذاءً قماشياً بدون رباط. كان مَحْنِيَّ الظَّهْر، ويده اليسرى زجاجة بيرة، ويده اليمنى حِزْمَةٌ من أسياخ الكباب؛ لذا كان لعاب الكلب الذي على يمينه يَسِيلُ بلا تَوَقُّف. وعندما رآه "تانغ هان تشينغ" يسير نحوَه توقَّف قليلاً، وأشار له بيده ناحية المنصَّة في الجهة الغربية كي يذهب إلى هناك؛ لأنَّ الصَّفَّ الأوَّل كانت لا تزال به مقاعدُ خالية، لكنَّ الكلب عندما رأى "تانغ هان تشينغ" يُشَوِّح بيده لسيدة، أصابه الغضب، فانتصَبَ جسده ونبَحَ في وجهه بصوتٍ عالٍ، صوت بُبَاغِه هذا تضخَّم كثيراً عبر الميكروفون، فسَمِعْتَه كُلُّ الكلاب الموجودة خلف المدرجات، فردَّت عليه بنباحات كثيرة، فغرقت السَّاحةُ كُلُّها في أصوات النُّباح حتى اعتقد الجميع أن هذا هو عيد مصارعة الكلاب. وفي تلك اللحظة، لم تَسْتَطِعْ حتَّى مُقَدِّمَةُ الحفل من مَنَع نفسها من الضحك، وهرع رجالُ الشُّرطة المسؤولين عن النظام إلى الساحة وسحبوا "شين كاي ليو" منها، فأصيب بثورة غَضَبٍ، وعندما طلب منه رجالُ الشُّرطة التوجُّهَ ناحية الغرب، توجه عمداً ناحية الشمال، وكان هناك مقعدٌ خالٍ بجوار ذلك المهندس القادم من مدينة "لين"، فجلس فيه "شين كاي ليو"، أمَّا "أيتزيه" فقد هزَّ ذيلَه وجلس تحت قدمي سَيِّدِه.

كانت فقرة إلقاء الكلمات في الأصل هي أكثر الفقرات مَلَلًا، وفي العادة كان الجمهور يستغلُّ تلك الفقرة لتناول الطعام والترثرة، أو الذهاب للحمَّامات ليستغلُّوا فرصة أن المصارعات لم تبدأ بعد، ولا يهتمُّ أحدٌ بما يقوله المسؤولون، لكن هذا العام اختلف الأمر، فما حدث في الساحة كان أكثر كوميديَّةً وإثارةً للضحك من حفلات عيد الربيع

بالتلفزيون، ضحك الجميع حتى أمسكوا ببطونهم من شدة الضحك، وصار الجو حماسياً لدرجة لم تحدث من قبل في عيد مصارعة الكباش. بعد أن انتهى "تانغ هان تشينغ" من قراءة كلمته، أعلن بدء عيد مصارعة الكباش، وصدحت الموسيقى الصاخبة. كانت موسيقى الخلفية للعيد تختلف من عام لآخر، ففي كل عام يذيعون الأغاني الشائعة وقتها؛ لذلك ما إن بدأت تلك الموسيقى حتى وقف الشباب من المتفرجين وصفقوا ورقصوا على أنغامها. ثم دخل إلى الساحة كبشان يسحبهما سيئدهما بترتيب دخول من الأضعف إلى الأقوى، ولكن الكبشَيْن القادمَيْن من القرية الخامسة أحنيا رأسيهما وشبكا قرونهما مُتَنَاطِحَيْن تحت تشجيع من أصحابهما، ولم يشتبكا سوى مرّتين أو ثلاث، وعلى الفور انهزم أحدهما وبأدْرَ بمغادرة الساحة، ربما كان هذا بسبب الصيف القائظ أو بسبب الطريق الوعر الذي سارا فيه حتى وصلّا لقرية "لونغ تشان". أمّا الكبش المنتصر فلم تكن عنده عزيمة قتالية، وعندما رأى كبشاً أقوى منه يُسحب إلى داخل الساحة ليتحداه؛ سارع بالفرار، ووقف صاحبه في مكانه غير مُصدّق، ثم تلفت حوله مُحدّثاً، قبل أن يرفع سوطه ويطارده، ذلك المشهد الدرامي جعل أصوات الضحك تتردّد في الساحة كثيراً.

زَيْن أصحاب الكباش كباشهم بأشكال مختلفة ومتنوعة. فمنهم من زين كبشه مثل العريس، فعلق على قرنيه زهوراً حمراء صغيرة مصنوعة من المناديل، ومنهم من دهن قرني كبشه بخط أزرق متعرج؛ فبدأ أشبه بخط برق، أو بجداول ماءٍ صغير، ومنهم من دهن أذن كبشه باللون الأخضر؛ ممّا جعل من يراه يعتقد أن ضفدعةً فقزت عليه، ومنهم أيضاً من صبغ ذيل كبشه باللون الأصفر؛ وبهذا أصبح الكبش كأنه يسحب خلفه شمساً غاربةً. وبالطبع كان الأكثر جذباً للأنظار فهو من ألبس كبشه فانلة ملونة مطرزة. أمّا "اللؤلؤة

السوداء" فلم يكن عليه أي زينة؛ فقد رأى "لي لاي تشينغ" أن لمعان قروته كافٍ تمامًا لخطف القلوب والأنظار.

استمرت جولات التصفية حتى الساعة التاسعة، ووصلت المسابقة لذروتها، وتراقصت تحت الأضواء أسراب من فراش الليل والثاموس، واشتعلت أكوام الشَّيخ المُخصَّصة لطردها. وتدافع الرُّجال الذين أفرطوا في شرب البيرة إلى الحمَّامات لقضاء حاجتهم، أمَّا النسوة فقد تكوَّمت قشور اللبِّ تحت أقدامهنَّ كالبساط، مثل النَّمْل المُتجمِّع قبل العاصفة. أمَّا كبار السنَّ الجالسون في الصَّفِّ الأوَّل فكانوا يعرفون أن دخول الحمام ليس بالأمر السهل؛ لذلك لم يجروا أيُّ منهم على شرب المياه، رغم أن حكومة القرية وزَّعت على كلِّ واحدٍ منهم زجاجة مياه معدنيَّة، كذلك لم يتتأبوا كعادتهم في السَّنوات الماضية، بل اعتبروا كلَّ مَشهدٍ أمامهم كأنه آخرُ مَشهدٍ جميل لهم في الدنيا فنظروا إليه بحُبِّ وتركيز.

وقبل أن يدخل "اللؤلؤة السوداء" إلى ساحة القتال أخرج "لي لاي تشينغ" مصباحًا يدويًا وحرَّكه أمام عيني الكبش، فلمَّا وجدهما حمراوين بلون الدَّم عرَّف أنه دخل في الحالة القتالية؛ فشعر بتمام الرضا، وكان قد وضع الخطَّة بالكامل، فبعد أن يحصد "اللؤلؤة السوداء" المركز الأوَّل، وأثناء احتفالات الجمهور سيعتدي على المهندس، فلو فعَلها بمجرد الدُّخول للساحة فإن "اللؤلؤة السوداء" سيُعاقب، وقد يُحرَم من المسابقة، وهنا ستكون الخسارة فادحة.

كان الخصمُ الأوَّل للؤلؤة السوداء هو خروفٌ أبيضٌ بقِيَ في الساحة، وكان أضخم من "اللؤلؤة السوداء"، بالإضافة لأنه هزم كبشَيْن قبْلَه وأخرجهما من المسابقة؛ لذا كان في قمَّة الحماسة، لكن "اللؤلؤة السوداء" دخل إلى الساحة كجُنديٍّ قديمٍ خبيرٍ مئات المعارك، فلم يَهَب ساحة القتال، ولم ينتظر الكبش الأبيض ليستعدَّ له، بل هجمَ بقوةٍ



وحوافره الأربعة تَنْغَرِسُ في الأرض، وحقَضَ رأسه ونَطَحَ قرونَ الكَبَشِ الذي لم يَكُنْ مُسْتَعِدًّا للنزال، فترنَّحَ قليلاً وسقط على الأرض، وهكذا رُفِعَت راية "اللؤلؤة السوداء" واهتزَّ الميدانُ بصوتِ التصفيق، وكان المنافس التالي هو كبشٌ مُبرَقَشٌ باللونين: الأبيض والأسود، وصاحبُه هو "لي ديه تيان" من القرية الثالثة، وحصل على المركز الثاني في العام الماضي. و"لي ديه تيان" هو الشَّرِيكُ الأهمُّ لـ "جين سو تشوو" في معصرة الزيت؛ لذلك كان "لي لاي تشينغ" لا يرتاح إليه، ولم يتزَيَّنْ كبشٌ "لي ديه تيان"، فقط صُبِغَتْ أذناه باللونِ الذهبي، كأنه يُعلِّقُ على جانِبَيْ رأسه ورقَّتَيْ خريف؛ فبدأ شكله لطيفاً. وبعد أن نزل إلى الساحة بدأ بالتسخين كلاعِبٍ مُتمرَّس، حيث ركض حول الساحة دَوْرَةً كاملة، بعدها لم ينتظر رَدَّ فِعْلٍ من الجمهور، بل اندفع مباشرةً نحو "اللؤلؤة السوداء" لينطح بقوة ذلك الكَبَشِ الأسود الصَّغِير، الأصغر منه بكثير. اعتقد أنه بتلك النُّطْحَةِ سيَهْزِمُ "اللؤلؤة السوداء"، لكن مَنْ كان يعلم أن ذلك الكَبَشِ الصَّغِيرِ وافِرُ القُوَّةِ، فبعد دقيقتين أو ثلاثٍ من التَّنَاطُحِ، أجبرَه على التراجُعِ خطوةً وراء خطوة، فارتعشت قوائم الكَبَشِ الأبيض، وفي النهاية لم يستطِع التَّحْمُلُ، وبادر بسَحْبِ قَرْنَيْهِ والاعتراف بالهزيمة، فلم يُصدِّق "لي ديه تيان" أن الكَبَشِ الأبيض انهزم أمام الكَبَشِ الأسود الصغير؛ لذا ركل مؤخَّرته ركلةً عنيفةً وهو يسحبه خارج الحلبة. وكان آخِرُ كَبَشٍ يدخل إلى الساحة هو الفائز بالمركز الأول العام الماضي، كبشٌ "شو دا فا" من القرية الخامسة. هذا الكَبَشِ في السَّادِسَةِ من عمره، ضخْمٌ، طويل الظَّهر والخصر، وجسده بالكامل أبيضٌ تَلْجِيٌّ، ولديه قُرُونٌ مُلتَفَّة، ويملك خبرات مُصَارَعَةٍ كبيرة، وناذراً ما يخطئ.

رأى "شو دا فا" أن كبشه اليوم هو قَمَرٌ هَبَطَ على دُنْيَا البشر، فارتأى أن يُخْرِجَه إلى السَّاحَةِ بلونه الأصلي دون أيِّ زينة. وكانت كل الكِبَاشِ الأخرى يقودها أصحابها لتَدْخُلَ إلى الحلبة، أمَّا هذا الكَبَشِ

فعلى العكس، كان هو مَنْ قاد صاحِبَه إلى داخل الحلبة. حيث سار في المُقَدِّمة رافِعًا رأسه، وسار خلفه "شو دا فا" مُطَّاطِيَّ الرَّأس والعينين كأنه عبدٌ له. وعندما دخل الكبشُ الأبيضُ إلى ساحة القتالِ فعَلَ مثل أيِّ چنتلمان، حيث سار أوَّلًا حتى وصل أمام "اللؤلؤة السوداء" وهزَّ رأسه كأنه يُحيِّيه، ففهِمَ "اللؤلؤة السوداء" ما يعنيه، وهزَّ رأسه هو أيضًا، بعدها تَراجَعَا هما الاثنان، ونظر كُلُّ منهما للآخر بَغَضِبٍ، وطارا تَجَاهَ بَعْضِهِمَا البعض في الوقت نفسه تقريبًا ليبدأ الهجوم، اشتبكتَ قُرُونُ الكبشَيْنِ، ونتج عن اصطدامها صوتٌ عالٍ يُشْبِه الألعاب النارية، أمَّا "شو دا فا" و"غريمه" "لي لاي تشينغ" فقد اعتَصَرَا قبضتَيْهِمَا في نفس الوقت، وصاحَا بأوامِرَ لا يَفْهَمُهَا إِلَّا الكبشُ الخاضُ بكلِّ منهما، من أجل تحفيزه، ولم يَنْتُجْ فائِزٌ وخاسِرٌ في الجولة الأولى؛ لذا فَكُّ صاحباهما الاشتباك، واستخدم كُلُّ واحدٍ طريقته الخاصَّة لاستفزاز كبشه وجَعَلِه يمتلئ بالعداوة تَجَاهَ خصمه، كي ينتصر في المعركة. وفي الجولة الثانية ظلَّ على نفس الوضع في الهجوم والتراجع، ثم اشتبكا سويًا فصارا في حالة التصاق تامٍّ، فأسقط في يَدَي سَيِّدَيْهِمَا، واضطرَّ ثانيةً إلى فَكِّ الاشتباك بينهما، ولمَّا وصَلَ للجولة الثالثة، تَسَمَّرَ الكبشان في مكانهما لسبع أو ثمان دقائق، وبدأ أن الهواء نفسه قد تجمَّد في الساحة، وفجأة شدَّ "اللؤلؤة السوداء" جسده وأبرزَ قَرْنَيْه ونطَحَ بِسُرْعَةِ البرقِ، لتتصادمَ القُرُونُ مرَّةً ثانيةً، وتُصدِرُ صوتًا مثل هزيم الرعد، كأنَّ القرون ستُصدِرُ شَرًّا من شِدَّةِ الاصطدام، وهكذا صارت الأفضليَّةُ لِلؤلؤة، وأجبر الكبشُ الأبيض على التَّراجُعِ للزاوية الشمالية الغربية، كان "اللؤلؤة السوداء" في تلك اللحظة أشبه بالعجَلَّة الدَّوَّارة التي لا يقف في طريقها شيء، أمَّا الكبشُ الأبيض المتقهقر فصار مثل كُرَّةِ التَّلج التي دَهَسَهَا "اللؤلؤة السوداء" حتى ساواها بالأرض.

وعندما ضجَّت المدرَّجات هتافًا من أجل "اللؤلؤة السوداء" سَحَبَه "لي لاي تشينغ"، ووَصَلَ إلى المدرَّجات الشماليَّة، وبنظرة واحدة تعرَّف

على ذلك المهندس الذي يرتدي ملابس زرقاء وقُبَعَةً زرقاء، ولكنه في نفس الوقت رأى "شين كاي ليو" الجالس بجواره، فشعر بعدم الرضا؛ ليس الصَّفُّ الأوَّل من المدرَّجات الشمالية مُخصَّصًا للضيوف المُهمِّين؟ فبأيِّ صِفَةٍ يجلس فيها "شين كاي ليو"؟ بالإضافة إلى أن كلاب المتفرَّجين كُلُّها مُطلَقةٌ خلف المدرَّجات، أما كلبُه "أيتزيه" فيجلس مُنزويًا تحت قدميه، فهل يستحقُّ جُنديُّ هاربٌ أن يتمتَّع بتلك المعاملة؟ كما أنه سمع أن "شين شين لاي" عندما كان مُختبئًا في كهف "الجَدُّ المُرقط" كان ذلك بمساعدة من "شين كاي ليو"، لقد ارتكب جريمةً إيواء مُجرِمٍ هاربٍ، ويتوجَّب إيداعه هو أيضًا في السجن، فلماذا لا يقبضون عليه؟ هل لأنه متقدِّمٌ في السَّنِّ لذلك يمكنه التجوُّل بأريحية خارج نطاق القانون؟ ظلَّ "لي لاي تشينغ" يُضمر الضَّغينة في قلبه تجاه "شين كاي ليو" مُنذُ أن فضح الأخيرُ فِعْلَتَه بدسِّ الدواء لكبش "شو دا فا"؛ لذا ما إن رآه يجلس مُستمتِعًا يشرب الخمر حتى اشتعلت نيران الغضب في قلبه، ووَدَّ أن يجعل "اللؤلؤة السوداء" ينطحه ويصيبه، لكنه فكَّر أنه لو فعلها فسيُغضب العُمدة، ولو غَضِب عليه العُمدة فلن يهنأ بيومٍ واحدٍ؛ باعتبارِه واحدًا من العائمة، فعَضَّ على أسنانه وابتلع غضبه، وأشار بيده تجاه المهندس الذي يرتدي الزِّيَّ الأزرق وأصدر للؤلؤة السوداء أمرًا بالهجوم، فتردَّد "اللؤلؤة السوداء" قليلًا، ثم شدَّ جسده وقفز، لكنه فهم الأمر خطأ، لقد ظنَّ أن سيِّده يطلب منه الهجوم على ذلك الكلب الأصفر، فقد كان من المستحيل أن يفكَّر أن سيِّده سيأمره بالهجوم على البَشَر. وقتها كان "شين كاي ليو" في نشوَّته، لكنَّه حينما رأى "اللؤلؤة السوداء" يندفع نحو "أيتزيه"، ألقى على الفور بزُجاجةِ الخمر وطار بجسده ليحميه. ونجح في ذلك، لكن قرن الكبش اخترَّق ساقه اليسرى واندفع الدَّمُ منها، فسقط على الأرض واصطدمت رأسُه بقوةٍ في المدرَّجات.

سقط "شين كاي ليو" في بِرْكَةٍ من الدَّماء، فصاح: "ماو بيان"؛ فقد كان في جيبه الهارمونيكا التي قايَصَها في عيد البضائع القديمة، وقد اعتقد أنه سيرى "ماو بيان" في ساحة المصارعة؛ فرَغِبَ في أن يُهدِيَه إيَّاهَا. وقبل أن يفقد الوعيَ تمامًا، ضحك مرَّتَيْنِ كأنه يستمتع بتلك اللحظة. لقد رَغِبَ في أن يرحل عن العالمِ حَامِلًا معه السعادة، فجاهد لكي يسترجع بعض الأشياء السعيدة في حياته، لكن يا للنعنة، هو تقريبًا لا يجد أيَّ سعادةٍ مَرَّتَ به؛ فالأمر الوحيد الذي يُشعره بالفخر هو سِجَالُه وحده مع رجال الشرطة الباحثين عن "شين شين لاي" ونجاحه في إبقائه على قَيْد الحياة حتى الآن. انطلق مرَّةً تلو الأخرى في عمق الليل من المدخل الشمالي، ورَتَّبَ كهفَ "الجد المرقط" ليصير مَنزِلًا دون أن يدري به إنسٌ ولا جانٌ. وكان يشتري المُوْن من محلات القرى القريبة كي لا يثير الشُّكَّ بسبب تكرار شرائه للأشياء، أمَّا عندما لاحَقَه "جيه شي باو" فكان يشربُ مَعَه حتى يثْمَل، وينتظره حتى يغطَّ في النَّوم قبل أن يذهب لإيصال المُوْن. وبعد أن رحل "جيه شي باو" خالي الوفاض، خاف هو أن يَجِدَ النَّاسُ أماكنَ نَقْلِ وتخزين المُوْن من خلال تتبُّع آثار أقدام الحصان وآثار أقدام "شين شين لاي" فوق التُّلُوج؛ لذلك صار في تلك الفترة يركب حصانه ويهيم بلا هَدَفٍ وسط الغابات كي يُخفي آثار أقدام "شين شين لاي"، ويترك آثار أقدام حصانٍ مُتَنابِثَةٍ على نطاقٍ واسع؛ فلا يستطيع أحدٌ تتبُّع أيِّ شيء من خلالها، وليترك خلفه متاهةً وسط الغابات. وبعد أن أنجَبَت "أن شويه أر" طفلها، رأى أن الوقت قد حان لإنهاء الحرب. كان يحدوه الأمل أن يَسْمَح "أن بينغ" لحفيده بعد القبض عليه بالقاء نظرة على ابنه "ماو بيان"، لكن "أن بينغ" لم يفعل هذا؛ لذلك كان مُستاءً للغاية من "أن بينغ"؛ فقد رأى أن ما فَعَلَه ليس من شِيَم الرُّجال. إنه ليس جُنديًا هَارِبًا، لكنه حمل طوال حياته وصمة الجندي الهارب، إن زواجه من امرأةٍ يابانيَّة هو أمرٌ حقيقي، لكنه لا يزال مُحارِبًا؛ لذلك فقد حاول

كثيراً الوصولَ للمسؤولين لحلِّ الأمر، وقتها ذهب لصديقِ حَرِبٍ قديمٍ شَغَلَ منصبَ المسؤول السياسي لمنطقة مدينة "لين" العسكرية، لكن مَنْ كان يَعْرِفُ أنه تزوَّج من امرأةٍ يابانيَّةٍ، ينظر له باحتقارٍ، ولا يسمع لدفاعه من الأساس، وفي النهاية استسلم لَقَدَرِهِ وقرَّرَ أنه طالما بقي على قَيْدِ الحياة فلا يَهْمُ أيُّ شيءٍ آخر، فَوَهَبَ حياته للغابات والجبال، ووضع فيها أيضاً عازره والظلمَ الواقعَ عليه. وهكذا سارت به الحياة حتى وصلت دون أن يشعر إلى لحظة النهاية.

أُرْسِلَ "شين كاي ليو" من فوره إلى مستشفى الشعب بمحافظة "تشيونغشان"، فقد خسر الكثير من الدماء بسبب جُرحِ ساقه، ونُقِلَ له الكثيرُ من الدَّم، لكن جرح ساقه لم يَكُنْ قَاتِلًا، بل كان الأخطر هو صدمة رأسه في المدرجات، والتي تسببت في نزيف بالجمجمة. ونظرًا لسِنُّه الكبير فقد استبعدَ الأطباءُ التَّدخُّلَ الجراحي؛ فظَلَّ في العناية المركَزة في حالة غيبوبة عميقة، وظلَّ فيها ليوم، ثم اثنين ثم ثلاثة أيام، بعدها استمرت الغيبوبة لسبعة ثم ثمانية ثم تسعة أيام وهو على نفس الحالة، وفي النهاية خرج تقريرُ الأطباء أنه على الأرجح لن يفيق ثانية، أي بعبارة أخرى: لقد مات إكلينيكيًّا. وهنا أصاب القلق الشديدُ "تانغ هان تشينغ"؛ فهو لم يكن يتخيَّلُ ألا يصيب المهندس أيُّ أدَّى، ويتحوَّل "شين كاي ليو" إلى صَحِيَّة، ورأى أن هذا هو أخذُ بثأرِ شَخْصِيٍّ على الملأ من قِبَلِ "لي لاي تشينغ"، لكن "لي لاي تشينغ" أقسم له أنه بالفعل يكره "شين كاي ليو"، لكنَّه لم يُفَكِّرْ في أدَيْتِه، بل "اللؤلؤة السوداء" هو ما فهم الأمرَ خطأً، ولكن مهما كان الأمر، فقد أُصِيب "شين كاي ليو" أثناء عيد مُصارعة الكباش، ولا يمكن لـ "تانغ هان تشينغ" أن يتجاهل الأمر. وكانت كُلُّ دَقَّةِ قَلْبِ لـ "شين كاي ليو" أثناء رقوده في غرفة العناية المركَزة تحرق نقودًا؛ فارتفعت تكلفَةُ العلاج حتى قاربت العشرين ألف يوان، وأعلن "لي لاي تشينغ" على الملأ أنه ليس هو مَنْ أصاب "شين كاي ليو"، بل "اللؤلؤة السوداء"؛

لذا فليُنَسَّ الجميعُ أمرَ توريطه في تكلفة العلاج، وفي الحقيقة لم يجرؤ "تانغ هان تشينغ" على طلب بنسٍ واحد منه؛ فقد حَسِثِيَّ أن يَفْصَحَ حقيقةَ ما حدث؛ لذلك أخرج "شين تشي زا" نصفَ تكلفة العلاج، وتكفَّلت حكومةُ القرية بالنصف الآخر. ولكن لو عاش "شين كاي ليو" لثلاثة أو خمسة أعوام أخرى، فإنَّ مَجَزَّرَ "شين تشي زا" بالكامل لن يكفي مصاريف العلاج، ليس هذا فحسب، بل إن حكومة القرية كلها قد تنهار بسببه؛ لذا تَرَقَّبَ "تانغ هان تشينغ" استفاقتَه أو موته، فثمن بقاء "شين كاي ليو" في الغيوبة باهظٌ للغاية. فصار "تانغ هان تشينغ" في كلِّ مرَّةٍ يزوره فيها في غرفة العناية المُركَّزة يستغلُّ عدم وجود الطبيب لكي يَطْرُقَ بإصبعه على جبهته ويُدغِدغ بِاطْنِ قَدَمِهِ ليرى ما إذا كان سيستجيب أم لا، أو يصيح بجوار أذنه ببعض الكلمات التي تستثيره، مثل أن كلبه "أيتزيه" قد صَدَمَتَه سيارَةٌ، أو أن منجمَ الفحم خاصَّته قد اقتحَمَه نُعَلْبُ أحمر يجيد الكلام، أو أن القيادة العليا سترسل مبعوثًا لعَقْدِ مؤمَّرٍ إعادة شَرَفٍ له في القرية والإقرار بأنه ليس جنديًا هاربًا، ولكن مهما قال، ظلَّت عينا "شين كاي ليو" لا ترمشان، وظلَّ في غيبوبته.

لم يكن "تانغ هان تشينغ" هو الوحيد اليائس، بل شارَكه اليأس "شين تشي زا". فَبِعَضُّ النظر عن أي شيء، فإن الراقد على سرير المرض هو أبوه، ولا يمكنه ألا يكون بارًّا به؛ لذا نزل في فندق صغير بجوار مستشفى المحافظة ليزور والده كلَّ يوم، فصار معظم الوقت يجلس مُطَرِّقَ الرَّأسِ على المقعد الطويل في الممرِّ خارجَ عُرْفَةِ العناية المُركَّزة لينظر في شرود لأقدام الذاهبين والعائدين، فيشعر بأن الأقدام المتحرِّكة كلها أقدامٌ جميلة، وكانت الشَّمسُ ساطعة في الخارج، أمَّا الممرُّ فكان باردًا رطبًا، وظلَّ "شين تشي زا" يسترجع ذكرياته حينما كان طفلًا، والغريب هنا أن كلَّ ما تَدَّكَّرَه كان مَحاسِنَ والده، فذات ليلةٍ مُقَمَّرَةٍ صنع له نبلَةً من إطار درَّاجة قديمة، وفي كل عام قبل

المهرجان الرياضي بالمدرسة كان والِدُهُ يذهب إلى المدينة لبيع الأعشاب الطبية كي يشتري له حذاءً كرةً أبيض جديدًا يَدْخُلُ به إلى الملعب، وعندما يصيبه البرُدُ كان يصنع له حساءَ الدَّواءِ، ويقشط له ظهره ليُعَالِجَه، وعندما يحلُّ الشهر الأخير من العام القَمَرِيِّ، كان يشتري له قطعةَ قُماشٍ ويأخذه ليفصِّلُها له حتى يقضي العيد بملابس جديدة. وعندما استرجع "شين تشي زا" تلك الذكرياتِ ابتلَّت عيناه بالدموع، وهبَّ واقفًا وسار حتى الحديقة الصغيرة أمام المستشفى، وأخرج قَدَاحَةَ الشَّمْسِ، وأشعل سيجارة. إن نيران الشمس وفتائل التَّبغِ هما صنوان مُقدَّسان، اتحادهما يُسكِرُ المرءَ، وعندما يُدخِّنُ "شين تشي زا" هذا النُّوعَ من السجائر يرتاح قلبه كثيرًا.

وذات يوم، وبينما كان "شين تشي زا" يُدخِّنُ سيجارةً أمام المستشفى ظهر "لاو واي" وهو مُطَرِّقُ برأسه والأسى يملأ وجهه وأخبره أن الحدَّاد "وانغ" تُوفِّي من يومين، وجنازته ستُخرَجُ اليوم، وأنَّه لا يرغب في سماع أيِّ أخبار حزينه متعلِّقة بالجنازات؛ فجاء إلى المدينة بحثًا عن المَرَحِ، لكنَّ شُرطَةَ الآداب كثَّفَت حملاتها مؤخرًا، فتساقطت الملاهي والمراقص وصالونات التجميل أمام حملاتهم كأوراق الخريف، وفرَّ كُلُّ مَنْ يعملون بالدَّعارة، وهكذا أصابه الإحباط؛ فلا مكان يذهب إليه؛ لذلك جاء إلى المستشفى بحثًا عن "شين تشي زا" ليرى كيف حال والده.

ثم قال "لاو واي" بوجهٍ عابِسٍ، مُوجِّهًا كلامه لـ "شين تشي زا": "الأفضل أن تكون مُتزوِّجًا، فإن رَغِبْتَ في إفراغ شهوتِكَ فستجدها في أي زمان ومكان، وبشكلٍ لا يخالف القانون".

فردَّ عليه "شين تشي زا": "أصَبْتَ، ومُمكنك أيضًا توفير نقود بيع "الدوفو"".

فضحك "لاو واي" وتحرَّك مع "شين تشي زا" لرؤية "شين كاي ليو"، وعندما رأى رأسه وقد امتلأت بأنابيب فضيَّة دقيقة قال إن "شين كاي

ليو" صار عنكبوتًا كبيرًا، ثم نفخ في جَفْنِه، وقرص إصبعه، ودغدغ باطن قدمه، وعندما رآه بلا أي استجابةٍ "مَمَصَّص" شفّيته وقال مُوجِّهًا كلامه له: "يبدو أن أحدًا لم يظلمك، وأنك حقًا جُنْدِيٌّ هَارِبٌ، فلو لم تكن جبانًا فكيف تتردّد هكذا في الموت؟ لقد أوشكنا على الأوّل من أغسطس، فإن لم تكن ترغب في الدخول لمَحْرَقَةِ الجُثث، فتعلّم من الحَدَّاد "وانغ"، إنه حقًا بطلٌ؛ فقبلَ يومين أكلَ طبَقًا من المُعجّنات المسلوقة بلحم الضأن، وشربَ نصفَ زُجاجةٍ من الخمر القويّ، ثم ذهب للمخزّن وأمسك بالمِطْرَقَةِ الحديدية وحطّم جُمجُمته، واليوم سيذهب بكلّ رِضًا إلى العالم الآخر حاملاً معه التّابوت الموضوع في ورشة الحِداة بالمدخل الشمالي، فلماذا تتلّكأ أنت؟ هيّا اذهب معه بسرعة، إن رقودك هنا لن يجلب لك البراءة حتى لو رقدت مائة عام أو ألف عام أو عشرة آلاف عام، هيا ارتح مُبكرًا كي تُدفن بجُثّةٍ كاملة".

وبعد أن انتهى "لاو واي" من توبيخ "شين كاي ليو"، شدّ "شين تشي زا" إلى الممرّ خارجَ غرفة العناية المركزة وقال له: "ما الفرقُ بين أبيك وبين أيّ شخصٍ ميّت سوى بضعة أنفاسٍ يتنفّسها؟ الأفضل أن تطلب من الطبيب نزع تلك الأنابيب عن رأسه حتى يرحلَ في سلام". وعندما لاحظ "لاو واي" صمّت "شين تشي زا" استمرّ في نُصحه قائلاً: "إنه جُنْدِيٌّ هَارِبٌ، ولا يُشبهُك في الشّكل، ولا تعلم إذا ما كان أباك حقًا أم لا، فهل أنت أحمق لتكون بارًا به؟ بالإضافة إلى أنه تزوّج من امرأة يابانية؛ ممّا تسبّب في إفساد زواجك أنت ولم تُنجب طفلًا من صلبك، فلو لم تتبنّ "وانغ مان شيو" ذلك المدعو "شين شين لاي"، فهل كانت ستقتل؟ بنقودك تلك يُمكنك مُساعدة الفقراء، لماذا تتركه يضيّع نُقودك هكذا؟". لكن "لاو واي" لم يتخيّل أن يملأ الدّمعُ وجه "شين تشي زا" ويقول: "مهما كان فهو أبي، وطالما لا يزال يتنفّس لا يُمكن ألا أدعّه يعيش".



وفي اليوم الأخير من شهر يوليو، وفي تمام الساعة الثامنة مساءً، بدأ "شين كاي ليو" في الانسحاب من العالم؛ فأنخَفَصَ صَغَطُ دَمِهِ بِسُرْعَةٍ، ووصل مُعَدَّلُ نَبْضِهِ إلى ثلاثين دَقَّةً في الدقيقة، وانهارت كُلُّ أجهزة جسمه، وازرَقَ وَجْهُهُ، وكان المسؤول عن الأقسام المدنية مقيماً في المستشفى لكي يراقب المرضى الموشكين على الوفاة في العناية المركزة، ولا يسمح للمستشفى أن تتلاعب في تاريخ الوفاة، وتطبيق التعليمات الجديدة المتعلقة بالجناز ما إن تَمَّ سَاعَةُ الصُّفْرِ. وعندما عَلِمَتِ المَحْرَقَةُ أن "شين كاي ليو" رَمَّما سيكون أَوَّلَ مَنْ يُطَبَّقُ عَلَيْهِ الحَرَقُ؛ جَهَّزوا عربة نقل الموتى، كان "شين كاي ليو" في تلك اللحظة كورقة اليانصيب التي راهنوا عليها ويتعطشون ليربحوا بها الجائزة الكبرى كي تكون فَاتِحَةً لتجارتهم. وبالإضافة لمَحْرَقَةِ الجُثث كان الصَّحْفِيُّونَ في التلفزيون مُتَرَقِّبِينَ أَيْضًا لأخبار موت "شين كاي ليو"؛ لذا انتظروا أمام المستشفى واستعدُّوا لنقل تقريرٍ عن إصلاحات الدَّفْنِ الجديدة، فقط كان الطبيب المعالج هو مَنْ تَعَاظَفَ مع ذلك المُسِنَّ الهزيل، فأغلق محبَسَ الأكسجين دون أن يُلاحِظَهُ أحدٌ؛ كي يُنْهِيَ حَيَاتَهُ قَبْلَ ساعة الصُّفْرِ، وما إن مَرَّتِ السَّاعَةُ الحادية عشرة حتى استمرَّ صَغَطُ ونبض "شين كاي ليو" في الانخفاض، وصارت مؤشِّرات الحياة في أجهزة الرعاية حوله مثل النَّهْرِ الذي يَجِفُّ تَدْرِيجًا وتظهر عليها علامات الجفاف بلا انقطاع، لكنه ظَلَّ يَتَنَفَّسُ بعنادٍ. لم يسمع "شين تشي زا" في حياته مثل هذا التَّنَفُّسِ من قبل، كان ثَقِيلًا، بطيئًا، حزينًا، كان يُشْبِهُ أَكْثَرَ تَنْهَدَاتٍ عميقة. وفي الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة، تَدَاوَعَ الكَثِيرُونَ إلى غرفة العناية المركزية لكي يكونوا شهودًا على لحظة تاريخية؛ لذلك عندما لفظ "شين كاي ليو" أنفاسَه الأخيرة في السَّاعَةِ صِفْرٍ وسبع دقائق من اليوم الأول من أغسطس؛ التَفَّ النَّاسُ حَوْلَهُ كَنُجُومٍ تَلْتَفُّ حَوْلَ قَمَرٍ. فرح مسؤولو المحرقة لوفاته، إلا أنهم لم يُبدوا فرحتهم، وتحسَّرَ الطبيب المعالجُ وأطلقَ تَنْهِيدَةً عميقةً،

أما "شين تشي زا" فوقف مذهولاً غير مُصدِّقٍ أن شخصاً قد يرحل هكذا بكل بساطة.

ونظراً لأن "شين كاي ليو" كان هو الزبون الأول لمَحْرَقَة محافظة "تشينغشان"؛ لذلك أعفوه من نصف المصاريف، ورغم هذا فقد تكلف "شين تشي زا" ألفاً وتسعمائة يوان، تشمل مصاريف حفظ الجثة، ومصاريف التجهيز، ومصاريف الحرق، وعُلبَة الرَّماد والسيارة التي نقلت الرَّماد إلى قرية "لونغ تشان". وعندما سمع كبار السنُّ بالقرية أن "شين كاي ليو" مات، وأن المَحْرَقَة قد بدأت العمل، ركبوا السيَّارات بلا اتِّفاق وجاؤوا بلا ميعادٍ إلى مَحْرَقَة الجُثث بمحافظة "تشينغشان"، بحُجَّة المشاركة في وداع "شين كاي ليو"، ولكن في الحقيقة كانت الرِّغبة تحذوهم لرؤية كيفية حرق الجُثث. وفي اللحظة التي وُضعت فيها جثة "شين كاي ليو" داخل الفرن، لم يبقَ واحدٌ منهم إلَّا وارتعش جسده وقبض على صدره بيده وجحظت عيناه برعب، وعندما فُتح باب الفرن وانقشع الدخان الخفيف الساخن، واكتشف الجميع أن ذلك الجسد الذي كان من لحمٍ ودمٍ قد صار فعلاً كومةً من الرماد؛ وقَعَ بعضهم مَغْشِيًّا عليه، ومنهم مَنْ بَلَّل سرواله رُعبًا، ومنهم مَنْ تَقِيًّا وصرخ طالبًا العودة للمنزل. ولأن المسوؤل عن فرن الحرق كانت تلك أوَّل مرَّة له في التَّعامل مع الفرن؛ لذلك لم يتمكَّن من ضبط درجة الحرارة بدقَّة؛ ممَّا تَسبَّب في أن بعض أجزاء الجثة صارت مثل كُتَل الفحم، وهكذا اضطرَّ "شين تشي زا" إلى ارتداء قُفَّازٍ أبيض والإمساك بمِطْرَقَة من المطَّاط واتباع تعليمات مسوؤل التشغيل لتكسير العظام التي لم تحترق بالكامل، وخلال هذا اكتشف شظية رِصاصة بداخل عِظام السَّاق التي تشابكت على شكل خلية نحل، تلك الشُّظية بحجم الظَّفَر، وتَبْرُق بلمعانٍ معدنيٍّ مثل قطعة من الذهب خرَّجت لتوُّها من تحت التراب؛ فارتعش قلبه وتفحص بدقَّة باقي الرماد، فعثر فيه في النهاية على أربع شظايا أخرى، فقبض عليها

جميعًا كأنه قابضٌ على روح أبيه، وصرخَ بصوتٍ مَرَّقه الأملُ واليأس:  
"أبتاه، إِنَّكَ لَسْتَ جُنْدِيًّا هَارِبًا، لَسْتَ جُنْدِيًّا هَارِبًا".

اختار الكلبُ "أيتزيه" المكانَ الذي سيوضَعُ فيه رماد "شين كاي ليو"، كان مكانًا بالقرب من جدول ماء، فبعد الحادثة التي وقَّعت لـ "شين كاي ليو" ودخوله للمستشفى، صارت "أن شويه أر" تُطعم الكلب يوميًا. فكان "أيتزيه" يخرج كلَّ يوم في الصباح، ويعود ليلاً ليحرس المنزل، وكان أهل القرية الذين يقطفون الأقحوان البرِّيَّ يرونه يحفر حُفْرَةً وسط غابة الصنوبر بالجبل الغربي، وقتها صاروا يتحدثون عن أن "شين كاي ليو" لن يعيش لأَيَّامٍ أخرى.

وعندما واصلت السَّيَّارَةُ التي تحمل رُفات "شين كاي ليو" إلى القرية استقبلها "أيتزيه" في المدخل الشمالي وهو ينبح بحزن، وكانت الحفرة التي حفرها في الجبل الغربي بحَجْمِ طَبَقِ استحمامٍ، وقد ملأها آثارٌ مَخَالِبِهِ، أمَّا قَاعُ الحُفْرَةِ فقد تجمَّعت فيه المياه؛ فصارت أشبه بِمِرَاةٍ مُسْتَدِيرَةٍ تَعكِّسُ ضوءَ الشَّمْسِ. وفوق الحُفْرَةِ طار في الهواء زَوْجٌ من النحل، يبدو أنهما اعتقدا أن ضوء الشمس بالحُفْرَةِ فروعَ أزهارٍ فأرادا استخراجَ الرِّحِيقِ منها.

وهكذا دُفِنَ "شين كاي ليو" هناك. أمَّا شاهدُ القبر فكان من صنَع "أن شويه أر"، والتي صنَّعته من ذلك الحجر الأخضر الذي جاء به "أن تاي" في السابق. لقد كَشَطَتْ من فوقه صُورَ جَدِّها والغزال والشجر، ونحتت مكانها قبر "شين يونغ كو".

ذلك الحَجَرُ الأخضرُ الموضوع على رأس قبر "شين كاي ليو" صار أيضًا مكانًا لاستراحة الطيور، وفي كل مرَّةٍ يأتي فيها "شين تشي زا" لزيارة والده كان دائمًا ما ينثر بعض الغلال في الجزء الغائر فوق شاهدِ القبر ليُطعم الطُّيُورَ المُهاجِرَةَ شمالًا وجنوبًا.

## مَعْبَدُ إِلَهِ الْأَرْضِ

تجاوز "ماو بيان" عامه الأول، وصارت قامته أطول من عودَي طعام، وصار بمقدوره شُرْبُ حِساء الأرز وتَنَاوُل عَصيدة البَيْض، صار بإمكانه السَّير أَيضًا.

لقد تعلَّم الرَّحَفَ فوق شواهد القبور، فبعد ولادته رأت "أن شويه أر" أنها يَجِبُ عليها كَسْبُ المال لتربية ابنها؛ فَبَدَأَتْ مرَّةً ثانية في نَحَبِ شواهد القبور، فصارت حين تقوم بعمَلِها في الفِناء في الأيام المُشمِسة الدَّافئة تَضَعُ شاهِدًا على جانبه في الشَّمس حتى يدفأ، ثم تَضَعُ فوقه سَجَّادَةً لَتَضَعُ فوقها "ماو بيان"، وفوق هذا الشَّاهد تعلَّم "ماو بيان" كيف يتقلَّب يمينا ويسارًا، وكيف يزحف. وعندما يتعبُ من اللَّعب ينام فوقه، فإذا صَرَخَ باكيا في لحظة استيقاظه فهذا يعني أنه رأى السَّماءَ بلا سُحُب، أمَّا إن رأى السُّحُبَ فيبدو كأنه رأى صدرَ

أُمّه؛ فيسيل لُعَابُهُ وَيُلَوِّحُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةَ وهو يصيح مُبَدِّيًا من حركاته رَغْبَتَهُ فيها.

وعندما يُغَطِّي الثَّلْجُ الجِبَالَ والغابات، لا يستطيع "ماو بيان" اللَهُوَ في الفِئَاءِ، وتضطرُّ "أن شويه أر" هي الأخرى لِلنَّحْتِ داخلِ الغرفة، ويبدو أن "ماو بيان" لم يفهم لماذا انتهت فجأة مُتَعَهُ التَّشْمُسُ في الفِئَاءِ، ولماذا صارت السَّمَاءُ تُنِيرُ مُتَأَخَّرًا؟ فأحيانًا كان يستيقظ قبل "أن شويه أر"، ويبدو أنه يخشى الوحدة؛ لذا كان يَقْرِضُ أَصَابِعَهُ بَحْثًا عن بعض الرُّفْقَةِ؛ وفي كُلِّ مَرَّةٍ يستيقظ فيها قبل أُمّه كانت "أن شويه أر" تَكْتَشِفُ حين تصحو أن أَصَابِعَهُ مُبَلَّلَةٌ بالكامل بلُعَابِهِ، وقد قَرَضَهَا حتى احمرَّت تَمَامًا.

وقبل دخول الشتاء أحاط "أن بينغ" جدرانَ الورشة الخارجية بطبقةٍ من الطِّينِ الأصفر، ووضع طبقةً من نشارة الخشب فوق السطح. ورغم أن هذا جعل الغرفة أكثر دفئًا من السنين الماضية، إلا أنها لم تَصْمُدْ أمام ضربات الرياح الشمالية والتيَّارات الباردة، ففي الليالي التي تنخَفِضُ فيها درجات الحرارة لأقل من ثلاثين تحت الصفر تكون العُرْفَةُ دافئةً ليلاً، لكنها تُصَبِحُ باردةً، مثلها مثل الحُبِّ قصير العمر، إلا أن هذا جَلَبَ معه أمرًا جميلًا، وهو زهور الصقيع، فد "أن شويه أر" تُحِبُّ أن تحضن "ماو بيان" لِيُشَاهِدَهَا سَوِيًّا زهور الصقيع المتكوِّنة على الزجاج بعد أن تستيقظ في الصباح وتشعل نار الموقد.

وتتفِقُ زُهُورُ الصَّقِيعِ في الطُّبَاعِ مع السُّحُبِ، فكلتاها ذاتا أوضاعٍ مُتَعَدِّدةٍ مختلفةٍ وتغيُّراتٍ خيالية. فمنها ما يشبه الأواني، كالقدور والأطباق والأكواب، ومنها ما يشبه الحيوانات كالأبقار والخيول والخنازير والكباش، ومنها ما يُشَبِّهُ النَّبَاتَاتِ، كالأشجار والزهور، ومنها ما يُشَبِّهُ الحُلِيِّ، والمنازل، والنجوم، وفواصِلَ الحقول، وخطوط البرق، والبَشْرِ، والطيور. فضلفة الشبَّاك الممتلئة بزهور الصقيع هي عالمٌ

كبير. و"ماو بيان" يرغب دائماً في أن يكون هو سيّد هذا العالم؛ لذلك في كلِّ مرّةٍ تحتضنه فيها أمّه ليرى زهورَ الصَّقيع كان يمدُّ يده الصغيرة الممتلئة لكي يلمس الزهور، تلك الزهور رقيقةٌ للغاية، ما إنْ تمسّها حتى تتشوّه، فالشَّبيهةُ بالفراشات منها تصير كأنَّ أحدهم قد أخافها بلمساته، والشَّبيهةُ بالزهور لا يبقى منها سوى سيقانها كأن الفتيات قطفنها، والشَّبيهةُ بالأطباق تظهر فيها كسور كبيرة كأنَّ طفلاً شقيّاً كسرها بحجر، والشَّبيهةُ بالخنازير تصبح بلا رؤوس كأن "شين تشي زا" حَزَّ رِقَابَهَا بِسِكِّينِهِ، والشَّبيهةُ بالأشجار تتشكّل ثقبوبٌ دائريّةٌ بين أفرعها كأنها مُعلَّقٌ فيها أعشاش طير، فإذا ما كانت أشعّة الصُّباح جيّدة فإنها تملأ تلك الثقبوب الدائرية لتصبح أعشاش الطير أعشاش طيرٍ ذهبيّة، وفي كلِّ مرّةٍ ترى فيها "أن شويه أر" زهورَ الصَّقيع تتذكّر المطرزة، وتندم على أنها لم تتعلّم منها مهارات التطريز وإلا لكانت استخدمت الإبرة لتطريز مناظر زهور الصقيع.

بعد أن صار "شين كاي ليو" أوّل مَنْ يُطبّق عليه الدفن حرّقاً، بدأ كبار السنّ في القرية المتردّدين بين الموت والحياة في التفكير مرّةً ثانية في الحياة الطويلة؛ فقد أدركوا أنهم سيُحرّقون لا محالة، وسيصيرون رَماداً بعد الموت؛ لذا رأوا أن العيش مُدّةً أقصرَ سيعود عليهم بالخسارة، ومن ثَمَّ استعادوا حياتهم الطبيعيّة، وبدأوا في الأكل والشُّرب واللّهو كما كانوا في الماضي، أمّا الاختلاف الوحيد فكان حُبُّهم للدُّهاب إلى المقاهي بالسوق الجنوبيّة بعد الظهيرة للتسامر، وهذا الأمر أسعد أصحاب المقاهي كثيراً. وكان أكثر المواضيع التي يتحدّثون فيها هو مصير التوابيت ومصاريف الحرق، فبعد تطبيق سياسات الجنازات الجديدة أرسلت هيئات الحكومات المحليّة العاملين فيها إلى القرى للتخلّص من التوابيت، فكانوا يَمُرُّون من بيتٍ إلى بيت، وإذا ما اكتشفوا وجودَ تابوتٍ يأمرّون صاحبه بالتخلّص منه في غضون ثلاثة أيّام، وإلا فسيصادرونه ويحرقونه. وكانت التوابيت كلها مصنوعةً من

خامات ممتازة؛ لذا يَعزُّ على أصحابها مُصَادِرَتُهَا؛ فقام بعض الناس بتقطيعها واستخدامها حَطَبًا، وقام البعض الآخر بتفكيكها وتحويلها إلى ألواحٍ ودِلاءٍ خشبيَّةٍ ومناضِدٍ ومقاعِدٍ، واستخدامها بِطُرُقٍ مختلفة، ومنهم مَنْ نزع الجُزءَ الأفضل فيها وأعطاه لـ "أن شويه أر" كي تصنع منه لافِتةً قَبر، واستمع الكثير من النَّاسِ إلى كلامِ العَرَافين، ووضعوا في التَّابوتِ صورةً صَاحِبِهِ وملابسه وأحذيته، بعدها أخذوه إلى المقبرة وأحرقوه هناك؛ فقد قال العَرَافون أن هذا يُعادِلُ بناءَ مَنْزِلٍ في العالم الآخر؛ لذا عند الوفاة سيذهب صاحب التَّابوتِ إلى منزله الجديد. بالطبع كان هناك مَنْ عَزَّ عليه التَّخُلُّصُ من التَّابوتِ فأخفاه؛ على أملٍ أن يأتي يومٌ ويستخدمه، لكنَّ العَامِلين كانوا أذكياءً ودَقِيقين المِلاحَظة، فكانوا يتفحَّصون أكوامَ الحطبِ وأكوامِ العُشبِ والحِطائر، وغيرها من الأماكن الصَّالحة لإخفاء تابوت، كأنهم يبحثون عن أعداء أو عناصر إجرامِيَّة.

لم يَعُدْ بإمكانِ الناسِ إقامةُ الجَنائزِ في المنازل، وهكذا فقد مُعِدُّو الجَنائزِ مَصَدَرَ رزقهم وامتلات قلوبهم بالحسرة. كما أن الحزن أصاب العامَّةَ أيضًا؛ فقد اعتاد الجميع على شعائر الجنازة التقليدية المتوارثة منذ سنوات طويلة، فهناك ناووس الأرواح، والتابوت، والشموع، والقربابن، وهناك أيضًا مَراسِمُ الدَّفْنِ. ويمكن للأطفال الضُعفاء والمرضى أن يدخلوا في التَّابوتِ طلبًا للصَّحَّةِ والسعادة، ويمكن للأبناء والبنات أن يحرسوا روح المتوفِّي أمام الشموع، والأهم من كل هذا أن الناس يمكنهم تناولُ طعامِ الجِنَازة، وطعامِ الجِنَازة في غاية الأهمية للكثير من الناس؛ فالحزن والأسى يزول تدريجيًّا وسط الطعام الشهي.

لكن ما حَيَّرَ كبارَ السَّنِّ بقرية "لونغ تشان" هو: ما الفارق بين دفن عُلبَةِ الرَّمَادِ وبين دفن التَّابوتِ، ألن تضمَّ الجِبَالُ والغابات مقبرةً في الحالتين؟ فالأمر ليس كالمَدنِ الكبرى التي توضع عُلبُ الرَّمَادِ فيها في دار الجَنائزِ، لقد تَدَمَّرُوا من الرسوم العالية التي تُحَصِّلُها المَحْرَقة،

فمثلاً رسوم التزيين، لا توجد تلك الرسوم إن أُقيمت الجِنازة بالمنزل، حيث يقوم أهل الميت بغسله وتكفينه وينتهي الأمر، لكن لو دخل إلى المحرقة فيتوجَّب تجهيزه وتزيينه كجزءٍ من سلسلة الخدمات المُقدِّمة، وهذا البند وحده يتكلَّف ستمائة يوان. فَمَن الذي يجني تلك النقود؟ إنها المحرقة وليس خبير التجميل. وخبيرة التجميل هي "لي سو تشين"، التي شعرت بتأنيب الضمير بسبب موت زوجها مُختنقاً بدخان الفحم؛ لذا قرَّرت التَّبْرُع بنصف مُرتبها للمحرقة، لكنَّ المحرقة لم تُخفِّض رسوم التزيين، فصار كبار السنَّ كلِّمًا رأوا "أن بينغ" قالوا له: ماذا دهى عقل عشيقتك تلك؟ إن كانت ترغب في التَّبْرُع بنصف مُرتبها فلتتبرع به للناس بدلاً من التَّبْرُع به للمحرقة، فلو تبرَّعت به للناس فسيحفظون الجميل لها، لكنَّ تبرُّعها للمحرقة يعادل تبرُّعها للأشباح. فيضطر "أن بينغ" للسخرية قائلاً إنها لم ترتكب جُرمًا، لكنها أصرت على دخول السجن من أجل زوجها السابق، إن عقلها ليس بخير حقًا، وقد يئس الجميع منها.

وبعد أكثر من شهر من وفاة "شين كاي ليو"، عادت المطرزة من قرية "جويواوين". لقد انحنى ظهرها وتدلَّى جفناها، وظلَّت تتشاءب طوال اليوم، كأنها تشعر بالنعاس، ولكن لا تدخل في النوم إن رقدت، وقال "أن تاي" إنها بعد أن بلغها نبأ ضياع الحصان الأبيض ظلَّت تُردِّد رغبتَها في الذهاب بحثًا عنه، وكل يوم بعد الإفطار تذهب للجلوس في مُتحف قوميَّة "الإيلوينتشوين"، وتظلُّ هناك جالسةً في قارب مصنوع من لحاء البتولا بقاعة العرض تحتضن المجداف كأنه طفلٌ، أو تجلس لتغفو قليلاً بجوار شُعلة النّار الحمراء المصنوعة باستخدام الأضواء الكهربائية. وفي مساء أحد الأيام، حرَّمت أشياءها وقالت لـ "أن تاي" إنها عائدةٌ إلى قرية "لونغ تشان"؛ فهذا المُتحف يَنقُصُه سِرْجُ حصانٍ مطرّز، ويتوجَّب عليها العودة لتطريزه، فوافق "أن تاي".



وبعد عودتها ذهبَت أوَّلًا إلى الورشة لرؤية "أن شويه أر" وابنها "ماو بيان"، بعدها ذهبَت للسوق الجنوبية واشترت خمسَ زُجاجات خمر، وجاهدَت لحملها عائدةً إلى المنزل. فانحنى "أن بينغ" على أذنها وسألها: "ألسيتِ لا تشربين الخمر؟"، فتنهَّدت قائلةً: "بدون الخمر لا توجد أحلامٌ، وأنا أرغب في أن أرى الحصان الأبيض في أحلامي"، فشرع "أن بينغ" بالحزنِ يَعْتَصِرُ قَلْبَهُ، وذهبَ للجبل مرَّاتٍ عديدة للبحث عنه، لكنه لم يجد له أيَّ أثر، أمَّا هي فسألت كلَّ القرويين في المناطق المحيطة، لكنَّ أحدًا لم يَرَهُ، لقد صار كالسَّحابة التي تتلاشى وقتما تشاء.

هكذا صارت المُطرَّزةُ تقضي يومها في تناول "الدوفو" وشرب الخمر وتطريز السُّرج، أمَّا "أن بينغ" فيذهب للجبل بحثًا عن الحصان. وعندما حلَّ الخريف ونما عيش الغراب كان "أن بينغ" أثناء بحثه عن الحصان يجمع في طريقه بعضًا من عيش الغُراب بمختلف أنواعه وألوانه، منه الأبيض والبُنِّي والأصفر الذهبي، تلك الأميرات التي تحمل مظلَّاتها كلها جميلة الشكل، وعندما يحملها معه "أن بينغ" للمنزل يحمل معها الأوراق المتساقطة الملتصقة بها. تلك الأوراق منها الأصفر الذهبي، ومنها الأحمر القاني، ومنها ما نصفُه أخضر ونصفه أصفر، ومنها أيضًا ما نصفُه أخضر ونصفه أحمر، حيث تتداخل الألوان جميعًا لتُنافِسَ في جمالها زهور الربيع، وكلُّما أمسكت المُطرَّزة بتلك الأوراق المتساقطة تظَلُّ تنظر لها طويلًا في شroud كأنها تنظر إلى حبيبها الموجود في عالمٍ آخر. كان "أن بينغ" يعلم أنها تشتاق للأيام التي تدخل فيها إلى الجبل؛ فتلك الأيام بالنسبة لها ذهبَت دون رَجَعَةٍ. وبوجود عيش الغراب صارت المُطرَّزة لا تتناول "الدوفو" مع الخمر، بل تطبخ بنفسها الملفوفَ الصينيَّ واللحم والثوم المعمَّرَ لتخلِطَه مع مختلف أنواع عيش الغراب، وتصنع منه الفطائر المحشوة، وقد تحسَّن وجهها كثيرًا؛ ربما بسبب تناولِ عَيْشِ الغراب، كذلك لم يَعد

جفناها مُتهدِّلين، وكانت نقوش السُّرَج التي تُطرِّزها في الأصل عبارة عن زهور وأعشاب وأشجار، أمَّا الآن فقد أضافت لها عَيْشُ الغراب أيضًا، وكلِّما انتهت من تطريز واحدة من عيش الغراب نظَّرت لها وصاحت: "يا للجمال!".

وفي ظهر أحد أيام الخريف، هبَّت الرياح بقوة، وتطايرت أوراق الخريف في القرية، فوضَّعت المُطرِّزة السُّرَج الذي انتهى نصفه من يدها، وقالت لـ "أن بينغ" أنَّ الخمر انتهت، وأنها راغِبَةٌ في الذهاب للسوق الجنوبية، فأخبرها أنَّ الرياح قويَّةٌ، ويمكن أن تُصاب بالبرد إن خَرَجْتَ، سيشتري هو لها، لكنها قالت إنها تشعر بجفافٍ في عينيها ودُّوارٍ وضيقٍ في الصِّدر، وترغب في السَّير وسط الرياح كي تُنعش جسدها، فتركها "أن بينغ" تفعل ما تشاء.

سارت المُطرِّزة وسطَ رياح الخريف، وتوقَّفت، ثم سارت حتى امتلأت بطنها بالرياح الباردة. وبعد أن وصلت للسوق الجنوبية دخلت أحدَ المقاهي لتشرب كوبًا من الشاي الساخن تُدْفئُ به جسمها. إلَّا أن المقاهي في قرية "لونغ تشان" كانت تقابل رواجًا لم يحدُث من قبل، فلم تكن في المقهى أيُّ مقاعدَ شاغرة، إلَّا أنه بمجرد دخول المُطرِّزة خلَّت نصفُ المقاعد، حيث نهض مُعظَمُ كبار السَّنِّ والذين يعانون من مشاكل في أرجلهم وتركوا المقاعد لها. فضمت هي يديها شاكرةً الجميع، واختارت مقعدًا قريبًا من الموقد وجلست عليه. كان البرِّاد النحاسي فوق الموقد يغلي ويصدر صَفِيرًا ويتصاعدُ منه البخار الساخن، فبدت وسط البخار كأنها من عالمٍ آخر، وعندما رأى صاحب المقهى المُطرِّزة سارعَ بتقديم برِّادٍ من الشاي الساخن لها، وعندما رأى وجهها شاجِبًا، بادر أيضًا بتقديم كعك العجوة.

كان كبارُ السَّنِّ يتناقشون حول شظايا الرصاص التي خرَّجت من جُثة "شين كاي ليو" بعد حرقها، تلك الشظايا كانت أشبه بزهورٍ

تَفَتَّحَتْ عكس الزَّمَن لتصيب كلَّ مَنْ شاهدها بالدهشة، وقيل إن "شين تشي زا" صَنَعَ من شظيةٍ احتَفَظَتْ بِشَكْلِهَا وَلَوْنِهَا حَلِيَّةً، حيثُ تَقَبَّهَا ثَقْبًا صَغِيرًا ومَرَّرَ فِيهِ حَبَلًا أَحْمَرَ وَاتَّخَذَهَا تَمِيمَةً حَمَايَةَ يَلْبَسُهَا طَوَالَ الْوَقْتِ، أَمَّا بَاقِي الشَّظَايَا فَفَقِدَ وَضْعَهَا مَعَ سَكَكِينِهَا الْمُحِبَّةِ. آمَنَ "شين تشي زا" أَنَّ وَالِدَهُ مُحَارِبٌ، لَكِن كِبَارِ السَّنِ ظَلُّوا فِي حَالَةِ شَكٍّ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ تِلْكَ الشَّظَايَا أُصِيبَ بِهَا بَنِيْرَانِ جَيْشِنَا أَثْنَاءَ هِرْبِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ بَعْدَ هِرْوَبِهِ تَعَرَّضَ لِهَجُومٍ مِنْ قَطَّاعِ الطُّرُقِ فِي الْجَبَلِ، وَتِلْكَ الشَّظَايَا كَانَتْ بِسَبَبِهِمْ، وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ هُوَ مَنْ أَصَابَ نَفْسَهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ سَئِمَ الْقِتَالَ؛ لِأَنَّهُ مَنْ يُصَبُّ يُنْقَلُ إِلَى الْمُسْتَشْفِيَّاتِ بِالْخَطُوطِ الْخَلْفِيَّةِ، وَحِينَهَا يَنْتَهَزُ الْفُرْصَةَ لِلْهِرْوَبِ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ.

وَالنَّقَاشُ حَوْلَ "شين كاي ليو" جَلَبَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ نِقَاشًا حَوْلَ "شين شين لاي"، مَتَى سَيُحَكَّمُ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ؟ لَقَدْ سَمِعُوا أَنَّ هُنَاكَ قَوَانِينٌ جَدِيدَةٌ أَيْضًا خَاصَّةٌ بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْإِعْدَامِ؛ فَلَا حَاجَةَ لِتَلَقُّي الرِّصَاصَاتِ، بَلْ هِيَ حُقْفَةٌ وَاحِدَةٌ تَقْتَلُ مَنْ يَأْخُذُهَا فِي لَمَحِ الْبَصْرِ بَدُونِ أَيِّ أَلْمٍ. وَقَالَ الْجَمِيعُ إِنَّ "شين كاي ليو" لَمْ يَلْحَقْ بِمِيتَةٍ جَيِّدَةٍ، لَكِن "شين شين لاي" فَعَلَّهَا.

وَبِالْحَدِيثِ عَنِ "شين شين لاي"، بَدَأَ كِبَارُ السَّنِّ فِي النَّقَاشِ حَوْلَ الْحِصَانِ الْأَبْيَضِ، لَقَدْ ضَاعَ هَذَا الْحِصَانُ بِسَبَبِ قِيَامِ "أَن بِيْنِخ" بِالْقَبْضِ عَلَى "شين شين لاي"، وَلَمْ يُعْتَرَّ لَهُ عَلَى أَثَرٍ حَتَّى الْآنِ. ثُمَّ التَفَّتِ الْجَمِيعُ نَحْوَ الْمُطْرَرَّةِ وَاخْتَلَطَ كَلَامُهُمْ بِبَعْضِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْحِصَانَ الْأَبْيَضَ رَهْمًا صَارَ طَعَامًا لِلذَّنَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَعَرَّضٌ لِلدَّغَاتِ الْأَفَاعِي السَّامَةِ وَمَاتَ، وَمَنْ قَالَ إِنَّ الدَّبِيَّةَ السَّوْدَاءَ قَدْ تَكُونُ ابْتَلَعَتْهُ، فَبِوَجْهِ عَامٍ كَانَتْ تَخِيلَاتُهُمْ تَنْحَصِرُ فِي أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةَ قَدْ آذَتْ الْحِصَانَ الْأَبْيَضَ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ جَاءَ "لاو يو" الْقَاطِنُ فِي الْمَدْخَلِ الشَّمَالِيِّ، فَقَدْ كَانَ يُحِبُّ الْمَجِيءَ لِلْمَقْهَى

لشُرْبِ الشَّاي السَّاخِنِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَعُودُ فِيهَا مِنْ صَيْدِ السَّمَكِ. وَعِنْدَمَا رَأَى الْمُطْرِزَةَ الْمَوْجُودَةَ قَالَ وَرَائِحَةَ السَّمَكِ تَفُوحُ مِنْ جَسَدِهِ إِنَّهُ كَانَ رَاجِبًا فِي الذَّهَابِ بَحْثًا عَنْهَا، فَقَدْ اكْتَشَفَ فِي الصَّبَاحِ وَهُوَ ذَاهِبٌ لِلصَّيْدِ فِي نَهْرِ "شِيَاوَشِينْغ" عِظَامَ حِصَانٍ فِي غَابَةِ أَشْجَارِ الْبَتُولَا الْبِيضَاءِ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ. وَرَغْمَ أَنْ الصُّقُورَ وَالغُرَبَانَ قَدْ نَقَرْتَهُ حَتَّى قَضَتْ عَلَيْهِ تَمَامًا، إِلَّا أَنَّهُ يُمَكِّنُ مِنْ خِلَالِ الشَّعْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَسَاقِطِ حَوْلَهُ، وَالْحَدَّوَاتِ الْحَدِيدِيَّةِ فِي حَوَافِرِهِ اسْتِنْتَاجُ أَنَّهُ الْحِصَانُ الْأَبْيَضُ الْخَاصُّ بِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَدَّادَ "وَانْغ" بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَ عَنِ صُنْعِ حَدَّوَاتِ الْخَيْلِ، عَرَفَ أَنَّ الْمُطْرِزَةَ تُحِبُّ الْخَيْوَلُ؛ فَقَامَ بِإِهْدَائِهَا الْحَدَّوَاتِ الْمَخْتَلِفَةَ الْبَاقِيَةَ فِي وَرَشَتِهِ، وَكَانَ حِصَانُ الْمُطْرِزَةَ يَضَعُ الْحَدَّوَاتِ الْحَدِيدِيَّةَ الَّتِي صَنَعَهَا الْحَدَّادُ "وَانْغ"، تِلْكَ الْحَدَّوَاتِ ذَاتِ طَابَعِ فَرِيدٍ، وَهُوَ أَنَّ فَتْحَاتِ الْمَسَامِيرِ بِهَا لَيْسَتْ مُسْتَدِيرَةً، وَإِنَّمَا عَلَى شَكْلِ نَجْمَةٍ سُدَّاسِيَّةٍ.

إِنَّ نَهْرَ "شِيَاوَشِينْغ" هُوَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ نَهْرِ "جِيلِوَا"، وَمِيَاهُهُ لَيْسَتْ عَمِيقَةً، وَكَانَتْ الْمُطْرِزَةُ فِي شَبَابِهَا دَائِمًا مَا تَذْهَبُ لَصَيْدِ السَّمَكِ هُنَاكَ، حَامِلَةً مَعَهَا شَوْكَةَ صَيْدِ الْأَسْمَاكِ؛ فَأَسْمَاكُ السُّلُورِ فِيهِ صَخْمَةٌ وَسَمِينَةٌ. وَعِنْدَمَا انْتَهَى "لَاوِ يُو" مِنْ سَرْدِ مَصِيرِ الْحِصَانِ الْأَبْيَضِ، وَضَعَتْ الْمُطْرِزَةُ فَنَجَانَ الشَّايِ جَانِبًا، وَنَادَتْ عَلَى صَاحِبِ الْمَقْهَى لِدَفْعِ الْحَسَابِ، قَائِلَةً إِنَّهَا ذَاهِبَةٌ إِلَى نَهْرِ "شِيَاوَشِينْغ"، فَقَالَ صَاحِبُ الْمَقْهَى: "إِنَّ بَحْثِكَ الْيَوْمَ عَنِ الْحِصَانِ الْأَبْيَضِ يُعَادِلُ الْبَحْثَ عَنِ أَحَدِ الْأَقْرَابِ، وَالْجَمِيعُ سُعْدَاءُ مِنْ أَجْلِ هَذَا، الشَّايِ وَالْكَعْكَ عَلَى حَسَابِي". لَكِنَّ الْمُطْرِزَةَ أَصْرَتْ عَلَى دَفْعِ الْحَسَابِ، بَلْ وَدَفَعَتْ أَيْضًا حَسَابَ الشَّايِ الْخَاصَّ بِـ "لَاوِ يُو"؛ فَفَرِحَ "لَاوِ يُو" حَتَّى ضَاقَتْ عَيْنَاهُ مِنَ السَّعَادَةِ. وَعِنْدَمَا رَأَى صَاحِبُ الْمَقْهَى تَصْمِيمَهَا لَمْ يَعْزِضْ، وَبَعْدَ أَنْ دَفَعَتْ الْحَسَابَ نَهَضَتْ بِيْطَاءً، وَرَفَعَتْ يَدَهَا مُوَدَّعَةً الْجَمِيعِ قَائِلَةً: "اسْتَمْتَعُوا بِوَقْتِكُمْ، أَنَا ذَاهِبَةٌ لِلِقَاءِ حِصَانِي الْأَبْيَضِ". وَسَارَتْ

حتى الباب، ربما كانت أقدامها ثقيلةً، فتعثرت في عتبه، وسقطت في لحظاتٍ وقد لفظت أنفاسها الأخيرة

ووفقًا للقوانين الجديدة المتعلقة بالجناز يتوجب إبلاغ محرقة محافظة "تشينغشان" بأي حالة وفاة تحدث في القرى التابعة للمحافظة في أسرع وقت حتى ترسل المحرقة سيارة موتق لنقل الجثة ثم إعادة الرماد ثانيةً بعد الحرق. وبعد أن حُمِلت جثة المطرزة إلى منزلها، جاء كل كبار السن خلفها لكي يروا شكل السيارة التي سترسلها المحرقة.

لكن "أن بينغ" لم يتصل بالمحرقة، بل انتظر حتى جاء "أن تاي" وتناقشا قليلًا، ثم قررا دفن أمهما في الهواء في نفس مكان اكتشاف عظام الحصان الأبيض على ضفة نهر "شياوشينغ"، ومن أجل إتمام خطتهما بنجاح قاما بتغسيل أمهما، وألبساها الكفن التي كانت قد جهزته لنفسها منذ زمن بعيد، وكذبًا على الناس قائلين إن سيارة المحرقة تعطلت، وسيقودان السيارة بنفسيهما لإيصال الجثة إلى المحرقة، وهكذا عاد جميع كبار السن الذين توافقوا إلى بيوتهم بعد أن ألقوا النظرة الأخيرة على المطرزة. ثم طلب "أن بينغ" من "لاو يو" أن يكون دليلهم، وجاء معهم أيضًا "جيه شي باو"، وقاد "أن تاي" السيارة، وهكذا انطلقوا هم الأربعة في السيارة الجيب يسابقون الريح إلى نهر "شياوشينغ". كان القمر في تلك الليلة بدرًا مضيئًا مثل مصباح سماوي أضاء رحلة المطرزة الأخيرة.

وفي منتصف الليل عثروا على عظام الحصان الأبيض، كانت بين شجرتي بتولا بيضاء متقابلتين، وتلك بالضبط الشجرة التي تحبها المطرزة؛ فهي شجرة لامعة مضيئة مثل الشمعة، وقبل أن يحل الصباح كانوا قد صنعوا سريراً بين الشجرتين غطوه بفروع الصنوبر، ثم أرقدوا المطرزة فوقه، أما عظام الحصان الأبيض فكانت تحت

جَسَدِهَا مِثْلَ كَوْمَةٍ مِنَ الحَطَبِ الجَافِ، تَشْتَعِلُ فِي صَمْتٍ بِفِعْلِ ضَوْءِ القَمَرِ، كَانَتْ المُطْرِزَةُ فَوْقَ الحِصَانِ كَأَنَّهَا تَسْوِقُهُ لِتَخْتَرِقَ بِهِ الغَابَاتِ وَالأنْهَارَ.

في تلك الليلة لم تذهب "أن شويه أر" إلى نهر "شياوشينغ"، فبعد أن سَمِعَتْ أبَاهَا يُودِّعُ جَدَّتَهَا، حملت "ماو بيان" على ظَهْرِهَا وَعَادَتْ لِلوَرشَةِ، وَظَلَّتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ سَاهِمَةً أَمَامَ النَافِذَةِ تَتَطَّلَعُ إِلَى القَمَرِ، وَعِنْدَمَا اخْتَفَى القَمَرُ قُرْبَ الفَجْرِ، حملت "ماو بيان" على ظَهْرِهَا ثَانِيَةً وَعَادَتْ إِلَى مَنْزِلِ طِفُولَتِهَا. وَعِنْدَمَا عَادَ "أن بينغ" وَرَأَاهَا، لَمْ يُخْبِرْهَا بِأَمْرِ دَفْنِ المُطْرِزَةِ فِي الهَوَاءِ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَهَا أَنَّ الصَّقِيحَ نَزَلَ فِي الجِبَالِ، ثُمَّ اسْتَدَارَ وَذَهَبَ إِلَى اسْطَبْلِ الخِيُولِ الخَاوِي. فَعَلِمَتْ "أن شويه أر" أَنَّ وَالِدَهَا ذَاهِبٌ إِلَى هُنَاكَ لِيَبْكِي، هِيَ أَيْضًا انْتَابَتْهَا رَغْبَةٌ عَارِمَةٌ فِي البُكَاءِ؛ فَهِيَ لَنْ تَرَى المُطْرِزَةَ ثَانِيَةً، لَكِنهَا لَمْ تَجْرُؤْ عَلَى البُكَاءِ حَشِيَّةَ إِفْزَاعِ "ماو بيان".

لَكِنَّ أَمْرَ دَفْنِ المُطْرِزَةِ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ انْتَشَرَ فِي النِّهَايَةِ، وَأَلْقَتِ السُّلْطَاتُ بِاللُّومِ عَلَى "أن تاي" بِصِفَتِهِ عُمْدَةَ قَرْيَةٍ، وَذَكَرَتْ أَنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى المَبَادِي، وَلَا يَصْلُحُ لِإِعَادَةِ تَعْيِينِهِ، فَنَقَلُوهُ إِلَى مَجْلِسِ نُوَابِ القَرْيَةِ لِيَشْغَلَ مَنَصِبَ رَئِيسِ قِسْمٍ بِهِ. فَشَعَرَ "أن بينغ" بِالظُّلْمِ الوَاقِعِ عَلَى أَخِيهِ؛ وَمَنْ تَمَّ تَوَجُّهُ لِلجَنَةِ المَحَافِظَةِ لِيَعْتَرِفَ أَنَّهُ هُوَ المَسْئُولُ عَنِ دَفْنِ أُمِّهِ وَأَنَّ أَخَاهُ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالأَمْرِ، لَكِن هَذَا التَفْسِيرُ كَانَ بِلَا طَائِلٍ؛ فَالْعُمْدَةُ الجَدِيدُ جَاءَ بِسُرْعَةٍ، وَكَانَ حَفِيدَ خَالِ سَكْرَتِيرِ لَجَنَةِ المَحَافِظَةِ، وَقِيلَ إِنْ السَكْرَتِيرُ كَانَ يَرِغِبُ مِنْذُ فِتْرَةٍ فِي تَعْيِينِ أَحَدِ أَقَارِبِهِ لَكِنهُ لَمْ يَجِدْ حِجَّةً مَنَاسِبَةً، أَمَّا الآنَ فَقد قَدَّمَ لَهُ "أن تاي" الحُجَّةَ عَلَى طَبَقٍ مِنْ ذَهَبٍ.

شَعَرَ كُلُّ النَّاسِ بِالظُّلْمِ الوَاقِعِ عَلَى "أن تاي"؛ فَوَالِدُهُ بَطْلٌ، وَابْنُهُ بَطْلٌ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ قَوْمِيَّةَ "الأِيلُوينْتشُوين" لَدَيْهَا عَادَةُ الدَّفْنِ فِي

الهواء؛ لذا، حتى لو كان أخطأ فلا يَجِبُ عَزْلُهُ من منصب العمدة،  
أما "أن تاي" نفسه فلم يَعْرِضْ، وقال إن رقوداً أمه في مئوآها الأخير  
مع حصانها الأبيض المحبوب هو أمرٌ يَسْتَحِقُّ أن يُبذَلَ من أجله أيّ  
عناء.

وبعد أكثر من ثلاثة شهور من وفاة المُطْرِزَة، ومع اقتراب العام  
الجديد، صدر الحُكْمُ الابتدائيُّ بالإعدام على "شين شين لاي"، لكن  
أحدًا لم يتخيَّل أنه لم يطعن على الحُكْم في الوَقْتِ المُحدَّد، وعندما  
حضرت "أن شويه أر" جلسةَ المُحاكَمَة باعتبارها ضحيَّةً، ورغم أن "شين  
شين لاي" اعترف بجريمة اغتصابها ولم يُنكرها، إلا أنها وقفت في قاعة  
المحكمة وأنكرت الأمر، وعندما سألتها المدعي العام عما إذا كانت  
تعرضت للاغتصاب أم لا، هزت رأسها نافيةً، وقالت إن السماء ارتأت  
أن تهبها طفلًا؛ لذلك أهداها "شين شين لاي" ابنها "ماو بيان". أما  
أسرة "وانغ شيو مان" فقد أرسلت كتابًا موقِّعًا بأسمائهم جميعًا إلى  
المحكمة يطالبون فيه بتوقيع أقصى العقوبة على "شين شين لاي"؛  
حتى يدفعَ القاتِلُ حياته ثمَّنًا لما ارتكب.

وتمَّ تنفيذ حُكْم الإعدام على "شين شين لاي" في مدينة "سونغشان"،  
وكان هذا في الشهر الأخير من العام القمري. وعاد "شياو جيانغ"  
برماد جُنَّة "شين شين لاي"، باعتباره مُمثِّلًا عن محكمة محافظة  
"تشينغشان"، وسلَّمها لـ "شين تشي زا"، وعندما عاد "شياو جيانغ"  
أخبرَ الجميع أن الشرطيَّ المسؤول عن تنفيذ حكم الإعدام على  
"شين شين لاي" قال إنه عندما حقنَه بذلك الدَّواء الأسود القاتِل  
تَوَرَّدَ وَجْهُه فجأةً مثل الطفل الرضيع وأصبح جميلًا للغاية، لكن  
هذا اللون انحسرَ بسرعةٍ مثل الجَزُر، ثم توقَّف عن التَّنْفُس وبهتَ  
لون وجهه مثل ورقة جافَّةٍ هَوَتْ في جُبِّ عميق. كما سمع "شياو  
جيانغ" أيضًا أن "شين شين لاي" عندما صعدَ إلى السيارة لنقله لتنفيذ  
الحُكْم لم يُصدِّق أن مَوعدَ مَوْتِه حان حقًّا؛ فظَلَّت ابتسامه ساخرةً

تعلو وجهه طوال الوقت وهو يحلم أن شخصًا سيأتي ويُحرّره، وكانت كلمته الأخيرة هي: "سيأمرُكم أحدُهم على الفور برُفَعِ السُّكِّين عن رقبتي، انتظروا وسترون".

في الحقيقة تقدّم كُلُّ من "شين تشي زا" و"أن شويه أر" بطَلَبِ رؤية "شين شين لاي" للمرّة الأخيرة، حيث كان "شين تشي زا" يرعَبُ في إعطائه فطيرة "الدوفو" حتى يرحل في رحلته الأخيرة وبِطَنِهِ الوَجِبَةُ التي يُحِبُّهَا، أمّا "أن شويه أر" فقد رَغِبَت في أخذ "ماو بيان" معها ليلتقطوا هم الثلاثة صورةً جماعيّةً، لكن "شين شين لاي" رَفَضَ لقاءهما، قائلاً إنه سيعيش؛ فلا داعي لوداع الموتِ هذا.

وفي نفس اليوم الذي نُفِذ فيه حُكْم الإعدام على "شين شين لاي"، أجرى "تشين جين جو" عمليّةً ناجحةً لنقلِ كُليّةٍ في مستشفى كلية الطب بمدينة "لين"، ولم تُفصح المستشفى ولا أسرة "تشين" عن مصدر الكُليّة.

وعندما تسلّم "شين تشي زا" رمادَ "شين شين لاي" من مَحَكَمَة محافظة "تشينغشان"، دَفَع - وفقًا للتعليمات - رسومَ حَرَقِ الجُثَّة، ومَنَ عُلْبَةَ الرَّمَاد. وأثناء دفع الرسوم طاف بخياله مَشْهُدُهُ وهو يدفع له مصاريف المدرسة، فارتعش قلبُه وانتحبَ بصوتٍ عالٍ، وبعدها لم يجرؤ على دفنه؛ فأهالي القرية يرون أن الميِّتَ فجأةً لا ينبغي أن يكون له قَبْرٌ، والسَّبب الثاني أن أخا "وانغ شيو مان" الأصغر قد أقسم بِغِلْظَةٍ أنه لو وُورِيَ "شين شين لاي" التُّرَى فَسَيُحَطَّم قَبْرُهُ وينبشه ويأخذ رماده لينثره في حظيرة الخنازير.

وهكذا نثر "شين تشي زا" رَمَادَ "شين شين لاي" في الغابة بجوار قبر جَدِّه "شين كاي ليو"، كان الثلج يغطّي أرض الغابة، فاختلط الرماد بالثلج الأبيض، وشعر "شين تشي زا" أنّ هذا الرَّمَادَ هو ثَلَجٌ يَنْثُرُهُ المرءُ



لِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ لَنْ يَخْتَلِطَ أَبَدًا بِالثَّلْجِ الْحَقِيقِيِّ بِسَبَبِ رَائِحَةِ التَّرَابِ  
الَّتِي يَحْمِلُهَا.

وبعد أكثر من شهر من إعدام "شين شين لاي" عاد "تشين جين جو" إلى "سونغشان" ليجد نفسه قد خرج من مأزقٍ كي يقع في آخر.  
كانت "شو جين لينغ" قد وضعت كلَّ المُقتنِيات الثَّمينة لديها في منزل ابنها؛ نظرًا لمُصاحَبَتِهَا الدَّائِمَةَ لزوجها في مدينة "لين"، حيث فكَرَّت أن اللصوص لو اقتحموا المنزل فلن يجدوا ما يسرقونه؛ فبيوت المسؤولين تصيرُ هدفًا للصوص بمجرد أن تُخفف الحراسة عليها؛ لذلك تعرّض منزل "تشين جين جو" لمحاوَلَتِي سرقة، لكنَّ كِلَيْتَهُمَا عاد فيهما اللصوص بخُفْي حُنِين، فلم يسرقوا إلا بعض السجائر والخمور الغالية ومزهريات الكريستال، وجهاز فاكس، وأباريق نحاسيةً وجهاز كمبيوتر. وعندما سمع لصٌ يتخذ من شراء الأشياء المُستعملة ستارًا لعمَلِهِ بالأمر لم يُصدّق أن منزل "تشين جين جو" خالٍ من الأشياء القِيَمَة؛ لذلك ذهب لسرقة منزله والثَّقة تملأ قلبه، وفتش في كلِّ رُكنٍ وزاوية فيه، فلمَّا لم يجد أي شيء، خلع السقف المُعلّق الموجود بالمرحاض، ورغم أنه لم يجد الذهب والفضة والكنوز التي كان يتطلّع لها، إلا أنه عثر على مُفكِّرة حمراء مكتوب على صفحتها الأولى اسم "شو جين لينغ"، وعندما فتحها وجد أن صاحبَتَهَا سجَّلت فيها بدقة سجلاً للهدايا والنقود التي تلقتَها، ومن الذي أهداها، ومتى أهداها، وعددها، وقيمتها، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك علامات غريبة موجودة بعدها، مثل علامة "صح" خضراء أو علامة استفهام حمراء، فأحصى هذا اللصُّ ما في المُفكِّرة فوجد أن ما فيها مَجْموعُهُ 4 ملايين و700 ألف يوان، وثمانون ألف دولار، وعشرون ألف يورو وثلاثون ألف دولار هونج كونج، وتسع ساعات ثمينة من ماركات مختلفة، و110 قطعة من الحليّ الفضيّة والذهبيّة والجواهر. فسرق اللص تلك المُفكِّرة لأنه حصل على كَنزٍ ثمين؛ وذلك كي يبتزَّ بها "تشين جين جو"

ليحصل منه على ثروة، لكنه لم يتخيّل أن يعثر ابنه الصغير الذي لا يزال في المدرسة الابتدائية على تلك المفكّرة، فاعتقد أنها من الأشياء القديمة التي جلبها والده ولا قيمة لها، لكنه وجد أوراقها جميلة، فمنها الأصفر الكناري، والوردي والأزرق بلون البحر والأخضر الفاتح، فمزق تلك الأوراق وصنع منها طائراتٍ ورقيّةً لعب بها هو وزملائه في الفسحة بين الحصص، فسقطت طائرةٌ منه في الشرفة، وراها أحدُ المدرّسين واكتشف السّر الذي فيها؛ فجمّع كلّ تلك الطائرات ونسخ منها عدّة نُسخٍ وأرسلها للجهات المعنيّة. وعند ذوبان الجليد، جاءت إلى مدينة "سونغشان" لجنة الانضباط من مدينة "لين" فأحدثت زلزالاً بين أوساط المسؤولين في المدينة، وحقّقت مع الكثير من المسؤولين المتورّطين، وفي النهاية أصدرت النيابة العامّة أمراً بالقبض على "تشين جين جو" وزوجته و"تشين تشينغ باي".

وهكذا صار وقوع "تشين جين جو" في قبضة العدالة هو حديث السّاعة لدى أهالي قرية "لونغ تشان" في ذلك الربيع. حيث يمكن القول إن سقوط أسرة "تشين" كان سُقوطاً مُدوياً؛ فأخوه "تشين ين جو" تمّ التحقيق معه أيضاً لتورّطه في القضية، أمّا "تشين ماي تشين" فلما رأت الأمور لا تجري على ما يُرام استقالت من منصب مدير السوق الجنوبية، مُتعلّلةً بأسبابٍ صحيّة. أمّا "تانغ هان تشينغ" فلم تكن تربطه أيّ علاقات ماليّة مع أسرة "تشينغ"؛ فقد كان مُقيّداً لزوجته بشكل جيد؛ لذلك كان هو الوحيد الذي بقي في منصبه كعمدّة للقرية، لكن الجميع قالوا إن هذا لن يستمرّ طويلاً بعد أن فُقدَ الجبل الذي يستند إليه.

لم يكن "تانغ هان تشينغ" يخشى فُقدان السّلطة، بل كان أكثر ما يخشاه هو فُقدان الجبال الخضراء والمياه الصافية؛ لذلك بنى معبداً لإله الأرض فوق قِمّة جبل التنين بين تلك الصّخرتين الضّخمتين؛ وذلك نَصْرَعاً لإله الأرض كي يحمي قرية "لونغ تشان" كي لا تصير مناجم؛ لأن

ذلك المهندس الجيولوجي بعد أن عاد إلى مدينة "لين"، أرسل بعدها تباغاً فريقين جيولوجيين للاستكشاف، وهناك من قال إنهم اكتشفوا مناجم ذهب، وهناك من قال إنهم اكتشفوا مناجم كروم، وكلما تحدث الناس عن اكتشاف مناجم اضطرب قلب "تانغ هان تشينغ"، وأصابه الفزع كأن المناجم هي هياكل عظيمة تُثير الرعب.

كان تمثال إله الأرض المصنوع من الطين الملون والموضوع بالمعبد بارتفاع نصف قامة إنسان. ويغطيه جلباب أزرق، فوقه عباءة حمراء مذهبة، ويُعلق على جسده ثمرة قرع، وبيده مسبحة، وأذناه متدليتان، ونظراته متسامحة طيبة، وشاربه مثل ضوء القمر، وهيتته مثل بودا؛ مما يعطي للناس إحساساً بالدفاء. وبجوار التمثال مُعلّقة لافتان متقابلتان كتبهما "تانغ هان تشينغ"، الأولى هي: "وجود الجبال الخضراء يضمن ماشيةً قويّة"، والثانية هي: "وجود مياه نظيفة يضمن أسماكاً سمينة"، وفوقهما بالعرض لافتة: "لونغ تشان الهادئة"، ومنذ بناء ذلك المعبد صار هناك دائماً أشخاص يذهبون إليه حاملين البخور ولحوم الدجاج والبط والأسماك، مُتضرّعين لإله الأرض. وكانت طلبات الناس مُتنوّعة، فمن لديهم عُرس يتمنون زواجاً هانئاً، ومن لديهم ماتم يتمنون مصيراً أفضل للذرية، ومن يبنون منزلاً يتمنون التوفيق، والضعفاء والمرضى يتمنون الصّحة، والراغبون في الزواج يتمنون حظاً في العثور على شريك الحياة، والمزارعون يتمنون حصاداً وفيراً، والمحرومون من الأبناء يتمنون ابناً، والمتطلّعون للسلطة يتمنون منصّباً، وهكذا لم ينقطع البخور من معبد إله الأرض، ولم تنقطع القرابين من على المذبح المستطيل الموضوع أسفل التمثال، وكل تلك القرابين كان مصيرها في النهاية هو منزل العمّة "دان سيه".

أرسل "تانغ هان تشينغ" الفتى "دان شيا" ليهتمّ بالمعبد، وحدّد له مُرتباً خمسمائة يوان كل شهر، فكان "دان شيا" يصعدُ الجبل كل صباح ليكنس المعبد، ويعود في المساء إلى المنزل دون أن تمنعه رياح

أو تُعيقه أمطاراً. وفي البداية لم يجرؤ على لمس القرابين، بعدها أخبره "تانغ هان تشين" أنه يتوجّب عليه أخذها على الفور دون تأخير، وإلاً فإنها ستجذب الحيوانات البرية إلى داخل المعبد؛ ممّا سيُغضب إله الأرض، فسَمِعَ "دان شيا" كلامَ العُمدة، وصار يحمل معه في سَلْتِه كل مساء كل أنواع القرابين؛ فأصبح الدَّجاجُ والبَطُّ لا ينقطعان عن منزل العَمّة "دان سيه"، وفاحت فيه روائح الفواكه العَطِرة، وصارت أيّامها أفضل بكثيرٍ، كما تحسّن لون وجهها كثيراً، وكذلك زاد وزن "دان شيا"، وكان كل أهالي القرية لا يمانعون في إشراف "دان شيا" على المعبد؛ لأن كل قربان يُقدّمونه هناك لإله الأرض كان بمثابة مُساعدة للعَمّة "دان سيه"؛ ممّا يضعه في ميزان حسناتهم، كلهم إلا المرأة المدخنة.

فقد رأت المرأة المدخنة أن إشراف أبلّة على المعبد سيُصيب إله الأرض نفسه بالبَلّة، ولن يصير له أيُّ كراماتٍ، ورأت أنها هي الأحقُّ بالإشراف على المعبد؛ لأنها سمراء مُتريّة، وشكلها أشبه بسيّدة الأرض، إذن فهي الأنسب لخدمَةِ سيّد الأرض، ورغم كل هذا الغلّ الذي يعتمل في صدرها، إلا أنّها حجّت مرّتين لإله الأرض، ولكنها في كل مرة لا تأخذ معها قرابين، بل تكتفي فقط بالبخور، فتذهب لحرق البخور والسُّجود، راجيةً منه مساعدتها ليُجعل "لين دا هوا" تتقبّل "شياو جيانغ" ويصير زَوْجَ ابنتها، كما نذرت أن تذبح خنزيراً وتُقدّمه قُرباناً هنا إذا ما بارك إله الأرض زواج "شياو جيانغ" من "لين دا هوا".

كان "شياو جيانغ" يسعى خلف "لين دا هوا" بمشاعر فيّاضة من كل قلبه، إلا أنها لم تسمح له حتى بمسك يدها، واعتقد هو في البداية أن هذا راجعٌ لنقائها وعِفّتها، لكنه بعدها أدرك اعتلالَ نفسيتها فاستشاط غضباً ولم يعد مُثابراً كما كان، وهذا الأمر أقلق المرأة المدخنة، فصارت كلّما حلّت عطلة نهاية الأسبوع، تتهادي ذهاباً وإياباً في الطريق تترقّب ظهور "شياو جيانغ" في ملابسه السوداء بالكامل، وعندما لا يأتي تسبُّ تحت أضواء الغسق "تانغ هان تشينغ" قائلةً

إنه ما كان يجب أن يبني معبدَ إلهِ الأرض فوق قَمَّةِ جبلِ التنين، بل كان يجب أن يبنيه في مكانٍ آخر مثل مدخل القرية؛ وبهذا يمكنها طلب مساعدة إله الأرض في أيِّ مكانٍ وزمان.

أما بالنسبة لقضية "تشين جين جو" فكانت مُتشابِكَةً ومُعقَّدة ومُتراميَّة الأطراف؛ لذلك لم تبدأ المحاكمة رغم مرور نصف عام على بدء القضية. فرغم ورود أسماء عديدة في القائمة السوداء بمفكرة أسرة "تشين جين جو"، إلا أن قِلَّةً قليلة اعترفت بإعطاء الرشوة، بينما قال الجميع إن "شو جين لينغ" أخطأت في التَّسجيل، أما "تشين ماي تشين" فقد استخدمت كلَّ ما تملك لكي تُقلِّل من تلك الكارثة، فذهبت لمدينة "لين" ثلاث مرَّاتٍ؛ رغبةً منها في استخدام المال لتقليل المشاكل الكبيرة، وذلك عبر وسيط، لكنَّ الوسيط قال إن تلك القضية هي قضيةٌ كُبرى تمَّ الإبلاغ عنها من قِبَل شخصٍ معلوم الهوية، ويجب أن يتمَّ التحقيق فيها حتى النهاية؛ فقَدَّت "تشين ماي تشين" الأمل تمامًا، وبعد عودتها لقرية "لونغ تشان" أصبحت تتزيَّن يوميًا، وتُرغم نَفْسَهَا على الذهاب للسوق الجنوبيَّة لتتجوَّل فيه وتُقابل النَّاسَ بابتسامةٍ، وتُحييهم بحرارة، كل هذا لكي تُظهِر أن أسرة "تشين" لم تُغرق بالكامل، لكنَّ الناس أدركوا أن وجهها المتورِّد هو عبارة عن بودة خدود، وأن شَفَتَيْهَا الزَّاهيَتَيْنِ هما بفضل أحمر الشُّفاه؛ فملاحها المبتسمة عَجَزَت عن إخفاء البرودة واليأس القابِعَيْنِ في أعماق قلبها، وفي ذلك الوقت لم تُعد مهتمَّةً بـ "تانغ ماي".

بعد أن مرَّ "شين تشي زا" بتجربةٍ مقلِّتٍ زوجته ووفاة والده وإعدام ابنه، نَحَفَ جَسَدُهُ، وصار أكثر صمْتًا، لكنه ظلَّ يذبح الخنازير، ويُحِبُّ تدخين السجائر المُشعَّلة بنيران الشمس. وفي كل صباح يذهب لغرفة والده ليُطعم "أيتزيه" الذي ظلَّ يحرس المكان بعد رحيل "شين كاي ليو"، وعندما حلَّ الربيع وتفتَّحت الزهور ومَرَّ على مقتل "وانغ شيو مان" عامٌ كاملٌ؛ ازداد تردُّد "شين تشي زا" على

معصرة الزُّيوت الخاصَّة بـ "جين سو تشوو"، وتَهَامَس الجميعُ أنه يستعدُّ لطلبِ الزَّواجِ منها.

واستمرَّت إشاعات زواجهما، ولم تصبح حقيقةً، إلَّا في منتصف الخريف.

فذات يوم ذهب "شين تشي زا" لرؤية "جين سو تشوو"، فرآه "لي لاي تشينغ" يركن دراجتَه النارية خارج الفناء، فاستغلَّ عدم انتباهه ومزَّقَ إطار الدَّرَاجة بسكينه، كان هدفه من هذا أن يجعله يغرُب من المكان ولا يعود إليه، لكن عندما حلَّ المساء وأراد "شين تشي زا" العودةً لقرية "لونغ تشان" اكتشَفَ أن الدَّرَاجة غير صالحة للركوب؛ فاضطرَّ للبقاء في منزلها. تلك الليلة جعلت من الصَّعب أن يفتَرِّقًا أبدًا. لم يُقيما حفلَ زفاف، بل صنعت "جين سو تشوو" في المعصرة عشرين جين من الفطائر المقلَّية، ودَعَت أهالي القرية الثالثة لتناولها، وكأنها بذلك وزَّعت حلوى العُرس، أمَّا "شين تشي زا" فقد ذبح خنزيرًا في مَجَزِرِه، وقطَّعه قِطْعًا صغيرة، وأهداه لكل أصدقائه وأحابيه؛ وبهذا كأنه هو أيضًا وزَّع حلوى العُرس، وعاشا في رومانسية، فظلَّ هو في قرية "لونغ تشان" يذبح الخنازير، وظلَّت هي في القرية الثالثة تُبَاشِرُ مَعَصِرَتها، وإذا ما صادف أحدهما وقتَ فَرَاغٍ يذهب للآخر. وكان أكثر مَنْ تخشى "جين سو تشوو" رؤيته حين تأتي إلى قرية "لونغ تشان" هي "تشين يوان"؛ فهي تتبَعُها كظِلِّها، ولا تتركها تنفرد بـ "شين تشي زا"، وإذا ما أرادت "جين سو تشوو" قضاء اللَّيْلَةِ عنده يتوجَّب عليها أن تتصنَّع الرِّحيل والخروج للشَّوارع لتجوبها قليلًا، ولا تعود إلَّا بعد أن يُلَاطِفَ "شين تشي زا" تلك الفتاة كي تعود إلى بيتها.

وقُربَ نهاية سبتمبر، جاء رجلٌ روسيٌّ يدعى "تيموروف" إلى قرية "لونغ تشان"، ونَزَلَ في نُزُلِ الشَّمس الحمراء. كان في الخمسين من العمر تقريبًا، مُتوسِّط القامة، ذا حاجبين كثيفين وعيون زرقاء رمادية

وَأَنْفٍ ضَخْمٍ وَشَفَتَيْنِ غَلِيظَتَيْنِ وَشَعْرٍ أَسْوَدَ وَلِحْيَةٍ صَفْرَاءَ، يُعْرَفُ مِنَ النَّظَرَةِ الْأُولَى أَنَّهُ هَجِينٌ. كَانَ يَحْمِلُ جَوَارَ سَفَرٍ رُوسِيٍّ، وَيَتَحَدَّثُ قَلِيلًا مِنَ الصِّينِيَّةِ، وَعِنْدَمَا سَأَلْتَهُ "لِيُو شِيَاو هُونِغ" إِنْ كَانَ جَاءَ لِلسِّيَاحَةِ أَمْ لِلتَّجَارَةِ؟ هَزَّ رَأْسَهُ نَافِيًا، وَقَالَ إِنَّهُ جَاءَ بَحْثًا عَنْ شَخْصٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يُفْصِحْ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ، وَإِنَّمَا بَعْدَ أَنْ تَسَكَّعَ فِي حَانَاتِ السُّوقِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَشَرِبَ الخَمْرَ هُنَاكَ لثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَدَأَ فِي تَقْصِيِّ أَخْبَارِ "شِين يُونِغ كُو" وَ"شِين تَشِي زَا"، فَأَخْبَرَهُ النَّاسُ أَنَّ "شِين يُونِغ كُو" مَاتَ، وَ"شِين تَشِي زَا" جَزَّارٌ يَسْكُنُ فِي أَدْنَى مَنطِقَةِ الْمَدْخَلِ الشَّمَالِيِّ، وَهُنَاكَ مَجَزَّرٌ أَمَامَ مَنْزِلِهِ.

دَخَلَ "تِيْمُورُوفُ" إِلَى العُرْفَةِ وَوَضَعَ مَا بِيَدِهِ مِنْ مَأْكُولَاتٍ عَلَى الْمِنْضَدَةِ وَقَرَّكَ يَدَيْهِ ثُمَّ ابْتَسَمَ لـ "شِين تَشِي زَا". كَانَتْ ابْتِسَامَتُهُ تُخْفِي وَرَاءَهَا أَمْرًا، فَاقْشَعَرَ جَسْدُ "شِين تَشِي زَا" قَلِيلًا وَسَأَلَهُ لِمَاذَا يَبْحَثُ عَنْهُ؟ فَفَتَحَ "تِيْمُورُوفُ" يَدَيْهِ وَقَالَ إِنَّهُ يَبْحَثُ عَنْهُ لِيَشْرَبَ مَعَهُ الخَمْرَ، إِنَّهُ فَقَطْ يَرَعَبُ فِي شُرْبِ الخَمْرِ مَعَهُ لِأَنَّهُ يَرِيدُ شُرْبَ خَمْرِ أُخُوَّةٍ، فَلَمْ يَفْهَمْ "شِين تَشِي زَا" مَا يَقْصِدُهُ، وَسَأَلَهُ مَا هِيَ خَمْرُ الْأُخُوَّةِ؟ فَقَالَ "تِيْمُورُوفُ" إِنْ خَمَرَ الْأُخُوَّةِ هِيَ خَمْرُ الْأُخُوَّةِ، فَلَمْ يَفْهَمْ "شِين تَشِي زَا"، لَكِنَّهُ فَكَّرَ أَنَّ شُرْبَ الخَمْرِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْجَلَلِ؛ لِذَا بَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنْ تَدْخِينِ السِّيَجَارَةِ أَطْفَأَ عَقَبَهَا فِي نَعْلِ حِذَائِهِ وَجَلَسَ لِيَشْرَبَ الخَمْرَ مَعَ "تِيْمُورُوفُ".

جَلَسَا يَتَبَادَلَانِ الْحَدِيثَ أَثْنَاءَ شُرْبِ الخَمْرِ، فَعَرَفَ "شِين تَشِي زَا" أَنَّهُ مُزَارِعٌ، وَيَسْكُنُ فِي قَرْيَةٍ فِي "سِيْبِيرِيَا" يَقْطِنُهَا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ نَسْمَةٍ، وَلَدَيْهِ زَوْجَةٌ أَصْغَرُ مِنْهُ بِأَرْبَعِ سِنِينَ، وَلَدِيَهُمَا ابْنٌ وَابْنَتَانِ. وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنْ سَرْدِ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ، بَدَأَ يَسْتَعْرِضُ مَهَارَاتِهِ مِثْلَ فَنَائِ مِتْجَوُّلٍ، فَتَارَةً يُغْنِي وَتَارَةً يَرْقِصُ، وَبَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ كُلِّ فِقْرَةٍ يَعُودُ لِمَقْعَدِهِ لِيَضْرِبَ كَأْسَهُ بِكَأْسِ "شِين تَشِي زَا" وَيُصَفِّقُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ "شِين تَشِي زَا" مَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْإِعْجَابِ بِهَذَا الرَّجُلِ الْبَسِيطِ

المُبْهَج. وَقُرِبَ الْعَسَقُ كَمَا قَدْ انْتَهَى مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ، وَتَنَاوَلَ اللَّحْمَ، فَمَسَحَ "تِيمُورُوفُ" الدُّهْنَ مِنْ عَلَى كَفِّهِ بِاسْتِخْدَامِ مَنَدِيلٍ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِ مَلَابِسِهِ الْعُلُويَّةَ ثَلَاثَ صُورٍ، اثْنَتَانِ بِالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ، وَوَاحِدَةٌ بِالْأَلْوَانِ، وَنَاوَلَهُمْ لـ "شِين تَشِي زَا".

كَانَتْ إِحْدَى الصُّورَتَيْنِ بِالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ صُورَةً فَرْدِيَّةً، وَالثَّانِيَةَ صُورَةً جَمَاعِيَّةً، وَشَعَرَ "شِين تَشِي زَا" كَأَنَّهُ رَأَى مِنْ قَبْلِ الْمَرْأَةِ فِي مَنْتَصَفِ الْعُمُرِ الْمَوْجُودَةَ بِالصُّورَةِ الْفَرْدِيَّةِ، كَانَتْ تَجْلِسُ فِي حَقْلِ قَمَحٍ بَعْدَ حَصَادِهِ وَرَأْسَهَا تَلَامِسُ السَّحَابِ وَتَرْتَدِي مَنَدِيلًا مُنْتَأًا عَلَى رَأْسِهَا، وَلَهَا وَجْهُ بَيَاضًا وَأَنْفٌ وَذَقْنٌ صَغِيرَانِ، وَنظَرَاتٌ صَافِيَةٌ، لَكِنْ فِيهَا لَمْسَةٌ اِكْتِنَابٍ، وَتَحْمَلُ السُّحَرَ وَالْجَمَالَ الشَّرْقِيَّ، أَمَّا الصُّورَةُ الْآخَرَى فَكَانَتْ تَحْمَلُ فِيهَا طِفْلًا وَتَجْلِسُ أَمَامَ النَّافِذَةِ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَرْدٍ، وَقَدْ اسْتَدَارَ وَجْهَهَا كَثِيرًا، وَصَفَّقَتْ شَعْرَهَا كَالْكَعْكَعَةِ اللَّامِعَةِ، وَأَثَارَ الضَّحْكَ تَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهَا، أَمَّا الطِّفْلُ الَّذِي تَحْمَلُهُ بَيْنَ يَدَيْهَا فَكَانَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْعُمُرِ، وَكَانَ سَمِينًا وَقَوِيًّا وَشَكْلُهُ لَطِيفٌ وَمُحَبَّبٌ. أَمَّا الصُّورَةُ الْآخِرَةُ الْمَلُونَةُ فَكَانَتْ لِتِلْكَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ أَنْ شَاخَتْ، فَشَابَ شَعْرُهَا وَمَلَأَتْ التَّجَاعِيدُ وَجْهَهَا، وَصَارَتْ نَظَرَاتُهَا هَادِئَةً، وَتَجْلِسُ فِي الْمَنْتَصَفِ مَعَ مُسْنٍ ذِي لَحْيَةٍ وَعَيُونٍ رَمَادِيَّةٍ وَعَلَى يَمِينِهَا وَيَسَارِهَا يَقِفُ زَوْجَانُ مِنَ الشُّبَابِ وَالشَّابَاتِ، وَتَحْتَ رُكْبَيْهِمَا يَجْلِسُ خَمْسَةٌ أَطْفَالٍ. وَأَشَارَ "تِيمُورُوفُ" إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الصُّورَةِ الْفَرْدِيَّةِ بِالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ، وَقَالَ لـ "شِين تَشِي زَا": "هَذِهِ هِيَ أُمُّنَا"، فَاعْتَقَدَ "شِين تَشِي زَا" أَنَّهُ سَمِعَ خَطَأً، فَقَالَ: "قُلْتِ مَنْ هِيَ؟"، فَأَشَارَ "تِيمُورُوفُ" مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَى الْمَرْأَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِالصُّورَةِ، وَقَالَ: "أُمِّي، أُمُّكَ، أُمَّ وَاحِدَةٌ، "تَشِيوشَانِ أَيْتَزِيَه"، يَابَانِيَّةٌ"، فَأَفَاقَ "شِين تَشِي زَا" تَمَامًا مِنْ أَثَرِ الْخَمْرِ الَّذِي لَعِبَتْ بِرَأْسِهِ، وَنَظَرَ لِلصُّورَةِ فَاغْرَأَ فَاهُ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى "تِيمُورُوفُ"، ثُمَّ جَذَبَهُ إِلَى الْغُرْفَةِ الْدَاخِلِيَّةِ وَوَقَفَ بِجَوَارِهِ أَمَامَ الْمَرْأَةِ الْمُعْلَقَةِ عَلَى الْحَائِطِ الشَّرْقِيِّ، فَاِكْتَشَفَ أَنَّ شَكْلَ وَجْهَيْهِمَا، وَعِظَامَ الْحَاجِبِ وَالشَّفَتَيْنِ مُتَشَابِهَةٌ إِلَى



درجة مثيرة للدهشة، وكان الاختلاف في أن "شين تشي زا" عيونه سوداء، أما "تيموروف" فعيونه زرقاء رَمادِيَّة، فأزاح "تيموروف" وخرج إلى الفناء، حيث كانت الشَّمس الغاربة تغمر الأنحاء بأشِعَّتِها، وأخْرَجَ المرأةَ المُقْعَرَةَ لكي يُشْعِلَ سيجارَةً باستخدام ضوء الشمس، لكنه لم يُفْلِح، فدَخَلَ إلى المَجْزَرِ وأخْرَجَ قِطْعَةً حَطَبٍ من المَوْقِدِ، وأشْعَلَ بها سيجارَةً، وبعد أن انتهى من تدخينها تَوَجَّهَ إلى المنضدة المصنوعة من خشب الصنوبر والتي يرصُّ عليها سكاكين الذَّبْحِ لينظر إلى شظايا الرِّصَاصِ المُسْتَخْرَجَةِ من جسد والده؛ فأصاب الحُزْنَ قَلْبَهُ وانتَحَبَ بصوتٍ عالٍ.

بكاء "شين تشي زا" لم يُفْرِعِ "تيموروف"، الذي تمَدَّدَ على السَّرِيرِ داخل الغرفة وغرق في نومٍ عميق كأنه في منزله.

بعد أن سَمِعَ أهالي قرية "لونغ تشان" بأن "تيموروف" هو ابن "تشوشان أيتزيه" قالوا لحُسْنِ الحَظِّ أن "شين كاي ليو" مات، وإلَّا لكان مات غيظًا عندما يعلم أن المرأة التي أَحَبَّها طوال حياته هَرَبَتْ للضُّفَّةِ المقابلة وتزوَّجَتْ أجنبيًّا، وأنجَبَتْ منه طفلًا، وظَلَّتْ معه حتى تَقَدَّمَما في العمر سويًّا، وذكر "تيموروف" أن والده كان صيِّادًا، وفي ذلك العام في الخريف وبينما هو يصطاد في الجبل اكتشف "تشوشان أيتزيه" التَّائِهَةَ، لقد استغلَّتْ ظِلَالَ العَسَقِ وسَرَقَتْ قارب صيدٍ صغيرٍ وهَرَبَتْ من الصَّينِ عبر النهر، وذهَبَتْ إلى تلك الأرض بحثًا عن زوجها الياباني، فكان المكان الذي هَبَطَتْ فيه على الضُّفَّةِ عبارة عن غابات كثيفة وجبالٍ عالية، وليس فيه بَشَرٍ، فلو لم يَعَثُرْ عليها "تيموروف الأب" لَلَقِيَتْ حَتْفَهَا منذ زَمَنٍ، وقتها كان "تيموروف الأب" يعاني من عدم وجود امرأةٍ في حياته، فأنقذها، وأخَذَهَا إلى بَيْتِ صَغِيرٍ وسط الغابة، ثم أضاف "تيموروف الابن" أنَّهُ هناك عِدَّةُ أقاويلٍ في القرية حول كيفية إخضاع والده لتلك المرأة اليابانية، لكن بَعْضُ

النظر عمًا قيل، فإن "تشيوشان أيتزيه" أنجبت لوالده في ذلك البيت الصغير ولدًا وبناتًا، هما: "تيموروف" وأخته الصغرى.

وبعد أن صار لديه زوجة وأطفال خرج "تيموروف الأب" من الغابة وعاد إلى القرية، وعندما رأى تعلق "تشيوشان أيتزيه" بزوجه الياباني وعجزها عن نسيانه؛ طلب من شقيقه الأكبر الموجود في معسكر "سيبريا" أن يتحسس أخباره، والنتيجة كانت مفرحة لـ "تيموروف الأب" كثيرًا؛ فالزوج الياباني مات مُتجمدًا أثناء تشييده للسكك الحديدية بالاتحاد السوفييتي باعتباره مُجرم حرب، وسجلات وفيات مُجرمي الحرب مذكور فيها اسمه، وجنسيته وسبب الوفاة وصورته. لكن "تشيوشان أيتزيه" لم تصدق ذلك، فأخذها "تيموروف الأب" إلى شقيقه الأكبر ليجعلها ترى بأمر عينيها تلك الصفحة في السجلات، وعندما تأكدت "تشيوشان أيتزيه" من خبر مصرع زوجها الياباني دخلت في اكتئاب لمدة سنتين، وفي النهاية استسلمت لمصيرها، وعاشت أيامًا هادئة مع "تيموروف الأب".

ومنذ أن وعى "تيموروف" على الدنيا وبدأت أمه تُعلمه اللغة الصينية، لكنها لم تقل من قبل أبدًا إن لديها زوجًا وبنًا في الصين، إلى أن توفي "تيموروف الأب"، عندها أخبرت "تيموروف الابن" في أواخر أيامها أن لديه أخًا أكبر منه، اسمه "شين تشي زا"، يقطن في قرية "لونغ تشان" بمنطقة "سونغشان" بالصين. وزوجها الصيني اسمه "شين يونغ كو"، وكان يُعاملها بحُب شديد. وقالت إنها آسفة لهما، وتتمنى إن قابلهما ذات يوم أن ينقل لهما ندمهما، وكان هذا هو الهدف الذي علمت "تيموروف" اللغة الصينية من أجله.

لم يعرف "شين تشي زا" إذا ما كان والده الموارى تحت الثرى سيسامح أمه أم لا، أمًا بالنسبة له فهو لن يُسامحها؛ لذلك بعد أن بكى طويلًا في المجرز في ذلك اليوم، جلب طبقًا من الماء ورشه على

"تيموروف" ليستيقظ، طالِبًا منه الغروبَ عن وجهه، قائلاً إنه في هذه الدنيا ليس لديه سوى أبٍ فقط، وليس له أمٌ ولا أخوة.

وبعد طَرْد "تيموروف"، جاءت "جين سو تشوو"، وبعد أن أخبرها بأمره تَنَهَّدت تنهيدةً طويلة، وقالت: "إِنَّكُمَا مِنْ أُمٍّ وَاحِدَةٍ، وَمَهْمَا كُنْتُمْ غَاضِبًا لَا يَصِحُّ أَنْ تَرُشَّ أَخَاكَ بِالْمَاءِ". فقال "شين تشي زا": "طَرَدَهُ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ كَانَ مِنْ بَابِ الْأَدَبِ، مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنِي لَمْ أَطْرُدْهُ بِاسْتِخْدَامِ السَّاطُورِ". ورغم كلامه الحاد إلا أنه بعد رحيل "تيموروف" عن القرية، تَذَكَّرَ مَلَامِحَهُمَا الْمُتَشَابِهَةَ، وتَذَكَّرَ الْأُمُورَ الطَّرِيفَةَ الَّتِي يَحْكِيهَا أَصْحَابُ الْمَحَلَّاتِ بِالسُّوقِ الْجَنُوبِيَّةِ عَنْ "تيموروف" بعد أن شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، عندها شَعَرَ بِشَيْءٍ مِنْ مَرَارَةِ الْفَقْدِ، حتى إنه ذهب ذات يوم إلى مَعْبَدِ إِلِهِ الْأَرْضِ وَمَعَهُ بَخُورٌ وَلَحْمٌ خَنْزِيرٍ، وهو الذي لم يؤمن بإلهٍ من قبلُ في حياته، وقال الناس إنه يَحْسُدُ "تيموروف" أن لديه ثلاثة أطفال، وهو بدوره يرغب في ذلك، لكنه هو و"جين سو تشوو" قد تجاوزَا سِنَّ الْإِنْجَابِ؛ لذا ذهب إلى إله الأرض راجيًا أن يُظهِرَ لَهُ بَعْضَ الْمَعْجَزَاتِ.

منذ أن أُنْجَبَت "ماو بيان"، أَصْبَحَت "أَنْ شَوِيهِ أُر" تُفَكِّرُ فِي ابْنِهَا أَوَّلًا عِنْدَ الْقِيَامِ بِأَيِّ أَمْرٍ، فلو اشتدَّ الْبَرْدُ تَلَبَّسَهُ مَلَابِسَ أَكْثَرِ أَوَّلًا، ولو دخل الْحَرُّ أَلْبَسَتْهُ قُبْعَةً أَوَّلًا، وإذا نضج الطَّعَامُ تُطْعِمُهُ حَتَّى يَشْبَعَ أَوَّلًا، وعندما تخرج وترى الأطفال الآخرين يرتدون ملابس جديدة على الموضة، تُفَكِّرُ فِي شِرَاءِ قِطْعَةٍ مَلَابِسٍ لـ "ماو بيان"، وعندما ترى الشَّبَابَ يركبون دراجات نارية جميلة، تُفَكِّرُ أَنْ تَشْتَرِيَ لَهُ وَاحِدَةً بعد أن يكبر، وتُسَجِّلُ سِرًّا مَارَكَةَ الدَّرَاجَةِ. و"ماو بيان" لا يُحِبُّ طَعْمَ الْكُمْتَرِي؛ لذلك أَصْبَحَت تَرَى أَنَّ الْكُمْتَرِي هِيَ أَسْوَأُ فَاكِهَةٍ عَلَى الْأَرْضِ بعد أن كانت تُحِبُّهَا، ولم تَعُدْ تَشْتَرِيهَا، ويحب "ماو بيان" معجون الثُّفَّاحِ؛ فَأَصْبَحَت تَرَى كُلَّ ثُفَّاحَةٍ كَأَنَّهَا وَجْهٌ أَحْمَرٌ مَبْتَسِمٌ يَجْبُرُكَ عَلَى حُبِّهِ، وَيُحِبُّ "ماو بيان" عَصِيدَةَ الْبَيْضِ وَمَعْجُونَ الدِّجَاجِ؛ فَأَصْبَحَت

ترى الدجاج أكثر الطيور الداجنة قُربًا للإنسان، وكانت تشتري بكل النقود التي تكسبها من نَحْت الشواهد مُغذيات لـ "ماو بيان" خشيةً ألا تطول قامته، ولم يُخَيَّب "ماو بيان" ظنّها؛ فكانت قامته مُماثلةً لأقرانه، وجَسَدُهُ قَوِيًّا؛ وهذا جَعَلَ قَلْبَ "أن شويه أر" القَلِقَ يهدأ تدريجيًّا، وعندما تَنَحَّت الشواهد في الفناء، يدور "ماو بيان" الذي تَعَلَّمَ المَشْيَ بين الشواهد مثل سنجاب سعيد، وإذا اكتشف مَمَلَّةً أو دودةً على شاهدٍ منها، يمدُّ يَدَهُ الصغيرة السَّمينة ليمسكها، فتهرب الحشرة، لكنَّ لُعبَهُ يسيل على الشواهد؛ لذا تضطرُّ "أن شويه أر" إلى مَسحِها أوَّلًا قبل أن تبدأ في نَقْش الكتابة عليها.

وبعد أن رحلت المُطرزة لم تَعُد "تانغ ماي" تأتي لزيارتها كثيرًا كالسابق، ولم يَعُد لدى "أن شويه أر" صديقٌ مُقَرَّبٌ تحكي له عمّا في قلبها. فكانت تمرُّ أحيانًا بأوقاتٍ ضيقٍ، خاصّةً في ليالي الخريف عندما يتوالى هزيم الرّعد خارج النّافذة مَوْجَةً تلو الأخرى؛ ممّا يجعل مَوجاتٍ من المشاعر تتلاطم في قلبها وتَجَنُّ إلى ما كانت عليه في الماضي، حين كانت ترى القَدَرَ في السُّحْب والصخور والبرق وحتى قطرات الندى، عندما كانت تتحدّث مع الرياح والثلوج والأنهار والأزهار والأشجار والنجوم، لم يكن كلامهم يحتاج إلى ترتيب، بل كان يأتي في كلِّ مكان وزمان، لكن منذ أن طالت قامتها، وخاصّةً بعد أن أنجبت "ماو بيان"، ورغم أن قلبها ظلَّ يخفق لرؤية ضوء الصباح وضباب المساء والجداول والقمر، إلا أن ذلك الإحساس بالتواصل بينها وبين الطبيعة لم يَعُد موجودًا، وعندما كانت تشتاق أثناء الليل لِمَا كانت عليه في الماضي، كانت دموعها تُبَلِّل الوسادة، لكنها تواسي نفسها قائلةً إنّ "ماو بيان" عندها أعلى من كلِّ الموجودات في العالم والطبيعة، إنه بمثابةِ عالمٍ لها، لكنها تظلُّ حزينةً على ما وصلت له الآن. وكانت دائمًا ما تُخْرِجُ ألبومَ الرّسم المصنوع من ورق البامبو لتشاهد تلك السُّفُن المرسومة فيه، وتتطلّع للناس عليها، وتظلُّ في كلِّ

مَرَّةً تُشَاهِدُهُ لِسَاعَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ. وَعِنْدَمَا تَضَعُهُ مِنْ يَدِهَا تَرَى كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهَا أَشْبَهَ بِالسَّفَنِ.

نَزَلَتْ عَلَى قَرْيَةٍ "لُونِغ تَشَان" ثَلَاثَ مَوْجَاتٍ مِنَ الصَّقِيعِ، الْمَوْجَتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةَ كَانَتَا خَفِيفَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْجَةُ الْأَخِيرَةُ فَكَانَتْ شَدِيدَةً. الصَّقِيعُ الْخَفِيفُ أَرْسَلَ زَهْوَرَ الْفَصْلِ الْأَخِيرِ إِلَى الطِّينِ، أَمَّا الصَّقِيعُ الشَّدِيدُ فَقَدْ أَوْقَفَ نَمُوَّ الْمَحَاصِيلِ الزَّرَاعِيَّةِ؛ فَبَدَأَ النَّاسُ فِي جَمْعِ الْبَطَاطِسِ وَاللُّفْتِ وَوَضَعَهَا فِي الْمَخَازِنِ تَحْتَ الْأَرْضِ لِتُخْزِنَ خُضَارَ الشِّتَاءِ، وَبَدَؤُوا فِي قَطْعِ الْمَلْفُوفِ الصِّينِيِّ بِاسْتِخْدَامِ السَّكَاكِينِ لِصُنْعِ الْخُضَارِ الْمَخْلَلِ فِي الْأَيَّامِ الْمُشْمِسَةِ، حَيْثُ يَدْعُونَ الْمَلْحَ وَالْمَاءَ وَضَوْءَ شَمْسِ الشِّتَاءِ تَتَخَمَّرُ فِي هَدْوٍ دَاخِلِ جِرَارِ الْخُضَارِ الْمَخْلَلِ لِيُعَدُّوا الْعُدَّةَ لِتَنَاوُلِ حِسَاءِ اللَّحْمِ الْأَبْيَضِ بِالْخُضَارِ الْمَخْلَلِ حَوْلَ الْمَوْقِدِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ. أَمَّا الْإَوْزُ الَّذِي لَا يَتَحَمَّلُ التِّيَّارَاتِ الْبَارِدَةَ، فَيَطِيرُ فِي السَّمَاءِ مُتَّخِذًا تَشْكِيلَ الرَّقْمِ ثَمَانِيَةَ لِيَهَاجِرَ نَحْوَ الْجَنُوبِ، كَذَلِكَ تَصَمَّتْ أَصْوَاتُ الْحَشْرَاتِ.

لَكِنْ لِلصَّقِيعِ جَانِبٌ رُومَانِسِيٌّ أَيْضًا؛ فَهُوَ يَتَغَلَّغِلُ فِي بَشْرَةِ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ وَيَسْتَحْدِمُ قُبْلَاتِهِ لِيَجْعَلَ الْأَوْرَاقَ ذَاتَ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ الْمُتَعَدِّدَةِ تَتَفَتَّحُ مِثْلَ الزَّهْوَرِ فِي الْخَرِيفِ، فَتَكْتَسِي أَوْرَاقَ الْبَلُوطِ الشَّبِيهَةَ بِالْإِبْرِ بِاللُّوْنِ الْأَصْفَرِ الذَّهَبِيِّ، وَعِنْدَمَا تَهَبُّ رِيَّاحُ الْخَرِيفِ تَتَسَاقَطُ مِنْ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ إِبْرًا ذَهَبِيَّةً، أَمَّا أَوْرَاقُ شَجَرِ الْحُورِ الَّتِي تَأْخُذُ شَكْلَ الْقَلْبِ فَتَصْطَبِغُ بِاللُّوْنِ الْأَحْمَرِ، وَعِنْدَمَا تَهَبُّ عَلَيْهَا رِيَّاحُ الْخَرِيفِ تَتَسَاقَطُ مِنْهَا قُلُوبٌ حُمْرَاءُ، أَمَّا أَكْثَرُ مَا يُذْهِلُ الْعُقُولَ فَهُوَ أَوْرَاقُ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ الْعَرِيضَةِ، فَقُبْلَاتُ الصَّقِيعِ تَخْتَلِفُ فِي دَرَجَتِهَا؛ مِمَّا يَجْعَلُ أَلْوَانَ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ مُتَبَايِنَةً وَغَنِيَّةً، يَخْتَلِطُ فِيهَا الْأَخْضَرُ بِالْأَحْمَرِ، وَالْأَصْفَرُ بِالْوَرْدِيِّ، وَعِنْدَمَا تَهَبُّ عَلَيْهَا رِيَّاحُ الْخَرِيفِ تَتَسَاقَطُ مِنْ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ تِلْكَ لَوْحَةٌ فَنِيَّةٌ صَغِيرَةٌ. فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِنْ وَقَفْتَ أَعْلَى قِمَّةِ جَبَلِ التَّنِينَ وَأَطْلَقْتَ بَصْرَكَ نَحْوَ مَجْمُوعَاتِ الْجِبَالِ لَتَرَى طَبَقَةً مِنَ الْغَابَاتِ الَّتِي تَزَيَّنَتْ بِشَتَّى الْأَلْوَانِ سَتَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ الْأَشْجَارِ الَّتِي

في الجبال تحوَّلت إلى أشجار وردٍ بين ليلةٍ وضحاها، لكن الجمال الذي يصنعه الصَّقيع أشبهُ بسمكة جميلة خرَّجت من الماء، فلا تطول حركة ذيلها ورأسها كثيراً، فرياح الخريف القوية تكنس أوراق الشجر لتُبقي في النهاية الفروع العارية تُقابل السماء. وعندما تسقط أوراق الأشجار يتحوَّل الجمالُ من أعلى الأشجار إلى أسفلها، وتحوَّل أرض الغابة إلى سجادةٍ ناعمة من الزهور لا حدَّ لها، لكن تلك السجادة لا تبقى طويلاً هي الأخرى، فبمجرد حلول الثلج تندفن تمامًا تحته. بدأ الشتاء في طَرْقِ الأبواب.

صار بإمكان "أن شويه أر" تشمُّ رائحة الشتاء؛ فالأيام القليلة التي تصير فيها السماء الزرقاء لا تتواجد فيها أيُّ قطعةٍ سحب، والهواء يختلط ببعض نُدفات الثلج التي تؤلم الأنف إن تنفَّست بعمق، وتنكمش أعناق الدجاج والبط والإوزُ ولا تُحبُّ الخروج من أعشاشها، أمَّا كبارُ السنِّ فيشتكون دائماً من برودة السرير وتزايد مرَّات استيقاظهم ليلاً، وإن لمست الشواهد الحجرية ستجد فيها برودةً تقرص العظام، كذلك ينحف نهر "جيلوا" ويخفُّ صوتُ خرير مائه ويختفي الضباب، تلك الأيام تستمرُّ لمُدَّة سبعة أو ثمانية أيام، بعدها تصبح السماء رماديَّةً، وتبدو الشمس كأنها صَغُرَت حلقةً، وفي اليوم الذي تغيم فيه السماء فجأةً يأتي الثلج، وحلول الثلج لا يُشبه حلولَ المطر؛ فالمطر جَبَانٌ؛ لذا عندما يأتي لعالمِ البَشَر لا بُدَّ من هزيم الرِّعد وسطوع البرق كي يفتحا له الطريقَ أولاً، أمَّا الثلجُ فهو مُستبَدٌّ يشقُّ السماء دون خوف ولا رهبة، ودائماً ما يأتي وحيداً، وبين ليلة وضحاها يُغيِّر لون الأرض. والثلج في بدايته ناعمٌ رقيقٌ فيكون دلائياتٍ ساحرةً فوق فروع الأشجار، فتحوَّل كل أشجار الغابة مرَّةً ثانية إلى أشجار ورد، لكنها في ذلك الوقت لا تُزهر سوى وردٍ أبيض اللون.

وفي السابع عشر من أكتوبر اكفهرت السماء من الصباح الباكر، فشعرت "أن شويه أر" بأن الثلج على وشك القدوم فسارعت بإلباس "ماو بيان" بنطالاً خريفياً وسترة قطنية. وبعد الغداء داعبته حتى نام، وشربت كوباً من الشاي، وما إن جلست أمام النافذة واستعدت لنحت الشواهد، حتى جاءتها "تشين ماي تشين".

كانت "تشين ماي تشين" تصع على جسدها معطفاً أحمر اللون من الصوف، وتحمل في يديها دجاجتين محمّرتين، وإوزة محمّرة، وسلّة من البيض. ولم تكن "أن شويه أر" تتوقّع مجيئها فلم تعرف ماذا تقول. فوضعت "تشين ماي تشين" ما بيدها من طعام، وذهبت أولاً إلى السرير ونظرت إلى "ماو بيان" وأنتت على شكله الذي يبعث على حُبّه بمجرّد النظر، بعدها جلست على حافة السرير واعتذرت لـ "أن شويه أر" أنها كانت مشغولة للغاية، فلم تأتِها بمأكولات تُدرّ اللبن في فترة ما بعد الولادة؛ لذا جاءت الآن لتعوّضها، لكن "أن شويه أر" شعرت أنّ وراءها أمرٌ آخر، فهل ترغّب في نحت شاهد قبرٍ لأخيها مقدّماً؟ فالتاس يقولون إن "تشين جين جو" لو لم يُحكّم عليه بالإعدام، فلن يعيش طويلاً أيضاً بسبب تعرّضه لتلك الكارثة في ظلّ ظروفه الصحية الحالية.

بعد أن انتهت "تشين ماي تشين" من الحديث حول موضوع إدرار اللبن، دخلت في موضوع الطقس، قائلةً إن الجوّ باردٌ في الخارج، ويبدو أن الثلج على وشك النزول، فقالت "أن شويه أر" معقّبة على كلامها: "نعم، مرة ثانية سنمرُّ بشتاءٍ طويل"، فتنهدت "تشين ماي تشين" وقالت: "سعداء الحظّ همّ من بإمكانهم المرور بالشتاء، ولا أعلم إن كان أخي قادراً على قضاء هذا الشتاء أم لا، أيتها المبروكة، أنتِ على علمٍ بما جرى لأسرتي، وأنا أرى أن الوحيدة القادرة على إنقاذ أخي الآن هي أنتِ، ألسيت مبروكة؟ أظهرني كراماتك وأنقذيه، إنك تُحبّين "ماو بيان"، وسأخبركِ بالحقيقة، لقد مات والد "ماو بيان"،

لكن كُليته لا تزال على قيد الحياة، إنها تعيش في جسد أخي، أخي "تشين جين جو" هو جد "ماو بيان"، فلتستخذي كل طُرق المبروكين كي تحفظي حياته، وسنكون نحن كل أسرة "تشين" بكل أجيالها عبيداً تحت أقدامك". انتهت "تشين ماي تشين" من كلامها ورگعت فجأةً أمام "أن شويه أر".

ثم سردت "تشين ماي تشين" على مسامح "أن شويه أر" سرَّ هويَّة "شين شين لاي"، كما أخبرتها أيضاً كيف انتزع "تشين تشينغ باي" كُليته بعد تنفيذ حُكم الإعدام فيه، وطار بها إلى مستشفى كلية الطب بمدينة "لين" لزرعها في جسد "تشين جين جو".

فقالت "أن شويه أر" بصوتٍ مُرتعش: "إذن فوالدُ "ماو بيان" لم يمُت بالكامل؟ لا زال لديه كُلية على قيد الحياة؟".

فقالت "تشين ماي تشين": "نعم، بالضبط، أيتها المبروكة، لو باركت أخي كي لا يموت؛ فإن الجَمَل النَحيف يظلُّ أكبر من الحصان؛ لذا لو تعرّضت أسرة "تشين" لمصائب أكثر فسيظلُّ ظهرها القوي موجوداً، ولن تحتاجي بعدها للقلق بشأن تعليم "ماو بيان"، أو عمله أو شقته أو زواجه، سنتحمّل نحن كلُّ هذا، ولن تحتاجي إلى الشقاء هكذا في نَحْت شواهد القبور".

فقالت "أن شويه أر" بصوتٍ خفيضٍ: "لكنني أحبُّ نَحْت شواهد القبور".

فانتحبت "تشين ماي تشين" بصوتٍ عالٍ، وتوسّلت لها حتى سال كلُّ التبرُّج من على وجهها، وكذلك أفرغت "ماو بيان" فهبَّ جالساً، وعندما رأى عجوزاً في منزله راكعةً على الأرض ووجهها مُلطَّخ وهي تنتحب، أصابه الرُعبُ وشرَع في البكاء. فاحتضنته "أن شويه أر" وربّتت برفيقٍ على رأسه وصاحت: "'ماو بيان"، لا تخف، "ماو بيان"،



لا تَخَفْ"، ثم طلبت من "تشرين ماي تشرين" أن تنهض سريعاً ولا تُفزع الطفل أكثر من هذا.

فسجدت "تشرين ماي تشرين" لها ثلاث مرّات قبل أن تنهض وتضمّ يديها كنوعٍ من تحية الاحترام، ثم تغادر الورشة وهي تتشكّر لها.

وعند الغروب عندما بدأت السماء تُظلم، جاء الثلج، فلاعبت "أن شويه أر" ابنها وأطعمته معجون التُّفاح، وبعد أن أكله بدأ في التثاؤب فأعادته برفقٍ إلى السرير.

ارتدت "أن شويه أر" المعطف الأزرق ذا الزهور البيضاء، ومعه سروالاً قطنياً أزرق، وأبقت على دجاجة مُحَمَّرة ليأكلها "ماو بيان"، وحمّلت في يدها الدجاجة الأخرى مع الإوزة المحمّرة، وأغلقت باب الورشة وسارت في اتجاه معبد إله الأرض أعلى الجبل. لم تذهب إلى هذا المعبد ولو لمرةٍ واحدة منذ بنائه، والآن حين علمت بأن كُليّة والد "ماو بيان" لا تزال على قيد الحياة تضاربت في نفسها مشاعراً الفرح والحزن، وانتابها رغبةٌ عارمةٌ في الحديث مع إله الأرض. وعندما وصلت إلى منتصف الجبل، بدأت زهور الثلج في التّطاير في الهواء، وعندما وصلت إلى قِمة الجبل، كان الثلج يتراقص بجنونٍ ليملاً السماء، واكتسى أسفل الجبل باللون الأبيض. وعندما نظرت للأسفل وجدت الجبل أبيض اللون، والقرية بيضاء اللون، والأرض بها شريطٌ واحد فقط كُحليّ اللون، كان هذا هو نهر "جيلوا" الذي لم يتجمّد بعد، ولا يزال يُوزعُ بهاءه في كلّ الجهات، ويذيب الفراشات القادمة من السماء، كانت قِمة الجبل هادئة تماماً، ووسط الثلوج رأت "أن شويه أر" أشجارَ الصنوبر ينبعث منها لونها الأخضر الذي لا يذبل؛ لذا فقِمة الجبل تلك التي فيها الثلج الأبيض والصنوبر الأخضر تعيش في الشتاء، وتعيش أيضاً في فصل الربيع.

دَفَعَتْ "أن شويه أر" بابَ المعبدِ الخشبي، ودخلت معها رياح الشتاء وزهور الثلج. فوضعت الدجاجة والإوزة التي أحضرتهما "تشين ماي تشين" على المنضدة المخصصة لقرابين إله الأرض، وقالت: "يا سيّد الأرض، الجوُّ صار باردًا، لتأكل دجاجًا محمّرًا وإوزًا، لقد جيئتُك اليومَ في عَجَلَةٍ من أمري فنسيْتُ إحضارَ الخمر". عندها سمعت صوتَ سُعالٍ يأتي من خلف تمثال إله الأرض. فهل أُصيبَ سيّد الأرض بالبرد؟ فنظرت ثانيةً إلى التمثال فاكشفت فجأةً ظهور ظلِّ شخصٍ خلفه، كان هذا "دان شيا" الذي يرتدي ملابسَ كُرةِ زرقاء اللون.

اعتقدت "أن شويه أر" أن "دان شيا" لن يبقى لحراسةِ المعبدِ في هذا الجو؛ لذلك ابتسمت براحةٍ وهي تقول: "لديّ كلامٌ أقوله لسيّد الأرض على انفراد، خذ تلك الدجاجة المحمّرة وعُدْ إلى المنزل، تناولها مع أمك".

لكن "دان شيا" تقدّم نحوها ببُطءٍ وعلى وجهه ابتسامة، والتمعت أسنانه البيضاء الجميلة في ظلام المعبد. ولم يأخذ الدجاجة من على المنضدة، بل سار حتى وصل أمام "أن شويه أر"، واحتضنها فجأةً.

أحنى "دان شيا" رأسه وهو يحتضن "أن شويه أر" وظلّ يرتعش، ثم قرّب شفّتيه من شفّتيها، كانت لحيته الصغيرة المشعّرة مثل أوتار نسيها أحدهم لتعزف في تلك اللحظة مقطوعةً تُحرّك القلوب، فتجنّبته "أن شويه أر" وحاوَلت الفكاك منه بكلّ ما أوتيت من قوّة، لكن "دان شيا" كان شابًا بالغًا موفور القوّة، فكانت مقاومتها بلا أدنى تأثيرٍ، مثل نملّة تحاول إخضاع جبلٍ جليدي، ولم تُعدّ قادرةً على التملّص؛ فبغت متوسّلةً: "أفلتني يا "دان شيا"، لا تفعل هذا في أمّ طفلٍ بلا أب، كما أنّ سيّد الأرض يراك، وسيغضب إن لم تسمع الكلام، اتركني وسأشتري لك حلوى وملابسَ جديدةً وحذاءً جلدًا وقُبْعَةً ودُرّاجة، وإن لم تفعل فسأنحِتْ لك شاهدَ قبرٍ ليأخذك سيّد العالم الآخر".

لكن "دان شيا" لم يُطْعَمها، وأخيراً وَصَلَتْ شَفْتَاهُ إِلَى شَفَتَيْهَا، فَكَانَتْ قُبَلَاتُهُ لَهَا خَفِيفَةً مِثْلَ مِلْسَاتِ الْيَعْسُوبِ لَصَفْحَةِ الْمَاءِ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى قَوِيَّةً مِثْلَ مَوْجِ عَارِمٍ يَضْرِبُ الشَّاطِئِ، كَانَ يُقْبَلُهَا وَالْدَّمْعُ يَسِيلُ مِنْ عَيْنِيهِ وَهُوَ يُهَمِّمُ بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ، وَيَضْحَكُ بِفَرَحٍ.

وَلَمْ يَعُدْ أَمَامَ "أَنْ شَوِيهِ أَرْ" سِوَى أَنْ تَصْرُخَ بِصَوْتٍ عَالٍ طَلِبًا لِلنَّجْدَةِ فِي الْفَوَاصِلِ الْقَصِيرَةِ بَيْنَ قُبَلَاتِهِ: "يَا لِلسَّمَاءِ، لَقَدْ نَامَ سَيِّدُ الْأَرْضِ، أَغِيثُونِي، أُرِيدُ الْعُودَةَ لِلْبَيْتِ، "مَاو بِيَان" سِيَسْتِيْقِظُ، أَغِيثُونِي".

لكن مَنْ سِيَسْمَعُ نِدَاءً مِنْ وَسْطِ عَاصِفَةٍ مَلَأَتْ الْعَالَمَ وَالثَّلْجُ فِيهَا مِثْلَ رِيَشِ الْإَوْزِ؟

مكتبة  
t.me/soramnqraa

## الخاتمة

### كلُّ حكايةٍ وراءها ذكرياتٌ.

في أواخر أغسطس عام 2001 ذهبتُ أنا وزوجي إلى الريف، وفي قريةٍ صغيرةٍ على الحدود بين الصّين وروسيا صادفنا كهلاً. وسجّلتُ هذا اليوم في مُذكراتي كالتّالي: "دلفتُ إلى منزل فلاح، فرأيتُ كهلاً تجاوَزَ السّبعين، ملابسُه مُهترئةٌ ومنزلُه فقيرٌ، ويجلس على لوحٍ خشبيٍّ مُتطلّعاً إلى نهر "خايلونغ" الواقع في نهاية حديقة مَنْزله، وقال لي إنه مُحاربٌ قديمٌ، حاربَ هنا وهناك، وتحطّمت ثلاثة من أضلاعه في المعارك، وفقدَ نصفَ رِئَةٍ، ولا زالت في رِئَتِه حتى اليوم سَظيتا رصاصٍ لم تُستخرَجَا. ثم قال إنه في فترة الثورة الثقافيّة الكبرى تعرّضَ للتّوبيخ والانتقاد، وقال مَنْ ضربوه إن كُُلَّ مَنْ حاربوا استشهدوا، عودته حيّاً تعني أنّه جنديٌّ هاربٌ، وعندما وصل الكهل في حديثه إلى تلك النّقطة ارتعشَ غَضَبًا، ثم قال إن الحكومة تُدعمه كلّ شهر بمائة يوان فقط، لا تكفي حتّى الطّعام، حتى إنه اشترى بالأجل جوالاً أرزٍ منذُ بضعةٍ أيّام. كما اشتكتُ زوجةُ ابنه من هذا الوَضع، حيث لا يهتمُّ

به أحدٌ، وجاء صحفيٌّ لِعَمَلِ لِقَاءِ صَحْفِيٍّ مَعَهُ مِنْذُ بَضْعِ سِنَوَاتٍ، لَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ أَيُّ شَيْءٍ بَعْدَ رَحِيلِهِ. فَشَعَرْتُ بِالْحِزْنِ مِنْ أَجْلِهِ، رَجُلٌ مُحَارِبٌ مِثْلَهُ لَا يَجِبُ أَنْ يَصْبِحَ هَذَا مَصِيرَهُ، فَأَعْطَيْتُهُ بَعْضَ النُّقُودِ، لَكِنَّهُ رَفَضَهَا بِتَصْمِيمٍ، قَائِلًا إِنَّ الزَّعِيمَ "مَآو" عَلَّمَنَا أَلَّا نَأْخُذَ مِنَ الْعَامَّةِ وَلَوْ إِبْرَةَ أَوْ خَيْطًا، فَقُلْتُ إِنَّ هَذِهِ فَقَطْ نَقُودٌ كِي تَشْتَرِيَ بِهَا جِوَالًا مِنَ الْأُرْزِ، حِينَهَا قَبِلَ النُّقُودَ بَعَيْنَيْنِ أَغْرَقَهُمَا الدَّمْعُ".

أذْكَرُ أَنَّهُ بَعْدَ الْعُودَةِ مِنْ هُنَاكَ اتَّصَلَ زَوْجِي بِصَدِيقِهِ الْمَسْئُولِ فِي الْمَحَافِظَةِ التَّابِعَةِ لَهَا تِلْكَ الْقَرْيَةِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَهْتَمَّ بِحَالَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ. بَعْدَهَا بِفِتْرَةٍ أَخْبَرَنِي أَنَّ هُنَاكَ تَقَدُّمًا فِي الْمَوْضُوعِ. لَكِنْ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ تُوُفِّيَ فِي حَادِثِ سَيَّارَةٍ أثنَاءَ عَوْدَتِهِ لِمَسْقَطِ رَأْسِهِ، وَوَدَّعَنِي لِلأَبَدِ، وَهَكَذَا تَجَمَّدَتِ كُلُّ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِزَوْجِي فِي ذَلِكَ الرَّبِيعِ الْقَارِسِ، إِلَى أَنْ سَمِعْتُ مِنْذُ بَضْعِ سِنَوَاتٍ أَنَّ جُنْدِيًّا شَابًّا فِي إِحْدَى الْوَحْدَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ غَرِقَ أثنَاءَ مُصَاحَبَتِهِ لضيوفِ قَائِدِهِ، وَفِي النِّهَايَةِ تَمَّ عَتَبَارُهُ بَطَلًا لِاسْتِشْهَادِهِ أثنَاءَ إِنْقَازِ أَحَدِ الْعَامَّةِ الَّذِينَ سَقَطُوا فِي الْمَاءِ، تِلْكَ الْقِصَّةُ أَيْقَظَتْ ذِكْرِيَاتِي حَوْلَ ذَلِكَ الْكَهْلِ، وَأَيْقَظَتْ أَيْضًا عِنَاصِرَ بَعْضِ الْقِصَصِ الَّتِي تَرَسَّبَتْ فِي عَقْلِي.

وَخِلَالَ الْعَشْرِينَ عَامًا تِلْكَ الَّتِي غَابَ فِيهَا زَوْجِي، كُنْتُ أَعُودُ فِي كُلِّ شِتَاءٍ وَكُلِّ صَيْفٍ إِلَى مَسْقَطِ الرَّأْسِ هَذَا، الَّذِي يَجْلِبُ لِي مَشَاعِرَ جَمِيلَةٍ، وَيَجْلِبُ لِي أَيْضًا مَشَاعِرَ مُؤَلِّمَةٍ؛ فَهِنَاكَ أَقَارِبِي الَّذِينَ أَحْبَبْتُهُمْ، وَهِنَاكَ أَيْضًا الطَّبِيعَةُ الَّتِي أَهْيَمَ بِهَا، وَهِنَاكَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَسْتَشْعِرَ بَعْمَقِ الْهَزَّاتِ وَالصَّدْمَاتِ الَّتِي أَحَدَّثَهَا تَطْبِيقُ اللَّوَاتِحِ وَالتَّعْلِيمَاتِ الْجَدِيدَةِ النَّاتِجَةِ عَنِ الْإِصْلَاحَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ.

فَمَثَلًا فِي بَدَايَةِ بِنَاءِ الْمَحَارِقِ، بَدَأَ الْكَثِيرُ مِنْ كِبَارِ السَّنِّ فِي الْقَلْقِ بِشَأْنِ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الْعَادَاتِ فِي الرَّيْفِ أَنْ يُجَهَّزَ كُلُّ مَنْ تَجَاوَزَ السَّبْعِينَ مِنَ الْعُمَرِ لِنَفْسِهِ تَابُوتًا، لَكِنْ مِدْخَنَةُ الْمَحْرَقَةِ إِنْ بَدَأَتْ فِي لَفْظِ الدُّخَانِ

فسيُمكن لِكِبَارِ السَّنِّ الرَّحِيلُ، ولكن دون أن يأخذوا التَّابُوتَ معهم. ولا زِلْتُ أذكر أن قَرَارَ الحَرَقِ تَمَّ تَفْعِيلُهُ فِي الأوَّلِ من أكتوبر من ذلك العام، وقبل هذا التَّارِيخِ قامَ مُوظَّفُو الأحوَالِ المَدَنِيَّةِ بِحَضْرٍ لمن شارفوا على الموتِ من كبار السَّنِّ، وأخبروا أقاربَهُم أن كُلَّ مَنْ سيموت بعدَ هذا التاريخِ سيُحرقُ؛ لذا يَجِبُ عليهم التَّخْلُصُ من التَّابُوتِ أو تسليمه لِيَتَمَّ حَرَقُ التَّوَابِيَتِ كُلِّهَا مَرَّةً وَاحِدَةً. ودخَلتُ أمُّ رُوحِ أختي في غيبوبةٍ استمرَّتْ لأَيَّامٍ طويِلةً؛ نَتِيجَةً لِقُصُورٍ حَادَّةٍ فِي وِظَائِفِ الرُّتَّةِ، وَأَصْبَحَتِ تَعْتَمِدُ عَلَى الأكْسِجِينِ للإبقاء على حياتها الضعيفة، واعتقدتُ كُلُّ الأَطْبَاءِ أَنَّهَا لن تعيشَ إلى ما بعد شهر سبتمبر، وصنعتُ أَسْرَتَهَا تابوتًا من أجْلِهَا، لكنها تَابَرَتِ بِعِنَادٍ حَتَّى يَوْمِ الأوَّلِ من أكتوبر، لتُصْبِحَ أوَّلَ مَنْ تُحْرَقُ فِي تلكِ المَدِينَةِ الصَّغِيرَةِ، وَفَقَطَ لِأَنَّهَا عَاشَتِ يَوْمًا وَاحِدًا زِيَادَةً؛ تَوَجَّبَ تَقْطِيعُ تابوتها وتحويله لِحَطَبٍ؛ مِمَّا أوجع قلوبَ أبنائها وبناتها، وكان المُشَيِّعُونَ لها في ذلكِ اليَوْمِ كَثِيرِينَ، والتفَّ النَّاسُ حَوْلَ فُرنِ حَرَقِ الجُثَّتِ رَغْبَةً فِي رُؤْيَةِ كَيْفَ تُحْرَقُ الجُثَّتِ، فَذَلِكَ المَكَانُ سَيَكُونُ مَثْوَاهُمْ الأَخِيرَ. وَاِنْتَابَ الخَوْفُ كِبَارَ السَّنِّ الَّذِينَ عَاشُوا مَا بَعْدَ هَذَا اليَوْمِ مِنْ فِكْرَةٍ أَنَّهُمْ سَيُوضَعُونَ يَوْمًا فِي عُلْبَةِ الرَّمَادِ، فَكَانَتِ جَدَّتِي عِنْدَمَا كَانَتْ لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ يَنْعَقِدُ لِسَانِهَا إِذَا مَا ذُكِرَ مَوْضِعُ حَرَقِ الجُثَّتِ أَمَامَهَا، ثُمَّ تَلُومُ عَلَى نَفْسِهَا أَنَّهَا عَاشَتِ طَوِيلًا؛ فَالَّذِينَ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِ تَابُوتٍ مَعَهَا وَهِيَ ذَاهِبَةٌ لِلِقَاءِ جَدِّي.

كما أثار تَغْيِيرُ طَرِيقَةِ الإِعْدَامِ مِنَ الرَّمْيِ بِالرِّصَاصِ إِلَى الحُقْفَةِ السَّامَةِ جَدَلًا وَاسِعًا بَيْنَ العَامَّةِ، فَهناك مَنْ قَالَ إِنَّ المَحْكُومِينَ بِالإِعْدَامِ لو ماتوا بِطَرِيقَةِ مُرِيحَةٍ دُونَ الحَاجَةِ لِتَلْقَى الرِّصَاصِ، أَلَنْ يَزِيدَ هَذَا مِنَ القَتْلَةِ؟ وَعِنْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّ القِصَصَ الَّتِي تَحْدُثُ فِي سَاحَاتِ الإِعْدَامِ بَيْنَ الجِبَالِ عَلَى وَشَكِّ الاختفاء، ذَهَبْتُ خِصِيصًا لِعَقْدِ لِقَاءِ صَحْفِيٍّ مَعَ مُنْقِذِي أَحْكَامِ إِعْدَامِ قُدَامِي عِنْدَمَا عُدْتُ لِبلَدِي لِقَضَاءِ العَامِ

الجديد، تلك القِصصُ الدافئةُ الملتصقةُ بالموت - والتي خرجت من أفواههم - كانت مؤثرةً للغاية. لكنَّ أُمِّي "مَمَصَّتْ" شَفَتَيْهَا وَقَتَّهَا، وقالت إننا نستعدُّ لقضاءِ العامِ الجديد، لماذا تعقدين لقاءً صحفياً حولَ قَتْلِ النَّاسِ؟

إنَّ القِصصَ التي أنتجها عَصْرٌ يَتَغَيَّرُ بِسُرْعَةِ البرقِ هي قِصصٌ كثيرةٌ وطازجةٌ ومُتتاليةٌ ولا تتوقَّف. إن ما جَمَعْتُهُ من عناصرٍ أدبيَّةٍ حولَ مَسْقَطِ رأسي، مع "الجُنديِّ الهارب" الذي رأيته، وأساطير "الأبطال" التي سَمِعْتُهَا، كلها امتزجت لتكون النَّمطَ الأساسيَّ لتلك الرواية.

ما هو الشَّكلُ المُناسبُ للدُّخولِ في مثل هذا العَمَلِ الأدبيِّ الذي يَسرِدُ الحاضرَ ويمتزجُ أيضًا مع بعضٍ من التاريخ؟ لقد فُكِّرْتُ في السَّرْدِ العكسيِّ، أي أنَّ كُلَّ فَصَلٍ به استرجاعٌ للذِّكريات؛ فِهَذَا الشَّكْلُ سَيَسْهُلُ عَلَيَّ سَرْدُ القِصصِ، وستسهلُ على القارئِ القراءةَ.

وكلُّ الشَّخصيَّاتِ التي اقتحمت تلك الرواية لها قِصَّة، ومنهم - على سبيلِ المِثالِ - "أن شويه أر". ففي قَرْيَةٍ جبليَّةٍ لا تَبْعُدُ كثيرًا عن القريَّةِ التي عِشْتُ فيها طفولتي كان هناك قِرْمَةٌ مثلها، وكانت في كلِّ مَرَّةٍ تظهر فيها في قريتنا هو عيدٌ لكلِّ الأطفال، فنهَرَ عَ لِرُؤْيَيْهَا، بِغَضِّ النظر عن أيِّ مَنزِلٍ دَخَلْتَهُ. كانت في طولِ طفلٍ في الخامسة أو السادسة، لكنَّ وجهها كان وَجَهَ بِالِغِ، وتحدَّثت مثل البالغين، وهذا جعلنا نَشْعُرُ بالاندهاش والغرابَّة، واعتبارها ضيفًا قادمًا من السَّماءِ، وفيما بَعْدُ تَزَوَّجَتْ وَأَنْجَبَتْ. وَاتَّخَذَتْ مِنْهَا مُخَطَّطًا في روايتي للنَّاشِئَةِ "طيور ساخنة"، وَرَسَمْتُهَا فَتاةً أَشْبَهَ بِالِجِنِّ. رُجْمًا كُنْتُ وَقَتَّهَا لا زِلْتُ شَابَّةً؛ لَذا صَوَّرْتُهَا كَأَنَّهَا مَلَائِكَةٌ لا تَشوْبُهُ أَيُّ شَائِبَةٍ، لكنَّ الحِياةَ في الواقِعِ لَيسَتْ شِعْرًا كَتَبَهُ الرَّبُّ، وإِنَّمَا هي ضِحكاتٌ ودُموعُ الفانين؛ لذلك جَعَلْتُهَا في تلك الرواية تعود من مَكَانَةِ الجِنِّ السَّامِيَّةِ إلى عَالَمِنَا الفاني؛ لكي أَعوِّضَ هذا النُقْصَ والأسى.

ومثال آخر، هو "شين تشي زا". كان في مدينتنا الصغيرة مُسِنَّ ببيع الخضار، وكانت أَسْرَتُنَا دَائِمًا ما تشتري الخُضَارَ الذي يزرعه، وفي إحدى السَّنَوَاتِ جاء إلى منزلنا وسألنا كم نُريدُ من البطاطس واللُّقْمَ والملفوف الصيني كي نُخزِنَها خلالَ الشتاء كي يَصَّعَ هذا في حُسبانِه وهو يَزْرَع. كانت بَشْرَتُهُ مُسَوَّدَةً، وقد أَطْلَقَ لِحَيَّتِه، وملاً الطَّيْنُ سِرْوَالَه وَجِذَاءَه، لكنَّ وَجْهَه كان نظيفًا، وكانت الشَّمْسُ ساطِعَةً في ذلك اليوم، ووَقَّفَ هو في الفِئَاءِ يتحدَّثُ ويتحدَّثُ، وفجأةً أخرجَ من خَاصِرَتِه غليونًا، وأخرجَ من جِيْبِه عَدَسَةً مُحَدَّبَةً وَجْهَهَا ناحيةَ الشَّمْسِ، ثم أخرجَ من الجيب الآخر وَرِيْقَةً وَضَعَهَا تحت العَدَسَةَ، وفي لحظاتٍ اشتعلت نيرانُ الشَّمْسِ، فأشعلَ بها غليونَه، ووقفَ يَدْخُنُه، وحين سألتُه لماذا لا يستخدم القَدَّاحَةَ أو أعوادِ الثقبِ، مطَّ شَفْتِيَه وقال إن الحمقى فقط هُم مَن يُنْفِقون المالَ لِشراءِ النَّارِ بينما هُنَاكَ نارٌ مَجَانِيَّةٌ في السَّمَاءِ، بالإضافة إلى أن التَّبَعُ المُشْتَعِلَ باستخدام الشَّمْسِ طَعْمُه جيّد؛ لذلك جعلتُ "شين تشي زا" يَطْلُ بِوَجْهِه في بداية الرواية بتلك الطريقة.

وما إن هَلَّ "شين تشي زا"، حتَّى دبَّت الحياةُ في الرواية، وتوالى دُخُولُ باقي الشَّخْصِيَّاتِ التي أبدعتها بشكلٍ طبيعيٍّ، وهكذا بدأت سيمفونيةُ أقدارِ الحُبِّ والألمِ، والمنولوجِ الرُّوحيِّ للجريمة والتطهُّرِ بقرية "لونغ تشان" الواقعة في أعالي الجبالِ تُصاحِبُنِي في كُلِّ صباحٍ ومساءٍ من أيَّامِ الكِتَابَةِ، وكان هذا بالنُّسبة لي سَعَادَةً بلا كلماتٍ، وأيضًا عذابًا للقلب والجَسَدِ.

إنَّ الانكفاء على طاولة الكتابة لثلاثين عامًا قد جعلَ عمودي الفقريِّ مثل الشَّجَرَةِ المُنْحَنِيَّةِ، وهذا جَلَبَ لكتاباتي مصاعبَ آلامِ المرضِ، بالإضافة إلى ظُهورِ مبادئِ سِنِّ اليأسِ؛ ممَّا ملاً قلبي بالوَحْشَةِ، وأصبحتُ أشعرُ دَائِمًا بَعْدَمِ الرَّاحَةِ؛ لذلك استغرقتُ كتابَةَ هذه الرواية ما يقاربَ العَاصِمِينَ، تَخَلَّلَهُمَا انقطاعان عن الكِتَابَةِ بِسَبَبِ دُوارٍ شديدٍ.



وأذكر أنني عندما وصلتُ في الكتابة إلى "أنشودة أبطال نهر جيلوا" في صيف العام الماضي، كنتُ وقتها في الريف، وذات صباح شعرتُ بدوار شديد لم أستطع معه النهوض، حتى إن أفراد عائلتي أصابهم الفزعُ لما رأوني على هذه الحالة، ولم يسمحوا لي بالاستمرار في الكتابة، قائلين إن حياتي أهمُّ أم الرواية أهم؟ وعندما رقدتُ في الفراش لأستعيد صحتي ونظرتُ إلى السماء الصافية خارج النافذة، فكُرتُ لماذا يعيش عالمي في صقيعٍ وثلوجٍ بينما العالمُ به ضوءُ الشمس الدافئ هذا؟ فشعرتُ بحُزنٍ شديد، وفكُرتُ في أن الشخصيات المتواضعة في الرواية، رغم أنهم يحملون قلوبًا مُحطمةً إلا أنهم اجتهدوا للعيش مثل البشر، كم كان هذا صعبًا! وأثناء فترة مَرَضِي، أخذتُ تلك الشخصيات التي أكتبها "راحةً" هي الأخرى معي؛ فصار بإمكانني أن أهضم حلاوتها ومرارها بصورةٍ أدق.

وبدايةً من رواية "تحت الشجرة"، وعبر أكثر من عشرين عامًا، لم أستطع منع نفسي من الارتداء في أحضان كتابة الروايات الطويلة في نفس الوقت الذي استمررتُ فيه في كتابة القصص المتوسطة والقصيرة: "منشوريا المزيّفة"، "الإشراق الذي يخترق السحاب"، "الرُبُع الأخير من القمر"، و"الثلج والغربان"، وغيرها... كلها كانت نتاج تلك الأحضان. وهناك بعضُ الكُتاب الذين يخشون من يومٍ ينضب فيه إبداعهم، أمّا أنا فلا؛ فمع الانتهاء من تلك الرواية تجاوزتُ عامي الخمسين، فالحياءُ والشخصياتُ التي يُمكن أن أكتبها لا تزال ثريةً، ورغم أن الربيع قد فارَقَ ملامحَ وجهي وترك لي شعرًا أبيضَ يزدادُ مع الوقت، وتجاعيدَ تزدادُ عمقًا مع الوقت أيضًا، لكن ربيع الأدب ظل ملتصقًا بي لا يفارقني.

وتختلف تلك الرواية عن الروايات الأخرى في أنني لم أشعرُ بحملٍ انزاح عن كاهلي بعد الانتهاء من كتابتها، بل شعرتُ بمشاعرٍ مُتضاربة، وظللتُ راغبةً في الاستمرار في الحكي، هذا الحكي

لم يَكُنْ مُوجَّهًا لشخصيةٍ بعينها في العمل، بل يبدو أنه مُوجَّهٌ لمناظر الطبيعية، مثل الثلج الذي يملأ السماء، أو الشمس والقمر اللذين لا يفارقاننا، أو الأنهار والجبال الخالدة. ولكن ربما لم يَكُنْ هذا بسبب المناظر الطبيعية، وإنما كان بسبب خَواءٍ لا يُعرَفُ له سَبَبٌ وحُزْنٌ يَنخرُ العظام؛ لذلك عندما وَصَلْتُ في الكِتَابَةِ إلى آخر جُمْلَةٍ في الرواية، وهي: "كُنْ مَنْ سَيَسْمَعُ نِدَاءً مِنْ وَسْطِ عَاصِفَةٍ مَلَأَتِ الْعَالَمَ وَالثَّلْجُ فِيهَا مِثْلَ رِيَشِ الْإِوَزِ؟"، كان قلبي يرتجف.

إن الانتهاء من كتابة مُسَوِّدَةٍ تلك الرواية لم يَعِنِ أَبَدًا كِتَابَةَ نُقْطَةِ النِّهَايَةِ لها. فَالْقَدِ أَرْسَلْتُ الْمُسَوِّدَةَ إِلَى مَجَلَّةِ "الْحِصَادِ" الَّتِي أَحْبَبْتُهَا كَثِيرًا، وَإِلَى "يَانِغْ لِيُو" مِنْ دَارِ نَشْرِ "أَدَبِ الشَّعْبِ"، وَإِلَى "دُو هَان" مِنْ شَرِكَةِ "جِيُو جِيُو" لِلْقُرَّاءِ. وَانْتَهَتْ "يَانِغْ لِيُو" مِنْ قِرَاءَتِهَا أَوَّلًا، وَأَثْنَتْ عَلَيْهَا؛ مِمَّا مَنَحَنِي بَعْضَ مِنَ الثِّقَةِ وَالاطْمَئِنَانِ، بَعْدَهَا تَبِعَتْهَا "دُو هَان" الَّتِي أَحَبَّتِ الْجَوَّ الْعَامَ لِتِلْكَ الرِّوَايَةِ، وَظَلَلْتُ بَعْدَهَا فِي انْتِظَارِ رَأْيِ "الْحِصَادِ"، وَكَانَ الْمُحَرَّرُ "تَشِينِغْ يُونِغْ شِين" مَشْغُولًا لِلغَايَةِ؛ فَلَمْ يَجِدْ وَقْتًا إِلَّا فِي إِجَازَةٍ مُنْتَصَفِ الْخَرِيفِ لِكِي يُرْكَزُ فِي الْانْتِهَاءِ مِنْ قِرَاءَتِهَا، وَكَتَبَ لِي فِي رِسَالَتِهِ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ: "لَقَدْ خَلَقْتَ رَوَايَتِكَ عَالَمًا صِينِيًّا مُتَفَرِّدًا وَمُعَقَّدًا وَغَرِيبًا، وَمَلِيئًا بِالْجَازِبِيَّةِ وَالْجَمَالِ"، وَبِسَبَبِ تِلْكَ الْجُمْلَةِ شَعَرْتُ أَنَّ كُلَّ مَا بَدَلْتُهُ يَسْتَحِقُّ. وَكَانَ آخِرُ مَنْ قَرَأَ الرِّوَايَةَ قَبْلَ نَشْرِهَا هُوَ الْأَسْتَاذَةُ "لِي شِيَاو لِين"، وَهِيَ الْمُحَرَّرَةُ الَّتِي أُكِنُّ لَهَا كُلَّ احْتِرَامٍ، وَأَيْضًا هِيَ صَدِيقَةٌ مُقَرَّبَةٌ مِنَ الْقَلْبِ، وَحِسُّهَا الْفَنِّيُّ مُرَهَفٌ لِلغَايَةِ. وَبَعْدَ أَنْ قَرَأْتُ الْعَمَلَ تَحَدَّثْتُ مَعِي فِي مُكَالِمَةٍ طَوِيلَةٍ، لَقَدْ اسْتَمْتَعْتُ بِالرِّوَايَةِ، وَلَكِنَّهَا أَبَدَتْ رَأْيًا لَامِعًا عَلَى أَحَدِ فُصُولِهَا، وَهَكَذَا قُمْتُ وَفَقًّا لِرَأْيِهَا مَعَ رَأْيِي بِتَعْدِيلِ الْمُسَوِّدَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً فِي شَهْرِ أَكْتُوبَرِ، وَأَخِيرًا وَصَلْتُ لِلْمُسَوِّدَةِ النِّهَايَّةِ مَعَ صَوْتِ تَسَاقُطِ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ.

ورغم هذا أعلم أن تلك الرواية ليست كاملة الأوصاف؛ فالقِصصُ في الأصل هي فنُّ الأسى، ولكن عدم الكمال هذا هو القُوَّة المُحرِّكة للانطلاق القادِمة.

فدعوني في حَريفِ عامي الخمسين أنهي رحلة "أجنحة جبل التَّين" بقصيدةٍ من الشُّعر:

"لولا حَرَكَةُ القِشْرَةِ الأَرْضِيَّةِ من ملايين السنين

لَمَا تَدَمَّرَتِ وَبُنِيَتِ الصُّخُورُ من جديد

ولَمَا عَشْنَا أَيَّامًا زَاهِيَةً

نتنَفَّسُ فيها مع الجِبَالِ والغابات

التَّصَادُمُ والضُّغْطُ

وَهَبًا للأَرْضِ أَجْنَحَةَ الجِبَالِ

وَحَلَقًا لها رَواسِيهَا العالِيَاتِ

رُبَّمَا لم تَكُنْ هناك أَبَدًا قِمَّةً للجِبَالِ

فَفَوْقَ الجِبَالِ يوجَدُ السَّحَابُ

وفوق السَّحَابِ يوجَدُ القَمَرُ

وخلَفَ القَمَرِ يوجَدُ العُبارُ الكَوْنِيُّ

وداخِلَ العُبارِ الكَوْنِيُّ

مِيَاهُ مُتجمِّدَةٌ

وصُخُورٌ مُلتَهَبَةٌ

ونُجُومٌ من عوالمٍ أُخرى مَجْهُولَةٌ

وفي أَعْيُنِ النُّجُومِ

حُبُّ وَحُزْنٌ بِلَا اسْمٍ  
فَلَوْ كَانَتْ الرُّوحُ قَادِرَةً عَلَى صُنْعِ قَوْسِ قُرْزَحٍ  
لَتَمَنَيْتُ أَنْ يُكَبَّلَ كُلُّ الأَشْرَارِ  
وَلَوْ كَانَتْ الرُّوحُ قَادِرَةً عَلَى الغِنَاءِ  
لَتَمَنَيْتُ أَنْ تَصَدَّحَ عِبْرَ الجِبَالِ وَالمِيَاهِ  
لَقَدْ رَأَيْتُ  
أَمَّا مَا لَا أَرَاهُ

فَرُبَّمَا كَانَتْ خَلَفَهُ بِحَارٌ فِضِيَّةٌ  
وَرُبَّمَا كَانَتْ جِبَالًا تَكْسُوهَا أَشْجَارٌ أُسْطُورِيَّةٌ  
وَرُبَّمَا كَانَ نَهْرٌ زَمَنٍ يَجْرِي بِالعَكْسِ  
وَرُبَّمَا كَانَ طِينًا مُلُونًا مُمْتَدًّا بِلَا حُدُودٍ  
فَدَاخَلَ القَلْبِ وَخَارِجَ الجَسَدِ  
وَفِي السَّمَاءِ وَفِي عَالَمِ البَشَرِ  
تَلْتَمِعُ نَفْسٌ ظِلَالِ الأَزْهَارِ  
وَيَزْدَهَرُ مَحْصُولُ نَفْسِ الغِلَالِ".

تشيه تزيه جيان

هارين

18 أكتوبر 2014

مكتبة

t.me/soramnqraa



## نبذة عن المؤلفة

"تشيه تزيه جيان"

واحدة من أشهر الكاتبات المعاصرات في الصين، وُلدت بمقاطعة هيلونغجيانغ عام 1964. وهي عضو اتحاد الكتاب الصينيين، وعضو اللجنتين الوطنيتين: السادسة والسابعة لاتحاد الكتاب الصينيين، وعضو هيئة الرئاسة التاسعة لاتحاد الكتاب الصينيين، ونائب رئيس اللجنة الوطنية العاشرة لاتحاد الكتاب الصينيين. حائزة على عدّة جوائز أدبية مرموقة في الصين، منها: جائزة لوشون للأدب عام 1996 وجائزة ماودوين للأدب عام 2009 وهما أرفع الجوائز الأدبية الصينية، وفي سبتمبر 2019 اختيرت روايتها "الضفة اليمنى لنهر أرجون" ضمن قائمة "أفضل 70 رواية في 70 عامًا من الصين الجديدة". تلك الرواية تُرجمت إلى اللغة العربية تحت عنوان "الربع الأخير من القمر"، وفي عام 2021 انتُخبت الكاتبة عضوًا باللجنة الوطنية العاشرة لاتحاد الكتاب الصينيين. تتميز كتاباتها بالسلاسة والاسترسال في وصف الطبيعة وعلاقة البشر بها، خاصّة الأقليات ومناطق معيشتهم في الصين؛ ممّا جعل أعمالها نافذة تُطلُّ على أسلوب معيشة الأقليات في الصين وطبيعة حياتهم.

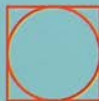
telegram @soramnqraa

## أجنحة جبل التنيد

في العادة، كان مُنْفَذو الأحكام يَلْبُون الأُمْنِيَات الأَخِيرَةَ للمحكومين؛ لذا وقف هذا الشاب وظهره لحفرة الرمال، ووجهه لمُنْفَذِي حُكْم الإعدام. ويبدو أن وجهه المبتسم قد أصاب الرصاص بالقشعريرة، وطاشت رصاصاً مُنْفَذِ الأحكام الواقف بجوار "أن بينغ". فمازحه الشاب قائلاً أن لا لوم عليه، ربما ظلم الرصاص بالتحليق في السَّحْب، ثم التفت إلى "أن بينغ" وقال: "عمّاه، لو استطعت أن تعدمني بشكل جيّد ونظيف دون أن تفسد ملامحي، سأبعث على هيئة طائر لأُعْنِي لك طوال الطريق"، فأوماً "أن بينغ" برأسه موافقاً، وطلب منه أن يفتح فمه قليلاً، وفي اللحظة التي فتح فيها الشاب فمه، ضغط "أن بينغ" على الزناد، فمرّقت الرصاصة من بين أسنانه بسلاسة كالرياح التي تمرّ عبر مضيق جبليّ.



ISBN 978-977-513-928-5



希克迈特文化  
بيت الحكمة للثقافة

المحرقة